آذان

الأ نـــــــعـــــــام

دراسة قرآنية علمية لنظرية داروين فى الخلق والتطور

تأليف

دكتور: عمـاد محـمـد بابـكر حـسـن

بالإشتراك مع:

مهندس: علاء الدين محمد بابكر حسن

الطبعة الاولى: دار عزة للنشر ، الخرطوم فى فبراير 2007

الطبعة الثانية: اوثر هاوس، لندن- الولايات المتحدة الامريكية، اغسطس 2007

هذه النسخة منقحة بعد نشر النظرية فى ملتقى أهل التأويـــــــــــل

http://www.attaweel.com/vb/index.php

إهــــــــــــــــــــــــــداء

الى روح القسيس الذى اعتنق الاسلام وهو فى الثانى والستين من عمره يوم الاثنين 27 يونيو
ولقى ربه يوم الجمعة 19 اغسطس 2005

Terence Sidney Casey

15 th December 1943 -19 th August 2005

www.shajaracode.com

{... وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ}

المائـدة 82-85

نتقدم بالشكر أجزله الى دكـتور:

هـشـام عـمـر مـحـمـد عـمـر

رئيس قسم الشريعة الإسلامية – كلية القانون بجامعة جوبا بالسودان، على قراءته للكتاب فى مرحلته الاولية، وعلى ملاحظاته القيمة.

كما نشكر استاذ اللغة العربية:

بشـير عمـر بـشـير بجامعة جـوبا، على مراجعته للغة هذا الكتاب.

هذا الكتاب يطرح:

نظـرية آذان الأنـعام فى الخلق والتطور

{قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 20 العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

قصة هذا الكتاب:

لما اخترنا اسم "آذان الأنعام" ليكون عنوانا لهذا الكتاب الذى يناقش قضايا غامضة وخطيرة فى عقيدة الإنسان وتاريخ البشر، لم يكن يخفى علينا أن بعض الأنفس ربما تستغرب من كتاب يُقدم اليه بإسمٍ لا يصف إلا أدنى حيوانات بهائم، يسخرها الإنسان لمصلحته كيف يشاء ويقتلها كيف يشاء! ولعل كثيراً من الناس لا يعلمون أنّه لما نزلت سورة الأنعام، وهى من طوال السور التى نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة، خرّ النبى ساجدا لله من رهبة ما احتوت عليه من أسرار الكونِ والخلق والخالقْ. ولعله من حِكَمِ الله تعالى، أن العقل البشرى عندما يعتادُ على شئ يفقد القدرة على تذوقه سلباً أو ايجاباً، وهكذا كثيرا ما نتعامل مع القرآن إن لم نتدبره كل يوم، لنكتشف فيه سراً جديداً يجدد نشاطنا وانفعالنا معه. فسورة الأنعام ما عادت تلفت انتباهنا لنتدبر آذان الانعام، وسورة البقرة نمر عليها مرور الكرام، لا نكاد نسأل أنفسنا: ما سر البقرة تلك؟ ورغم أن كثيرا من الناس يعلمون إنها تحكى قصة بقرة بنى إسرائيل، إلّا أننا لا نسأل عن السر فى بقرة بنى إسرائيل تلك، رغم أن الله أفرد لها أطول سورة فى القرآن تخلد قصتها إلى يوم يقوم الأنام! فضلا عن ان الله قد جعل كل معجزات موسى تتحقق بعصاه فلما جاءت معجزة إحياء الموتى كانت من نصيب جزء من البقرة: {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِى اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} 73 البقرة!

تمر الإنسانية اليوم باحتقانٍ فكرى واجتماعى وأخلاقى وبالتالى سياسى رهيب، لا يدرى ما قد يؤدى إليه الانفجار بعد الاحتقان الا الله تعالى. قبل عشر سنوات فقط كانت كل أمة تعيش فى عالمها إلّا قليلاً، قانعينَ بحظِهِم فيمَا آتاهم اللهُ، يظنون أن الدنيا كلّها فى ظلامٍ إذا ادلهمّ الليلُ، أو كلها حرٌ إذا قاظتِ الشمسُ، أو كلها جليدٌ إذا غضِبَتِ الطبيعةُ، ولكنِ اليوم، فمعظم الناسِ يتنقلون فى بيوتهم من أقاصى الغرب إلى أقاصى الشرق، فقط بالضغط على زر التحكم الآلى فى جهاز التليفزيون والفضائيات التى أصبحت معلّم البشرية الأول، فلا تدرى أمٌّ ماذا يتعلم أبناؤها وهم فى عقر دارهم، ولا يدرى أبٌ كيف يسد أبواب بيته عن هذا العالم الذى يلازم أطفاله فى غرفهم! هذا التداخل بين الأمم لن يؤدى الى تبادلٍ ثقافى فقط، ولكن إلى زوال أفكارٍ ومعتقدات ما كان لها أن تسود عبر العصور، إلّا لأن معتنقيها ما وجدوا غيرها، وأنها ما كان لها أن تسود إلّا فى مجتمع ذى مواصفات ضيقة و محددة. مما لا شك فيه أن العولمة الإعلامية، والتطور الهائل فى تكنلوجيا الاتصالات الذى فاق قدرة الإنسان العادى على التأقلُم بمراحل كثيرة، بدأ يهدم كثيرًا من تلك

الأفكار والمعتقدات التى تفتقد القدرة على الصمود فى وجه خيارات كثيرة بديلة، أكثر إقناعا للعقل، أو أكثر إثارة للشهوات ونقاط ضعف الانسان، وبالتالى فإن للعولمة ضحاياها هنا وهناك، فى الجوانب الفكرية والاجتماعية والاخلاقية. أما فى الجانب العقائدى، فإن الواقع اليوم يؤكد لنا أن أمة الاسلام قد حصَّنها الله بعقيدة تخاطب العقل قبل العاطفة، وتصف أسرار الكون وليس الجزيرة العربية، وتخاطب بنى آدم وليس بنى إسماعيل، وتربط الماضى بالحاضر والمستقبل، مما يجعل الإسلام أقدر الحضارات على الصمودِ فى وجه العولمة، وأكثرها قدرة على اختراق غيرها!

ولعل القرآن الذى جعله الله تعالى كتاباً ينطقُ بالحقِّ، ما كان لأحدٍ أن يتحداه، إلَّا إذا استوفى ذلك الشخص مواصفاتِ الكمال لتحديه، ولا كمال إلَّا لله، وذلك بأن يكون أولا عالما فى كل جوانب المعرفة من أحياء وفيزياء وكيمياء وفلكٍ وتاريخ وعلم نفس وغيرها من العلوم، التى تشكل ناموس الكون الذى قدَّره الله فى خلقه للكون بأسره. فكتاب الله وهو المنزل من عند خالق الكون يناقش كل شئ فى خلقه، و من جمع قدرا من تلك العلوم ودرس كتاب الله لا بد وأن ينتهى به الأمر الى الإسلام، لذلك فالإسلام ينتشر فى صمت وبتدبيرٍ من خالق الكون، فى فراغات الحضارات التى تهوى من وراء الكواليس! العولمة جسر بناه الغربيون لينقلوا عليه حضارتهم إلى كل العالم، فشاء الله أن تنتقل عليه عقيدة الإسلام إليهم رغم سلبية المسلمين! فالإسلام لا ينتشر من حسن أداء المسلمين، إذ أنهم غثاء كغثاء السيل، ولو كان للاسلامِ اليومَ عيبٌ فعيبه الأول فى جهلِ وحماقةِ وضعفِ وذلِّ بنيه، الذين لا يعرفون من الإسلامِ إلَّا اسمُه، ومن القرآنِ إلَّا رسمه، حيث أصبح القرآن عند كثير من المسلمين كالوثن يقدِّسون صفحاته، ويكثرون من تقبيله، وينفضون عنه الغبارَ كل يومٍ، ولكن قلَّما ينفضون الغبار الذى ران على قلوبهم وعقولهم، وهم يجهلون معظم ما يحويه القرآن من علومٍ وحِكَمٍ وأحكام، فى عالمٍ وفى زمانٍ تتعطش فيه الإنسانية إلى ما ائتمننا الله عليه من علمٍ بأسرار الخَلقِ والخالقِ والموت والحياة والبعث، مما فصله فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولعل كتابا ابتدأ نزوله على نبى امى فى مجتمع امى يبدأ بـ {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذى خَلَقَ*خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ*اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الذى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ما كان له أن يكون فقط لأمَّة ذلك النبى، إذ أن العلمَ بالقلمِ لم يكن من مميزات مجتمعه، ولا كانت "العلق" من اكتشافات علمائه، وما كان نصُّ الكتاب أصلاً موجها للمسلمين، وإنما للإنسان حيثما كان وفى كل الازمان. هذه الآية فيها جوانبُ ما تطرق لها العلماء من قبل إلَّا قليلا، ونظن أن أوان فهمها بصورة أوسع قد آن. فعلوم الغيب التى أتى بها الوحى وفصلتها السنة ما كان للقلم دور فيها، إذ

أنها علوم نزلت شفاهة على النبى الأمى ونقلت عنه شفاهة، ولم يلعب القلم دورا إلّا فى تدوينها بعد وفاة النبى الأمى صلى الله عليه وسلم.

فالقلم هو أداة الكتابة التى يحتاج لها من يبحث فى علوم الكون من رياضيات وكيمياء وفيزيا وأحياء، وما يتفرع منها من علوم تخصصية، كالطب والهندسة والزراعة والفلك وعلم الجيولوجيا، وغيرها من العلوم التى تحتاج لتعليمٍ نظامِى، ودراسةٍ منهجية، وبحوثٍ مستمرة، يستمر فيها كل عالم من حيثما انتهى غيره. وقد كان لعلماء المسلمين الأوائل الذين فهموا أن الله تعالى استخلفنا فى الأرض لنعمرها، وآتانا العقل لنبحث فى أسرار خلقه ونخرج آياته للناس، كان لهم السبق فى وضع حجر الأساس لعلوم "القلم"، فوضع ابن سينا أولى لبنات علوم الأحياء، التى قادت إلى علوم الطب والصيدلة والبيطرة والزراعة وغيرها مما ابحر فيه علماء الغرب اليوم، ووضع ابن حيان أولى لبنات علوم الجبر والرياضيات، التى قادت إلى علوم الهندسة، ومن ثم المعمار والتكنلوجيا الحديثة، وعلوم الفلك التى أخذ الغربيون أسسها منا ثم طوروها. كل هذه أمثلة للعلم الذى علمه الله للانسان بالقلم بدليل المثال الوحيد الذى أبرزته الآية، وهو "العلق" الذى ما كان للإنسان أن يفهمه قبل اكتشاف المجهر فى زماننا هذا.

قصة هذا الكتاب فيها قدْرٌ من المصادفات كبير، و إلهامٌ من الله تعالى ما كان له ان يكون بغيره، ونرجو أن يكون لبِنَة فى الطريق الذى يحول مسار البشرية ويعيد الناس، كل الناس، الى بيتِ أبويهم الاولِ كما أذَّن فيهم إبراهيم يوم رفع القواعد من البيت واسماعيل. و كاتباه ليسا من الفقهاء ولا يدَّعون الفقه، ولكنهما يؤمنان أن الله لا يستحى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها، ولا يستحى أن يلهم أضعف خلقه ليكشف للعالم أسرارا من أسرارِ الكونِ أودعها كتابه الذى لا تنتهى معجزاته، وجعل مفتاح ذلك السر فى "آذان الانعام" التى هى من أضعف مخلوقاته وأكثرها خضوعا للانسان! ولقد استأذنت أخى علاء الدين فى أن أقوم بصياغة هذه المقدمة بلفظ المفرد حتى تسهل على القارئ المتابعة، لأن هذا الكتاب يحتاج لعقلٍ متفتحٍ وتركيزٍ عميق فى كل صفحة من صفحاته، و لأنى أعلم من علم النفس الذى أمتهنه أنه كلما فهم القارئ شيئا عن الكاتب وظروف الكتاب سهل عليه متابعة الافكار، ومن ثم الإدلاء برأيه فيها بصورة موضوعية، سواء اتفق مع الكاتب أو اختلف. ونسألُ الله تعالى أن يلعب "آذان الانعام" دورا فعالا فى مسار حياة الفتية الذين بدأوا يمشون على خطى الحبيب محمد، ليصنعوا حياة جديدة للإنسانية جمعاء. وسأذكر باذن الله بعض الملابسات التى أدت الى خروج هذا الكتاب من شخصين تفصل بينهما آلاف الاميال، سَلَكا طريقين مختلفين، ثم كان اللقاءُ على غيرِ ميعادٍ فى آخرِ المطافِ عند الطواف حول البيتِ العتيقِ، وهما يبحثان فى سر **"**الْهَدْى" و يفحصان آذان الأنعام هناك، فكان كشفا تهتز له أركان الكون بإذن الله.

منذ أن سكنت بريطانيا قبل ستة عشرة سنةٍ خلت، اشتغلت بحمد الله وتوفيقه فى الدعوة لغير المسلمين، وهذا ليس فخرا وإنما هو واجب شرعى، ويكون فرض عينٍ على من اختار طواعية مجاورة غير المسلمين فى ديارهم. والدخول فى حوارات مستمرة مع أهل الاديان الأخرى يكشف للمسلم جوانب جهله ونقاط ضعفه، ويفتح له آفاقا جديدة من التدبر والبحث، لان ما نظن أنه من المُسلّمات عندنا يخضع للسؤال من أهل الاديان الأخرى، ولا بد للإسلام أن تكون عنده الإجابة المقنعة. ولعلَّ أكثر الأمور التى تطرح للنقاش فى هذا الزمن، هى قضية خلق الإنسان وأصل الكون التى بدورها تمهد لمصير الإنسان بعد الموت، وليس فى هذا جديد، فقد ظلت الإنسانية عبر العصور فى حيرةٍ مما كان قبل الخلق وما يؤول اليه مصيرنا بعد الموت! ولأنَّ هناك تشابها فى قصة خلق آدم وزوجه فى القرآن والتوراة، التى تشكل عقيدة وثقافة المجتمع الغربى من يهود ونصارى، كان لزاما على أن أبحث عن الفوارقَ فى القصص التى يرويها القرآن والتوراة حتى لا أقول على الله ما لم يقله، ولكن لكل جوادٍ كبوة!

جلست على مائدة الغداء فى احدى المستشفيات البريطانية مع طبيب انجليزى على قدر من الثقافة والانفتاح، ودار بيننا حوار عام عن الثقافات المختلفة، ولكنه فاجأنى بقوله انه مطمئن الى نظرية داروين فى الخلق والتطور ويعتقد ان اصل الانسان قرد! شعرت حينها بغثيان وتقزز وبدا لى الفتى وسيم الطلعة وكأن رأسه رأس قرد له سبعة رؤوس طلعها كأنه رؤوس الشياطين، واحترت من هذا الذى اكرمه الله بالعلم وحسن الخَلق، لكنه ينكر فضل الله عليه وينتسب طواعية الى اسلاف القردة! ثم اخرجنى من شرودى سؤاله لى عن اصل الانسان فى القرآن، فسارعت بعزة المؤمن وكبريائه لاصف له اصل الانسان من كتاب الله الذى لا يضاهيه مكتوب فى المنطق والحكمة والحق...ولكن تجمدت الكلمات فى لسانى وتسمر لسانى فى حلقى والتوى حلقى فى عنقى فما استطعت النطق لا بالطين ولا بالتراب! واسعفنى الله حينها بان قلت له: اننا نؤمن ان الله يخلق ما يشاء كيف يشاء ومتى ما شاء، فالاصل عندنا الايمان بقدرة الله المطلقة على الخلق وليس كيفية الخلق. فكان رده "إن قرآنكم يبدو اكثر حكمة من "العهد القديم" عندنا والذى يصف ان الرب خلق آدم من تراب، علما بأن القرد مخلوق حى ويشابه الانسان فى كثير من صفاته وان تطويره الى انسان اقرب الى التصديق من تصديق قصة النفخ فى كتلة طين لتصبح بشراً". فحمدت الله الذى اجرى على لسانى وصف قدرته، وحرم عليه رفع شأن الطين الذى خلقنا منه، وعزمت ان يكون لى مع الطين والتراب شأن آخر وكثير من البحث.

ولا أنسى أبدا حوارا دار بينى وبين باحثة امريكية على مدى شهورٍ، نجحت فيها فى استدراجها للنقاش، وظننت أننى على قاب قوسين أو أدنى من إقناعها بعقيدة الاسلام، ولكنها سألتنى ذات

يوم: كيف تكون الجنس البشرى بعد أن خلق الله آدم؟ فكانت إجابتى نقلا عمَّا توارثناه من غير تدبرٍ من كتب المفسرين، فقلت: إن إبنى آدم التوأمين تزوج كل منهما توأمة أخيه، فما كان منها إلا ان قالت: "هذا قول التوراة الذى رفضته من قبل، وإنى لا أؤمن بربٍّ يبدأ سلالة خلقه من زواج أخٍ باخته"، وضاع كل المجهود الذى بذلته معها، نتيجة جهلى بحقائق هامة فى كتاب الله. وبدأت قصة خلق آدم تسبب لى إشكالا على إشكالها، إذ أن النصوص القرآنية التى تروى القصة فيها من الغموض ما يشكك فى صحة التفاسير المتداولة، ولكن ما كان لى بديلٌ من العلم أقدمه لغير المسلمين سوى ما تعلمناه منذ الصغرمما تتداوله كتب التفاسير، وهذه شبه منطبقة على رأى التوراة الذى رفضه الغربيون بالفطرة أفراداً وجماعات .

ودارت الأيام وبدأت قصص النبيين تتعرض لامتحانات الواحد تلو الآخر، وأنا أجد نفسى فى موقف صعب، إذ أنى أُردد تفاسيرَ متعارفاً عليها بين المسلمين، وإن كنت لا أستسيغها لأنها تنطبق حرفيا على تأويل نفس القصص فى توراة اليهود، الذين رفضوا المسيح وقتلوا الأنبياء وحرفوا كتبهم، فكيف نتفق معهم فقط فى تفاصيل قصة نوحٍ وابراهيمَ وموسى وقصة خلق آدم؟

وتبين لى وأنا أتدبر هذه الإشكالات فى تفسير قَصص الأنبياء فى القرآن، أنَّ المشكلة عامة بين المسلمين، لدرجة أن العجز فى فهمها قد أدَّى إلى أن يحوِّل المسلمون قَصَصَ الأنبياء فى القرآن إلى ما يشبه قصص الأطفال، وكأنَّ قصة آدم وشجرة الخلد، أو قصة صالح والناقة ما ذكرتا فى القرآن إلَّا من باب الترويح عن النفس وإمتاع الاطفال. وتبين لى مع الزمن أن مثل تلك التأويلات التى تسربت إلى كتب التفسير من الإسرائليات، ما كان لها أن تبقى كجزءٍ من فهم المسلمين رغم تغير كثير من المفاهيم، لولا أنَّها اعتُبرت من المسلَّمات التى لا تقبل النقاش أو البحث. وسألتُ نفسى مراتٍ عديدة عن سر الإعجاز فى ناقة صالح، علما بأن قوم صالح كانوا لا تنقصهم نياق، كما لا يفتقد العرب الرمال، فما الحكمة فى أن تكون معجزة نبى من أنبياء الله ناقةً إضافية لقومه الذين لا يمتلكون شيئا أكثر من النياق؟ ولكنى لم أصل إلى إجابة مقنعة قبل أن أتواضع لله وانحنى لأفحص آذان الانعام! وكانت لى مع قصة نوحٍ عليه السلام وقفات كثيرة، إذ أن فيها من العجائب ما يجعلها صاحبة السبق فى أفلام الكرتون التى يعرضها النصارى واليهود والمسلمون على الأطفال، لأنهم جميعا يتفقون على تفاصيلها وطريقة إخراجها، مما يجعلها اقرب الى قصص السيرك او حديقة الحيوان.

وتساءلتُ مراتٍ عديدة عن الحكمة من سفينة نوح وأنا اشاهد برامج دينية موجهة من قنوات إسلامية للإطفال تعرض قصة السفينة كما يفهمها اليهود تماما. ولعل ما يجعل منها أشهر القَصَص لإمتاع الأطفال أن فكرة السفينة التى تحمل من كل المخلوقات زوجين قصة مثيرة. ولعل اكثر المناظر فيها إثارة ان ميمون القرد دائما ما يدخل السفينة ممتطيا ظهر الفيل، بينما الزرافة

تعانى من لى عنقها الطويل حتى تدخله من الباب الصغير، وتحت أقدامها سرعان ما يشتبك الكلب مع القط والقط مع الفأر، مما يضحك الأطفال ويسرُّ الكبار، ويصلى الجميع على نوحٍ ومن معه من الأخيار، وتضيع مع الطوفان قصة النبى ونظرية الأطوار!

وسألتُ نفسى مرات عديدة: إن كان نوحٌ قد حمل كل هذه المخلوقات التى نراها فى أفلام الكرتون، وتشتمل عليها كتب التفاسير القديمة نقلا عن الإسرائيليات، فهل ايضا جمع الخنافسَ والصرارصيرَ والعناكب؟ ولم لا، والله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها! ثم ماذا كان من شأن الجرزان والثعابين والعقارب؟ وماذا عن الحمير والحصين والذئاب والثعالب؟ وتمتد القائمة بأسماء المخلوقات التى يوحى تعدادها أن نوحا احتاج لكل تلك الألف سنة إلّا خمسين عاما، ليجرى فى الوديان والأحراش يجمع أزواج القطط والفئران والأرانب! وتزداد حيرتى إلى أن فتح الله علينا وهدانى وأخى علاء الدين لننحنى معا ذات يوم، هو فى الخرطوم وأنا فى لندن، لنفحص آذان الأنعام فنكتشف أن نوحا عليه السلام ما حمل معه إلّا ثمانية أزواج فقط من البهائم، وأنه عليه السلام كان يمثل مرحلة خطيرة من مراحل التطور فى خلق الإنسان والحيوان وتاريخ وجود الأحياء على الارض، ولذلك كان من أبرز حججه على قومه فى القرآن: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا }!

ثم شاء الله تعالى أن يكون لى مريضٌ له علة نفسية لا تنقص من ذكائه شيئا، وكان يحاورنى فى قضايا مختلفة من أسرار الخلق، وكان كلما سألته عن امرٍ حدث فى الماضى يقول لى: "حدث منذ أن كان آدم صبيا"، فسألته ذات يوم: ومن أدراك أنَّ آدم كان يوما صبيا؟ فأجابنى بكل ثقة "ومن أدراك أنه ما كان يوما صبيا؟"، فرحت أبحث فى كتاب الله فلم أجد أى دليل على العمر الذى وجد فيه آدم، فازدادت حيرتى التى ما شفاها إلّا السر الذى أودعه الله تعالى فى آذان الأنعام، لأعلم أن آدم عليه السلام كان يوما صبيا وكانت زوجه صبية أيضا، ولكننا لم نقرأ كتاب الله إلّا تحت تأثير الإسرائيليات، متجاهلين الدرس الذى علمه "الغراب" لابن آدم و للبشرية جمعاء .

وكانت آخر المصادفات جدُّ غريبة وقد تركت فى نفسى وفؤادى أثرا عميقا، وهى من جملة التجارب التى أعتقد أن من واجب المسلم ان يرويها، لما فيها من عبرةٍ تزيد المؤمنين إيمانا! فقد جمعنى القدرُ بقسيسٍ من النصارى فى الثانية والستين من عمره، احتاج لنصيحةٍ طبية عابرة، فتحول لقاؤنا لصداقة تطورت لتبادل العلوم فى امر الدين والدنيا، وسرعان ما صارحنى بأنه موحد على ملة إبراهيم عليه السلام، وأنه ما قام بتدريس عقيدة الثالوث لتلاميذه على مدى واحدٍ وأربعين عاما، هى عمر مهنته فى الكنائس المختلفة التى تنقَّل بينها ولم يستطع التعايش مع أى منها، فاختار أخيرا المعاش الاختيارى ليواصل بحثه عن الحقيقة التى ما وجدها فى كتب قومه. وفى مسار نقاشنا أهديته كتابى باللغة الإنجليزية فى نبوءات محمدٍ فى الكتب السماوية القديمة

"أميرة مصر وذلك النبى الغامض"، وأهدى هو الى نسخة من الكتاب المقدس تجمع العربية والانجليزية معا، وطلب منى طلبا غريبا فى حينه، وهو أن أبدى له رأيى فى بعض المواقع التى يظن أن الترجمات لعبت دورا فى اختلاف الآراء حولها. وقال لى حينها انه يؤمن أن الله قد اءتمن بنى اسماعيل وبنى إسرائيل على دينه، وقد ثبت له بالدليل القاطع عبر السنين أن علماء بنى اسرائيل قد خانوا الأمانة وقتلوا أنبياءهم وحرفوا كتبهم، وكان يسأل الله دوما أن يجمعه بعربى يحكى له وجهة النظر الأخرى قبل موته عسى أن يكون الحق معهم، وظن ان الله قد استجاب لدعائه اخيرا يوم التقانى، وما كان يدرى أن لقاءه مع الموت نفسه قد دنا! ودارت بيننا حوارات حول إبراهيم وإسماعيل وإسحق والبيت العتيق، وكان الشيخ يقبل رأى الإسلام فى تواضع وبساطة لم أرها فى حياتى، وهو عالم من علماء النصارى وكان يعتبر مرجعا عند قومه.
ولم يمض شهران على تعارفنا الذى ظننا أن يقود إلى صداقة تمتد سنين عددا، ولكن كان قدر الله أسرع، فقد أصيب فجأة بسرطان فى البلعوم وقدَّر الأطباء ما تبقى من عمره بأربعة أشهر فقط! وكان يوما حاسما فى حياته وحياتى يوم اجتمعنا لتبادل الآراء حول كتابى، وحول الكتاب المقدس الذى أهداه إلى، وكان مما عرضت عليه من التحريفات التى وقفت عليها هو تغيير أسم "وادى بكة" الذى ورد هكذا فى زبور داؤود باللغة الانجليزية، الى "وادى البكاء" فى الترجمة العربية، وكان الشيخ قد قرأ معظم كتابى عن نبوءات محمدٍ صلى الله عليه وسلم فى التوراة والزبور والإنجيل، فسألته عن رأيه فى محمد؛ فصمت حينا من الوقت ظننته دهرا، خاصة وأنى أعلم أن السرطان قد انتشر فى جسده الضعيف، وما تبقى له من أيامٍ فى الدنيا جدُّ قليل، ثم قال لى بالحرف :" أصدقك القول يا أخى فى العقيدة أننى قد ظللت أبحث طوال عمرى عن النبى الخاتم، وهأنذا أصل إليه وأنا على فراش الموت"! فقرأت عليه آيات سورة المائدة التى تعد القسسيسين والرهبان الذين يقبلون محمدا نبياً بجناتٍ تجرى من تحتها الانهار، والذى لا اله إلّا هو فاضت عيناه من الدمع مما عرف من الحق، وقال لى: "ومالى لا اؤمن بالله وما جاءنى من الحق، وأطمع أن يدخلنى ربى مع القوم الصالحين"! ولم تمض أسابيع قليلة حتى فاضت روحه إلى بارئها، ثم فاضت عيناى من الدمع وانا اشهد يوم تشييعه الذى فُتحت فيه وصيته، وفاجأ قومه بانه مات على الدين الحق الذى اكتشفه فى آخر أيام حياته، وأشار إلى شخصى الضعيف فى وصيته من غير أن يجرح شعور قومه، ففهم الجميع أن القسيس "ترى" قد مات مسلما على دين محمد صلى الله عليه وسلم. وطلب منى أهله بكل تواضع أن أصلى عليه صلاة الجنازة، فصليت عليه وحيدا يوم {25-8-2005} فى قريته النائية فى أقصى غرب بريطانيا على مشهدٍ من أكثر من ثلاثمائة من قومه.
مضى " ترى" إلى ربه مسلما عليه رحمة الله وعلينا، فلا صام ولا صلى ولكنه صدَّق وما تولّى، وترك لى كتابه الذى أهداه إلى وعليه دعاء ظل يلازمنى كلما ذكرته: " إلى أخى وصديقى عماد،

أسأل رب إبراهيم أن يبارك فيك و يعينك فى عملك، و يزيدك علما، ويلهمك كتابة تنفع الناس اجمعين".

بعد شهرين من رحيله الذى تركنى فى دوامة من الصراعات الفكرية والعاطفية والحزن والشعور بحجم المسؤولية فى الدعوة، والشعور المرير بضآلة نفسى وعظم ذنوبى مقارنة بفضل الله على، ذهبت للسودان صلة للارحام ففوجئت بأن أخى علاء الدين، وهو مهندس ميكانيكى واستشارى فى التكييف المركزى، ولا علاقة اكاديمية له بالفلسفة ولا مقارنة الأديان، قد نشر كتابا يناقش فيه قصة الحج كمشهدٍ من مشاهد التطور ويدعو المسلمين للتدبر فيه! وكان محتوى الكتاب الذى طرحه للنقاش الفكرى فى السودان، مفاجأة لى، إذ أنه أكمل لى بحثى فى قصة الخلق وتطور الإنسان التى تراكمت عندى عبر السنين، فأكتملت فى ذهنى القصة التى كنت قد بدأتها، وهى تصف كيف بدأ اللهُ خلْقَ كل الكون من الماءِ إلى أن وصلت إلى مرحلة أقرب إلى خلق الأنسان من طين، وكنت أطوف بأفكارى حول إبراهيم والبيت العتيق مع أخى "ترى" عليه رحمة الله وعلينا قبل أن يمضى إلى جنته بإذن الله، فكان كتاب علاء الدين فيه تكملة لافكارى من غير اتفاق سابق، وكان مولد هذا الكتاب الذى أظن أنه استجابة لدعاء الراحل "ترى" أن يلهمنى ربُّ إبراهيم علما ينفع الناس.

وحتى تكتمل الصورة أسوق ملخصا للمقدمة التى قدم بها علاء الدين كتابه " الحج: مسيرة الإنسان الأول من جنة عرفات إلى بيته المحرم":

(أول مابدأت التفكير فى معرفة حقيقة الحج، استفذتنى مقولة سيدنا عمر بن الخطاب وهو يقبل الحجر الأسود طاعة لرسول الله فقط ، قائلا : {أعلم أنك حجرٌ لاتنفعُ ولا تضر ولو لا أننى رأيت رسول الله يقبلك لما قبلتك}.

رفض الخليفة العادل اللاعقلانية حتى فى العبادات، ومارسها طاعة لله ورسوله!!!! سألت نفسى. لماذا أبقى رسول الله وبتكليف من الله سبحانه وتعالى على ممارسة عبادة كان يمارسها كفار قريش؟ وذلك بعد أن هذَّبها وأضاف إليها بعض الإضافات وأبقى على أكثرها. محمد الخاتم صلى الله عليه وسلم الذى قد أرسل بأكثر العبادات اتساقا مع عقل الإنسان الحديث، عبادة التجريد الصلاة، التى ازالت كل الصلات التشخيصية ما بين العبد والرب وربطت المسلمين فى كل مكان وزمان مع الخالق الأعلى من دون واسطة، يُبقِى على عبادة تشخيصية امتداداً لممارسات وثنية هذَّبها وأبقى على المشخصات الكعبة وجبلى الصفا والمروة وجبل عرفات والحجر الأسود، إلى أن استفذت سيدنا عمر وبلغ قلبه حنجرته ورفض الفكرة جهرا ومارسها طاعة لله ورسوله!!!

أول ما فكرت فيه أن هنالك علاقة جيولوجية مابين الحجارة التى تربط هذه الممارسة، الحجر الأسود.. حجارة الكعبة.. حجارة جبلى الصفا والمروة .. حجارة جبل عرفات .. وحجارة رجم

الشيطان، وقلت إن هذه العلاقة جيولوجية تحتاج إلى باحثٍ فى الحجارة يأخذ عينة من كل حجر ويحللها ويدرس تركيبتها، وكنت واثقاً ثقتى بالله وبكتابه المعجزة المصحف وبآياته القرآنية أن هنالك رابطاً علمياً، ومعجزة...

صرت أتململ سنويا .. ما يزيد على ست سنوات، كلما جاءت مناسبة الحج .. أقف مشدوها أمام هذا المبنى الضخم، وأقسم بالله ما بينى وبين نفسى، أن هولاء الحفاة العراة الذين يتشبثون بأستار البيت العتيق، من وراءهم سرٌ عظيم.. كلما أراهم حفاة عراة متسخين، أظافرهم وشعورهم طويلة منظرهم يتناقض تناقضاً كاملا مع الإسلام دين النظافة والأحتشام والأحترام، كلما رأيتهم فى ممارساتهم البدائية.. أرتجف!! لاننى أؤمن ايماناً قاطعاً أن الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، مهذّب البشرية، ومن قال "النظافة من الإيمان" هو من أمره الله بهذه الممارسة البدائية، وأزداد ارتجافا لأننى أعلم علم اليقين أن من ورائها معجزة علمية أعظم منا جميعا...

صرت أتململ سنويا ،وأنشغل بمشاغل الحياة لتدور الدائرة وأجد البيت الاسود الضخم أمامى والحفاة العراة يهرولون حوله ويلبون الى الله .. فأرتجف.. الى أن عقلتها !!!!!

فتح الله على بالممارسة العلمية العظيمة التى يمارسها هؤلاء العراة سنويا فارتجفت أكثر.. لعظمة الله .. ومعجزة الإسلام .. وصِغَر أنفسنا أمام الله...

قمت بتجميع كل الآيات التى تخص كل موضوع على حدة، فجعلتها أرتالا، ثم استعنت بمعجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس لمعرفة معانى أصول كلمات الآيات، وبعد ذلك قمت بدراسة كل آية كوحدة متكاملة، مستنبطا معناها من السياق الكامل للآيات المرتلة، مستندا على المعنى المنطقى والعقلى والعلمى.. عندها خرجت ببحث متكامل لقصة الخلق وسيدنا إبراهيم وعبادة الحج..!!)

وكان كتاب علاء الدين مقتصرا على تأويل مشاهد الحج بأنها تمثيلٌ لحياة الإنسان الأول، بعد ان طوره الله تعالى إلى إنسان عاقل، فقمنا معا بدمج ما توصل إليه كل منا فى بحثه لننتهى بنظرية آذان الأنعام فى الخلق والتطور.

إن مفهوم "رجال الدين" مفهوم دخيل على الإسلام لأن كل المسلمين رجال ونساء دين، ويتفاوتون فى مستوى علمهم وعملهم بما يعلمون، وما رجال الدنيا إلا من جعل الله الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم، وشغلهم بها عن دينهم فخسروا الدنيا والآخرة. ونحن نؤمن أن المسلم من شهد أنْ لا إله إلّا الله وأنَّ محمدا رسول الله، والمؤمن من آمن بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والمحسن من عبد الله كأنه يراه .. وفى هذه المراحل المتباينة فليتنافس المتنافسون باختلاف مهنهم ووسائل رزقهم. ونحن أيضاً نؤمن بأنه لا يوجد شئ اسمه "علوم الدين" مناقضا "لعلوم الدنيا"، إذ أن الدنيا ليست الّا خلقُ من أوحى القرآن وعلّم الإنسان ما لا يعلم. فالباحث فى القرآن لا يخفى عليه ان الله يصف احكامه المنزلة بالآيات القرآنية ويصف خلقه للكون بالآيات

الكونية، مما قسم علماء المسلمين الى قسمين قسم اختص بالبحث فى آيات القرآن وقسم اختص فى البحث فى آيات الكون. فصل العلوم إلى علوم دين ودنيا أشبه بالقول بأن هناك ربّاً للمسلمين هو الله وأرباباً لغير المسلمين، وهذا شركٌ صريح لأن الله ربُّ العالمين، وهو ربُّ من آمن به ورب من كفر به ولكننا نقول: إن الله علَّم الإنسان علوماً من **عالم الغيب** لا يمكن معرفتها إلَّا بوحى من الله تعالى، لأنها لا يمكن أن تخضع لبحوث الإنسان، إمَّا لأنها تقع خارج متناول يده فى هذه الدنيا، أو أنها وقعت فى الماضى واندثرت آثارها، أو لأنها من احداث المستقبل والآخرة. وهو أيضا علَّم الانسان علوما من **عالم الشهادة** وهذه تمت بوحى للانبياء والمرسلين، أو بإلهامٍ للعلماءِ والصالحين، أو توفيقٍ لكل بشرٍ مجتهد يبحث فى آيات الله الكونية ونظام الخلق ويستوى فى ذلك المسلم والكافر. وقد بعث الله لإبن آدم الظالم غرابا ليعلمه كيف يوارى سوءة اخيه، وقد آتى آلَ فرعون على كفرهم ملكا عظيما كله علوم ما زالت تحير الناس الى اليوم. وما يأتى به النبى من علمٍ سابقٌ لأوانه أوعمل خارق يسمى معجزة، وما يأتى به الصالحون يسمى كرامة، وما يهَبه الله لغير المسلم يسمى آيـة، والله يُرى آياته لمن يشاء لعلهم يهتدون: {سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فى الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} 35 فصلت. والقول بأن الاكتشافات العلمية التى يصل إليها الكافر قبل المسلم لا تدخل فى تفسير آيات الله، فيه جهلٌ كبير بخلق الله الذى خلقَ السمواتِ والارضَ وخلق كل الناس. ولعل من التناقضات فى هذا القول ان بعض المسلمين الذين يتحرجون فى النظر إلى كثير من الاكتشافات العلمية الحديثة ويرفضون الاستدلال بها فى فهم الغامض من آيات القرآن، لا لشئ إلَّا لان مكتشفها غير مسلم، نفس هؤلاء العلماء أو العامة يذهبون طواعية لإجراء عملية جراحية معقدة جدا كنقل كلى أو كبد أو قلب على يد طبيب بارعٍ فى علمه ولكنه غير مسلم. أو يركبون طائرات ويسلمون أمرهم لبراعة مهندسين صمموا هذه الطائرات، ناسين أو متناسين ان صانعى الطائرة لا يؤمنون بالله. وفى هذا تدخل كل تفاصيل المدنية الحديثة و التكنلوجيا المستوردة التى اصبحت من ضرورات حياتنا اليومية وأغلبها صنع بأيدٍ غير مسلمة. فإذا كنَّا نأتمن هؤلاء الأطباء والمهندسين والعلماء غير المسلمين فيما توصلوا إليه من اكتشافاتٍ فى أسرار الخلق والكون، لا لشئ إلا لأنه ثبت لدينا بالدليل القاطع أن ما صنعوه يجرى على سَنَن الخالق وإن لم يؤمنوا به، فكيف بنا نرفض حقائقَ علمية تشرحُ أسراراً فى القرآن فقط لأن من اكتشفها غير مسلم؟ أن دورنا كمسلمين هو ان نقول: "صدق الله العظيم" كلما اكتشف الإنسان، أى إنسان، آية من آيات الله الكونية تشرح آية غامضة فى كتاب الله، لان كل الناس من خلق الله، والله يؤتى علمه من يشاء ولا يشترط فى ذلك الإيمان، وإنما العلم نفسه هو وسيلة للإيمان بالله. فكم من عالمٍ نزيه اكتشف آية من آيات الله فى الكون ثم

عَلِم ان القرآن سبقه بذكرها، فكان ذلك الاكتشاف مفتاحه للايمان بالله، وكم من مسلمٍ "يقدس" القرآن ككتابٍ ويحمله كما يحمل الحمار اسفاراً.

إنَّ بَحثنا فى قضية الخلق والتطور يقوم على دراسة عميقة لمعانى ألفاظ القرآن وقواعد اللغة العربية مع الاستفادة من اكتشافات العلوم التطبيقية الحديثة، لتصحيح تفسير المفسرين الذى توارثه المسلمون على مدى قرونٍ من غير سؤال، فليس كل مافى كتب المفسرين حقا لا يقبل الخلاف، علماً بان كل المفسرين القدامى الذين نرجع الى مجهوداتهم الجبارة لم يكن إدراكهم للكثير من حقائق الكون إلّا محدودا جدا، لا يتجاوز معرفة كل الناس فى زمانهم بأسرار الكون. وبالتالى فان تفسيرهم لكل الآيات التى تصف حقائق كونية، ما كان له أن يعكس الّا الفهم القاصر لتلك الحقائق لأى انسان فى زمانهم، من غير أن ينقص ذلك من أقدارهم شيئا، ولكنه يضع على عواتقنا الكثير من المسؤوليات، لأن نعيد فهم كل الآيات التى تصف مثل هذه الحقائق الكونية التى نفهم عنها اليوم اكثر مما أتيح لهم. فالقرآن لا يخضع لافتراضات العلماء الاجتهادية، ولكنه نبراس يوجه بحوث العلماء إذا خفى عليهم شئ أو اختلطت عليهم حقائق، وهو أيضا يوجه علماء المسلمين للبحث فى قضايا جديدة تقود لمزيد من الايمان، طرحها الله علينا فى كتابه بصورة مختصرة جدا، وكما قال العالم المصرى زغلول النجار: {فإن الأمور الكونية المقسوم بها فى القرآن، تشهد للخالق سبحانه وتعالى بطلاقة القدرة وكمال الصنعة والحكمة وشمول العلم، ومن هنا فلا بد لنا من إعادة النظر فى مدلولاتها كلما أتسعت دائرة المعرفة الإنسانية بالكون ومكوناته، وبالسنن الالهية الحاكمة له حتى يتحقق وصف المصطفى صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم بانه :"لا تنتهى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد"، وحتى يتحقق لنا جانب من أبرز جوانب الأعجاز فى كتاب الله وهو ورود الآية أو الآيات فى كلمات محدودة، يرى فيها اهل كل عصر معنى معيناً، وتظل هذه المعانى تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية فى تكامل لا يعرف التضاد، ولا يوجد مثيل لهذا التناسق بين المعرفة التى يكتشفها الإنسان ومكتوب آخر إلا كتاب الله}.

إنّ آيات "الإعجاز العلمى فى القرآن" ملأت فراغا فى فهم الناس لأسرار الكون، لذلك وجدت استحسانا وقبولا عند المسلمين، ومثال ذلك قسم الله بالبحر المسجور والتى يفهم منها الآن انها تصف البراكين الملتهبة فى قيعان البحار والمحيطات. ولكن الأكتشافات والنظريات التى أرتبطت بالخلق وبالذات "خلق وتطور الانسان" تجد هجوما شديدا، لا لشئ إلّا لأن هذه الفكرة محسومة فى أذهان الناس بفهمٍ خاطئ لكنه لا يقبل النقاش، حتى وإن كان ذلك الفهم ليس الّا تقوُّلاً على الله ورسوله وتحميلاً للقرآن ما لا يحتمل من معانٍ. سببٌ هام آخر فى ذلك هو أن الآيات التى وصفت تفاصيل خلق الكون لم يكن لها مقابل فى الإسرائليات، لذلك كان القرآن متميزا فيها، وكان المفسرون من السلف الصالح عاجزين عن إبداءِ رأى محدد فى فهمها، فلما جاءت العلوم الحديثة

قـَبل النـاسُ تلك الاكتـشافات تفسيرا لما كـان غامضا فـى القرآن. لكن قصة خلق "آدم وحـواء" والأكل من شجرةِ الخلد والهبوط من الجنة، تُشابه ذات القصة فـى التوراة مع اختلافٍ كبير فـى التفاصيل، إلّا أنَّ الإسرائيليات التى تُعبِّر عن فهم اليهود لها قد انسابت من غير حدود الـى تفاسير القرآن لتُـكَوِّنَ فى اذهان المسلمين علـى مرِّ العصور قصة شبه اسرائيلية عن خلق آدم وزوجـه تُنسب زوراً وبهتاناً للقرآن والاسلام، واصبح من الصعوبة زحزحتها رغم انها لا اصل لها لا من القرآن ولا من السنة. وليس ابلغ فى ذلك مثلا من ان عامة المسلمين لا يتحرجون فى ترديد ان "حواء" هى التى اخرجتنا من الجنة وهم لا ينتبهون إلى ان القرآن ما ذكر "حواء" نهائيا، وكـان الخطاب كله موجه لآدم من السجود إلى الخروج من الجنة.

هذا الكتاب كُتِبَ معظمه بعد تبادل الأفكار عبر التليفون والإنترنت بين الكاتبين، وكان يوما مشهودا يوم تبادلنا الافكار فى مكالمة هاتفية طويلة، فى محاولتنا لأن نفهم لماذا صبَّ إبليسُ جام غضبه على آذان الأنعام فى القرآن، فقررنا ان نفحص آذان الانعام بصورة علمية أُذُنـاً تلوَ الأخرى، وبدأنا ننظر فى آذان الماعز فلم نجد شيئا مثيرا، ثم نظرنا فى آذان الخِراف فلم يكن هناك ما يثير الدهشة أيضا، ثم نظرنا فى آذان البقر فبدأت الصورة تتضح لنا، ولما نظرنا فى آذان الإبل ذهلنا... ثم صمتنا قليلا.... ثم ضحك علاء الدين اولا ضحكة رددت صداها أمـواجُ النيـلِين عند الملتقى فى الخـرطوم، وسألنى: هل رأيتَ ما رايتُ؟ فضحكت بذهولٍ ولسانُ حالنا يردد: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} 16 النمل، إذ أنه ما كان لنا أن نصل الى ما وصلنا اليه لو لم يُلهمنا الله تعالى ان نميز بين "لغة الغراب" و"لغة الهدهد" فى القرآن، وسجدنا لله شكرا، وقررنا أن يمجد أسم كتابنا هذا الكشف، ليكون ذلك تعضيداً للجهود التى يبذلها علماء المسلمين اليوم فى سبيل استعادة دورهم الرائد فى قيادة البشرية علميا وفكريا، بعد أن أصبحوا منقادين ينتظرون غيرهم ليكتشف شيئا جديدا أو يقترح نظرية جديدة فى خلق الله، ولا يكون لنا دورٌ إلّا أن نتبعهم بأن نُثبت أن ما اكتشفوه موجود فى كتابنا.

لقد انشغل بنوا آدم بركوب الأنعام ولحومها وشحومها وألبانها وجلودها وأصوافها وأوبارها، فـدُفن السر الذى أودعه الله فى آذانها تحت الأكـارعِ طَوَال الـقُرونِ من بعد آدم، وما كنَّا ذَيـلاً لاحدٍ فى كشفه ولكنها نعمة من الله وفضلٌ منه وتوفيق. إنّ كتاب الله وحده هو الذى يشهد على نظـرية آذان الانـعام اليوم.

إنّ " **نظرية آذان الأنعام فى الخلق والتطور**" تطرح فكرة قرآنية علمية متناسقة لخلق السموات والارض وسائر الاحياء، فقد خلق الله سبحانه وتعالى الماء أولاً، ثم فرض سلطانه عليه فخلق

منه السموات والأرض، وجعل فيه سر الأرواح وخلق منه كل الأحياء من ملائكة وجن ونبات وحيوان. وقد كان الكون يوم خُلِق كتلة واحدة فُتقت فيها السموات عن الأرض، ثم بدأ رفع السموات عند مركز الكون فى مكة، بقوى طردٍ و شدٍّ مغناطيسية مُكوِّنة عمداً لا نراها. وقد كانت السماء عند بدء الخلق دخانا يحكمه ناموس الكون فقط، فاستوى الله إليها، ثم تطور الناموس الى منظومتى حكم الوجود "الكرسى" و"العرش"، فاتسع كرسيه اولاً بنظام بديع ليسع من كل الوجود ما وسع و ما زال يتسع. ثم اكتمل خلق السموات السبع فى ستة مراحل، فتكونت منظومة العرش الذى دخلت تحت سلطته طواعية ادارة السموات والارض، ثم استوى عليه الرحمن رحمة بكل الموجودات ورحمة بعقل خليفته المرتقب فى الارض لينطلق قانون التطور الازلى حينها. ثم بدأ خلق الأحياء من نبات وحيوان من أصل واحد عند مركز الكون فى مكة، و تطور إلى أشكالٍ مختلفة عبر ملايين السنين، فمنهم من زحف على بطنه ومنهم من مشى على اربع ومنهم من مشى على إثنين، ثم تميزت المخلوقات المختلفة فى سُلَّم التطور وفقا لقانون مندل المعروف فى علم الوراثة، فما استقرت أمشاجه منها تناسبت صفاته واتصلت فى سلم التطور، وما استُودِعت أمشاجه منها انصهرَ فطَفَر إلى أشكالٍ أخرى، وتكونت بذلك النباتات والحيوانات والإنسان. وكانت بشائر خلق البشر مخلوقات بدائية، نبتت من الأرض نباتا فى شكل خلية واحدة أنقسمت على نفسها فخلق منها زوجها اولا، ثم تطورت مع مر الزمن ليجعل منها زوجها ثانيا فظهر الذكر والانثى، واتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، و تطور عبر ملايين السنين، إلى أن أخذ شكلا اقرب من شكل الانسان الذى مشى على اربع مكباً على وجهه كالقردة، وظل فاسدا مفسدا يسفك الدماء، قبل أن يرفعه الله ويعدله فى مشيته فى صورة أقرب إلى شكل الإنسان الحالى، ثم اصطفى الله من بينهم فصيلا آدمـاً ملائما للتغيير من اثنين وثلاثين فرداً ذُكرانا وإناثا، سكنوا حول مكة التى كانت أول بقعة فى الأرض خرجت من تحت الماء، ثم جمعهم من مساحة تحددها مواقيت الاحرام المكانية اليوم، فى وادى "منى" فنفخ الله فى ذلك الفصيل الملائم للتغيير من روحه وطَفَر بهم إلى انسان عاقل، ثم سكنت تلك المجموعة جنة المأوى فى عرفات، وما أكل أحدٌ من أى شجرة محرمة كما نفهم ولكنهم عصوا ربهم، ثم هبطوا منها ليأووا إلى أول بيتٍ وضع لهم ببكة، ثم اصطفى الله من بعدهم نبيه الأول "آدم" ليكون أول رسول للإنسان! ولأن قصة الخلق و "التطور" كانت وما زالت أمرا يصعب على الناس استيعابه، فقد أنزل الله تعالى الأنعام فى "منى" يوم طفر بالإنسان إلى إنسان عاقل، وجعل فى آذانها مفتاحا علميا لفهم تلك المعجزة، ولمَّا كان إبليسُ شاهدا على ذلك فقد مضى بحقده إلى بيت القصيد وتوعد {وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ ..} 119 النساء، حتى يطمث هذا السر، وقد نجح لقرون

طويلة ولكن الله غالب على أمره، إذ الهمنا ان نكشف بلغة الغراب ذلك السر الذى نذيعه بلغة الهدهد على الناس جميعا بحمد الله وتوفيقه .

إنّ العالم اليوم يقف على شفا جرفٍ هارٍ يكاد ينهارُ به فى نار جهنم، ولا راد لقضاء الله إذا أتى إلّا الله،! فقد انهارت عقيدة الشيوعية والإلحاد، وأفلس الغرب المسيحى الرأسمالى فكريا، وتصدع أخلاقيا واجتماعيا حتى اصبح لسان حاله ينادى وامحمداه، بعد أن اختار معظم سكان العالم محمدا كأعظم شخصية خالدة فى التاريخ الإنسانى بمناسبة الألفية الثالثة، ولكن لا مجيب لندائهم إلّا من صدى صوت الصديق فى الصحراء يجيبهم: "من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت".

وفى هذا الخِضَمِّ المرعب من تكاثر أمارات الانهيار فى كل مكان، فإن المسلمين يتباكون على ظلم الغرب لنا، لانه بَخِلَ علينا ببعض التكنولوجيا، ولأنه نهب ثرواتنا وزاد نكباتنا، ناسين أو متناسين أن ثرواتنا منحناها لهم بكل ذُلٍ وهوان، وعلومهم درسناها منهم لكننا أصبحنا نستهلك اكثر مما ننتج ولا نستفيد مما نتعلم، وإنّ اغلب نكباتنا ليست إلّا من صنع أيدينا حكاما او محكومين. "ونعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا". فلا بد أن نفيق من هذا الوهم، ونتذكر أن الغرب لو آتانا كل ما يملك من علوم وصناعة وسلاح، فلن تفيدنا إلّا اياما معدودة فى هذه الدنيا الفانية، ولكن بأيدينا أن نمنحهم علوما تنقذهم وتنقذنا مما نحن وهم فيه فى هذه الدنيا، وتمنحنا جميعا خلودا فى جنات تجرى من تحتها الانهار خيراً وأبقى. إنّ خيانة المسلمين للإنسانية اليوم لهى أعظم بكثير من خيانة الإنسانية للمسلمين مهما تكالبت علينا المحن، إذ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بعث رحمة للإنسانية جمعاء، وقد ترك بين يدينا ما إن تمسكنا به فلن نضيع من بعده ابدا، فتجاهلناه فضعنا واضعنا غيرنا!

ان فى كتاب الله علوماً يجب ان نطرحها على الناس كل الناس، لأن الله وجهها للناس وائتمننا على ذلك، وهذه العلوم لا تحتاج لتكنلوجيا ولا أموال، وإنما تدبر فى كتاب الله، وشفقة على الإنسانية الحائرة المعذبة واستشعار بمسؤولية الدعوة، وجرأة فى البحث والتفكير وطرح الآراء وتبادل الأفكار، بدلا من الاستسلام للهزيمة وانتظار الرحمة من غير الله! ونسأل الله تعالى ان يجعل "آذان الانعام" من تلك العلوم التى تعيد الناس الى اول بيت وضع للناس.

مواضيع الكتاب متداخلة جدا ويصعب تقسيمها، لكن عموما فهذا وصف للأبواب المختلفة التى يستحسن قراءتها حسب الترتيب، لأنها تحكى قصة واحدة يمهد فيها كل باب للباب الذى يليه:

1. الثلاثة أبواب الاولى تناقش مفهوم التطور وتتابع خلق وتطور البشر إلى ظهور الإنسان العاقل .

2. الأبواب من الرابع إلى السادس تتابع الخطوات الأولى للإنسان العاقل، من وادى منى إلى جنة المأوى فى عرفات، ثم هبوطه إلى المزدلفة فى طريقه إلى البيت العتيق .

3. الباب السابع يقودنا فى رحلة استكشافية داخل سفينة العجائب للتعرف على كل من كان أهلاً للنجاة مع نوحٍ وان لم يكن من اهله ومن لم يكن اهلاً لذلك وان كان اقرب اهله اليه!

4. الأبواب من الثامن الى العاشر تناقش مِلّة إبراهيم الحنيفية وعودة إبراهيم إلى أرض الخلق والتطور، لربط الإنسان الحديث بأرض الآباء وبدء عبادة الحج كحُجَّة على الانسانية جمعاء.

5. الباب الحادى عشر هو أطول الأبواب و يناقش أصول الخلق من ماء، وعالم الارواح، وقضايا دقيقة فى فلسفة علم الوجود، ويفسر مفهوم "العرش" و " الكُرسى" وجوانب حساسة فى ناموس الكون، وعقائد البشر وتناسخ الارواح وعبادة البقر، و يطرح الأساس العلمى القرآنى لنظرية آذان الأنعام فى الخلق والتطور.

5. الباب الثانى عشر والأخير يناقش أرض التطور، موقع مكة وسط الأرض ومركز توازن السموات السبع فوق البيت العتيق ومفهوم الاستواء على العرش، ويكشف أسرارا مثيرة عن سدرة المنتهى.

وختاما فاننا نرجو من كل قارئ أن يعيد قراءة كتابنا هذا مرة اخرى بعد أن تتكامل كل الأبواب، قبل أن يسارع فيصدر أحكاما علينا، و ما توفيقنا إلّا بالله عليه توكلنا واليه أنبنا واليه المصير.

د. عماد محمد بابكر حسن

لندن في 15 اغسطس 2007

البـــــاب الاول

قِصَّــة التَـطـوُّر

كل الكشوفات الأثرية عن الأمم الغابرة تدل على أن الإنسان ظل وعلي مر العصور يتفكر فى خلق الكون وأصل الإنسان. فالرسومات الموجودة فى معظم الآثار القديمة تشير الى علاقة الإنسان بالكواكب، ومحاولته ربط وجوده على الأرض بوجودها فى السماء كما هو الحال فى الديانات المصرية القديمة وغيرها. فى العصر الحديث ظل هذان السران محط بحث لعلماء الفلك والطبيعة كما كان الحال بالنسبة لقدماء المصريين وغيرهم.

لعبت الأديان السماوية دورا فى توسيع أفق الإنسان لفهم بعض الحقائق عن اصل الكون و أصل البشرية، إلا أن فضول الإنسان ظل يدفعه للبحث فى تفاصيل الخلق، أبعد مما صرحت به الكتب السماوية، التى أتت بإشارات مبسطة عن هذه الأسرار من غير تفاصيل.

فالتوراة والقرآن مثلا أشارا الى مراحل تطور خلق السموات والأرض كما هو واضح فى قول الله تعالى:

{أوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أفَلَا يُؤْمِنُونَ} 30 الانبياء!

هذه الآية وغيرها مثلا لم توضح بالتفصيل كيفية بداية خلق الكون، ولكنها وضحت المرحلة الأخيرة التى وجدت فيها الارض ملتصقة باجرام السماء قبل أن يفتق الرتق وتنتشر الكواكب والنجوم فى الفضاء. على أن الله تعالى أشار فى آية اخرى الى أن عملية خلق الكون أخذت ست مراحل مختلفة:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فى سِتَّةِ أيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} 38ق.

إذاً فإن الله تعالى قد أخبرنا ببعض أسرار خلق الكون، ولكنه ترك لنا الباب مفتوحا للتدبر والبحث فى التفاصيل، بل وجعل ذلك التفكر عبادة سامية كما فى قوله تعالى:

{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} 91 آل عمران!

ولما كان أمر الخلق أمرا معقدا جدا، ويصعب على العقل البشري البسيط استيعاب تفاصيله، علما باننا لا نستطيع أن نستوعب قدرات الله تعالى، فقد انزلق بنوا إسرائيل فى تأويل آيات مشابهة، وردت فى التوراة، تشير الى مراحل تطور خلق الكون فى ستة أيام، ففسروا تلك المراحل الست تفسيرا حرفيا بأنها أيام كأيام السبت والأحد، فقادهم ذلك التأويل الخاطئ للخلاصة

بأن الله لا بد وقد أجهد من هذا العمل الشاق فاستراح فى اليوم السابع، ليكتمل أسبوع العمل الى ستة ايام ويوم سابع للراحة. فقد نسب اليهود فى التوراة الحالية الى الله ما يلى:
{هو بيني وبني إسرائيل علامة عهد الى الأبد، لأنه فى ستة أيام صنع الرب السماء والارض، وفي اليوم السابع فرغ من العمل واستراح} سفر الخروج 18:31.
مما لا شك فيه أن هذه الأيام الستة إنما هى مراحل لتطور الخلق، ربما كانت كل مرحلة أو يوم تساوي ملايين السنين مما نعد. ولكن لأن اليهود حاولوا تجسيم قدرة الله وطريقة الخلق فى صورة تشابه قدرات البشر وطريقتهم فى الصناعة وصلوا الى طريق مسدود، وهو أن الصانع لابد له من استراحة من هذا العمل المضني، فأضافوا اليوم السابع ليكون يوما لراحة الرب، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.
جاء العلم الحديث ليؤكد هذه الحقيقة القرآنية، وهى أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقتا فى مرحلة لاحقة من مراحل التطور، لتتكون الأرض وبقية الكواكب والأجرام السماوية، وهذا ما يعرف بنظرية الإنفجار العظيم عند علماء الفلك. هذه النظرية تمثل فى يومنا هذا العمود الفقري لعقائد العلمانيين فى الغرب، إذ أنهم يؤمنون بأن الكون وجد ككتلة واحدة انفجرت وخرجت منها بقية مكونات الكون من غير أن يجهدوا أنفسهم بالتساؤل عمن خلق تلك الكتلة قبل أن تنفجر.
ورغم أن النظرية نفسها لا تشير الى مصدر الخلق الأول، ولم تستطع أن تفسر من أين أتت الكتلة الأولى التى انفجرت، إلا أن الكثيرين من العلماء العلمانيين الذين ضاقت صدورهم بضيق أفق حماة الكنيسة ودعاة الكهنوت فى الغرب، انزلقوا نفس المنزلق الذى انزلقت فيه اليهود، وبدل أن يتفكروا فيمن خلق هذه الكتلة الأولى ومن الذى فجرها، خلصوا من غير دليل نقلي أو منطق علمى الى أن الكون قد وجد وفقا لتطور تلقائى، وبالتالى لا يوجد إله وخالق له. وروجوا لمعتقدهم الجديد هذا، الذى وجد قبولا لدى اللكثيرين من العامة الذين عانوا الأمرين من ضيق افق رجالات الدين، لدرجة أن الإلحاد أصبح عقيدة يسندها العلم فى ظنِّ الكثيرين الذين لا يفهمون الدين ولا العلم .
ورغم أن نظرية الانفجار العظيم جاءت الى حد كبير مصدقة لوصف الله تعالى لفتق الرتق بين السموات والأرض، وبالتالى مؤكدة أن القرآن ما كان أن يفترى من دون الله، إلا أنها لا تفسر كيفية بدء خلق الحياة من حيوان ونبات على ظهر الارض. وبالتالي فإن رفض العلمانيين لوجود خالق مطلق للكون والحياة بناء على نظرية الانفجار العظيم، يعكس قصورا كبيرا فى استيعاب هؤلاء الملحدين لعظمة الخلق واتساع واختلاف أوجهه، ويعكس إنكارا منهم الى أن خلق الإنسان نفسه يشكل معضلة قائمة بذاتها تختلف عن خلق وتطور الكون ... ونسبة لقصور الفكرة فإن الكثير من العلماء الذين لا تطمئن قلوبهم إلا الى المنطق والحقائق الملموسة ما لبثوا أن أبحروا

فى البحث عن أصل الحياة بصورة منفصلة عن أصل الكون رغم أيمانهم بنظرية الانفجار العظيم.

كما هو الحال فى خلق الكون، فان وجود الانسان فى الأرض قد شغل علماء الأديان وعلماء الطبيعة كثيرا على مر العصور والدهور، وفي كل الحضارات القديمة والحديثة. ورغم كثرة ما افترض فى تفسير وجود الإنسان إلا أنه لا توجد حتى الآن نظرية متكاملة تفسر هذه العملية، لذا نجد أن الناس قد انقسموا ما بين رأى اهل الاديان{الدين الاسلامي واليهودي-الإسرائيليات}، وما بين رأى علماء الطبيعة، كلٌ يختار ما يطمئن اليه قلبه من تفسير لظاهرة وجود الحياة على الأرض.

ولذلك فإننا سنقوم بعرض مبسط للرأيين فى هذا البحث. ونود أن نوضح هنا قبل أن ندخل فى التفاصيل أن المسيحية وهي دين سماوى واسع الانتشار فى العالم، إلا أنها فى هذه القضايا تستقي تفسيراتها من الديانة اليهودية، إذ أنها كانت امتداداً طبيعيا لها، والإنجيل لم يبرز تفسيرا منفردا لأصل الكون وخلق الإنسان وإنما استمد ذلك مما وصفته التوراة من قبل. بناء على ذلك سنناقش رأى الإسلام واليهودية والإسرائليات التى تمثل تأويلات اليهود لدينهم، الشئ الذى استقي منه بعضُ المسلمين تفسيرهم لبعض آيات القرآن التى سكت النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم عن الخوض فى تفاصيلها، فأصبحت المصادر الإسرائيلية تلعب دورا فى فهم المسلمين لهذه القضايا الغيبية من غير أن يشعروا، ومن غير دليل قاطع على صحة نسبتها الى الله تعالى أو أى من أنبيائه.

تطور الإنسان عند علماء الطبيعة:

مما لا شك فيه فإن علماء الطبيعة والعلوم التطبيقية ظلوا يعانون قديما وحديثا وفي كل المجتمعات والأديان، من النظرة الضيقة التى ينتهجها أهل الاديان، وإصرارهم على أن أى فكرة أو إكتشاف يعارض احدى تفسيرات الدين يعتبر كفرا، فى الوقت الذى لا يتركون فيه مجالا لإعادة فهم الدين إذا ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الفهم الديني للنصوص فيه قصور.

حينما أعلن العالم الفلكي الإيطالي جاليلو الذى عاش بين سنة 1564 و 1642 اكتشافه الباهر آنذاك، وهو أن الشمس هى مركز المجموعة الشمسية، وليس الأرض كما كان يظن رجال الدين المسيحي، لم تتردد الكنيسة فى الحكم عليه بالكفر والنفي، إذ أن فهمهم لبعض نصوص التوراة آنذاك كان يشير الى أن الأرض هى مركز الكون كله، وبالتالى فان من يفتري على الرب غير الحق فقد كفر. وللأمانة العلمية نقول أن الأرض هى مركز الكون ولكنها ليست مركز المدار

الحلزوني ولا المجموعة الشمسية التى تتوسطها الشمس وتدور حولها الأرض كما سنناقش ذلك فى باب "سدرة المنتهي".

هذه الحادثة أصبحت الآن نسيا منسيا، بعد أن أصبح كل رجال الدين ينعمون بالطيران حول الكرة الأرضية بمختلف الطائرات ويتدبرون فى عظمة الله، بعد أن أتاح لهم العلم الحديث رؤية ما لم يكن ليُرى من عظمة الكون فى زمان مضى!

على أن نفس علماء الدين اليوم الذين يستنكرون على أسلافهم خطأهم فى تحميل كلام الله ما لا يحتمل، وظلمهم للعالم جاليلو على اتهامهم له بالكفر، فى الوقت الذى لم يفعل فيه جرما غير تفكره فى شكل الأرض الكروية، ووضعها فى مكانها الصحيح بين أجرام السماء كما أراد لها الله أن تكون، نفس هؤلاء الرجال يقفلون الباب أمام علماء لا يختلفون عن جاليلو فى نيتهم، وربما لا يختلفون عنه فى اكتشافاتهم لمزيد من قدرات الله تعالى وأسرار كونه. المشكلة هى أن رجال الدين دائما يسارعون للتكفير، ثم يضطرون للاعتزار مؤخرا بعد أن يثبت خطأ فهمهم للدين وجهلهم التام بالدنيا.

البحث فى أسرار الفضاء، واثبات كروية الأرض ووضعها الصحيح بين أجرام السماء لم يكن أمرا صعبا، إذ أن هذا المجال يدخل فى إطار البحث التجريبي المباشر، ولكن البحث فى أصل خلق الإنسان والحياة على الأرض عموما أكثر صعوبة، لأنه يعتمد على تحليل منطقي لأحداثٍ وقعت فى الماضى، ولا يمكن مشاهدتها وإجراء التجارب عليها فى المعمل الا فى حدود ضيقة، مما أطال أمد الصراع بين الكهنوت و علماء الطبيعة فى قضية أصل الحياة، وإن كان الصراعان يتشابهان كيفاً ويختلفان كماً.

المدرسة الدارونية:

يعتمد علماء الطبيعة على المعيار الاستدلالي فى قضية وجود الإنسان، لأنها حدثت فى زمان غابر وغير قابلة للبحث المختبري، وبالتالى فإن النتائج التى يعتمدون عليها إستدلالية وإستنباطية، ولا يمكن إثباتها أو نفيها فى المعمل بشكل قاطع. ومن أشهر النظريات العلمية فى هذا الموضوع، وأكثرها معارضة من أهل الاديان، هى نظرية الانتخاب الطبيعي لشارلس داروين، الذى لم يحكم عليه بالموت أو النفى، لأنه عاش فى زمن انهزمت فيه الكنيسة وفقدت سلطانها، إلا أنه حكم عليه بالكفر من قبل النصارى واليهود والمسلمين وربما أهل أديان اخرى أيضا. ورغم صلابة رفض رجال الدين لنظرية داروين، وإجماعهم على اختلاف مشاربهم على تكفيره، فان العلماء والمفكرين اليوم يقولون: إنه لم تعد هناك شبهة فى أن نظرية التطور هى الوسيلة المنطقية الوحيدة التى يمكن بها تفسير وفهم عملية ظهور الإنسان العاقل على الأرض.

الغريب فى الأمر، أن داروين الذى عاش فى بريطانيا بين سنة 1809-1882، والذي اعتبر إمام الكفار وزعيم الإلحاد فى نظر كل أهل الاديان، الذين غالبا ما لا يتفقون فى تكفير شخص بعينه، لم يكن فى نيته الخوض فى قضايا عقائدية، ولم يكن بحثه أصلا لإثبات أى شئ غير ملاحظات منطقية على وجود كائنات متشابهة، تتغير تدريجيا عبر العصور، الى أن أصبحت أشبه بالقردة، ثم فجأة وجد الإنسان العاقل على الارض. الأعجب من ذلك أن داروين لم يكن ملحدا، ولم يدع الى إنكار وجود الخالق على الاطلاق، بل على العكس كان شأنه شأن الكثيرين من العلماء الذين لم يُرح بالهم أن يتعبدوا الى إله الكنيسة الذى يجهل ويناقض الكثير من أسرار الكون التى أصبح لا خلاف حولها فى نظرهم ، فكان رفضه لعقيدة الكنيسة دليل فطرة تقترب من معرفة الخالق الحق. المؤسف هو أن دعاة الإلحاد فى القرن التاسع عشر، والذين كانت فطرتهم أيضا قد هدتهم الى تحدى ما وصلت إليه المسيحية من تحريف وتناقض مع الواقع، قد قاموا بتأويل نظريته العلمية، وحملوها ما لا تحتمل من قيم إلحادية، واستغلوها كدليل علمى زعموا أنه يثبت عدم وجود الخالق، مع أن داروين قد اشار صراحة فى كتابه المشهور الى الخالق. وكما ظلم داروين من دعاة الإلحاد الذين كونوا المدرسة الدارونية من بعده، و ربطوا اسمه بإلحادهم من غير وجه حق، سارع أهل الكهنوت من مسيحيين ويهود بوصفه بالإلحاد من غير أن يتحققوا مما قال، ومن غير أن يكون لديهم دليل قطعى أن ما قاله يتعارض مع معلوم من الدين بالضرورة. المؤسف جدا أن علماء المسلمين لم يترددوا، على اختلافهم مع كهنوت اليهود والنصارى، فى ان يسلكوا نفس السلوك، ناسين أو متناسين أن دينهم يهيمن على الدين كله، وهو اولى بمناصرة العلماء والتثبت من صحة اكتشافاتهم قبل إصدار الأحكام الجائرة عليهم. فبينما لم يتورط المسلمون فى وصف جاليلو بالإلحاد، انزلقوا فى تكفير داروين، لا لشئ إلا لأن الشيوعيين كانوا أول من روج لنظريته لتسويق إلحادهم من غير وجه حق.

الشيوعية والرأسمالية الغربية:

من المهم ان نسلط بعض الضوء على دور المعسكرين الشرقي والغربي فى ترويجهم المغلوط للنظرية الداروينية وأفكار **كارل ماركس**، اذ ان هذا التداخل قد لعب دورا هاما فى ان يتجاهل المسلمون مفهوم التطور. عندما قامت الحركة الشيوعية على يد لينين {1870-1924} ومن بعده جوزيف سيتالين {1879-1953} فى الاتحاد السوفيتي فى بداية القرن الماضى، قام هذان الرجلان باستغلال سيئ لاسم داروين وماركس لترويج إلحادهم المعلن، والذي فُرض بقوة الحديد والنار على كل شعوب الاتحاد السوفيتي آنذاك. فقد نُسب الى داروين اثباته العلمي انه لا يوجد خالق وان الحياة بدأت وفقا لقانون التطور، الامر الذى لم يدعيه داروين ولم يكن من ضمن افكاره

لا من قريب ولا من بعيد. بذات الخبث نسبوا الى كارل ماركس انه دعي الى منع دراسة الأديان لانها "أفيون الشعوب" وتحول دون تقدم الانسانية.

الطريف فى الامر ان **كارل ماركس** والذي ارتبط اسمه فى أذهاننا بالالحاد والشيوعية المندحرة، ينحدر من اسرة يهودية المانية اعتنقت المسيحية ، وقد كان مفكرا اقتصاديا طرح فلسفة للعدالة الاجتماعية اصطدمت بالنظرة الضيقة لاله الكنيسة، فلم يتردد ماركس فى رفض ما قدمته الكنيسة باسم الله . ورغم ان ماركس كان رافضا لمفهوم الدين مطلقا، الا اننا نعتقد ان كل الذين يتجرأون على "الرب" فى الغرب انما يقصدون رفض المفهوم المغلوط للدين الذى قدمته لهم الكنيسة وليس بالضرورة انهم سيرفضون الاسلام اذا قدم اليهم بصورة منطقية. اما مقولته الشهيرة فى ان "الدين افيون الشعوب" ، فقد اختلفت الروايات في ما قصده بها ، ومن ثم تم استغلالها استغلالاً سيئاً من قبل لينين وستالين لتبرير قهرهم للمسلمين واليهود والنصارى فى دول الاتحاد السوفيتي وفرض إلحادهم قسرا على اؤلئك.
كارل ماركس{1818-1882} الذى مات كما مات داروين زمنا قبل ظهور الشيوعية، دخل فى حوارات مع اهل الاديان بطبيعة الحال، وكان رأيه مناقضا لما كانت الكنيسة تطرحه حينذاك، وبالتالى اصبح رافضا لاله الكنيسة الذى يعرفه. فى مقولته المشهورة تلك، يقال انه كان يشير الى ان الفقراء الذين لا تتحقق آمالهم فى الدنيا يجدون فى الايمان بالرب وانتظار الجنة "مُسكّنا" لآلامهم فى الدنيا كما يسكن الافيون آلام الجسد. بقي ان نشير الى ان كلمة "أفيون" التى لها وقعٌ مقذذ على آذاننا الآن، كانت كلمة عادية فى عهد ومجتمع ماركس، لان الافيون فى زمان ماركس كان يباع فى الصيدليات بلسماً كما يباع الاسبرين فى زماننا. إذا فماركس ربما لم يتهم الأديان بانها تحطم حياة الشعوب كما تحطمها المخدرات حسب ما اختلفت الآراء في مقصده من تلك المقولة، وانما اراد بكلمته تلك ان يشرح دور الدين فى حياة الفقراء الذين يرجون عند الله ما لم يجدوه فى الدنيا، فتسكن آلامهم ويزداد صبرهم، رغم اعتراضه المبدئي على هيمنة رجال الدين وافكارهم على مسار الحياة بناء على تجربته المريرة مع اليهودية والمسيحية المحرفتين.
بعد ان أساء لينين وستالين لاقوال العالمين، واستغلوا أفكارهم لفرض إلحادهم من غير وجه حق بقوة الحديد والنار، جاء الدور الخبيث للمعسكر الغربي فى ترويج سلعته على حساب الشيوعية التى روجت إلحادها على حساب ماركس وداروين زورا وبهتانا.

حينما بدأ المعسكر الغربي هيمنته على الشرق الاوسط وبالذات بلاد المسلمين، كانت ورقتهم الرابحة هى التقارب بين المسيحية الغربية والاسلام. من هذا المدخل روجت الاستخبارات

الامريكية ان الشيوعية خطرٌ داهم على المسلمين والمسيحيين، لانها تقوم على نظريتى داروين وماركس الالحاديتين، وبالتالي فمن الحكمة ان يتحالف المسلمون مع الغرب وامريكا حماية لدينهم من انتشار الإلحاد الشيوعي. من هذا الباب وصل اسم داروين الى بلاد المسلمين كداعية إلحادٍ انكر وجود الخالق وان اصل الانسان قرد، الشئ الذى لم يدعيه داروين، والتصق ذلك ايضا باتهام ماركس بالدعوة لتحريم الأديان لانها تحطم الشعوب كما يحطم الافيون جسد الانسان! وهكذا ابتلع المسلمون طعم الاستخبارات الامريكية فنبذوا الشيوعية بصورة عنيفة، ونبذوا معها نظرية داروين العلمية التى تشرح كيف بدأ الله الخلق، وافكار ماركس التى تدعو للعدالة الاجتماعية فى توزيع الثروة، وارتموا بكل عمي فى احضان **الأفيون** الامريكي الحقيقي الذى سممهم أيما تسميم، وما زالوا يستنشقونه بعد ان تم إدمان كل الوان الافيون الامريكي حتى بعد زوال الاتحاد السوفيتي وانكشاف هذه الحقائق.

موت داروين على الفطرة السليمة:

ليس غريبا اذاً أن السواد الأعظم من المسلمين "علماء وعامة" ممن يحلو لهم وصف دراوين بالإلحاد، لا يعرفون من هو داروين وماذا قال! فليس غريبا أبداً أن تجد من لا يستطيع التمييز بين داروين عالم الأحياء البريطاني المسيحي، ولينين وستالين وغيرهم من اقطاب العقيدة الإلحادية الشيوعية السوفيتية. ولعل من العوامل الأساسية التى خلقت نفورا عاما لدى المسلمين مما طرحه داروين، وبالتالى أدى الى جهلٍ وسذاجة فى التعامل مع نظريته، هو أن فكرة أن الإنسان أصله قرد فكرة منفرة لمن يظن أن الإنسان خلق بقدرة الله كإنسان عاقل من أول يومٍ فى شخص آدم، وبالتالى فإن الفكرة ترفض جملة وتفصيلا من غير دراسة ومن ثم يوصف صاحبها بالالحاد. على أن ذات المسلمين لو تدبروا القرآن لوجدوا أن أصل الإنسان فى القرآن "طين"، وهذا أمر لا يدعوا للتقزز وإنما للتدبر، بيد ان القرد كمخلوق له مستوى من الذكاء وكثير من القدرات أرقى مراحل كثيرة من مجرد طين. وآخرا وليس أخيرا فإنَّ داروين أصلا ما زعم أن أصل الإنسان قرد، ولا حتى ادعى أنه وصل لاكتشاف أصل الإنسان، بالاضافة الى أن غير المسلم لا يكفر مرتين وداروين أصلا لم يكن مسلما بالمعني المفهوم لا قبل ولا بعد نظريته، وإنما كان مسيحيا قبلها و لا يشك احد انه مات موحدا على الفطرة السليمة بعد ان رفض كل تناقضات الكتاب المقدس علنا ووجه وجهه للذي فطر السموات والارض. هذا الرفض للكنيسة وعقيدة الثالوث هو الذى جعل الكنيسة تكفره، و كان الأجدر بالمسلمين أن ينظروا الى ذلك بمعيار مختلف، آخذين فى الأعتبار أن القرآن ذكر فى مواقع كثيرة أن الله يرى آياته للذين كفروا، كما فى آية أن السموات والأرض كانتا رتقا، الشئ الذى لا يقلل من قدر آيات الله الكونية وإن كان مكتشفها غير مسلم!

ولعل من الامانة هنا ان نسوق بعض ما ادى الى حكم الكنيسة على داروين بالكفر ان احد المفكرين النصارى دعاه الى حوار ديني سنة 1880 فرد عليه داروين بهذه الكلمات: { يا صديقي انا ما عدت اؤمن ان التوراة هو عين كلام الرب الذى خلق الكون وما عدت اؤمن بأن عيسى ابن الله لذلك لا اجد داعي للحوار}! هذا القول يؤكد ان داروين قد كفر فى نظر الكنيسة، ولكنه بمنظور اسلامي قد رأى من آيات الله الكونية ما يجعله يرفض بالفطرة ما اضاف اليهود الى كلام الله وما نسبوه اليه، وان لم يتقدم اليه مسلم ليدله على القرآن ويفتح له ذراعيه، لان قوله هذا يجعله بلا شك قد تقدم نحو الله اذرعا كثيرة وان كان قد صبأ فى نظر الكنيسة.

من خلال رحلتنا الطويلة فى دراسة افكار الفلاسفة والعلماء حول قضية الخلق والتطور، درسنا الكثير عن حياة داروين ونشأته وتطور افكاره فما وجدنا الا ان الرجل كان متدبرا فى عظمة الخالق الحق وآياته الكونية، ولم يكن ملحدا او باحثا لاثبات عدم وجود خالق كما يحلو للنصاري تصويره. هذا السلوك فى تقديرنا يشابه سلوك كل من يرفض دين آبائه المتناقض بالفطرة السليمة ويبدأ رحلة البحث الطويلة عن الخالق الحق، الامر الذى ينطبق على مفهوم "ملة ابراهيم" ورحلة البحث عن الحقيقة التى سنناقشها بالتفصيل فى باب "ملة ابراهيم".

وقد يصاب الكثيرون بالدهشة اذا علموا ان فكرة التطور نفسها كان شارلس داروين قد اكتسبها من جده ايرازماس داروين والذي كان قد تعلمها من ترجمات ابن عربي في { عقلة المستوفز} وابن خلدون في{المقدمة}، الذين عاشا قرونا قبل عهد داروين. بل ان فكرة **ان الحيوان الراقى كان مرحلة بين طور النبات والانسان** كانت من افكار ابن عربي وخلدون، فى زمان كانت فيه حرية الفكر متاحة بقدر ما كانت عقول وقلوب المسلمين مفتوحة للتدبر فى اسرار الكون وعظمة خالقه.

نـظريـة داروين:

من الامانة العلمية ان نشير الى ان نظرية داروين كأي نظرية علمية قد ثبت ان فيها نقاط ضعف وحلقات مفقودة كثيرة، وليس حلقة واحدة كما كان يظن داروين. ولكن كل تلك الحلقات المفقودة لا تشير الا الى تدخل قدرة الله المباشرة للتحكم فى مسار الخلق والتطور، الشئ الذى لا يعتمده العلم كحقيقة واقعية وبالتالى تزداد الفجوات فى النظرية كلما اتسعت دائرة المعرفة، طالما اصر علماء المادة ان التطور تم بصورة تلقائية فى غياب خالقٍ ومدبر للكون!

من أهم الأسس التى ترتكز عليها نظرية التطور عند داروين ما يلى:

أولاً: إنّ دراسة الأحياء تؤكد أنها تضم أنواعا أعلى وأخرى أدنى، ابتداء من مخلوقات تتألف من خلية واحدة الى حيوانات تتألف من ملايين الخلايا.

ثانياً: بمقارنة هذه المعلومة مع المشاهدات والحقائق التى كشفتها الحفريات نرى أن هنالك ترتيبا ارتقائيا بحسب الزمن، فالحيوانات التى وجدت فى الأرض قبل ملايين السنين كانت بسيطة التركيب، ثم ظهرت أنواع أكثر تعقيدا على مر الزمن.

ثالثاً: النظام الجسماني لكل الأحياء متشابه جدا، إذ أنها جميعا تتكون من ملايين الخلايا الحيوانية والنباتية ذات المواصفات الثابتة، وبناءً على هذا الاكتشاف يحتمل أن تكون كل الأجسام الحية منتهية الى أسرة واحدة وأصلها من خلية واحدة .

رابعاً: تتطور أجيال الأحياء و الحيوانات نحو الأمام ونحو الأفضل، للتعايش مع الطبيعة المتغيرة وفقا لقانون الانتخاب الطبيعي، عندها تحدث فروقات فى الحيوانات التى خرجت من أصل واحد، وهذه الفروقات تكبر بصورة مدهشة بعد ملايين السنين! وقانون الانتخاب الطبيعي يعنى أنه فى ظروف متشابهة، فان الحيوانات الأقدر على المنافسة ومقاومة الأمراض وتحديات الطبيعة، هى التى تستمر فى التناسل لتحفظ العنصر بينما الحيوانات الضعيفة من نفس النوع تنقرض.

قامت اسس النظرية على بحوث اجريت على مخلفات مختلف الاحياء التى عثر عليها فى حفريات اثرية ما زالت تجرى فى اماكن متفرقة من العالم. ومن هذه الحفريات والبحوث استنتج علماء الطبيعة أن الأنسان تطور من حيوان أدنى، وتم تشبيهه بالقردة اليوم نسبة الى أنَّ عظامه دلت على أنَّه كان يمشي مكبا على وجهه وكان يتسلق الأشجار، ومن هنا جاء الافتراض الأول أنَّ أصل الإنسان قرد! هذا الحيوان البدائي أو الشبيه بالقرد تطور مع مرور ملايين السنين، إذ لاحظ العلماء فى كل مرحلة من مراحل التطور أن جمجمته تكبر، مما يدل عندهم على تطوره العقلي. وقد استطاع علماء الطبيعة إثبات عملية تطور هذا الحيوان البدائي من غير مفاجآت عبر ملايين السنين، الى أن وجدت معضلة لم يستطع أحد تفسيرها علميا حتى الآن.

فقبل نحو حوالي سبعة الف سنة فقط حدث تغيير مفاجئ فى سلوكه وتغير الى إنسان عاقل، من دون أن يكتشف العلماء الى يومنا هذا السبب وراء هذا التغير والتطور الفجائي. ولأن هؤلاء العلماء أصلا لم يكن همهم هو إثبات عدم وجود خالق، علما بأنَّ معظمهم كان من أهل الكتاب الذين يؤمنون بوجود خالق بصورة أو بأخري، فقد قاموا بتسمية هذه القفزة بـ "الحلقة المفقودة" فى نظرية داروين؛ أى أنهم قبلوا علميا ان أصل الإنسان العاقل مخلوقات أشبه بالقردة تطورت تدريجيا، لكنهم فشلوا فى فهم وتفسير الكيفية التى نقلت هذا المخلوق الذى تم تشبيهه بالقردة الى إنسان عاقل، ولكنهم أثبتوا أن هذا التغيير تم بصورة فجائية مخالفة لقانون التطور الطبيعي، الذى استغرق ملايين السنين فى نقل المخلوق الأدنى من مرحلة المشى على أربعة الى مرحلة تسلق الأشجار مثلا.

هذه الخلاصة ما عادت ملكا لأحد، إذ أن تواتر الاكتشافات كله يشير الى نفس النتيجة، و يمكن متابعة كثير من اكتشافات الحفريات القديمة التى اثبتت أن الإنسان بشكله الجسماني وهيكله العظمي قد تطور من حيوان يمشي على أربع ويتسلق الأشجار ويفترس الحيوانات وذلك قبل ملايين السنين، ثم تطور واعتدل فى مشيه وصار يمشي على اثنين، وقبل ما يقل عن سبع ألف سنة فقط وُجد الانسان العاقل.

وحتي نكون منصفين لداروين كعالم وليس كداعية إلحاد إذ أنه لم يدع الى إلحاد فى نظريته، لا بد لنا أن نشير الى أن نظرية التطور ليست نتاج بحث واحد أو فكرة رجل واحد، وإنما هى سلسلة متصلة من البحوث كلها تؤكد النظرية الأولى، حتى بعد مضى ما يقارب القرن ونصف من عهد داروين. فقد نشرت مجلة الطبيعة العلمية واسعة الإنتشار فى أروبا وأمريكا وبقية أنحاء العالم والتي تحظى باحترام العلماء والباحثين فى كل مجالات الطبيعة، نشرت فى سنة 2006 بحوثا لخصت ما يظنه العلماء الى الآن فى أمر تطور الإنسان كما يلى:

1. اقدم جمجمة تجمع بين صفات القرد والإنسان يرجع تاريخها الى ما بين ست وثماني ملايين سنة.

2. يرجع عمر أقدم هيكل عظمي أقرب الى الإنسان الى خمس ونصف مليون سنة وقد سميت هذه الفصيلة من المخلوقات بالـ {ارديبيثيدكس}!

3. عاش ما يعرف بـ { اردبيثيدكس راميدس} قبل اربعة ونصف مليون سنة وقد تميز بأسنان نصفها أسنان إنسان ونصفها أشبه بأسنان القرود!

4. وجدت عظام الـ {اوسترالوبيثيكس انامينس} سنة 2006 وقد عاش هذا المخلوق قبل اربع مليون ومائتي الف سنة وتميز بطقم أسنان إنسان متكاملة، بالإضافة الى فقارات تساعد على المشي فى اعتدال وليس منحنيا.

5. قبل ثلاث ملايين ومائتي ألف سنة عاش الـ {اوسترالوبيثيكس افارينسس} وتميز بأصابع كبيرة فى قدميه تساعد على المشي المعتدل السريع، بالإضافة الى مرونة فى مفصل الساعد والأصابع تساعد على القبض كما يقبض الإنسان يده.

6. قبل مليوني سنة عاش ال {اوسترالوبيثيكس روبستس} الذى تميز بوجه أكثر تسطحا وأقرب لوجه الإنسان، لكنه لم يكن لديه ناصية وتجويف جمجمته لا يزيد على 500 سم مكعب مما يدل على صغر المخ.

7. قبل مليون سنة عاش الـ {هومو ايركتس} الذى مشى معتدلا وتميز بفك بارز لكن من غير حنك، بالإضافة الى أن تجويف جمجمته زاد الى 1100 سم مكعب أى ان حجم مخه تضاعف خلال مليون سنة!

8. قبل مائتين وثلاثين الف سنة عاش الـ {هومو نينارديرثالينسيس} الذى تميز بجمجمة اكثر استدارة وأكتاف متسعة أشبه بأكتاف الإنسان ومشية معتدلة، كما ثبت أنه عاش فى مجتمعات عشائرية ووجدت بقاياه فى اماكن متقاربة مما يدلل على شبه المجتمع القروى.

9. وقبل أربعين ألف سنة عاش أول إنسان فى شكل مجتمع يبدو منتظما واتصف بصفات انسان اليوم من حيث الشكل وحجم الجمجمة والمخ. رغم ذلك فهذا المخلوق لم يترك اثرا واضحا يدل على امتلاكه للعقل البشري.

10. قبل حوالي سبعة الف سنة تقريبا، وُجد الإنسان العاقل الذى ترك حضارات واضحة وعمراناً، معلنا بذلك وجود الجنس البشري العاقل وبدء الحضارة الانسانية على الأرض. هذه النقلة المفاجئة فى سلوك الانسان وتحوله فجأة الى مخلوق جبارٍ فى الأرض هى ما سماه داروين بالحلقة المفقودة، اذ انه ومن سار على خطاه لم يستطيعوا معرفة السر الذى حول الانسان فجأة الى انسان عاقل بهذه الصورة المفاجئة.

إذا فعلماء الطبيعة لا شأن لهم فى بحوثهم بالخالق، وإنما هم يعرضون صفات الخلق حسب ما وجدوها. هذا بالإضافة الى أنهم اعترفوا بأن كل المراحل السابقة لظهور الإنسان العاقل كانت مفهومة، وحدثت نتيجة تطور فرضته ضرورات الطبيعة القاهرة بصورة بطيئة، إلا أن ظهور الإنسان العاقل فجأة ظل حلقة مفقودة فى بحوثهم وسرا لم يزعموا أن لديهم تفسيرا له.

من هذا نصل الى أن قصة خلق الإنسان مازالت مفتوحة على مصراعيها من ناحية علمية، وذلك لأن علماء الطبيعة لم يحسموها، إذ أنها غير قابلة للتجربة والاختبار المعملي، إنما للملاحظة والاستنتاج. ويتضح لنا جليا أيضا أن حماقة علماء الدين فى الغرب، هى التى فتحت الباب على مصراعيه لدعاة الإلحاد لإلصاق نظرية التطور التى لم تطرح أصلا بديلا للدين ولا دليلا على عدم وجود الخالق، بعقيدة الإلحاد بصورة فتنت الكثيرين ممن يعولون على العلم وتضيق صدورهم بضيق أفق دعاة الأديان على اختلاف عقائدهم.

الصراع بين الدين والعلم:

لما كان الإسلام هو الدين الوحيد الذى يشجع على العلم ويمجد العلماء، كان لزاما على علماء المسلمين وعامتهم أن يسارعوا بالتثبت من حقيقة اكتشافات ونظريات العلماء وإعطائها فرصة للبحث والنظر والدراسة المنطقية، قبل أن ينزلقوا فى منزلق الكنيسة التى تسارع فى تكفير كل من يأتى باكتشاف لا يتفق مع كتبهم المحرفة وإن كان فى القرآن ما يسنده. ولأننا نؤمن أن الفهم

السليم لنصوص القرآن والعلم المادي المثبت لا يتناقضان أبدا، فإننا سنحاول أن نجد مدخلا توفيقيا بين رأى علماء الطبيعة وتفسير علماء الدين فى قضية خلق الإنسان.

مما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالي ما أنزل كتابا سماويا إلا قص فيه قصص الامم السابقة، ودعا الناس للتدبر فيما حدث لهم حتى نعتبر منهم . بمعني آخر فإن علم الآثار فيه من العبادة والتفكر فى قدرة الله تعالى ما يدعو للإيمان وليس الكفر إذا درس دراسة عاقلة، فالتوراة والانجيل والقرآن مليئة بقصص من قبلنا وإنجازاتهم ومصيرهم أيضا، والقرآن أكثر صراحة فى دعوة المؤمنين للاعتبار بقصص من قبلنا، بل إن القرآن صرح بأن الله تعالى قد نجي فرعون بجسده مثلا ليكون آية للناس:

{فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} 92 يونس!

إذاً فدراسة تاريخ الفراعنة ومصيرهم عبادة، لأن فيها آيات من آيات الله وليس بالضرورة تقود للكفر، وقد لفت الله تعالى انتباهنا لمساكن عاد وثمود وغيرهم وما صار اليه أمرهم:

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ }58 القصص!

و قوله: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ}38 العنكبوت !

وفي قوم لوط وصف الله تعالى أننا نمر على آثارهم:

{وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ} 137 الصافات!

بل وصف الله تعالى سورة يوسف وهي أكثر السور فى القرآن تفصيلا لقصص من قبلنا أنها أحسن القصص:

{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} 3يوسف!

ويذكرنا الله أن نعتبر من قصصهم:

{لَقَدْ كَانَ فى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} 111يوسف!

وتوجيه هذه الآية بالخطاب الى اولى الألباب يدل على أن فى قصص من قبلنا حكم يجب أن نعقلها، وليس أن نتفاعل معها عاطفيا بجهل.

حينما بدأت اوروبا تخرج من العصور المظلمة ، لم تتردد من ترجمة كل ما اتيح لهم من علوم الحضارة الإسلامية التى كانت فى قمة إزدهارها وطوروها ليبنوا على أساسها حضارتهم اليوم. وكان شأن المسلمين فى بداية عهد النهضة مشابها، إذ أنّهم استفادوا من كل ما وصلت اليه

الحضارة الرومانية و اليونانية والفارسية وغيرها فى كل ما يفيد الناس فى دينهم ودنياهم من غير حرج، رغم إختلافهم العقائدي مع الذين بنوا تلك الحضارات! لكن المسلمين اليوم غير آبهين بما آل اليه حالهم من تخلفٍ وتبعية وتمزق وإبتعاد عن دينهم وضياع فى دنياهم، وإعتماد تام على كل ما تنتجه المدنية الغربية فى العلوم والتقنية بل وحتي القوانين والسياسة، و ولكنهم لم يخطوا أى خطوات جادة فى الإستفادة من تقدم الغرب فى العلوم المادية والبحوث العلمية فى آيات الله الكونية لتطوير فهمهم لكتاب الله او تطوير دنياهم بصورة مستقلة!

إذاً فالتفكر فى خلق الكون وأصل الإنسان وأحداث الأمم السابقة عبادة وليس كفرا. على أن هذه العبادة لا بد أن تؤخذ مأخذا منطقيا يمحص استنتاجات العلماء وأدلتهم من ناحية، ويفسح المجال للتدبر فى آيات القرآن لاستنباط معاني أقرب للواقع من ناحية اخرى، إذ أن هذا هو شأن اولى الالباب. وبناء على ذلك فقد اجتهدنا فى أن نسخر العلوم التى علمنا إياها الله عن الظواهر الكونية فى إيجاد قواسم مشتركة بين ما تطرحه الأديان وما توصل اليه الباحثون من علماء الطبيعة، لتكون أساسا للمقارنة، حتى نكون أكثر واقعية فى طرحنا لقضية التطور هذه ولا نبتغي فى ذلك الا وجهه سبحانه وتعالي.

ولعل أفضل ما يمكن البداية به هو تحديد الجغرافية الزمانية والمكانية اللذين وجد فيهما الإنسان العاقل من ناحية علمية ومن ناحية دينية.

جغرافية التطور:

كما أسلفنا فإن علماء الطبيعة خلصوا الى أن أقدم آثار الإنسان العاقل ترجع الى حوالي 7000 عام. بمقارنة هذه الفترة الزمنية بما طرحه الإنجيل من نسب المسيح عليه السلام على ما فيه من علل، نجد أن الفترة الزمنية تقريبا متقاربة. فقد ورد فى انجيل لوقا أن المسيح عليه السلام قد انحدر من آدم بعد 75 جيلا من الأجداد. فإذا افترضنا أن كل رجل عاش بين ستين وسبعين عاما تقريبا، فإن الفترة الزمنية بين عيسى عليه السلام وآدم تكون 5000 سنة تقريبا. و لما كان المسيح قد ولد قبل نحو ألفي سنة، فإن الفترة الزمنية بين جيلنا اليوم وجيل آدم وهو أول إنسان عاقل حسب الأديان السماوية تصبح 7000سنة، وهذا ما افترضه علماء الطبيعة بملاحظاتهم وحفرياتهم! ولو طبقنا نفس القياس البسيط على نسب النبي صلى الله عليه وسلم فى سيرة ابن هشام، والتي نظن أنها أصلا مقتبسة من الإسرائيليات فيما بعد إبراهيم عليه السلام، لوصلنا الى نتيجة مشابهة. هذه مقارنة تقريبية فقط إذ لا يمكن إحصاء أجداد المسيح بالضبط لأن نسبه فى الإنجيل فيه من العلّات والتناقضات التى لا ينكرها اهل الكتاب انفسهم، ما يكفي للتشكيك فى صحته وهذا ما ناقشناه باستفاضة فى كتابنا باللغة الانجليزية "ثالوث يوسف"، و لكنه ليس مجال بحثنا هنا. ومن ناحية اخرى لا يمكن تحديد عمر الإنسانية باليوم والساعة لأن هذا ما لم

يدعيه علماء الطبيعة، ولكن على الأقل هناك تقارب في الفترة الزمنية التى وجد فيها آدم أبو البشر وفقا لنسب المسيح فى الانجيل ونسب النبي صلى الله عليه وسلم فى السيرة، و ما وصل اليه علماء الطبيعة من تاريخ ظهور الإنسان العاقل على سطح الارض.

أما بالنسبة للموقع الجغرافي فالأمر أيضا مدهشاً، إذ أن معظم تلك الهياكل العظمية التى أشارت الى نظرية التطور وجدت فى دولة أثيوبيا وما حولها من بلاد السودان القديم! ورغم أن علماء الغرب وعلي رأسهم الأمريكان يحبون أن ينسب كل شئ الى أرضهم، حتى المتدينون منهم يظنون أن المسيح سينزل فى أمريكا، إلا أن علماء الطبيعة الذين يطرحون الحقائق كما وجودوها أثبتوا أن أقدم عظام بشرية وجدت فى منطقة شرق أفريقيا، ولا يخفي على أى إنسان عاقل التقارب الجغرافي بين أثيوبيا والجزيرة العربية التى تشير الأديان السماوية الى أن آدم ظهر فيها وانحدرت سلالاته الأولى فيها، ويظن كثير من المسلمين أن مدينة جِدَّة قد سميت بهذا الأسم لأن حواء جدة البشر مدفونة فيها.

من هذا يمكن أن نخلص الى ان هناك تشابها كبيرا فى رأى علماء الطبيعة والدين فى تحديد الزمان والمكان الذين ظهر فيهما أول إنسان عاقل، وهاتان نقطتا إتفاق يجب التعويل عليهما فى مواصلة البحث، والمقارنة بين رأى الدين والعلم فى هذا الأمر.

على أن الخلاف بين الفئتين يكمن فيما إذا كان آدم هوفقط أول إنسان عاقل حسب رأى علماء الطبيعة، أو أنه أول إنسان على الإطلاق حسب ما يفسر أهل الاديان. فنظرية داروين تتفق مع الأديان فى أن الإنسان العاقل وجد فجأة فى عصر آدم أى نحو حوالي 7000 سنة، ولكنها تضيف أن هذا الإنسان أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، و مر بمراحل كثيرة جدا من الأطوار الى أن وصل الى هذه المرحلة، بل أنَّه كلما تطور العِلم كلما تراكمت الأدلة على أنَّ الإنسان اصلاً قد نبت من الارض نباتا، وهو بذلك يشترك مع جميع الأحياء على الارض فى أصله!

هذه الإضافة من أهل العلم تسبب حرجا كبيرا لأهل الأديان فى الغرب، أشبه بحرج الكنيسة من وصف جاليلو بأن الشمس هى مركز المجموعة الشمسية وليست الأرض، فى زمان كان تفسيرهم للنصوص التى بين يديهم لا يحتمل ذلك الاكتشاف، ومن عارض ذلك كفر! فالديانة اليهودية ومن بعدها النصرانية التى تستقى فهمها لأصل الخلق من توراة اليهود، لا تقبلان مناقشة احتمال وجود سلالة الإنسان قبل آدم على الاطلاق، وما ذلك إلا لأن الدين والمنطق عندهم شيئان مختلفان لا يمكن التوفيق بينهما. وما يزيد الأمر تعقيدا فى الغرب المسيحي واليهودي هو أن الكتب السماوية التى يرجعون إليها لا يمكن إعادة تأويلها لأن الأصول الحقيقية قد اندثرت، وما بين يدي الناس ليس إلا تراجم لا يستطيع الإنسان تأويلها بطبيعة الحال.

وهكذا اتهم الكهنوت الغربي داروين بالكفر من غير أن يتفكروا فيما وصل إليه بحثه، ومن ثم تبعهم علماء المسلمين بكل بساطة رغم أن دينهم يدعو الى التدبر واحترام المنطق، ورغم أننا نقرأ القرآن العربي المحفوظ كما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن حقنا بل من واجبنا إعادة فهم النصوص التى تشير الى قضايا كونية لم يرد فيها نص ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التفسير. ونسبة لاتباع المسلمين لليهود فى ضيق أفقهم هذا، فقد عجزوا حتى الآن من إقناع الرأي العام العالمي بأن الإسلام حق، لأنهم اتبعوا أسلوب الكهنوت الغربي فى تكفير علماء الطبيعة، من غير فهم علمي لبحوثهم، ومن غير مراجعة منطقية لتفسيرهم لآيات القرآن التى وصفت تطور الإنسان و خلقه من طين.

لو نظرنا فى تاريخ تطور العلوم التطبيقية، وربطناها بفهم وسلوك رجال الدين لوجدنا أن هناك حقائق علمية اخرى، مشابهة الى حد كبير لنظرية داروين، لكنها لم ترتبط بالكفر لأن دعاة الإلحاد لم يسرقوها لتكون برهانا لإنكارهم وجود لله، ومن ثم لم تثر غضب رجال الدين، مما اتاح لها فرصة كافية لتبحث وتثبت وتصبح من أبسط المعلومات التى يتعامل بها الكهنوت والرجل العامي كما يتعامل معها العالم . مثلا حينما اكتشف الأطباء أن السائل المنوي يحتوي على ما يقارب المائة مليون حيوان منوي وواحد فقط منهم ينجح فى تلقيح البويضة، وأن مبيضي الانثى يحتويان على حوالي خمسمائة بويضة، واحدة فقط تنضج كل شهر، لم يؤد هذا الاكتشاف للظن من قريب او بعيد ان الله غير موجود، وان الابوين هما اللذان يخلقان الأطفال! فالاكتشاف أخذ ببساطة على أنه دليل على عظمة الله تعالى، وأخذه المسلمون كتفسير للكثير من الآيات التى وصفت الإخصاب وتكوين العلقة والمضغة ثم الجنين كما وصف القرآن، فقالوا: "صدق الله العظيم".

حينما يصل الاكتشاف أو النظرية العلمية للمسلمين قبل الملحدين فإنهم قد يبحثون لها عن تأكيد من القرآن ثم يقبلوها كآية من آيات الله بهدوء بل وفخر، ولكن إذا التقط المعلومة أو النظرية دعاة الإلحاد أولا وربطوها من غير وجه حق بإلحادهم، يسارع جال الدين- مسلمين ونصاري ويهود- الى رفض الفكرة جملة وتفصيلاً وتكفير مكتشفها وإن لم يكن ملحدا، وتحريم حتى التدبر فى آيات الله الغامضة التى ربما تكون تفسيرا لها، وكأن الله تعالى قد أوكل اليهم التحدث باسمه، و تأويل كلماته التى لا يعلم تأويلها الا هو بمعني محدود دون غيره.

وقبل أن ننتقل لمناقشة قضية خلق آدم من وجهة نظر دينية، يستحسن أن نلخص الاحتمالات المنطقية لمدي صحة أو عدم صحة نظرية التطور لدي داروين، مستهدين فى ذلك بحكمة الله تعالى فى طرح الاحتمالات المنطقية فى كل حوار أو بحث:

{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فى ضَلَالٍ مُبِينٍ} 24 سبا!

ففي أى خلاف هناك احتمالان يجب أن يدرسهما أى باحث حكيم قبل إصدار الأحكام ، ويجب عليه بنص القرآن أن يدخل الحوار متقبلا لاحتمال أن يكون هو المخطئ وليس بالضرورة نظيره! ومن هذا المنطلق فان الاحتمالات المنطقية فى قصة التطور هى:

الاحتمال الأول: أن يكون العلم التجريبي مخطئا تماما، وأن الإنسان العاقل وجد فى شخص واحد و هيئة واحدة وعقل مكتمل منذ أن دبت فيه الحياة، وأن ما وصفه علماء الطبيعة ليس إلا هراء وفسقاً لا يقبل حتى النظر فيه.

هذا الاحتمال يرسخ الطلاق الأحمق بين الدين والعلم ويجعل أهل الكهنوت فى حرج دائم، إذ أن علماء الطبيعة لديهم من الأدلة ما يكفي على الأقل فى إثبات أن الإنسان مشى على الأرض ملايين السنين قبل عهد آدم. قبول هذا الاحتمال من غير نقاش يبرز الدين بصورة متحجرة مما يزيد من معتنقي الإلحاد، إذ أنه يترك بين يديهم أدلة علمية مادية يضللون بها العامة فى وقت يرفض فيه أهل الأديان حتى مراجعة فهمهم للنصوص المنزلة على ضوء ما توفر للإنسان من علم بآيات الله الكونية. ونظن والله اعلم ان مثل هذا التفكير المتحجر يعارض قول الله تعالى:

{قُلْ سِيرُوا فى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 20 العنكبوت

الاحتمال الثانى: أن يكون الإنسان حقيقة قد خلق فى أطوار متلاحقة، وعاش حينا من الدهر كحيوان أدني و لم يكن شيئا مذكورا، ثم تطور الى أن أصبح مخلوقا أقرب للقردة فى هيئته، فأفسد فى الارض وسفك الدماء، ثم قفزت به قدرة ما، وهي ما يشير إليها داروين بالحلقة المفقودة، الى إنسان عاقل بعد أن طُوِّر عقله الى عقل إنسان.

فى الاحتمال الثانى يترك علماء الطبيعة الباب مفتوحا لكل من لديه دليل، ليثبت أن الخالق الأعظم هو الذى طور هذا المخلوق الى إنسان عاقل قبل أقل من سبع ألف سنة، ليكون تفسيرا للحلقة المفقودة، الشيئ الذى يمكن أن يحدث تزاوجا طبيعيا بين العلم والدين ويقطع الطريق أمام دعاة الإلحاد من أن يسوقوا الناس الى إنكار الله من غير دليل علمي أو منطقي.

فى بحثنا هذا نؤمن أن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ونؤمن أن الحكم على جاليلو بالسجن كان خطأ كبيرا لأن الشمس هى مركز المجموعة الشمسية، والله برئ من تفسير الكهنوت الضيق لكلماته فى الكتب السماوية السابقة. وكذلك نظن أن فى كتاب الله من الدلائل على أن قصة خلق آدم أكبر بكثير مما توارثه المسلمون وما تناقلوه من الإسرائيليات. ونؤمن كذلك أن الإسلام يحث

على العلم ويشجع الإنسان على البحث والتدبر فى آيات الله الكونية، ولا عيب فى فهم جديد لآيات القرآن ما لم يتعارض ذلك مع نص قطعي، أو تفسير مؤكد من الرسول صلى الله عليه وسلم.
أن قرآنا ابتدأ بسورة العلق {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذى خَلَقَ*خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الذى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} لا يمكن أن يحجر اعجازاته العلمية كائنا من كان!

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ:

قبل ان نبحث فى مفهوم التطور فى القرآن من الضروري ان نلقي ظلالا على عروبة وبيان القرآن التى اشار الله تعالى اليها، كما فى آية سورة يوسف اعلاه. عروبة الكتاب وبيانه تقتضي بالضرورة الرجوع الى اصول اللغة العربية لفهم ما كان غامضا من ألفاظه، خاصة فى الآيات التى لم يرد فيها تفسير من الرسول صلى الله عليه وسلم، وتلك التى تناقش آياتٍ كونية وظواهر طبيعية ما كان للسلف علم بها او قدرة على فهمها ناهيك عن فهم ما قاله القرآن عنها. وهنا لا نتحدث عن علم التأويل الذى لا يعلمه بطبيعة الحال الا الله تعالى، وانما نتحدث عن معاني الكلمات العربية التى يستعملها الله ليصف لنا امراً محددا فى القرآن.
اللغة العربية هى أول لغة تحدث بها الانسان حسب اغلب الآراء. تطورت الفاظ اللغة العربية مع الزمن من القياس على اصول المعاني، مما يجعل كل الالفاظ العربية ترجع الى اصول قد تبدو لا علاقة لها بها من الوهلة الأولى. ونضرب مثالا لذلك بلفظ "شجرة"، وهو لفظ مستعمل فى الفصحي والعامية فى كل لهجات العرب اليوم وله معنى واحد لا خلاف حوله ولا غموض فيه. على اننا لو رجعنا الى اصول اللغة نفاجأ بان لفظ "شجرة" البسيط هذا ليس اصلا وانما قياسا من الاصل " شجر"!
"شجر" لها اصل واحد يفيد التداخل والعلو. وقياسا على هذا الاصل جاءت كلمة "مشاجرة" التى تعنى العراك، وما ذلك الا لان المتشاجرين تتداخل اياديهم وارجلهم وتعلو اصواتهم. وقياسا على هذا الاصل جاءت كلمة "شجرة" لان فروعها تتداخل باستمرار وأنها عالية.
هناك خلطٌ بين حقيقة ان القرآن نزل بلغة العرب وكونه يحوي علم الله الذى لا يعلمه الا هو. فالعرب كانوا يستعملون من الألفاظ ما يعبروا به عن حياتهم اليومية البسيطة وما هو داخل فى اطار معرفتهم، ولكن من الطبيعي ان علمهم باسرار الكون كان محدودا جدا، وبالتالي فان الالفاظ والمعاني التى كانت متداولة بينهم لم تكن تعكس الا علمهم بالحياة ولكن ليس كل اصول اللغة.

فلما نزل القرآن بلغتهم يكشف اسرار الكون، اشتمل على قدرٍ من القياسات اللغوية من اصول المعاني العربية ليشرح لنا بها ما لم تكن العرب تعرفه.

من مثال "الشجرة" البسيط اعلاه، نلاحظ ان ارجاع الالفاظ الى اصولها يفتح بابا واسعا لاتساع المعاني، وبالتالي زيادة البيان فى مضمون الآيات القرآنية خاصة تلك التى تبدوا الفاظها غريبة او اعرابها غامضا، وتلك التى تشرح آيات كونية صعب على السلف استيعابها كما سنرى مرارا فى هذا الكتاب، ونحن نبحث فى قصة التطور فى القرآن. ويجدر بنا ان ننوه الى ان السلف لم يجتهدوا فى ارجاع الكثير من القياسات التى سنتطرق اليها فى هذا الكتاب الى اصولها لانهم اصلا ما كان بوسعهم استيعاب مضمونها حتى ولو رويت لهم بابسط لغة، وما ذلك الا لمحدودية علمهم باسرار الكون آنذاك.

تطورالانسان عند أهل الاديان:

لعل من الحكمة هنا أن نجمل فى نظرة سريعة ما تفرد به القرآن دون غيره من الكتب السماوية، فى سبق العلماء بطرحه لقضية التطور نفسها. ولعل من الضروري جدا أن نؤكد على أن كلمة " أطوار" نفسها كلمة قرآنية قبل أن تكون داروانية كما التصق بأذهان كثير من المسلمين وهم يتلون القرآن.

الطرح القرآني للتطور:

من الملفت للنظر أن الله تعالى حينما يصف ظاهرة كونية أو حقيقة علمية يستدرج العقل البشري بالتدبر فيها ومن ثم الاستزادة من البحث، وذلك بطرح الحقيقة بكلمات مختصرة جدا، ولكنها منتقاة من اللغة العربية بحكمة بالغة، مما يوحى بأبعاد عميقة جدا تستفز العقل البشري وتثير الفضول، وهكذا كانت سورة الإنسان.

فاختيار اسم "الإنسان" ليكون اسما للسورة نفسها يثير قشعريرة فى جسد من يتدبرون فى أسرار الكون! الإنسان ذلك المجهول الذى يولد ضعيفا ثم ما يلبث أن يفرض سلطانه على كل المخلوقات! الإنسان الذى يخلق من حيوان منوي وبويضة ثم ما يلبث أن يتحكم فى قوانين الطبيعة القاهرة، بل ويعدل فى نظام خلقه بتدخله فى الجينات وأطفال الأنابيب ونسخ الحياة! الإنسان ذلك المخلوق الذى تفوقه معظم الحيوانات بقدرة حواسها سمعا وبصرا وشمًّا وصرعة، ولكنه بسلطان العقل يفرض سلطانه عليها ويسخرها لخدمته! الانسان ذلك الحيوان الذى لا يستطيع إلا أن يمشي أو يجري على الأرض، لكنه يفرض سلطانه فى جو السماء وعمق البحار بسلطان العقل والعلم. الانسان بحر عميق ملئ بالأسرار والمجاهيل التى لا يعرفها كماً وكيفاً إلا الذى خلقه فسواه فعدله سبحانه وتعالي.

بدأت هذه السورة بآية مدهشة لو عرف الإنسان أبعاد مدلولاتها التى لا يعلمها إلا الله تعالى ربما تغير مسار البشرية جمعاء:

{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} 1الإنسان!

كلمة "حين" فى اللغة تعنى الفترة الزمنية المحددة التى يمكن ان يستوعبها الإنسان، لكن كلمة "الدهر" والتي وردت فى القرآن مرتين فقط، فلها أكثر من معنى: الدهر هو القهر والقسوة لغةً، وحينما تستعمل كلمة "دهر" فى موضع الزمن فتعنى الزمن القاهر القاسى، أيضا فالدهر هو الزمان بمعناه المطلق، إذ أن هناك زمنا يمكن للإنسان أن يقيسه بالليل والنهار، لكن الدهر يشير الى امتداد الوجود من غير حدود، ولذلك كانت عقيدة المشركين حينما رفضوا قضية البعث بعد الموت:

{قَالُوا مَا هى إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} 24 الجاثية! أى أن الطبيعة هى التى أوجدتنا والطبيعة القاهرة على مر العصور هى التى تهلكنا!

فكأن الله تعالى فى هذه الآية لا يسألنا: "هل يا ترى أتى على الإنسان..." وإنما يخبرنا أن الإنسان قد وجد حينا من الدهر فى زمان قاهر وقاس لم يكن بوسعه قياسه أو فهمه أو مقاومة قسوته، ولم يكن له حينذاك دور فى الوجود كأنه لم يستحق الذكر! فمتي كان هذا الحين من الدهر الذى ما كان للإنسان فيه قيمة تذكر؟

إذا افترضنا أن الانسان وجد فقط فى عصر آدم كما يفهم علماء الدين، فإن آدم عليه السلام كان نبيا مصطفى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} 33 آل عمران! إذاً من غير المعقول أن يكون آدم المصطفى وجيله وذريته الأولى غير جديرين بالذكر!

نفس المنطق ينطبق على كل ذرية آدم، إذ أن التكليف بالخلافة أمر متوارث لكل الإنسانية الى آخر الجنس البشري، ولا يعقل أن يجعل الله خليفة فى الأرض لا يستحق الذكر، علما بأن بنى آدم ما تركوا من غير نبي أو رسول على مر العصور، منذ عصر آدم الى خاتم الأنبياء والمرسلين كما فى قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} 24 فاطر.

فهل يستقيم منطقا أن هذا الحين من الدهر الذى وجد فيه الإنسان بلا قيمة تذكر، قد حدث بعد عصر آدم المصطفى والرسل تبعث رسولا بعد رسول؟ أو إن الآية تشير الى حين من الدهر سبق عصر الرسل والأنبياء، وسبق عصر آدم المصطفى حينما كانت السلالة التى أنشأ الله منها الإنسان تصارع الطبيعة القاهرة، ولا تملك سلطانا عليها كما امتلك الإنسان العاقل مؤخرا هذه القدرة!

فإن كانت هذه الآية الأولى تلمح الى عملية تطور نقلت الإنسان كجنس من المخلوقات من دهر لم يكن له فيه قيمة الى زمن أصبح فيه خليفة لله فى الأرض، فان سورة الإنسان "ذلك المجهول" تستمر فى سبر غواره ووصف جوانب اخرى من جوانب تطور الإنسان أكثر صراحة ووضوحا وهي قضية تطور الانسان الفرد من عناصره الأولية الى بشر:

{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا } 2 الإنسان!

ولما كان السمع والبصر صفات يشترك فيها الإنسان مع كثير من الحيوانات غير العاقلة وغير المكلفة، فقد أكمل الله تعالى مراحل تطور الإنسان بمنحه العقل موضع التكليف:

{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} 3 الإنسان!

فكأن الله فى هذه الآيات الثلاث يطوي بكلمات سريعة جدا، ثلاثة أشكال من التطور مر بها الإنسان، فقد وجد الإنسان كمخلوق غير جدير بالذكر فى زمان قاهر، فحافظ الله تعالى على وجوده بتطور داخلي مستمر فى تركيبه البيولوجي، إذ أن "النطفة" هى قطرة الماء، و "الأمشاج" تعنى "المتداخلات"، ويظن علماء الطب فى زماننا أن الأمشاج يمكن تفسيرها بالكروموزومات، وهي أمشاج من الأحماض النووية المتداخلة، هى التى تحدد العنصر وتنقل الصفات الوراثية، وهي ايضا مسؤولة عن عملية التطور الداخلي للعنصر الواحد بما يعرف بالطفرات الجينية! فحافظ الله تعالى على استمرار وجود الانسان رغم قهر الطبيعة بتطوير صفاته الوراثية الى ان منحه الله العقل ودخل الطور الاخير من رحلة التطور وهي مرحلة التكليف والخلافة.

ومن المواقع المثيرة للفضول والتدبر أيضا، ربط الله تعالى لمفهوم التطور بقوم نوح عليه السلام:

{مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا*وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} 12-13 نوح!

وحتي نفهم المعنى العميق لمفهوم "الأطوار" هنا لابد لنا من وقفة مع نوح وقومه وزمانه. المعروف أن نوحاً عليه السلام هو أبو البشرية الثانى بعد آدم، إذ أن الله أغرق كل من لم يتبع نوحاً، ولم ينج إلا من ركب معه فى الفلك، ثم جعل الله ذرية نوح فقط هى الباقية من بين من ركبوا معه فى الفلك: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} 77 الصافات. فالبشرية اليوم تنحدر من ذرية سام وحام وجافث ابناء نوح الثلاثة باتفاق اليهود والنصاري والمسلمين . ثم أن نوحاً عليه السلام عاش بعد آدم بحوالي عشرة اجيال كما ورد فى إنجيل لوقا واتفق معه صاحب سيرة ابن هشام، الأمر الذى يجعله وقومه أقرب الى عصر آدم من عصرنا. فإذا كان آدم يمثل طورا أساسيا فى وجود البشرية من عدم، فإن نوحاً يمثل طورا لا يقل أهمية وهو امتداد البشرية بعد أن انقرض كل من كان على الأرض من بشرٍ سوي ذرية نوح.

هذه الصفات التى اتصف بها نوح وعصره تدفعنا للتفكر فى أسلوب الخطاب الذى يمكن أن يخاطب به نبي مثل نوح قومه، ولعلنا هنا لا نستحي من أن نستقي الحكمة فى الخطاب من أحد أضعف خلق الله وهو هدهد سليمان، لنفهم لماذا قال نوح: "وقد خلقكم أطوارا". فحينما ابدى الهدهد استغرابه من شرك أهل سبأ قال:

{أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّـهِ الذى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} 25 النمل.

ففي مفهوم الهدهد أن من أعظم آيات الله هى قدرته على إخراج الحبوب المختبئة فى السماء أو الأرض لطعامه. إذاً فقدرة الله يراها كل مخلوق من زاوية حوجته وعلمه المحدود. وإذا تتبعنا خطاب الرسل لأقوامهم نجد أن ذات السياق يتكرر، وهو مخاطبة القوم بما يعلمون أنه آية من آيات الله. فالله تعالى خاطب بنى إسرائيل مثلا بـ:

{وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} 141 الأعراف، وخاطب نبي الله صالح قومه بذكر الناقة:

{وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّـهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فى أَرْضِ اللَّـهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ} 64 هود، وخاطب الله تعالى أصحاب النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم بـ:

{...إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ...} 103 آل عمران، وخاطب الله جيلنا بـ:

{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} 30 الأنبياء!.. إذاً فالخطاب يعكس مستوي علم المخاطب، فى نفس الوقت الذى يدعوه لتذكر عظمة الله وفضله عليه.

فإذا عدنا الى خطاب نوح الذى عاش بعد عشرة أجيال فقط من عصر آدم، نعتقد أن قومه كانوا بسطاء من حيث التطور العلمي وآيات الله التى يفهمونها محدودة! أيضا فإنهم كانوا قليلي العدد بدليل أن سفينة واحدة ومن صنع رجل واحد كانت كافية لحمل من اتبعه، مضافا إليهم زوجين أثنين من كل أصناف المخلوقات التى أمره الله بحملها. هذا يدل على مدي صغر عدد البشر فى زمانه وبالتالي يؤكد قرب عصره من عصر آدم وبداية الإنسان العاقل. هنا نطرح السؤال: لماذا خاطبهم نوح فى سياق دعوته ذلك الخطاب مذكرا إياهم بأن الله خلقهم أطوارا؟ هل يكون ذلك الخطاب دليلا على أن قوم نوح كانوا على علم بأصلهم كبشر، وأن المراحل التى مر بها الإنسان فى رحلته من الدهر القاسي الى الزمن المحدود مما تتوارثه الأجيال مازالت عالقة بأذهانهم من غير الحوجة لكشوفات داروين وغيره؟!

كلمة "اطوارا" تحتمل أوجها كثيرة، أشهرها فى زماننا هى فكرة تطور الجنين من حيوان منوي وبويضة الى خلية ثم ملايين الخلايا فى الإنسان الكامل. و لكن ما لا شك فيه هو أن قوم نوح لم يكونوا على علم بهذه الحقائق المجهرية المعملية الدقيقة، ولذلك ما كانت الآية لتكون ذات مغزى لهم، إن كان هذا هو تفسيرها الوحيد! أغلب الظن أن الأطوار التى كانوا يعرفونها ويمكن أن تكون حجة عليهم فى نظر نوح هى شكل أوسع من الأطوار. فهل كان نوح يشير الى تطور الانسان من حيوان أدني مشى منحنيا كما تمشي القردة ثم أعتدل فى مشيته ثم توسعت جمجته ثم كبر عقله ثم كلف بالخلافة فامتلك سلطانا على قسوة الدهر بفضل الله واصبح خليفته فى الأرض؟ ان لم يكن الأمر كذلك فما هى الأطوار التى كان قوم نوح على علم بها ولكنهم لم يقدروها قدرها؟ ومضي نوح مخاطبا قومه بآية اخرى من آيات التطور وأصل الخلق الغامض:

{وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا* ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} 17-18 نوح!

الفهم المتعارف عليه أن "أنبتكم" هنا تعبير مجازي لتقريب المعنى، وهو أننا خلقنا من طين الأرض، ولكن المجاز لا يؤكد بمجاز آخر فى اللغة! التكرار فى: {أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} لا يفيد إلا التأكيد على أن الإنسان أصلا خرج من الأرض أول مرة تماما كما تنبت النباتات! فهل يشير هذا التأكيد الى الحقيقة العلمية أن كل المخلوقات أصلا بدأت كنباتات، ثم تطورت الى مخلوقات مختلفة؟ الإفتراض أن معنى "الإنبات" هنا ليس إلا معنى مجازيا يحتاج اولا لديل نقلي ثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أو نصٍّ آخر من القرآن يفيد أن المعنى هنا مجازي وليس المقصود أن أصل الانسان والحيوان والنبات واحد. ولكن لم نجد فى بحثنا فى القرآن إلا ما يؤكد هذا الفهم من وجوه عديدة جدا، ولكن ليس هناك ما يعارضه إلا التأويلات الإسرائيلية التى سنتعرض لها كثيرا فى هذا البحث.

ان هذه الآية وحدها تكفي لتأكيد مصداقية نظرية داروين. من المنطقي جدا ان التأويل المجازي يُفترض حينما يكون المعنى الظاهري للآية غامضا وغريبا. مثلا لو قيل للعرب قبل الف عامٍ ان كتلة الشمس تساوي اكثر من ثلاثمائة الف مرة كتلة الارض، لفهم الناس ان المقصود مثلاً ان حرارة الشمس تكفي لتدفئة هذا الكم الهائل من الكواكب فى حجم الارض ولكن ما كان لهم ان يستوعبوا ان الشمس التى تبدو فى حجم قبضة اليد الواحدة تساوي هذا الحجم الهائل. هذا الفهم المجازي يكون مقبولا الى ان يثبت علميا ان كتلة الشمس حقيقة تساوي اكثر من 333000 كتلة الارض وحينها يبطل الفهم المجازي. اذا نظرنا الى آية نوح اعلاه بذات المنظور فاننا نقبل ان التأويل المجازي لمفهوم: {أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} لم يكن ليعني للمفسرين فى عصر السلف أى شئ غير المعنى المجازي، وهو اننا نأكل مما يخرج من الارض ونموت وندفن فى الأرض. هذا الفهم المجازي كان مقبولاً فقط الى ان اكتشف علماء الطبيعة ان الانسان نبت من الارض نباتا

بالمعني الحرفي وليس المجازي، وحينها يسقط التأويل المجازي ويصبح لزاماً على علماء المسلمين ان يعيدوا فهمهم لنصوص القرآن وفقا لما اكتشفه الانسان من اسرار الخلق اليوم وليس وفقاً لما جهله السلف الصالح فى ذات المجال. رفض الحقيقة العلمية الحديثة التى تنطبق مع النص القرآني البسيط لن يكون الا حماقة وهجرٌ لكتاب الله الذى يدعونا للبحث والعلم ويحذرنا من الجهل. ما يجب على العلماء فى هذا المجال بعد ان ثبت علميا ان الانسان نبت من الارض نباتا، هو محاولة اعادة فهم قصة آدم وموقعها من قصة الخلق وليس التنطع والاصرار على تأويلات مجازية لاممٍ سابقة ما آتاهم الله ما آتانا من علمٍ باسرار كونه.

ويدهشنا القرآن مرة اخرى وهو يتناول قضية تطور الإنسان، ذلك المجهول، تناول الخالق الذى يعلم سر الخلق، وليس تناول الباحث الذى يبحث ويفترض فقط، حيث يقول تعالى فى سورة الأنعام:

{وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِينَ} 133 الأنعام.

هذه الآية لا تخاطب جيلا بعينه أو فئة دون فئة، ولكنها تحذير من الخالق لكل الإنسانية إذ أنه خاطب فى الآيات السابقة لها معشر الإنس والجن! الآية فى ظاهرها تحذر من أن الله قادر على إزالة الإنسانية جمعاء والإتيان بعباد آخرين مكاننا إن نحن تقاعسنا عن حمل مسؤولية الخلافة فى الأرض. على أن معانيها العميقة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالي، ولكنا نجتهد فى فهمها بقدر ما أوتينا من عقل وعلم لنصل الى حقيقة هامة!

من البديهي أن كل أمة خرجت من ذرية آبائها، ولكن فى خطاب الله تعالى للجنس البشري أو "معشر الإنس" كما فى الآية، فالخطاب موجه فى نفس اللحظة للأجداد والآباء والأبناء والاحفاد من غير تمييز، لاننا كلنا نمثل الإنسانية والجنس البشري على مر العصور، أصلنا واحد ووظيفتنا فى الأرض واحدة. فضلا على أن الخطاب فى الآية أرتبط بقضية الاستخلاف وهي وظيفة كل فرد من الإنس، لان آدم جعل خليفة فى الارض يوم وجد إنسانا كاملا وعاقلا وهكذا انحدرت سلالته يحملون ذات التكليف بالاستخلاف الى آخر الزمن. فكأن الله يقول لبني آدم جميعا: إذا فشلتم فى تحمل مسؤولية الخلافة التى من أجلها وجدتم، فالله قادر أن يذهبكم ثم يأتى بخلفاء جدد، بنفس الطريقة التى "انشأكم" بها يوم استخلف آدم من ذرية قوم آخرين.

"أنشأ" فى اللغة تختلف عن خلق، فالخلق هو تقدير الوجود من عدم، أما الإنشاء فهو رفع الشئ المنخفض الى أعلى، و إنشاء المباني يعنى رفعها عن سطح الأرض، "ونشأ الفتي" يعنى نما عظمه وطال وارتفعت قامته، فكيف إذاً أنشأنا الله تعالى من ذرية قوم اخرين؟ هل كان اسلافنا

يمشون منحنين فعدل الله أجساد بعضهم وأذهب الباقين، ثم أنشأنا من ذريتهم قبل أن يكلف آدم بالخلافة ؟!

نحن لا ندعي هنا تفسير آيات الله بمعني محدد، ولكننا نتعبد لله تعالى بالتدبر فى آيات قرآنية ذات معاني أعمق مما فهمها الأولون، لأن بين يدينا من العلم بآيات الله الكونية ما يدفعنا للتفكر فى خلق السموات والأرض والتبصر فى أنفسنا وخلق الأنسان أكثر مما أتيح لأسلافنا.

فإذا كان هناك أحتمال ان الله تعالى قد انشأ آدم من ذرية قوم آخرين قبل ان تسجد له الملائكة ويستخلف فى الأرض، فان آدم بهذا المعنى كان امتداداً لنطفة وامشاجٍ من آباء سبقوه، مما يجعل علاقة آدم بالطين جديرة ببحوث جديدة حتى يتم التوفيق بين الوصفين، وهذا ما سنتطرق اليه فى باب "قصة الخلق".

فى عصر نزول القرآن كان المجتمع الانساني بسيطا جدا، وبالتالي فان كماً كبيرا من آيات القرآن التى تصف الكون لم تكن ذات مدلولٍ واضح للناس، ولكن مع اتساع دائرة المعرفة اصبحت كل احرف القرآن ذات مدلولات علمية خطيرة. هذه الحقيقة تدفعنا للتأمل فى هذه الآيات:

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فى السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} 65 البقرة.

{قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} 60 المائدة.

{فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} 166 الاعراف.

فى قصة هؤلاء اورد القرطبي والطبري والبغوي احاديث تشير الى ان الله سخط فئة من بنى اسرائيل حقيقة الى هذه المخلوقات عقابا لهم على صيدهم الحيتان يوم السبت، فجعل الشباب قردة والشيوخ خنازير ثم هلكوا جميعا بعد ثلاثة ايام. لا شك ان الله الذى حول عصا موسى الى حية تسعي يمكنه ان يفعل ما يشاء، ولكن فى سخط هؤلاء الى قردة و خنازير سر يثير الدهشة مع الاكتشافات العلمية الحديثة. فالخنزير هو الحيوان الوحيد الذى اثبت العلم الى الآن ان حمضه النووي اقرب الى الانسان وانه يمكن ان تنقل اعضاؤه الى جسم الانسان ولكن لم يجري الاطباء تجربة كهذه بعد لاسباب اخلاقية. اما القرد فهو اقرب الحيوانات للانسان فى شكله وروحه وتعابيره وهيئته. وبطبيعة الحال فالقرد هو المخلوق الذى افترضت المدرسة الداروينية انه يمثل اصل الانسان فى سلم التطور. ما يثير التساؤل المشروع هنا هو: لماذا كان السخط لهذين المخلوقين وليس الى غيرهما، علما بأن معظم اهل الارض غير المسلمين يستسيغون اكل لحم الخنزير وأن كل اهل الارض يجدون فى القرد حيوانا لطيفا مرحا، ولا يستعمل أى منهما فى الذم كما يصف الناس بعضهم بعضا بـ " الكلب" من باب التحقير مثلا! ايكون هذا الاختيار فيه اشارة الى انه نوع من التنكيس فى سلم التطور وفيه اشارة الى العلاقة القريبة فى هذين المخلوقين

بخلق الانسان فى مراحل تطوره الدنيا؟ هذا ما سندرسه حينما نبحث فى اصول الخلق فى باب "آذان الانعام".

أبن خلدون والتطور:

لعل من الحكمة هنا ان ننقل راى الامام ابن خلدون فى خلق وتطور الكون من غير تعليق، تلك الفكرة التى يقال ان داروين كان قداطلع علها قبل ان يبدأ بحوثه التى انتهت بنظريته المشهورة.

تحت عنوان {تفسير حقيقة النبوة} اورد ابن خلدون ما يلى:

{ولنذكر الآن حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شأن العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول:

اعْلَمْ – أرشَدَنا الله وَإيَّاكَ- أنَّا نُشاهدُ هذا العالمَ بما فيه من المخلوقات كلّها على هيئة من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، وإتصال الأكوان بالأكوان، وَاسْتِحالَةِ بَعض الموجودات الى بعض، لا تنقضى عجائبه فى ذلك ولا تنتهى غاياته. وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثمانى. **وأولا:** عالم العناصر المشاهَدَة كيف تَدَرَّجَ صاعدا من الارض الى الماء ثم الى الهواء ثم الى النار متصلا بعضها ببعض. و كُلُّ واحدٍ منها مستعدٌ إلى أن يَسْتَحيلَ إلى ما يليه صاعداً او هابطاً، ويَسْتَحيلُ بعض الاوقات. والصاعدُ منها ألطفُ مِمَّا قبله إلى أن يَنْتَهِيَ إلى عالَمِ الأفلاكِ و هو ألطَفُ من الكلِّ على طبقاتٍ اتَّصل بعضُها ببعضٍ على هيئةٍ لا يدركُ الحسُّ منها إلاَّ الحَرَكَاتِ فَقَط، وبها يهتدى بعضُهُم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك وجود الذوات التى لها هذه الآثارُ فيها. ثم انْظُرْ إلى عالمِ التَّكْوينِ كَيفَ ابْتَدأ مِنَ المعادنِ ثم النباتِ ثم الحَيَوان على هيئَةٍ بَديعةٍ من التدريج. آخرُ أفُقِ المَعَادنِ مُتَّصلٌ بأوّلِ أُفُقِ النباتِ مثلِ الحَشائِشِ، وما لا بَذْرَ له، وآخِرُ أفق النَّباتِ مِثْلِ النَّخْلِ وَ الكَرْمِ مُتَّصِلٌ بأوَّلِ أفُقِ الحَيَوان مثل الحلزونِ والصَّدَفِ، ولَمْ يوجَدْ لَهُما إلّا قُوَّةُ اللّمس فقط. وَمَعْنى الاتّصالِ في هذه المُكَوِّناتِ أنَّ آخِرَ أُفُقِ مِنْها مُسْتَعِدٌّ بالاسْتِعْدادِ الغَريبِ لأنْ يَصيرَ أوَّلَ أفُقِ الذى بَعْدَه. واتَّسَعَ عالمُ الحَيَوانِ وتَعَدَّدَتْ أنْواعُهُ، وانْتَهى فى تَدريجِ التَّكْوينِ إلى الإنْسانِ صاحِبِ الفِكْرِ والرَّوِيَّة، تَرْتَفِعُ إليْهِ من عالَمِ القُدْرَةِ الذى اجْتَمَعَ فيه الحسُّ والإدْراكُ، ولم يَنْتَهِ إلى الرَّوِيَّة والفِكْر بالفعلِ، و كانَ ذَلكَ أوَّلَ أفُقِ من الإنسان بَعْدَه. وهَذا غَايَةُ شُهودِنا.}

ص 105 مقدمة ابن خلدون، تقديم وتحقيق : ايهاب محمد ابراهيم – مكتبة القرآن للطبع والتوزيع.

التطور عند علماء الاديان الأخري:

من المعلوم ان كلمة "تطور" التى انفرد بها القرآن على مدي قرون طويلة لم تجد من يحاول فهمها فى زمان كان من الصعب على الانسان استيعابها، فلما تطور العلم لدرجة ان مفهوم التطور أصبح قضية مهمة فى البحث العلمي، انفرد بها الملحدون ووقف اهل الاديان فى الغرب موقفا متصلبا منها وتبعهم فى ذلك المسلمون، رغم ان المسلمين يمرون على آيات التطور فى القرآن صباحا ومساء. ولعل من الادب هنا ان نذكر ان علماء السلف لم يقحموا انفسهم فى أى قضية تحتاج الى علم تطبيقي لفهمها الا بقدر ما اتيح لهم من علم، ولذلك ليس بيدنا الا ان نبرهم

ونشهد امام الله والملائكة والناس اجمعين انهم ما عبثوا بالقرآن، ولا أقحموا عدم علمهم فيه، ولا حرفوه كما حرف اليهود كتب ورسالات أنبيائهم، حتى وصلنا معجزا فى قضية التطور وقضية الخلق كإعجازه فى خلق الكون وغيرها من القضايا التى تجعل من القرآن كتابا يتحدي العقل فى كل العصور ولا تنتهي معجزاته! وعليه فسنطرح فى الباب التالى "**قصة الخلق**" عند اهل الاديان بديلا لقضية التطور، اذ ان علماء الاديان على اختلافهم لم يتفقوا فى أى دين على مفهوم محدد للتطور يؤخذ للمقارنة، ولكن وجدت اجتهادات فردية هنا وهناك لا تمثل رايا واحدا متفق عليه فى أى دين!

البـــــاب الثانى
قــصــة الخَــلْق

فى هذا الباب سنناقش مفهوم خلق الانسان من طين، ونتطرق بشئ من التفصيل للعلاقة الازلية بين مكونات الطين واستمرارية الحياة فى الانسان والحيوان والنبات. لكننا سنناقش بدايات خلق كل الاحياء من ماء فى باب "آذان الانعام" ان شاء الله.

كما أسلفنا فإن فكرة خلق الإنسان من عدم فى شخص "آدم" كأول إنسان هى المفهوم الوحيد السائد لدى أهل الاديان السماوية عموما. وفي الإسلام فإنَّ وصف خلق الإنسان قد ورد فى كثيرٍ من الآيات القرآنية التفصيلية غامضة المعنى، التى توحى باختلاف كبير عن فهم اليهود والنصارى لقضية خلق آدم. الا أننا نجد أنَّ معظم الأحاديث التى وصفت تفاصيل خلق آدم أقرب الى الإسرائيليات منها الى الصحيح الموثق عن رسول الله، مما يوحى بأنه رغم الفوارق الأساسية بين التوراة والقرآن فإن القرآن فى هذا المجال قد تمَّ تأويله بإيحاءٍ من الإسرائيليات ونُسب الى الرسول صلى الله عليه وسلم .

اشتملت الروايات المتداولة عند علماء الدين على أوصاف مختلفة لخلق آدم من طين فى شكل تمثالٍ بنى ثم نفخت فيه الروح، وجوانب اخرى تصف سكنه وزوجه فى الجنة الى حين هبوطه منها. والمتفحص لهذه القصص لا يخفى عليه مقدار الخيال الإنساني فى معظم الروايات، الشئ الذى يبرز القصة بصورة تشعر بأنَّ الخالق كأنه إنسان محدود القدرات، وأنَّ خلقه للبشر لا يمكن أن يتم الا بالطريقة الوحيدة التى يمكن أن يتخيلها الإنسان، وهي عجنه من طين وبناؤه فى شكل تمثال، ثم نفخ الروح فى أنفه أو فمه، مما يوحى بأن معظمها إسرائيليات تشبه وصف اليهود لخلق السموات والأرض فى ستة ايام واستراحة الرب فى اليوم السابع .

وحتي لا ينفذ الشيطان الى قلوبنا بسهامه، فلا بد أن نذكِّر أن عقيدة المسلمين هى أن الله سبحانه وتعالي إنما يخلق ما يشاء بفعل "كن" الذى لا راد له. فمشيئته المطلقة هى التى قدرت خلق آدم من طين فى شكل تمثال إن كانت هذه هى الرواية الصحيحة، أو خلقه فى أطوار انتهت بشكل البشر المعروف إنْ صحت الرواية الأخرى التى يظنها علماء الطبيعة. الخلق يتم بفعل "كن" وما نقوم به هنا هو تمحيص الروايات المختلفة التى وصفت كيفية الخلق ومحاولة ربطها بما وصفه القرآن من ناحية، وما ادعاه علماء الطبيعة من ناحية اخرى. وهذا الكتاب بحثٌ لمحاولة فهم الكيفية التى تم بها الخلق حسب وصف القرآن، وليس محاولة لقصر قدرات الله تعالى على شكلٍ دون غيره من طرق الخلق. وهو أيضا بحثٌ لتبرئة الخالق مما نسب إليه من قصورٍ فى فهم الآيات التى وصفت تفاصيل بيولوجية، ما كان للمفسرين أن يفهموها من غير إدراكٍ عميق

بتفاصيل الانسان كما وصل إليه علمنا فى هذا الزمن. إذاً فإننا لسنا بصدد اثبات صحة آراء علماء الطبيعة وإنما بصدد فهم أسرار آيات كثيرة فى القرآن لأننا نؤمن ان الله ما أوحى الى رسوله حرفا فى القرآن من غير معنى.

وحتي نكون موضوعيين فى بحثنا هذا فسننقل ما اشتهر من تفاصيل قصة الخلق من التوراة المتعامل به بين اليهود والنصارى اليوم، ثم نعرج الى المتداول من أحاديث فى نفس الموضوع قبل ان نبحث فى وصف الخلق فى القرآن، إذ أن قضية خلق الإنسان قضية تهم البشرية جمعاء بكل دياناتها وليس أتباع دين معين.

الخلق فى التوراة:

وصف التوراة المتداول اليوم خلق آدم كما يلى:

{ثم جبل الإله آدم من تراب الأرض ونفخ فى انفه نسمة حياة، فصار آدم نفسا حية. وأقام الرب الإله جنة فى شرقي عدن ووضع فيها آدم الذى جبله} سفر التكوين 2:8-9. ويمضي التوراة يصف خلق المرأة: {ثم قال الرب الإله" ليس مستحسنا ان يبقي آدم وحيدا. ساصنع له معينا نظيره" وكان الرب الإله قد جبل من التراب كل وحوش البرية وطيور الفضاء واحضرها الى آدم ليري باي اسماء يدعوها، فصار كل اسم اطلقه آدم على كل مخلوق حي اسما له. وهكذا اطلق آدم اسماء على كل الطيور والحيوانات والبهائم. غير انه لم يجد لنفسه معينا نظيره. فاوقع الرب الاله آدم فى نوم عميق، ثم تناول ضلعا من اضلاعه وسد مكانها باللحم، وعمل من هذه الضلع امراة احضرها الى آدم، فقال آدم "هذه الان عظم من عظامى ولحم من لحمي فهى تدعي امراة لأ نها من امرئ اخذت} سفر التكوين 2:19-24!

وصف الخلق فى الحديث:

علماء المسلمين لم يكن لديهم الكثير فى فهم قضية الخلق غير أحاديث بعضها صحيح ومختصر، ولكن ينسب أغلبها الى الاسرائليات لتعود وتردد نفس الوصف التوراتي بلغة مختلفة، فنقلا من البداية والنهاية لابن كثير نجد روايات كثيرة منها:

1.عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:{ إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والاسود وبين ذلك. والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك}.

2.عن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: {فبعث الله عز وجل جبريل فى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تشينني، فرجع ولم يأخذ وقال: رب إنها عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت فعاذت منه، فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فاخذ من وجه الأرض

وخلطه ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فبل التراب حتى عاد طينا لازبا}

هذا الحديث غير واضح فى سنده و غريب فى مضمونه اذ كيف ينصاع جبريل الروح الامين ومن بعده ميكائيل لاستعاذة الارض فيعصيان الله ولا ينصاع لامر الله الا ملك الموت؟

3....... خلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعا إبليس، فكان يمر به ويضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة، فذلك حين يقول "من صلصال كالفخار" ، ويقول لأمر ما خلقت، ودخل من فيه، وخرج من دبره وقال للملائكة لاترهبوا من هذا فان ربكم صمد، وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه، فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: اذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس، فقالت الملائكة قل الحمدلله، فقال الحمدلله ، فقال: له الله : رحمك ربك، فلما دخلت الروح فى عينيه نظر الى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح فى جوفه اشتهي الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح الى رجليه عجلان الى ثمار الجنة، وذلك حين يقول الله تعالى "خلق الانسان على عجل". وذكر تمام القصة. ولبعض هذا السياق كثير من الاحاديث وان كان كثير منه متلقي من الاسرائيليات "ص 86 الجزء الاول، البداية والنهاية".

هذا الوصف فيه افراط فى التجسيد الذى يشابه خيال البشر اكثر مما يشابه سنن الله فى الخلق.

4. أما سكن الجنة ففيه أيضا خلافات فمنهم من يقول انها جنة المأوى بالسماء وحاولوا ان يجدوا تفسيرا لوجود ابليس مع الملائكة فقال شهر بن حوشب: "ابليس كان من الجن فلما افسدوا فى الارض بعث الله اليهم جندا من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم الى جزائر البحار وكان ابليس ممن أسر، فأخذوه معهم الى السماء فكان هناك، ولما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه." "البداية والنهاية ص 73 الجزء الاول"!

5. وهناك من يقولون: إن آدم كان فى الأرض وإن الجنة فى الأرض، والهبوط ليس من السماء كما ورد فى البداية والنهاية الجزء الاول ص 76-77: الهبوط لايدل على النزول من السماء قال تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ...} 48 هود!

وقال تعالى:" {..اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ..} 61 البقرة، وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير. قالوا إن الجنة التى أسكنها آدم كانت مرتفعة من بقاع الأرض ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم وسرور. .... فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التى نهي عنها أهبط الى أرض الشقاء والكدر والسعي... ولايلزم من هذا أنهم كانوا فى السماء {البداية والنهاية}!

من هنا نلاحظ ملاحظات هامة جدا فى قضية خلق الانسان التى تمثل محورا هاما فى تفكير الفلاسفة بل وهاجسا لعلماء الطبيعة، أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتحدث عنها كثيرا، ولم ينسب إليه من الأحاديث الصحيحة إلا القليل العام الذى لم يشرح الآيات الكثيرة جدا التى وصفت خلق وتطور الإنسان من جوانب مختلفة. ونحن نظن أنَّ اصح ما ورد من حديث فى قصة خلق آدم هو الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم}!

فلعل الله تعالى ترك قضية الخلق لآياته الكونية تكشفها للانسان حينما يتطور عقله ويصل علمه بالكون لمستوى يمكنه من استيعابها واستيعاب ما ورد فى القرآن من شأنها، من غير ان يتطرق النبي لتفسيرها فى زمانٍ ما كان الانسان قادراً على فهم تفاصيل الخلق وان شرحت له.

قـصة الخـلق والسياســة:

قبل أن ندخل فى قصة الخلق المثيرة هذه لا بد لنا أن نفهم كل أبعادها على تفكير البشر وتطور الإنسانية، إذ أنَّ مسألة خلق الإنسان قد لعبت دورا خطيرا فى تشكيل العالم الى مدارس فكرية متباينة، وبالتالي نتجت عنها تكتلات فكرية هى التى تحدد تشكيل العالم سياسيا اليوم. فاليهود والنصاري اختلفوا أول ما اختلفوا على حقيقة خلق المسيح من غير أب، مما أدى الى ظهور المجتمع المسيحي الذى آمن بأنَّ عيسى هو المسيح وتم رفعه الى مرتبة الالوهية بناء على معجزاته وغموض خلقه من غير أب، بينما استمرت الديانة اليهودية كما كانت عليه قبل المسيح، بعد أن رفض علماء بنى إسرائيل قبول تبريرات مريم عليها السلام لحقيقة أبنها الذى لا أب له وقالوا عليها بهتانا عظيما. ثم جاء الإسلام متفقا مع اليهود والنصارى فى معظم قصص الأنبياء والمرسلين، ولكن خلافه الأساسي كان فى حقيقة خلق المسيح، إذ أن الإسلام أكَّد أن عيسى هو المسيح ولكنه نفي عنه الربوبية، مما حال دون اعتناق الكثير من المسيحيين للاسلام وبقائهم كمجتمع له دين يميزه عن اليهودية والاسلام. وهكذا برز الإسلام كمدرسة فكرية أو فلسفية ثالثة موازية للمسيحية واليهودية، وكلٌّ له رأى مميز فيما يخص حقيقة خلق المسيح. من ناحية اخرى نجد أن هذه المدارس الثلاث تتفق على أن آدم هو أبو البشر الأول ولكنها تختلف فى حقيقة خلق المسيح، والثلاثة معا يشكلون أكبر تجمعات عقائدية فى العالم اليوم. اذا فمسألة خلق آدم وخلق المسيح ليست مسائل جانبية من ضروب الترف الفكرى، ولكنها تمثل جوهر الخلافات العقائدية التى شكَّلت المجتمعات التى تلعب دورا فاعلا فى كل ما يجري فى العالم اليوم من خلافات سياسية وحروب وغيرها!

و مما لا شك فيه أنه لا اختلاف حول حقيقة أن عيسى ابن مريم كإنسان، قد ولد فى بيت لحم فى فلسطين، وعاش الى أن رفع وترك اثارا كثيرة على الأرض وعلي صفحات التاريخ، تجعل إنكار وجوده أمراً غير مقبول. لكن رغم ذلك نجد ان اليهود والنصارى والمسلمين قد اختلفوا اختلافات جذرية حول كيفية خلقه وطبيعة رسالته. بينما نجد ان "آدم وحواء" ليسا الا شخصين أبرزتهم الأديان السماوية على اختلافاتها، إذ لا يوجد دليل مادي أو أثر تاريخي على حقيقة وجودهما يوما على الأرض ولا يدرى أحدٌ أين ومتى وجدا، فضلا عن ان وجودهما لم يترك أى تأثير مباشر على مسار الانسانية يمكن ان ننسبه لآدم مباشرة كما تنسب المسيحية للمسيح، مما يجعل قصة "آدم وحواء" ضرباً من ضروب الغيب، يؤمن بها الناس بقدر إيمانهم بالمصدر الذى يرويها. ولكن رغم ذلك نجد أن هناك اتفاقا شبه كامل ولكنه جدُّ مريب، على تفاصيل خلق آدم من تراب بلا أب أو أم، وخلق حواء من ضلعه وسكنهم الجنة وأكلهم من شجرة الخلد والهبوط من الجنة، وكأنَّ مصدر هذه القصة واحد من غير القصص التى اشتملت عليها كتب اليهود والنصارى والمسلمين! هذا الإتفاق حول خلق آدم من غير أبٍ أو أم وهو من الغيبيات التى لا توجد الا فى كتب الأديان، فى الوقت الذى يختلف فيه الناس حول خلق المسيح الذى وجد فى عالم الشهادة وله مصادرٌ تاريخية تؤكده من خارج الكتب السماوية، يثير ريبة تستحق وقوفا طويلا اذ أن الأمر أقرب الى ان يمس عقيدة المسلمين وهم لا يدرون.

اذا نظرنا الى مصادر النصارى فيما يخص خلق آدم نجد أن مصدرهم الوحيد هو توراة اليهود اليوم، وبالتالى فانه فى قضية خلق آدم فالرأيان اليهودي والنصراني ليسا متفقين فحسب، وانما يستقيان ادلتهما من مصدر واحد هو التوراة المتداولة اليوم! واذا نظرنا الى مصادر المسلمين فى أصل القصة نجد غموضا شديداً تتميز به الآيات القرآنية التى وصفت خلق آدم، بينما تُنسب معظم الأحاديث فيه الى الاسرائيليات، وهذا يؤدى الى نتيجة واحدة وهى ان القصة المتداولة اليوم عن خلق آدم وحواء مصدرها واحد هو تأويلات اليهود لكتبهم، والتى انتقلت منهم الى المسلمين الذين جاوروهم فأصبحت من المتفق عليه من القصص، رغم التباين الواضح فى عقائد الديانات الثلاث. من هنا نستطيع ان نفسر لماذا يصف المسلمون "تفاحة آدم" فى مقدمة العنق، ويرددون من غير وعي أن " حواء هى التى اخرجتنا من الجنة"، رغم أن القرآن أصلا ما ذكر اسم حواء، بل ولم يذكر حتى لفظ "المرأة" فى وصفه لخلق آدم وقصة شجرة الخلد! اذا يتضح لنا ان قصة آدم وحواء المتداولة اليوم انها توراتية الأصل، وقد انتقلت الى عقول المسلمين من غير أن يشعروا، لا لشئ الا لأن السنة لم تشرح تفاصيل القصة الغامضة فى القرآن، ولأن غموض

القصة لم يتح الفرصة لعلماء المسلمين ان ينتبهوا لخطورة انتقال الإسرائليات الى ديننا فى قضيةٍ من اهم القضايا الفكرية والفلسفية التى شغلت رأى الجنس البشري على مرالعصور.

مما لا شك فيه أنَّ الاتفاق بين الديانات الثلاث ظاهرة حسنة، ولكن الاتفاق على باطل يكون أكثر خطورة على عقيدة المسلمين، وفيه تقصير لا يُغتفر من المسلمين الذين اؤتمنوا على نشر علوم القرآن. مما يزيد الأمر خطورة ان الغالبية الساحقة من اهل الكتاب اليوم قد رفضوا فكرة الخلق التقليدية التى لا مصدر لها إلا الإسرائليات، كما رفضوا عقيدة الثالوث بالفطرة من قبل، بينما الحقائق العلمية المذهلة التى فصلها القرآن والتي تتفق مع العلم الحديث ومع المنطق أصبحت فى طي النسيان بعد أن استسلم المسلمون طواعية الى تأويلات الإسرائيليات!

قصة الخلق فى القرآن:

خلق البشر وجعل الانسان

فى أى بحث علمي ومنطقي لابد للباحث ان يبرز الحقائق المتفق عليها اولا ليصنع منها خلفية واقعية على ضوءها يبدأ فى التفكر لاستنباط ما خفي من اسرار. ومن هذا المنطلق العلمي لا بد ان نتذكر انه قبل ان يُخلق آدم كان الله موجودا، وكانت الملائكة موجودة، وكان إبليس والجن موجودين، وكانت الأرض قد فُتقت عن السماء، وكانت الحياة قد دبت فى الارض وقدرت فيها الأقوات، وانتظمت فيها كل قوانين الطبيعة التى تجعل حياة الانسان والحيوان والنبات ممكنة.

ولذلك ففى بداية قصة الخلق فى القرآن نجد أن الله سبحانه وتعالى خاطب الملائكة، باعتبار ان خلقهم قد سبق خلق الانسان، وبالتالى فان لهم عِلمٌ بما يجرى فى الكون والارض سبق خلق آدم.

ونلاحظ أيضا أن الله تعالى قد خاطب الملائكة خطابين مختلفين فيما يخص خلق البشر: الخطاب الأول كان بخصوص خلقه، والخطاب الثانى كان بخصوص تنصيبه خليفة لله فى الأرض. المتدبر للخطابين يلاحظ اختلافات ذات أهمية كبيرة فى صيغة الخطاب، وفي تعامل الملائكة مع الخبر، فعندما خاطب الله تعالى الملائكة بخبر خلق البشر خاطبهم بصيغة المفرد بأنه سيخلق بشرا من طين، كما نلاحظ فى الآيات التالية:

{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ انى **خَالِقٌ** بَشَرًا مِنْ طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} 71-72 ص.

نلاحظ هنا أن الملائكة لم يكن لها رد أو تعليق على هذه الإرادة الإلهية، فالله هو العزيز الحكيم و الخلاق العليم الوحيد، وله أن يخلق ما يشاء وما على الملائكة إلا السمع والطاعة.

ثم يأتى خطاب آخر فى نفس الأمر وأيضا بصيغة المفرد، ولكن نلاحظ أنَّ تجاوب الملائكة مع هذا الخبر اختلف :

{ وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ انى **جَاعِلٌ** فى الْأَرْضِ خَلِيفَةً َ...} وهنا ردت عليه الملائكة مباشرة متسائلين: {قالُوا **أَتَجْعَلُ** فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ....} 31 البقرة.

هذه الآية فى أول جزء فى القرآن وفي بداية سورة البقرة، العمق الفكرى لها غير محدود، إذ أن المسلمين فى عهد الانحطاط أصبح تعاملهم مع الدين أشبه بتعامل المسيحيين الذين يؤمنون أن الدين يؤخذ من غير عقل وما على المؤمن إلا التسليم بأمر الكنيسة التى يفترض أنها تتحدث باسم الرب الذى لا يناقش. هنا يخبرنا الله تعالى أنه **حتى الملائكة تسأل** إذا أحست بغرابة الأمر الإلهي، ليس إستهانة بحكمة الله ولكن لتستزيد علما من العليم الخبير. ليس ذلك فحسب وإنما سياق الآية يدل على أن السؤال الموضوعي لا يثير غضب الله، وانما يتكرم الله تعالى بتوضيح الأمر للسائل، فكيف بنا لا نتسائل ونبحث عن إجابات فى حدود الأدب ونحن قد أعطينا حرية الإختيار: {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}، بل وأمرنا بعبادة التدبر والتفكر التى بطبيعة الحال تعنى طرح اسئلة موضوعية والسعي للوصول الى اجابات منطقية لها؟

والآية ايضا توحى بأمرين يحق لنا ان نتساءل عنهما طالما كانت الملائكة تسأل والله يجيب! فالملائكة كما هو معروف فى صفاتهم أنهم لايعلمون الغيب ويفعلون ما يؤمرون ويتحدثون فقط عمّا هو داخل نطاقهم المعرفي، فكيف عرفوا ماسيفعله هذا الخليفة مستقبلا فى الوقت الذى كان الله يخبرهم بأمر مستقبلي وليس ماضيا؟ كيف عرفوا أن هذا الخليفة المرتقب الذى يتحدث عنه الله سيفسد فى الارض ويسفك الدماء؟ ولنا ايضا ان نتساءل لماذا لم تستغرب الملائكة **خلق** البشرمن طين كما فى الآية الأولى، فى حين أنَّها استغربت **جعله** خليفة؟

من اللغة نجد أن "الخلق" تعنى تقدير الشئ وإيجاده من العدم، أما "الجعل" فهو تخصيص وظيفي للمخلوق الموجود أصلا! بمعنى آخر فإن الله سبحانه عندما قال للملائكة: {انى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ}، يعنى أنه يريد تقدير قانون جديد يؤدى الى خلق كائن جديد أسماه " بشرا"، ولفظ **بشر** فى اللغة يعنى ظهور الشئ مع حسن وجمال، واستعيرت لتعنى الإنسان لأنه أبرز المخلوقات وأحسنها خلقا. وفي الآية استعمل الله تعالى اللفظ فى صيغة نكرة، لأن البشر لم يكن معروفا لدى الملائكة بعد، ولذلك ما كان لهم أن يسألوا عن مبررات الخلق، لأنَّ الله يخلق ما يشاء! ولكن حينما أراد "جعل" ذلك البشر خليفة استغربوا أن توكل تلك المهمة لمن يعرفون جيدا أنه وُجد وأفسد فى الأرض وسفك الدماء، إذ أنهم هنا لم يفهموا حكمة الله تعالى من هذا الاستخلاف. لتوضيح الفرق بين "الخلق" و" الجعل" يمكن أن نقارن المعنى فى قول الله تعالى:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا **خَلَقْنَاكُمْ** مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى **وَجَعَلْنَاكُمْ** شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 13الحجرات! فخلق الناس هنا هو تقدير كيفية وجودهم، أما الجعل فهو

تحديد وظيفتهم بعد أن وُجدوا. والآيات التى وردت فيها كلمة "جعل" لتحدد وظيفة المخلوق الموجود أصلا كثيرة جدا فى القرآن، منها مثلا:

{الذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً...} 22 البقرة. فالأرض والسماء كانتا موجودتين قبل الإنسان وجعلهما هنا يشير الى تسخيرهم لمنفعة الإنسان.

{مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ...} 60 المائدة

هؤلاء الكفرة خُلقوا أولا فكفروا ثانيا وعقابا لهم جعل منهم القردة والخنازير!

{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا.....} 4 القصص

فرعون لم يخلقهم وإنما قسم قومه الى شيع........

{....إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} 20 المائدة .

هولاء خُلقوا وكَبروا ثم جُعلوا ملوكا...... وهكذا فالجعل دائما لفظٌ يحدد الوظيفة لمخلوق موجود أصلا.

وما لم يكن معلوما لدي الملائكة أن ذلك البشر كان خاضعا لقانون تطور يعلمه الله تعالى وحده، إذ أودع قانون التطور ذلك فى "نطفة أمشاج" التى فُهم حديثا أنَّها أغلب الظن تشير الى الحمض النووي المسؤول عن الطفرات الجينية الى اليوم، ولذلك عندما قال الله تعالى للملائكة {إنى جَاعِلٌ فى الْأَرْضِ خَلِيفَةً} ... ربما عنى أننى أريد أن أغير فى طبيعة هؤلاء البشر ليُصبحوا خلفاء لى فى الأرض! وهذا يفسر تساؤل الملائكة تساؤل العالم بطبيعة البشر الظاهرة انذاك: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}، لأنهم لم يكن لديهم علمٌ كيف سيتم التغيير "الجعل" وإلي أى نتيجة يؤدى، ولكنهم كانوا على علمٍ بسلوك هذا البشر وفساده من سابق تجربتهم معه!

الى هنا نرى تقاربا كبيرا بين ما تحتويه هذه الآيات من معانٍ نادراً ما تُطرح للنقاش، وبين ما توصل اليه العلم الحديث بعدما تطور عقل الإنسان ووصل الى مستوى أمكنه أن يقرأ آيات الله الكونية ويكتشف أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقتا، وأمكنه أيضا أن يقرأ التاريخ البعيد لجنسه، ولازم ذلك تطور مماثل فى فهم المسلمين لآيات القرآن ساعدنا فى استنباط معانى واضحة جدا فى هذه الآيات لكنها كانت بعيدة عن تفكير الناس فى الماضى.

الى هنا يمكن أن نختلف مع علماء الطبيعة فى أنَّ الانسان لم يكن قردا فى يوم من الايام ولكنه خلق "بشرا" بفعل كن، وقضي ذلك البشرالبدائي بنص القرآن حينا من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، وربما كان فى سلوكه وفساده وسفكه للدماء فى ذلك الدهر اقرب للحيوانات الدنيا، وربما كان ايضا فى هيئته غير المعتدلة وعظامه اقرب للقردة، الشئ الذى التبس على علماء الطبيعة فى استنتاجهم. يجب أن نذكر هنا من باب الأمانة العلمية أنَّه فى الزمن الذى عاش فيه داروين لم يكن العلم قد وصل الى أى وسيلة يمكن بها التمييز بين رُفات الإنسان والحيوانات الشبيهة من أحماض

نووية وغيرها، وبالتالى ما كان يبدو لهم كالقرد من هيئته ظنوه قردا، ولكن معظم العلماء الذين ما زالوا يؤمنون بهذه النظرية يعترفون أن الاصل ليس قردا ولكن حيوان غامض يشبه القرد فى هيئتهه ومشيته.

إذا افترضنا جدلا أن "البشر" هم مخلوقات عاشت حينا من الدهر، وأفسدت فى الأرض وسفكت الدماء قبل أن "يجعلها" الله خلفاء له فى الأرض بتغيير فى تركيبها ووظيفتها، فما هى علاقة هؤلاء البشر بـ "الطين"، وكيف نفهم خلق الإنسان من طين إن لم يكن آدم قد بنى فى شكل تمثال كما ظل الناس يفهمون زمانا طويلا؟ للوصول الى بصيص من المعرفة حول هذا الأمر، لا بد لنا أن نسلك ذات النهج العلمي، وندرس كل الآيات التى وصفت خلق الإنسان من طين!

خلق الإنسان من طين:

المُلفت للانتباه أنَّ الله تعالى كرر آيات خلق الإنسان من تراب ثم من طين فى مواقع كثيرة ومختلفة، وكأنه يدعونا للتدبر فيما يقول، وليس الإسراع بالافتراض من غير علم، إذ لا توجد آية واحدة فى القرآن تصف أنَّ آدم بنى فى شكل تمثال، وإنما هو انطباع فى أذهان الناس تسببت فيه الروايات الاسرائيلية من ناحية، وعجز المسلمين عن فك طلاسم علاقة التراب والطين بقضية الخلق من ناحية اخرى! فاذا وضعنا تلك الآيات معاً وتدبرنا فيها ربما نستنتج طبيعة ذلك الطين وعلاقته بالخلق الأول:

{الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} 7 السجدة!

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} 26 الحجر!

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ انى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} 28الحجر!

{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ انى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} 71 ص!

{هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} 2 الانعام!

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} 12المؤمنون!

{فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ} 11 الصافات!

{قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا}37 الكهف!

{...فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ...} 5 الحج!

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ...} 11 فاطر!

{هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ...} 67غافر!

{خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} 14 الرحمن!

هذه الآيات تحتوى على كلمات لو تمعَّنا فى معانيها ربما نستطيع فهم مراحل تطور الإنسان من تراب الى طين ثم الى بشر:

الخلق**:** هو تقدير الشئ وإيجاده من عدم.

صلصال: الصل يدل على صوت، وسمي الخزف "صلصالا" لأنه يصوت ويصلصل.

حمأ**:** الأصل "حم"، ولها معنيان أحدهما الإسوداد، والآخر الحرارة.

مسنون**:** أصلها من "سن"، وتعنى جريان الشئ واطراده فى سهولة، ومنها "سننت الماء على وجهى"، إذا أرسلته إرسالا. والحمأ المسنون كأنه قد أرسل إرسالا. كأن تقول "حرارة متصلة ومستمرة".

نطفة**:** من "نطف" و تعنى نداوة وبلل. و"النطفة" الماء الصافي، وليلة نطوف أى ليلة ممطرة!

لازب**:** لزب يدل على ثبوت شئ ولزومه، ومنها صار هذا الشئ ضربة لازب، أى لا يكاد يفارقه .

سلالة : "سل" معناها مد الشئ فى رفق وخفاء.

الفخار**:** هو الجرار.

من الآيات أعلاه يمكننا أن نسلسل علاقة البشر بالتراب والطين الذى خلقوا منه كالآتي:

1. خلقكم من تراب.
2. خلقكم من طين.
3. خلقناهم من طين لازب.
4. خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون.
5. خلق الإنسان من صلصال كالفخار.

من هذا التسلسل للآيات ولخلق الإنسان يمكن أن نستنتج الآتى:

التراب إذا أضفنا اليه ماء تحول الى طين.

الطين اذا لزم مكانه وثبت يتحول الى طين لازب، ولايكون كالطمي تحركه المياه، ولكن كالطين الذى يلزم ضفاف الأنهار!

الطين اللازب اذا عرَّضناه الى حمأ وحرارة ترسل له إرسالا، أو لنقل أشعة شمس او حمم البراكين، يتحول الى صلصالٍ كالفخَّار كالطين الجاف الذى يتواجد على ضفاف الانهار!

هذا الصلصال الذى قد قتلت فيه الحرارة وحمم البراكين الحشرات والديدان التى عليه، إذا خلطته بالماء يتحول مرة اخرى الى طين لازب!

نلاحظ هنا أن هذه الصفات تنطبق على الطين الخصب الذى يتواجد على ضفاف الأنهار وفي الجزر البركانية، وهو أخصب أنواع الطين الذى يستعمل للزراعة الطبيعية الناجحة!

ونلاحظ من ناحية لغوية أيضا ان فى كل تلك الآيات التى ربطت اصل الانسان بالتراب والطين أن الله تعالى قد استعمل كلمة " خلق"، والخلق كما رأينا هو تقدير الشئ وإيجاده من عدم، وهذا يحدث فى المشيئة الإلهية بفعل "كن" المطلق! أى أن بدء الخلق قد يكون فى شكل جسد متكامل أوجد من الطين بفعل "كن"، او قَّدر تركيبه فى مراحل تطور أيضا أوجدت بفعل "كن" كما هو الحال فى خلق السماوات والأرض بفعل "كن" ولكن فى ستة أيام، كل يوم منها كان ملايين السنين مما نعد ونفهم. ونلاحظ أيضا فى كل آيات خلق البشر أو الإنسان من ماءٍ وترابٍ وطين لم يرد اسم آدم اطلاقا وكأنَّ إسم "آدم" يشير الى مرحلة لاحقة من مراحل تطور البشر وليس بداية خلقه.

الآيات كلها تشير الى أنَّ الطين يتحول الى نطفة فى عملية الخلق، أى أن مكونات البشر من بروتين وكاربوهايدريت ودهون ومعادن تأتي من التراب الذى يتحول الى طين خصب ثم تخلق منه النطفة التى تحمل "الأمشاج" التى تواصل امتداد سلالة المخلوق، فما هى العلاقة بين الطين و النطفة؟

خلق النطفة:

لنصل الى فهم مشابه علينا ان نتدبر فى الآيات التى وصفت خلق النطفة:

1. وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ !

2. وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ*ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فى قَرَارٍ مَكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ....

3. خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا!

4. فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ....

5. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا..

6. خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ...

اذاً تدبرنا هذه الآيات نجدها تربط ربطاً مباشرا ما بين التراب أو الطين، وما بين نطفة الانسان "الحيوان المنوي والبويضة"، مع ملاحظة ان فى كل الآيات تأخيراً زمنيا ما بين التراب أو الطين وما بين النطفة، وذلك باستعمال حرف العطف "ثم"!

إذاً نستنتج أن هنالك علاقة مباشرة ،بتأخير زمني، مابين الطين الخصب كالذى يتواجد حول الأنهار والجزر البركانية، وما بين نطفة الإنسان! أى انسان ومنذ أن يكون طفلا الى ان يكبر، يتغذى على النبات والحيوان. النبات يتغذى على الطين الخصب، والحيوانات التى يأكلها الإنسان تتغذى على الأعشاب! بالتالى فان مركبات الطين تنتقل الى جسم الإنسان منذ طفولته الى جسمه عن طريق النبات والحيوان آكِل النبات.

مركبات الطين تعمل على تنشئة جهاز الخصوبة فى الإنسان. وبتراكم مركبات الطين فى فترة زمنية معلومة، تتولد لدي الإنسان إمكانية استخراج النطفة، وهذه النطفة تمكنه من خلق إنسان جديد وذلك عن طريق التكاثر الطبيعي الذى قدره الله فى الجهاز التناسلي، لتكون عملية خلق الإنسان من طين عملية مستمرة وقانونا ونظاما يتم به خلق أى انسان جديد وليس بالضرورة عملية بنائية بنى بها جسد آدم فقط كما يظن كثير من الناس! بمعنى آخر حتى لو كان البشر الأول قد بنى بناءً كاملا من طين، فإن علاقة الإنسان بالطين ظلت قانونا مستمرا يربط الطين مباشرة بخلق كل طفل جديد الى آخر الزمن، وليس علاقة انتهت بخلق اول بشرفقط .

هذه الملاحظة قد تقودنا الى فهم أحد عوامل زيادة خصوبة ساكنى ضفاف الأنهار والجزر البركانية مقارنة بسكان الصحارى والمناطق الجليدية، إذ أن توافر الطين اللازب الذى تتغذى عليه النباتات، ومن ثم الحيوانات، والتى يتغذى عليها الإنسان تزيد من الخصوبة.

من الملاحظات الغريبة أن هذا الطين تعشقه النساء الحوامل فى السودان، ويأكلونه وهو فى حالته الصلصالية، وكأن هناك علاقة مباشرة بين نمو الجنين فى بطن أمه وشهيتها لمكونات خفية فى هذا الطين الصلصال.

و نلاحظ أن أكل المواد غير الطبيعية والتي بها أسمدة، قد أدى الى التقليل من خصوبة الإنسان الأوربي، مما جعل النباتات الطبيعية التى قد تغذت على طين طبيعي مرغوبة عالميا. ولعلَّ فى هذه الملاحظة فائدة لعلماء المسلمين الذين يؤمنون ان كل ما فى القرآن حق، ليبحثوا فى أسرار الطين التى ربما تكون علاجا لبعض أمراض العقم أو نقص الخصوبة.

فإذا قبلنا هذا التفسير للعلاقة المستمرة بين خلق الإنسان من طين واستمرار وجوده بالطين أيضا، فهل هناك مانع منطقى من ان تكون بداية الخلق نفسها عملية تدريجية تطورت مع الزمن لتنتهى بتكوين الإنسان فى مراحل مختلفة كلها ارتبطت بالطين كمصدر مكونات بنائية، وليس بناء واحدا وجد ككتلة وجسد واحد؟ هذا الاحتمال يدعمه قول الله تعالى:

{الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} 7السجدة! اذ نلاحظ فى هذا السياق أن الله َبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ، ولم يقل أكمله من طين، ثم واصل سلالته من ماء مهين ينتج من مكونات الطين.

هذا التفسير لعلاقة الإنسان بالطين يمكن أن يفسر لنا علميا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: {إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك}. فبما أن آدم خلق من خلائط من أطيان مختلفة، فقد تكونت فى أمشاجه صفات مختلفة لمن يخرجون منه، إذ

أن كل الصفات التى يتصف بها البشر على اختلاف أجناسهم وطبائعهم جمعت فى مصدر الخلق الأول وينتقى الله من بينها ما يشاء ليودعه فى كل نطفة تكون انسانا جديدا.

"جميع الارض" فى هذا الحديث يمكن ان يكون لها احد مدلولين علميين: احدهما هو تجميع عينات من كل اطراف الارض والثانى هو ان الخلق بدأ فى بؤرة انسابت منها بقية الارض! ونحن نرجح الاحتمال الثانى بعد ان خلصنا الى ان الخلق بدأ فى مكة التى كانت اول بقعة خرجت يابسة من تحت الماء ثم دحى الله الارض من حولها، وسنناقش ذلك بالتفصيل فى باب "سدرة المنتهي" ان شاء الله.

هذا الحديث يمكن أن نفهم منه أيضا أن اختلاف أنواع الأكل الطبيعي، المأخوذ من نباتات مزروعة فى أماكن مختلفة أو طين مختلف، يؤدى الى اختلاف الألوان واختلاف الطبائع الإنسانية. وقد ثبت علميا ان النباتيين عادة ما يكونون أكثر هدوءً من الذين يكثرون من أكل اللحوم، مما يدل على أن مكونات الطين التى تدخل فى تركيب اللحوم تختلف من تلك التى تدخل فى تكوين النبات، وبالتالى توثر تأثيرا مباشرا فى سلوك الإنسان الذى يبنى جسده من أى منها. ويمكننا أن نفترض أيضا أن مكونات الطين ربما تكون هى المسؤولة عن جينة اللون، وبالتالى يمكن أن نبحث عن علاج للأمراض الجلدية من مركبات الطين والله أعلم.

هنا لدينا ملاحظة مهمة يجب أن نتدبر فيها منذ الآن ولكن سنفهمها أكثر عندما نفحص آذان الانعام فى الباب العاشر، وهى أن الحيوانات التى يباح أكلها هى الأنعام وتشمل الإبل والبقر والضأن والماعز وكلها نباتية. أما الطيور المباحة فكلها تتغذى على ثمار الأشجار أو مخلوقات تعيش داخل الطين أيضا، بينما صيد البحر حلال على إطلاقه إذ أن الماء أصلا هو سر الحياة الأول! فيما عدا ذلك فكل الحيوانات المحرمة تأكل اللحوم مما يدل على أنَّ هناك صلة لصيقة بالطين تدخل فى حكمة الحلال والحرام فى طعام الإنسان.

الى هنا لا يخفى على أى عاقل أن الآيات التى وصفت خلق الأنسان من تراب وطين فى القرآن كثيرة جدا، وتدخل فى تفاصيل احتاجت لباحثين فى الكيمياء والأحياء والطب والبيطرة لكشف بعض أسرارها. هذا التفصيل القرآني فى علاقة الانسان عموما بالطين له حكمته التى يجب ان لا يتجاهلها علماء المسلمين، وهو أيضا جعل علاقة خلق البشر بالطين فى القرآن تختلف اختلافا جذريا عن النصوص القليلة جدا فى التوراة التى وصفت خلق آدم من طين، مما كون الصورة المجسمة فى أذهان اليهود والنصاري لبناء آدم فى شكل تمثال نفخت فيه الروح، ثم انتقلت تلك الفكرة الى أذهان المسلمين من غير تدبر فى الطرح القرآني.

لا بد أن نتذكر دائما أننا نجتهد فقط فى فهم النصوص القرآنية بعيدا عن تأثير الإسرائيليات، فإن اختلف تفسير القرآن عنها لا غرابة فى ذلك، إذ أن الاختلاف مع الإسرائيليات فى العقيدة وفي فهم قصص كل الأنبياء والمرسلين هو الاصل، وما الاتفاق فى تأويل آيات خلق آدم إلا نشازا!

قصدنا من هذه العجالة أن نوضح حقيقة بينة فى القرآن، وهي أنَّ خلق الإنسان من طين أمرٌ منسجم مع قوانين الطبيعة، بل هو أمرٌ بديهي وليس فيه من الأوهام والأساطير شئ، ولكننا سندرس بمزيد من التفاصيل المراحل الأولى لخلق كل الاحياء فى باب "آذان الأنعام" إن شاء ألله.

إنَّ استنتاج أنَّ قانون خلق الإنسان، أى انسان هو الطين، وليس آدم فقط، وعدم وجود دليل مباشر فى القرآن على أن آدم تم بناؤه بالصورة التمثالية المذكورة فى الإسرائيليات والتي نقلناها وتعاملنا معها على أنها من أصول الدين الإسلامي، يعيننا أيضا على فهم الآية التى وصف الله تعالى فيها خلق عيسى عليه السلام من "تراب" وشبهه فى خلقه بخلق آدم، رغم أن عيسى حملته أمه كرها ووضعته كرها كبقية البشر:

{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 59 آل عمران.

هذه الآية تطرح أسئلة مشروعة كثيرة:

1. ما هو وجه الشبه بين آدم الذى لا أم ولا أب له، وبين عيسى الذى حملته أمه ووضعته فى مخاض طبيعي؟

2. اذا افترضنا أن علاقة آدم بالتراب كانت علاقة بنائية مباشرة، فما هى علاقة عيسى بالتراب ؟

3. لماذا استعمل الله تعالى فى الآية لفظ "يكون" كفعل مضارع، فى الوقت الذى يتبادر الى الذهن أن الأصح أنه قال له كن "فكان" كفعل ماض، علما بأن هذا إخبار لنا فى القرآن عن خلقٍ تم فى زمان ماضى وليس حاضرا.

نتخذ هذه الآية مدخلا لفك طلاسم **"الحلقة المفقودة"** فى داروين فى الباب القادم إن شاء الله .

البـــــاب الثـالـث

الحـلقـة المـفـقـودة

ممـا لا شـك فيـه أن المـسلمين وغيـر المـسلمين أجمعـوا علـى أن القـرآن هـو معجـزة النبـي الخـاتم الأولى، التى ظلت تتحدي العقل البشري بالمفاجآت، مهمـا أوتـي مـن قـدرات وسطوة علـى قوانين الطبيعة على مر العصور. فكلما تطور العقل اكتشف فى القرآن أسرارا لم تكن تُفهم من قبل. ومما لا شك فيـه أن وجـود هذه الأسرار الجديدة يؤكد أن القرآن محفوظ بـالحرف، إذ أن الـصحابة لـو كانوا تجرأوا على تغيير شئ ولو بحسن نية، لكانوا قد غيروا ما لم يكن يحمل معنـى فـى نظرهم، أو يبدوا فيه خطأ لغوي نسبة لمحدودية علمهم بأسرار الكون آنذاك، ولكنهم اوصلوه لنـا كمـا هـو لنتعبد الى الله بكشف أسراره ونسبح بحمده.

المـثل الـقـرآنـي:

مما يلفت النظر فى القرآن، أن الله تعالى قد جعل من ضرب الأمثال وسيلة هامـة فـى الخطـاب، حتى يسهل على العقل البشري المحدود إستيعاب معانى بعيدة عن خياله كدليل على احترام الخالق للعقل الذى خلق، ودعوة منه تعالى لنا للتدبر فيما يقول وليس الاطلاع فقط. ونقدم مثلا لامثـال القرآن بالمثل المشهور فى مضاعفة الحسنات:

{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَـةُ حَبَّـةٍ وَاللَّـهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} 261 البقرة.

يظن الكثيرون أن الأمثال فى القرآن إنما هى لتسهيل المعنى فقط، ولكن كلمـا تطـور العلـم اكتشفنا أن علم الأمثال فى القرآن بحرٌ عميق لا يعرف أسراره إلا الله، إذ أنـه وسيلة مختلفـة اتخذها الله تعالى لإخبارنـا بأسرار الكون حينمـا نحـاول أن نفهم العلاقة بين الأمـرين اللذين ربطهمـا بمثل. فيضرب الله مثلا ظـاهره بسيط وباطنـه أكثر تعقيدا مـن الأمـر الـذى نظـن أن المثل إنمـا ضـرب ليسهل فهمه. وحتى تزيد الفائدة فى هذا العلم الهام فـى لغـة القرآن، نطـرح مثلين هنـا ظـاهرهمـا بسيط يسهل المعنى و باطنهما فيه سر إعجازي لم يكن ليفهم فى وقت نزول القرآن.

نأخذ مثلا آية بيت العنكبوت:

{مَثَلُ الَّـذِينَ اتَّخَـذُوا مِـنْ دُونِ اللَّـهِ أَوْلِيَـاءَ كَمَثَـلِ الْعَنْكَبُـوتِ اتَّخَـذَتْ بَيْتًـا وَإِنَّ أَوْهَـنَ الْبُيُـوتِ لَبَيْـتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} 41 العنكبوت.

فالعلاقـة الظـاهرة فـى هذا المثل هـى أن صـلة المـشركين بأوليـائهم مـن دون الله واهنـة وضـعيفة كـضعف بيـت العنكبـوت، ولكـن الملفـت للنظـر أن الله أصـدر حكمـا غريبـا، وهـو وصـفه لبيـت العنكبوت أنه أوهن البيوت، بل وختم الآيـة بصيغة تستفز العقل ليستزيد من العلم فـى أمر بيت

العنكبوت {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}. وقد فهم الناس لزمان طويل أن بيت العنكبوت هو الخيط الواهن الضعيف الذى ينسجه العنكبوت ويراه الناس ويسمونه مجازا "بيت العنكبوت". هذا الفهم كان كافيا فى زمن لم يكن الإنسان يعرف الكثير عن خيط العنكبوت أو بيته، ولكن هذا التفسير فى زماننا هذا يكون قاصرا بل ويسبب إشكالا علميا، إذ أن نسيج العنكبوت ليس أضعف الأنسجة بدليل أنه يصطاد به حشرات كبيرة ويقتلها، وبدليل أن العين المجردة تراه من بعيد، علما بأنَّ هناك من المخلوقات ما هو أصغر من العنكبوت وأكثر ضعفا، وبالتالى فبيوتها أصغر وأضعف من نسيج العنكبوت. جاء علم الحشرات فى العصر الحديث ليكشف سرا غريبا ربما يكون هو المقصود من وهن بيت العنكبوت وليس خيطه القاتل.

فكلمة "بيت" لها معنى البناء الذى نأوى اليه ونبيت فيه ويجمع شمل الأسرة، وهي أيضا تعنى العلاقة الاجتماعية التى تربط أهل بيت واحد بدليل قول الله تعالى:

{قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } 73 هود. فأهل البيت هنا ليس بالضرورة الذين يبيتون فيه وإنما الذين ينتمون الى نسيجه الاجتماعي والله أعلم. ولما كان مضمون الآية السابقة هو تشبيه العلاقة الروحية بين المشركين وأوليائهم وليست علاقة تشابه فى السكن، فبيت العنكبوت المقصود يمكن أن يكون مجازا عن الصلات الاجتماعية فى بيت أو أسرة العنكبوت وليس خيطه كما يفهم. أثبت العلم أن كثيراً من الحيوانات تقتل بعضها بعضا فى البيت الواحد لأسباب مختلفة. منها على سبيل المثال أن الأسد الذكر يمكن أن يقتل صغاره إذا لم يجد انثى اخرى يلقحها غير أم صغاره التى تتوقف رغبتها فى العلاقة الجنسية مادامت ترضع صغارها، فيقتلهم لتهتم به الام، ولكن الأم فى بيت الأسد تحمي الصغار. وفي مخلوقات اخرى يأكل الأبوان صغارهم إذا لم يجدوا طعاما، ولكن فى كل فصيلٍ من فصائل الحيوان يكون الاعتداء من طرف على طرف آخر، إلا فى بيت العنكبوت فإن الأب والأم يقتلان بعضهما بعضا وكلاهما يقتل الصغار، وصغارهم يأكلون أمهم وأبيهم متى ما اتيحت لهم فرصة، مما يجعل العلاقة الاجتماعية فى بيت العنكبوت أوهن العلاقات مقارنة بالمخلوقات الأخري. هذا المعنى فى ضعف الصلة و انعدام الحماية والأمان بين المشركين وأوليائهم، وتشبيهه بغياب الأمن فى بيت العنكبوت أقرب الى الواقع من الظن أن المقصود فى الآية هو خيط العنكبوت الظاهر، علما بأن نسيج العنكبوت أصلا ليس بيتا يسكنه، وإنما هو شرك يصطاد به طعامه والله أعلم .

وفي مثل البعوضة حكمة اخرى:

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} 26 البقرة!

هذه الآية تبرز معاني ظاهرية منها أن الله حرٌ فى اختيار المثل الذى يضربه، وأن المؤمنين يقبلون اختيار الله للأمثال كيفما يكون، ولكنها أيضا توحي بأن بعض الأمثال إن لم تُفهم ربما تقود الى ضلال الفاسقين. وكما فى مثل بيت العنكبوت، فإن الآية تضمنت غموضا لغويا يتناقض ظاهريا مع الحكمة من المثل. فما يبدو ظاهريا أن الله تعالى قد اختار البعوضة لتكون مثلا، باعتبار أنها من أصغر وأدني المخلوقات التى تراها العين، ورغم ذلك فالله لا يستحي من اتخاذها مثلا، ولكن سياق الآية استمر ليؤكد أن الله يمكن أن يضرب مثلا بما هو "فوق" البعوضة، فى الوقت الذى كان السياق اللغوي والمنطقي يتطلب أن يكون ما هو "أدني" منها أو ما هو "تحتها" لمزيد من التأكيد. هذه اللغة نجدها مثلا فى قوله تعالى:

{..وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ} 61 يونس!

فهذه الآية تشير الى ان الذرة من أصغر ما يقيسه الإنسان وحتي ما هو أصغر أو أكبر منها كله فى كتاب مبين! فمال البعوضة إذاً يضرب الله بها مثلا فما فوقها فقط وليس ما هو دونها؟ جاء العلم ليضيف روعة لهذا المثل بإثبات أن البعوضة توجد "فوقها" حشرة أصغر منها بمراحل كثيرة تسكن على ظهرها وهي ملازمة لها وضرورية لحياتها، كعلاقة كثير من الحشرات والطيور بالحيوانات الكبيرة مثل الفيل والزراف. إذاً يمكننا الآن أن نفهم أنّ الآية تؤكد لنا أن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما هو أدني منها وإن كان فى صغر الحشرة التى تسكن "فوقها"، وسبحان الذى خلقهما وأنزل القرآن!

من هذه الأمثلة نستخلص أن ضرب المثل فى القرآن أمر خطير، وذو مدلولات علمية وتعليمية أبعد كثيرا من تبسيط المعنى الذى ضرب المثل من أجله . فالمثل فى القرآن قد يضرب ليزيل حيرة، ولكنه يخلق حيرة جديدة حتى لا ينتهي الإعجاز ولا يتوقف التدبر فيه.

مثل عيسى عند الله:

هنا نعود الى قصة خلق آدم والمثل الذى طالما ظننا أن الله قد ضربه لنا لعلّنا نفهم ولو القليل من سر الخلق. المعروف أن القرآن ربط خلق آدم بالمثل فقط بخلق عيسى عليه السلام من دون سائر البشر والنبيين. وقد ورد ذلك فى آية واحدة هى قوله تعالى:

{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 59آل عمران!

هذه الآية أيضاً هى الآية الوحيدة فى القرآن التى ارتبط فيها خلق "آدم" بهذا الإسم "بالتراب"، إذ أنَّ كل الآيات التى وصفت بداية الخلق من ترابٍ وماء وطين إنما أشارت الى خلق "البشر" أو "الإنسان" وليس شخص آدم.

الغريب فى هذا السياق أن المثل الذى ضُرب لنا ليسهل علينا أن نفهم كيف خلق الله عيسى من غير أب، هو مثل خلق "آدم" وكأننا نفهم كيف خلق آدم أصلا من غير أب ولا أم! بمعني آخر، حينما ضرب الله مثلا ليوضح مضاعفة الحسنات ضرب مثلا بالحبة التى تولد سبعة سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، وهو مثل يُسهِّل فهم عملية البركة وزيادة الأجر فى أعمال الخير، ولكن المثل الذى ضرب ليوضح لنا كيف خلق عيسى من أمٍ فقط هو مثل آدم الذى خلق من غير أم ولا أب، و ما يجعل هذا المثل اكثر غموضاً انه يوحى ايضا ان عيسى نفسه خلق من تراب وليس آدم وحده، وسبحان الذى خلقنا وخلقهم!

نحن لا نظن أن التمثيل هنا مقلوب، ولكن هناك حِكَمٌ خفية عديدة يمكن استنباطها من لغة هذه الآية:

1. الآية لم تقل " ضرب الله مثلا للناس..." وإنما نصت على: " إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّـهِ"، وهذا يعنى أن الله يصف لنا كيف قدر الله خلق عيسى، ولكنه لم يضرب لنا مثلا ليسهل علينا فهم المعنى كما نظن من الوهلة الأولى.

2. الآية تستفز العقل والمنطق وكأن الله يقول لنا: ما بالكم تستغربون خلق عيسى من أم معلومة فى الوقت الذى تجهلون فيه الكثير عن آدم الذى انحدرتم منه من غير ان تعلموا شيئا عن امٍ له او اب! سواء كنتم مؤمنين أو باحثين أكاديميين فألاجدر هو التدبر فى أصل الذى ما علمتم له لا أم ولا أب وليس الذى وجد من أمٍّ معلومة.

وحتي نبحث بصورة علمية فى أصل آدم مستهدين بما نعلمه عن أصل عيسى، فإنّ البدء بوضع الحقائق المتفق عليها هو الوسيلة العلمية السليمة لاستنباط معلومات عمَّا لم يُتفق عليه، وهذا كان مدخلنا العلمي فى البحث فى قضية التطور أصلا. لو اتبعنا ذات الأسلوب العلمي فى المقارنة بين خلق آدم وعيسي، فان بين يدينا من القرآن ومن الواقع عن خلق عيسى فى عالم الشهادة أكثر مما لدينا عن خلق آدم فى عالم الغيب، لذلك سنحاول أن نطرح الحقائق المعروفة عن خلق عيسى عليه السلام، لنري ما هى صفات التشابه بين خلقه وخلق آدم، عليهما السلام .

خلق عيسى تم داخل النظام الأزلي لخلق البشر، ولم يكن فيه استثناء الا فى كونه جاء من غير أب. فعيسي قد حملت به أمه حملا عاديا قدره الله بفعل كن، بمعني أن الحلقة الوحيدة المفقودة فى حمله كانت غياب الحيوان المنوي من الرجل، ولكن بعد أن تمَّ الحمل بفعل كن، استمر فى رحم أمه حملا عاديا وتطور جنينها تطورا عاديا، و كانت مريم وهي بشر عادي، شاهدا على حملها به وشهد أهلها واستترت منهم ساعة المخاض وحاجُّوها فى هوية الطفل الذى أنجبت. عيسى ولد بمخاض طبيعي ووضع طبيعي، بدليل أن الله تعالى تتبع سلوك مريم وحزنها من الحمل الذى كان كالفضيحة لها، مما يؤكد أنه حمل عادي يثير الريبة فى مجتمع لا يقبل حملا من غير زواج، ثم

وصف لناعملية المخاض وصفا طبيا وأنه سبحانه وتعالي أطعمها رطبا جنيا ساعة المخاض، إذ أن الرطب يحتوي على هورمون "الريلاكسين" الذى يساعد على ارتخاء المفاصل والعضلات، مما يسهل عملية الوضع، ليؤكد لنا أن عيسى لم يتم بناؤه كتمثال من طين أُهدِي الى مريم كما نفهم أن آدم بنى من تراب وطين، وأن حمله وولادته لم يكونا الا حملا طبيعيا ووضعا طبيعيا فقط لم يكن للأب دور فيه .

إذاً فخلق عيسى سرٌ من حيث الكيفية البيولوجية، ولكنه كحدثٍ اجتماعي كان حملا ووضعا شهده شهود من البشر، أما خلق آدم فسر لم يشهده إلا الله تعالى والملائكة. ولمَّا كان مَثَلُ الخلقين عند الله واحداً فانه يمكننا أن نتدبر فى القليل الذى نعرفه عن خلق عيسى فى عالم الشهادة، لنتخذه وسيلة لمحاولة فهم خلق آدم الذى تم كلية فى عالم الغيب، وليس لدينا أى تفاصيل عملية أو شهود أو وصف اجتماعي لعملية خلق آدم.

ومن هذا المنطلق نطرح أسئلة منطقية مستوحاة من خلق عيسى عليه السلام:

* عيسى خلق كجنين فى رحم أمه مريم...فهل هذه صفة تشابه أو اختلاف مع خلق آدم؟

* عيسى خرج من بطن أمه فى مخاض طبيعي ... فهل هذه صفة تشابه أو اختلاف مع خلق آدم؟

* كان عيسى يوماً صبيا فهل كان آدم يوماً صبياً أيضاً؟

* بافتراض أنَّ آدم قد خلق من تراب فما هى علاقة عيسى وهو جنين فى رحم امه بالتراب اذاً؟

ثم آخرا وليس أخيرا، إن كان عيسى قد خلق بفعل "كن" فكان، لماذا يصف الله تعالى انه قال لآدم كن "فيكون" ؟ اذ أن كلمة "يكون" فى الآية جاءت بعد ذكر مثل آدم، مما يوحى بان الذى "يكون" هو آدم ونفترض لغة أن عيسى "كان"!

بعد التدبر فيما سبق ذكره يمكننا هنا أن نستنتج أوجه التشابه بين الخلقين كما يلى:

1. إنّ الله يخلق ما يشاء بفعل "كن"، سواء تشابهت طريقة الخلق البيولوجية أو اختلفت فإن أصل التشابه هو قدرة الله على أن يخلق ما يشاء كيفما يشاء!

2. معلوم أن عيسى خلق من تراب وطين تكوَّن به جنينا فى رحم امه كسائر البشر كما شرحنا فى باب "قصة الخلق"، ولكنه لم يبن من طين فى هيئة كاملة، وهذا أمر شهده الناس ووصفه القرآن فى وصف الحمل والمخاض، وبالتالي فان علاقة آدم بالتراب يمكن ان تكون شبيهة بعلاقة عيسى به. بمعني آخر أن هذا التمثيل يمكن أن يكون دليلا قاطعا على أن آدم خلق من مكونات التراب و الطين بقانون التطور الذى قدره الله لخلق كل البشر ومن بينهم عيسى الذى خلق من غير اب. بمعني أبسط فكأن الله يقول لنا لقد خلقت آدم من مكونات التراب بفعل كن كما رأيتم رأى العين

كيف خلقت عيسى من مكونات التراب فى رحم امه ولكن لم يبني أى منهما فى شكل تمثال كما تتخيلون!

3. عيسى لم ينجب ذرية وبالتالي فان خلقه من طين "كان" وانتهي بخلقه، ولكنّ آدم انجب ذرية تتكون كل يوم من ذات الطين وبالتالي فان علاقته بالطين كائنة فى تكرار خلق سلالته الى يوم القيامة وهذا يمكن أن يفسر كلمة "يكون" فى أمرخلق آدم.

هنا يطرأ سؤال عن أمرٍ آخر هام جدا وقد يصيب البعض بالدهشة وهو هوية "آدم" المقصود هنا، هل هو نبي الله المصطفى "آدم" او هو اسم جنس مأخوذ من كلمة أدْم فى اللغة ؟

أدْم: تعنى الموافقة والملاءمة ، تقول "أدَمَ الله بينكما" أى لاءم ووافق بينكما، ومنها الحديث المشهور فى النصح للخطيبين ان يرى كل منهما الاخر: " فإنه عسي ان يُؤْدَمَ بينكما" أى يحدث بينكما تآلف وتوافق وملاءمة. فهل يمكن أن يكون معنى الآية هو أن مثل عيسى عند الله كمثل كل جنس آدم "الملائم الموافق" وهو جنس يكون كل يوم الى يوم القيامة؟ هذا السؤال تجيب عليه آيات كثيرة وصفت سكن "آدم" الجنة، سنتطرق اليها فى باب "فى جنة المأوى"، ولكن نظن ان أوجه المقارنة بين خلق عيسى و خلق آدم أكبر من أن نقف فيها عند هذا الحد.

لعل من أبرز ما تسبب فى تشخيص خلق آدم فى شكل تمثالٍ مجسم نفخت فيه الروح هو وصف الله تعالى لخلق البشر بـ {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}29الحجر! إذ أن فهم هذه الخطوات قد يوحى بان الله سواه بيديه حتى اكتمل شكله، ثم قام بالنفخ فيه وهذا ما فهمه اليهود من وصف مشابه فى التوراة. لا بد ان نذكر هنا أن هذه الآية تصف خلق وتسوية البشر ولكنها لم تصف آدم بهذا الاسم رغم ان المتعارف هو ان المقصود هو آدم. فإذا افترضنا أن آدم لم يتم بناؤه كجسد قبل نفخ الروح، فما هو سر الروح التى نفخت فى آدم بعد أن سواه الله تعالى؟

الإجابة على هذا السؤال المشروع يمكن استيحاؤها من مثل عيسى نفسه، إذ أنّ نفخ الروح ورد فى القرآن فى هذا السياق فى أمر خلق عيسى تماما كما نفخت الروح فى آدم، مما يؤكد أن الله ما ضرب مثلا بخلق آدم كوسيلة لفهم خلق عيسى الا لأنه ترك لنا أدلة متناثرة مرتبطة بخلق عيسى إذا رتَّلناها ترتيلا أى تدبرنا المتشابه منها والذي يتناسق مع بعضه بعضا منها، تكونت لنا صورة أكثر وضوحا عن أمر خلق كليهما. الملفت للانتباه ان مفهوم "النفخ" فى القرآن ورد فى النفخ فى "البشر" وفي "مريم"، كما ان عيسى نفسه نفخ فى "الطير" وكذلك فان النفخ فى "الصور" يؤدي الى انفجار الكون عند قيام الساعة كما سنناقش ذلك فى باب "سدرة المنتهي"، اما هنا سنحاول فهم النفخ فى البشر من تدبرنا فى النفخ فى مريم ونفخ عيسى فى الطير.

النفخ فى مريم:

{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا **فَنَفَخْنَا** فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} 91 الأنبياء

{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ التى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا **فَنَفَخْنَا** فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} 12 التحريم

هنا يجب أن نعترف أن الأمر غامض غموض فهم الروح التى جعلها الله تعالى سرا من أسراره كما فى قوله تعالى:

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} 85الاسراء!

فأمر الروح يظل أمرا يمكن أن نتدبر فيه، ولكن لن نعلم عنه الا القليل، على أن من الحكمة أن نتدبر فى علاقة نفخ الروح فى وصف خلق عيسى ونفخ الروح فى قصة خلق البشر، ففي الآيات اعلاه وصف الله تعالى تلك العلاقة فى حالة عيسى كما يلى:

الوصف الأول: أنه نفخ من روحه فى مريم التى أحصنت فرجها. من المعلوم أن مريم كانت حية وبالتالي لها روحها المستقلة، ورغم ذلك فالروح هنا لم تنفخ فى جنينها بل نفخت "فيها" قبل أن تحمل عيسى عليه السلام " فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا"! فهل اصبح لمريم روحان أم أن "النفخ من الروح" هنا له مدلول اخر؟

الوصف الثانى: هنا نفخ الله بالتحديد فى فرجها من روحه، وللمرة الثانية لم يشمل النفخ عيسى، وإن كان مفهوما أن خلق عيسى هو المقصود بنفخ الروح!

فإذا كان فهمنا لآية {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} فى قصة خلق البشر تعنى الفهم المتوارث وهو أن الله قد خلق آدم من طين ولكن من غير روح، ثم فتح فمه أو أنفه ونفخ فيه الروح فدبت فيه الحياة، فهل يمكن أن نتخيل أن الله نفخ فى فرج مريم الروح بذات الطريقة التجسيدية ليخلق عيسى؟ أى أن الروح نفخت قبل أن يخلق عيسى من تراب! أغلب الظن أن العلاقة بين" نفخ الروح" والخلق فى الحالتين هى علاقة معنوية تشير الى فعل "كن" الذى ينفذ به القدر فيقضي به الله ما يشاء من غير الحوجة الى علاقة جسدية محددة بين النافخ والمنفوخ.

لا بد وأن نذكّر أن المفسرين أجمعوا أن "فرجها" فى الآية تشير الى أن جبريل قد نفخ فى "جيب درعها"، إذ أن "فرج" تعنى أى شق فى أى جسم، والشق فى أعلى الجيب يسمي فرج. الا أننا نجد غرابة فى هذا التأويل الذى لم نجد له حديثا يسنده، وذلك لأن الله تعالى قد مهَّد للنفخ فى هذه الآية بأن وصف مريم العذراء بأنها أحصنت فرجها، أى كانت عفيفة طاهرة وهذه صفة ملازمة لمريم عليها السلام، ومن هذا يفهم أن "فرجها" هو موضع العفة المعروف، وهو أيضا أول عضو يبدأ عنده الحمل، وليس هناك منطق أبدا يبرر تفسير الفرج هنا بالجيب او أعلى القميص! إذا تدبرنا لغة الآية نجد أن"النفخ" قد تم عطفه على الفرج المحصن، الشئ الذى يبرز حمل مريم

كمعجزة بدليل التأكيد على طهرها وعفتها، فكيف يكون النفخ قد تم فى أعلى الجيب؟ أغلب الظن أن كل المفسرين الذين لم يدعموا تأويلهم بحديث واحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اخذوا رأى مجتهد واحد ظن ان نفخ الروح إنما يكون من أعلى الجسد، لأن فهمهم للروح هنا هو أنها سر الحياة، ولما كان هناك أصلاً خطأ سابق فى فهم نفخ الروح فى فم آدم، فقد ذهبوا جميعا الى تأويل الفرج بأعلي الصدر أو الجيب لقربه من فم أو أنف مريم عليها السلام. ونحن نظن أن "النفخ" نفسه له مدلول اخر وندلل على ذلك بأن نرتل آيات النفخ فى مريم مع آيات نفخ عيسى فى الطين:

{...انى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ...} 49 ال عمران!

{..وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي..} 110 المائدة!

فى هاتين الآيتين نلاحظ أن عيسى لم ينفخ من روحه وإنما نفخ فى الطين فقط فكان الطين طيرا بإذن الله .

من هذه المقارنات يمكننا أن نستنتج أن عملية "النفخ" يمكن أن تكون إيذانا من الله لينفذ فعل "كن" فى الأمر وليست بالضرورة نفخا للروح التى تحمل سر الحياة، إذ أن الخالق هو الله، وإنّ تحول الطين الى طير يتم بإذن الله وليس بنفخ عيسى. نفخ عيسى فى الطير هنا لا يعدو عن كونه وسيلة معنوية لإثبات المعجزة تماما كما أمرالله موسى أن يضرب بعصاه البحر لينفلق. ومن هنا يمكننا أن نستتنتج أيضا أن "روح الله" ربما تعنى المعنى اللغوي لكلمة الروح وليس الروح التى هى سر الحياة الغامض.

روح: من معانيها السعة والفسحة والاطراد، وهي إيضا تعنى الريح وتعني الروح التى هى سر الحياة الذى لا يعلمه إلا الله تعالى.

نفخ: لها معنى واحد وهو الانتفاخ أى التضخم والعلو، والمنتفخ هو الرجل السمين.

من هذا يمكن أن نستتنتج أن النفخ فى مريم يمكن ان يدل على إنتفاخ الحمل، وأنّ روح الله كناية عن رحمته وفضله على مريم إذ أنه أكرمها من سعته بعيسي عليه السلام، وبالتالي يمكن أن يكون مدلول { التى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} هو أن الله قد أذِن لبدء حملها بعيسي بكل خطوات الحمل ابتداءً من الفرج وهو أول عضو فى جسد المرأة تبدأ به عملية الحمل، ثم يكون مدلول َنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا إشارة الى انها حملت حملا عاديا بفضل الله وانتفخ بطنها كأي امٍ حامل وليس أسبوعا أو اياما معدودة كما أوردت بعض التفاسير. هذا التأويل أيضا يسهل الجمع من غير إشكال بين النفخ "فيها" والنفخ "فى فرجها" كما ورد فى الآيتين، إذ أن النفخ هنا هو الانتفاخ الطبيعي الذى يتبع الحمل وكله تم بفضل الله ورحمة منه وسعة، ويبدأ إنتفاخ الحمل عند الفرج وسرعان ما ينتفخ كل جسد الام مع تطور الحمل.

ونحن نظن أن حمل مريم عليها السلام كان حملا عاديا استغرق ما يستغرقه الحمل العادي، والا لما كانت مريم ستخشي قومها إن كان فى ظاهر حملها شئ إعجازي، كسرعة فى الحمل وسرعة فى الوضوع كما قدم بعض المفسرين، وندلل على ذلك بأن قومها قالوا لها: {يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا} 28 مريم، وهذا يدلل على أن حملها ومخاضها كانا عاديين يمكن ان يشتبه فى أنه حمل سفاح ولذلك قالوا عليها بهتانا عظيما! ومن هنا نفهم أن بطنها انتفخ بالحمل واستغرق من الزمن ما يستغرق أى حمل، لكن الفرق الوحيد هو أن حملها ابتدأ بـ"اذن الله" وليس بوجود ماء الرجل و الله أعلم.

من المفيد علميا هنا ان نشرح مفهوم {يَا أُخْتَ هَارُونَ} وهو لا علاقة له بموضوعنا ولكنه يفيد القارئ باذن الله. درج اليهود على تسمية بناتهم بـ مريم تيمناً بمريم اخت موسى وهارون عليهما السلام، وهي التى تبعت موسى بعد ان التقطه فرعون ونجحت فى اقناعهم بان تأتي امها لترضعه وهكذا ردَّ الله موسى لامه كي تقرَّ عينها. اخته تلك كان اسمها مريم ولمَّا كانت قد لعبت دورا خطيرا فى انقاذ موسى واعادته لامها وامه فقد تيمن اليهود باسمها واصبح متعارفا بينهم ان كل فتاة تسمي مريم يقال لها {يَا أُخْتَ هَارُونَ} كما يصف المسلمون كل فتاة اسمها فاطمة بـ "الزهراء" تيمنا ببنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ذكرنا هذه المعلومة عرضا لان الكثير من المسلمين يدخلون فى حرج حينما يتهم النصارى القرآن بانه خلط مريم بنت عمران مع هارون وموسي، ولا يجد اغلب المسلمين اجابة لهذا الاتهام.

من المهم جدا أن نفهم عملية "نفخ الروح" فى مريم، لأن مثل عيسى شبه بمثل آدم، علما بأن القرآن أصلا لم يصف فى أى مكان أنَّ الله نفخ فى آدم بهذا الاسم، وانما تم النفخ فى البشر من غير تسمية. عملية النفخ فى البشر تمت بعد أن كان قد خُلق وعاش ملايين السنين وتناسل بصورة غير معلومة ثم تناسل جنسيا الى ان نفخ الله فيه من روحه. وكانت عملية النفخ تلك هى اللحظة التى مُنح معها خاصية العقل الذى أهَّله لأن يكون خليفة لله فى الأرض، ولكنها لم تكن بدء حياته ولا بدء خلقه! بعد أن أصبح البشر عاقلا فقط سمَّاه الله تعالى "آدم" فى التوراة و القرآن، ولكن جميع الآيات التى وصفت مراحل الخلق الأولى فى التوراة والقرآن تحدثت عن "البشر" وليس آدم.

وقبل أن نحاول فهم قضية النفخ من روح الله فى البشر، وهي موضوع البحث، يستحسن أن نلخص ما نظن أنه استنتاج موضوعي عن أمر خلق البشر حتى الآن:

1. قدر الله تعالى أن يخلق البشر من طين فأخبر الملائكة بذلك، وما كان للملائكة علم بطبيعة هذا المخلوق الجديد فلم تستغرب، فله أن يخلق ما يشاء وهو الحكيم الخبير.

2. خلق الله الإنسان بفعل "كن" من مكونات الطين وأتي عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً، ولا ندري هل بدأ وحيد الخلية أم متعدد الخلايا، فى هيئة نمل أو هيئة قرد، لا أحد يدري غير أنه لم يكن شيئا مذكورا! الى هذه المرحلة نحن لا نفترض أى افتراض ولكننا لا نحدد لله أى كيفية للخلق فهو يخلق ما يشاء كيف يشاء.

3. كانت الملائكة على علمٍ بوجود البشر فى هيئته الدنيا تلك، كعلمها بوجود كثير من مخلوقات الله، وكانت تعلم أيضا أنه يفسد فى الأرض و يسفك الدماء.

4. أودع الله فى ذلك البشر سر التطور فى " نطفة امشاج" الأمر الذى كان خافيا على الملائكة، ولكنه أدي الى تطوير طبيعة البشر تدريجيا وعبر ملايين السنين عبر أطوارٍ مختلفة مجهولة لنا.

5. عاش البشر فى الأرض فى صورة أدني من حالهم الحالي، و أفسدوا فيها وسفكوا الدماء والملائكة تشهد ولكنها لا تستغرب، إذ أن هذا البشر كان مثله مثل الحيوانات الأخرى لا يستحق الذكر ولا وظيفة معلنة له.

5- تطور البشر وفقا لنظام الطفرات التى تقوم بها الأمشاج حتى وصل الى مرحلة أقرب الى إنسان اليوم، ولكنه ظل فاسدا مفسدا لأن عقله ظل محدودا وضيقا.

6- قدَّر الله تعالى لهذا البشر قدَراً آخرَ بعد أن أصبح موافقا و ملائما "آدماً" لأن يقفز به الى وضع إنسان عاقل! ذلك القدر هو تكليفه بمنصب الخلافة فى الأرض.

7- اخبر الله الملائكة بهذا القَدَر قبل ان يقضيه فاستغربت الملائكة هذا الأمر، وكان استغراب الملائكة بلفظ: {قَالُوا **أَتَجْعَلُ** فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} وليس " اتخلق فيها" اذ ان البشر كان قد خلق ومعلوما لهم!

8- قضي الله تعالى قدره بأن نفخ فيه من روحه قافزا به من حيوان الى إنسان عاقل، ثم علمه الأسماء كلها مما أثبت جدارته أمام الملائكة التى أمرت بأن تسجد له بعد أن تولي منصبه خليفة لله فى الأرض.

إذا افترضنا جدلا أن هذا التسلسل مقبول للنقاش يصبح أمامنا أمران لا بد من فهمهما:

أولا: من هو هذا البشر الذى نفخ الله فيه من روحه؟

ثانيا: ان كان المقصود هو آدم الذى شبه الله خلقه بخلق عيسى، فكيف تم النفخ فيه علما بأنه فى أمر عيسى فقد نفخ الله من روحه فى فرج أمه قبل أن يخلقه؟

نحن هنا لا نطرح هذه الافتراضات من باب التشكيك فى الفهم الذى توارثه المسلمون على مدي قرون، لكن لأن الآيات فيها غموض فى المعنى ومتسع للتدبر، بالإضافة الى توفر حقائق علمية كثيرة تؤكد تأويلنا الجديد، علما بأن معظم الآراء المتوارثة ليست إلا إسرائيليات ليس فيها ما يلزم المسلم عدم مخالفتها مهما اعتاد الناس عليها وقبلوها من غير تدبر.

ظـهـور الانـسان العـاقـل:

جاءت اللحظة الحاسمة فى تاريخ التطور فى الأرض عندما نفذ قضاء الله تعالى فى البشر الملائم للتطـور، مجموعـة آدم، وذلـك بتحويلـه مـن حيـوان يعـيش وفقـا لقـانون بـابلوف للفعـل المـنعكس الشرطي الى إنسان يحكمه قانون جدل الإنسان. بمعني أنه قبل أن يطور الله ذلك البشر الى إنسان عاقل، كـان يتعامـل بـصفات الحيـوان الـذى يـصارع فقـط مـن أجـل العـيش والبقـاء، ويتعامـل مـع الطبيعة بردود الأفعال كبقية الحيوانات. ولكن يبدو أن تدخلا مباشرا من الله تعـالى نقلـه نقلـة بعيـدة الـى مخلـوق عاقل قابـل للتكليف والتعامل الفكرى والجدلي مـع قـوانين الطبيعـة. هذه النقلـة غيـر المفهومة لعلماء الطبيعة هى ما أسموه بـ "الحلقـة المفقـودة" إذ أنهـا حدثت خـارج قـانون الطفرات التـى تقـوم بهـا الجينـات فـى الأمـشاج، وظلـت موضـع حيـرة لعلمـاء الطبيعـة الـذين لا يؤمنـون بـأن الخلق كله بيد الله، وأن الله تعـالى قـادر علـى أن يعطـل قـانون الطبيعـة ويفـرض سلطانه المباشر، لإحداث تغيير جذري فى كل الوجود. فقد أثبتت الآثار العلمية أن الفترة الزمنية التـى يـرى العلمـاء أن التغيـر الـذى حـدث للإنـسان نتيجـة لإمتلاكـه العقـل، كانـت فتـرة متناهيـة فـى القِصَر، مقارنـة بملايين السنين التى مر بها، ليستعدل فى مشيته ويكتسب مهـارات خاصـة فـى استعمال أطرافـه، لذلك ظل ذلك السر حلقة مفقودة فى نظرهم الى اليوم.

الحـلقة المـفـقـودة:

لعلَّ القرآن يشير الـى هـذه الحلقـة المفقـودة حينمـا يـصف أن الله نفخ فيـه مـن روحـه، والتـي أيـضا كانت غير مفهومة للملائكة لولا أن الله أقام عليهم الحجة العملية كما سنرى:

{اللَّهُ الذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فـى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَـى الْعَرْشِ مَـا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَـا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ* يُدَبِّرُ الْـأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَـى الْـأَرْضِ ثُـمَّ يَعْرُجُ إِلَيْـهِ فـى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ* ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ* الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَـيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَـاءٍ مَهِينٍ* ثُـمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيـهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} 4-9 السجدة !

ولعل من المهم هنا ان نفهم مدلولات الالفاظ التى استعملت لتصف تلك الطفرة:

نسل وسلالة: الأصل فيها سلَّ بتشديد اللام، وتعني مد الشئ فى رفق وخفاء وتعنـي امتداد الذريـة عبر الأجيال.

سوى: كلمة تدل على استقامة واعتدال بين شيئين.

نفخ: انتفاخ وعلو، بمعني ازدياد فى الحجم وتضخم!

روح: كلمة روح لها معاني كثيرة منها الروح التى تحمل سر الحياة، وقد سكت الله تعالى عنها ومازالت سرا من أسراره. لكن روح أيضا تعنى سعة وفسحة واطراداً.

سمع: لها معنى واحد هو الايناس بالشئ أى الإحساس بوجوده.

بصر: لها معنيان: الأول هو العلم بالشئ ومنها البصيرة، وهي القدرة على إدراك الأمور الخفية، والثاني هو تغليظ الشئ كأن يخاط طرف الثوب.

فؤاد: الأصل فأد وتعني حمي وشدة الحرارة، وقد سمي القلب مجازا بالفؤاد لحرارته.

نلاحظ أن هذه الآيات قد لخصت كل نظريات التطور بصورة لا ينكرها الا مكابر فى هذا الزمان. المفسرون القدامي رضي الله عنهم، عاشوا فى زمان كان الإنسان يظن فيه أن الأرض مسطحة، لذلك أدَّوا ما عليهم من أمانة بأن اجتنبوا الخوض فى تفاصيل تفسير هذه الآيات، لعلمهم أن فيها علم يتطلب معرفة بأسرار الكون التى لم تكن متاحة لهم. ولكن فى زماننا هذا فإن إنكار أن الآيات الأولى هنا تصف أن خلق السماوت والأرض تم فى ست مراحل كل مرحلة ربما كانت ملايين السنين يكون منكرا للنص الصريح فى القرآن، ومنكرا لحقائق وقف عليها العلم الحديث. الله سبحانه وتعالي لم يترك لنا مجالا واسعا لنجتهد فى الفترة الزمنية التى تأخذها خطوات التطور، فقد أعطانا مثالا للأرقام الفلكية وهي أن يوما عند الله فى حالة نزول الأمر ورجوعه إليه يساوى ألف سنة مما نعد!

مستهدين بمحتوي هذه الآيات التى لخصت نظرية "الانفجار العظيم " فى خلق الكون و "النظرية النسبية" لانشتاين فى مفهوم الزمن المطلق وسرعة الضوء، لا بد وأن نتوقع أن الآيات التى تليها فى وصف خلق الإنسان إنما تصف خطوات التطور فى خلقه أيضا، إذ أن الخالق واحد و بيده مقاليد السموات والارض، وان المضمون واحد وهو طرح آياتٍ من آيات الله الكونية لم يكن الانسان على علمٍ بها يوم تنزَّل القرآن. إذاً لا غرابة أن الآيات التالية تحتوي على كل السر الذى ظل علماء الطبيعة يبحثون عنه عقودا طويلة، وظلت الإنسانية فى شوق لمعرفته على مدي الآف السنين، إذ أنها تلخص كل عملية التطور منذ بدء الخلق الى ظهور الإنسان العاقل وتحل مشكلة "الحلقة المفقودة" فى نظرية داروين فى التطور. وحتي نستوعب محتوي الآيات من ناحية لغوية لا بد من ملاحظة أحرف العطف التى تحدد مراحل التطور فى هذه الآيات:

{ وَبَدَأَ....* ثُمَّ جَعَلَ...* ثُمَّ سَوَّاهُ... وَنَفَخَ ...وَجَعَلَ.. السَّمْعَ.. وَالْأَبْصَارَ .. وَالْأَفْئِدَةَ}

ولمّا كانت كل آية منها تحكي طورا منفصلا من مراحل التطور فيستحسن ان نناقش كل طورٍ على حدة:

الطور الاول:

{وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}: هذه الآية وصفت بدء خلق الإنسان من طين وليس كماله، مما يوحى بأن هناك مراحل أو مكونات فى عملية الخلق نفسها من غير الطين. هذه الآية لم تدخل فى تفاصيل دقيقة وإنما أجملت إجمالا، وهذا طبيعي إذ أننا كلما رجعنا نبحث فى تاريخ الكون البعيد أصبحت الحقائق مبهمة ويصعب فهمها، وبالتالي فقد أجمل الله تعالى تلك المرحلة فى حقيقة واحدة هى أن بدء الخلق كان من طين. ولأن بدء خلق الإنسان كان متداخلا مع قوانين خلق الكون الأولى، وخلق جميع الكائنات الحية بما فيها الملائكة والجن، فاننا سنناقش هذه المرحلة بالتفصيل فى وقت لاحق بعد أن ندرس كيف كان عرشه على الماء ومن ثم نفحص آذان الانعام.

ما يهمنا فى هذه المرحلة هو الاجابة على هذه الاسئلة المشروعة:

* هل كان الانسان المقصود هنا ذكرا ام انثى ام كليهما؟

* هل كان الانسان فى هذ الطور كائنا حيا ام كان كتلة من الطين لا حياة فيها؟

* هل كان الانسان يتناسل بأي شكل من الأشكال فى هذا الطور؟

الاجابة على هذه الاسئلة نستنبطها من الطور الثانى:

الطور الثانى:

{**ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ** مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}: هنا نلاحظ أن الله تعالى وصف حقيقة حيوية مهمة جدا لعلماء الأحياء، وهي إنتقال الإنسان الى طور التكاثر الجنسي، وهو ما تشرحه {مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} إشارة الى ماء الرجل والمرأة الذى يفرز فى الأعضاء التناسلية والإخراجية مما يجعله ماءً مهينا. علماء الطبيعة يقسمون التناسل أو التكاثر الى قسمين: التكاثر اللا جنسي وهذا يتم فى المخلوقات البدائية من حيوان ونبات، سواء كانت أحادية الخلايا التى تنقسم على نفسها، أو متعددة الخلايا لكن لها جهاز عصبي بسيط، ويمكن لبعض الأعضاء منها أن تتطور الى كائن كامل. أما التكاثر أو التناسل الجنسي فهو الذى يتطلب التقاء ماء الذكر مع ماء الانثى، وهذا يتم فى الكائنات الراقية كالحيوانات ومنها الإنسان. إذاً ففي هذه المرحلة التى تصفها الآية أصبح الإنسان يتناسل بصورة جنسية، وتميز الى عضو فى المملكة الحيوانية. نلاحظ أن الفارق الزمني بين الطور الأول الذى كان التناسل فيه غامضا والثاني الذى اصبح التناسل فيه تناسلا جنسيا فارق طويل، بدليل أن الرابط بين المرحلتين هو حرف العطف "ثـــم".

حروف العطف تدل على الفترة الزمنية بين حدوث المعطوف والمعطوف عليه. "الواو" هى واو المعية وتفيد حدوث الشيئين معا، و"الفاء" تفيد تتابع شيئين الفاصل بينهما فترة زمنية بسيطة، اما " ثم" فتفيد التتابع مع التراخي أى أن هناك فارقا زمنيا طويلا نسبيا بين الحدثين. هذه الفترات

الزمنية تفهم بقانون "النسبية" أى أن طبيعة الأحداث هى التى تحدد الفترات الزمنية، ففي حالة خلق السموات والأرض فى ستة أيام، يمكن أن يساوى كل يوم منها ملايين أو بلايين السنين مما نعد. وهذا ليس اجتهادا، وإنما لو نظرنا للآيات السابقة أعلاه نجد أن الله قد وصف أن الأمر يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما نعد، وقد قدم لذلك بحرف "ثـم". إذاً ان استعمال الله تعالى لحرف العطف "ثم" هنا له مدلول علمي مهم جدا وهو ان الفارق بين المرحلتين من مراحل التطور كان طويلا نسبيا أى ربما ملايين السنين.

لا بد ان ننتبه هنا الى كلمتين هامتين فى الآية: الأولى هى كلمة "**جعل**" وهي تفيد تغيير وظيفي فى شئ موجود اصلا، والاخري هى كلمة "**نسله**" وهي تعنى عملية التكاثر التى هى من اولى صفات الأحياء. أذاً " ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ" تعنى انه اصلا كان يتناسل ولكن تم تغيير وظيفة التناسل الى تناسل جنسي. هذا بالضرورة يفرض علينا فهم خصائص اضافية فى الآية الأولى وهي ان طور الطين كان فيه تناسل لا جنسي، والا لما قال "جعله نسله"! ولمَّا كان التناسل هو اهم صفات الأحياء، فان هذا بالضرورة يعنى ان الانسان ومنذ طور الطين عند بدء الخلق كان كائنا حياً له الروح التى هى سر الحياة وكان يتناسل بصورة لا جنسية وبالتالي فقد كان احادي الجنس أى لا ذكر ولا انثى!

الطور الثالث:

{ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} هذا هو الطور الحاسم الذى اوجد الإنسان العاقل، ولانه أقرب الى زماننا نجد أن الله تعالى ذكر فيه مزيداً من التفاصيل التى نفهمها. نلاحظ فى وصف هذا الطور، أن التطور شمل تغييرا تشريحيا فى أعضاءٍ، وتغييراً وظيفيا فى أعضاءٍ اخرى! فقد قدمت الآية بتغيير تشريحي وصف بالتسوية والنفخ، وقد تم فى نفس اللحظة تغيير وظيفي يدل عليه لفظ "جعل" أدي الى ظهور خواص السمع والبصر، مما يدل على أن الأذنين والأعين كانت موجودة لدي الانسان ولكن من غير وظيفة.

عملية "التسوية" و "النفخ" او الانتفاخ هذه تمت فى عضو محدد من جسد الإنسان وهو بطبيعة الحال العضو الذى يحمل خواص السمع والإبصار والعقل وهو الجمجمة.

عملية التسوية ربما تكون تعديلا تشريحيا فى شقي المخ ومساواتهما وربما اشتملت على تفاصيل اخرى لا يعلمها إلا الله بطبيعة الحال، لكننا نعلم أن مخ الإنسان يحتوي على بطينين كبيرين وثالث أصغر، تحتوي جميعا على السائل المخي الذى عن طريقه تتم معظم التفاعلات ونقل المعلومات من مراكز الالتقاط من سمع وبصر الى مراكز التحليل والفهم، وهذه تختلف كثيرا عن التركيب التشريحي للمخ فى الحيوان. ما يهم هنا هو أن الله تدخل مباشرة ونفَّذ النفخ، أى أنَّ الانتفاخ والتوسعة وقعا فى نفس اللحظة التى تمت فيها عملية المساواة لأجزاء المخ وهي نفس

اللحظة التى حدثت فيها خواص السمع والأبصار عند الإنسان، وبالتالي تكوَّن مفهوم العقل الذى جعل من الإنسان مخلوقا جبارا فى الأرض له القدرة على استيعاب قوانين الطبيعة وتطويعها لمصلحته، وأيضا امتلك القدرة على فهم سلوك الحيوانات والمخلوقات الأخري والسيطرة عليها، مما يجعله جديراً بمنصب خليفة الله فى الارض.

ونلاحظ أيضا أن لفظ {مِنْ رُوحِهِ} بطبيعة الحال لا يعنى الروح التى هى سر الحياة، إذ أن هذا الإنسان كان قد خُلق كائناً حياً منذ ملايين السنين وتكاثر بطريقة لم تفصح عنها الآية الأولى، ثم تطور وتميز الى ذكر وانثى وأصبح يتكاثر تكاثرا جنسيا كما فى الآية الثانية مما يفيد تلقائيا ان التكاثر فى الطور الاول كان تكاثرا لا جنسيا، ثم جاء طور نفخ الروح هذا بعد ملايين السنين، لأنه قُدِّم له بحرف العطف "ثم" أيضا. وكما رأينا فى مَثَلِ خلق عيسى أن مريم قد نفخ الله فيها من روحه وهي حية مما يدل على أن الروح هنا وهناك تعنى السعة والاطراد وليس روح الحياة!

نلاحظ هنا أن حرف العطف الذى استعمل مكررا بين احداث الآية هو حرف "الواو" الذى يفيد حدوث الشيئين معا. هذا يعنى أنه فورالتسوية والنفخ فى الرأس أصبح الإنسان سميعا بصيرا وعاقلا. هنا أيضا نفهم أن كلمة "جعل" تعنى أن الآذان كانت موجودة وأن العينين كانتا موجودتين وأن المخ كان موجوداً، ولكن الذى لم يكن موجودا هو مفهوم العقل الذى يستعمل وظائف هذه الأعضاء، ولذلك تم تغيير وظيفي فى آلات السمع والبصر، ولكن بعد أن تمت تسوية المخ، فسبحان الذى سواه! بطبيعة الحال فان الحديث هنا بل ومن ملايين السنين قبل هذ الطور كان عن الانسان ذكرا وانثى معا، اذ لا يعقل ان يكون نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ وهو ذكر من غير انثى!

قد يبدو هذا التحليل مدهشا للكثيرين، ولكن القرآن الذى لا تنتهي عجائبه لم يصف مرحلة الحلقة المفقودة كما رأينا فقط، وإنما قدم لنا سبحانه وتعالي وصفا تشريحيا لطبيعة مخ هذا البشر قبل أن ينفخ الله فيه فيصبح عاقلا. ولما كان هذا السر المدهش يحتاج أولا لفحص آذان الانعام فاننا سنقوم بأذن الله تعالى بأول عملية تشريح فى تاريخ العالم لمخ البشر قبل أن يتطور الى مخ إنسان عاقل، وذلك فى الباب الحادي عشر من هذا الكتاب.

ما نود أن نخلص إليه هنا هو أن السمع والبصر هما أهم ادوات التقاط المعلومات عن العالم المحيط بالمخلوق، و من ثم خزنها وتحليلها فى المخ لتشكل المرجعية لقدرات العقل فى استيعاب أحداث الحياة والتعامل معها بذكاء. ومن هذا نفهم أن عملية التسوية لمخ الإنسان والنفخ التى تمت بتدخل مباشر من الله تعالى، كانت اللحظة الحاسمة التى نقلته الى إنسان عاقل مكلَّف، وهذه هى الحلقة المفقودة فى نظرية داروين!

اجتهدنا فى ان نجد اصلا لغويا لكلمة " نافوخ" التى تستعمل فى العامية لتشير الى الرأس ولكننا لم نوفق فى الوصول الى اصلها، الا ان استعمالها كوصفٍ للدماغ الذى هو اصلب عظم فى جسم الانسان ولا يمكن ان ينتفخ امر يثير الدهشة فى ضوء ما توصلنا اليه من ان الله قد نفخ فى دماغ الانسان البدائي ليمنحه العقل!

ما يقوله علماء الطبيعة هو أن جمجمة البشر تضخمت تدريجيا ولكن فجأة ظهر الانسان العاقل قبل حوالي سبعة الف سنة وهي نفس الفترة التى وجد فيها آدم تقريبا كما ذكرنا فى باب " قصة التطور" مما يقارب بين الرأيين، وان هذا التغيير الذى ادي الى العقل هو الفرق الاساسي بين الإنسان والحيوان، ما كان له أن يحدث إلا بحدثٍ خارق لقانون الطبيعة وتدخل مباشر من الله تعالى، لذلك لا يمكن فهمها من علم الآثار والحفريات فقط. فضلا عن ان هذه التغييرات والتسوية التى وصفها القرآن قد تمت بطبيعة الحال فى المخ وليس فى العظام، و بحوث علم الآثار لا تجد مخا ولا قلبا ولا لحما وانما تبحث فى عظام اسلافنا، لذلك ظلت هذه التغييرات سرا غامضا وحلقة مفقودة.

إذاً يمكن أن نستنتج أن العقل يفسد وظيفيا عند جنون الانسان، وربما ينكمش حجم المخ او القلب او تضيق البطينات فيه عند نومه، لذا يرفع القلم عن النائم ويرفع التكليف موقتا. وبالتاكيد فهو يتأثر بالخمر والمخدرات، لذا حرمهما الله سبحانه وتعالي لانها ترد الإنسان الى صورته الحيوانية كما هو معروف. وقد يكتمل المخ تشريحيا ويستوي عند البلوغ لذلك يبدأ التكليف مع البلوغ. ومما لا شك فيه أن حجم مخ الإنسان ينكمش مع تقدم السن، الشئ الذى يلعب دورا فى تنكيس الخلق وفقدان العلم الذى تعلمه طول عمره مع الشيخوخة، وبالتالي يرفع القلم أيضا عن المسن الذى يفقد القدرة على عقل الأمور، والله أعلم.

نلاحظ أيضا فى آيات النفخ هذه أن الله تعالى يتحدث عن الإنسان ولم يُدخل "آدم" فى الصورة بعد، إذ أن اسم آدم ذُكِر فى القرآن ليصف الإنسان الذى تطور بعد النفخ وليس قبله.

ولعله من المفيد أن ننظر فى آية اخرى وصفت مراحل التطور الثلاث بصورة مقتضبة جدا ولكنها واضحة:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} 11الأعراف!

التصوير فى اللغة هو تحديد الشكل وهيئة الخلق!

لا شك أن طور التصوير فى هذه الآية يختلف اختلافا كبيرا عن طور الخلق، إذ أن العلاقة بين الاثنين تمت بحرف العطف "ثم" الذى يفيد وجود فارق زمني كبير نسبيا بين الحدث الأول والثاني، وليس من المنطقي بالطبع أن نفترض أن الإنسان خلق ولكنه لم يكن كائنا حيا، ثم صوره

الله أى أعطاه هيئة محددة فى الخلق ولكنه ايضا لم يكن حيا، الى أن تم نفخ الروح فيه الشئ الذى سبق السجود لآدم! الفهم المنطقي والواقعي لهذه الآية هو أن الانسان خلق وظل فى حالة متغيرة من الهيئة والشكل الى أن وصل الى مرحلة محددة من التطور، فصوره الله أى أعطاه هيئة الإنسان المعروفة لدينا. بين طور الخلق الأول وطور التصوير فارق زمني لا يعلم به إلا الله تعالى، ولكنه طويل نسبيا بدليل حرف العطف "ثم"! واستمر الإنسان فى صورة إنسان أيضا لفترة طويلة من الزمن لا يعلمها إلا الله تعالى الى أن جاء الطور الأخير الذى أمرت الملائكة فيه بالسجود لآدم، وهو الطور الذى أشتمل على النفخ فيه وإعطائه السمع والبصر والعقل كما فى الآيات السابقة.

بالإضافة الى إبراز مراحل التطور بصورة واضحة، نجد أن هذه الآية تحتوي على سرٍ مثير للدهشة نفهمه من التدبر فى لغتها! المعروف فى لغة القرآن أن الله تعالى يستعمل لفظ "الجمع" حينما يكون الأمر مرتبطا بالذات الإلهية، وذلك من باب التعظيم، ولله العزة جميعا! فالفاظ "خلقنا" و"صورنا" و"قلنا" كلها تشير الى الله الواحد الاحد، ولكن الغريب ان الخطاب وهو اصلا موجه الى الانسان اليوم جاء ايضا بصيغة الجمع "كم"! ما يفهم عادة هو ان الله يخاطب بنى آدم اليوم ولذلك يجمعهم فى لفظ "كم" ولكن فى هذا الفهم خلط باين! فتسلسل الأحداث يشير الى أن هذه مراحل الخلق والتطور التى سبقت سجود الملائكة لآدم وهو فرد واحد كما هو الفهم الاسرائيلي السائد! وباين أيضا أن الوصف حينما وصل الى مرحلة السجود لآدم اصبح خطابا مفردا "اسجدوا لآدم" ، فلماذا تم الخطاب بصيغة الجمع فيما هو قبل آدم، ثم أفرد لفظ الخطاب عند مرحلة آدم؟ هناك احتمالان منطقيان لهذا الأسلوب فى الخطاب:

1. أن يكون الحديث أصلا عن مجموعة كبيرة من الخلق خلقها الله ثم صورها ثم اصطفى منهم فردا واحدا هو آدم الذى سجدت له الملائكة!

2. ان يكون السياق كله صيغة جمع وهنا يكون لفظ "آدم" يشير الى اسم جنس وليس فردا كما نفهم، أى أن آدم هو اسم او صفة لمجموعة من البشر خلقها الله ثم صورها ثم قال للملائكة اسجدوا لهم، أى أن آدم هنا تقوم مقام "جنس البشر" أو "جنس الإنسان" وليس شخص نبي الله الأول آدم عليه السلام.

من هنا فقط يمكننا التأكيد على أن القرآن وصف وجود الإنسان على الأرض فى مراحل متباينة ومتباعدة، مما يؤكد مفهوم "الأطوار" الذى أشار إليه نوح عليه السلام، لكننا سنبحث بالتفصيل فى "مفهوم الجمع" ومفهوم آدم الذى أشارت إليه الآية فى باب "فى جنة المأوى" وما بعده إن شاء الله.

الحيوان يغير فى تكوينه الفيسيولوجي ليلائم متغيرات الطبيعة ولكنه يظل خاضعا لها بكل عجز، وذلك ربما يكون التفسير لحقيقة الحين من الدهر الذى أتى على الإنسان و لم يكن شيئا مذكورا. أما الانسان العاقل فصار يغير قوانين الطبيعة ويطوعها ويخضعها لمصلحته. الإنسان يتطور بدراسة واقعه ويضع مخططا لمستقبله، ويبدأ فى تنفيذ المخطط ليصل الى واقع جديد ليس كل المستقبل المخطط وليس كل الواقع الماضى إنما إضافة من هذا وهذا، ولحظة تحققه يصبح ماضيا واقعا ليخطط لمستقبل جديد، وهكذا، وهذا ما يسمي بقانون جدل الإنسان.

هذا يعنى أن أى إنسان ليتطور ويمارس الجدل يجب أن يمتلك معلومات عن واقعه. والبشر قد كانوا حيوانات قبل القفزة بهم الى إنسان عاقل، وعندما تم تحويلهم الى إنسان عاقل ملّكهم الله أول شقي قانون الجدل، وهو معرفة الواقع الذى بناءً عليه يمكنهم التخطيط للمستقبل.

مرحلة السجود لآدم سبقها إثبات آدم جدارته بمنصب خليفة الله فى الأرض أمام الملائكة التى استغربت تكليفه بهذا المنصب قبل أن تعلم أن الله سينقله الى إنسان عاقل. هذه الجدارة نالها آدم بعد أن نقل الله الى عقله علوما أساسية تميز الإنسان العاقل عن بقية المخلوقات بما فيهم الملائكة.

نـقل السُلـطـات الإلــهـية:

لما أصبح مخ الإنسان العاقل قابلا لأن تنتقل إليه علوم لا يعلمها إلا رب العالمين، بدأت عملية نقل بعض السلطات الإلهية اليه تمهيدا لتنصيبه خليفة لله فى الأرض واطلق على هذه المجموعة من ذلك الحين فقط اسم آدم:

{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ انى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} 31-33 البقرة.

هذه الآيات تحكي لحظة مهيبة من تاريخ الكون، جمعت خالق السموات والأرض فى حوار مفتوح مع الملأ الأعلي، وهم الملائكة المقربون الذين ينفذون أعلى اوامر رب العالمين، وخليفته المرتقب فى الأرض. ما نلاحظه فى هذا الحوار أن الملائكة سألت الله سؤالا مشروعا، وأن الله تعالى لم يجبهم فقط بأنه يعلم ما لا يعلمون، وإنما قدم اليهم دليلا عمليا وهو أنه عرَّضهم لامتحان فاعترفوا بحدود علمهم، ثم نقل علوما لا يعلمونها وربما ليس بوسعهم بطبيعة خلقهم أن يستوعبوها، الى عقل الإنسان الذى أجاب على ذات الأسئلة التى أعجزت الملائكة العالية. هذا الوصف ربما يوحى بأن عقل الإنسان خُلق بقدرة خارقة تمكنه من استيعاب أمور غيبية لا تستطيع الملائكة على استيعابها بطبيعة خلقها، إذ أن وظيفتها فقط هى الطاعة المطلقة وليس

التفكير والتخطيط، مما يجعل الإنسان جديرا بان يكون الخليفة لله تعالى فى الأرض وليس غيره.
هذه الأسماء التى علمها لآدم اختلف المفسرون والعلماء فى سرها، فمنهم من قال: إنها اسماء ذريته، ومنهم من قال: إنها أسماء كل شئ، ومنهم من قال: إنها كل لغات الأرض وهكذا، مما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفسرها، لذلك تُركت للاجتهاد.
على ان الفهم السائد الذى يفيد ان آدم اصبح حينها عالما بكل شئ لدرجة فاق فيها علمه علم الملائكة، فهمٌ يتناقض تماما مع كونه لم يدفن أى من نفاياه، والي جيله الثانى لم يكن يعلم حتى كيف ينبش الارض ليواري جثث موتاه. هذا القصور فى علمه الذى اوردته قصة "الغراب" التى سننظر اليها بشئ من التفصيل لاحقا، يفيد ان علمه بالطبيعة كان بدائيا جدا الى جيل ابنائه. من هنا نظن ان مفهوم الاسماء التى علمها له الله لها مدلول آخر غير العلم العام الذى طالما افترضه الناس.
"اسماء" هى جمع "اسم" وقد اورد صاحب المعجم ان اصل "اسم" ربما جاء من "سمو" وتعني العلو او من "وسم" وتعني "الاثر والمعلم". من هذا يمكننا ان نفترض ان تلك الاسماء هى السمات المميزة لخصائص الكون وليست اسماء اشياء بعينها. فى زماننا هذا صمم الانسان جهاز الكمبيوتر مستنيرا بالقليل الذى اكتشفه عن خصائص العقل البشري، فصنع فيه "الذاكرة" لحفظ المعلومات وصنع فيه آلات واجهزة تقارن بين المعلومات المخزونة وتحللها وتنصنفها وهكذا. والكمبيوتر كجهاز لا يعمل مالم تنقل اليه ملفات تحتوي على علوم مصنفة تقوم باستعمال خواصه الفيزيائية وتحويلها الى لغة مفهومة يتعامل بها الانسان من كتابة ورسم وتصميم وتحليل الخ. قياسا عليه فلربما كانت تلك الاسماء التى تعلمها آدم هى سمات و خواص استيعاب مقومات الوجود من قدرة على استيعاب مفهوم الزمان ماضٍ وحاضر ومستقبل والابعاد والاحجام والقدرة على ربط الاسباب بالمسببات ومن ثم تحليل الاحداث واستيعاب خواص الطبيعة ومن ثم التفكير والتخطيط للمستقبل. هذه السمات ربما لا تمتلكها الملائكة التى خُلقت لتنصاع لامر خالقها من غير تخطيط لحياتها. بهذا التفسير يمكننا ان نوفق بين "الاسماء" التى علمها آدم وجهلتها الملائكة، وبين جهل ابن آدم فى كيفية نبش الارض ليدفن سوءة اخيه. اذ ان "الاسماء" هنا تفيد القدرات العقلية على التعلم ولكنها لا تفيد اكتساب علوم بعينها، اذ ان ذلك يتراكم بطبيعة الحال مع امتداد الخبرة فى الحياة. ما يهمنا هنا هو أن الله علّم آدم شيئا لا تعرفه الملائكة ليبدأ بهذا العلم خلافته لله فى الأرض.
ولعل المقدرات الفائقة للعقل البشري التى يستطيع بها أن يمتلك كثيرا من صفات الألوهية فى حدود، هى التى أهلّته ليكون خليفة لله فى الأرض، إذ أن جميع المخلوقات الأخري ظلت على الأرض لملايين السنين ولم يتغير نمط حياتها قيد أنملة، مقارنة بالطفرات الهائلة للإنسان فى شتي

مجالات الحياة بعد أن نقله الله لانسان عاقل، وكأنه امتلك بعضا من قدرات الخالق أودعت فى عقله فأصبح يتحكم فى بعض جوانب الطبيعة ويسخرها لمصلحته.
هنا نشير مرة اخرى الى أن كلمة "آدم" تعنى اسم جنس " الجنس الموافق والملائم للتغيير" وليس "آدم" كشخص واحد بعينه، فيصبح مفهوم الآية تعليما جماعيا لجنس آدم كما فى قوله تعالى فى سورة العلق {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} وعلَّم آدم الاسماء كلها، فـ "آدم" و "إنسان" هما رديفان يشير كلاهما الى جنس الإنسان العاقل وليس شخصا واحدا بعينه، وسنناقش ذلك باستفاضة فى باب "فى جنة المأوى".

تنصيب الخليفة:

بدأ خلق البشر كمخلوقات من تراب نبتت من الارض نباتا، ثم تطور هذا البشر أو بعض منه الى أن أصبح ملائما للتغيير وهو جنس آدم، ثم نقل هذا الفصيل الملائم بفعل "كن" الى وضع إنسان عاقل بتغيير تشريحي سوّي مخه وامتلك حواس وعقل الإنسان العاقل، ليكلف بعد ذلك بوظيفة خلافة الله فى الأرض. وتم تعليم الخليفة الجديد بسِمات كل الأشياء التى فى واقعه ليتمكن من ممارسة الجدل والبحث والتدبر، مما يؤهله لأن يكون نائبا عن الخالق فى الأرض متحكما فى مخلوقاته ومتحكما فى قوانين الطبيعة فى حدود ما أُوتي من قدرات عقلية. ولكي يثبت أهليته فى أن يشغل منصب خليفة الخالق فى الأرض، جعله الله تعالى يجيب على استفسار الملائكة من قبل: { قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ انى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} وهنا جاءت مرحلة تنصيب الخليفة وذلك برفعه الى موضع التكريم على كل المخلوقات التى ستخضع له {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ...} 34,33 البقرة.
نلاحظ فى القرآن أن كل الآيات التى وصفت حال البشر قبل النفخ، تحدثت عن البشر أو الإنسان بينما يرد اسم "آدم" فقط بعد النفخ ونقله الى إنسان عاقل. هذه الملاحظة التى يشترك فيها القرآن والتوراة توحي بأن وصف "البشر" يشمل كل من صعد نفس السُلَّم من التطور بينما "آدم" تصف المجموعة الملائمة للتغيير التى سوّي الله عقلها ونقلها الى إنسان عاقل.
هنا لا بد أن نتوقف كثيرا عند صيغة المخاطبة للملائكة بعد أن جُعِل البشر خليفة، إذ نلاحظ ان الصيغة قد ظلت بصيغة المفرد "وإذ قال ربك.." فى آية الخلق، ثم استمرت بصيغة المفرد طوال الحوار الذى أثبت فيه آدم أهليته ليكون خليفة " قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ..." و" قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ ...." لكنها تغيرت الى الجمع " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ .." فى آية السجود. هذا الاختلاف فى السياق يطرح تساؤلات عديدة جديرة بالبحث! فمما لا شك فيه أن الله يستعمل لفظ الجمع ليعظم

نفسه فى مواقع كثيرة جدا فى القرآن تكاد تكون هى الغالبة وهذا فهم جمهور العلماء، على أن إفراد الله لذاته فى سياق الخطاب ارتبط بمواضع محدودة فى القرآن بصورة يبدو منها تعظيمه للطرف الآخر وكأنه يبرز علاقة مباشرة معه. فمثلا حينما خاطب موسى فى الوادى جاء السياق مفردا ومباشرا:

{فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى*انى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى*إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} 11-13 طه.

السياق المفرد هنا يدل على تقريب موسى الى الله ورفعه لمستوي رفيع وهو ما تؤكده آية {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} 164النساء.

فلعل فى صيغة المفرد فى التعامل مع خلق آدم تعظيما مشابها للخليفة المرتقب حتى قبل أن تعرف الملائكة أنه سيكون خليفة لله فى الأرض، ولكن إن كان هذا التفسير منطقيا فإن صيغة الجمع عندما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم تصبح غريبة، لأن السجود هو قمة التعظيم ولعل هذه اللحظة كانت أجدر باستعمال اللفظ المفرد حتى تعلم الملائكة قدر الخليفة الذى يسجدون له، ولكن الأمر بالسجود جاء يصيغة الجمع" وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ " فى حين أن الخلق كان مفردا "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ..". هذا التساؤل يضاف اليه سؤال آخر مشروع وهو كيف تسجد الملائكة العالية التى لا تسجد الا لله، لهذا الإنسان غير المعصوم؟!

انصياع الملائكة للأمر يزيد الامور تعقيدا، إذ أن وصف القرآن لسجودهم ارتبط بواحدة من أكثر الآيات القرآنية إثارة للجدل والخلاف بين المفسرين منذ عهد السلف الى يومنا هذا، وهي حقيقة وجود إبليس وسط الملائكة وهو من الجن كما أوضح الله تعالى صراحة:

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} 50 الكهف!

فما هو السر وراء صدور الأمر للملائكة بالسجود بصيغة الجمع، رغم ان خلق البشر صدر بصيغة المفرد دلالة على تعظيم ذلك المخلوق، ثم ماذا كان إبليس يفعل مع الملائكة ولماذا شمله الأمر بالسجود رغم أنه كان من الجن؟

قبل ان نبحث فى الاجابة على هذه الأسئلة يستحسن ان ننقل رأى التوراة فى مسألة السجود لآدم لان النظر الى ذات القصة الغامضة من روايتين مختلفتين غالبا ما يوحى بمدخلٍ سليمٍ للبحث:

{فخلق الله **الانسان** على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وانثى خلقهم. وباركهم الله قائلا لهم:" اثمروا وتكاثروا واملأوا الارض وأخضِعوها. وتسلطوا على سمك البحر، وعلي طير السماء وعلي كل حيوان يتحرك على الارض} سفر التكوين 1: 29.

نلاحظ من هذا الوصف التوراتي ان الانسان حينما خلق اعطي سلطات تسلُط على قوانين الارض ومخلوقاتها من سمك فى البحار وطير فى الجو. بطبيعة الحال لا يمكن الجزم بأن النص فى التوراة الاصلية كان على هذا المنوال ولكن المعروف ان اليهود حرفوا عن قصد النصوص التى تتعارض مع هواهم او تتنبأ بانبياء لا رغبة لهم فيهم. واغلب الظن ان الكثير من محتوى التوراة يعكس المضمون الاصلي ما لم يتعرض الى خلل لغوي نتيجة سوء الفهم وسوء الترجمة.

مضمون هذا النص يفيد ان سلطة الانسان فرضت على قوانين ومخلوقات الارض، وليس سجودا للملائكة كما نظن انه المقصود من النص القرآني! فهل يمكن ان يكون مفهوم "قوانين الارض ومخلوقاتها" التى تسلط عليها الانسان كما فى التوراة، مضمنا فى مفهوم "سجود الملائكة" الذى حير المفسرين والعامة كما فى القرآن، علما بان الانسان وبعد بضعة الف سنة من "سجود الملائكة" له قد فرض سلطاته على قوانين الارض ومخلوقاتها برا وبحرا وجوا بينما ظلت فكرة "سجود الملائكة" له وكون ابليس كان بينهم مشكلة نكاد نجزم أنها خطرت على بال كل من قرأ القرآن بتدبر؟

"ملائكة" فى اللغة لها مصدران: إذ أنها يمكن أن تكون من الأصل "ملك" وهو أصل يدل على قوة فى الشئ وصحة فيه، ولكن يرجح علماء اللغة أن تكون من الأصل "ألك" وتعني حمل الرسالة أو الرسول...!

سجد: لها معنى واحد يدل على تطامن وذل..سجد الرجل، إذا طأطأ رأسه وذل! وهذا المعنى لا يعنى بالضرورة السجود الجسدي من وضع الوجه على الأرض كما نمارسه فى الصلاة ولكن يمكن أن يعنى الخضوع طواعية.

هنا لابد ان نستدرك ان مفهوم "ملائكة الرحمان" الذى يشكل الإيمان بهم ركنا أساسيا من عقيدة المسلمين، لم يكن معروفا لدي العرب فى الجاهلية اذ ان القرآن استغرق ثلاثة عشر عاما من عمر نزوله فى مكة يرسخ مفهوم وحدانية الله وصفاته وأسمائه الحسني مما يؤكد ان الله وملائكته ورسله كلهم كانوا مفاهيم جديدة على المجتمع العربي. قياسا على ذلك فان لفظ "ملائكة" الذى لا يعنى الا "ملائكة الرحمان" فى فهم المسلمين من الجيل الثانى الى يومنا هذا، لم يكن يحمل الا مدلوله اللغوي بالنسبة للمجتمع العربي حين تنزل القرآن! ولما كان القرآن قد طوع المصطلحات العربية لتوصيل الرسالة الى الانسان فقد استعمل بعض المصطلحات لتشير الى ما يفهمه الناس حينها، واستعمل بعضها ليشير الى حقائق كونية كانت غامضة على الجيل الاول، ولكنها ظلت سرا من اسرار القرآن الى حين يصل علم الانسان باسرار الكون قدرا يسمح له ان يفهم المفاهيم التى كانت غامضة عليه. من تلك الألفاظ القرآنية التى حيرت الناس زمنا مفهوم "آذان الانعام" الذى التبس على الناس طوال القرون واتخذناه اسما لكتابنا هذا! وهنا نظن ان "الملائكة" التى

أُمِرَت بالسجود ليست ملائكة الرحمان التى لا تسجد الا لـه، وانمـا هـى صـنف آخـر مـن رسـل الله التى تتحكم فى مخلوقاته، وقد جعل الله تطويعها لارادة الانسان جزءً من صلاحيات خليفة الله فـى الأرض، ولكنها ما كان لها ان تفهم الا حينما يتطور عقل الانسان الى مستويً يعينه على فهم تلك "الملائكة" وحينها فقط يتضح هذا الإعجاز اللغوي فى القرآن!

بناءً على ذلك فاننا نظن ان هنالك ملائكة أو رسل ما بين الله والإنسان غير ملائكـة السماء الـذين قال عنهم الله {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا اولـى أَجْنِحَـةٍ مَثْنَـى وَثُلَـاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّـهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 1 فاطر. الاختلاف فـى مـدلول لفظ "ملك" يتوقف على نوع الرسالة، إذ أن الله يرسل رسلا برسائل تشريعية للانس والجن المكلفين تحملها الملائكة المعروفة ولكنه ايضا يتحكم فى الكون تحكما مباشرا فـى كل مخلوقاته احيـاءً وامواتاً وجمادات، بل ويخاطبهم ويخيرهم فيختاروا ولكننا لا نفهم كيف!

هذا المفهوم يتضح لنا اكثر حينما نتدبر اسلوب مخاطبة الله لمخلوقات الكون غير العاقلة. فمثلا حينما اكتمل خلق السماء والارض وصف الله سيطرته عليهما هكذا:

{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } 11 فصلت! ففي امر الخضوع لـه تعالى خير الله السماء والارض وهما فى مفهومنا غير ناطقتين، وكان التخييرفي كيفية الخضوع وليس فى حرية الخضوع وعدمه، فردتا عليه باختيار الخضوع طواعية. لا احد بطبيعة الحال يسأل كيف تفهم الارض وكيف تخير وكيف تجيب، ولكن الله يخاطب كل مخلوقاته وكلها تجيبه!

فاذا كان الخالق قد خاطب كل الكون قبل ان يخضعه له، فاننا يمكن ان نقيس على ذلك انه تعالى قد أمر جزءً من قوانين الكون ان تخضع لخليفته! من هنا نفترض ان امر الخضوع لآدم كان موجها للقوانين النوعية التى تحكم حركة الكون لتدخل فى اطار معرفة الانسان وقدرته على دراستها وفهمها وتطويعها لمصلحته. هذه القوانين اشير اليها بلفظ "ملائكة" لانه فى علم الله فان كل الكون بجماداته واحيائه تتحكم فيه "رسل" كيميائية وفيزيائية هى التى تحدد خواص وقدرات كل موجود وتتحكم فيه وهذه هى التى امرت بالخضوع لآدم، وليس ملائكة السماء العالية! هذه المعلومة ما كان يمكن ان تخطر على بال انسان قبل زمننا هذا الذى اكتشف الانسان فيه الكثير من تلك القوانين التى تحكم حركة الوجود ومن عجبٍ سماها "ملائكة" او "رسل" بناءً على واقعها ووظيفتها. فكل حركة الاحياء تتحكم فيها " مسنجر" مثل المسنجر RNA الذى يعمل بلا كلل فى نسخ الصفات الوراثية من حمض الى آخر والتي تشكل كل خواص المخلوق انسانا كان او حيوانا او نباتا! هذه الرسل او "الملائكة" التى يتحكم الله بها فى مخلوقاته هى التى تحكم كل حركة ووظيفة فى الخلايا الحية من الوسائط او الرسل التى تتحكم فى دخول وخروج المعادن

والايونـات مـن والـي الخليـة الـى النـاقلات العـصبية " نيـورو ترانـسمترز" التـى تتبادلهـا بلايـين النهايات العصبية فى الجسم الواحد والي "المسنجر" الـذى ينقل بلايين الرسـائل الالكترونيـة عبـر العـالم فـى الانترنـت ويـسمي كـل منهـا "مـسنجر" أى رسـول وهـو المعنـى الآخـر لكلمـة ملـك! وسنعرف بمزيد من التفصيل كيف يرتبط كل الكون ببعضه بعضا وتتبادل مكوناتـه التـأثير والفعل ورد الفعل عبـر "الرسـل" الفيزيائيـة والكيميائـة والحيويـة كأنـه جسم واحـد حينمـا نـدرس مفهـوم الكرسي والعرش فى "آذان الانعام"!

إذاً كانت حادثة السجود لآدم او "التطويع" هى اللحظة التى ادخلت القوانين التـى تحكـم مخلوقـات الله فـى اطـار معرفـة الانـسان وقدرتـه علـى الـتحكم فيهـا وتـسخيرها لمـصلحته متـى مـا اسـتطاع معرفتها. فالسجود هنا ليس السجود المجسد وانمـا الخضوع والتسخير لقدرات تحكم الانـسان. و حتى يسهل فهم ذلك نضرب مثـالا بـ" المـاء"، اذ ان الانـسان اوتـي القدرة علـى فهم قـوانين المـاء وبالتـالى اصـبح بمقـدوره ان يغليـه فيتبخـر او يبـرده فيتجمـد وهكـذا! فقـوانين المـاء النوعيـة او "ملائكته" او "المسنجرز" التى تتحكم فى خواصه الفيزيائية والكيميائيـة طوعت لقدرات الانـسان ان يتحكم فيها. وبذات المثـال فـان القـوانين التـى تحكـم النباتـات والطبيعـة والـدواب كلهـا اخضعت لقدرات الانـسان ان يستكشفها ويطوعهـا ويـتحكم فيهـا. المخلـوق الوحيـد الـذى رفـض ان يكـشف قوانينه النوعية وبالتالي يخضعها لـتحكم الانسان كـان ابلـيس، وهو يمثل فصيلا من الجـن ولـيس الجن كله، بدليل ان سليمان عليـه الـسلام تحكـم فـى فـصائل مختلفـة مـن الجـن ولكنـه لـم يـتحكم فـى ابليس لانه كان قد رفض اخضـاع نفسه وقوانينه النوعية "ملائكته" لـسلطان الانـسان. بهذا يمككنـا ان نفهم ان الله اخضع كل الكون لقبضته المطلقة التى لا تحتاج لقانون وهذا ما عبر عنه بـ { فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا}، ولكنه اعطي خليفته صلاحيات ادني من ذلك وهي الـتحكم فـى القوانين او الرسل او الملائكة التى تحكم حركة وسكون مخلوقاته وجاء هذا الاخضـاع بتخيير تلك القوانين والرسل فى ان تخضع او ترفض بلفظ { قُلْنَـا لِلْمَلَائِكَـةِ اسْجُدُوا لِـآَدَمَ } امـا كيـف "قـال" و "قلنا" وكيف تفهم الارض وتطيع وكيف تفهم مكونـات الكون الكيميائية والفيزيائيـة، فـامور يعلمهـا الله الـذى يمكنـه ان ينطـق كـل شـئ كمـا سـتنطق جلـود الكفـار يـوم القيامـة وتـشهد علـيهم { وَقَـالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الذى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ } 21 فصلت! اذا فقصة السجود لآدم تشير الى ان الانسان اوتـي القدرة علـى فهم وبالتـالي الـتحكم فى القوانين التى تخضع لها كل المخلوقات، ولما كان ابليس قد رفض السجود، فذلك يعنى انه هو وقبيله فقط اصبحوا خارج متنـاول قدرات الانـسان علـى معرفـة قوانينهم النوعيـة وبالتـالي الـتحكم فيهم!

هذا الفهم للفظ "ملائكة" لا يحل الاشكال فى فهم كيفية سجود ملائكة الله للانسان فحسب، ولا يحل الاشكال فى فهم علاقة ابليس الذى هو من الجن بملائكة الرحمن، وانما هو استقراء لآيات الله الكونية التى وصل اليها علم الانسان واخضع بموجبها جل قوانين الطبيعة جمادات واحياء لارداته ومصلحته والتي اصبحت من المسلمات فى حياتنا اليومية. فهذا الكتاب فى مراحل كتابته المختلفة نقلته الملائكة "المسنجر" التى ادخلت فى اطار قدرات الانسان العقلية، عبر الانترنت عشرات المرات بين لندن والخرطوم وامريكا. فإذا كان الله قد خير السماء والارض صراحة فى اختيار كيفية الخضوع فاستجابتا له، فليس مستغربا ان يخير قوانين الطبيعة التى تحكم مخلوقاته ان تخضع او لا تخضع لسلطان خليفته، وقد فعلت ما عدا ابليس!

لو اعدنا قراءة الآية مرة اخرى بهذا الفهم يمكننا ان نلاحظ ان ابليس اصلا لم يوصف بانه من الملائكة، وانما كان هذا لبسٌ فى الفهم نتج عن غرابة القصة وسرعة القراءة:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ: هذا امر من رب العالمين الى قوانين كل مخلوقات الارض ان تخضع لارادة آدم.

فَسَجَدُوا: أى ان كل المخلوقات انصاعت لامر ربها واخضعت قوانينها النوعية "ملائكتها" لتصرف الانسان وقدرته التحكم فيها، وهذا يشمل الدواب والنبات والطبيعة وكل ما يمكن للانسان ان يكتشفه ويتحكم فيه.

إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ: هنا نلاحظ ان ابليس لم يوصف بانه من الملائكة، وانما وصف بانه فصيلا من الجن رفض ان يكشف وبالتالي يخضع قوانينه النوعية "ملائكته" لمعرفة وتحكم الانسان وبالتالي فسق عن امر ربه فى انه رفض الخضوع لقدرات الانسان.

من هنا يمكن ان نفهم ان خليفة الله قد منح القدرة على ان يمارس السلطات الالهية فى التحكم فى مخلوقات الله بتحكمه فى القوانين التى صممها الله لتسيير هذه المخلوقات. الاستثناء الوحيد بطبيعة الحال هو قانون ابليس ولذلك ذكرنا الله مرارا انه يرانا ولا نراه ويمكنه ان يضلنا من غير ان نشعر.

من ناحية اخرى نجد أن الملائكة العالية التى تساءلت فى موضوع خلافة آدم قد وصفت بالملأ الأعلي:

{مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ} 69 ص!

هناك شبه إجماع بين المفسرين يؤكده حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنَّ الملأ الأعلي هنا تشير الى الملائكة التى اختصمت فى حقيقة آدم وسألت الله عن تكليفه بالخلافة وهو يفسد فى الارض ويسفك الدماء، وهي نفس الملأ الأعلي الذى كانت شياطين الجن تتصنت عليها:

{وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ*لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ} 7-8 الصافات.

إذاً يمكننا ان نفهم الآن ان ملائكة الرحمن المعروفة لم تكن معنية بالسجود وانما كانت هى التى حملت اوامر رب العالمين لقوانين الارض لتخضع لمقدرات هذا الخليفة. ولعل من الحكمة ان يتنبه بعض الخطباء الذين تدفعهم العاطفة فى المبالغة والتصريح بان ابليس الخبيث رفض السجود لآدم فى الوقت الذى سجد فيه جبريل وميكائيل وعزرائيل، وان كانت مثل هذه المبالغة تصدر بحسن نية الا ان فيها تجاوز ربما يمس عقيدة المسلم علما بأن الله لم يصف ان ابليس كان من الملائكة اصلا وانما كان الامر "للملائكة" بمفهومها اللغوي من غير تسمية جبريل وغيره، ثم استثني ابليس ووصفه انه من الجن.

إن كان هذا الافتراض صحيحا يمكن أن نستنتج أن الله عندما خاطب الملائكة بخلق البشر، إنما خاطب ملائكة السماء العالية بصيغة المفرد، لأن الخطاب منه وحده مباشرة ولأن فى ذلك رفعة لشأن هذا المخلوق الجديد، أما عندما صدر الأمر "للملائكة" بالسجود "لآدم" إنما كان أمرا من الله تعالى حملته ملائكة السماء " الملأ الأعلي" الى "ملائكة " أو "قوانين الارض"، كل ملك حمل الامر لما يدخل فى مجال اختصاصه من مخلوقات الارض وقوانينها بما فيهم قوانين الجن، ولذلك جاء الأمر بصيغة الجمع من الله وملائكة السماء العالية الى "ملائكة الأرض" أى القوانين والرسل الكيميائية والفيزيائية والحيوية التى صممها الله لتكون وسيلة خطاب مخلوقاتها.

هذا الافتراض لا يفسر فقط الحكمة من صيغة الجمع والمفرد فى الخطابين، وليس فقط يشرح كيف كان ابليس من الجن وطُلب منه أن يسجد مع الملائكة، وإنما يفسر أيضا سؤال الله تعالى لإبليس حينما رفض ان يسجد :

{قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} 75ص .

هنا نلاحظ أن الله تعالى قد أفرد احتمالين لرفض إبليس السجود: إما الاستكبار وهو الغرور الشخصي، أو أنه ظن انه من العالين، أى أنه مستثني من اخضاع قوانينه كإستثناء ملائكة السماء "الْعَالِينَ" الذين لا يسجدون إلا لله. وكان رد إبليس واضحا وهو أن سبب تمرده **ليس** لانه ظن انه من ملائكة الرحمان العالية وانما هو الاستكبار، لان القوانين التى تحكمه هو " قوانين النار" ارفع شأناً من القوانين التى تحكم الانسان وهي "قوانين الطين" {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} 76 ص.

نلاحظ ان كل الاصطلاحات القرآنية التى سببت اشكالا فى الفهم على مر العصور انها "شفرة" موقوته لا تفهم الا حينما يصل علم الانسان بآيات الله الكونية مستوي يسمح له باستيعاب مضمونها. هذه الشفرات القرآنية مثل " **تلكما** الشجرة" و " سجود **الملائكة**" و" قال يا نوح انه

ليس من **اهلك**" فى قصة ابن نوح، و "كان **عرشه** على الماء" و " **آذان** الانعام" وغيرها مما سنناقشه فى هذا الكتاب تفيد حكماً عديدة منها:

1. ان هذا القرآن ما كان له ان يفتري من دون الله لان هذه المفاهيم كانت غريبة على المجتمع الذى نزل فيه القرآن وظلت غريبة الى يومنا هذا.

2. ان هذا القرآن محفوظ بالحرف لان الصحابة لو ارادوا تحريف شئ فيه لكان الغامض عليهم اولى بالتحريف.

3. كل هذه المفاهيم الغامضة ارتبطت بمفهوم **التطور** الذى ما كان الانسان يفهمه قبل ان يتطور عقله الى ما وصل اليه فى زماننا هذا!

4. انه لا حدود للمعاني الخفية لكلمات الله وان كان البحر مدادا لها فسينفد البحر قبل ان تنفد كلمات الله ولو جئنا بمثله مدداً.

الخلاف حول الخليفة والسجود له:

اختلف أهل العلم فى مدلول خلافة الإنسان فى الأرض، فمنهم من قال: أن الإنسان خلق ليخلف قوما سبقوه على الأرض، مما يدل على أن رأى استمرارية الخلق قبل نبي الله آدم وارد من قديم. على ان الرأي الغالب وبه نأخذ هو أن الإنسان كُلف بأن يكون خليفة لله أى ينوب عن سلطانه فى الأرض، وندلل على ذلك بعدة وجوه:

1. كلمة خليفة فى اللغة تحمل معنى الخلف "عكس أمام" وأيضا معنى "التناوب" أى ينوب أحد عن الآخر. القرآن استعمل الكلمة وفروعها بكثرة لكن أبرز وأقرب الاستعمالات لموضوع خلافة الإنسان لله هو:

{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} 26 ص. وهنا لا نظن أن الله يعنى غير أن داؤود قد كلف بأن ينوب عن الله فى تنفيذ حكمه وسلطانه فى الأرض، إذ أن داوود كان نبيا اصطفاه الله وآتاه الملك، ولم يخلف أحدا على الملك وإنما كان سليمان هو الذى ورث داوود وليس العكس.

عندما ذهب موسى لميقاته مع ربه كلف هارون بأن يخلفه:

{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فى قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} 142 الاعراف.

هنا أيضا نلاحظ أن لفظ الخلافة يشير الى تنفيذ حكم وسياسة من استخلفه. ويتضح من استعمال اللفظ فى الآيتين السابقتين أن الخليفة لا يشترط فيه أن يحل محل الذى غاب من غير رجعة أو

مات، وإنما تشير الى إعطاء شخص آخر صلاحية تنفيذ سياسة وحكم وقانون، سَنَّه ووضعه صاحب الأمر الأول فى استمرار وجوده، وهو الله فى حالة داوود وموسي فى حالة هارون.

2. من يتولي الحكم بعد زوال سابقه إنما يوصف بانه ورث الأمر كله وليس أصبح خليفة كما فى قوله تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} 16 النمل. ولذلك نلاحظ أن ملك سليمان اختلف كماً وكيفاً عن ملك داوود، لأنه لم يخلفه وإنما ورثه بعد أن مات وانتهي سلطانه وقدرته على التشريع والتنفيذ معا، واصبح الامر المطلق لوريثه سليمان. علما بان سليمان ايضا كان خليفة الله لانه نبى يوحى اليه وليس خليفة لنبى.

3. الخليفة محدود الصلاحيات إذ أنه ملزم بتنفيذ سياسة وحكم من استخلفه، لذلك سمي كل من قاد الأمة الاسلامية بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالخلفاء الراشدين وليس" الورثاء"، إذ أن الميراث يعطي حرية التصرف المطلق، اما الخلافة فقط تكلف الخليفة بالسير على هدى وحكمة وحكم من استخلفه، وفي حالة الخلفاء الراشدين فإنهم لا حق لهم فى تشريع جديد يخالف شرعة الرسول صلى الله عليه وسلم وكأنه حي اذ انه كان أصلا خليفة لله فى الارض.

4. إذا كان الإنسان خليفة لمخلوق سبقه على الأرض فقد كان من المفترض أن يسير على سنة من خَلَفَه ولا يجدد فى أمرهم شيئا، وهذا مغاير للواقع لأن الإنسان كلف بتنفيذ حكم الله فى الأرض فى نفسه وفي رعيته وفي باقي خلقه، ولكن لم يعرف فى الشرع أننا إنما نمشى على خطي قومٍ سبقونا وننفذ سياستهم لنحقق أمر خلافتهم وإنما نحكم بما أنزل الله لنؤدي دورنا فى خلافة الله فى الأرض.

هنا يستحسن أن نذكّر بأن القرآن قد وصف استمرار وجود الإنسان الجسدي من ذرية قوم آخرين، إذ أن الآية وصفت: {كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} 133 الأنعام. و الإنشاء هنا يعنى الاستقامة والاعتدال فى المشئ بعد أن كان أسلاف البشر يمشون منحنيين على أربع كالقردة، ولكن مفهوم الخلافة يرتبط بالعقل موطن التكليف، وهذا حدث فقط بعد أن نفخ الله فى البشر ونقلهم الى إنسان عاقل. إذا فالخلق قد تطور من ذرية قوم آخرين لكن الخلافة لله ابتدأت بعد العقل الذى أعطاه الله لجنس آدم فقط بتدخل مباشر منه وليس كل البشر.

5. الخليفة كالنائب، له وضع سامي يستمده من سمو من يخلفه ولكن موقعه يظل أدني منه وان كان مرتبطا به، فالخلفاء الراشدون أدني من الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنهم ارفع مكانا من بقية المسلمين إذ أنهم اؤتمنوا على تنفيذ سياسة وشريعة وحكم الله بعد موت الرسول الذى أصلا كان دوره أنه خليفة لله فى الأرض.

6. لو كان الإنسان خليفة لمخلوق سبقه فذلك يجعل المخلوق السابق أرفع مكانا من آدم الذى خلفهم، وهذا مغاير للواقع إذ أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم (اى سخر له مكونات الكون) وليس من سبقه من البشر.

7. القرآن أخبرنا أن الانسان قبل طواعية حمل الأمانة التى أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، وهذه الأمانة هى مسؤولية تنفيذ حكم الله فى الأرض وتحمل تبعات تلك المسؤولية من حساب وجنة ونار يوم القيامة، وبالتالي فإن الخلافة هنا لله وليست لمخلوق سابق للإنسان.

8. من استقراء الواقع نجد أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى أوتي سلطان العقل وحرية التصرف معا إما شاكرا أو كفورا، مما مكنه ان يبسط سلطانه على قوانين الطبيعة وبقية الخلق عدلا أو ظلما، وكأنه يمارس صلاحيات إلهية امتدت الى محاولاته حتى فى التدخل فى شئون الخالق ومحاولة تعديل الخلق من استنساخ المخلوقات على الأرض، الى السعي للتحكم فى أجرام الفضاء، مما يؤكد ان مفهوم الخلافة هنا هو خلافة الله، أى استعمال كثير من قدراته بحرية يحاسب عليها يوم القيامة.

9. الإنسان يشتق أسماء من أسماء الله الحسني تدل فقط على أنه أدني منه فى كل صفة: فالله هو الحكيم والإنسان حكيم، والله هو القدير والإنسان قدير، والله هو السميع والإنسان سميع، والله هو البصير والانسان بصير وهكذا، مما يؤكد ان خلافة آدم إنما كانت لله إذ أنه ارتبط بصلاحيات وصفات الربوبية، ولكنه فقط فى وضع أدني من الله فى تلك الصفات.

10. إذا كان الله تعالى هو مالك الملك ذو الجلال والأكرام الذى يسجد له كل من فى السموات والأرض، فقد جاءت حادثة السجود لآدم لتؤكد أن آدم إنما رفع بذلك لعالم السيادة الذى استحق بموجبه الخضوع والانصياع الذى يمنح فقط لصاحب الجلال والإكرام ونائبه أى خليفته.

11. القول بإن الله لا يحتاج الى خليفة ليس إلا مغالطة، كالقول بأن الله لا يحتاج لملك الموت وملك الجبال وملك الأرزاق وغيرهم، فالملك لله وحده ولكنه كما شاء ان يمنح جزءاً من ملكه لمخلوقات اختارها لتنفذ أوامره التى انما تنفذ بفعل كن، فله مطلق الحرية أن يمنح الإنسان صلاحيات الإبتكار والتنفيذ فى نطاق محدود من ملكوته، جاعلا منه مخلوقا يمكن أن يخلق ولكن فى حدود، ويمكن أن يسخر الطبيعة والمخلوقات لخدمته ولكن أيضا فى حدود ما تكرم الله به عليه.

12. التمحيص فى تمرد إبليس على السجود يدلنا على أن إبليس كان يظن أنه أرفع شأنا من الإنسان، لانه خلق من نار بينما خلق آدم من طين، مما يدل على أن الخلاف كان على رفعة الشأن، و هذا يعنى أن آدم مُنِح وظيفة وتكريما لا يستحقهما فى نظر إبليس، وكأنه يقول لله: أنا

اولى بأن اكون خليفتك منه، لأني أرفع منه شأنا وأكرم منه أصلا وأولي منه بهذا المنصب. لو كان تكبر إبليس ناتجاً فقط من عناده لما أحتاج أن يبرر ذلك بقوله:

{قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الذى كَرَّمْتَ على لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} 62 الاسراء.

من هنا يتضح لنا جليا أن إبليس تمرد ورفض السجود لأن الانسان المخلوق من طين قد كُرم عليه بالخلافة لله، وهذا ينفي أن إبليس كان سينتابه نفس الغضب لو كان الإنسان جُعل خليفة لحيوان أو مخلوق سابق له. الأمر كان صراع مناصب، والمنصب هنا خلافة الله أى من يأتى بعد الله فى الوجود، إبليس أو آدم! فلما اختار الله آدم تمرد ابليس.

15. كما ذكرنا سالفا إن الخلافة نفسها أختلفت عن الخلق، إذ أن الله لم يأمر الملائكة بالسجود للبشر حينما خلقه، إنما جاء أمر السجود حينما جعله خليفة له وحينها فقط سماه آدم، وقد ناقشنا أن لفظ "الجعل" لا يدل على خلق جديد وانما تغيير فى وظيفة مخلوق موجود اصلا.

إذاً فالسجود لم يكن لآدم كشخص، وإنما للوظيفة التى رفع إليها آدم وهي وظيفة سيادية فى الكون، تكتسب هيبتها من سيادة مالك الملك وليس من شخص آدم! ويمكن أن نفهم ذلك من أن رجلا عاديا بسيطا يُنتخب رئيسا لبلاده، فحينها فقط تؤدي له التحية العسكرية ليس لشخصه وإنما للوظيفة التى أصبح يشغرها، فإذا كان السجود والخضوع لله وحده فإن من جعله الله نائبا وخليفة له جدير بالخضوع له تعظيما لله وليس لشخص النائب.

بناء على ما تقدم فإننا نظن والله أعلم أن الرأي القائل: إن الإنسان هو خليفة الله فى الارض هو الأرجح لغة ومنطقا وواقعا.

ولعلَّ الالتباس فى الظن بأن السجود لآدم قد تمَّ بالسقوط على الأرض كما نسجد نحن لله قد نتج من فهم هذه الآية التى نظن أن لها معنى آخر:

{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ انى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ*فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ*إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} 71-74 ص.

نقف فى هذه الآيات عند كلمة " **فَقَعُوا**"، ونحن نعتقد أنها ليست "فعل أمر" من الفعل "وقع"، لأن اللفظ لو كان فعل أمر لما احتاج إن يُقدم له بحرف العطف الفاء، وانما هى فعل ماضٍ بلفظ الجمع من الفعل "يـفقع"، والرجل الفقِع هو الرجل الطيع الذليل، و"الفقاعة" هى انتفاخ ضعيف فى سطح الماء سرعان ما يزول، و الرجال الذين "فَقَعُوا" هم الذين تذلَّلوا لغيرهم.

هنا يخاطب الله سبحانه وتعالي ملائكة السماء بأنه سيقدر قانونا يؤدي الى خلق كائن جديد أسماه "البشر" سيتم تطور هذا البشر الى أن يستوي ويعتدل على قدميه، وحينما يسوى عقله و ينفخ فيه من سعة "روح" وفضل الله، ستذل وتطأطئ له "فقعوا" أى سيفقع ملائكة الأرض، أى كأنه فى

الآية الأولى يصف لهم ما سيحدث: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي سجدوا له أجمعين"، وفي الآية التالية استثني من شذ عن ذلك الأمر: " فسجد ملائكة الأرض كلهم أجمعون.. إلا إبليس استكبر عن الانصياع للخليفة الجديد...

من هنا يتضح لنا أن لفظ السجود لا يعنى بالضرورة السقوط على الأرض ووضع الجبهة تحت أقدام آدم، وإنما تعنى إخضاع جميع المخلوقات فى الأرض لإرادة آدم. ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن الإنسان يمكنه أن يكتشف القوانين النوعية لكل المخلوقات والموجودات بمن فيهم الجن نفسه، وتطويعهم لخدمته وتسجيدهم له، ما عدا إبليس وقبيله إذ أنه أخرج نفسه من هذا الانصياع منذ أول يوم. وربما كان سلطان سليمان الذى فرضه على الجن بقدرة الله، ووضعهم فى وضع إذلال ومهانة الى ما بعد موته، ليؤكد لنا أن سلطان خليفة الله يمتد على كل المخلوقات باستثناء إبليس وقبيله، لأن هذا تمرد وقبل الله رجاءه أن يبقي إلى يوم الدين ويكون عدوا الإنسان .

فبينما أخضعت كل الجن لآدم والجنس الإنساني، ظل إبليس حرا طليقا الى يوم الدين:

{إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ*قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ*قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ*قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ*وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ*قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ*قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ* قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ َ}

ص! 74-83

هذه الآيات توضح لنا أن إبليس قد ربط نفسه بهذا المخلوق الجديد ووضع لنفسه هدفا إلى يوم القيامة، وهو غواية الإنسان عن الصراط المستقيم، لذلك عندما يؤمر الانسان بأن يسكن الجنة أويهبط منها الى ألارض لانحتاج لأن نسأل عن إبليس، لأنه سيكون حيثما وجد الانسان لأن هذا هو هدفه الذى منح من أجله الخلود الى يوم الدين.

إذا افترضنا أن كل هذه الاستنتاجات منطقية فلا بد لنا إذاً أن ندخل الجنة مع " آدم" لنري هل كان زوجا واحدا أو مجموعة من البشر هى جنس آدم! ولكن قبل دخولنا الجنة يستحسن أن نسترجع الاسئلة المحرجة التى خطرت على بال الكثيرين من أهل الديانات السماوية مع اختلافهم، عن ما حدث فى الجنة:

1. اشتمل السياق القرآني فى وصف احداث الجنة على آدم وزوجه بصيغة المثني، من غير مقدمات لوجود الانثى، فمن أين جاء زوجه؟

2. لو كان آدم وزوجه تشير الى رجل وامرأة هما اول أبوين فى تاريخ البشر، فمن أين تزوج ابني آدم ليواصلا النسل؟ الإجابة الشائعة وأصلها من الإسرائيليات وليست حتى موجودة فى

التوراة المحرف، هى أن آدم ولد زوجين من التوائم ولد وبنت فى كل حالة! فهل يكون الله قد بدأ نسل البشر من زواج أخ من اخته؟

3. الشيطان أقسم أمام الله قسما فريدا من نوعه فى تاريخ الكون، مما يدل على انه قمة فى المكر والدهاء، فلماذا يستدرج آدم بخدعة "شجرة الخلد وملك لا يبلي" فى أول يوم دخل فيه الجنة، وهو ليس لديه تجربة بعد مع الموت وبالتالي لا خوف لديه منه بعد! ما طبيعة تلك الشجرة وما علاقتها بالخلد لدرجة ان آدم ينخدع فى الإغراء؟

4. قبل أن يأكلا منها نزع الشيطان عنهما "لباسهما"، و حينما أكلا منها بدت لهما "سوآتهما" حسب نص القرآن والتوراة، فما هى العلاقة المباشرة بين "الأكل من شجرة الخلد" وبين نزع اللباس و ظهور السوءة للدرجة التى يكررها الله تعالى بصورة بارزة جدا فى التوراة والقرآن؟!

*   *   *   *

ما جرى فى جنة المأوى يحكي اولى تصرفات الإنسان الأول الذى لم تكن لديه أى خبرة فى التعامل مع الحياة كإنسان عاقل بعد، ولكنه نسى أن الشيطان على ربه قد افترى، فقبل نصحه بسذاجة الإنسان العادى الى اليوم فغوى وما جرى فى جنة المأوى أمرٌ غامض ومعقد، ومن حكمة الله أنْ لا أحد من البشر غير آدم قد رأى ما جرى، لذلك ما روى الله ما جرى إلا بلغة تعكس مستوى فهم الإنسان فى ذلك الحين. وحتي نستطيع أن نفهم ما جرى لا بد لنا أن نستدعي "الغراب" ليترجم لنا ما جرى إذ أن الإنسان نفسه ما درى حينها ماذا جرى! و ما جرى روى بمنطق الإنسان الأول الذى كان يتعلم من الغراب بالمشاهدة، وليس منطقنا نحن بعد آلاف السنين مما جرى! فلندخل مع آدم الى جنة عرفات لنكشف، ولأول مرة فى تاريخ البشرية: ماذا جرى **"فى جنة المأوى"!**

البـــــاب الرابـع

فى جـنَّةِ المأوى

منذ أن أقسم إبليس بعزة الله لَيُغْوِيَنَّ آدمِ وذريته وهو بارٌ بقسمه ومجتهدٌ فى إغواء الإنسان فى كل زمان ومكان. ولعلَّ من الحكمة أن نتدبر قسم إبليس الذى شكل أكبر خطر على آدم وذريته منذ ذلك اليوم، إذ أنه ما زال اللاعب الأساسي فى خارطة العالم:

{قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} 82-83 ص.

المتدبر لهذا القسم والوعد الحاقد لابد وأن يستحضر الصورة الحقيقية للحظة حدوثه، فالشيطان لم يكن يشك فى وجود الله ولا عزته، ولا يحتاج لرسول يهديه أو معجزات تثبت له أحقية الله تعالى فى الملك. ورغم ذلك اختار معاداته علنا بهذا الفجور الذى يمثل أعظم تمرد فى تاريخ الكون. فقد روى لنا القرآن أن فرعون وهو من أكثر جبابرة الأرض فجوراً قد حاول إظهار إيمانه حينما انطبق عليه البحر فقال: قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الذى آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ولكن إبليس هنا يتحدى ويتوعد وليس بينه وبين الله رسول أو ملائكة تتوسط فى نقل الحوار! أهمية هذا القسم تكمن فى أن اسلوب هذا المريد فى استدراج الإنسان سيكون فى منتهى الخبث والمكر والعزيمة التى لا تلين كما سنرى. ولذلك فإن الله تعالى يذكرنا بأن الشيطان لنا بالمرصاد فى كل زمان ومكان، حتى لا تكون لنا حجة أن الله ما حذرنا من مكره.

رغم وضوح نية الشيطان فى إضلال الإنسان، إلا أن الله تعالى قد وصف لنا أول معصية ارتكبها الإنسان بعد خداع الشيطان له فى الجنة بلغةٍ فيها من الغموض ما يحير كل متدبر لكلمات القرآن. ويبدو أن غموضا مماثلا روى الله به نفس القصة فى التوراة، هو الذى ألْبَس على بنى إسرائيل فقاموا بتأويل الألفاظ حتى تصبح مفهومة فى نطاق علمهم المحدود حينها، ثم كُتِب تأويلهم فى التوراة ونُسِب الى الله تعالى، فأفسدوا الحكمة من غموض الألفاظ وخلقوا معانى جديدة لا علاقة لها بالقصة. ولأن الوصف القرآني لا ينقص غموضا، فقد انتقلت تلك التأويلات الإسرائيلية الى المسلمين كتفسير لغموض آيات القرآن المحفوظ من التحريف، لدرجة أنها أصبحت من المسلّمات التى لا تناقش، مما يدل على أنه لا أحدٌ استطاع أن يقدم لها تفسيرًا غير تأويل الإسرائيليات. تلك المعصية الغامضة هى الأكل من الشجرة المحرمة!

من المهم أن نذكر هنا أن شريعة الله تعالى منذ آدم الى يوم القيامة لم تحرم شيئا إلا لحكمة حتى وإن كان الإنسان لا يعرفها. فقائمة المحرمات اشتملت على الخبائث وقائمة الحلال اشتملت على الطيبات وإن كان الإنسان أحيانا لا يفهم الحكمة من وراء التحريم. أما هوية شجرة الخلد التى حرمت على آدم والحكمة من تحريمها فقد ظلت أمرا مُبْهَماً على كل أهل الأديان السماوية. ولأن المعصية وقعت فى عهدٍ مبكر من حياة الإنسان العاقل وفي اولى ايامه فى الجنة، فنظن أنه من

الحكمة محاولة فهم الظروف التى حدثت فيها والمستوي الفكرى للانسان انذاك ومن ثم اللغة التى كان يمكنه أن يعبر بها عن نفسه أو يُخَاطَبَ بها، لأن وصف القرآن عادة ما يعكس المستوى الفكرى لأي مجتمع يقص علينا قصصه. ولأننا نظن أن التداخل مع الطبيعة من أهم وسائل فهم عقلية الإنسان فى أى مجتمع فسنحاول فهم لغة الغراب الذى تعلم منه ابن آدم لتعكس لنا منطق ولغة خطاب المجتمع الأول من ناحية، ولغة الهدهد الذى خاطب سليمان فى أمر العقيدة والسياسة، لتعكس لنا لغة الخطاب بعد نضج العقل البشري، لأن اللغتين فى القرآن تمثلان مرحلتين متباعدتين جدا من تطور البشر، مما سيمكننا من فهم مراحل تطور العقل البشري عبر العصور منذ عهد قصة شجرة الخلد فى القرآن و التى وصفت بلغة الغراب.

لـغة الغـراب:

{فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} 31 المائدة.

ظاهرُ هذه الآية يخبرنا أن ابن آدم وبالتالى كل المجتمع الإنساني حينها، لم يكن يدرى بعد كيف يدفن موتاه، ولم يكتشف بعد كيف يتعامل مع الأرض والطبيعة. أما باطنها فيوحي بما هو أهم، وهو أن الإنسان كان يفهم فقط بالمشاهدة التصويرية والوصف الحركي. وظيفة الغراب هنا لا تدل على أنه طائر عاجز لا يمكنه التعبير، ولكنها إنما قصد منها أن تكون كالمرآة تعكس مستوى فكر وفهم الإنسان حينها، والذى لم يكن يفهم إلا الحركات والمجسمات، ولكنها لا تعكس حال الغراب إذ أن ابن آدم هو المقصود بالقصة وليس الغراب.

لـغة الهـدهـد:

بعد آلاف السنين من عصر آدم و على العكس من الغراب نجد هدهد سليمان فى منتهى الفلسفة والجراءة:

{فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ*انى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ* وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ*أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الذى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ*اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ }22-26 النمل!

هذه المحاضرة العصماء عن قوم سبأ ونظام حكمهم وعقيدتهم الفاسدة، يقسم الإنسان انها من نظم بروفسير فى الفلسفة والعلوم السياسية وليس طائراً بسيطا. القصة هنا بطبيعة الحال تعكس مستوى وعي سليمان وامتداد سلطانه واهتمامه بعقائد البشر، وليست بالضرورة دليل على أن الهدهد كان أشد ذكاءً من الغراب أو أنه كان بليغاً فى اللغة العربية الفصحى. قصة الهدهد هذه

تسبب لبساً فى فهم كثير من الناس الذين يمعنون فى تخيُّل الهدهد يلقي خطابا بليغا باللغة العربية الفصحي امام الملأ. الواقع ان سليمان هو الذى عُلّم منطق الطير وليس ان الطير علم منطق سليمان، وهذا يعنى ان الهدهد عبر عن هذه الامور بلغته هو التى لم يفهمها بطبيعة الحال الا سليمان، ولكن الله روى لنا مضمون ذلك الخطاب بلغة القرآن الفصحي.

فالروايتان ليستا إلا ضربا من ضروب الإبداع الفني فى القرآن، إذ أن الله تعالى قد عكس لنا حال الإنسان فى عصر قابيل وهابيل وعصر سليمان بأسلوب تعامل الطير مع كِليهما، وكأن الغراب والهدهد ليسا إلا مرآتين تعكسان حال من ينظر اليهما. من هنا نستنتج أن مجموعة آدم وإلى جيلهم الثانى فى الأرض كانوا يفهمون الأمور فقط من هيئتها الحركية، ويعتمدون على المشاهدة والوصف الحركي للأشياء، وليس التفاصيل الفلسفية أو الأخلاقية أو العقائدية المجردة.

شجرة الخلـد:

بهذا الفهم نحاول استنباط المعانى الخفية من قصة شجرة الخلد وما جرى فى الجنة. ولأن تلك المعصية تمثل أول مراحل وفاء الشيطان بوعده فى إغواء الإنسان، فقد كرر القرآن تذكيرنا إيّاها حتى نحذر مكائد الشيطان، ولكن كلما ذكرت القصة كانت اللغة غامضة جدا:

{يَا بنى آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا **لِبَاسَهُمَا** لِيُرِيَهُمَا **سَوْآتِهِمَا** إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} 27 الأعراف.

لباس: من لَبْس وتعنى مداخلة ومخالطة ومنها لِبس الثوب الذى يختلط بالجسد، ومنها اللَّبْس فى الفهم وهو اختلاط الأمور وعدم وضوحها!

سَوءَة: من سُوء وأصلها القبح فى الشئ.

نحن لا نشك أن معظم العرب والمسلمين يراودهم شعور أن هذه الآية الغامضة كأنها تصف حدثاً له علاقة بالعملية الجنسية، إذ أن "اللّباس" تعنى الملابس فى احد معانيها، ولكن إذا أضفنا اليها "النزع" كما فى الآية " يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا " ازدادت صورة التعرية فى ذهن القارئ، لأن النزع تعنى الخلع بقوة. مما يزيد الأمر تعقيدا انّ نزع اللّباس يؤدى الى انكشاف العورة وهي السوءة، وهذا ما حدث حينما نزع إبليس عن أبوينا لباسهما وأراهما سوآتهما!

الآية لا تصرح بأكثر من هذا، ولكن فى هذا الوصف من الغموض ما يدل على أن ما حدث فى الجنة من معصية، كان أمراً أبعد ما يكون عن الأكل من شجرة تفاح محرمة. نلاحظ أيضا فى هذا التحذير لبني آدم ان الشجرة نفسها لم تذكر، وإنما اقتصر التحذيرعلي تذكيرنا بهدف الشيطان الأساسي وهو نزع "اللباس وابداء السوءة". مما يزيد الإنسان حيرة فى فهم طبيعة تلك الشجرة

هو انها كانت الشئ المحرم الوحيد على آدم فى الجنة، لكنه لم يسلم من غدر الشيطان واستدراجه للأكل منها. وتزداد الحيرة إذا انتبهنا الى أن آدم وزوجه أصلا لم يلبسا شيئا قبل أوراق الجنة وبالتالى لم يكن حينها عليهما ملابس لينزعها الشيطان، وكانت سوآتهما عارية بائنة لهما ولغيرهما! وحتى نفهم ما حدث بالضبط لا بد لنا من دراسة القصة من كل جوانبها التى وصفت فى القرآن.

هناك ملاحظة مهمة يجب أن ننتبه إليها فى هذه المرحلة، وهي أننا قد تابعنا وجود "البشر" منذ أن خُلق من تراب ثم من طين ثم من نطفة، ثم مرَّ بمراحل مختلفة الى أن نفخ الله فيه من روحه ونقله لإنسان عاقل، ثم بدأ تكليفه فأمره الله تعالى بعدم الاقتراب من الشجرة، وفي هذه الرحلة سمعنا اسم "آدم" أول مرة عندما علمه الله الأسماء كلها أى بدأ اولى مراحل تنصيبه خليفة لله فى الأرض. ولكن هنا، و حينما صدر الأمر بالسكن فى الجنة، جاء الخطاب فجأة اما عن "أبوينا" او موجه لآدم وزوجه رغم أننا لم نُخبر لا هنا ولا فى أى موقع آخر من القرآن من هو آدم بالضبط ولا من اين أتى زوج آدم! ولقد رأينا فى باب "قصة التطور" فى تفسير آية: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} أن الافتراض بأن ذلك الحين من الدهر قد تم بعد عصرد نبي الله آدم المصطفى افتراضٌ غير واقعي، لأن الانسان منذ عصر آدم ظل فى تطور مستمر ووجود ظاهر ومؤثر على الأرض كخليفة لله فيها. من هذا يمكن أن نفترض أن كلمة زوج هنا لا تعنى إلا أن "آدم" لفظٌ يشمل الذكر والانثى ولذلك حينما اقتضى السياق الأشارة الى وجود ذكرٍ وانثى مضمنين فى لفظ آدم، جاء لفظ "أنت وزوجك"! أى أن الحكمة من "أنت وزوجك" هنا هى أن نفهم نحن أن آدم هذا كان ذكرانا وإناثا وليس لتخبرنا فجأة أن حواء قد خلقت منه كما يفهم من الإسرائيليات.

بهذا المعنى فان "آدم" يكون اسم معنى مطابقاً لكلمة "إنسان"، وبالتالى عندما يذكر الله سبحانه وتعالى اسم آدم، لايلزم أنه يتحدث عن ذكرٍ ولا عن انثى ولا عن مفردٍ ولا عن جمع، إنما فقط يمكن أن نستنتج ذلك من سياق الآيات ومعناها العام. ويجب أن نلاحظ أيضا أن لفظ آدم لايعني بالضرورة "آدم" النبي المصطفى أبا الأنبياء عليهم افضل الصلاة والتسليم، إنما تعنى: "البشر الملائم للتغيير".

سنناقش بإذن الله اصطفاء آدم النبي الأول فى باب "سفينة نوح" عندما نتدبر اصطفاء الرسل الذى يمثل نقلة اخرى فى عملية تطور الجنس البشري، ولكن لمّا كان الخطاب هنا قد أدخل مفهوم "الزوج" فى سياق القصة فمن الحكمة أن نلقي بعض الضوء على خلق الانثى.

خـلق الانثى:

إن خلق الانثى فى فهم المسلمين فيه قصور كبير لا يدعمه أى دليل شرعي ولا نقلي ولا لغوي ولا منطقي ولا علمي، وكل ما يردده المسلمون ليس الا تأويلاً غير موفق للحديث المجازي الذى وصف أن المرأة خلقت من ضلع أعوج! ولأن الحديث مجازي فقد قاد المسلمين الى اعتماد تأويل الإسرائيليات لهذا الوصف وقبولهم من غير سؤال للفكرة القائلة: إن المرأة خلقت بعد خلق "آدم" الذكر وخلقت من ضلع منه! أبرز الأسباب التى أدت الى هذا اللَّبس هى ان المجتمعين اليهودي والعربي اللذين قاما بتأويل الغامض من التوراة والقرآن كانا وما زالا مجتمعين ذكوريين، مما أدي الى قبول التأويل على مرِّ العصور من غير تدبر. الحديث المذكور لا يختلف عن الحديث الذى وصف المرأة بأنها ناقصة عقل ودين، ولكن لأن هذا الأخير دخل فى إطار التشريع الإسلامي الذى أعطي المرأة كل حقوق المساواة فى الإنسانية والحقوق الشخصية والشرعية، تم فهمه فهما صحيحا وذلك أنه يشير الى أن الانثى اكثر عاطفة من الرجل، وأنها تسقط عنها بعض التكاليف الشرعية فى حالة الحيض والنفاس، من غير ان ينقص ذلك من قدرها عند الله شيئا. أما الحديث الذى وصف خلق الانثى من ضلع أعوج فلم يجد نفس القدر من الاهتمام ومن ثم البحث، لان خلق الانسان اصلا لم يكن مفهوما ولم يكن من القضايا التى بذل العلماء جهدا فى فهمها! ولعلَّ الله تعالى ما كلَّف رسوله ان يدخل فى تفاصيل خلق الانثى لأنه أصلا ما دخل فى تفاصيل خلق الذكر، وما ذلك الا لان مسألة الخلق تتطلب علما دقيقا بحقائق فسيولوجية وبيولوجية وتشريحية يشترك ويختلف فيها الذكر والانثى، ويلعب فيها كلٌ دورا أساسيا فى خلق الآخر، ما كان لها أن تُفهم حين تنزل القرآن لا فى خلق الانثى ولا الذكر.

نحن نعلم الآن بفضل الله علينا أن الانثى هى المسؤولة عن استمرار الحياة أكثر من الرجل، ليس فقط لأنها تحمل الجنين، وإنما أيضا لأن الجنين يتكون أصلا من مكونات الانثى والبويضة أكثر من الذكر وحيوانه المنوي. فمما لا خلاف حوله فى علم الأجنة و النساء والتوليد أن ما تحمله أول خلية تتكون بعد تلقيح البويضة من مكونات الانثى أكثر بكثير مما تحمله من مكونات الذكر، وما ذلك الا لأنَّ الحيوان المنوي أصلا أصغرُ حجما، وأنَّه يفقد ذيله فى التلقيح، وأنَّه ليس لديه نواة مكتملة، وأنَّ السيتوبلازم فيه لا يحتوي على مايتوكوندريا، وبالتالي فإنَّ معظم الحمض النووي الذى تحويه نواة أول خلية يتكون منها الجنين يأتى من نواة الانثى. إذاً فإن دور الانثى فى استمرار الخلق اهم بكثير جدا من دور الذكر، للدرجة التى أغرت العلماء فى هذا الزمن بمحاولة نسخ الحياة من بويضة الانثى من غير وجود حيوان منوي، فكيف إذاً يكون دورها فى بدء الخلق أقل من دور الرجل كما يفهم فى كل الأديان السماوية؟ الإجابة الوحيدة هى أن كل الآيات التى وصفت مراحل خلق وتطور "البشر" أو "الأنسان" فى التوراة والقرآن إنما تصف الجنس

البشري بشقيه الذكر والانثى، الّلذين لا يمكن فصلهما فى قضية الخلق. فلما جاءت مرحلة التكليف استعمل التوراة و القرآن لفظ "آدم" و هو لفظٌ يشمل الذكر والانثى للتمييز بين سلالات البشر التى لم تتطور وسلالة الجنس الملائم للتغيير الذى نفخ فيه ليكون إنسانا عاقلا ذكرانا وإناثا! بمعني آخر فان ذِكْر "آدم" لا يدل على الذكورة لأن آدم يشمل الذكر والانثى وكلاهما تم نقله الى إنسان عاقل بعملية النفخ وتمَّ تكليفهما معا وبالتساوي.

هناك رأى متداول بين خطباء المسلمين يقول ان اوجه الخلق عند الله اربعة: خلق الله آدم الذكر من غير اب او ام، وخلق من ضلعه حواء الانثى ثم خلق بنى آدم من ذكر وانثى ثم خلق عيسى من انثى دون ذكر. وهذا الرأي ليس الا اجتهادا لا اصل له من الشرع. ونحن نظن ان الله يخلق ما شاء كيف يشاء ولا يمكن قصر قدراته على عدد من الاوجه علما بانه جعل عصاة موسى تتحول الى حية تسعي، وبمقدروه ان يخلق أى مخلوق كيف يشاء. اما ما وصف القرآن لخلق البشر فلم يحدد فيه لا ذكر ولا انثى وانما هما متكاملان ابتدأ خلقهما معاً من نفسٍ واحدة. ولقد رأينا فى باب الحلقة المفقودة ان الله أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ زمنا قبل ان ينفخ فيه من روحه ويمنحه العقل، مما يؤكد ان الذكر والانثى صعدا سلم التطور يوماً بيوم كمخلوقين متكاملين لا يمكن لاحدهما ان يوجد بدون الآخر.

من هذا نفهم أن الإنسان ذكرا وانثى قد خُلق وتطور بذات المراحل من غير تمييز، وأنهما تميزا فى مرحلة من مراحل الخلق الى انثى وذكر، فأخذت الانثى عوامل تؤثر على العواطف أكثر مما أخذ الرجل، ولكن ليس هناك منطق علمي أو دليل شرعي يدعم الفكرة المجسدة لخلق حواء من ضلع آدم كما وصفت الإسرائيليات. وسنناقش هذه القضية الملتبسة حينما نبحث بالتفصيل خطوات خلق النفس الواحدة من ماء فى باب "آذان الانعام"، ولكننا فقط أردنا هنا أن ندلل على أن لفظ {.. اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ..} لا يشير الى آدم وحواء وإنما هو أمرٌ عام لجنس آدم ذكرانا وإناثا، وإن لفظ "زوجك" هنا تفيد التنبيه الى أن من سكن الجنة كانوا أزواجا ذكرانا وإناثا متساوون فى العدد والمسؤلية، وليس آدم وحواء! إن الحقائق القرآنية العلمية الإعجازية أرقى من ان نتجاهلها فقط اتباعا لجهل بنى إسرائيل وتحريفهم لكتبهم!

ابليس حالة استثنائية:

قبل ان ندخل مع آدم الجنة لا بد ان نوضح شبهة "هبوط ابليس" و"خروجه منها" التى كثيرا ما تفهم انها كانت هبوطا من الجنة وخروجا من الجنة التى سكن فيها آدم.

أدخل الله تعالى كل المخلوقات فى رحمته من غير شرط. وهذه الرحمة تشمل كل مقومات الحياة ونعمها التى يشترك فيها العاقل وغير العاقل، الكافر والمؤمن، ما داموا احياء يرتجى ايمانهم. ورحمة الله درجات يدخل المؤمنين فى رحمة اعلى مهما يشترك فيه بقية الخلق:

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ **فَسَيُدْخِلُهُمْ** فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (175)} النساء

والدخول لا يعنى الدخول الى مكان او موقع وانما تعنى ان يشملهم الله برحمته. وعليه فان الخروج يمكن ان يكون من رحمة الله ونعمه التى كان قد انعمها على الانسان فلم يشكر:

{**فَأَخْرَجْنَاهُمْ** مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ **وَمَقَامٍ كَرِيمٍ** (58)} الشعراء

والذين اخرجهم الله من رحمته فى الحياة الدنيا حقرهم واهبطهم من مقام التكريم الذى كانوا فيه وتبع ذلك انتقامه منهم فكانت نهايتهم كما فى قصة فرعون وهامان وغيرهم.

الموت حق على كل الاحياء وكل فصيل من الاحياء له عمر افتراضى لا يتجاوزه. كل الانس والجن متاح لهم الدخول فى رحمة الله الشاملة إذا آمنوا قبل ان ياتيهم الموت. فاذا جاء اجلهم مع كفرهم فلا رحمة بعده.كسائر الجن كان ابليس فى رحمة الله سواء آمن ام كفر -- لكنه بعد ان استكبر، (هبط) بامر الله من مقام التكريم الذى كان فيه و (أخرجه) الله من رحمته. خروج الأحياء من رحة الله يعقبه الموت. لان استمرار الحياة و فقا لنظام الكون نفسها رحمة مستمرة من الله تعالى على الاحياء. لو نظرنا للذين اجتمعت فيهم صفات ابليس فى القرآن اى الاستكبار الذى تبعه إذلال وإهانة و الخروج من رحمة الله، تبع ذلك موتهم عقابا لتكبرهم وكفرهم. فرعون وهامان وقارون جميعهم كانوا فى رحمة الله وجميعهم كانوا مكرمين لكنهم استكبروا وتعالوا فى الارض وجميعه قتلهم الله بعد ان اذلهم واخرجهم من رحمته كما سبق. تلك هى سنة الله الباقية لكن ابليس كان استثناءً. لو قارنا بين فرعون وإبليس نجد فرعون استدرك وتاب لكن بعد فوات الاوان لذلك سرى عليه القانون الثابت وهو ان الخروج من رحمة الله يتبعه الموت. اما ابليس فقد ازداد كبرا وهو لا يشك فى وجود الله وعزته ، اى ازداد فى الكبر ولم يستغفر او يطلب العفو --- نتدبر الآيات بهدوء:

{قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) ص

{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)

فى الآية الأولى نلاحظ ان الله سأله عن سبب رفضه السجود وخيره بين احتمالين:

الاستكبار ---ام انه ظن انه من الملأ الأعلى الذين لا يسجدون الا لله!
وكانت اجابته انه ظن نفسه اكرم ممن خلقه الله من طين –اى تكبر ولكنه كان يعلم انه من الجن وليس من العالين.

فرعون تبعته لعنة الى يوم الدين --- ابليس ظل ملعونا وهو حى خارج عن رحمة الله كحالة استثنائية فى استمرار الحياة مع اللعنة خارج رحمة الله.

اللعنة الى يوم الدين:

إبليس كان من الجن. الجن كانت اكرم من الانسان قبل العقل لانه كان فاسدا مفسدا فى الارض من فصيل الدواب. كرم الله الانسان بالعقل وجعله خليفة له. هذا التكريم اغضب ابليس ودفعه للتكبر. تكبره اخرجه من رحمة الله. خروجه من رحمة الله تبعه هبوط بامر الله من مرحلة التكريم التى تتمتع بها الجن فوق الدواب وتحت الإنسان. خروجه من رحمة الله ايضا اقتضى موته الفورى. كان بوسعه ان يتوب وسيتغفر ولكن بدلا عن ذلك طلب الانتظار الى يوم الدين فاجيب طلبه ولكن استمر حياً بهذه الصفات:

1. يكون فى عذاب مستمر خاج رحمة الله التى يتمتع بها الكفار من الانس والجن الى يوم موتهم.
2. هبط من مرحلة التكريم رغم انه ما زال من الجن لان باب التوبة مقفول امامه فاصبح من الاذلاء المحتقرين الصاغرين الى يوم الدين.
إذا فنال البقاء الذى نشده لكنه سيظل فى عذاب ولعنة من الله الى يوم الدين لانه حى فقط لكنه خارج عن رحمة الله التى يتمتع بها الكفار الذين يرتجى ايمانهم قبل موتهم.
اذا:
ابليس كان مكرما كبقية الجن ، فظن ان الله ارتكب خطأ فكرم عليه من هو ادنى منه واستكبر ورفض الانصايع لامر ربه. جزاء هذا التكبر حقره الله (اهبطه من الوضع الذى كان فيه) واخرجه من رحمته. ولما كان الخروج من رحمة الله يقتضى الموت فقد استجاب الله لطلبه ان ينظره الى يوم الدين لكنه سيكون مطرودا مذءوما مدحورا من رحمته الى يوم القيامة.
نلاحظ انه بعد ان قفل ملف ابليس نهائيا، جاء امر الله لآدم بالسكن فى الجنة:

{وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19)} الاعراف.
و هذه الجنة كما سنرى كانت غابة فى الارض لا علاقة لها بجنات السماء. ولا يعقل ان ابليس كان بمقدوره الدخول الى جنة السماء بعد ان اخرجه الله من رحمته. لكنه بطبيعة الحال كان حرا فى الدخول الى اى غابة او جنة فى الأرض مع آدم.

السكن فى الجنة:

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} 35البقرة!

{وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} 19الأعراف!

جنة: أصلها من جنَّ بتشديد النون وتعني السُتر والتغطية. وسمي البُستان جنة لأن أشجاره تستر ما وراءه، والجنين هو الولد مستورا فى بطن أمه، والجنون هو تغطية العقل، والجان هو المخلوق المستتر عن الإنسان. إذاً فلفظ جنَّة وحده لا يشترط أن تكون احدى جنان السماء، وإنما هى الحديقة ذات الأشجار الكثيفة التى تستر ما وراءها حيثما وجدت!

بعد أن سخرت مكونات الارض لعقل الانسان (سجود الملائكة) ورفض إبليس السجود، تقلَّد آدمُ – العنصر الملائم للتغيير- منصب خليفة الله فى الأرض كما أريد له أن يكون، وربط الشيطان قدره به كما أقسم أمام الله تعالى. ولما كان آدم أصلا قد خُلق من تراب الأرض ونبت منها نباتا بصريح اللفظ، ولما كان قد خُلق ليكون خليفة لله فى الأرض فليس من المعقول أن يرفع الخليفة بعد تولّيه منصبه وسخرت له قوانينها ومخلوقاتها، أن يرفع ليسكن فى جنة السماء. فسفير السودان الى بريطانيا مثلا، لا يعقل أن يسكن فى البرازيل بعد تسليمه أوراق اعتماده، وكذلك فليس هناك منطق أن يسكن خليفة الله فى الأرض بعد تسخير مخلوقاتها له، فى جنة السماء التى لا تكليف ولا عصيان فيها وإنما نعيم مقيم! أضف الى ذلك أن إبليس كان من الجن، وأن الجن أصلا مخلوقات سكنت الأرض قبل الإنسان فلا يعقل أن يصعد إبليس من الأرض ويدخل جنة السماء بعد أن طرد من رحمة الله ليوسوس لآدم هناك.

إذاً فالافتراض أن الجنة التى سكنها آدم كانت فى السماء ليس إلا لبساً لا أصل له لا فى المنطق ولا تسلسل الأحداث ولا حتى فى اللغة، وهو ليس الا من "فضائل" بنى إسرائيل علينا. اما فى القرآن فقد ورد استعمال كلمة جنة فى أكثر من مكان لتعني البستان والحديقة ذات الأشجار الكثيفة، كقوله:

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا} 32 الكهف!

بحثنا فى آراء السلف فلم نجد دليلا يُنسب لمن لا تجوز معارضته يدل على أن "الجنة" المقصودة هنا كانت فى السماء، إذ أن كل الآراء الواردة ليست إلا اجتهادات اعتمدت على أن اللفظ جاء معرفا بالألف واللام، وهذا فى تقدير بعضهم يدل على أنها جنة واحدة هى جنة السماء، وما هذه

الاجتهادات والاختلافات فى الرأي إلا نتاج غموض القصة كلها والتأثر بالإسرائيليات. والأحداث التالية ونحن نمشى على خطي الإنسان الأول ستقدم الكثير من الأدلة على أن كل شئ تم فى الأرض.

نعود الآن لنتدبر خطوات الإنسان الأول بعد التكليف، فبعد تنصيب آدم خليفة صدر إليهم أول أمر شرعي وأول تحريم وهما محتوي الآيتين اعلاه. بهاتين الآيتين بدأ "البشر" المرحلة الثالثة فى رحلة وجوده بعد "الخلق" كحيوان فى الأرض ثم "التطوير" لإنسان عاقل "آدم"، إذ أنه الآن بدأ مرحلة التكليف والأوامر والنواهي فكان أول أمر بـ "اسكن انت وزوجك"، ثم أول نهي بـ "لاتقربا"!

"آدم" فى اللغة كما قدمنا لها أصل واحد وهو "الموافقة والملاءمة"، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم المشهور "فإنه عسي ان يؤدم بينكما " يعنى أن يحدث توافق بينكما. وقد افترضنا سابقا أن الخليفة سمي آدم لأنه كان أكثر البشر ملاءمة وموافقة للتغير فى خلقه وجعله إنساناً عاقلاً، وستأتي براهين كثيرة تؤكد ذلك الافتراض. وهذا المعنى يقودنا الى المعنى الأصلي لكلمة "زوج" فى اللغة وهي مقارنة شيئ لشيئ، ومن ذلك أن الرجل زوج المرأة، والمرأة زوج الرجل، اذ ان كلمة زوج لا تعنى الرجل أو المرأة وإنما تعنى ان كُلاً منهما زوجٌ للآخر، كما ورد فى كل معاجم اللغة. ولعل ورود لفظ "زوجك" هنا فيه تنبيه الى أن الإقتراب من تلك الشجرة أمر يستوجب مشاركة الذكر والانثى وليس أحدهما فقط.

"السكن" فى اللغة هو حالة الهدوء والسكون أى عكس الحركة والاضطراب، وليس بالضرورة المسكن، كما فى قول الله تعالى:

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 21 الروم. فالأزواج هنا تعنى الرجال والنساء معا، و "تسكنوا" يعنى تشعروا بالسكينة والراحة والاستقرار.

وبالتأمل فى الأمر بالسكن فى الجنة، يتضح لنا أن آدم وزوجه قبل السكن فى الجنة كانوا فى حالة حركة واضطراب. الحركة من أجل البحث عن الرزق، والاضطراب فى صراعاتهم المختلفة مع بقية الحيوانات قبل أن يُمنحوا سلطان العقل والقدرة على التحكم فيها وفي قوانين الطبيعة. هذه الحالة من الحركة والاضطراب ربما تكون سبب فسادهم فى الأرض وسفكهم للدماء قبل أن ينقلوا الى انسان عاقل. ورغم ان الله آتاهم العقل فالله يعلم أن العقل الذى يفتقر الخبرة فى الحياة يحتاج الى عونٍ كبير فى اولى ايامه، لذلك وفَّر لهم سكناً آمنا تتوفر فيه كل احتياجات الانسان ودلل على ذلك قول الله تعالى: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى} 118طه، توفرالاكل والسترة.... {وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} 119 طه، توفر الماء والظل، وقد وصف ذلك

المكان بالجنة إشارة الى حديقة او غابة معروفة لديهم. يجب ان ننتبه هنا الى ان لفظ "لا تعري" لا يعنى ان تكون عاريا من الملابس لان آدم اصلا كان عاريا، وانما تعنى ان "لا تكون مكشوفا فى العراء لاخطار الطبيعة". هذا المعنى شبيه بمنِّ الله على قريش {الذى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}، اذ انه هنا جمع بين الجوع والخوف تماما كما جمع بينهما فى تفضله على آدم بـ: أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى!

هنا لا بد للتنويه الى حقيقة علمية هامة ترتبط بتوفير الأمن من حيث المأكل والمسكن مباشرة بعد منح الانسان العقل. المعروف ان جميع البشر فى كل العصور يشغلون معظم وقتهم فى العمل الشاق من أجل توفير المسكن والمأكل والمشرب لهم ولاسرهم ولا يجدون وقتا كافيا للتفكر والتدبر فى عظمة الكون وخالقه. توفير هاتين الضرورتين من غير جهد لآدم فى هذه المرحلة فيه دعوة غير مباشرة لهم للبدء فى استعمال العقل والتأمل فى الطبيعة وقوانينها من غير خوف من جوع او عدوٍ يتربصهم غير العدو الوحيد الذى حذرهم الله منه. هذه الحقيقة ما زالت عاملا اساسيا فى نجاح وتقدم امم على غيرها، اذ ان البلاد المتقدمة تهتم بتنمية عقول المبدعين من ابناءها وبناتها و توفر لهم دخلاً عاليا يغنيهم عن البحث عن لقمة العيش والمسكن حتى يتفرغوا للابتكار والبحث والابداع. وهكذا كان شأن آدم من اول يومٍ فقد وفر الله له معظم احتياجاته الحيوانية ليترك له مجالا واسعا لاطلاق العنان لعقله.

ورد فى كتب التفسير أن الآراء التى تذهب الى أن الجنة انما هى جنة السماء تستند على تعريف اللفظ بالألف والّلام مما يدلل على أنها جنة واحدة، وهذا الرأي فيه نقص من وجهين:

1. سمي القرآن جناتٍ عديدة بأسماء مختلفة مثل الفردوس وعدن والنعيم وبالتالى فليس هناك جنة واحدة فى السماء يمكن أن يدلل عليها فقط بالتعريف بالألف والّلام.

2. التعريف لا يشترط ان يكون دليلا على أن المعرَّف واحدٌ فقط، وإنما يمكن أن يفيد أن المعرَّف بالألف والّلام معروفٌ للمخاطب وهذا يفهم من صيغة الخطاب.

من تعريف الجنة بالألف والّلام يمكن أن نفترض هنا أن مجموعة البشر تلك، كانت تعيش فى منطقة جغرافية محددة، تتصارع وتتقاتل وتتوالد وتتطور وتموت، وذلك وفقا لقانون الانتخاب الطبيعي فى عالم الحيوان. هذا القانون لا خلاف عليه إذ أنه الذى يحكم حياة الغاب اليوم حيث يأكل القوي الضعيف. هذه المجموعة كانت تعيش قريبا من تلك الجنة أو الغابة التى عرَّفها لهم الله. وحتي تسهل علينا متابعة الأحداث بصورة سلسة نصرح بمعلومة سابقة لأوانها وهي أننا قد خلصنا بأدلةٍ كثيرة أن عملية النفخ والتطور الى إنسان عاقل تمت فى وادى "منى" وأن الجنة المقصودة كانت فى وادى عرفات، ولكننا سنناقش تلك الأدلة كلٍ فى حينها بإذن الله. هنا فقط نود

الإشارة الى أنَّ تعريف الجنة يدل على أنهم كانوا على علمٍ بجنة عرفات التى تبعد بضعة أميال من وادى منى.

سكن الإنسان العاقل داخل الجنة ذكرانا وأناثا، و سمح الله لهم أن يعيشوا كيفما يشاؤون داخلها ويأكلون من حيثما شاءوا ولكنه نهاهم عن فعل شئ واحد هو {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ}، وجاء الخطاب هنا بلفظ المثني وكأنَّ الله ينبههم الى تساوي المسؤولية بين الإناث والذكور فى عدم الاقتراب من الشجرة، أو كأنَّ الاقتراب منها فعلٌ مشترك لا يمكن أن يقوم به ذكرٌ دون انثى. هذا الخطاب المزدوج يجعل الوصف القرآني مختلفا تماما عن الوصف التوراتي حيث وجه الخطاب فى النهي لآدم فقط، وفهم اليهود ان آدم هذا كان ذكرا، ثم كان إغراء الشيطان للانثى التى أكلت أولا ثم اعطت زوجها ليأكل، وما ذلك إلا لأن بنى إسرائيل اوَّلوا الشجرة الى شجرة تفاح، وبالتالى ضاع قدرٌ مهمٌ جدا من أصل القصة. ومن هذا التحريف نتجت لعنة اليهود على المرأة التى انتقلت الى التقاليد الإسلامية والعربية وأصبحنا نردد أن المرأة هى التى أخرجتنا من الجنة من غير أن نفكِّر لحظة فى أننا إنما نردد تأويلا شاطحا من تأويلات الإسرائيليات لا علاقة له بنصِّ القصة فى القرآن. قلنا ان الله وفر لآدم كل احتياجاته الحيوانية فى الجنة حتى يتفرغ لاستعمال العقل فى التدبر... ولكن بقية حاجة حيوانية واحدة تم تحذيره من الاقتراب منها....تلك هى شجرة الخلد!

الدُّخـلة الاولــى:

بعد تلك الإيضاحات نعود لنتدبر الآية مرة اخرى، فنلاحظ أن الله تعالى حينما يذكِّرنا بما فعل الشيطان بأبوينا يختصر القصة الى أهم مقوماتها فتختفي كلمة الشجرة وتبقى ألفاظ محيرة جدا:

{يَا بنى آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} الكهف 27.

نلاحظ فى هذه الآية أن كلمة "سوءة" قد وردت فى جمع مثنَّي وليس مثنَّي فقط! فالواحدة "سوءة"، والاثنان "سوءتان" والجمع "سوآت"! فإذا كان الشيطان قد فتن رجلا وامراة فانه يريهما "سوءتيهما"، أما إذا فتن مجموعة غير محددة فانه يريهم "سَوْآتِهم" بلفظ الجمع فقط! لكن اللفظ القرآني هنا فريدٌ من نوعه و هو "سَوْآتِهِمَا" الذى هو جمع مثني! هذا يعنى لغة، أن الشيطان كشف عن سوآت صنفين أو مجموعتين من جنس آدم، الشئ الذى يفسره التصريح بـ "انت وزوجك"! ونحن نظن أن اللفظ غالبا ما يعنى سوآت مجموعة الإناث من ناحية، وسوآت مجموعة الذكور من ناحية اخرى ليستقيم المعنى مع جمع المثني المستعمل فى الآية "سَوْآتِهِمَا"!!! جمع المثني فى اللغة يشير الى ستة فما فوق، إذ ان ادني عدد يمكن الاشارة اليه

بجمع المثني اما ان يكون مجموعتين من ثلاثة افراد او ثلاثة مجموعات من زوجين، ولكن لا حدود للعدد الاقصي الذى يشير اليه جمع المثني.

هنا يتضح لنا أن الشيطان إنما فتن مجموعة من البشر وليس رجلا وامراة فقط كما هو مفهوم من غير دليل. وأيضا يتضح لنا من حذف كلمة "شجرة" أن الشجرة إنما هى وصف مجسم أو حركي للمعصية التى استدرج لها الشيطان ذكور واناث مجموعة آدم، ولكنها ليست شجرة تفاح كما فسرت الإسرائيليات، وتبعهم فى ذلك المسلمون من غير تدبر.

نحن نعلم أن هذا التوضيح لأمر جد واضح فى ألفاظ الآية له وقع الصاعقة على كثير من الناس، ولكن من المهم جدا أن نتذكر أن هذا التفسير الذى ستؤكده دلائل اخرى، لا يتناقض مع معلوم من الدين بالضرورة، ولا يعارض تفسيرا صريحا من النبي صلى الله عليه وسلم للآية، ولا يعارض حتى اتفاقا عاما بين علماء المسلمين على هوية الشجرة. كل ما يعارضه هو التأويل المتوارث الذى أصبح من المسلّمات كالعقيدة وإن كان أصله من الإسرائيليات.

هذه الألفاظ لا تمهد الا الى أن نكتشف أن أول معصية ارتكبتها مجموعة آدم هى ممارسة جنسية قبل أن يشرِّع الله لهم العلاقات الزوجية، وما كان ذلك إلا حرصا منهم على الخلود بإنجاب الاولاد، وهذا يفسر لنا مضمون وسوسة الشيطان للذكور والإناث:

{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ} 20 الأعراف ..وفي آية اخرى:

{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} 120 طه.

من هذا يتضح جليا أن الشجرة لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما كان إبليس قد استدرجهم إليها بعد أن قدَّمها لآدم كوسيلة للخلود واستمرار الوجود وامتداد الملك، مما يجعل البحث فى معنى كلمة "شجرة" أمرا ضروريا لفهم القصة.

و لأن إعادة فهم هذا اللفظ يشكل حجر زاوية فى فلسفة "نظرية آذان الأنعام فى الخلق والتطور"، ننقل هنا معنى الكلمة حرفيا من معجم مقاييس اللغة لابي حسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي المتوفي سنة 395 هجرية:

شجر:{الشين والجيم والراء أصلان متداخلان، يقرب بعضهما من بعض ، ولا يخلو معناها من تداخل شئ فى شئ وارتفاع، وقد جمعنا بين فروع هذين البابين، لما ذكرناه من تداخلهما}! ويمضي الرازي يشرح أوجه استعمال الشجر: {فالشجر معروف وواحده شجرة وهي لا تخلو من أرتفاع وتداخل أغصان! وسميت "مشاجرة" لتداخل كلامهم بعضه فى بعض، وسمي المُشَجَّر مُشَجَّرا لتداخل بعضه فى بعض وتشاجر القومُ بالرماح اذا تطاعنوا بها}!

فاذا رجعنا لحال آدم الاجتماعي والفكري واستحضرنا الحكمة فى "لغة الغراب" والتي تعنى أن الإنسان الأول كان لا يفهم الأفعال إلا بوصفها الحركي، فان استعمال لفظ "شجرة" هنا يكون وصفا للمداخلة بين الإناث والذكور والتى كانت مفهومة لآدم من سابق تجربة، وإن لم يكن لديه بعد مصطلحات اجتماعية او فلسفية أو أخلاقية يفهمها بها!

الشيطان كما قلنا مخلوق ماكر وداهية ولذلك نفترض أنه كان عالما بما يدور فى خلد آدم فى تلك اللحظة من وجودهم فى الجنة بعد أن رُفِعوا الى مستوى خلافة الله فى الأرض، وربما استمع اليهم من حيث لا يرونه كما وصف الله تعالى! وليس جديدا أن غريزة حب البقاء والاستمرارية فى الأرض غريزة فى كل الحيوانات تشبعها بالتناسل من غير تفكير، ولكن آدم الآن اصبح مخلوقا عاقلا يمكنه أن يدخل فى حوار ويستدرج فى إشباع غرائزه وتحقيق طموحاته، إلا انه حُظر عليه الاقتراب من سلوك واحد وصفه الله له بصفته الحركية وهو حالة التداخل بين الإناث والذكور من غير أن يعرف السر فى ذلك، غير أنه لو اقترب منه سيكون من الظالمين! وهنا نلاحظ أن الشيطان ربط له هذه الشجرة الممنوعة، بالخلود أو أتساع وبقاء ملكه. هذا الوصف من شأنه ان يحرك فيه غريزة البقاء والشعور بالامان الذى كان احوج ما يكون اليه فى هذا العالم الجديد المرعب. وتجدر الإشارة هنا الى أن لفظ "مَلَكَيْنِ" لا تعنى أن يصبحا من الملائكة، ولكنها تعنى امتلاكهم للملك، كما فى آية سورة طه: {وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى}! أى أن الإقتراب من هذه الشجرة سيقودهم الى استمرارية فى الوجود والي اتساع ملكهم!

من هنا نفهم لماذا كان الاقتراب من تلك الشجرة يتطلب أن ينزع الشيطان عنهما لباسهما ويبدى لهما سَوْآتِهِمَا، ونفهم أيضا كيف يقود **الأكل** منها على المدى البعيد للخلود فى ملك لا يبلى. من ناحية اخرى لو كان وصف الشيطان لها بأنها {شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} وصفا يجافي الحقيقة أو لا منطق فيه، لما كان آدم قد خُدع! بمعنى أنه لا يعقل أن يخدعهم بأن الاكل من شجرة تفاح سيقود الى الخلود، إذ أنهم كانت لهم خبرات فى الممارسات الجنسية قبل التطور بصريح الوصف القرآني الذى وصف أن الله جعل نسل الإنسان من سلالة من ماءٍ مهين زمنا قبل أن ينفخ فيه من روحه كما ناقشنا فى باب "الحلقة المفقودة". ولكن لأن الانسان لم يكن مخلوقا عاقلا حينها، فقد كانت ممارساتهم تلك عشوائية ولم يربطوا بينها وبين الإنجاب الذى يبحثون عنه، فجاء الشيطان يهديهم لما كان غامضا عليهم. اذاً لا بد أن تكون هناك علاقة وإن كانت غير كاملة بين هذه الشجرة الممنوعة وبين الخلود والملك بشكل أو بآخر، حتى يبدو اغراء الشيطان منطقيا لآدم فينخدع به ذكرانا وإناثا!

مما يؤكد مدى انسياب الأفكار والتأويلات الإسرائلية فى عالمنا العربي والإسلامي هو أننا نسمي البروز فى مقدمة العنق بـ "تفاحة آدم"، وما ذلك إلا لأن اليهود امعنوا فى الخيال، وظنوا أن آدم

"الذكر" حسب فهمهم لمَّا أكل من الشجرة وناداه ربه وقفت التفاحة فى زوره فخلقت ذلك البروز.
ولا شك أن الله تعالى يخلق ما يشاء ويحل ما يشاء ويحرم ما يشاء، ولكنه تعالى شاء أن يكون كل شئ فى خلقه منطقيا ومنسجما مع نظام الكون، وأن وصفه لما خلق فى القرآن منطقيا أيضا ومنسجما مع اللغة، وهكذا كان حال المعصية التى وقعت. وقد رأينا كيف أن الله تعالى قد وصف أن جنس البشر وقبل أن ينفخ الله فيهم وينقلهم الى إنسان عاقل كانوا يتناسلون جنسيا، ولكن لما كان ذلك التناسل ليس معه عقل يفهم الوظائف ويربط بين الممارسة والحمل الذى يحدث بعد فترة من الزمن، فقد كان الشيطان لهما ذكرانا وإناثا بالمرصاد هنا ليزيل عنهم ذلك **الَّلبس** قبل ان يشرِّع الله لهم الزواج الشرعى!
وحتي نستوعب كيف علَّم الشيطان مجموعة آدم أول ممارسة جنسية صحيحة لابد من محاولة لفهم السلوك الجنسي لتلك المجموعة قبل أن يرتقوا الى مرحلة الإنسان العاقل، إذ أن من المنطقي ان يسعى الشيطان أول ما يسعى إليه ان يزلقهم الى معصية الله فى أمرٍ كان يعلم أهميته لهم، مما يسهل عليهم نسيان تحذير الله لهم من اتباع الشيطان!
لا يستغرب أن العملية الجنسية السليمة كانت ملتبسة على البشر فى مرحلتهم الحيوانية قبل أن ينتقلوا لمرحلة الإنسان العاقل، وأغلب الظن أنها كانت تتم بصورة عشوائية، كيفما توفرت وسيلة لادخال أدواتهم يدخلونها، وذلك بغض النظر عن المكان أو نوع المدخل فيه "ذكراً كان أم انثى"! هذا الالتباس ربما يكون لان فطرتهم اصلا كانت متقلبة ومتغيرة نتيجة لطبيعة خلقهم وقابليتهم للتطور بتناسب وتصاهر الجينات الذى سندرسه فى باب آذان الانـعام. هذا السلوك يميزهم عن بقية الحيوانات التى لا يلتبس عليها الإيلاج الجنسي السليم ما عدا الخنزير. وهنا لابد أن نشير الى أن الخنزير ذلك الحيوان القذر الغامض هو الحيوان الوحيد الذى يأكل اللحوم والأعشاب معا كما يأكلها البشر، وهو الحيوان الوحيد الذى أثبت علم الجينات أنه يمكن أن تنقل أعضاؤه لجسم الإنسان من كِلِي ورئتين وغيرهما لتلاءمه التام مع مكونات الإنسان، وبالطبع هو الحيوان الوحيد الذى حرَّم الله أكل لحمه بالاسم وليس بصفات عامة كبقية اللحوم المحرمة وما ذلك إلا لحكمة يعلمها الله تعالى. وهو أيضا الحيوان الوحيد المعروف الذى له ممارسات جنسية شاذة وعشوائية!
نتيجة لعملية الإدخال العشوائية بين إناث وذكور آدم هذه، يحدث حمل الانثى عن طريق الصدفة، فيصدف أن يكون الإدخال صحيحا ما بين ذكر وانثى، ثم يصدف مرة ثانية أن يكون فى المكان الصحيح للحمل ثم يصدف مرة ثالثة أن يكون فى الزمن الصحيح والطريقة الصحيحة، وعند اجتماع كل هذه الصدف غير المقصودة، فقط يحدث الحمل وتحدث الولادة بعد تسعة أشهر

ومن دون أن يستطيع ذلك البشر الفاسد الربط ما بين هذه المصادفات السابقة وما بين الحمل والولادة، وهي الوسيلة الطبيعة لاستمرار النوع والخلود وبسط الملك والسلطان!
"آدم" الذكر والانثى، وليس نبي الله آدم المفرد كما فهم اليهود فاتبعناهم، كان يعلم جيدا وفقاً لخبرته السابقة أنه سيموت، ويرغب فى تعويض الموت بالتحكم فى الإنجاب والإكثار منه ولكنه لايعرف كيف! والعملية الجنسية معروفة لديه من خبرته السابقة بشكل ممارستها الحركي أى "شجر" او إدخال شئ بعضه فى بعض، لانه لم تكن لديه مرجعيات أخلاقية او لغوية او عقلية تمكنه من أن يضع لها مسمي خاصا أو يربط بينها وبين الحمل!
إذن فوصف العملية الجنسية فى تلك المرحلة البدائية لجنس آدم بالشجرة وصفٌ يتفق تماما مع مستوي التطور الاجتماعي والفكري لآدم حينها! ولعلنا لا نذيع سراً إذا قلنا ان المجتمع البشري عموما و بكل اجناسه ولغاته يستعمل مصطلحات مجازية متعددة للإشارة لسلوكين طبيعيين فى حياة الإنسان وهما قضاء الحاجة والممارسة الجنسية الى اليوم! فليس من الأدب فى أى مجتمع أن يقول إنسان أمام جمع من الناس: " انى ذاهب لاتبول او اتبرز" رغم ان الامر طبيعي، ولكن نقول " ذاهب الى الخلاء" أو "قضاء الحاجة" وهكذا من باب الحياء. أيضا لا نصف الممارسة الجنسية بين الزوج والزوجة بالفاظ صريحة رغم أنها حلال، بل وعبادة فيها صدقة لأنها تعف عن الحرام، و لكن رغم ذلك ما زلنا نتحاشى وصفها وصفا لفظيا صريحا، ومن عجبٍ ما زلنا نسميها "الشجرة" فقط بتعديل فى الالفاظ! فالقرآن وصفها بـ "الدخلة"، كما فى قول الله تعالى:
{...وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فى حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي **دَخَلْتُمْ** بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا **دَخَلْتُمْ** بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ..} 22 النساء!
وفي معظم الدول العربية تسمي الليلة التى يجتمع فيها العروسان بالحلال لاول ليلة بليلة "الدخلة"، وما اصل الدخلة الا المداخلة او "الشجر" التى احلت فى تلك الليلة! وهكذا خاطب الله تعالى آدم فقط باستعمال لفظ اقرب الى فهمه فاستبدل كلمة "دخلة" بكلمة "شجرة" لِما فى الشَّجْر من وصف حركي اقرب الى فهمه! ولاننا سنلاحظ الفاظاً ذات مدلولات حركية كثيرة فى ما تبقي من بحثنا هذا فإننا سنشير اليها بمصطلحات "لغة الغراب"، أى اللغة التى اذا وردت فى القرآن فهى تشير الى لسان حال ومستوى فهم الانسان الاول الذى انتقل لتوِّه الى انسان عاقل! وسنشير الى المصطلحات الفلسفية التى تعكس مستوى تفكير الانسان المتطور فى زمان متقدم بـ "لغة الهدهد"! من هذا المنطلق فإنّ "الدخلة" فى لغة الهدهد تقابل "الشجرة" فى لغة الغراب!
اذاً فاستعمال الله كلمة "شجرة" او "مداخلة" فى تلك المرحلة البدائية من تطور العقل البشري يمكن فقط ان نفهمه بمقارنة الالفاظ التى نستعملها الان بعد مراحل كثيرة جدا من تطور العقل! فاستعمال "اسم الحالة" و"المفاهيم المجردة" كبديل للوصف الحركي للفعل كان يتطلب رقيا فى

العقل البشري ما كان قد وصل اليه بعد فى تلك الايام الأولى! أى ان آدم فى تلك المرحلة لم يكن يفهم الاشياء الا بسماتها العملية تماما كالأطفال، ولكن عندما تطور اجتماعيا بدأ يضع له مسميات ذات معنى مجرد تكون مرجعيات له مثل:{وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} 51الانعام، والفاحشة هى القبح فى الشئ وشناعتة، وكل شئ مكروه فات قدره فهو فاحش! فمفهوم الفاحشة مصطلح مجرد يتطلب وعي المخاطب وقدرته على الربط بين المفهوم المنهي عنه وبين الافعال التى توصف به! هذه المخاطبة ما كانت لتتم مع آدم، ولكن عندما يقول الله لنا {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا..} نحن نعرف ما هو الزني كمفهوم قانونى، و لكن لماذا لانقربه؟ {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}32 الاسراء! تم تعريفه باللفظ الاخلاقى المجرد المعروف مسبقا لنا!

ومن الملاحظ أن الله تعالى يستعمل كلمة "الاتقرب" فى النهى عن الزنا لان الممارسة الحركية انما تقع بعد ان يتخطى الانسان خطوطاً حمراء عديدة، فينهانا بلغة الهدهد {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا} .... {..وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ..}151 الانعام ، بينما كان نفس النهي لآدم قد تمَّ بلغة الغراب: {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ}، مما يدلل على ان المنهي عنه فى الحالتين شئ واحد وانما اختلفت الالفاظ باختلاف المستوي الفكرى للمخاطب فى كل حاله!

ولا بد ان نذكر هنا ان هذا الاستنتاج الذى ينسجم تماما مع ما تقدم من الفاظ "اللباس والسوءة" الواردة فى الآيات والتى عجز المفسرون القدامى ان يجدوا لها تفسيرا منطقيا متفق عليه، وسكت الرسول صلى الله عليه وسلم عن شرحها، ليس مجرد اجتهادا عشوائيا وانما ناتج من ان الآيات كما سنرى تضيف تفاصيل دقيقة و وتصف مهرجانا اجتماعيا لا يمكن استيعابه الا بهذا التأويل! ولعل فى استعمال كلمة "سوءة" نفسها هنا وهناك اشارة ربانية الى ان آدم كان فى تلك المرحلة يقسم الاحداث الى الكلمة وضدها فقط، فهو مثلا فى هذه الحالة يفهم "سئ" و"حسن"، فالقتل عنده "سوءة" والجنس الممنوع "سوءة" مهما اختلفت التفاصيل الاخلاقية والقانونية بين السوءتين فى مفهومنا نحن الذين نفهم لغة الهدهد الفلسفسية!

الشيطان كما قلنا من ناحية وظيفية لم يكن فى حاجة لأن يؤمر بالدخول فى الجنة (الغابة) ما دام آدم قد سبقه اليها، لانه قد ربط نفسه به الى يوم الدين، فحيثما كان آدم كان الشيطان! وقد كان يعلم ان "آدم" الذكر والانثى، منذ حالته الحيوانية، يرغب فى معرفة كيفية الحصول على مولود بارادة حرة وذلك ليعوض الموت ويخلد فى الارض ويمتد ملكه، وبالتأكيد فان رغبته تلك قد زادت بعد ان اصبح خليفة لله فى الارض وسخرت له مخلوقاتها انصياعا لأمر خالقها بالسجود له!

والشيطان كان يعلم جيدا انه ليس من السهولة ان يغوي آدم الذى ما احتاج لرسول يكلمه عن ربه ولا احتاج لمعجزة تدله على وجود الهٍ ووجوب طاعته، اذ انه فى نفسه كان معجزة زمانه وقد خاطبه ربه من غير وحي! نقطة الضعف الوحيدة التى كان يمكن ان يغويه بها هى اغراءه

بالخلود والملك الذى لا يبلى، ولكن ليس من المنطقي ان آدم الذى منح الحرية فى ان يأكل من كل اشجار الجنة الا شجرة واحدة، ان يستجيب لاغراء الشيطان، الا اذا كانت هذه الشجرة امرا اخرا وليست طعاما لديه من الحلال منه ما يفيض عن حاجاته!

استغل فيه الشيطان هذه الرغبة وبدأ فى اغوائه كما وصف القرآن، ليزله عن النهي الرباني الاول! والاغواء فى اللغة له معنيين: أحدهما خلاف الرشد واظلام الامر، والآخر يدل على فسادٍ فى الشئ! و اظلام الامر هو حقيقة ما فعل الشيطان، ولكن ما كان للشيطان ابدا ان يدعو الناس للهلاك والضياع بصريح اللفظ وانما يزين لهم الخطأ حتى يقعوا فيه! ولذلك جاء لآدم من مدخل مختلف وهو مدخل الخلود: { قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى}، ولم يقل له "هذه الشجرة" لانه يعرف انه لن يقربها خوفا من الله، ولكن تحدث له عن شجرة نكرة "أظلم له الامر الممنوع"، واضافها له الى رغبته الفطرية فى الخلود، وبالتالي فان آدم ذكرانا واناثا لم يربط بينها وبين الشجرة الممنوعة عنهما! ولعل وقفة مع هذا الصياغ تزيد من التأكيد على ان الله ما حرم على آدم شجرة محددة فى طرف الجنة ذات فروع واوراق مميزة، وان الشيطان ما استدرجه ليأكل من ثمار شجرة محددة لأنه لو كان الله تعالى قد حدد له شجرة بعينها فما كان للشيطان ان يخدعه فى ان يأكل منها بالإسم، ولكن كلمة "شجرة" كانت اشارة الى "فِعلة" معروفة لآدم بهيئتها الحركية، لذلك جاءه الشيطان بمفهوم جديد وهو "شجرة الخلد" الأمر الذى جعل آدم ينسى تحذير الله وفات عليه ان الفعلة هنا وهناك واحدة! وكعادته الى اليوم فالشيطان يلبس ويخلط للانسان المحرمات ويظهرها له فى صورة حلال!

فأكلا منها :

ويمضي القرآن يصف لنا كيف علّم الشيطان جنس آدم ممارسة الجنس الطبيعي لاول مرة رغبة منهم فى الخلود ومن غير ان ينتبهوا الى انهم مقدمين على ممارسة نفس الشجرة او المداخلة او الدخلة كما نسميها اليوم، والتي كانوا من يقبل يمارسونها بطريقة عشوائية، ولكنها حرمت عليهم فى الجنة! فبدأ فى تعليمهم عمليا:

{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى***فَأَكَلَا** مِنْهَا...} 121طه!

"أكل" فى اللغة لها فروع كثيرة، ومعناها الاساسي هو التنقص! ولان هذا اللفظ يسبب إشكالا كبيرا فى فهم قصة الشجرة لا بد ان نعطيه اهتماما خاصا: فأكل الطعام يعنى انقاصه...و"تاكل النار الحطب" يعنى تنقصه...

إذا شرب احدهم نصف كوب حليب وأكل نصق تفاحة فان نصف كوب الحليب الذى شربه هو ذاك الذى مضى فى جوفه، أما نصف التفاحة الذى أكله فهو الذى بقى فى يده مأكولاً اى منتقصا وليس النصف الذى مضغه وبلعه! ومن هذا يمكننا ان نفهم قول الله تعالى:

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا **أَكَلَ السَّبُعُ** إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ......} 3 المائدة

فإذا هجم السبع على معزة وقطع كراعها وتركها تنزف فإن تذكيتها اى تحليل ما تبقى منها من لحم يتم بالاسراع بذبحها حتى تموت بالذبح وليس من جرح السبع. وما اكل السبع هنا هو البهيمة التى انتقص كراعها وتركها تنزف وليس الكراع التى مضغها وبلعها!

.فماذ تعنى "أكلا منها" فى الآية؟

تلكما الشــجرة

كما قلنا أن البشر قبل الارتقاء بهم عقليا و أخلاقيا ربما كانوا يمارسون كل أنواع الشجر {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا }، أى أنهم كانوا يمارسون الجنس، ذكر مع ذكر، انثى مع انثى ، ذكر مع انثى بصورة طبيعية ولكن فى وقت غير ملائم للحمل ثم ذكر مع انثى بصورة طبيعية فى وقت ملائم للحمل، وربما فوق ذلك كله ذكر أوانثى مع أى حيوان آخر موجود فى ذلك المكان! لا بد ان نشير هنا الى حقيقة علمية مهمة وهي ان كل الحيوانات تمارس الجنس من اجل البقاء وفي مواسم محددة فقط تتحكم فيها هرمونات و ظروف مناخية معينة، ما عدا الانسان والخنزير الذان يمارسانه طوال العام من باب الشهوة، وما الحمل الا وظيفة اضافية للعملية الجنسية. اذاً ليميز البشر بين "الشَجْر" على عمومه كما عرفوه فى مرحلة الفساد الحيوانية، وبين شجرة الخلد او الوسيلة الوحيدة للانجاب واستمرار الوجود واتساع السلطان، يجب عليهم انقاص كل الممارسات الاخرى "أى أكلها" لكي تبقي الشجرة الوحيدة التى ستؤدى الى الخلود! أى انه يعلمهم بالتجربة ما يجب ان ينتقصوا ممارسته حتى يدلهم على الطريقة الوحيدة للمداخلة بين اثنين منهم و التى تقود الى حمل يقود الى الخلود!

ولان الله تعالى يعلم ان الانسان خلق فى احسن تقويم وسيرد بعض الناس الى اسفل سافلين، فقد كان اللفظ الذى وصف به سلوك الشيطان هو حثهم حينها على "انتقاص" الممارسات العشوائية وليس الغاءها تماما، لأن قصد الشيطان حينها كان ان يدفعهم للوقوع فى عين ما حرم عليهم فى تلك اللحظة، وليس دعوة خيرٍ منه ليهذب سلوكهم الجنسي للابد!

فالشيطان يدخل الفتور بين الازواج فى علاقتهم حتى يدفعهم للتفكير فى الحرام، حتى اذا ما ذهبا الى الحج حيث يحرم الجماع بين الزوجين تجد ذات الشيطان يوسوس لهما بالجماع لانه هنا فقط

محرم! وبالتالى لا بد ان نفهم ان انتقاص المداخلات الاخرى لم يكن القصد منه هو ابعادهم عن ممارسات عشوائية، ولكن كان لاستدراجهم للوقوع فى عين الحرام الذى وصف لهم! و هنا لا بد ان نلاحظ انه اذا استعمل القرآن لفظ يدل على "الالغاء" وليس الانقاص"الاكل"، لربما لم تظهر الممارسات الجنسية الشاذة والممارسات الجنسية مع الحيوانات مرة اخرى، وظهورها فى مجتمعات الانسان اللاحقة والي اليوم، كان سيقود الى خلل فى استعمال ألفاظ القرآن والله أعلم!

ولا بد ان ننتبه هنا الى ان الله أصلاً لم يحرم عليهم "الأكل" من تلك الشجرة، ولكنه نهاهم عن الاقتراب منها، وإنما ورد لفظ "اكلا" ليصف ما حدث منهما! فلفظ التحريم يدل على ان الله نهاهم عن الاقتراب من بعضهما بعضا مطلقا حتى لا يحدث بينهما تداخل جسدي محرم، وما وقع منهما هو انهما اقتربا وتداخلا لكن بهيئة واحدة منتقصين بذلك من هيئات التداخل العشوائية الكثيرة التى كانت تقع بينهما، ولكنهما وقعا فى عين المحرم حينها!

ويمضي الشيطان يشرح لهما، ذكرانا وإناثا، تفاصيل دقيقة حتى لا يدع مجالا للشك انه انما علمهم الممارسة الجنسية، ونظن انه لو استوعب القارئ معنا ما نعنيه بـ "لغة الغراب" سيصاب بالذهول وهو يتدبر هذه الآيات وكأنها نزلت اول مرة:

{يَا بنى آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} 27 الاعراف!

{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ* **وَقَاسَمَهُمَا** انى لَكُمَا لَمِنَ **النَّاصِحِينَ*** **فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ** فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ} 20-22 الاعراف.

القَسْم فى اللغة هو تجزئة الشئ! والنصح فى اللغة يدل على ملاءمة بين شيئين واصلاح لهما كما ورد فى معجم مقاييس اللغة!

قبل ان ندخل فى تفاصيل هذه الآيات لا بد ان نلاحظ مقدار الجهد الفكرى والعملي الذى بذله الشيطان للوصول الى ما اراد الوصول اليه، الامر الذى يؤكد ان ما جرى فى الجنة لم يكن أكلاً من شجرة "تفاح" وانما كان "مهرجانا" لوصف عملية بيولوجية معقدة اجتماعيا واخلاقيا وتطلّب استدراج البشر اليها لفاً ودوراناً ومجهودا لا يحتاج اليه احد ليلتقط تفاحة من شجرة نائية فى الجنة. من الآيات اعلاه يمكننا ان نرتب ما جرى فى هذه الخطوات:

{وسوس لهما ـ نزع عنهما لباسهما ـ أراهما سوآتهما ـ قاسمهما ـ دلّاهما ـ ذاقا الشجرة ـ بدت لهما سوآتهما ـ طفقا يخصفان ـ ناداهما ربهما}

اذا استهدينا بلغة الغراب الحركية يمكننا ان نفهم ان البشر كانوا شيئا واحدا من ناحية جنسية قبل ان يُطوروا الى انسان عاقل، أى انهم لم يكونوا قادرين على التمييز بين الذكر والانثى من ناحية وظيفية! لذلك نلاحظ ان أول ما فعله الشيطان عندما أراد ان يدلهم على شجرة الخلد، هو انه نزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، أى انه ازال عنهما الإلتباس واختلاط الأمر فى التمييز بين الذكر والانثى، و تمت هذه الخطوة بان جعلهم يرون الفرق بين سوءات الذكور والاناث! وبعد ان اصبح فى مقدورهم تمييز الذكر من الانثى:.... قاسمهما!!!

بطبيعة الحال فان المفسرين القدامى وجدوا صعوبة فى تفسير ألفاظ هذه الآيات! ففي شرح لفظ "قَاسَمَهُمَا" ظن المفسرون ان الشيطان قد أقسم لهما بالله انه لمن الناصحين، وهذا ليس الا اجتهادا منهم لغموض القصة! اما "لباسهما" فكان فيها اشكال اكبر لاتفاق المفسرين على ان آدم وحواء كما يظنون، كانوا عراة بدليل انهما طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة بعد الاكل وليس قبله، فكيف إذاً ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما قبل ان يلبسا اصلا!

لحل هذه المعضلة، اورد بعض المفسرين ان آدم وحواء لم يكن احدهما قادراً على رؤية عورة الاخر لأن الله كان قد غطاها بنورٍ يوم خلقهم، فزال ذلك النور بعد ان اكلا من الشجرة! هذه التفاسير ليست الا من التأويلات الاسرائيلية التى مضت تصف ان ذلك النور تقلص حتى اصبح موجودا فقط فى لَمَعَان اظافر آدم وحواء الى اليوم ولكن انكشف عن كل اجسادهم! هذه التأويلات لم تستطع بالطبع ان تقدم علاقة منطقية بين ظهور السوءة والاكل من شجرة التفاح! ايضا استعصى على المفسرين ترتيب الاحداث منطقيا اذ ان الشيطان قد قام بنزع لباسهما اولا حسب نص الآية كخطوة استدراجية للاكل من الشجرة " لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا" ولم يحدث كنتيجة للأكل. بمعنى ان نزع اللباس كان وسيلة للاكل من الشجرة وليس من نواتجها! ثم ان الآيات وصفت رؤية السوءات أولا من غير حدوث اضطراب لدي آدم، ولكن حدث الاضطراب بعد ان ان ذاقاها {.. فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ..}! هذه التفاصيل يستحيل فهمها بافتراض انها شجرة ثمار عادية وبافتراض انهما كانا مستورين بنور رباني، زال بعد المعصية لأن الآية تصف زوال اللباس قبل المعصية وليس بعدها!

ولا بد ان ننبه هنا لاستعمال لفظ "ينزع"، اذ ان له مدلول لغوي خطيرٌ جدا فى بحثنا هذا! مما لا شك فيه ان الله تعالى هنا يصف لنا نية الشيطان او ما سعى اليه لاستدراجهم للوقوع فى المعصية! فاذا افترضنا ان آدم وحواء كانوا عراة يغطي سوءتيهما نورٌ كما ورد فى التفاسير، فان استعمال لفظ "ينزع" فيه غرابة لانه لفظ حركي يدل على عنف فى ازالة الشئ لا ينسجم مع طبيعة النور المفترض! وايضا اذا كان افتراضنا صحيحا وهو ان الشيطان انما ازال عنهم لباس النوع أى الالتباس الجنسي بين الذكر والانثى، فان لفظ "ينزع" ايضا لفظ حركي عنيف لا ينسجم مع ازالة

الالتباس المعنوي! التفسير الوحيد لاستعمال هذا اللفظ الحركي العنيف نستنتجه من استعمال لفظ مشابه جدا ولا عجب انه كان من الشيطان نفسه وفي نفس الظروف حينما توعد {..وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ.. }، اذ ان يبتك تعنى ينتف و ينزع ايضا! ولان فى آذان الانعام سر من اسرار الخلق والتطور رهيب، ولكن فهمه يتطلب تمهيدا طويلا ويتطلب قدرا اكبر من فهم لغة الغراب، فان الحكمة من استعمال هذين اللفظين على لسان الشيطان ستكون واضحة حينما نفحص آذان الانعام ان شاء الله!

بعد ان اصبح مفهوم الذكر والانثى واضحا لمجموعة آدم "قاسمهما" ولم يقسمهما...فما الفرق لغة بين "قسمهما" و"قاسمهما"؟ القَسْم هو تجزئة الشئ الى قسمين، أما "المقاسمة" فهى على وزن مفاعله وتعني تكرار الفعل أكثر من مرة، كأن تقول "قتل" و "قاتل"!

ونحن نظن أن بعضا من المجموعة لم تستجب له مما يفسر القسمة البسيطة الى مجموعتين أولا، وسنرى ان العقاب قد وقع لاحقا على المجموعة العاصية فقط. بعد هذه القسمة الأولى عاد الشيطان ليستدرج المجموعة التى استجابت له فيقسمهم مرة اخرى الى مجموعتي ذكور وإناث، ليستقيم المعنى مع لفظ تكرار القسمة "قاسمهما"! وحتي لا ننسى اننا هنا نتعامل مع فطرة بشرية ساذجة فى سذاجة الاطفال، لا بد ان نتخيل شعورهم النفسي وربما الغبطة والنشوة باكتشاف حقائق خطيرة عن اجسادهم، وانهم فجأة ومن بركات العقل الذى اكرمهم الله به اصبحوا مجتمعا متميزا يتكون من ذكور واناث! هذه الخطوات الاستدراجية هى من طبيعة الشيطان الذى يبسط الارض بالورود والاثارة الى ان يقع الانسان فى الحرام ولكن تلك الورود تختلف كمًّا وكيفا حسب نوع المعصية التى يقود الانسان اليها! هنا كانت نوعية الورود هى اثارة العقل والشعور بالاكتشاف الباهر والمفاجآت وإصابتهم بالدهشة لذلك اشتملت الخطوات البطيئة على ان يريهم سوآتهما اولا ... ثم قاسمهما..وربما اوقفهم فى صفين متقابلين ليروا هذا الاعجاز فى التمييز بين الذكر والانثى، وهذا يعكس اسلوب الشيطان فى الخداع كما سنرى فى باب "آذان الانعام" كيف استدرجهم لعبادة الانعام فى مهرجان "النعاج الحُمَّل"، اذ ان الشيطان لا يُقسم للانسان انه ناصح له وانما يستعبطه حتى ينسى تحذير الله! ...وفى خضم هذه النشوة وذلك المهرجان فقط نفهم كيف نسي آدم تحذير الله ان الشيطان لهما عدو مبين :

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ **عَزْمًا***وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى* فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}

117-115 طه!

ولا بد أن نتوقف قليلاً مع كلمة "عزما" هنا إذ أن لها ارتباط وثيق مع ما جرى بعد إفاضة هذه المجموعة من عرفات الى المزدلفة لاحقا. "عزم" فى المعجم تعنى الإصرار والإرادة، ولكنها

أيضا تعنى قدرة الإنسان الروحية على دفع الجن. ولعل ما تشير إليه فى هذه الآية هو ان آدم ما كان بعد قادرا على ان يستعيذ من غدر الشيطان لذلك سقط فى حبائله. بناءً على هذا العجز الروحي فقد انزل الله لهم رجوم الشياطين من السماء الى ارض المشعر الحرام ليرجموه بها جسديا فى لقائهم الثانى معه فى وادى منى كما سنرى فى الابواب القادمة!

اذاً فالنسيان تطلب جرَّهم تدريجيا الى هذه الحالة من الانتشاء بهذه الاكتشافات الباهرة واحدة تلو الاخري...........

وَقَاسَمَهُمَا انى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ: والنصح هو الملائمة بين شيئين! ويمكننا الآن ان نتخيل ان الشيطان وبكل هدوء لاءم بينهما، أى جعل مع كل ذكر انثى مناسبة! قسم المجموعة التى اطاعته الى مجموعة ذكور ومجموعة اناث..... وصار يزاوج بينهما بأن يختار من مجموعة الذكور ذكرا وينصحه مع انثى من مجموعة الاناث، وهم فى نشوتهم تلك لم يرتكبوا محرما بعد وانما يخطون خطوات نحو شجرة الخلد...ثم بعد ذلك : فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ" :

"دلَّ" لغويا تعنى إبانة شئ تتعلمه بأمارة .. أما الغرور فهو من **"غرَّ"**، ولها ثلاثة معاني: المثال والنقصان والكرم!

وهنا "غرور" أخذت أصلين من أصولها الثلاث، المثال والنقصان**...** فدلاهما بغرور يمكن ان تعنى انه علمهم الفرق الجنسي بينهما بأمارة "دلاهما"، ثم مثل "بغرور" لهم العملية الجنسية الصحيحة التى تؤدى الى الحمل والإنجاب ومن ثم الخلود المنشود!...... والي يومنا هذا نعلم ان الممارسة الجنسية الصحيحة لاتُعرف الا بالتعلم من آخر، فيتعلم الصبيان من أقرانهم ومما يتناقلوه عن من هو اكبر منهم سنا، وتتعلم الفتيات من غيرهن ومن خالاتهن وعماتهن فى غالب الأحيان!...اذن نخلص الى أن أول من ربط بين الممارسة الجنسية السليمة والانجاب فى عقل الانسان هو الشيطان، ليدفعهم لممارستها قبل ان يشرع الله لهم الزواج و ينظم لهم العلاقات الجنسية بصورة تناسب وضعهم الجديد كانسان عاقل! فكانت المعصية فى انها مورست فى مكان محرم"عرفات" وفى زمان محرم أى قبل ان يشرع الله لهم الزواج!

{...فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ..} عندما تذوقا طعم الممارسة التى علمها لهما الشيطان اكتشفا انه هو نفس طعم الشجرة الممنوعة الملتصق بذاكرتهم! وكلمة "ذاقا" هنا تدل على سابق معرفة بهذه الشجرة... والذوق لا يعنى التذوق باللسان فقط وانما هى عملية الاحساس التى تدل على المحسوس كما فى قول الله تعالى {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ..} 56 الدخان..اذا فالتذوق يفيد سابق معرفة بالامر ويفيد استدراك حقيقة الامر منذ الوهلة الأولى.... . فعندها عرفوا جريمتهم {. بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا....}

بدو تعنى ظهور الشئ، و "السوء" هو القبح فى الشئ، اما كلمة "سوءة" فهى لفظة تشخيصية للعمل القبيح! فعندما قتل ابن آدم أخاه، سمى جسده كله بقبح الفعل "القتل" الممارس عليه "سوءة أخى.." ولم يعرف كيف يواري سوءة اخيه الا بمشاهدة الغراب! وهنا عندما مارس آدم الفعل القبيح بأن خالف أمر الله سميت أدوات الممارسة بالسوءة! نلاحظ هنا ان ردة فعلهم بعد التذوق كانت مختلفة تماما من ردة فعلهم حينما اراهم سوآتهما، مما يدل على ان مجموعة آدم كانت لهم سابق خبرة عملية بالممارسة الجنسية لكن بصورة عشوائية لم تسعفهم الى الانتباه الى ان الشيطان انما يستدرجهم للوقوع فى ذات المحرم " الشجرة" الا بعد التذوق وليس عند الرؤيا فقط! لا بد ان نذكر هنا ان سابق تجربتهم فى هذه الممارسات كانت قبل ان يمنحهم الله "البصر" والذى تم عند تطويرهم الى انسان عاقل. والبصر لا يعنى الرؤيا وانما هى كلمة جامعة تعنى فهم وادراك ما يراه ويسمعه ويحسه الانسان بكل وسائل الادراك وليس العينين فقط. ومنها جاءت كلمة "البصير" وهي تعنى الحكيم الذى يستخلص الحكمة والعبر من كل ما يصل اليه من علم بكل حواسه. إذاً فممارساتهم قبل ان يمنحهم الله البصر لم تسعفهم الى استدراك ان ما اراهم الشيطان من سوءاتهما هو نفس العضو الذى مارس نفس الشجرة المحرمة من قبل، ولكن بعد ان تمت الممارسة وذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما أى شعرا بقبح المعصية. عندما بدت لهما سوآتهما فقط افاقا من نشوة الاكتشافات الباهرة ووهم الخلود، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليواروا ادوات الممارسة التى اصبحت سوءة فى نظرهما! ونلاحظ ان القرآن لم يقل ورق اشجار الجنة، اذ انه استعمل لفظ "شجرة" فقط ليصف بها اسلوب فهم آدم للافعال من شكلها الحركي، ونظن انه تجنب تكرار لفظ الشجرة فى وصفه لورق الجنة لعدة اسباب سنناقشها فى باب "فى وادى المزدلفة".

كلمة "سوءة" مفردة، ومثنَّاها سوءتين وجمعها سوآت، ثم بعد ذلك تمت تثنية الجمع الى جمع مثني "سَوْآتُهُمَا" دلالة على عدد الذين مارسوا هذه الممارسة من إناثٍ وذكورٍ كما أسلفنا والذين لا يعلم تعدادهم الا الله، ولكن اللفظ لغةً يدل على انهم ستة فما فوق!

تعلم الانسان طريقة وأسلوب التناسل، والمحافظة على نوعه، وبالتالي فإن انجاب الأطفال أعطاه خلود النوع ولكن لم يعطه خلود الحياة، لذا قد كان تعليم الشيطان له ناقصا "بغرور"... وهو المعنى الثانى للكلمة، أى دلاهما **بتمثيل** العملية فوصلا الى نتيجة **ناقصة** هى الانجاب ولكن لا مفر من الموت!

سنرى لاحقا أن ممارسة شجرة الخلد قد أدي بالفعل الى حمل بعض الإناث من مجموعة آدم، وهو أصلا الهدف الذى به اغراهم الشيطان لارتكاب المعصية، ولكن لمَّا كانا قد ندما فقد كان أولئك الأطفال غير مرغوب فيهم لأنهم ارتبطوا بالمعصية والندم، فجاء الشيطان من جديد

ليضلهم فيقتلوا أولادهم سفها بغير علمٍ، بعد ان زين لهم ان قتلهم فيه قربة الى الله لتكون البداية لجريمة قتل الأبناء منذ الجيل الاول للأنسان العاقل، وهذا ما سنناقشه بمزيد من التفصيل فى باب "آذان الانعام" !

ولعله من المفيد ان نذكر هنا ان فى تراث السومريين قصة عن الذكر و الانثى فى الجنة حينما حرَّم الرب عليهم الإقتراب من السلوك الحيواني الشهواني الذى اشير اليه بلفظ {بروسيا او فروسيا} ولكن الشيطان اغواهم ، فوضع الذكر {ثمرة الخطيئة} فى رحم الانثى، وثمرة الخطيئة سميت {مِيرا مِتعايا} وهذه الألفاظ قديمة جدا ربما تشترك فى اصول النطق مع {ثمرة المتعة}، وقد يكون هذا اصل قصة الثمرة التى تحولت بمرور الزمن الى مفهوم شجرة وثمرة حقيقية ثم اصبحت شجرة تفاح! وقد قدم د. احمد داوود حلقات قيمة جدا فى هذا المجال فى برنامج "تاريخ الحضارة" فى فضائية سلطنة عمان فى صيف 2006!

ولما كان الله عالما بحالهم فقد ناداهما بالعتاب:

{..وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ **تِلْكُمَا** الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ} 22الاعراف!

هنا نلاحظ ان فهم القصة كما قدمنا يحل معضلة اخرى فى فهم لغة القرآن التى لا نشك ان فهمها استعصى على الكثيرين، وهي تثنية اسم الاشارة" تِلْكُمَا"! فبدل ان يقول "تلك الشجرة" كما سماها قبل الممارسة بلفظ المفرد "هذه الشجرة" أصبحت الآن "تِلْكُمَا" للدلالة على ان الشجرة بعد الممارسة أصبحت معروفة بالنسبة لآدم بأنها ثنائية، مرتبطة بالنوعين الذكر والانثى! بمعني انه لما كان الفرق بين الذكر والانثى ملتبس عليهم قبل الممارسة، كان النهي عن فعل شئ واحد وصف بصيغة المفرد "مداخلة" او "هذه الشجرة" من غير الاشارة الى اداتيها، ولكن بعد ان نزع الشيطان عنهما لباس النوع اصبح فى علم آدم بالتجربة مع القدرة على عقل الامور ان هذه الشجرة لا تكتمل الا بمشاركة أداتين من الذكر ومن الأنثى، وصفت تلك المداخلة بعد الممارسة بـ " تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ "!

هذا اللفظ "تِلْكُمَا" لم يذكر أى من المفسرين سببا لتثنيته، رغم انهم جميعا تحدثوا بطبيعة الحال عن شجرة فاكهة، وما ذلك الا لان اغلب الروايات التى اعتمدوا عليها ليست الا اسرائيليات انتقلت من اليهود الذين جاوروا المسلمين حينا من الزمن! تجنُّبْ المفسرين القدامي الخوض فى تأويل الغامض من ألفاظ القرآن يدعوا دوما للاعجاب ومزيد من الايمان بحفظ القرآن لفظا وتفسيرا، اذ ان السلف نقلوا ما توفر لديهم من علم وتجنبوا ما كان غامضا عليهم، لان مجرد محاولة تأويل مثل هذه الألفاظ تطلب فهما تفصيليا لطبيعة الذكر والانثى من ناحية بايولوجية

وفسيولوجية ما كان متاحاً لهم، بالإضافة لغموض قصة الشجرة و التى أصلا تحكى مرحلة من مراحل التطور التى كانت بالطبع غائبة عن كل البشرية!

هذا التفسير الذى قدمنا بالطبع لم يكن ليخطر على بال المفسرين القدامي رضي الله عنهم، ولكنه لا يتعارض الا مع تأويل الإسرائيليات! وهو لا يطرح فهما جديدا لقصة شجرة الخلد وتحويلها من شجرة تفاح الى ممارسة علاقة جنسية سابقة لأوانها فحسب، وإنما يفتح بابا واسعا جديدا من الإدراك لحقيقة قصة خلق وتطور الإنسان، يعيننا على فهم تبعات ما حدث فى جنة عرفات ويفسر لنا آيات كثيرة ارتبطت بقصة إبراهيم عليه السلام لمّا أتى الى هذه البقاع المقدسة التى تحمل بين وديانها وجبالها تاريخ خلق الإنسان وتطور البشرية، بل ويربط قوانين الخلق والقلائد فى الأرض بمقاليد السموات والأرض، ويكشف أسرارا كثيرة من أسرار عبادة الحج التى جعلها الله تعالى حجة على الإنسانية جمعاء وليس المسلمين فقط!

بعد ان تحول مفهوم آدم وزوجه من شخصين هما "آدم وحواء" الى اسم جنس يجمع ذكورا وإناثا كما رأينا، يمكننا ان نلخص الحقائق الهامة التى ترويها هذه القصة حتى تكون مفتاحا لنا ونحن نمشى على خطى الإنسان الأول من جنة المأوى فى عرفات الى البيت العتيق:

1. عندما قالَ الرسول صلى الله عليه وسلم "حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج" ما قصد "بلغوا عنهم ولا حرج"، لان الحديث ليس إلا نقل الروايات، كما حدثنا القرآن ان فرعون قال "انا ربكم الاعلي" ولكنه لم يبلغنا ان فرعون كان إلها! البلاغ هو نقل الاحكام الشرعية والحقائق الواجب اتباعها، اما الحديث فهو نقل الاخبار للعلم بالشئ! وبالتالى فان العلم برأي بنى اسرائيل فى قضايا متشابهة فى التوراة والقرآن لا يعنى اخذ تأويلاتهم كانها حقائق لا تناقش!

2. لقد سكت الرسول صلى الله عليه وسلم عن تفسير كثير من آيات القصص القرآنية والآيات التى تصف ظواهر كونية ما كان للجيل الاول ان يفهمها، لانها تتطلب ادراكا بكثير من الامور التى لم تكن بعد معلومة للبشر! فمما لا شك فيه مثلا ان النبي كان يعلم ان الارض هى التى تدور حول الشمس، وهو الذى اسري به وصعد الى السموات العلي ورأي من آيات ربه الكبري، ولكن لم يعرف ابدا انه المح فى تفسير أى من الآيات التى وصفت حركة الشمس والارض، وما ذلك الا لأن هذه الحقائق الكونية انما ذكرت لتكون اعجازاً للجيل الذى يصل علمه باسرار الكون مستوىً يعينه على استيعابها! وأيضا لم يدخل النبي صلى الله عليه وسلم فى تفاصيل الخلق وانما اكتفى بالنصوص القرآنية وما ذلك الا لأن هذه القضية شائكة جدا وتتطلب إدراكا بحقائق فى علم الاحياء كثيرة وما كانت متاحة لقومه! مثلا حينما سئل عن الخلق كانت اجابته كما اوردها مسلم فى صحيحه كما يلى:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم}!

3. إنَّ القرآن محفوظ بالحرف كما نطق به جبريل وان احتوت تفاسيره على قصور فهم الانسان لكثير من الحقائق الكونية ولكن تلك التفاسير لم تؤدى باي حال من الاحوال الى تغيير نصوص القرآن كما حرف اليهود كتبهم لتتوافق مع فهمهم القاصر عبر العصور.

4. إنَّ آيات الله القرآنية تنطبق على آياته الكونية، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ما فسر للناس الا ما يدخل فى الامور التشريعية. اما الآيات التى تصف الكون فقد تركت لبحث الانسان لتجعل من الكون كله كتابا ربانيا لا ينتهي وحيه، يثبت حفظ القرآن كلما اكتشف الانسان سرا من اسرار الكون يشرح ألفاظا قرآنية غامضة.

5. إنَّ آدم فى القرآن هو اسم جنس يشير لمجوعة البشر الذين طورهم الله تعالى الى انسان عاقل، ثم اصطفى من بعدهم نبيه الاول آدم كما سنرى لاحقا!

6. الظن ان "آدم" تشير الى الذكر دون الانثى لا يدل الا على طبيعة المجتمعات العربية واليهودية الذكورية التى قامت بتأويل الألفاظ هكذا، ولكن اللفظ القرآني كان متعادلا فى وصف المراحل الأولى لخلق "البشر" و"الانسان" من غير تذكير او تأنيث، ثم جاء اسم آدم بعد التطور ليكون اسما للجنس الملائم للتغيير و الذى تطور ذكورا واناثا، واستعمل القرآن لفظ "زوجك" للاشارة لوجود الذكر والانثى ولم يرد فى القرآن اسم حواء مطلقا! أغلب الظن ان اسم حواء يشير الى زوجة نبي الله آدم المصطفى الذى ما أتى زمانه بعد!

7. إنَّ لغة المجسمات واللغة الحركية هى اللغة التى يمكن ان نفهم بها الآيات التى تحكي قصص الانسان الاول تماما كما كان هو يتعلم بالمشاهدة من الغراب!

8. أَن الجنة كانت فى الارض وانما تم تعريفها بالفٍ وَلام لان آدم كان مدركا لوجود هذه الجنة، اما السماء ففيها جنات عديدة ولا يمكن تعريفها جميعا بالفٍ ولامٍ واحدة .

9. إنَّ المعصية الأولى للانسان كانت ممارسة العملية الجنسية من اجل الانجاب قبل ان ان يشرع الله لهم الزواج.

11. إنَّ الاراضى المقدسة التى تجرى فيها مراسم الحج تحمل كل اسرار البشرية من خلق وتطور، وأن كل العبادات التى يمارسها الحجيج انما هى تمثيلاً و مشياً على خطى آباء البشرية كما سنرى بالتفصيل.

12. اذا كانت الممارسة الأولى قد وصفت بطبعيتها الحركية لتعكس مستوى فهم الانسان انذاك فمن الطبيعي ان توبته تمت بطريقة حركية مجسمة وان عباداته الأولى ايضا كانت عبادات حركية، ولذلك فان كل هذه الاحداث لا يمكن فهمها الا بلغة الغراب كما سنرى!

13. لمّا كان الشيطان لهم بالمرصاد فانه من المنطقي جدا ان تعاملهم معه فى الارض سيكون بطريقة حركية مجسمة وليس استعاذات تتطلب "عزما" لم يمتلكه آدم بعد، كما نفعل نحن الذين نتعامل مع امور الدين والدنيا بلغة الهدهد الفلسفية ذات المعاني المتباينة والعميقة!
بعد ان أُسقط فى أيديهم، وقفت كل مجموعة آدم تلك الوقفة التاريخية فى عرفات، نادمين عما فعلوا طالبين الغفران بكل ما اؤتوا من مقدرات على التعبير، اذ انه ما كان لهما ذكرانا وإناثا الا الاعتراف بالذنب حينها وقد قدم الله لهم بالتحذير:
{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 23 الاعراف! فهل تم العفو المطلق ام العقاب ثم العفو؟

لنهبط من جنة المأوى فى عرفات مع الرعيل الاول من جنس آدم الذى تطور الى انسان عاقل، وهم لا تستر سوآتهما الا اوراق الجنة، الى وادى المزدلفة ليلا فى طريقهم الى منى ليضحوا على الارض ضحاء اليوم التالى كأول يومٍ فى تاريخ الانسانية العاقلة على الأرض! ولكن قبل ان نهبط، نظن ان القارئ ربما اتفق معنا فى كثيرٍ من تأويلنا ان لم يكن كله، وهذا يعيننا على ان نرى من الآن فصاعدا فى القرآن ما لم نكن نرى، اذ ان القرآن كتابٌ لا تنتهى معجزاته وهو يوحى لكل جيل علماً جديداً يناسب تطوره وقدرته على استيعاب اسرار الكون. فلو قرأنا آيات الهبوط الآن لن تخفى علينا واواوات الجماعة التى تكررت فى كل الآيات التى تصف لحظة هبوط الرعيل الأول من جنس الإنسان العاقل:
قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... 123 طه
وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .....36 البقرة
قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا .....38 البقرة
{قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} 24 الاعراف
ولما كانت القصة طويلة جدا وكل خطوة تكشف سراً فان العدد التقريبي لجنس آدم الذى طُوِّر الى انسان عاقل لا يمكن احصاؤه بسهولة ولكننا لا نشك فى ان أى انسان يراوده كثير من الفضول لمعرفة عددهم، الامر الذى لا يمكن تحقيقه الا باجتهاد منطقي، وان شاء الله سنقترح وسيلة لعدهم بعد ان نفحص آذان الانعام من ابلٍ وبقر ومعزٍ وخرافٍ، لان الله تعالى ترك لنا هناك طرفا من الخيط أمكننا به إشباع هذا الفضول الطبيعي الذى أصابنا بالذهول حينما اكتشفنا ان عددهم فى القرآن مطابق لما ظن علماء الطبيعة انه العدد الادني الذى أمكن ان تبدأ به حياة المجتمع الإنساني! هذا بالطبع يتطلب ان نمشى على خطي إبراهيم بعد ان وصل عليه السلام الى البيت العتيق وإسماعيل وأذن فى الناس، كل الناس بالحج!

كل ما يمكن ان نلاحظه الى الآن هو ان الهبوط من جنة عرفات وهم جميعا فى حالة أشبه بالإحرام اليوم، يؤكد انهم كانوا جمهرة من البشر دَلَفَتْ بهدوءٍ فى االيلة السابقة لأول يوم يضحى فيه الانسان العاقل على الأرض.... فإلي **وادى المزدلـفة** فى ليلة الوقفة لعيد الانسانية الاول!

البـــــاب الخـــامس

فى وادى المُزدَلِفة

اشتهر عن على رضي الله عنه قوله "لو كان الدين بالرأي لكان باطن الخف اولى بالمسح من ظاهره" وذلك فى وصفه لحكمة المسح على الخفين فى الوضوء! فالمعروف ان الوضوء نوع من الطهارة الجسدية كما هو طهارة روحية، ولكن اذا استعصى على الانسان نزع النعلين فانه يمكن ان يمسح عليهما، ولكن ومن عجبٍ يمسح على المكان النظيف منهما!

فى عبادات الاسلام احيانا حِكَمٌ تستعصي على المنطق وانما تؤَدَّي بالطاعة لله ورسوله متى ما ثبت صحتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشأن المؤمن فى ذلك ان الحكيم العليم يعلم الحكمة فيما لا نعلم.

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال "ما من نبي الا ورعي الاغنام" مما يستوجب على أى باحث ذو بصرٍ وبصيرة ان يتوقف كثيرا فى اسرار هذه المهنة التى لا يمكن ان تكون قد ارتبطت عشوائيا بالانبياء، علما بأنَّ منهم من كان ميسور الحال كإبراهيم عليه السلام، ومنهم من اتاه الله ملكا لم يؤته احد من العالمين كسليمان وداوود، ولكن يظل القاسم المشترك بينهم فى المهنة هو رعي الاغنام! وقد كنَّا نظن ان الحكمة من رعي الاغنام هى العزلة والتدبر فى الطبيعة والرحمة على هذه المخلوقات الضعيفة، حتى منَّ الله علينا بان نرفع آذان الانعام لنري من آيات ربنا آيات كبري!

ولعلَّ من اكثر تلك الحكم الخفية إستعصاءً على الفهم هى الحكمة من الكمِّ الهائل من الإتساخ فى اكبر العبادات اثراً فى المجتمع الاسلامي لما فيها من مدلولات اجتماعية واقتصادية وسياسية، ألا وهي عبادة الحج! قبل عهد السيارات والطائرات كان الناس يُحرمون اسابيع قبل ان يكملوا الفريضة وهم مسافرون على ظهور الابل فى غبار وحر الصحراء اياما وليالي طويلة، يحرَّم عليهم فيها قص الأظافر التى تمتلي بالاوساخ كلما استطالت، ويحرم عليهم قص الشعر ونتف الابطين حيث يسيل العرق ويختلط بالتراب وربما يتحول الى طين مقزز ولكن لا استثناء فى الحكم، اذ ان الاستحمام و استعمال الطيب من المحرمات فى الاحرام! وفوق ذلك كله فالذكور لا يلبسون الا قطعتين فقط من اللباس الابيض، وهو الاحرام الذى لا يكاد يستر عوراتهم اذا لم يحذروا ان يسقط! ويزيد الامر غرابة ان قطعتي الاحرام هاتين يحرم على الحاج خياطتهم او حتى ربطهم بحزام محيط يحول دون سقوطهما وسط الزحام والتعاصر، وكأن هناك حكمة مقصودة فى ان ينزلق الاحرام فيرفعه الحاج ثم ينزلق فيرفعه وهكذا! ورغم ان عهد الطائرات قد قصر مدة الاحرام الا ان كل من أنعم الله عليه بنعمة الحج لا بد ان يسأل نفسه عن الحكمة من هذه

الأحكام الصارمة التى تجعل من اغلب الناس فى يوم عرفات الطويل بزحامه المخيف وحره الرهيب وغباره الذى يلون السماء والاجساد بلون الارض، متساوين فى الاتساخ، مهما اختلفت طبقاتهم وتباينت اجناسهم ومستوياتهم الاجتماعية، مما يجعلهم اشبه بالانسان البدائي الذى كان يتوسد الارض ويلتحف السماء ولا يعرف عن النظافة والاناقة والاحتشام و الزينة وحسن المظهر الا شيئا قليلا! الحجُّ بلا شك ايامٌ يسمو فيها الحاج روحيا الى أرقى مراتب السمو فى الوقت الذى يتدني فيه الانسان فى جسده ومظهره الى أدني مستوي، حتى يكاد التمييز يصعب بين الانسان الراقي المتحضر والانسان البدائي الذى يعيش على ابسط هبات الطبيعة! الحج تجربة يجتمع فيها نقيضين يصعب على أى مفكرٍ التوفيق بينمها وهو انه كلما ازداد الحاج ورعا وحرصا على طاعة الله والتزام كل الاوامر واجتناب كل النواهي، كلما اقترب فى هيئته من هيئة الانسان الاول، وذلك بإجتنابه كل مظاهر المدنية الحديثة، و هنا يكون الحاج اقرب ما يكون الى الله تعالى وكأن الاقتراب من هيئة الانسان الاول فى المظهر واسلوب الحياة يقابله اقتراب اكثر من الله تعالى، وكأن الرحلة كلها انما هى عودة الى الجذور البعيدة الى يومٍ لم يكن فيه حاجزٌ كبيرٌ بين الله والانسان!

والغريب انه حتى الاحكام الشرعية التى تحكم سلوك الانسان فى العبادات تتغير فى ايام الحج، فاجساد النساء والرجال تختلط وتحتك بل وتتعاصر، والنساء هنا فقط يحرم عليهن تغطية الوجوه على عكس ما يتوقع المسلم من عبادة فيها من الروحانيات مافيها وعند بيت الله الحرام! بل حتى احكام الصلاة تتغير فتزول الحواجز بين الرجال والنساء لدرجة ان الرجال يصلون خلف النساء بلا سؤال او حرج، وان كثيرا من الصفوف يصطف فيها نساء ورجال جنبا الى جنب، حتى تكاد الفوارق بين الشعوب والقبائل وبين الذكور والاناث كلها تتلاشي فلا يبقي رابطٌ يجمع كل هؤلاء البشر الا قول الله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...} وكأنه يريد بنا ان ننحدر الى تلك المرحلة من عمر الانسانية التى سبقت {.. وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ..} 13 الحجرات!
ولما كنَّا نظن ان عبادة الحج ما هى الا تمثيلٌ سنوي من كل بنى آدم لتلك اللحظة الحاسمة فى تاريخ الانسانية وهي هبوط آبائهم من جنة المأوى الى الارض، ابتداءً بالاستغفار من كل الذنوب فى عرفات، ثم النزول محرمين الى المزدلفة ليلا، وجمع الجمرات من المشعر الحرام ثم رمي الشيطان فى اول ايام عيد الاضحى ثم الطواف حول البيت العتيق ثم السعي بين الصفا والمروة، فاننا سنحاول ان نرسم فى الصفحات القادمات لوحة فنية مستوحات من روعة السياق القرآني تحكي قصة خلق الانسان وتطوره فى الاراضي المقدسة، وهي بلا شك حكمة كبري من حكم الحج، تلك العبادة الاسلامية الوحيدة التى خاطب الله تعالى فيها "الناس" وليس المؤمنين لما فيها من إرثٍ يخص البشرية جمعاء : {وَأَذِّنْ فى النَّاس بِالْحَجِّ} 27 الحج!

طـفـقـا يخـصـفان:

نعود فنتدبر الآيات التى وصفت اللحظات التى تلت ارتكاب المعصية:

{فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا **وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ** عَلَيْهِمَا مِنْ **وَرَقِ الْجَنَّةِ** وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ*قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ*قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ*قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} الاعراف22-25!

"طفقا" تعنى الاستمرار فى مزاولة الشئ ... و"الخصف" لها اكثر من معنى اهمها التصاق الشئ بالشئ، وايضا تعنى صب الحليب على اللبن الرائب وكذلك مزج اللونين الابيض والاسود، ومن مشتقاتها "الخصيف" وهو الحبل المنسوج من لونين ابيض واسود كما فى معجم مقاييس اللغة وغيره من مراجع اللغة العربية!

وَرَقِ الْجَنَّةِ: لا شك ان كل متدبر لالفاظ القرآن يتوقف طويلا عند هذا التعبير الذى يخفي ورائه سرا ربما لا نستطع اكتشافه. الانطباع الذى يتبادر الى اذهاننا ان ورق الجنة هو ورق الشجر، ولكن هذا ليس النص القرآني وما كان الله يعجزه ان يصف ورق الشجر بهذا اللفظ الصريح. قد يفاجأ الكثيرون بأن كلمة "ورق" فى اللغة لها اصلان: احدهما يدل على خيرٍ ومال والآخر يدل على لونِ الرماد ولون الارض الجدباء. وسميت اوراق الشجر لان الشجر لا قيمة ولا خير فيه من غير ورق. واستعمل العرب كلمة ورق لتعني المال ومن ذلك قول الله تعالى فى سورة الكهف: {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ **بِوَرِقِكُمْ** هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} 19 الكهف. مما لا شك فيه ان اصحاب الكهف لم يكم معهم جنيهات او ريالات أى عملة ورقية، ولكن وَرِقِكُمْ تعنى مالكم.

استعمال القرآن للنص {**وَرَقِ الْجَنَّةِ**} ربما يحمل احد احتمالات ثلاثة:

الاول: ان المقصود هو ورق الشجر المتساقط على ارض الجنة وليس اوراق الاشجار الخضراء. الورق المتساقط فى ارض الجنة جاف و لونه اصفر لانه لا حياة فيه. وصفه هنا بانه ورق الجنة وليس ورق الشجر ربما يفيد ان لون الورق كان مصفراً او مائلاً للابيضاض وليس اخضراً كأوراق الشجر.

الثانى: ان ورق هنا اتت بمدلولها اللوني وليس مدلولها المالي. ذلك يعنى انهما قاما بتغطية سوءآتهما بتراب ارض الجنة فتحولت اجسادمهم الى الوان مختلطة فى محاولة منهم لطمث آثار

الممارسة. هذا الاحتمال فيه قدر من المنطق لان سكان البوادي والي اليوم يغطون مواقع الأذي والجروح فى اجسادهم بالتراب كأول غطاءٍ يخطر على بالهم.

الثالث: ان ورق هنا تشير الى أى شئ له قيمة فى ارض الجنة مثل جلود حيوانات ميتة او لحاء اشجار او ما شابه ذلك. مهما يكن من امر، فالنص القرآني يستوقف المتدبر كثيراً قبل ان يخلص الى نتيجة.

حينما نتدبر معاني هاتين الكلمتين **طَفِقَا يَخْصِفَانِ** ونتخيل لحظة الحدث نشعر وكأن الآية تشير الى هرج ومرج أصابهم فسارعوا فى التقاط اوراق الجنة بسرعة وإلصاقها على عوراتهم فتتساقط فيلصقونها ثانية وتسقط فيكررون المحاولة وهكذا باستمرار، لان هذا ما توحي به كلمة "طفقا"! ويبدو من استعمال كلمة "يخصفان" ان ورق الجنة كان مائلاً للبياض لان كلمة "آدم" من معانيها لون اديم الارض الاسمر ويقال ان آدم كان أسمر اللون فلما التصق الورق على لون اجسادهم السمراء اصبحت كالخصيف وهو الحبل المنسوج من لونين ابيض واسود! فكأني بهم حينها قد أصبحوا أجسادا سمراء يغطى بعضها ورق اصفر باهت من ورق الجنة يتساقط فيلصقونه ثانية وهكذا، وكأنى بالحجيج اليوم ممثلين مبدعين يمشون على خطي آباءهم فيرفعون قطعتي الاحرام البيض الّتان غطاهما الغبار فتنزلقان فيرفعونهما فتنزلقان وهكذا! فما أبدع وصف البديع الذى أبدع خلق السموات والأرض وأنزل القرآن! ولانه بعد هذه الحادثة انتقل السياق القرآنى الى مسألة التوبة فاننا نحتاج ان نقف على مفهوم العبادة والتوبة فى عصر القرابين اولا.

عصر القرابين:

مفهوم تقديم "القرابين" ارتبط فى أذهاننا بالعبادات الوثنية التى يتقرب فيها الوثنيون بقرابين مادية الى آلهتم طلباً فى رضاهم. ولكن كل العبادات الوثنية اصلاً تطورت من ديانات سماوية تم تحريفها عبر القرون فتحولت العبادة فيها تدريجيا الى اصناف من الطقوس بعيدة كل البعد عن المصدر الاصلى. فما لا شك فيه ان الله علم الانسان الاول دينا سماويا بسيطا يعبر به عن طاعته لله وعن توبته اذا اخطأ فى حق الله. هذا الدين البسيط ظل يتطور عبر الرسل الى ان ختم الله الديانات بالاسلام الدين العقلانى الروحى الفلسفى الذى يعكس علاقة خليفة الله فى الارض بربه بكل ما آتاه من ملكات تعبير لغوية وروحية وعقلية وجسدية.

اذا رتلنا آيات القرآن التى تحدثت عن "القرابين" نجد أن اللفظ لم يرتبط بالوثنية وانما ايضاً بالرسل، حيث يظل مفهوم القربان والاله الذى يقدم اليه هو الذى يحدد صحة العبادة من بطلانها وليس لفظ القربان وحده:

{وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } 99 التوبة

{فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} 28 الاحقاف

اذاً فكل ما يُخرج او يُنفق بنية التقرب الى الاوثان يسمى قرباناً، كما يطلق نفس اللفظ على الإنفاق المادى اى الصدقات العينية بنية التقرب الى الله تعالى.

اذا رجعنا الى الوراء قليلاً لعصور انبياء بنى اسرائيل نجد ان القرابين كان لها مفهوما ومعاملة اخرى:

{الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} 183 آل عمران

اورد ابن كثير ما يؤكد ان الانبياء قدموا قرابين أكلتها النار كآية لاثبات صدقهم رغم ذلك قتلهم اليهود. لكنه لم يشرح طبيعة القربان وكيف ولماذا تاكله النار! ما يميز هذه الآية ان القربان هنا ليس عبادة وانما آية لاثبات نبوءة النبى، اى عمل خارق يرد الله عليه بارسال نار تاكله.

اذاً فمن القرابين ما هو آيات من الله او عبادة تقرب الى الله، كما ان منها ما هوعبادة وثنية تقرب الى آلهة الضلال.

عصر القرابين:

السؤال الذى يطرأ على ذهن كل مفكر هو: كيف عبد الانسان الاول ربه سواء فى تقربه اليه او فى توبته بعد المعصية؟ القرآن ذكر لنا شيئاً من عبادة الانسان الاول مضمناً فى القصة التى تعرضنا لها كثيراً وسنتعرض لها مزيدا فى هذا البحث وهى قصة الغراب الذى ارى ابن آدم كيف يوارى سوءة اخيه وعلمنا سلوك وحياة الانسان الأول:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) 27 المائدة

من هذه الآية نفهم ان الجيل الثانى من آدم كان يتقرب الى الله بالقرابين. لكننا لا ندرى اى صنف من القرابين وكيف كانت تُقَرب الى الله وكيف تقبلها الله او رفضها: هل كان القربان طعاما يقدم للطير فتأكله دلالة على تقبل الله ام كان صنف من الاحجار يضعها فى مكان فتاخذها الملائكة، ام انه كان قربانا تاكله النار كدليل قبول الله؟ لا احد يدرى، ولكن القرابين عبارة عن ماديات تقدم تعبيرا عن الطاعة. اذا فعبادة الجيل الثانى من آدم كانت قرابين مشروعة، تقبل الله منها ما شاء ورفض ما شاء.

لا بد ان نتذكر ان الآية التالية قد وصفت كيف قتل ابن آدم العاصى أخاه وكيف عجز عن التخلص من جثته الى ان بعث الله له غرابا يريه كيف يوارى سوءة اخيه:

{فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} 31 المائدة.

هذه الآية تجعل من ابن آدم انسانا بدائياً يتعلم من اضعف خلق الله كيف يتعامل مع الطبيعة. وقد استلهمنا منها كما اسلفنا ان الجيل الثانى من آدم كان لا يفهم لغة الخطاب التى نفهمها وانما يتعلم بالمشاهدة والرؤيا فقط وهو ما اسميناه بلغة الغراب.

اذا قبلنا هذه الملاحظات الموضوعية فمن المنطقى ان نفترض ان الجيل الاول من آدم – العنصر المتطور- لا بد وقد كان اكثر بدائية من جيل أبناءه ، وبالتالى فانه فى احسن الفروض كان يتعبد

الى الله بالقرابين المادية، و ليس بالصلاة والصيام والتسابيح كما تطورت اساليب العبادة فى الديانات السماوية اللاحقة.

فاذا كانت عبادة الانسان الاول بتقديم القرابين فان توبته من اول معصية لا بد وان تكون بصورة مادية تشابه القرابين.

من هذا المدخل الموضوعى ننظر الى توبة آدم، وماهية الكلمات التى تلقاها من ربه.

هبوط التوبة الاول:

وصف القرآن لنا تتابع الأحداث بعد ارتكاب المعصية وصفاً يدل على ان احداثا كثيرة جرت قبل الهبوط من الجنة! فممَّا لا شك فيه ان مجموعة آدم قد عبَّروا عن ندمهم وطلبوا العفو، ومما لا شك فيه ان دين الاسلام لا يتغير وان التوبة دائما لها شروط، وهكذا وصف لنا الله تعالى قصة التوبة وصفا مفصلا بلغة الغراب التى ما كان آدم يفهم اكثر منها وما كانت له قدرة على التعبير بابلغ منها:

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ **كَلِمَاتٍ** فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} 37 البقرة!

هذه الآية يسهل فهمها لغويا اذا كتبناها حسب المعنى الذى نظنه:

فَتَلَقَّى آدَمُ كَلِمَاتٍ مِنْ رَبِّهِ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .....

هنالك خطأ منهجي فى فهمنا للآيات يقودنا دوما الى نتائج خاطئة، وذلك لاننا نتعامل مع أحداث الآيات من دون فهمها وفقا للزمن الذى وقع فيه الحدث الذى تسرده الآية، بل نقوم بتفسيرها وفقا لظروفنا ومفاهيم زماننا. وهذه المشكلة تكون عادة فى آيات القصص لأنها أصلا تقص أحداثا وقعت فى عهود ماضية، عاش الناس فيها ظروفا مختلفة بامكانيات عقلية وعلمية ومادية واجتماعية مختلفة تماما عنا!

ففي بداية حياة الانسان العاقل كان الواقع الاجتماعي والتطور العقلي للبشر بسيطا جدا، واقرب لتعامل الاطفال مع احداث الحياة اليومية سواء كان فى فهمهم او كلامهم او افعالهم، وذلك لأن البشر كانوا قريبين جدا من المملكة الحيوانية، بل ولم يشتمل التشريع الرباني لهم بعد الا على الامر بالسكن فى الجنة و النهي عن الاقتراب من الشجرة ثم تبعه الامر بالهبوط من الجنة! هذا يقودنا الى ان رواية الاحداث ستكون بكلمات مبسطة وتشخيصية، وذلك ليدلنا الله تعالى على شكل الواقع الاجتماعي فى ذلك الزمن. ولذلك عندما نحاول تفسير مثل تلك الآيات وفقا لعقلنا التجريدى وفهمنا للامور سنقع فى أخطاء كبيرة! فنحن نعيش فى زمان تنظم الحياة فيه قوانين

ونظم إجتماعية واخلاقية ودينية تراكمت عبر آلاف السنين وتطورت مع تطور العقل وتعارف عليها الناس حتى اصبحت من المسلّمات وان كانت تختلف من مجتمع الى آخر. وهذا التباين يفرز معه كما هائلا من المصطلحات اللغوية والفلسفية والقانونية والروحية والعلمية التى تزيد كل يومٍ يتطور فيه علم الانسان باسرار الكون!

ونضرب مثلا بالتجارة البكماء التى سادت فى عصور بائدة يوم كان الانسان لا يعرف المال وليس لديه مصطلحات اقتصادية او تجارية وبالتالي ليس لديه عملة يمكن تبادلها بدلا عن تبادل البضائع! فكان الناس مثلا يتبادلون كماً من القمح مقابل كمٍ من الفاكهة او العسل حتى اذا ما تراضي الطرفان اكتمل البيع والشراء من غير كلام ولا عملات. تلك كانت تجارة مجسمة لان العقل ما كان يفهم الا المجسمات!

ويضرب لنا علم الآثار مثلا آخرَ وهو ان الانسان حينما ابتكر الكتابة كان يرسم صورا فى تسلسل بحيث تدل كل صورة على مخلوق او كائن او جماد او أى شئ يمكن فهمه من الصورة وبالتالى تتكون فكرة او قصة من مجموعة الصور المتسلسلة كما نرى عند قدماء المصريين! تلك الأمثلة عبَّر الله عنها بصورة فنية بسيطة رائعة فى سرده لقصة الغراب مع ابن آدم كما أسلفنا، وهي لغة المشاهدة والمتابعة الحركية والتعبير بالتصاوير!

ونضرب مثلا اخراً على ذلك وهو ان مفهومنا فى زماننا هذا لممارسة العبادة قد اخذ الطابع التجريدي الروحاني والفلسفي بالصلاة والتسبيح والاستغفار والحمد، وبالتالي فان التوبة تكون بتكرار كلمات منطوقة تعنى الاستغفار مثل "استغفر الله العظيم الذى لا إله الا هو الحي القيوم وأتوب اليه"، والاكثار من العبادات وافعال الخير وما الى ذلك مما يوجب رحمة الله وعفوه. لغتنا نحن وبلا شك هى لغة الهدهد الذى ابدع فى وصف نظام ملك سبأ وعقيدتهم!

من هذا المنطلق فان توبة الانسان العاقل فى لحظاته الأولى على الارض لا بد وقد حملت طابعا يعبر عن بساطته فى التعامل مع معطيات الواقع آنذاك! تلك التوبة كانت اقرب للتجارة البكماء فى التعامل مع الواقع بلغة المجسمات وليس المنطوقات، لانها اصلا كانت توبة من حرام ارتكبوه وقد وصف لهم هذا الحرام بصفته الحركية وليس مضمونه الاخلاقي " وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ" وليس "لا تقربوا الفواحش"! على اننا لو أخطأنا فى تحميل الآيات التى وصفت توبة آدم معاني وفقاً لحالتنا الاجتماعية والفكرية وليس حالته فى زمانه ذاك، سنفسدُ كثيراً من المعاني فى القصة. بمعني مبسط جدا فان توبة آدم لا بد ان تُفهم بلغة زمانه وهي لغة الغراب وليس لغة زماننا وهي لغة الهدهد!

فوفقا لعقلنا نفهم "الكلمات" المقصودة فى الآية بأنَّها كلمات منطوقة قالها الله لآدم ليرددها، وهنا نسينا أن آدم وفقا لواقعه الاجتماعي لم تكن له لغة متكاملة بعد على ضوءها يمكنه ان يفهم

المعاني المجردة للكلمات الروحية! هذا الخطأ قادنا الى الظن بأن الذى تلقى كلمات التوبة هو آدم، وبالتالي لم نلاحظ أن الاسم "آدمُ" فى الآية مرفوعٌ بالضمةِ الظاهرة على آخره، مما يعنى أنه فاعلٌ "للتلقي" وليس مفعولا به كما تخيلنا!

فاذا رجعنا الى الواقع الاجتماعي والمستوي الفكرى لآدم فى تلك اللحظة لا بد وان نفترض ان آدم سيمارس عملا ما ليعبر به عن توبته، ولكنه لن يردد أى تسبيح او كلمات روحانية ذات مدلولات أبعد من ان يستوعبها هو ناهيك ان تصدر منه!

هذا الخطأ المنهجي قادنا الى خطأ آخر وهو أن آدم "المفعول به كما تخيلنا" هو الذى تاب الى الله، بعد أن قال الكلمات التى قد تلقاها منه، عندها وصلنا الى أن آدم عندما ارتكب خطيئته طلب من الله ان يغفر له، فعلمه الله سبحانه كلمات عندما قالها تاب اليه! ولكن هل هذا هو المعنى الحقيقي لهذه الآية اذا انطلقنا من اللغة العربية التى بها روى الله لنا القصة، ومن واقع آدم الاجتماعي فى ذلك الزمان؟ لكي نصل الى فهم اقرب الى الواقع لا بد ان نتدبر معاني الألفاظ فى تلك الآية:

أولاً: **كلمات** الله هى عين مخلوقاته، لان امره اذا اراد شيئا انما يقول له كن فيكون! بمعني ان ما يشاءه الله تعالى يحدث من غير نطق لامر! اذاً فكل ما يكون من مخلوقات وموجودات مشخصة ومحسوسة انما هو امر من الله تعالى للشئ ليكون فكان! هذا يختلف من كون الله تعالى يخاطبنا بلغتنا التى نفهمها لان هذه هى قدرتنا على الفهم، وهذه تكون لغتنا نحن وليست لغة الله! فمثلا عندما قال الله تعالى للسموات والارض ان تأتيا طوعا او كرها، لا يشترط انه نطق تلك الكلمات باللغة العربية الفصحي، لاننا لا ندري كيف تتحدث الارض، ولكن المفهوم ان ارادة الله تعالى فُرضت على السموات والارض كيفما شاء، ولكن حتى نفهم نحن هذا الامر رواه لنا بلغتنا نحن وليس لغته هو!

هنا نذكر قول الله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} الاسراء 44! فكل تلك موجودات غير ناطقة فى فهمنا ولكنها تسبح بحمد الله بطريقة لا نفهمها!

ثم ان الله تعالى قد استعمل "كلمة الله" فى موضع آخر لتعنى شيئا مجسما وليس أحرف متصلة لتكون صوتا له معنى بالنسبة لنا كما نفهم مضمون "كلمة" كما فى قوله تعالى:

{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ **بِكَلِمَةٍ** مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} 45 آل عمران، وقوله:

{إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ **وَكَلِمَتُهُ** أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ...} 171النساء!

فكيف يكون المسيح كلمة من الله بجسده ولحمه ودمه اذاً؟ لو كان ذلك يعنى ان وجوده هو نتاج كلمة من الله تعالى وهي "كن"، فكل شئ قد وُجد بذات الكلمة اصلا وليس المسيح وحده! نحن لا ندعي العلم ولكن نظن والله اعلم ان الله تعالى حينما يصف مجسما بانه **كلمة** انما يلفت انتباهنا الى ان هذا المجسم قد وجد بصورة خارجة عن المألوف من نظام الكون الذى خلَقه، كآية مادية من آيات الله! فالمسيح اذاً خُلق بطريقة خارجة عن المألوف فى نظام الخلق ليكون شاهدا على قدرة الله فى الخلق وان وجوده فى عالم مريم قد أُدخِلَ بكيفية لا يفهمها الا الله لذلك نجد استعماله للفظ "وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ"، ولكنه ما قالها وما نطق بها وما أوحي بها وما الهمها لمريم وانما "أَلْقَاهَا" وهذا لفظ تجسيمي له مدلولات كثيرة كما سنرى فى شرح "تلقى"!

اذا فالكلمات التى تلقاها آدم اغلب الظن كانت مجسمات انزلها الله له، وهي بالطبع ذات مدلول معين مرتبط بمبدأ التوبة! اذ ان الواضح ان الله لم يكلّم آدمَ تكليماً كما كلَّم موسى، ولم يوحى اليه تلك الكلمات، ولم يُذكر انَّ آدم سمع كلماتٍ من الله، ولكن النصَّ القرآني هو "فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ.." علما بأنَّ الله قد وصف آدم بعدم "العزم" وهو القدرة الروحية والفكرية على منازلة الجن مما يؤكد عجزه الفكرى والروحي آنذاك: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} 115 طه!

وثانيا: "لقي" فى اللغة لهاثلاثة اصول، أحدهما طرح الشئ أو إلقاؤه، اما الثانى فهو توافي شيئين ومنها "اللقاء" أو توافي شخصين او شيئين أثنين متقابلين، أما الاصل الثالث فهو يدل على عوج، والعقاب الطير سمي "لقوة" لإعوجاج منقاره!

تلقى**:** التاء تاء الشدة اذا دخلت على الفعل توضح انه يتم ببذل مجهود، مثل "خرج وتخرَّج" و "لهي و تلهَّي"!

وثالثاً: التوب فى اللغة هو الرجوع!

آخذين فى الإعتبار هذه المفاتيح اللغوية بالاضافة الى واقع آدم الاجتماعي ولغة الغراب التى تعامل بها وليس الهدهد، يمكننا اعادة قراءة الآية السابقة بتمعُّنٍ اكثر لنستخلص الآتى:

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}...........

أولا :"كلمات" نكرة بالنسبة لآدم، ولكن مصدرها معروف لديه اذ انها "من ربه". وكما قلنا فان كلمات الله هئ اشياء محسوسة وليست الفاظا، فكأن الله تعالى قد انزل الى آدم مجسمات غريبة عليه ولكنه فهم فقط انها من ربه!

ثانيا: آدَمُ هنا فاعل، نلاحظ أن الاسم به ضمة، وهذا يقودنا الى أن من فعل "التلقّي" هو آدمُ وليس الله! بمعني ان الله لم ينطق بالكلمات كما نفهم، وانما آدَمُ هو الذى تلقى تلك الكلمات!

ثالثا: ان التلقّي الذى فعله آدَمُ، قد بذل فيه مجهودا لذلك استعملت تاء الشدة فى َ"تَلَقَّى" وليس " لقى"، وان "كلمات" هى المفعول به! والآن نحاول أن نفهم معنى الآية من الأصول الثلاثة لكلمة "لقِيَ":

الاصل الأول: القاء الشئ أو طرحه على الارض. وهذا يقودنا الى الافتراض ان آدم طرح تلك المجسمات على الارض بعد ان حملها بصعوبة!

الأصل الثانى: توافي شيئين اثنين متقابلين، وهذا يقودنا الى استنتاج ان آدم قد وضع تلك المجسمات فى وضعين متقابلين!

الاصل الثالث: يدل على عوج فى الشئ وهذا المعنى قد استعمله الله فى وصفه لخلق الجبال حينما قال :

{**وَأَلْقَى** فى الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 15 النحل!

{وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا **وَأَلْقَيْنَا** فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ} 19 الحجر!

{وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا **وَأَلْقَيْنَا** فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} 7 ق!

أى أن الرواسي "الجبال" شكلها معوج وهي على الارض، ولكن ذلك لا يعنى ان الجبال قد قُذفت من السماء كما نفهم من كلمة "القى"، وانما حنيت على الارض حتى تقوم بوظيفة الارساء وان تمنع الارض ان تميد بنا! وسنشرح بإذن الله مضمون { وَكَلِمَتُهُ **أَلْقَاهَا** إِلَى مَرْيَمَ} فى باب آذان الانعام تحت عنوان: " ويكلم الناس فى المهد وكهلا".

من هنا يمكننا ان نستخلص ان آدم تعرض الى عقوبة جسدية اشبه بعقوبات الحدود التى نعرفها الآن بعد ان اكتمل الاسلام، وهي ان الله تعالى انزل اليه مجسماتٍ ثقيلة حملها بصعوبة ورصها فى مكانين متقابلين فى شكل فيه اعوجاج كما ارسي الله الجبال معوجة على الارض!

فى هذا العصر عندما تكون هناك مجموعة من المجرمين محكوم عليهم بالاشغال الشاقة فانهم يساقون الى أماكن جبلية لكسر صخورها كنوع من العقاب، بادائهم لعمل مرغوب فيه ولكنه شاق جدا! فما هو الاسلوب الذى عاقب الله به مجموعة "آدم" الذكور والاناث على ذنب اتباع الشيطان وارتكاب ذنب ممارسة الشجرة؟ الظاهر والله اعلم انه قد انزل لهم حجارة من خارج نطاقهم المعرفي لذلك وصفها بانها "مِنْ رَبِّهِ"، وقد بذلوا مجهودا شاقا فى طرحها على الارض، وجمعها على مكانين متقابلين، ثم رصها فى شكل جبلين..! ولانَّ آدم كان قد تَلَقَّى مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ، أى بصفة النكرة، فان ربه وحده هو الذى كان يعلم الحكمة والسر وراء هذه المجسمات التى رصها آدم على الارض. ما كان يخص آدم هو انها كانت عقابا له وشرطا للتوبة، ومن ثم فقد تاب الله عليه!

نعود لنتدبر تفاصيل الآيات التى وصفت تلك الاحداث بعدما تبين لنا نوع العقاب واسلوب التوبة:

{فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا **اهْبِطُوا** بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ*فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ*قُلْنَا **اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا** فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ منى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 36-38 البقرة!

{..فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى*ثُمَّ **اجْتَبَاهُ** رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى*قَالَ **اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا** بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ منى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى*وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} 121-123طه!

"جبي" فى اللغة تدل على جمع الشئ، والتجمع بعد التشتت، ومنها جباية الزكاة أى جمعها من اناس متفرقين! "اجتبي" تدل على بذل جهد فى الجمع على وزن فعل و افتعل!

ولمَّا كانت الآيات اعلاه تحكي قصة طويلة جدا فى بضع كلماتٍ فقط فيستحسن ان نرتب الاحداث ترتيبا زمنيا حسب ما ورد فى الآيتين:

البقرة: المعصية - هبوط - فـ تلقى - فـ تاب عليه - هبـوط جماعي.

طه: المعصية - ثـــــم اجتباه - فـ تاب عليه - هبـوط جماعي.

من هنا يمكن ان نرتب الاحداث كما يلى:

1. ارتكب آدم المعصية حسب آيات سورة البقرة وطه!

2. صدر امرٌ لبعضهم بالهبوط اذ لم تصف الآية "جميعا" ...هذا الامر الاول ورد فى آية البقرة فقط!

3. فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فور هبوطه "حرف العطف فاء" كما فى آية سورة البقرة فقط !

4. سورة طه وصفت المعصية اولا ...ثــم.... اجتباه ربه! حرف العطف "ثم" يفيد التتابع مع التراخي أى وجود فترة زمنية طويلة بين المعصية والإجتباء، ومن هنا نفهم ان آية سورة طه لم تصرح بالهبوط الاول وتلقى الكلمات التى صرحت بها آيات سورة البقرة، وانما اكتفت بالإشارة الى فترة زمنية طويلة بين المعصية والإجتباء!

5. كلمة "اجتباه" فى سورة طه تؤكد على ان الهبوط الأول لم يشمل كل مجموعة آدم وكأن العقاب كان جزئيا قام به البعض الذى ارتكب المعصية كما رأينا حينما شرحنا كلمة "فقاسمهما"، لذلك جمعه الله للحظة التوبة التى سبقت الأمر الأخير بالهبوط الجماعي كما فى الآيتين!

6. بعد ان تلقى الكلمات كما فى سورة البقرة والاجتباء فى سورة طه تاب عليه ربه كما فى السورتين!

7. بعد التوبة صدر الامر الاخير بالهبوط، وهنا كان الامر مصحوبا بلفظ "جميعا" فى السورتين ليتميز هذا الهبوط الجماعي الأخير من هبوط التوبة غير الجماعي الذى وصفته سورة البقرة حين تلقى آدم الكلمات!

اذاً وبعد فترة محددة من ممارسة العقوبة على بعض جماعة آدم، جمعهم الله من تشتتهم، ليرجع اليهم ويرحمهم من العذاب الذى أوقعه عليهم، والتوب هو الرجوع! ومن تاب هنا هو الله وليس آدم لان الله هو التواب الرحيم الذى دوما يرجع الى عباده ليرحمهم وهو غني عنهم ولو كفر اهل الارض جميعا!

ونحن نظن ان هذين الجبلين هما جبل "الصفا" من الصفاء والنقاء، وجبل "المروة" وتعني البريق، وهما جبلين صغيرين بجوار البيت العتيق لا يلتصقان بجبال مكة المعروفة ويبدو من صغرهما وطبيعة حجارتهما انهما من وضع انسان، كأنهما مجموعة من قطع الحجارة القيت فوق بعضها، وهما الجبلين الذين سعت بينهما الاميرة هاجر لتمارس اول عبادة جسدية حينما تركها ابراهيم واسماعيل رضيعها جوار البيت قبل ان يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل كما سنرى. ولعل هاجر تطوفت بينهما لعلمها ان تلك كانت صلاة الانسان الاول عند البيت! وسنناقش الصفا والمروة حينما نناقش "شعائر الله" المنزلة فى باب "عيد الانسانية" ثم نناقش السعي فى باب " الحج حجة على الناس". اما صيغة اعترافهم بالذنب فقد اصبحت الدعاء الذى سنَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند التطوف بين الصفا والمروة :

{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 22 الاعراف!

التمحيص فى لفظ "الإجتباء" يدلنا على ان الفعل هو "اجتبي" وليس "جبي"، والتاء ربما تدل على الشدة والمجهود فى جبي آدم! وهذا بطبيعة الحال لا يدل على ان الله تعالى يبذل جهدا فيما يشاء ان يكون، كما ان خلق السموات والارض فى ستة ايام لا يعنى انه لم يستطع ان يخلقها فى لمح البصر، ولكنه يخاطبنا بلغتنا ويخبرنا ان آدم ربما تفرق وانتشر لدرجة ان ربه اجتباه بقدر ما تفرق، للحظة التوبة! ولربما يدل هذا الوصف على حالة من الذعر اصابتهم فكأنهم كانوا يخشون التجمع اذ انهم لا يعلمون هل عقاب اخر فى انتظارهم ام توبة، فتطلب الجمع بلغة الانسان اجتباء وليس جبياً، والله اعلم!

نعود ونمعن فى آيات القران مرة اخرى فى محاولة لاكمال الصورة:

بعض: تجزئة الشئ!

عدْو: أصل واحد يدل على تجاوز فى الشئ وتقدم لما ينبغي أن يقتصر عليه، ومنها العدو وهو الجري السريع والعدّاء هو الذى يمتهن الجري!

فكأن الله هنا يؤكد لنا ما ذهبنا اليه من فهمٍ سابق فى ان بعض المجموعة كانت قد عصت وبعضها رفض الاستجابة للشيطان! فقد رأينا ان الفهم اللغوي السليم لكلمة" فقاسمهما" هو تكرار التقسيم، وظننا ان الشيطان قسمهم الى مجموعة اناث و مجموعة ذكور اولا بان اراهما سوآتهما. ثم قسمهم مرة اخرى الى مجموعة مطيعة ومجموعة رفضت الانصياع له. وهكذا تكرر التقسيم! فلما جاء الامر بالهبوط وجدنا ما يؤكد ذلك التحليل وهو ان الهبوط كان محددا للمجموعة العاصية اولا وهي التى تلقت الكلمات، ثم اجتباهم ربهم للتوبة ثم تبع ذلك الأمر بالهبوط الجماعي الذى اصلا كان قدر الانسان الذى من اجله خلق، ليكون خليفة لله فى الارض. وهنا نجد وصف بعضهم بالعداء لبعض تأكيدا لذلك الانقسام الاول، اذ ان هذا الوصف يشير الى طبيعة الابشر اذ ان البعض ربما يغترف ذنبا يتسبب فى الاذي لمن لم يغترف الذنب!

من هنا اوضح الله للانسانية ان بعضهم سيكون عدوا للبعض بارتكابهم حماقات ربما تتسبب فى اذي من لم يرتكبها، وفي هذا تقرير لحال عدم التساوي بين بنى الانسان فى مستقبل الايام ايضا، وان الله سيتقدم لارشادهم "هُدًى" بالرسل لتعليمهم سبل التعبد والتقرب اليه، وبالانبياء لتعليمهم قوانين الكون، فمن تَبِع هداه من غير جهد -لاحظ عدم استعمال تاء الشدة فى آية البقرة- {..فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ..} فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون، ومن يبذل مجهود {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} -لاحظ تاء الشدة فى آية طه - لا يضل من حيث العبادة، ولا يشقي أى لا يعاني ويتعب فى التعامل مع قوانين الطبيعة المادية، مشيرا الى مرحلة أعلى فى إتباع الهدي فيما يخص عالم الغيب والشهادة معا!

من هذا يمكننا القول ان من الناس من تَبِعَ هدي الله فى امر العبادات فقط وهولاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ولكن ربما يشقون فى هذه الدنيا، اما من اتَّبَعَ هداه فى امر الدين وهداه فى فهم قوانين الكون التى سخرها الله للانسان فلن يضلوا فى هذه الدنيا من حيث العبادة وسيكون لهم فيها ايضا رغد العيش من غير شقاء.

بعد ان اجتباه ربه تمت التوبة وغُفر الذنب، ولكن لمَّا كان الانسانُ اصلا قد خُلِق ليكون خليفة الله فى الارض فما كان هناك بدٌ من الهبوط الجماعي!

الهبوط الجماعى الأخيـر:

وقع الانسان فى شرك الشيطان وانكشفت سوآتهما، اعترفوا بذنبهم و استوفوا شروط التوبة ثم دعوا الله ان يغفرلهم:

{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا **أَنْفُسَنَا** وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 22 الاعراف!

مما لا شك فيه ان لغة الاعتذار هنا كانت لغة جماعية من ذكور واناث آدم! فلو كان شخصا واحدا لقال: " ظلمت نفسي" ولو كانا اثنين لقالا:" ظلمنا نفسينا" لكنهما قالا، يعنى مجموعتي الذكران والاناث الذين ارتكبوا المعصية: " ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا"! ولا يعقل ابدا ان الجمع هنا يشمل آدم وزوجه وابليس كما هو الفهم العام للآية! لفظ الجمع يشير لعدد الانفس من جنس آدم التى ظلمت وطلبت العفو ولا يعلم عددها الا الله تعالى !

يوم عرفات ذلك اليوم الذى ينزل الله تعالى فيه الى السماء الدنيا ليغفر لعباده ويباهي بهم الملائكة وهم فى أسوأ حالاتهم ضيقا وارهاقا واتساخا......هذا الموقف لا بد وان فيه سرٌ كبير جدا اذ انه ينقل الانسان نقلة بعيدة الى الحالة البدائية مهما تطور ومهما امتلك من نعم الدنيا وزينتها، ورغم ذلك يقرِّب الانسان الى الله تعالى اكثر من أى يوم آخر فى أى مكان آخر!

المعروف ان اهم حدث فى يوم عرفات هو الوقوف فترة من الزمن بعد الزوال أى العصر، والاستمرار الى ان يسجي الليل من ذلك اليوم ليبدأ الناس فى الهبوط والافاضة من عرفات، ويشترط عليهم الهدوء والسكينة الشديدة فى هبوطهم، وكأنهم يودون الرجوع اليه وليس الخلاص من ذلك الزحام والغبار، كما فى وصف هبوط النبي صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فى حديث جابر بن عبد الله {...ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شنق القصواء الزمام حتى رأسها لتصيب مورك رجله ويقول بيده اليمني :ايها الناس السكينة السكينة ... وكلما أتى جبلا من الجبال أرخي قليلا حتى تصعد حتى أتى المزدلفة....}! فما الحكمة من كل ذلك الحدث الغريب وما الحكمة من الهبوط بسكينة وهدوء كاد ان يشنق ناقة النبي "القصواء" كما فى الحديث؟ فعند اداءنا لعبادة الحج فنحن نعلم اننا نمشى على خطي الحبيب محمد كما مشى فى حجة الوداع، ولكن على خطي من كان الحبيبُ محمداً يمشي ويسنَّ للناس الهبوط من عرفات بسكينة؟ تلك السنة التى ستمضي الى يوم القيامة سواء ان عرف الناس ذلك السر ام لم يعرفوه ؟!

ايكون هبوط الحجيج من عرفات هو تمثيل وتكرار لذلك الحدث الهام واللحظة الفاصلة فى تاريخ الانسانية وعلاقتها بخالقها؟ فبعد ان تاب الله عليهم وهم فى الجنة التى أووا اليها اول مرة، صدر اليهم الامر بالهبوط الجماعي منها بنص هذه الآيات:

{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} ... 123 طه

{قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا} .....38 البقرة

{قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} 24 الاعراف

"هبط" فى اللغة كلمة تدل على الانحدار كما فى معجم مقاييس اللغة، وقد وردت فى القرآن فى مواقع مختلفة كلها تدل على الهبوط من مكانٍ مرتفع فى الارض الى آخر منخفض:

{....وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ....} 74 البقرة!

{قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ...} 48 هود!

{...اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ...} 61 البقرة!

اذاً فليس هناك رابطٌ على الاطلاق بين كلمة "الهبوط" فى قصة آدم واي من جنات الله فى السماء! فضلا عن ان الانسان لو كان فى جنة السماء فلن يهبط لوحده، وانما لابد ان يحمله الله الى كوكب الارض بطريقة خارقة يعبر بها حواجز الكون المختلفة التى نعرفها الآن والتي يستحيل معها اختراق الانسان من السماء الى الارض لوحده، وهذه حقيقة لم تكن معلومة للمفسرين القدامي ولكن لا يقبلها العقل الآن، علما بان القرآن اصلا لم يصف وسيلة خارقة لنقل آدم للارض! الامر لآدم بالهبوط هنا يدل على أن آدم كان قادرا على الهبوط بارادته الحرة ولا يحتاج لبراق يحمله فى الفضاء من جنة فى السماء الى كوكب الارض! اللفظ لا يدل الا على ان الجنة أو الغابة كانت فى منطقة مرتفعة "جبل" على الارض، وعندما عاقبهم الله أمرهم بالخروج من الجنة واصفا اتجاه الخروج من ناحية الجبل الى الوادى المنحدر!

الملاحظ ايضا ان صيغة الامر هنا تكررت بلفظ الجمع فى كل الآيات مع الاحتفاظ بالمثني الذى يفيد "المؤنث والمذكر" كمافي آية سورة طه اعلاه! اهبطا " الذكر والانثى" جميعا "كل المجموعة "، اذ لا يستقيم ان يوصف شخصين فقط بـ "جميعا" بل كان الأنسب ان يقال "كليكما" او شئ من هذا القبيل لو كان المخاطب هما نبي الله آدم وزوجته حواء والله اعلم!

ويستمر التركيز على لفظ الجمع، فيخبرهم الله بعداوتهم بعضهم لبعض! و لا يستقيم فى اللغة ايضا ان يكون الخطاب موجهاً لشخصين فقط ثم يقسمهما الله تعالى الى مجموعتين بعضهم يعادي بعضا، اذ ان "التبعيض" يعنى جزء من الكل وليس الكل! لا يستقيم لغةً ايضا ان يكون المقصود هو ان بعضاً من "آدم" اصبح عدوا لبعضٍ من "حواء" بإفتراض ان المخاطَبَيْن هنا هما آدم وحواء! هذا بالاضافة الى ان لفظ التبعيض لا يعنى ان بعضهم اصبح عدوا لبعضٍ فقط، وإنما تعنى ايضا ان بعضهم لم يكن عدوا لبعض! فكم اذاً كان عدد آدم وزوجه لحظة الهبوط من جبل عرفات؟ ان هذه الآيات لا تدع مجالا للشك فى انَّ آدم المخاطب هنا ليس الا اسم جنس "آدم" الذى طوره الله الى انسان عاقل ذكرانا واناثا وليس شخصا واحداً وزوجته!

يلتبس على كثيرٍ من الناس ان الخطاب هنا موجه لآدم وحواء وابليس، أى ثلاثتهم ولكن فى هذا الفهم خلل من عدة وجوه:

الاول: ان ابليس كان قد طُرد من رحمة الله يوم رفض السجود لآدم، قبل ان يسكن آدم الجنة و يرتكب المعصية، وبالتالي فان العقاب هنا لا يشمله ويؤكد ذلك قوله تعالى:

{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13)} الاعراف

الهبوط هنا تفيد التحقير والهبوط من مرتبة التكريم الوضيعة التى كان فيها الى ما هو ادنى منها، اما الخروج فهو خروج وطرد من رحمة الله:

{قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ}18-19 الاعراف!

اما آدم فقد سكن الجنة بعد ان طُرد ابليس من رحمة الله!

الثانى: ان ابليس اصلا ما امر بان يسكن الجنة ولا ان يجتنب الشجرة، وان باب التوبة قد قفل امامه الى يوم القيامة بعد ان طُرد من رحمة الله! ابليس اختار ان يكون عدوا لآدم وسيكون حيث كان آدم من غير توجيه او امر من الله! فاذا سكن آدم الجنة تبعه ابليس وحينما هبط منها هبط ابليس من غير امر! اذاً فخطاب السكن كان موجهاً لآدم وحده " ذكرانا واناثا" ومن ثمَّ كان خطاب الهبوط ايضا!

الثالث: ان ابليس عدو لكل الناس ولا يمكن ان يدخل فى معادلة التبعيض! فالذين يتبعون ابليس انما يخدعهم ولكنه يظل عدوا لهم جميعا {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ...} 117 طه، والذين يجتنبوه يظل ايضا عدوا لهم يبذل كل جهده ليزلقهم متى ما وجد فرصة لذلك! اما {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} فتشير الى العداوات التى ستحدث فى الارض بين جنس آدم انفسهم كما اسلفنا والله اعلم!

الرابع: ان السكن فى الجنة و عدم الاقتراب من الشجرة ثم الهبوط من الجنة كل تلك كانت بداية التشريع الاسلامي لآدم والطاعة للاوامر واجتناب النواهي التى كانت تمثل اولى عباداته، اما ابليس اصلا فقد تكبر وكفر وطرد من رحمة الله وسبق عليه الكتاب وبالتالي لم يكن معنيا باي تشريع او اختبار!

الخامس: ان الانسان حينما يرتكب معصية، فان الله يحذره من تكرار اتباع الشيطان، ولا يعقل ان يأمره الله ان يأخذ الشيطان معه فى الخروج من موقع المعصية!

اذاً فلفظ الجمع فى الامر بالهبوط انما هو دليل اضافي على ان المخاطب هنا جمهرة آدم ذكورا و إناثا، هبطوا من جنة مرتفعة عند حافة الجبل من الناحية المنحدرة الى الوادى فى انكسارٍ واسفٍ وندم، لا يغطي سوءاتهما التى بدت لهما الا اوراق الجنة، ليواجهوا مصيرا مجهولا وعالما مرعبا عركوه يوم كانوا جزءً منه قبل ان يُرفعوا الى مستوي الانسان العاقل ويسكنوا الجنة، ويعودون اليه اليوم اشد خوفا ورعبا من أخطاره وشقاءه وتحدياته التى يفهمونها الآن اكثر لما اوتوه من عقل وقدرة على فهم الامور!

المـزدلفـة:

نحن لا ندري الهيئة التى هبطوا فيها الى الارض، ولكنَّ كلمات القرآن الساحرة احيانا ترسم لوحةً مجسمةً بل وفيلماً سينمائي يجعل من الخيال صورة واقعية مرئية للقارئ. ولو حاولنا التمعن فى وصف لحظة المواجهة مع الله والامر بالخروج لامكننا ان نتخيل هيئتهم فى تلك اللحظة الرهيبة من تاريخ البشر. اهمية فهم "لغة الغراب" تأتي فى مثل هذه القَصَص من قصص القرآن اذ ان الآيات تسرد لنا احداثا كثيرة بكلماتٍ قليلة جدا تأخذ معانٍ اوسع وصورة ابلغ اذا تدبرناها وتخيلنا ما كان يجري اكثر من ان نصفها بكلمات فلسفية!

لو اردنا ان نطبق ابسط ابجديات علم النفس لنتخيل كيف كانت حالتهم وماذا كان يدور فى خلدهم سنكون واقعيين اذا افترضنا انهم كانوا يدعون ويستغفرون بالحاح وبكاء وكلهم امل ان لا يخرجهم الله من الجنة..... ولعل بكاءهم وعويلهم ودعاءهم واضطرابهم كان طويلا جدا و ربما استمر بعضا من نهار على سفح الجبل لا يتوقفون عن البكاء والدعاء بالحاح ولا يتوقفون عن التقاط الورق الذى يتساقط فيرفعونه وهكذا الى ان دنت الشمس نحو الغروب ثم غابت فانتظروا حتى سجى الليل فغاب معه الامل فى البقاء فى الجنة تماما، ونزل ربهم الى السماء الدنيا ليقبل توبتهم، وصدر اليهم الوعد بالعفو ولكن لا مبدل لكلمات الله، اذ انهم انما طوروا لانسان عاقل ليشغروا منصب خليفة الله فى الارض، وما كان السكن فى الجنة الا مرحلة انتقالية فى حياتهم، وقد حان وقت الهبوط اليها فصدر اليهم الامر بالهبوط جميعاً الى ارضٍ ذات اهوالٍ ومحن، وامامهم وعدٌ ثقيل بأنَّ لهم فيها مستقرٌ ومتاعٌ الى حين، وانهم فِيهَا سيَحْيَوْنَ وَفِيهَا سيَمُوتُونَ وَمِنْهَا يُخْرَجُونَ تارةً اخرى، ويا له من مصيرٍ مرعب ينتظرهم بعد ان كان املهم ان ينالوا الخلود وملك لا يبلي!

ومما لا شك فيه ان الانسان لا ينقطع رجاؤه فى الله واغلب الظن انهم بعد غروب الشمس بدءوا الهبوط بسكينة وهدوء وانكسار، يقدمون رجلا ويؤخرون اخرى، كالطفل الذى يطرده ابوه من البيت فيتردد فى الخروج على امل ان يناديه ليرجع ...وتراخوا فى الهبوط بسكينة ووقار ولكن كان الامر الاخير واضحا وصريحا يتردد صداه المرعب بين جبال مكة التى هبطوا الى وديانها ..اهبطوا منها جميعا...فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون...انه شعور مرير كشعور انسان حكم عليه بالاعدام يوم ميلاده وهو عاقل يفهم ماذا تعنى هذه الكلمات.. ولا شك ان خوفهم من هذا المخلوق الذى ما عرفوه من قبل قد زاد من رعبهم وهم يهبطون وربما كان واضحاً مرئياً لهم يهبط معهم خطوة بخطوة...وفي خلده منزلقات اخرى ينوي ان يزلقهم فيها وفي خلدهم لا شيئ الا الرعب لأنهم لا يعرفون كيف يواجهون هذا العدو غير المادي الذى تسبب لهم فى اول كارثة ويا لها من كارثة.....وهبطوا نحو المصير المرعب منهكين منهزمين تائبين نادمين يخيم عليهم

الوجوم والصمت الرهيب بعد ما لم يُجْدِ الدعاءُ ولم يحقق لهم امل العودة الى الجنة وان كان الله قد سامحهم على معصيتهم تلك وتاب عليهم!

فلو تصورنا اجسادهم السمراء يخالطها ورق الجنة الابيض كالخصيف وهم هابطين بكل بطء، لما وجدنا اسماً افضل ليسمي به الوادى الذى هبطوا اليه من جنة المأوى فى عرفات من اسم المزدلفة! فالدليف فى اللغة هو المشي الرويد فى رفق وبطء، والمزدلفة هم القوم الذين يمشون فى بطء شديد، وهكذا هبطوا ليلا الى وادى المزدلفة الذى يحمل الى اليوم وصفا لحالة اول جمهرة من الانس هبطت عليه اول مرة، والتحفوا العراء باجسادهم السمراء يغطيها ورق الجنة الابيض كالخصيف!

نحن نظن ان اسم المزدلفة ليس الا ابتكارٌ قرآني نتج من الجمع بين **"دلف"** وتعني المشي ببطء، و **"زلف"** وتعني الاقتراب، اذ ان بعض المفسرين يرون ان المزدلفة سمي كذلك لان الحاج فيه يقترب من مكة، ولكن التصريف اللغوي لا يقبل ان يكون لفظ المزدلفة على وزن مفتعلة من زلف فقط، فضلا عن ان المزدلفة الذى دلف اليه آدم اولاً اقرب الى عرفات من مكة، حيث يوجد وادى منى بين المزدلفة ومكة!

من الناحية الروحية فان المفهوم انه لما هبطوا كان الله قد غفر لهم ذنبهم فهبطوا كيوم خلقوا لا ذنب لهم، وهذا ما يفسر لنا انَّ يوم عرفات تُغفر فيه كل الذنوب كما غُفرت لآبائنا من قبل! ولكن قد يقول قائل ان آدم غفرت له معصية واحدة فقط فما علاقة ذلك بغفران الذنوب جميعا كما هو الحال فى يوم عرفات؟

من المعروف لغة وشرعا ان الاسلام هو دين الله الوحيد كما قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...} 19 آل عمران، فهو دين كل الكون بما فى ذلك السموات والارض:{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} 11 فصلت! والمعروف ايضا ان الله قد جعل لكل امة شرعة ومنهاجا {..لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا..} 48 المائدة! هذا المنهاج هو الذى تُسلم به كل امة الى الله، الى ان اكتمل التشريع الاسلامي فى وادى عرفات فى حجة الوداع يوم انزل الله على النبي الخاتم آخر آية اشتملت على حلالٍ وحرام {..الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا..} 3 المائدة! ولنا هنا ان نسأل ماذا كان قد صدر من التشريع الاسلامي لآدم منذا ان اصبح مكلفا حتى اللحظة التى عصي فيها ربه؟ الاجابة بسيطة وهي ان الله ما نهي آدم بعد عن شئ الا الإقتراب من تلك الشجرة! ولما كان آدم قد إقترب منها فهو يكون بذلك قد عصي الله تعالى فى كل ما نهاه عنه! بمعني آخر فالانسان الذى يعصي امراً واحدا من عشرة اوامر يكون قد عصي فى عُشْرِ دينه، والذي عصي فى أمرٍ واحدٍ هو كل دينه فقد عصي الله فى كل الدين، وهكذا كان حجم معصية

آدم! ولأن الله كان قد غفر له فى لحظة التوبة والبكاء والاستغفار، فانه بذلك يكون قد غفر له كل ذنوبه حتى الآن! وهكذا نزل آدم من جنة عرفات الى وادى المزدلفة وقد غفرت له جميع ذنوبه بعد ان تلقى من ربه كلمات فتاب عليه.. غُفرت له كل ذنوبه فعاد كيوم خُلق وكيوم ولدته امه، اذ ان آدم ولا شك كان يوما صبيا وكان يوماً وليدا رضيعا قبل التطور...، وهكذا جرت سنة الله فى بنى آدم الذين يقفون ذات الموقف فيغفر الله لهم كل ذنوبهم فى يوم عرفات كيوم ولدتهم امهاتهم!

وهنا لا بد ان نُذكّر بامرٍ ما زال مرتبطا بالوقوف بعرفة لكنه حتما سيحمل مدلولا جديدا اليوم! المعروف ان النبي صلى اله عليه وسلم وصف ان الله ينزل الى السماء الدنيا فى عصر عرفات فيباهي بعباده الملائكة اذ انهم اتوه طائعين مستغفرين وتائبين! هذه المباهاة مرتبطة باستفسار الملائكة يوم قال لهم الله انه جاعل فى الأرض خليفة فاستغربوا ان يجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، فعلّم آدم الاسماء كلها وجعله يرد على الملائكة حينها، وقال لهم ألم اقل لكم انى اعلم غيب السموات والارض! واستمرت مباهات الله للملائكة بجنس آدم الى يوم القيامة فى ذات الموقع والعيد الذى تاب فيه الله على آباءهم! فهاهم آدمُ، الجنس الملائم للتغيير، وبعد آلاف السنين يعودون الى ذات المكان ليُحيوا ذكري وقوف آباءهم فى ذات الموقع تائبين مستغفرين من كل ذنوبهم يرددون ذات الدعاء "رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"! اذاً فكل العبادات ترتبط بمنطق وواقع وتاريخ ذو معانٍ عميقة، وعبادة الحج ترتبط بمعانٍ تهمُّ البشرية جمعاء مسلمهم وكافرهم لانها تحكي قصة آباء الانسانية وليس المسلمين!

ولما كان كل شئ من صنع الله الذى احسن كل شئ خلقه، فقد شاء الله ان يكون اول تشريع للانسان قد تم فى هذا المكان يوم أمَر آدم وزوجه ان يسكن الجنة ولا يقرب الشجرة، فعصي آدم ربه فهبط منها ثم بعث الله انبياء ورسلا وأنزل كتبا، ولمَّا اكتمل مسلسل الرسالات السماوية واتم الله نعمته على الناس ورضي لهم الاسلام دينا، خطي سيد الخلق و خاتم الانبياء والمرسلين آخر خطواته فى هذا الوادى فى حجة الوداع لتنزل عليه آخر آيات التشريع الاسلامي فى ذات المكان والزمان الذى صدر فيه اول تشريع اسلامي لاول انسان عاقل...فالبداية الرهيبة كانت هنا وهنا كانت النهاية المهيبة ايضا ... هنا كان اول عهد السماء بالارض حينما صدر الخطاب الى اقل البشر تطورا وهنا كان الختام ايضا حينما نزلت آخر آيات القرآن على أرقى البشر تطورا....الحبيب محمدا، ليكون الحج شاهدا على تاريخ البشر وحجة على الانسانية جمعاء!

اذاً فدين آدم حينما هبط من عرفات ما اشتمل الا على امرٍ ونهيٍ ثم تاب الله عليه! فيما عدا ذلك فدين آدم لم يحتوي بعد على أى احكام تنظم حياته او تهذب هيئته كما هو حال الاسلام بعد ان اكتمل فى حجة الوداع! واغلب الظن ان مجموعة آدم حينها كانت لا تزال فى هيئتها البدائية و كانت شعورهم طويلة واظافرهم متسخة ولا يميزهم عن الحيوانات فى الوادى الا بعض ورق

الجنة البيضاء تغطي اجزاءً من اجسادهم السمراء كالخصيف، وربما بدأ بعضها يتساقط من شدة الاعياء والهموم وانكشفت سوآت بعضهم ولكن لا ساتر لهم الا تلك الاوراق، تختلط باجسادهم السمراء كالخصيف و تنزلق فيرفعونها فتنزلق و يرفعونها "طفقا"، وما ابدع وصف البديع الذى ابدع صنع السموات والارض وخلق الانسان ثم طوره وانزل القرآن يصف لنا فيه ما كان من امر آباءنا فى غابر الزمان وفرض علينا عبادة تجعلنا نتقمص هيئتهم و نمشى على خطاهم فى ذات المكان الى آخر الزمان!

ولعل هذا المشهد الذى يصوره صياغ الآيات ومحاولتنا لتصور هيبة الحدث يبعث بصيصا من نور لاضافة ابعادٍ جديدة لبعض آيات القرآن الغامضة التى ما اتفق الناس على معنى محدد قاطع لها والتي تحمل حجما كبيرا فى العبادة والتقرب الى الله !

قَسمُ الله بظهور الإنسان العاقل:

من المعلوم من الدين بالضرورة ان الله تعالى لا يحتاج لأن يقسم لنا اذا اراد اخبارنا بأي شئ، ولكن القرآن اشتمل على مواقع كثيرة يقسم الله فيها ببعض مخلوقاته العظيمة، الامر الذى يدعونا للتفكر فى عظمة المقسم به اذ ان القسم لا يدل الا على عظمة المقسم به! والمخلوق لا يجوز له الا ان يقسم بالخالق، ولكن الخالق ينتقي من مخلوقاته العظيمة ما يقسم به ليس لانه يحتاج لذلك ولكن لان فى القسم دائما سر يرتبط بالمقسم عليه مما يدلل على عظمة الله، ومهما حاولنا ان نفهم عظمة ذلك الامر فالله وحده هو الذى يعلم السر من وراء صياغة القسم!

لنقرأ سورة العصر مثلا وهي من قصار السور التى سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا ان نتلوها قبل ان نفض أى مجلس لانها تمحو الذنوب التى نغترفها فى لغونا وان حرصنا:

{وَالْعَصْرِ*إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ*إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}

"العصر" لها اربع معانٍ: فهو الزمان المطلق كالدهر. والعصر ايضا تعنى ضغط الشئ حتى يتحلب ومنها "العصير الذى نشربه من الفواكه"، والناس يتعاصرون فى الزحام. وثالثا تعنى التعلق بالشئ والإمتساك به ورابعا فهى موعد صلاة العصر! والإستعمال الغالب لها فى الاسلام ارتبط بفترة ما بعد زوال الشمس وهي فترة صلاة العصر، وهي من اخطر الصلوات التى لا يقبل ادخالها فيما بعدها! فقد وصي الرسول صلى الله عليه وسلم على الحرص على صلاة الفجر والعصر، على ان الفجر يرتبط بالإستيقاظ لان القلم رفع عن النائم حتى يستيقظ، ولكن العصر يبقي لا عذر ابدا فى إهماله وتأخيره! على ان هذا الفهم لم يكن ذا معنى قبل ان تفرض صلاة

العصر اصلا، وبالتالي فان كلمة العصر فى هذه السورة تظل تحمل مدلولها اللغوي اكثر من ارتباطها الّلاحق بصلاة العصر!
"خسر" فى اللغة تعنى النقصان، ويقال خسرت الميزان يعنى انقصته كما فى فى المعجم! وهي مشابهة لكلمة **غرور** كما رأينا حينما ناقشنا **"**فدلاهما بغرور**"** وكان احد معانيها نقصان فى الوعد، اذ ان الشيطان وعدهم الخلود والله كتب عليهم الموت فكان وعد الشيطان ناقصا!
فهل يقسم الله تعالى هنا بوقت العصر أى بعد الزوال، وهو وقت الركن الاهم فى الحج وهو الوقوف بعرفة بعد الزوال الى جزء من الليل؟ اذا كان هذا هو "العصر" الذى يقسم به الله تعالى فباقي المعاني تستقيم ويمكن ان نتخيل معنى السورة كما يلى:
اقسم بالعصر الذى وقف فيه الانسان فى الجنة نادما، وربما اقسم باللحظة التى تعاصرت فيها الإنسانية فى الجنة سائلة الغفران بعد ان ظنوا انهم بعصيانهم لي سينالوا الخلود، ان الانسان الى يوم القيامة فى نقصان متعة واحلام لان الموت هادم الملزات قدرٌ لا يتغير وما كان وعد الشيطان لهم بالخلود الا وعدا ناقصا. على ان الطريق الى الخلود فقط للذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر!
ما نرمي اليه هنا ليس الربط بين القسم وقصة خسران الإنسان فهذا امر معلوم، ولكن بين فترة الزوال "العصر" التى يتعاصر فيها الحجيج فى عرفات كأهم ركن من اركان الحج، وهي لحظة فراق عرفات التى تسبق الهبوط، وبين اختيار كلمة "العصر" بكل معانيها للقسم! فكأنما الانسان الاول وقف تلك الوقفة يعصر بعضهم بعضا وهو يدعو الله ان يغفر له قبل ان يهبط منها بعد ان سجى الليل! وكأنَّ الله يُذكّرنا بهذه السورة التى تحدث السلف كثيرا عن قيمتها واهميتها فى الاستغفار، بقصة الاستغفار الاول فى عصر عرفات! وكأن الله يذكرنا بالمغفرة الأولى وليس الخطيئة الأولى اذ ان غفرانه اوسع من معاصينا. توبة الانسان الاول فى عصر عرفات وهبوطه الى الارض كانت لحظة رهيبة فى تاريخ الانسانية بل وكل مخلوقات الارض اذ انها كانت بداية نفوذ سلطان خليفة الله على مخلوقاتها وقوانينها بعد ان سجدت له الملائكة، فلا غرابة اذاً ان يقسم الله بتلك اللحظة الرهيبة! ولا بد ان نتدبر فى حكمة السنة من تلاوة هذه السورة حينما يهم مسلمان بالافتراق، وكأنّها تحكي قصة الفراق الاول الرهيب للجنة بعد عصر عرفات!
فاذا قبلنا هذه المعاني الاضافية لسورة العصر، فيمكننا ان نفسر سورة الضحى ايضا على هذا المنوال. سورة الضحى نزلت بعد اسابيع من انقطاع الوحي عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى بداية عهده بالوحي. وقد عرف عن النبي انه اصيب بالقلق وظن ان ربه غضب عليه علما بان قريش بدأت تسخر منه مما زاد شعوره بالحرج والحيرة من غياب الوحي! التوقيت الذى نزلت فيه السورة يدل على ان النبي كان احوج ما يكون الى لمسة حنان رقيقة تثبته وتطمئنه انه خير

الخلق وخاتم الانبياء والمرسلين، فكان مضمون السورة منسجما مع تاريخ الانسانية جمعاء وكأن سورة الضحى بهذه المحتويات جاءت لتذكره ان نبوءته ما هى الا امتدادٌ لعهدٍ بين الله والانسانية قديمٌ قِدَم الانسان نفسه:

{وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى*وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى*وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى*أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى*وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى*وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى*فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ*وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ*وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}

"الضحى" تعنى الظهور والبروز وما سمي ضحاء النهار بهذا الاسم الا لان الشمس تبرز فيه، ولكن الكلمة لا علاقة لها بالنهار نفسه. والليل اذا سجى يعنى اذا ادلهم وسكن. قلي تعنى بغض وجفي!

فهل يشير قسم الله هنا ايضا وفي ذلك الظرف الخاص جدا الذى كان النبي يتسائل فيه عن علاقة الله به، الى قضية الانسان الاول الأبدية ولحظة ان ضحي وبرز على الارض هابطا من الجنة بعد ان انتهي عصر عرفات وادلهم الليل! وهل يقسم الله تعالى هنا بلحظة بروز وضحاء الانسانية على الارض بعد ان سجى الليل ويذكرنا ان ذلك لم يكن الوداع الاخير، وان لقاء الآخرة خير ودائم، وان رب الانسان سيعطيه الكثير فى الايام والسنين والقرون والالفيات القادمة على امتداد عمر الانسانية فى الارض؟ وهل كانت مناسبة نزول السورة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد ان انقطع الوحي أسابيع عددا، ان الله اراد ان يخبره ان قضيته معه ليست قضية شخصية وانما هى امتداد لقضية الانسان منذ ان ضحي على الارض بعد ان سجى الليل من يوم عرفات؟

ان كان هذا المعنى مقبولا فانه من الطبيعي ان السورة التى نزلت بعد سورة الضحى هى سورة المزمل التى مهَّد الله تعالى فيها فِكْر النبي الى تلقى قولا ثقيلا استمر نزوله ثلاثة وعشرين عاما، قصَّ للإنسانية فيه كل ما يمكنهم استيعابه من قضايا الكون والخلق والخالقْ فى عالم الغيب والشهادة، وامر النبي ومن بعده المسلمين أنَّ هذا القول الثقيل يتطلب ترتيل القرآن ترتيلا:

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ* قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا* نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا*إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} 1-5المزمل!

رتل: بسكون التاء تعنى المتشابه والمتناسق من الاشياء كما ورد فى معجم لسان العرب. وترتيل الكلام ربما تعنى قراءة المتشابه منه لفظا او معنى مع بعضه البعض حتى تتكامل المعاني ويفسر بعضه بعضا! الترتيل يختلف من التلاوة، اذ انه يعنى جمع الأرتال المتشابهة معا بينما التلاوة تعنى ان يتغني القارئ بالآيات كل آية تلو الاخري! وقد اختلف المفسرون فى تعريف القول الثقيل واتجهت معظم الآراء الى كونه امر العبادة من صيام وصلاة وطاعات، ولكنا نظن ان العبادات لا تكون ثقيلة الا على المنافق، وقد كان النبي يقول لبلالٍ حينما يحين وقت الصلاة

"ارحنا بها يا بلال" مما يدل على انها تريح المؤمنين، وايضا فان المسلمين يتوحشون رمضان فى ايامه الاخيرة مما يدل على حبهم له وراحتهم فيه! القول الثقيل الذى ينتج من ترتيل القرآن هوكشف اسرار من اسرار الكون تهز الانسان وتخلب عقله، وربما تشكك فى ايمانه ان كان ايمانه قائما على معلومات خاطئة. ونحن نظن ان الكثير مما احتوي عليه كتابنا هذا ليس الا قولاً ثقيلاً على معظم الناس، اذ أنه تاويلٌ جديدٌ لبعض قَصَص القرآن ينزل على الكثيرين نزول الصاعــقة!

ان اضافة هذا الفهم المعقول لسورة الضحى ينقلها من سورة فيها كثير من الغموض كما هو الحال، الى كلمات تهتز بها أركان بكّة وما فيها من "شعائر الله" و أول بيت وضع للناس! كلماتها ربما اهتزت لها قمم الجبال التى هبط منها والوديان التى مشى فيها الانسان الاول قبل آلاف السنين وكأنه يتيم فقد معيله ومعينه وهو يهوى فى البرية بلا حماية او امان! فكأن الله تعالى يقول لمحمدٍ فى تلك اللحظة:

اقسم لك يا محمد وانا الذى لا احتاج لان اقسم! اقسم لك بلحظة ضحاء الانسان الاول بعد ان سجى الليل من يوم عرفات الى وادى المزدلفة وهو يظن انى ودعته وقليته، وان خروجه كان نهاية علاقتى به، وان وداع الجنة كان الوداع الاخير، فشعر بالمرارة كما يشعر اليتيم وهو يفقد عائله وراعيه! اقسم لك يا محمد بتلك اللحظة الرهيبة فى تاريخ الانسان ان اصطفائى لك لتكون رسولى للناس كآفة أمرٌ قديم قدم الإنسانية نفسها وان اختيارى لك يا محمد لتكون خاتم الانبياء والمرسلين انما هو امتدادٌ لوعدى القديم للإنسانية ان لا اتركهم بلا هديً، وأنَّ خروجهم من جنة المأوى ما كان الا لانى اعددت لهم خلودا فى جنات الآخرة خير وابقى! وقد سألونى يومها الغفران فغفرت لهم، وخافوا اليتم فكنت عائلا لهم وآويتهم الى البيت الذى تراه، فهو اول بيت وضع لاؤلئك الناس! وانى يا محمد سأقص عليك وعلي بنى آدم قَصَصَ آباءهم وما كان من حالهم حتى تعرف الإنسانية جمعاء انى اذا وعدت فلا اخلف الميعاد، واذا اردت فليس لامرى راد، فسأل الهضاب التى هبطوا منها والوديان التى ساروا فيها و الجبال التى سعوا بينها والبيت الذى آويتهم اليه! فتلك آثارُهم باقية جعلناها شعائر يحج اليها ابناؤهم الى يوم القيامة وحرمنا عليها الإندثار، وذلك بيتهم الاول شاهدا عليهم والطائفين حوله ليلا ونهار! واني يا محمد افعل ما اريد كيفما اريد ولذلك فكل الذى اوصيك به الآن فى بداية نبوءتك ان تستشعر مرارة اليتم فلا تقهر اليتيم الحزين، وان تستشعر مرارة الحوجة فلا تنهر السائل المسكين، فقد كنت نفسك يتيما فيسرت لك المأوى وانت ضعيف، ووجدتك مع كل الإنسانية تبحث عن هادٍ فهديتُك وهديتُهم بك وانا بالعالمين لطيف، فتذكّر نعمى عليك وحدث بها!

ونحن نشهد يا محمد انه لا الله الا الله وانك يا محمد رسول الله، ونشهد انك قد اديت الامانة وبلغت الرسالة وحفظت القرآن كما نطق به جبريل، ليصلنا كما هو بغموضه ووضوحه وإعجازه، فلا رفعت منصوبا ولا نصبت مرفوعا ولا اضفت رأيك لكلمات الله الخالدات المعجزات كما فعل بنوا اسرائيل فى توراتهم! وإناً يا محمد ونحن نكتشف اليوم فى القرآن وحيا جديدا مذهلا مزلزلا لـَنشهد انه لو أنَّ ما فى الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحرٍ ما نفدت كلمات الله، وانه لو كان البحر مدادا لكلمات ربنا التى جئت بها يا محمد لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربنا ولو جئنا بمثله مددا...! وانًا لنشهد يا محمد انك علمت الناس تفاصيل الحج من سنن واركان كما امرك الله، ليكون الحج حجة على الانسان وامتدادا لإعجاز القرآن على مر الزمان، والا لما فهمنا لم فرضت عليهم الإحرام قطعتين بيض تنزلقان وتنزلقان وتنزلقان! ونحن الحجيج لا ندرى اننا حينما نمشى على خطى الحبيب محمد انما نمشى على خطى آباءنا ونتشبه بهم حينما طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وما زالا يخصفان! ولو انك يا محمد اندفعت من عرفات الى المزدلفة كما يفعل الناس اليوم جهلا منهم لما فهمنا كيف ولماذا دلف الانسان الاول فى هذا الوادى.....فعلي خطاهم كنت تمشي يا محمد وعلي خطاك وخطاهم تمشي الإنسانية الى يوم القيامة وهي لا تدرى انها انما تمشى فى ارض آباءهم وان حجهم انما هو استرجاع لقصة خلق وتطور الانسان فى هذه البقاع المقدسة! ما اعظم دينك يا محمد وما اعظم القرآن الذى جئت به!

وانا لنعلم يا محمد ان الإنسانية اليوم فى مشارق الارض و مغاربها التى بارك الله فيها لا تنتظر خبرا اعظم من هذا الخبر ولا تحلم بنبأ اعظم من نبأ اكتشاف اصل الانسان وموقع خلقه وتطوره واول بيت اوى اليه....

لقد اجمع الناس يا محمد فى بدء الالفية ان الخالدين مئة اولهم محمد نبي الاسلام، فكيف بهم لو عرفوا انك رسولٌ الى الانسانية كلها ووريث آباءهم وانك يا محمد من كشف للناس اصل الخلق وارض التطور واول بيت اوى اليه الانسان..

فيا فخر من يمشى على خطى الحبيب محمدٍ فى سيرته ويا فخر من يمشى على خطى الحبيب محمدٍ وهو يعلم انه انما يمشى على خطى الانسان الاول، يا فخر من طار بخياله الى تلك البقاع المقدسة واستنشق من عبير التاريخ منذ ان خطى الانسان الاول عليها ...ويا فخر من رتل القرآن ترتيلا ليرى من آيات ربه آيات كبرى ويتلقى من ربه قولا ثقيلا، ويا فخر من وقف فى وادى عرفات حيث بدأ تكليف الانسان ثم دلف الى وادى المزدلفة ليجمع جمرات المصابيح المنزلة لرجم الشيطان وهو يعلم انه انما يجمع جمرات منزلة من السماء منذ عهد آدم ...يا فخر من رجم الشيطان بوادى منىً حيث نبت الانسان نباتا وسعى ملايين السنين وحيث نفخ الله فيه من روحه

وحيث سجدت الملائكة لآدم وحيث طُرد ابليس من رحمة الله وحيث نزلت الانـعام..يا فخر من فهم ان الحج حجة على عقل الانسان واتبع "ملة ابراهيم" حنيفا وتبع كل النبيين رعاة الاغنام ... يا فخر من فهم قصة نوح والسفينة التى استعصى على نوح فهمها فاختار ان يكون من الجاهلين... يا فخر من ميز بين اهله الذين كانوا اهلاً للصعود معه واهله الذين ما كانوا اهلاً لذلك وإن كانوا اقرب اهله اليه..... يا فخر من استوعب قانون الاصطفاء الرباني فى سفينة نوح فسجد لله شكرا كلما تحسس الكرسي وعرش الرحمان، ثـم رفع بكل كبريـــــاءٍ آذان الانعام!

يا فخر من خطى على خطى اميرة زمانها هاجرٌ فصعد الصفا والمروة وتذكر يوم تلقى آدم من ربه كلمات فكانت له متابا.. يا فخر من تطوف بين الجبلين وهو يذكر آبائه ذهابا وايابا... يا فخر من طاف حول اوَّل بيتٍ وضع للناس ببكة ليكون لأول ناسٍ أمنا، ثم جاء ابراهيم فكان البيت لكل الناس مثابا.... ويا فخر من عرف انه انما يسعى فى وسط الارض وفي مركز تتقاطع فيه اقطار السموات والارض ويتوازن عنده الكون.......!

بعد ان سجى ليل عرفات دلف آدم ذكرانا واناثا ببطئ حتى اضحى فى وادى المزدلفة كأول موقع له على الارض منذ ان طُوِّر الى انسان عاقل، وكان شبه عارٍ لا تستر سوآتهما الا ورق الجنة البيضاء فتبدو اجسادهم السمراء كالخصيف! ولأنَّ الانسان العاقل كان قد هبط الى الارض اول مرة ليلا، فقد بدأ الزمان فى مفهومه ليلا، ولذلك فالليل سابق النهار فى كل الديانات السماوية، فضلا عن انَّ الله اصلاً قد خلق الظل اولا ثم جعل الشمس عليه دليلا! و لأنَّ اليوم الذى يأتى بعد هذه الليلة هو اول يومٍ يضحي فيه الانسان العاقل فى الارض فقد كان ذلك اليوم هو يوم عيد الاضحى، ولأنِّ من ضحى على الارض فى ذاك اليوم هم آباء الناس جميعا فهو اجدر ان نعتبره عيد الانسانية جمعاء!

ولأنَّ الله اصلا ما وجد لآدم عزما فى مواجهة الجن بالقوة الروحية فكان لابد لآدم ان يتعلم بلغة الغراب فقط كيف يواجه الشيطان فى يوم عيد الانسانية كما سنرى! ولأنَّ ابليس كان وما زال باراً بقسمه: {ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} 17 الاعراف، فكان لا بد لآدم ان يحمل بيديه سلاحا فتاكا يرجم به الجن الى ان تتعلم ذريته الاستعاذة بلغة الهدهد!

ولأنَّ إبليس كان من الجن فلنستمع لشهادة الجن فيما جرى، ولأنَّ الجنَّ سكنت الارض والسماء زمنا قبل الانسان فلنَدَع الجنَّ تحدثنا كيف تطورت الاحداث فى عالمهم بين الكواكب و النجوم و شهب السماء التى تهوى وكيف تطور قانون الكون نفسه بعد ان برز وضحى خليفة الله ليفرض سلطانه على الارض برا وبحرا وجوا!

الجنُّ امرها غريب، فقد سكنت الارض قبل الانسان وعاصرت كل الرسالات وقصص النبيين الى النبي الخاتم، ولكن ومن عجبٍ فانَّ الجنَّ الذين سمعوا بالقرآن اول مرة من فم الحبيب محمد تحت الشجرة فروا الى قومهم منذرين فقالوا يا قومنا انَّا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احد ....و قالوا انهم سمعوا كتابا أنزل من بعد موسى، فهل غاب عليهم ان القرآن إنما أنزل من بعد عيسى ام ان فى قولهم سرٌ جديد لا يمكننا فهمه الا من عالم الجن.....!
لنرى كيف كان اللقاء الثانى بين الانسان العاقل وشيطان الجنِّ فى يوم عيدالاضحى الاول............**عيد الإنســانــية !**

البـــــاب السـادس

عيـدُ الإنسـانـيـة

الذين يهاجرون من بلادهم الى بلاد غريبة من غير أمل فى العودة، يعرفون كم هو مرير شعور الإنسان حينما يحط فى دارٍ غير داره وعالم غير عالمه، تحاصره ظروف لا يكاد يفهمها وتخفى له ألايام أقداراً لا يستطع أن يتكهن بها، وفوق ذلك فطريق العودة قد قطع، وليس أمامه إلا التعامل مع الواقع الجديد مهما كان مرعبا ومريرا.

اليوم الذى هبطت فيه مجموعة آدم من جنة عرفات الى وادى المزدلفة هو أول يوم يظهر ويبرز فيه ٱلإنسان العاقل على الارض ليمارس سلطاته عليها، ويصير خليفة لله فيها كما أراد الله له أن يكون. هبوطه كان بعد أن سجى الليل، ولكن كما أسلفنا فان الليل سابق النهار فى قانون الكون وشريعة السماء، ولذلك فان هبوطه كان قد تم فى ليلة يتلوها نهارُ يومٍ هو اليوم الأول للإنسان العاقل على الأرض، ومن المنطقي إذا أن نعتبر ذلك اليوم يوم 1-1 من عمر الانسانية. هو اليوم الذى برز وضحي فيه خليفة الله على الارض، ليبدأ رحلته الطويلة للإمساك بزمام الأمور وفرض سلطانه على قوانينها ومخلوقاتها.

وعندما فرض الله فريضة الحج كرُكْنٍ من أركان الاسلام يمارَس الى ان يرث الله الارض وما عليها، جعله مرتبطا زمانا ومكانا بعلامات وآثار خلق وتطور الانسان. وأمَرَ الله رسوله الخاتم صلى الله عليه وسلم أن يجعل هذا اليوم يوم عيد للمسلمين فى مشارق الارض ومغاربها. هذا العيد أخذ اسمه من بروز وانكشاف الإنسان على الارض وهو عيد الاضحى.

"ضحي" فى اللغة تدل على بروز الشئ، والشئ هنا هو الإنسان الأول يوم دلف من جنة عرفات وبرز الى العالم فى وادى المزدلفة، وهذا يفسر لنا لماذا يقع عيد الاضحى فى منتصف شعائر الحج بعد عرفة وقبل رمي الجمرات، إذ أن مراسم الحج شئ والإحتفال بالعيد شئ آخر للذين لا يحضرون الحج. فالحج عبادة اكتملت شعائرها لتعكس معاني كثيرة، من ضمنها المشي على خطى آبائنا الأوائل يوم هبطوا أول مرة، ولكنه أيضا يعكس أحداثاً اخرى وقعت فى عهد إبراهيم وإسماعيل وهاجر الذين اعادوا إحياء الحدث ليكون حجة الله على الانسانية جمعاء كما سنرى.

إن ربط الشيطان قدره بخطي الإنسان أمرٌ يجب أن لا يغيب عن بالنا! فحيثما كان آدم كان الشيطان. ولعل من المنطقي جدا أن يكون إبليس قد خطى مع الإنسان ذات الخطوات، وبدا يحشد جنده من شياطين الجن ليواصل إغواءه للإنسان كما وعد أن يأتينهم عن أيمانهم وعن شماءلهم. وبناءً على ذلك فمن المنطقي جدا أن الله تعالى قد علّم آدم وسيلة لمواجهة الشيطان، تتناسب مع المستوى الفكرى البسيط للإنسان الذى لم يكن له "عزم" حينها بعد، ومع طبيعة الجن نفسه. ولعل من الحكمة هنا أن نستدعي الجنَّ للإدلاء برأيهم فى قضية تطور الإنسان وتطور قوانين الكون،

حتى نستوعب لماذا كانت المناسك التى يؤديها الحاج بعد هبوطه من عرفات هى جمع الجمرات ليلا من المزدلفة ثم رمي الجمرات صباح اليوم التالى فى منى، إذ أن هذه المناسك لابد وأن تكون لها علاقة بصراع شيطان الجن مع الإنسان فى طريقه الى موقع أول بيت وضع لهم كما يبدوا من تتابع مسار الأحداث الجغرافي على أرض مكة.

شـهادة الـجـن:

يوم هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف عائدا الى مكة، كان جسده الطاهر ينزف دما من قسوة ما لاقاه من أهل الطائف، وقد ورد فى الحديث أنه وصف ذلك اليوم بأنه اسوأ أيام حياته. ولعل تراكم الإبتلاءات عليه زاد من الشعور بالمرارة حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وما عاد يستطع أن يتخيل كيف تنتشر الدعوة. فقد ماتت خديجة الفاضلة ومات أبو طالب، وأصبح وحيدا لا يجد من ينصره، وأتباعه من الإنس ضعاف مستضعفون لا حول لهم ولا قوة. وفوق ذلك كله كان النبي قد بعث رسلا الى ستة وعشرين قبيلة فما قبلت دعوته ولا واحدة منهن.
ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال دعاءه المشهور هذا فى طريق عودته من الطائف:
{اللهم إليك اشكو ضعف قوتى، و قلة حيلتى وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، الى من تكلنى: الى بعيد يتجهمنى أم الى عدو ملكته أمري؟ ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى ...} الى آخر الحديث.
ولأن الله تعالى عنده علم الغيب وملك السموات والأرض، فقد كان قد أعد للرسول صلى الله عليه وسلم مفاجأة ما كان له أن يتوقعها، ألا وهي إسلامُ الجن. فبينما كان يتلو القرآن تحت الشجرة استمع اليه سبعة نفر من الجن من أهل نصيبين، كانوا فى طريقهم على غير ميعاد مع النبي، وهكذا دخلت الجنُّ بعلمها فى عالمِ عِلْمِ الانسان، لتضيف الى علمنا فى أمر التطور شيئا ما كان لنا ان نتوصل اليه بالتدبر أو الافتراض:
{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ* قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ*يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ*وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فى الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فى ضَلَالٍ مُبِينٍ*أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 29-33الأحقاف.
هنا نلاحظ أمرا مثيرا للانتباه، وهو أن الجن وجدت فى الآيات التى سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديقا لأمورٍ وردت فى توراة موسى، وليس إنجيل عيسى، مما أثار تساؤلات

كثيرة لدى المفسرين عبر العصور. وقد تضاربت أقوال المفسرين فى هذا الأمر، فمنهم من قال: إن هذا النفر من الجن كانوا يهودا، ومنهم من قال :إنهم لم يسمعوا بعيسى، ومنهم من قال: ان المسيح أصلا ما بعث للجن. ولنا رأى فى هذا القول الأخير إذ أنه ورد فى إنجيل متى عن المسيح عليه السلام أنه عالج مريضا كان قد مسه جان وخاطب الجن فى ذلك الحدث.

على أن التمحيص فى ألفاظ الآية يوحى بأن الجنَّ قد قارنوا بين محتوي القرآن ومحتوي التوراة، فوجدوا تقاربا كبيرا بين ما كان يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم وبين ما علموه من التوراة مسبقا. والمطلع على التوراة والزبور والإنجيل والقرآن يلاحظ التقارب الكبير بين التوراة والقرآن فى وصفهما للقرون من قبل موسى، ووصفهما لأصل خلق الكون والإنسان. فلعل الجن هنا ربطت بين الكتابين كون مصدرهما اله واحد يصف بدء الكون والخلق برواية متشابهة والله أعلم.

المعروف من السيرة ان الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك اوفد للجن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ليُفَقِهَهُم فى الدين حيث كان يلتقي بهم عند الشجرة، لأن الرسول إنمابعث للإنس والجن، ولذلك نلاحظ أن الآيات التى وصفت حالهم فى سورة الجن اشتملت على تفاصيل أكثر عن رأيهم فى القرآن والعقيدة الإسلامية بعد ان عرفوا عنها الكثير:

{قُلْ أُوحِيَ الى أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا* يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا *وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا} 1-3الجن.

أورد الإمام الطبري حديثا صحيحا مفاده أن الشياطين شكت الى ابليس أن الله سلط عليهم الشهب والنجوم فجأة، وأنهم مُنعوا من التصنط الى الملأ ألاعلي، فقال لهم: إن أمرا جللا لا بد وقد وقع فى الأرض، فبعث إبليس نفرا من الجن يبحثون فى مكة لعلمه أن ألامر سيكون فيها، فكان ذلك النفر من استمع الى النبي و آمن به. وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم القرآن، فمضي إليهم فى مرحلة تالية يقرئهم القرآن ومعه عبد الله ابن مسعود. ما نلاحظ فى هذه الآيات أن الجن أعلنوا براءتهم من الشرك، وقد غلبت الآراء على أنهم كانوا يشيرون الى إبليس فى أمر الشرك هذا، ثم انهم ايضا أقروا بتوحيد الله وأقروا أنه لا صاحبة له ولا ولد، وكأنهم هنا يشيرون الى علمهم بما آل اليه حال النصارى فى ذلك الزمن من ظنهم أن المسيح هو ابن الله. فربما تكون فى هذه الآية إشارة الى أن الجن كانت على علم بالعقيدة المسيحية ولكنها لم تتبعها، لذلك كان فى مفهومهم ان القرآن قد انزل من بعد موسى، والله أعلم.

وتمضي الجن تعلمنا عن أسرار تطور قانون الكون:

{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا* وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا*وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا*وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ

لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا *وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا*وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا *وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِى الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا*وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا} 13-6 الجن.

وفى سياق آخر يصف الله عالم الجن كما يلى:

{إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ*وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ* لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ*دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ*إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } 10-6الصافات.

اذاً فالجن فى عصر من العصور كانت لهم حرية أكبر فى التنقل فى السماء، وإنهم ربما كانوا يتصنتون على الأوامر التى تصدر من رب العرش العظيم للملائكة او ربما يتصنتون على حديث الملائكة مع بعضهم بعضا فيلتقطونها، ولكن فى مراحل لاحقة من تطور الكون تزامنت مع بعثة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، مُلِئت السماءُ حرسا شديدا وشهبا جعلها الله رجوما للشياطين، وبذلك عزل الله الجن من الصعود للتصنت على ما يدور بين الملأ الاعلى.

ولعل علاقة الجن بالإنسان نفسها مرت بمراحل مختلفة لا ندرى أسرارها، ولكن الواضح من الآيات السابقة أن علاقاتٍ نشأت بين رجالٍ من الإنس و رجالٍ من الجن وأيضا نعلم أن الله قد اخضع الجن لنبيه سليمان عليه السلام لدرجة أنه لما مات لم يعلموا بموته:

{فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ} 14 سبأ.

فإن كانت تلك علاقة الإنسان المتأخرة بالجن، مسلمهم وكافرهم، وهي علاقة رجالٍ تزيد رجالا رهقا، ورسلٌ تهدي وشهبٌ تهوى وملوكٌ تملك وعذابٌ مهين، فكيف بدأت علاقة الإنسان الأول بالجن ساعة أن دلف الى وادى المزدلفة وضحى فى أرض الله سلطانا عليها وخليفة لله فيها؟

كما ذكرنا سابقا فإن الإنسان حينها ما كان بعد قد امتلك علوم الفلسفة والكلام وملكات التعبير ووسائل العبادة الروحية، ووصفه الله بانه لم يكن له عزما، ولذلك ما كان له ان يعُوذ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الذى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ، كما نستعيذ نحن الآن. مثل هذه العبادة كانت سابقة لاوانها فى نظام التطور الفكرى. وكما رأينا فى عصر القرابين انَّ عبادة الإنسان الأولى للتعبير عن استغفاره كانت أنه تَلَقَّى مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ أى أفعال مجسمة. لو كان فهمنا سليما فإن من المنطقي ان يتعامل الانسان وهو يخطو اولى خطواته على الأرض مع شياطين الجن بـ"المجسمات" بذات الصورة التى استغفر بها ربه حين تلقى كلماته فتاب عليه. هنا نفهم لماذا أمره الله تعالى أن يجمع الحصا من وادى المزدلفة

ويرمى به الشيطان الذى سيواجهه غدا يوم يضحى على الأرض نهارا. ولكن ما هى علاقة هذه الحصا التى تجمع من المزدلفة وقهر الشيطان؟ لفهم تلك العلاقة الغامضة لابد من استعمال علم الفيزياء النووية لفهم بعض آيات القرآن.

الفيـزياء الـنـووية:

إذا تدبرنا قول الجن أعلاه، وهو أن الله تعالى قد خلق شهبا قاتلة للجن التى تسعى للتصنت على الملأ الأعلى، لا بد لنا ان نسأل انفسنا كيف خلقت الجن حتى نستوعب كيف تقتل. من المعروف ان الجن قد خلقت من نار كما فى قول الله تعالى:

{وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ **مَارِجٍ** مِنْ نَارٍ} 15 الرحمن

{وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ **السَّمُومِ**} 27 الحجر

مرج: تفيد المجيئ والذهاب والاضطراب. سموم: من سمَّ وتفيد دخول شيئ فى شيئ والسَموم هو الريح الحارة لانها تداخل الاجسام بقوة.

فإذا حاولنا الجمع بين الوصفين لخلق الجن نخلص الى ان الجن مخلوق من طاقة ناتجة عن حركة عنيفة لمصدرٍ ناري. أى ان الخلق ليس من لهب النار وانما من السموم الذى ينتج من حركة واضطراب النار. هذا المعنى يمكن فهمه من الفيزياء النووية بانه يشير الى طاقة حرارية خاصة لا يعرف سرها الا الذى خلقهم.

فاذا كان خلق الجن من طاقة حرارية مضطربة ومتذبذبة فمن المنطقي ان نفهم ان حجارة الشهب التى ترجم الجن لا بد وان تكون مصدر طاقة نووية مضاضدة لطاقة خلق الجن ومن خصائصها تعطيل وابطال طاقة الجن. هذه المفاهيم ما كان للسلف ان يفكروا فيها ولكننا اليوم نتعامل بمثل هذه الطاقات الخفية فى كل وسائل الاتصال المرئية والمسموعة والرادارات واجهزة التحكم البعيد وغيرها. ونعلم ايضا انه فى الاسلحة الحربية فان الرادارات تشوش بعضها على بعض بالتداخل فى موجات الارسال والاستقبال، بل وان استعمال التليفونات الجوالة ممنوع داخل الطائرات لانها ربما ترسل طاقات تبطل اجهزة الطائرة التى تتحرك بطاقات وذبذبات مشابهة. من هذا يمكننا ان نفهم ان الشهب التى تقتل الجن انما لها خاصية تعطيل الطاقة الحرارية التى خلق منها الجن. وهذا المعنى ربما يكون تفسيرا علميا لهذه الآيات التى اختلفت الآراء حولها اختلافات كثيرة وما ذلك الا لانها ما كان لها ان تفهم من غير معرفة الفيزياء النووية:

{وَالصَّافَّاتِ صَفًّا* فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا*فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا*إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ*رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ*إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ*وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ*لَا

يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ*دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ* إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} 1-10 الصافات.

بطبيعة الحال فقد انحصر تفسير القدامى فى ظنهم ان "الصافات" هى الملائكة التى تصطف صفوفا متلاصقة، وظن بعضهم انها تزجر السحاب فتحركه من مكان الى آخر، ولكن لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شرحا لهذه الآيات.

من المهم جدا الربط بين موضوع القسم ومضمونه، اما موضوعه فهو القسم بأشياء مصطفة اصطفافا دقيقا ولها قدرة خارقة فى الزجر وهو الدفع العنيف، اما مضمونه فهو ان الله خلق كواكب خاصة زين بها السماء الدنيا وجعلها رجوما تثقب الشياطين وتمزقها تمزيقاً. لا بد ان نعلم ان الله تعالى حينما يقسم بشيئ انما يوجه بحثنا العلمي والفكري للتدبر فى موضوع القسم لان فيه سرٌ عظيم. ومن هذا المدخل فان اصطفاف الملائكة فى السماء او المصلين فى المساجد لا يرقى لان يكون موضوعا لهذا القسم، فضلا عن انه لا علاقة له بالكواكب التى تلى ذكرها فى الآيات ووصفت انها تمزق الجن الذى خلق من طاقة خاصة تنتج من اضطراب النار.

من غير التشويش بحقائق علمية ربما لا يستطع الكثيرون استيعابها فاننا نظن ان الصافات صفا انما تشير الى الانتظام الدقيق واللصيق فى مكونات نواة هذه الكواكب. انتظام الالكترونات والبروتونات والنيوترونات فى النواة يحفظ فى إلتصاقه طاقات مدمرة اذا انفجر ذلك الالتصاق او الاصطفاف الدقيق وهذا هو اساس القنبلة النووية. هذه الطاقات التى تنتج من فك هذا الاصطفاف لهي اقوي الطاقات الدافعة او الزاجرة. اذاً فالقسم هنا بطاقة كانت مجهولة للانسان تكمن فى مكونات هذه الكواكب التى تلى ذكرها فى الآيات ولها خاصية تمزيق الطاقة التى منها خلقت الجن. وهذه هى نفس الكواكب الحمراء التى وصفت صراحة بانها جُعلت رجوما للشياطين فى آية سورة الملك:

{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} 5 تبارك.

صبح: هو لون من الألوان أصله الحمرة والمصباح سمي مصباحا لاحمرار لونه.

مما سبق يمكننا ان نفترض ان الجمرات الخاصة التى يجمعها الحجيج من وادى المزدلفة لرجم الشياطين لا بد وان تكون من صنف الحجارة التى تولد طاقة مدمرة لطاقة الجن ولذلك سميت "جمرات". فاذا كانت هذه العلاقة كما افترضنا فاننا يمكن ان نتخيل ان الحجيج اليوم انما يمثلون ما فعل آباء الانسانية حينما هبطوا الى المزدلفة ليلا وجمعوا جمرات من ذلك الوادى ليرجموا بها شياطين الجن التى تنتظرهم غدا. هنا نجد تداخلا كبيرا بين مراسم الحج كما هى اليوم وبين ما قادنا اليه بحثنا فى خطوات الانسان الاول بعد هبوطه من جنة عرفات. ومن هنا يمكننا ان نحاول فهم ما يفعله الحجيج اليوم لعله يشرح لنا ماذا فعل آباء الانسانية فى تلك البقاع قبل آلاف السنين.

وحتي نستطيع أن نربط بين حجارة المزدلفة ورجم الشيطان، علينا أن نتدبر فى الآيات التى وصفت ذلك الموقع، وإن لم تكن كثيرة ففيها الكثير الذى يخلب الألباب بما يرتبط بقصة الإنسان الأول. المعروف أن أهم معالم وادى المزدلفة هو وجود المشعر الحرام فيه. وحتي نفهم الأمور على حقيقتها لابد أن نتذكر أن المشعر الحرام ليس هو هذا المسجد الفخم المكيف الذى يتوسط وادى المزدلفة اليوم، وإنما هو المكان الذى بنى عليه المسجد. فما هو سر المشعر الحرام إذاً، وما هى علاقته بخطوات آبائنا الأولى على الارض وماهي علاقة حجارته برجم الشيطان؟ والله يقول فيه:

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ} 198البقرة....نلاحظ فى مدخل هذه الآية ان ابتغاء الفضل من الله قدم له بصيغة استثناء وكأن الله يخبرنا ان هذه المواقع وقعت فيها احداث كثيرة فيها جناح ومعاصي، ولكن **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ** أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ اذا افضتم فيها. وسنفهم ذلك اكثر حينما ندرس عبادة التطوف بين الصفا والمروة التى قدم لها بذات المخل الاستثنائي!

المشعر الحرام:

لكي نفهم ما هو المشعر الحرام لا بد لنا أن نفهم ما هى شعائر الله لغةً وشرعا حتى نستوعب قيمة وأسرار هذا الموقع الغامض فى طريق الحجيج من عرفات الى البيت العتيق.

شعائر الله:

"شعر" لها أصلان: أحدهما يدل على نبات والآخر على عِلم "بكسر العين" وعَلم "بفتح العين" أى تعنى: أثرٌ بالشئ يتميز به عن غيره، وشعائر جمع شعيرة. اذاً فشعائر الله هى آثار مميزة تدل على وجود الله لمن لايؤمنون بوجوده وتزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم، جعلنا الله واياكم منهم. وقد وصف القرآن أماكن وأشياء محددة بأنها من شعائر الله، والباحث فى حقيقة هذه الشعائر لا يشك أنها جميعا آيات من آيات الله مُنزلة من خارج إطار الأرض. فأعظم شعائر الله هو البيت العتيق، والبيت العتيق وضع للناس :

{إِنَّ أَوَّلَ **بَيْتٍ** وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} آل عمران.

{...**وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا** لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّـهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ..}36 الحج. والبدن هى الإبل، على أن المفسرين اختلفوا فى أن كل الأنعام يطلق عليها البدن ، ومهما يكن من أمر فإن وصف البدن من شعائر الله يمكن أن يكون مجازا ليشمل كل الأنعام وهي الإبل والبقر والضأن والماعز، وهذه كلها منزلة من خارج إطار الأرض:

{...وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ **الْأَنْعَامِ** ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ .. }6 الزمر.

والصفا والمروة من شعائر الله ايضا:

{إِنَّ **الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ** مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...} 158البقرة.

والآية التى تلي ذلك تشير الى آيات الله المنزلة:

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا **أَنْزَلْنَا** مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فى الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } 159 البقرة.

من هذه الآيات نفهم أن الله سبحانه وتعالى قد جعل جبلى الصفا والمروة من علامات وآثار وجود الله فى هذا الكون، ثم لعن فى الآية التالية مباشرة اؤلئك الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهُدي..! فما هى البينات والهدي التى أنزلها الله وبينها ولها علاقة بالصفا والمروة وحذر الله من كتمانها؟

وشعائر الله جميعا من الآثار التى يتعبد الإنسان الى الله بتعظيمها سواء عرف سرها أم لم يعرف:

{ذَلِكَ وَمَنْ **يُعَظِّمْ شَعَائِرَ** اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} 32الحج.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ...} 2 المائدة.

والمشعر الحرام يحتوى على حجارة منزلة من الشهب والمصابيح كما سنناقش ذلك وهو من شعائر الله:

{..فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ **الْمَشْعَرِ** الْحَرَامِ ..}198 البقرة! أما المشعر فهو مكان "أثر وعلامة"، و"حرام" بمعنى ممنوع بتشديد من الزوال والاندثار. ما يهمنا من شعائر الله المحرمة هنا هو البيت العتيق والصفا والمروة والمشعر الحرام..

هنا لا يخفى على أى عاقل أن القاسم المشترك الظاهري بين المشعر الحرام من ناحية، والصفا والمروة والبيت العتيق وما فيه من الحجر الأسود من ناحية اخرى، هو أنها جميعا حجارة ذات قيمة تعبدية غامضة، وكلها موجودة فى مساحة ضيقة حول البيت العتيق. فالمِشعر الحرام ليس الا مكاناً وسط وادى المزدلفة القاحل ملئ بالحصا الذى يجمع منه الحجيج عشرات الملايين من الحصا سنويا لاداء عبادة رمي الجمرات، فيما عدا ذلك لا يعرف سره احدا! هذا الوادى محدد فى مساحته، وهناك علامات واضحة تحدد للحجيج حدود ما يعرف بوادى المزدلفة حيث يقع المشعرالحرام، وحيث يُشترط المبيت فى العراء فى ليلة عيد الاضحى وجمع الحصا لرجم الشيطان غداً.

أما الأنعام والبدن فهى منزلة بنص القرآن وإن لم ينتبه المسلمون لهذه الحقيقة القرآنية طوال العصور. والأنعام مخلوقات وديعة مذلّلة خاضعة للإنسان، وقد جعل الله تعالى فى آذانها سراً يكشف به عن قانون التطور، وآية مادية عينية على وجود الله تعالى لمن لا يؤمن به، وليزداد

المؤمنون إيمانا، لتكتمل مجموعة شعائر الله التى يجب تعظيمها كما يجب التدبر فيها وفي أسرارها.

ونحن نظن والله أعلم أن جبلي الصفا والمروة هما "كلمات الله" أو المجسمات التى تَلَقَاها جنس آدم تعبيرا عن استغفاره بعد المعصية الأولى، أى طرحها بجهد ورصها فى وضعين متاقبلين وتطوف بينهما سبعة أشواط فى عملية الرَّص تلك فأصبحت مَعْلَما لتوبة الإنسان الأول ورمزاً للعبادة أو الصلاة الجسدية الأولى التى مارسها الإنسان العاقل. وسنناقش ذلك فى قصة إبراهيم عليه السلام فى باب "المثابة" لاحقا. ما يهمنا من شعائر الله هنا هو علاقة حجارة المشعر الحرام برجم شياطين الجن كما هو الحال فى عبادة الحج الى اليوم. لنفهم ذلك نحتاج لان نخطو خطوات اخرى مع الانسان الاول بعد نزوله الى الارض.

بعد نزول الإنسان العاقل الى الارض المنكشفة، كان يعلم أنه سيواجه الطبيعة بكل قوانينها ويصارع الحيوانات بمقدراته السابقة، لأنه قد تعامل معها عندما كان فى حالته الحيوانية. ولكنه بعد أن تطورإلي انسان عاقل دخل فى إطار معرفته مخلوقات وموجودات وأعداء جدد، وكان أخطرهم هو العدو غير المادي وغير المرئي وهو شيطان الجن. الإنسان ما كان له أن يعرف كيف يتعامل مع الجن لأنه ليس لديه سابق خبرة معه غير خداعه بشجرة الخلد فى الجنة، إذ ان الجن لم يكن موجودا فى إطار معرفته قبل أن يتطور الى إنسان عاقل.

فى زماننا هذا وبعقلنا المتطور يمكننا أن نتعامل مع قوانين الله المادية بإحدي طريقتين: الطريقة الأولى هى محاولة فهم القوانين المادية نفسها ثم تطويعها، كما تعلمنا مثلا الزراعة وحفر الآبار لإخراج الماء وبناء البيوت لتقينا الحر والبرد وهكذا. والطريقة الثانية هى الاستعانة بالله التى تعلمها الإنسان على مر العصور من مختلف الرسل، وذلك بأداء صلوات محددة ومثال لذلك صلاة الاستسقاء التى تنزل المطر بأمر الله تعالى.

فى تعاملنا نحن مع الشيطان وهو مخلوق من طاقة حرارية غامضة، علمنا الله تعالى عن طريق رسوله قراءة آيات واستعاذات تحمينا من شره كآية الكرسي والمعوذتين وغيرهما مما يعرفه المسلمون، ولكن الإنسان الأول لم تكن له هذه المعرفة الفكرية والقدرة الروحية بعد، ولم تكن له القدرة العقلية لاستيعابها، إذ أنه ما زال يتعامل مع الواقع بالمحسوسات والمجسمات والمشاهدة والتقليد، او لغة الغراب كما اصطلحنا سابقا. وعليه فما كان للإنسان الأول أن يصارع شياطين الجن إلا بامتلاك القانون المادي المحسوس الذى يدمر الجن. للمقارنة وحتي يسهل المعنى: فإن الذى لا يعرف صلاة الاستسقاء أو لا يؤمن بها ليس أمامه الا ان يحفر الآبار للحصول على الماء أو يموت عطشا إن لم يهطل المطر.

بنفس المنطق فان الذى لم يصل بعد الى مستوى عقلي يسمح له بفهم المفاهيم الروحية المجردة ليستعيذ بالله من الجن، ليس أمامه الا أن يحارب الشيطان محاربة جسدية أو يكون ضحية له. شيطان الجن مخلوق من مارج من نار، ولا توجد داخل نطاق الأرض أى وسيلة لحرقه، ولكن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الكون كاملا ومن بينه الجن، جعل فى بعض مخلوقاته خاصية تدمير الجن. هذه المخلوقات عبارة عن كواكب وشهب فى السماء من خصائص صخورها رجم الشياطين كما فى الآيات السابقة، والشياطين فى هذه الآية هم شياطين الجن، إذ أن الله يتعامل مع شياطين الإنس والجن كلٍّ حسب طبيعته.

فإذا رجعنا لآيات الجن السابقة نجد أن هناك فى السماء الدنيا كواكب تتصف باحمرار لونها، سواء كان نتيجة ضوءها أو لاحمرار صخورها، وقد يكون كوكب المريخ الأحمر أحدها والله اعلم. صخور هذه الكواكب لها خاصية تدمير العدو الجديد للإنسان وهو شيطان الجن كما ذكر الله صراحة فى القرآن أعلاه.

وعليه فإننا نظن والله اعلم انه عندما هبطت مجموعة آدم من الجنة الى الأرض أنزل الله اليهم صخورا من تلك الكواكب فى شكل شهب، كما أنزل اليهم كلماته من قبل لتطرح فى شكل جبلين متقابلين تعبيرا عن عبادتهم الجسدية واستغفارهم عن المعصية الأولى. بعد هبوط الإنسان الأول من عرفات الى المزدلفة هداه الله الى كيفية استعمال هذه الحجارة أو الحصا فى رجم الشيطان الذى كان يعد جنده لأعتراض مسيرة خليفة الله، لأن هذا الخليفة ما كان قادرا بعد على التعامل مع الجن إلا بالوسيلة المادية فقط.

المكان الذى أنزلت فيه هذه الحجارة من السماء حرمه الله من الاندثار وجعله **مِشْعَراً حَراماً** وعلامة من العلامات المادية المرئية لوجود الله و لقدرته الخارقة، و ربطها بقصة خلق و تطور الإنسان. ونظن أننا لو قمنا بتحليل حجارة وادى المزدلفة ربما نجد آية من آيات الله تعالى بيِّنة متمثلة فى حجارة من خارج اطار الارض لها طاقات نووية مختلفة عن الطاقات الكامنة فى صخور الارض. من هنا يمكن ان نفترض أن الحكمة من مبيت الحجيج بوادى المزدلفة وجمع الجمرات منه وليس من غيره، إنما هى تطبيق عملي لما فعله آباؤنا حينما هبطوا من جنة المأوى أول مرة قبل مواجهتهم للشيطان فى الأرض فى منى. ومن هنا نظن أن حجارة المشعر الحرام مقصودة لذاتها وليست مجرد رمز وهمي لرجم الشيطان، وأنها حجارة أصلها من خارج أقطار ألارض وأنها من رجوم الشياطين التى وصفها الله تعالى فى القرآن. ونظن أنه من واجب المسلمين فى هذا الزمن ان يبحثوا فى حقيقة حجارة المشعر الحرام، لأن ذلك من تعظيم شعائر الله بالتدبر فى أمرها وإبرازها كآيةٍ للناس أجمعين، علما بأن هذه السنة فى جمع الحجارة من المزدلفة باقية الى يوم القيامة، والله اعلم.

تـطور ألفاظ الخطاب فى القرآن:

قبل أن ننظر فى آيات القرآن التى تصف أول فوج من البشر حينما دَلَـفَ فى هذا الوادى منذ آلاف السنين، لابد لنا أن نرتب ألفاظ الخطاب التى استعملها القرآن الى الآن فى الإشارة الى الإنسان فى مراحل التطور المختلفة، منذ خَلْقِ البشر الى نزول خليفة الله الى هذا الوادى، لأن هذه الألفاظ ترتب مراحل التطور بصورة بليغة:

1. عند بدء الخلق وصف الله المخلوق الجديد بالبشرمن غير تحديد ذكر أو انثى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ انى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} 76 سورة ص.

2. فى بداية التطور وصفه الله بالإنسان وهذا يعنى الذكر والانثى أيضا:

{الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} 7 السجدة.

3. قبل التطوير لإنسان عاقل وصف الله أسلافنا بلفظ "خلقناكم"إشارة الى أصل الإنسانية: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم.....} 11 الأعراف.

4. بعد التطور مباشرة ظهر اسم الجنس الملائم للتغيير وهو آدم الذى يشير الى الذكر والانثى أيضا: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا... } 31 البقرة

5. فى أول خطابٍ مباشرٍ من الله تعالى للخليفة أبان لنا مباشرة وجود الذكر والانثى لينبهنا الى أنَّ آدمَ هذا ليس الا الفصيل من البشر الذى تطور الى إنسان عاقل ذكرانا وإناثا:

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}35البقرة!

6. فى وصف المعصية تمت الاشارة الى جمع السوآت لتدل على جمهرة من البشر:

{..فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ..} 22 الاعراف.

وايضا ظهر لفظ الجمع فى عدد انفس الذين تابوا:

{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا **أَنْفُسَنَا** وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 23 الاعراف

7. بعد التوبة ظهر فى السياق القرآني واو الجماعة بصورة بائنة، اشارة الى ظهور أول مجتمعٍ انساني عاقل ومكلف:

{ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ منى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 36-38 البقرة.

وهنا بعد أن وصل الفوج الأول من الإنسانية الى وادى المزدلفة ظهر لفظ "الناس" فجأة ليشير الى بدء وجود الإنسانية على الأرض فى وقفة عيد الإنسانية الأول.

ظـهـور النـاس:

اول استعمال للفظ "الناس" كان فى وصف موقع المشعر الحرام من تاريخ الإنسانية وأهميته كعلامة من علامات وجود الله المحفوظة من الإندثـار..... وهذه المعاني تضفى على هذه الآية عمقا مدهشا جدا:

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ*ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ **حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ** وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ **آبَاءَكُمْ** أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} 198-200البقرة.

ناس: من نوس وتعني التذبذب و الاضطراب، و قد سمي أبو نواس بهذا ألاسم لأنه كان يلبس عمامة فيها ذؤابتان تنوسان. و"ناس" الشئ أى تذبذب، والناس تعنى المتذبذبين أو المضطربين.

نلاحظ هنـا أن الله تعـالى قد ربط ذكره عند المشعر الحرام بعد الافاضـة مـن عرفـات بهدايتـه للانسان بعد ضلاله، ونلاحظ أيضا ربط المشعر الحرام بـأمور غريبـة، مـا كانـت تتضح لنـا لـولا افتراضنا أن مناسك الحج مـا هى الا تطبيق عملي لخطوات الإنسان الأول. فهو أولا يأمرنـا أن نفيض من **حيث أفاض الناس** علما بان هذا الخطاب موجه لكل الإنسانية بما فيهم الرسول صـلى الله عليه وسلم وليس جيلا بعينه، فمن يا ترى هم اولئك الناس الذين أفاضوا من قبلنا فـى حالـةٍ مـن التذبذب والاضطراب ، ونحن إنمـا نتبع خطواتهم فـى الإفاضـة؟ ثم ان الله تعـالى هنـا يأمرنـا بعد قضاء المناسك أن نذكره كما نذكر آبائنا أو أشد ذكرا! هذا التعبير فريد من نوعه فى القرآن وجاء فـى موقـع مثيرٌ للدهشة، إذ أن المعروف أن الحـاج أصـلا مـا تكبد مشاق السفر، ومـا أحـرم أيامـا وأسابيع وامتنع عن الاستحمام والطيب والحلاقة وقص الاظافر ونتف الإبطين وحرم الجمـاع " الشجرة الممنوعة" الا طاعة لله ، فهو اذاً فى حالة ذكر دائم لله بكل هذه الأفعال، فكيف يطلب الله تعـالى من الحجيج وهم فـى حـالتهم تلك أن يذكروا الله كذكرهم ابـاءهم أو اشدُّ ذكـرا؟ هل يكـون المقصود هنا هم آباء الانسانية وليس آباء الحجيج؟!

حتى نستوعب المعاني العميقة لهذا الأمر الغريب، يستحسن أن نسترجع حالـة الحجيج الجسدية والنفسية والروحية، وهم فى المزدلفة بعد أن هبطوا من عرفات لعلها تلقى ظلالا على هذا المعنى الغامض. فعندما يصل الحجيج الى المزدلفة يكونون قد مروا بهذه الخطوات من الحج:

1. فهم أولا قد أحرموا قبل اسبوع أو اسبوعين على الأقل من لحظة وصولهم الى المزدلفة، وذلك يعنـى أن الواحد منهم لم يستحم أو يتطيب أو يحلق أو ينتف الإبطين أو يقلم اظـافره طوال هذه المدة ولم يحدث جماع بين الأزواج.

2. ناموا ليلة على الأقل على أرض منى، وهي الليلة السابقة لعرفات ،مما يزيدهم إرهاقا على إرهاقهم واتساخا على اتساخهم وتدنيا فى مظهرهم وملبسهم ورائحتهم على ما كانوا عليه.

3. الوصول الى عرفات يتطلب المشي مسافة بضعة أميال من "منى"، بعد ليلة يجد الكثيرون أن النوم فيها مستحيل، من كثرة الزحام والحركة وصلابة الأرض إن لم يكن برد الصحراء ليلا قد أصابهم بالسعال.

4. الوقوف بعرفة تجربة شاقة جدا، لأنه فقط وقوف أو جلوس على الارض طوال اليوم من غير ظل، فى زحام رهيب وعرق وغبار وأنفاسٍ تختلط وأجساد تتعاصر، وكلهم قلق من أن يفسد حجهم بعد كل هذا الجهد لأي سبب من الأسباب، أو لا يقبل الله استغفارهم قبل أن يسجي الليل فيضيع جهدهم هباءً منثورا. هذا الصراع والجهد النفسي لا يعرفه الا من وقف بعرفة يوم الحج الأكبر.

5. الحجيج تلهج ألسنتهم بالدعاء والبكاء طوال اليوم حتى تجف حلوقهم، فى انتظار تلك اللحظة الحاسمة التى يستشعرون فيها نزول الله الى السماء الدنيا بعد مغيب الشمس، لقبول الدعوات وغفران الذنوب، وهي لحظة رهيبة تهز الوجدان وتهد الأبدان المهدودة أصلا.

6. بعد أن سجى الليل دلف الحجيج المنهك فى رحلة منهكة اخرى لمسافة ميل ونصف فى غبار وزحام لا يمكن أن يوصف، مشيا على أرض رملية أو صخرية الى أن يصلوا الى وادى المزدلفة وقد اخذ الإعياء منهم كل مأخذ وبدا معظمهم فى السعال من الغبار وتبادل الانفاس والتعاصر فى عصر عرفات.

7. فى المزدلفة جمع هؤلاء الحجيج احدى وعشرين حصاة لكل منهم، فامتلات اظافرهم و شعورهم الطويلة بالتراب والطين، وبعدها يبحث كل منهم عن متر مربع على أرض الوادى القاحل وكل أملهم أن يستطيعوا النوم ولو ساعة استعداداً ليوم عصيب آخر بعد طلوع شمس الغد.

8. النوم فى المزدلفة يختلط بمشاعرمختلفة، إذ أن احتمالات الموت فى رمي الجمرات غدا اصبحت من الأمور التى تشغل بال كل حاج منهك متعب فى تلك الليلة، وهي مشاعر لا تترك للإنسان مجالا إلا أن يكون ذاكرا لله بكل ما يستطيع من مقدرة لأنه قد لا يكون فى هذه الدنيا ليلة اخرى......

إن الحجيج فى تلك اللحظات الرهيبة يشبه أكثرهم أهل الكهف لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولمُلِئت منهم رُعبا لِما أصبح من حالهم وهيئتهم.........ولكن......

فى تلك اللحظات التى يعجز القلم عن وصفها، حيث يكون الإنسان أقرب ما يكون الى الله من كل أيام حياته وأبعد ما يكون عن الدنيا وأهله وأهلها، يطلب الله من الحجيج أن يذكروه كذكرهم اباءهم أو أشد ذكرا! ما اغرب الطلب فى هذا الموقع الجغرافي الذى لا يتكرر فى حياة الانسان إلا

إذا كرر الحج ...... ما أعظم الطالبُ فى هذه الآية وما أغرب المطلوب! فالآية هنا تفترض أن الحجيج لا شئ يشغل بالهم غير ذكر الآباء فى هذه اللحظة التى ينسى الحاج فيها حتى نفسه، ناهيك عن أن يذكر أهله وذويه فى مصر و اليمن و السودان أو لبنان، أوالمغرب وليبيا و فلسطين او فى الصين، أو الهند واندونيسا او فى روسيا او أى من بلدان العالم الشاسع.

الطلب هنا يوحى بأن الحاج فى تلك اللحظات لا همَّ له الا ذكر الآباء وهو افتراض غريب وغامض، لان آخر ما يفكر فيه الحاج فى تلك اللحظات وفي ذلك الإعياء وفي تلك الهيئة هو الآباء، اللــهُّم إلا إذا كان هؤلاء الآباء ليسوا آباءنا الذين تركناهم فى بيوتهم ينعمون بليلةٍ هادئة، وإنما الآبــاء الذين تقمصنا هيئتهم وشخصياتهم ومظهرهم، وحتي طول شعورهم وإبطيهم واظافرهم وما لبسنا شيئا يستر عوراتنا الا هذا الإحرام الذى يشبه أوراق الجنة التى لبسوا، فينزلق ونرفعه " طفقا" وقد اتسخ بالطين والغبار والعرق حتى اختلط فيه اللونان الابيض والاسود "كالخصيف"! إنّ ذكرنا لآبائنا هنا ليس ذكرا باللسان كما نظن، وإنما هو لسان حالنا و تقمصنا لهيئتهم تماما كما أفاضوا أول مرة هنا، وان ذكرنا لهم يتم فى يقظتنا ومنامنا حتى عندما يرفع القلم عنا!....إنَّ آباءنا هم عين الناس الذين افاضوا من قبل وما نفعله الآن هنا ليس إلا إننا نمشى على خطى الحبيب محمد الذى مشى على خطى آباء الانسانية الذين افاضوا من هنا فى غابر الزمن فى طريقهم من جنة عرفات الى بيتهم الاول!

نحن لم نجد موقعا آخر فى القرآن غير هذا الموقع قدَّم الله فيه ذكر الانسان لشئٍ آخر على ذكره إلا هنا وهو ذكر الآباء، علما بان الظرف النفسي والجسدي والروحي أصلا يُنسى الانسان نفسه ناهيك عن ذويه! ان هذه الآية جد خطيرة فى الربط بين مسيرة الآباء الأولى فى هذا الوادى وبين مناسك الحج!

أن الصورة التى يرسمها السياق القرآني مقارنة بحالة الحجيج عند المشعر الحرام لا تترك لنا مجالا للشك فى أن الرحلة كلها ما قصد منها الا تمثيلٌ تشخيصي، ليذكّرنا بحال الآباء الأوائل وهم مجموعة آدم لمَّا هبطوا من الجنة فى طريقهم الى مكان لا يعرفون عنه الكثير ولا يدرون ماذا تخبئ لهم الأيام القادمة فى ذلك العالم الجديد عليهم. كل الذى عرفوه حينها أن الله تعالى انزل لهم حجارة من شأنها ان تدمر شيطان الجن الذى يُعدُّ لهم مقلبا آخر كما تسبب لهم فى هذه المعاناة من قبل. ولا ننسى بطبيعة الحال إذا قبلنا هذا التفسير المنطقي والواقعي للآية انها ايضا تتحدث عن آبائنا بلفظ الجمع وليس "أبوينا" وما ذلك الا لان التمييز بين الذكران والاناث بلفظ المثنَّي الذى كان سِمة من سمات الآيات التى وصفت احداث الجنة اصبح لا ضرورة له، بعد أن اتضحت الرؤيا وفهمنا ما دار فى الجنة من معصية الشجرة او المداخلة بين الذكران والاناث! من الآن

فصاعدا فالحجيج يمشون على خطى آباء الانسانية ويتقمصون هيئتهم و ملبسهم وحينها فقط نفهم لماذا يطلب الله منا ان نذكره كما نذكرهم او اشدُّ ذكرا ان استطعنا!

لو نظرنا الى تقديم الله ذكر الآباء على ذكره فى هذا الموقع الوحيد فى القرآن لتأكد لنا ان المقصود هم آباء الانسانية وليس آباء الحجيج. فالمعروف ان الانسان يرفع عنه القلم فى ثلاثة حالات: الطفل حتى يبلغ الحلم، والنائم حتى يستيقظ والمجنون. فاذا افترضنا ان الحاج يستيقظ عشرين ساعة فهو يذكر الله طوال استيقاظه ولكن يرفع عنه القلم اربعة ساعات حين نومه. فاذا كان الحاج قد تقمص شخصية ومظهر وحالة آباء الانسانية طوال ايام احرامه فانه بذلك يكون ذاكراً لله عشرين ساعة هى مجموع ساعات استيقاظه ولكن لسان حاله يظل ذاكراً آبائه حتى فى منامه طوال الاربعة وعشرين ساعة! هكذا فقط يكون ذكر الآباء اشد من ذكر الله وهكذا فقط يمكننا ان نفهم لماذا قدم الله تعالى ذكر الآباء على ذكره فى هذا الموقع الفريد فى حياة المسلم وعقيدته. ان هذه الآية تدل بكل وضوح ان الحج ليس الا قراءة فى مذكرات آباء الإنسانية!

اللهم إنا نسالك أن تعيننا أن نذكرك أشد ذكرا منهم، ولكنَّا نستأذنك ان نمشى الآن على خطى الحبيب الذى مشى على خطاهم لنكمل بحثنا هذا........

جمع آدم الذكور والإناث الحصا من وادى المزدلفة عند المشعر الحرام، واغلب الظن انه كان جمرات من حجارة الشهب والكواكب الحمراء، أنزلت لغرض رجم الشيطان الذى كان ينتظرهم هو جنوده غدا فى منى، وهو اليوم الذى سيظهر الإنسان فيه نهارا لأول مرة على الارض وأصبح يعرف بعيد الاضحى او عيد البروز.

نلاحظ هنا انه مع اول خطوة تالية نخطوها مع الانسان الاول من المشعر الحرام فى اتجاه مركز الكون عند البيت العتيق مرورا بمنىً لرمي الشيطان كما رماه آباؤنا، نجد أن المشاهد بدأت تتداخل فى السياق القرآني، وتختلط لغة الغراب بلغة الهدهد! **فالأنعام** ستبدأ فى الجري بين اقدام الحجيج، والأنعام تُذبح غدا فى مشارق الأرض ومغاربها... ثم إنَّ مراسم الحج تحكي قصة إبراهيم عليه السلام، والذي كان قد أُمِر بعد آلاف السنين من عهد آدمَ بأن يأتى بأمـيرة كل الازمان هاجر وابنه اسماعيل الى وادٍ غير ذي زرع عند البيت الحرام، وبعدها أمره الله تعالى أن يرفع القواعد من البيت وان يؤذن فى الناس بالحج ليكون إيذانا بمواصلة الإنسانية مسيرتها على خطى الآباء فى ذات المكان والزمان من كل عام.

ولكي نربط بين خُطي الأنسان الاول ومناسك الحج نحتاج أن أن ندرس قصة ابراهيم عليه السلام وحِجة الوداع، حتى تتضح لنا الرؤيا وتكتمل المشاهد ونسبر غور ما خفي علينا من آثار ومذكرات الانسان الاول، ونكتشف اسرارا مذهلة عن تفاصيل خلق وتطور الإنسان التى تجعل من القرآن مدعاة للفخر، وتضع على عاتق المسلمين مسؤولية اكبر فى ان ينشروا هذا العلم بين

الناس، ويرفعوا بكل فخرٍ آذان الانـعام. ونود هنا ان نذكر أن إبراهيم عليه السلام كان مفكرا وباحثا وتساءل كثيرا عن أسرار الكون والخلق والخالق، فابتلاه الله بِكَلِمَاتٍ كما تلقى آدمُ من ربه كلمات، فأَتَمَّـهُنَّ، فاستحق بذلك ان يكون للناس اماما:

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ **بِكَلِمَاتٍ** فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ انى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} 124 البقرة!

ولأن قصة إبراهيم مع البيت العتيق كانت اكتشافا لتاريخ الإنسانية فسندرسها فى بابين منفصلين " ملة ابراهيم" و "المثابة" لما فيها من عجائب نظن أنها لو نشرت على الناس لتغير مسار البشرية جمعاء! ولكن قبل أن ندخل فى تلك القصة يجب أن نلقي بعض الأضواء على عيد البروز أو الاضحى الذى انتصف ليله ونحن هنا فى المزدلفة، إذ أن الليل سابق النهار فى الإسلام، وليلة العيد تبدأ فور غروب شمس عرفات.

عــيد الاضحى:

نعود الى مجموعة آدم أو آبائنا كما اصبح السياق القرآني يسميهم، الذين كانوا قد كُلِّفوا بجمع الحصا الذى أُنزل اليهم من الكواكب الحمراء والشهب فى المزدلفة عند المشعر الحرام ليرجموا بها الشيطان غدا. ويبدو لنا ونحن نتدبر تلك الخطى، أن الله تعالى قد قاد آباءنا الى موقع لم يكن معلوما لديهم ولكنه وضع لهم فيه أول بيت يأويهم فيه ويوفر لهم به الأمان فى هذا العالم الجديد عليهم ويكون بداية تمدن لهم على الأرض.

الطريق الى البيت العتيق من المزدلفة يمر بوادى منى الذى رجم فيه الشيطان أول مرة، وجعل الله رجمه بذات الحجارة المنزلة عند المشعر الحرام سنة ماضية الى يوم القيامة. وسنرى فى باب الحج بعد أن ندرس قصة إبراهيم لماذا كان اللقاء الاول للشيطان مع الأنسان العاقل فى الأرض فى "منى"، إذ أنّه فى "منى" تم الخلقُ والنفخُ و سجود الملائكة ونزول الانعام، ومن ثمَّ تكبُّر إبليس الذى يُرجم الى يوم القيامة فى ذات الموقع الذى افترى على الله فيه.

عيد الاضحى له وجهان من اوجه العبادة، فالذين يحجون البيت عليهم ان يقوموا برجم الشيطان فى صبيحة العيد بالجمرات التى جمعوها من المشعر الحرام كما هو معروف، أما الذين لا يحجون فعليهم ذبح الأضاحي تأسيا بابراهيم وبالرسول صلى الله عليه وسلم لمَّا اكتملت قصة الحج واصبحت ركنا من اركان الاسلام الى يوم القيامة! فان كان رجم الشيطان ليس الا تأسيا بخطى آبائنا الاوائل فهل ذبح الانعام فى ذات اللحظة تأسيا فقط بابراهيم حينما افتدى الله ابنه بالكبش؟ الله تعالى يخبرنا فى القرآن ان إبراهيم نفسه ما شرع فى ذبح الكبش، وإنما شرع فى ذبح ابنه الوحيد، بعد أن رأى رؤية لا يكاد يستسيغها أى من المسلمين واليهود والنصارى، إذ أن

الكبش انما جُعِلَ فداءً لابن إبراهيم الوحيد كما ورد فى التوراة والقرآن! فقد وصفت القصة فى توراة اليوم كما يلى:

{وبعد هذا امتحن الله ابراهيم فناداه" يا ابراهيم" فاجابه "لبيك" فقال له : " خذ ابنك وحيدك اسحق الذى تحبه وانطلق الى ارض المريا وقدمه محرقة على احد الجبال الذى اهديك اليه"} سفر التكوين 22:1-3!

ويمضي التوراة فى وصف القصة:

{ وقال اسحاق لابيه " يا ابي" فاجابه " نعم يا بنى" ، فساله " ها هى النار والحطب ، ولكن اين خروف المحرقة؟" فرد ابراهيم " ان الله يدبر لنفسه الخروف للمحرقة يا بنى. وتابعا مسيرتهما} سفر التكوين 22:8-9! ويمضي التوراة فى وصف قصة الفداء كما يلى:

{ ومد إبراهيم يده وتناول السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء قائلا: " ابراهيم ، ابراهيم " فاجاب "نعم". فقال : " لا تمد يدك الى الصبي ولا توقع به ضرا لاني علمت انك تخاف الله ولم تمنع ابنك وحيدك عني" وإذ تطلع ابراهيم حوله رأى خلفه كبشا قد علق بفروع اشجار الغابة ، فذهب واحضره واصعده محرقة عوضا عن ابنه. ودعا ابراهيم اسم ذلك المكان "يَهْوَه يرأه" ومعناه : الرب يدبر"....} سفر التكوين 22:10-14!

مما لا شك فيه ان علماء اليهود اجتهدوا فى تحريف القصة حتى تشير الى أسحق عليه السلام وهو أبوهم وليس إسماعيل أبو العرب، وذلك لعلمهم أن خاتم الانبياء والمرسلين سيسمى "ابن الذبيحين"! فلو تركوا القصة كما نزلت تشير الى اسماعيل وهو ابن ابراهيم الوحيد آنذاك، إذ أن اسحاق ولد بعد أربع عشرة سنة بعد إسماعيل بنص توراتهم الى اليوم، لوجب عليهم قبول خاتم الانبياء من ولد الذبيح إسماعيل. لذلك نجدهم اجتهدوا فى تحريف القصة بإضافة اسم اسحق، ولكنهم نسوا ان يحذفوا لفظ "ابنك وحيدك" من السياق مما خلق التناقض الذى يكشف خبثهم، إذ أن اسحق لم يكن ابدا ابن ابراهيم الوحيد! وقد ناقشنا ذلك بالتفصيل فى كتابنا باللغة الانجليزية: " اميرة مصر وذلك النبي الغامض"، فى شأن نبوءات محمد فى الكتب السماوية السابقة.

ما يهمنا هنا أن إبراهيم رأى رؤية ذبح إبنه الوحيد قربانا لله وهى رؤية غريبة تقشعر منها الأبدان. والغريب فى الأمر أن ابراهيم لم يستنكر الرؤية وإنما استجاب لها وعرضها على اسماعيل الذى لم يستنكر ايضا وإنما طمأن اباه انه سيجده من الصابرين كما فى الرواية القرآنية:

{رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ* فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ*فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بنى انى **أرَى** فى الْمَنَامِ انى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ*فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ* وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ *قدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ*وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ*وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ* سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ*كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} 100-110 صافات!

نلاحظ هنا أن القصة القرآنية اثبتت أن أسماعيل كان يعلم أنه هو المقصود بالذبح وقبل به، وايضا بقية سياق الآيات يؤكد ان الإبن المقصود هو إسماعيل، إذ ان إبراهيم قد بُشِّر باسحق بعد انصياعه لامر الله فى هذه الرؤيا. ورغم اجتهاد اليهود فى تغيير الإرادة الإلهية فقد اكتملت النبوءة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما همَّ جده عبد المطلب أن يذبح ابنه عبد الله، ولكن مكة فدته بمائة ناقة فنجا عبدالله وولد ابن الذبيحين محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء والمرسلين.

ما يهمنا هنا هو أصل عادة ذبح الأبناء تقرباً الى الله! مما لا شك فيه أن رؤيا إبراهيم عليه السلام كانت وراءها حكمة كبيرة، وهي أن الله بدَّل عادة جاهلية وهي التقرب الى الله بذبح الأبناء بسنة ذبح الانعام، وقد تم ذلك فى قصةإسماعيل وقصة عبد الله عند البيت الحرام! والظاهر ايضا والله اعلم، ان الله اراد ان يربط بين الرؤيا والشروع العملي فى ذبح اسماعيل، وبين ذبح الانعام وكأنه نوع من الاستبدال التشخيصي، أى جعل الحدثين يقعان فى صورة تمثيل عملي حتى يكون للقصة وقعها على العقل والنفس ايضا! فهل كان الناس قبل ابراهيم عليه السلام فى عصر القرابين يتقربون الى الله بذبح ابنائهم؟ علما بأنه بعد زمن إبراهيم وبعد ان انحدر العرب فى جاهليتهم وظهرت عبادة الأوثان مرة اخرى، ظهرت معها عادة ذبح الابناء مرة اخرى الى أن أبطلت فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم واعاد سنة التقرب الى الله بذبح الأنعام فى ذات المكان وعند البيت الحرام. وهل هناك رابط بين تلك القصص التى وقعت جميعا فى ذات المكان الذى مشى فيه الإنسان الأول وبين سلوكه تجاه قضية إنجاب الاولاد التى كانت سببا أساسيا فى خروجه من الجنة؟

نحن نظن والله اعلم ان الإنسان حينما هبط الى الارض كان نادما على رغبته فى إنجاب الأولاد لان ذلك كان المنزلق الذى زلقه فيه الشيطان فاخرجه من الجنة. فليس غريبا ابدا أن نظن أنهم مع الزمن انحرفوا مرة اخرى، وربما يكون الشيطان قد دخل عليهم هذه المرة من مدخل الندم على تفكيرهم فى الخلود بانجاب الأولاد، فسنَّ لهم ذبح أول أولادهم تقربا الى الله الشئ الذى يربط بين رؤيا إبراهيم لذبح ابنه فى ذات المكان وإستبدال ذلك بكبشٍ حتى تبطل العادة، ثم ابطلت فى عهد عبد الله بن عبد المطلب ليسن النبي بعد ذلك ذبح الانعام كعبادة بديلة وتذكير لنا بآبائنا أيضا.

وهنا نود ان نذكر آية ملفته للنظر ومحيرة للعقل سنتطرق إليها بتفصيل أكثر حينما نفحص آذان الانعام إذ أن فهمها لا يكتمل إلا إذا اتضحت لنا تفاصيل كثيرة عن بدء الخلق منذ كان عرشه على

الماء، ثم وسع كرسيه السموات والارض قبل ان يوجد مقاليد السموات والارض وقانون التطور. تلك هى الآية التى تصف ان الأنعام إنما انزلت وكأنها أنزلت فى مرحلة من مراحل التطور كالمجسمات لتكون مَعْلما من معالم قُدرة الله **ومن شعائره** التى قصد أن يعلم بها الانسان الاول كيف يتعايش مع الطبيعة فى الارض، وايضا يعلمنا كيف نتعبد إليه بالتفكر والتدبر فى آياته ولتكون مقياسا علميا به نفهم سلالم التطور التى صعدت عليها المخلوقات فى الارض مقارنة بسُلَّم التطور الذى نزل من خارج الأرض. ولكن ما يهمنا فيها الان هو حقيقة نزول الانعام:

{خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا **وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** يَخْلُقُكُمْ فى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} 5-6الزمر.

هذه الآية تخلق صلة غريبة ومدهشة بين وجهى الاحتفال بعيد بروز الانسان على الأرض أو عيد الاضحى! فالحجيج يرجمون الشيطان فى منى بحجارة جمعوها فقط من المشعر الحرام لها خاصية حرق الجن، لذلك نظن انها جمراتٌ منزلة من المصابيح او الكواكب الحمر، وفي نفس اللحظة فى مشارق الارض ومغاربها يرجم ذوي الحجيج وباقى المسلمين سنة الشيطان فى ذبح الأبناء، وذلك بذبح الانعام بديلا لتلك السنة وهذه الأنعام "انزلت" من السماء بنصِّ القرآن، ويظن عامة المفسرين ان فداء اسماعيل اصلا كان قد تم بكبشٍ انزل اليه عن طريق الملك لتكتمل الصورة فى استمرار رجم الشيطان وسنته بكل ما هو منزل من مجسمات فى شكل حجارة وأنعام، فالجمرات التى يرجم بها الحجيج الشيطان من شعائر الله، والبدن التى يذبحها المسلمون فى كل مكان ايضا من شعائر الله وكأن الله تعالى أراد أن يكون تعامل الإنسانية جمعاء فى هذا اليوم مع الشيطان بوسائل مادية بحتة كلها منزلة من السماء لتكون آيات لقوم يتفكرون.

ربما لا نستطيع أن نثبت نزول الحجارة من السماء بغير الاستنتاج المنطقي ما لم نُجرِ عليها فحصا كيميائيا وفيزيائيا، خاصة وأنها تسمي فى الفقه الإسلامي" الجمرات" وكأنها جمرات ملتهبة من شهب السماء، ولكن نزول الأنعام امرٌ صريح فى هذه الآية وهو لا يختلف من نزول الحديد الذى أثبته العلم الحديث، إذ أن ذراته يستحيل ان تتكون داخل الغلاف الجوي كما نص القرآن:

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ **وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ** فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} 25 الحديد!

فإذا كان العلم الحديث قد أثبت أن الحديد قد أنزل من خارج الغلاف الجوي وهو ليس من مكونات الارض، فاننا نظن ان لفظ {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ} يدل على أن الأنعام أصلا ما خلقت فى الارض وإنما نزلت من السماء فى فترة من فترات التطور لتكون رفيقا للانسان وشعيرة من

شعائر الله الغامضة التى تدل على وجوده و قدرته فى التحكم فى قوانين الكون كيف يشاء، إذ أنها دائما مرتبطة بمراحل تطور الانسان الخَلقي والروحي والعقلي والاجتماعي والعقائدي، كما ارتبطت بالحجارة الغامضة التى يرجم بها شياطين الجن الى يوم القيامة. وسنري حينما ندرس تفاصيل الحج ان الانعام دائما تمشي تحت اقدام الحجيج وهم يمشون فى تلك البقاع المقدسة لتكون آية لهم، فضلا عن ان كل الانبياء قد امتهنوا مهنة رعي الأغنام. وسنفهم هذه الحقيقة اكثر حينما نفهم لماذا جعل ابليس قضية الانعام امرا مهما يضل به الانسان من اول يوم: وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ!

فسبحان الذى ربط بين المخلوقين المنزلين "الانعام والجمرات" فى يوم عيد بروز الانسان، وسبحان الذى جعل كليهما وسيلة لرجم الشيطان فى شخصه عند الجمرات فى منى، وفي إضلاله للإنسان بذبح الانعام بديلا للاولاد فى مشارق الأرض ومغاربها، وسبحان الذى انزل القرآن وعلم الانسان وعلمه السحر والبيان، وسبحان الذى لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها، وجعل السر فى آذان الأنـعام غائبا عن الناس طوال القـرون من بعد آدم، وما كنَّا فى كشفه ذيلاً لأحدٍ ولكنه إلهام منه سبحانه لنا نحن أضعف خلقه!

بقايا قصة الإنسان الأول تتضح بصورة متكاملة إذا تابعنا قصة إبراهيم عليه السلام وهو النبي الذى بوأ الله له مكان البيت ليكمل لنا القصة ببحثه المدهش! ولما كان إبراهيم نبيا متأخرا فى تاريخ النبوءات مقارنا بعمر الانسانية، يستحسن أن نعرج سريعا على قضية الرسل وعلاقتهم بالله وبالانسان الاول من ناحية وبـآدم نبي الله المصطفى ورسوله الاول من ناحية اخرى. و لما كان نوح هو ابا كل الرسل من بعده فان دراسة الرسل وعجائبهم لابد وان تقودنا لنركب سفينة العجائب ونميز بين اهل نوح الذين كانوا اهلاً للنجاة معه واهله الذين لم يكونوا اهلا لذلك ......فـإلى **سـفـيـنـة نـوح!**

البـــــاب السـابـع
سـفـيـنـة نـــــوح

تقوم نظرية داروين فى الخلق والتطور على محورين اساسيين: الاول هو تطور المخلوقات الى انواع اكثر تعقيدا لمواجهة تحديات الطبيعة والثانى هو قانون الانتخاب الطبيعي الذى يعنى انه كلما تطور فصيلٌ من المخلوقات لمرحلة اقوى واقدر على البقاء تنقرض الانواع الضعيفة من ذلك الفصيل. ولان النظرية اصلا قامت على ملاحظات البشر من غير الرجوع الى وصف الخالق لطبيعة الخلق، فقد وجد العلماء حالات انقراضات خارقة لقانون التطور نفسه، ولم يستطيعوا تفسيرها الا بنسبتها لعوامل طبيعية مدمرة. من اشهر تلك الانقراضات هى انقراض الديناصور قبل حوالى خمسة وستين مليون سنة والذي يظن العلماء انه انقرض فجأة بعد اصطدام الارض بمذنب ضخم غير فى مناخ الارض ودرجة حرارتها بصورة ادت الى انقراض الديناصور. فى بحثنا هذا وصلنا الى ان عملية الانقراضات انما هى نتاج تدخل إلهي مباشر لتغيير مسار الطبيعة. هذه التدخلات الربانية تتم بصورة لا يفهما الانسان، ولكن الله جعل لنا احدى تلك الاحداث بينة فى تاريخ البشر متمثلة فى قصة سفينة نوح الاسطورية والتي كانت امتدادا طبيعيا لمفهوم اصطفاء الانبياء والرسل ومن ثم النسل الانساني.

إصـطـفـاء الرسـل:

نظن والله أعلم أن الإنسان الأول سكن عند البيت العتيق ببكة كما سنرى فى قصة إبراهيم. ولعل الله تعالى وهو الذى علَّم ذرية آدم عن طريق الغراب، قد هدى الانسان للتعامل معه ومع الطبيعة عن طريق الملائكة فى بادئ الأمر، وربما كان دور الملائكة هو تعليم الانسان بالتشخيص المباشر كيف يتعامل مع العالم الجديد، فتعلم آدم وهو البشر الملائم للتغيير والتطور التعامل مع الطبيعة وكان يفترس الحيوانات وتفترسه، فأنزل الله له الأنعام وعلمه كيف يطوعها لمصلحته وطعامه. وآواه اول مرة فى اول بيت وضع للناس ليعلمه كيف يسكن البيوت، وربما علمته الملائكة كيف يبنى البيوت لتحميه من حرارة الشمس وبرد الليل والرياح والمطر ومخاطر الطبيعة. فلما تطور الإنسان وتكون له مجتمع متميز اصطفى الله أول رسله من البشر وهو آدم عليه السلام، الذى سمي بهذا الاسم والذى يعنى: - العنصر النتغير او الملائم - ليكون رمزا للمجموعة الأولى التى طفر الله بها الى مرتبة الانسان العاقل، وبهذا فقط يمكننا ان نفهم قوله تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ **اصْطَفَى** آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 33-34 آل عمران! فقد اصطفاه على مجموعة البشر الملائم للتغيير "آدم" الذين تاب عليهم بعد هبوطهم من الجنة، وهذا هو آدم النبي الذى قال الله تعالى عنه :

{أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}58 مريم! ومن المنطقي أن نفهم هنا أن "حواء" التى ما ورد اسمها الا فى الحديث هى زوجة نبي الله آدم، وليست الانثى الوهمية التى أكلت من شجرة التفاح فى الجنة اولا واعطت زوجها ليأكل كما فهم اليهود وتسربت تأويلاتهم لمدارس المسلمين!

فى قصص الرسل أيضا نلاحظ مراحلَ للتطور الاجتماعي لا يختلف عليها المفسرون يهودا كانوا او نصارى او مسلمون!

ولمَّا كان آدم هو المصطفى الأول، فهذا يعنى أن الله اصطفاه على مجموعة آدم "اسم المعنى" او "جنس الانسان" الذى تطور الى إنسان عاقل.

ولعل من المفيد هنا أن نتدبر مرة اخرى فى لفظ "آدم" كإسم جنس "الملائم للتغيير" و"آدم" نبي الله المصطفى المعصوم كسائر الأنبياء والمرسلين. فقد رأينا فى باب "فى جنة المأوى" أن الشيطان قد "قاسم" مجموعة آدم الأولى، أى انه قسمهم لأكثر من مرة، وقد أوضحنا أن تكرار التقسيم هنا يفيد أن بعض المجموعة لم تستجب له، فقام بتقسيم المجموعة التى استجابت له الى ذكور وإناث ليقعوا فى المعصية. ثم رأينا فى باب "فى وادى المزدلفة" فى تفسيرنا لـ "فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ" أن التوبة اشتملت أولا على هبوط مجموعة منهم دون الاخرى، قبل أن يهبط الجميع من الجنة، مما يوحى بأن العقاب قد وقع على المجموعة التى عصت الله فقط. من هذين المفهومين الذين توحى بهما تلك الآيات، يتضح لنا أن نبي الله المصطفى آدم عليه السلام لم يكن من تلك المجموعة التى عصت ولم يكن حتى من ذريتها وإنما كان من المجموعة التى التزمت بأمر الله أو من ذريتها، فيتحقق مفهوم الاصطفاء ونبرئ نبي الله آدم عليه السلام من مفهوم المعصية التى التصقت به جراء فهم اليهود الخاطئ للقصة والتى انسابت كغيرها من قصص الأنبياء للفهم الإسلامي.

من ذرية هذا النبي المصطفى الأول كان نوحٌ بعد عدة قرون! كانت الانسانية فى عهد نوحٍ تتكون من ذرية آدم النبي وعلي رأسهم نوح، ومن ذرية مجموعة آدم الذين هبطوا معه من الجنة، فلما أغرق الله تعالى كل من لم يؤمن بنوح، ما بقي فى الأرض إلا من اتبع نوحا بما فيهم ابناؤه الثلاثة. على أن الجنس البشري بعد نوح انحدر بصريح اللفظ القرآني من ابناء نوح فقط، إذ أن الله ابقى فقط ذرية نوح وانتهى نسل بقية المؤمنين وبالتالى انقرضت سلالة "مجموعة آدم" الذين

هبطوا من الجنة باستثناء نوح وذريته، وهؤلاء بالطبع قد انحدروا من آدم النبي المصطفى! من تلك المرحلة اصبحت الانسانية جمعاء تنحدر من ذرية آدم المصطفى نبي الله الاول:

{وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ*وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ *وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} 77الصافات.

ومن هنا نفهم أيضا كيف تتصل علاقة جميع بنى آدم اليوم بآدم النبي الاول، وذلك يفسر لنا لماذا يخاطب الله تعالى الانسانية جمعاء فى اماكن لا حصر لها فى القرآن بلفظ " يا بنى آدم..." إذ أن كل البشر اليوم من ذرية نوح، ونوحٌ كان من ذرية آدم النبي المصطفى بعد ان انتهي نسل من انحدروا من مجموعة آدم الانسان المتطور. (انظر لوحة انحدار البشر فى آخر الكتاب).

انحدر من ذرية نوحٍ اقوامٌ كُثُر من سام وحام وجافث ابنائه الثلاثة! ومن ذرية سامٍ تم اصطفاءُ ابو الانبياء ابراهيمَ عليه السلام:

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} 86 الانعام!

اذاً كان من الطبيعي ان تظل النبوة والكتاب فى ذرية ابراهيم الى خاتم الانبياء والمرسلين لان هذا هو قانون اصطفاء الرسل، ذرية بعضها من بعض:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} 26 الحديد!

{وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا*ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} 2-3الاسراء!

هنا نرجع لنربط بين اصطفاء الرسل وعملية الخلق الأوَّل! فكما ذكرنا ان الله تعالى خلق الامشاج التى تحمل صفات وراثية يتم انتقاؤها بقدرة الخالق من جيلٍ الى جيل، وتظهر طفرات جينية او وراثية كلما تراكمت صفات معينة تقود الى ظهور صفات متطورة جديدة وهكذا. اذاً فعملية اصطفاء الرسل من ذرية الرسل انما هى عملية بنائية وانتقائية وليست اختياراً عشوائياً للرسول من بين قومه. يدلّلُ على هذا العمق اللغوي للكلمات التى وصفت بها عملية الاصطفاء:

صفو: أصل واحد يدل على الخلوص من كل شوب!

على: العين واللام والحرف المعتل، ياء كان او الفا او واوا، اصل واحد يدل على السمو والارتفاع!

العالم: من عَلَم، العين واللام والميم اصل صحيح واحد يدل على أثر بالشئ يتميز به عن غيره، والعالم جمعها عالمون!

ذرية: ذرو لها أصلان، احدهما الشئ يشرف على الشئ ويظله، والآخر الشئ يتساقط متفرقا!

نفهم من ذلك أن الله تعالى لايختار من البشر رسلا كما تخيلنا دائما أن الأصطفاء تعنى "الاختيار" من المجتمع الموجود اصلا، وإنما ظلت النبوة والرسالات فى سلالة معينة ينحدر بعضها من بعض ويُصفَّى ويُنقَّى منها جيلا بعد جيلٍ، فيصيروا انقى جينيا مما ينعكس على سموٍ أخلاقي واجتماعي وجسدي وعقلي ونفسي وروحي على الاجيال السابقة وعلى من حولهم ثم يرسلهم الى اقوامهم. أى أنه تعالى اصطفاهم فى مكونات خلقهم مقارنة بسلالات من حولهم من البشر، وذلك ليؤهلهم لِتقبُّل رسالاته وتحملها وتوصيلها لبقية البشر.

ثم جعل هؤلاء الرسل المصطفين سلالة أصلها واحد، وذرية بعضها من بعض. إذاً فالآية المشهورة فى سورة آل عمران: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى........ عَلَى الْعَالَمِينَ} تشير الى ذلك الاصطفاء.... فمن هم أولئك العالمون إذا؟

1.عالم آدم، أو مجموعة البشر الأوائل الذين قد اصطفى الله عليهم النبي آدم ...."عليهم" وليس "منهم"!

2. عالم نوح، أو مجموعة البشر الذين قد اصطفى الله عليهم النبي نوح "عليهم" وليس "منهم"!

3.عالم آل ابراهيم، المجموعة التى قد اصطفى الله عليها آل ابراهيم!

4.عالم آل عمران، المجموعة التى قد اصطفى الله عليها آل عمران!

من هذا يتضح ان كل نبي مصطفى على عالمه، لذلك فإن مجموع الانبياء مصطفين على مجموع العالمين، ولكن المجموعة المصطفاة جعلها الله ذرية بعضها من بعض، مما يعنى أن البشرية كلما احتاجت الى رسول من عند الله يبعث الله لهم رسولا كان مسبقا قد تم اصطفاؤه من ذرية رسولٍ سابق له، فازداد صفاءً ليرسله الى قومه فى الوقت المناسب! وهذا يعنى أن الرسل يزداد صفاؤهم كلما تقدمت البشرية الى الأمام. ومن هنا يمكننا ان نفهم لماذا انتهت سلالة الانبياء فى بنى اسرائيل عند يحى وعيسى اللذين لم تكن لهما ذرية، ثم امتدت سلالة ابراهيم فى ولده اسماعيل حتى كان خاتم الانبياء والمرسلين، الذى لم يكن له ولدٌ ذَكَرٌ ايضا فانتهى نسل الأنبياء هناك، وكان صفوة الرسل آخر ذريتهم وقمة هرمهم هو المصطفى محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم! وبهذا فقط يمكن أن نفهم حديثه {**أنا خيارٌ من خيارٍ**} بمفهوم رسالي وليس قبليا، بأنه أخير الرسل الأخيار، والله أعلم!

إذاً فاصطفاء الرسل عملية متناسقة مع قانون التطور، إذ أن الانسانية ظلت تتطور جيلا بعد جيل مسلمهم وكافرهم، وما مظاهر التطور التكنولوجي والعمراني الذى جعل من الانسان مخلوقا جبارا فى الارض فى يومنا هذا، إلا دليل على ان العقل البشري ظل فى عملية تطور مستمرة وسلطان خليفة الله فى الارض فى اتساع مستمر!

على أن فى قصة نوح مرحلة هامة ومتميزة من مراحل التطور التى تدخلت فيها القدرة الالهية لتصطفي السلالة التى تبقى فى الارض من جنس البشر اصطفاءً مباشرا جعله الله حدثا مرئيا ليكون آية من آياته التى يستوعبها العقل البشري يوم يتطور الى مستوىً يؤهله لفهم مفهوم التطور نفسه. ولانها قصة اختلطت بالكثير من الخرافات والاساطير لا بد لنا ان ندرسها بقدرٍ من التفصيل!

قانـون الإصـطـفـاء الربـانى:

رأينا فى الابواب السابقة ان الفهم الخاطئ لموضوع السياق القرآني يؤدي الى استحالة فهم مدلول الالفاظ مما يدفع لتأويل خاطئ لكل القصة التى ترويها الآيات، ومن ثم خلق قصة جديدة لا علاقة لها بالسياق مما يتسبب فى حرج لغوي فى إعراب الكلمات التى ترويها الآيات. فعندما ظن الناس ان وصف خلق البشر من طين كان يعنى بناء آدم "الذكر" من طين كالتمثال، فهم الناس ان "زوجه" هى "حواء" الانثى مما ادى الى تجاهل حقيقة ان "سوءآتهما" هى جمع مثني يشير الى ستة فما فوق! فلما صححنا مفهوم آدم من "ذكر مفرد" الى اسم معنى "الجنس الملائم للتغيير"، استقامت بقية المعاني لغةً وإعرابا وزال الحرج فى التأويل و أوحت لنا آيات القرآن قصة كانت بعيدة جدا عن خيال الناس، فنتج عن ذلك تزواج إعجازي بين آيات الله الكونية التى توصل اليها العلم الحديث وآياته القرآنية التى ظلت محفوظة كما نطق بها جبريل رغم صعوبة فهمها فى الماضى.

القرآن يحتوى على وصف خالق الكون لِما خَلق، وهذا يقتضى إنطباق كلام الخالق مع حقيقة الخلق مهما كانت بعيدة عن خيال الناس. وفي وصفه لتفاصيل الخلق فان القرآن يمكن مقارنته بكتيب التعليمات الذى يضعه الصانع مع الأجهزة التى يصنعها ليشرح للمشترى كيف صنع الجهاز وكيف يتعامل معه. فإذا توصل الانسان الى حقيقة كونية تتعارض مع فهم محدد فى كتاب الله فلا بد ان يكون هناك فهم خاطئ للحقيقة الكونية او فهم خاطئ لآيات الله القرآنية، ولكن لا يمكن ان يتعارض الفهم الصحيح لآيات القرآن مع حقيقة كونية حتمية. وما التقارب بين فهمنا الجديد لقصة آدم التى كانت غامضة المعاني غريبة الألفاظ، وما تواتر من حقائق علمية عن أصل الانسان الا ابلغ دليل.

ولنا فى قصة نوح مثلٌ آخر فى صعوبة فهم مدلولات الألفاظ وإعرابها لان قصة نوح تم فهمها من تأويل الاسرائيليات بأنها قصة حظيرة ضخمة جمعت فيها كل مخلوقات الارض من غير حكمة ظاهرة مما ادى الى استحالة فهم الالفاظ التى ترويها. وقبل ان نخوض فى فهم تفاصيلها وكشف اسرارها يستحسن ان نصحح موضوع القصة نفسها. اتضح لنا مما سبق ان الله تعالى قد

اصطفى مجموع الرسل على مجموع البشر اصطفاءً جسديا ادي الى تنقية المكونات الخلقية لهم ذرية من بعد ذرية. فإن كان اصطفاء "آدم" اصطفاء له على مجموع جنس آدم الذى تم تطويره الى انسان عاقل، فان إصطفاء نوح عليه السلام كان مرحلة اصطفاء اخرى لكل العنصر البشري من مجموع العناصر التى انحدرت من مجموعة آدم التى طورت الى انسان عاقل. هذا الإصطفاء تم بتدخل رباني مباشر ادي الى إنتقاء العناصر التى تصلح من حيث التكوين الخلقي لاستمرار العنصر البشري، وبالتالي زوال بقية العناصر غير المؤهلة للاستمرار. هذا القانون، "قانون الاصطفاء الرباني" الذى اشار اليه القرآن هو ما ظن داروين ومدرسته انه انتخاب تلقائي للعناصر القوية وانقراض تلقائي للعناصر الضعيفة، وهو ما اسموه بـ" قانون الانتخاب الطبيعي" فى نظرية داروين. ورغم ان علماء الطبيعة لا ينكرون ان بعض المخلوقات قد انقرضت لاسباب غير "الانتخاب الطبيعي"، مثل الديناصور الذى انقرض نتيجة كوارث طبيعية، الا ان التصريح بتدخل القدرة الالهية لتنفيذ "الاصطفاء الرباني" ليس مما يتوصل اليه العلماء بالملاحظة وانما هو مما تشرحه الاديان والوحي.

قصة نوح وسفينته الغامضة والالفاظ الغريبة التى احتوت عليها رواية القصة لا يمكن فهمهما الا من منظور "قانون الاصطفاء الرباني" الذى يؤكد ما توصل اليه العلماء و يصحح اوجه القصور فيه، لان المدرسة الداروينية نجحت فقط فى إبداء ملاحظاتها فى ظاهرة استمرار عناصر وزوال اخرى من الجنس البشري، ولكن ما كان لهم ان يكتشفوا بالملاحظة والاستنتاج فقط ان هناك تدخلا ربانيا مقصودا ادى الى اصطفاء العناصر الصالحة المؤهلة وابادة لعناصر غير الصالحة من الجنس البشري فى عهد نوح عليه السلام.

سفينة نـوح:

عاش نوحٌ بعد حوالى عشرة أجيال من نبي الله الأول آدم عليهما السلام، حسب الأنساب التى روت نسب الانبياء فى انجيل لوقا وفى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم! وهناك شبه اجماع بين المفسرين على ان نوحا كان اول رسول بعد آدم عليه السلام. ورغم ان القرآن والتوراة قد اتفقا ان نوحاً عاش الف سنةٍ الا خمسين عاماً، الا ان القرآن ما قص علينا من تفاصيل حياته الطويلة تلك الا المراحل الاخيرة من دعوته لقومه ومقتطفات من قصة السفينة! ونظن والله اعلم ان ما قصَّه القرآن علينا هو الجزء الذى يهمنا من قصته، لانها ارتبطت ارتباطا وثيقا بقصة تطور الانسان على الارض، إذ ان نوحا كان الرسول الوحيد الذى ذكَّر قومه بتطور خلق الانسان وتطور السموات كآيآت بيِّنة لهم من آيات الله:

{مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا*وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا*أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا*وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا*وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} 13-17 نوح.

ورد فى تفسير هذه الآيات فى تفاسير ابن كثير والقرطبي والطبري أن الاطوار المقصودة هى النطفة والعلقة والمضغة مما ذكره الله تعالى فى القرآن. ورغم ان هذه حقيقة بعض الأطوار التى يمر بها خلق الانسان على المستوي الفردي، إلا ان تأويل الآية على هذا النحو فيه تجاهلٌ لحالِ قوم نوح. هذه التفاصيل التى لم يفهم الإنسان مدلولاتها قبل القرن العشرين بعد اكتشاف المجهر والعدسات المكبرة، ما كانت مفهومة ولا حتى فى عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وما ذِكرها فى القرآن الا لأن القرآن وحيٌ مستمر الى آخر الزمان. وهي من ضمن الآيات التى يخاطب الله بها جيلنا وليس قوم نوح، إذ انه ليس مناسبا ان يدعو نوح قومه الذين كانوا اقرب الى عهد آدم من عهدنا، بآيات تتطلب عدسات مكبرة لفهمها. نحن نظن أن نوحاً كان على علمٍ بأنَّ قومه الذين كانوا أقرب الى عهد آدم وتطور الانسان، كانوا يعرفون قصة تطور الانسان التى حدثت بأن نفخ الله فيه من روحه، لان مثل هذه القصص ولا شك تناقلتها الاجيال من بعد آدم، خاصة وان الآيات هنا وصفت خلق الإنسان من الأرض كالنبات، وهي من الموروثات التى كانت معروفة لآدم وجيله وذريتهم بالتجربة الشخصية وليس الاكتشاف العلمي. وعليه نظن أن الأطوار المقصودة هنا ليست اطوارا مِجهَرية وانما الاطوار التى ظللنا نبحث فيها طوال هذا الكتاب.

وقبل ان نبحث فى قصة نوح كما نفهمها من القرآن، نسوق الحديث الذى أورده الإمام ابن كثير فى تفسيره لآيات قصة نوح المذكورة فى سورة هود، إذ أن هذا الحديث يمثل الاساس الذى قام عليه بكل أسف فهم المسلمين المتأخرين لقصة نوح عليه السلام، وهو بصريح اللفظ من الاسرائيليات:

(وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثراً غريباً من حديث على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها قال فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه فقال أتدرون ما هذا ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح. قال فضرب الكثيب بعصاه قال قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب قال له عيسى عليه السلام: أهكذا هلكت ؟ قال: لا. ولكني مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت، قال حدثنا عن سفينة نوح؟ قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير فلما كثر روث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة

فأقبلا على الروث فلما وقع الفأر بجوف السفينة وحبالها أوحي الله اليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر، فقال له عيسى عليه السلام: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها فعلم أن البلاد قد غرقت قال فطوقها الخضرة التى فى عنقها ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت قال فقلنا يا رسول الله: ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال فقال له: عد بإذن الله فعاد تراباً)!

ولا تعقيب لنا على هذه الرواية إلا قول الإمام ابن القيم الجوزية حينما قال: " الحق بهاء"، وقول الحسن البصري لأحد تلاميذه حينما لم يستسغ منه قولا: " يا بنى اما فى قلبك شئ او فى قلبي شئ"!

أما من المصادر الأسلامية الموثوق بها من قرآنٍ وسنة فإنه لم يعرف الكثير عن قصة نوحٍ، وليس معروفا بالضبط اين عاش واين كان الطوفان! ولكن أغلب الظن أن حركة الانسان فى الارض كانت بطيئة بقدر ما فرضته ظروف الطبيعة والبحث عن الكلا. فاذا كان الانسان الاول قد وُجد فى الجزيرة العربية حول مكة، فمن الطبيعي ان نوحا كان قريبا من موقع الانسان الاول الذى ربما نزح من مكة بعد ان مكّ ماؤها أى جفّ، ومات زرعها وتصحرت أراضيها. رواية القرآن التى روت بناء نوح للفلك ذكرت سخرية قومه منه، مما يدلل على ان بناء الفلك كان امرا شاذا ومضحكا، ولعل فى ذلك دليل على ان نوح عاش فى الصحراء حيث الفلك ليست مما يحتاج اليه الانسان! واغلب الظن ان الطوفان نفسه لم يكن الا عقابا محدودا لقوم نوحٍ كما كان عقاب قوم لوطٍ محدودا بقريتهم، وكذلك قوم هود وصالح وغيرهم من القرى التى دمرها الله. ليس هنالك دليل نقلي يدلّل على ان الله تعالى اغرق كل الارض فى عهد نوح، اذ ان عقاب الله للقرى دائما يقتصر على القرية المقصودة فحسب! فان لم يكن لدينا دليل صريح على ان الطوفان كان محدودا بأرض نوح فاننا أيضا ليس لدينا دليل على أن الطوفان أغرق قارات الارض جميعا، وليس لدينا الا علم الجيولوجيا و المنطق والواقع القرآني حتى نقرر أين حدث الطوفان! وحتي نستنبط بعض الحكم من قصة نوح يستحسن ان نتدبر تفاصيل القصة كما وردت فى القرآن:

{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ **كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ** وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} 40هود!

هذه ألآية ترتب الذين حملهم نوح فى السفينة هكذا:

1. مجموع الحيوانات ذكرت اولا.

2. تبع ذلك اهله، ولكن استثنى منهم من سبق عليهم القول.
3. اخيراً ذكر المؤمنين، وأشار الى ان هؤلاء كانوا قلة!
وتمضي الآيات تقص قصة ابن نوح الكافر:
{وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ* وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بنى ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ*وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ*وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ* قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ **لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ انى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ*قَالَ رَبِّ انى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 41-47 هود!

هذه الآيات فيها خلافات كثيرة بين المفسرين لأنها احتوت على أمور غير عادية يصعب فهمها. ونحن نظن ان الصعوبة فى فهمها هى بيت القصيد، لانها تحكى سرا من اسرار الخلق ما كان للناس أن يفهموه قبل زماننا هذا، بل ويصعب فهمه على الكثيرين فى زماننا هذا ايضاً، لذلك فقد جعل الله تلك الصعوبة من معجزات القرآن التى تُفهم يوم يتطور العقل البشري ويستطع استيعابها.
لا يخفي على أى دارسٍ للغة العربية ان الله تعالى امَر الأرض والسماء بصيغة النكرة: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي} إذ أنه لم يقل "يا أيتها الأرض"، وهذا ربما يكون دليلا لغويا على ان المخاطب هو الجزء من الارض الذى غرق وليس كل الارض، كما صدر امرٌ مشابه للجزء من السماء الذى أمطر.
من الأمور التى أشكلت على المفسرين هو اختلافهم فى تأويل: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} وقال بعض الصحابة إنها تفسير لقوله تعالى: { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا...} 10 التحريم! ولكن المفسرين اجمعوا ان عائشة رضي الله عنها روت حديثا قاطعا مضمونه ان الله أغْير من ان يرضي الفاحشة فى بيت نبي. والتفسير المتفق عليه فى امر الخيانة هو ان امرأة نوح اشاعت ان زوجها مجنون، وأن امرأة لوط أفشت

سر الملكين الذين نزلا ضيوفا على لوط، واتفق المفسرون أن ابن نوح كان ابنه دما ولحما، و لكن ظلت صفة {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} غامضة!

ويزداد الغموض حينما نتدبر بقية الخطاب، فنجد أن الله قد أمر نوحا أن يكون من الجاهلين، الأمر الذى لم يرد فى كل القرآن إلا هنا، إذ أن الله يحث على العلم والبحث وليس الجهل! وقد اجتهد عدد من المفسرين فى أن يجد تصريفا لغويا يسهل المعنى مع تفادى الأمر الظاهري لنوح ليكون من الجاهلين، فقال بعضهم: إن المقصود هو أن مجرد السؤال نوع من الجهل، ولذلك يأمره الله ان لا يكون جاهلا فيسأل مثل هذه الاسئلة. هذا التأويل البعيد بالطبع يناقض نص الآية نفسه لان الله قد أكد ان نوحاً لم يكن له علم بما جرى مما يجعل سؤاله مبررا، وهو ايضا يناقض إستجابة نوح بأن استعاذ بالله أن لا يسأل ما ليس به علم، أى يعينه على أن يرضى بالجهل حينما يكون فى الجهل رحمة. ونحن نظن ان المفتاح للغة هذه الآيات يتطلب أن ننظر فى موضع قوم نوح من سلم التطور الذى مرت به الانسانية الى ذلك الحين.

نوحٌ كان أقرب الى عهد آدم من عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وبالتالى فإن لغة الخطاب مع قومه تكون مرحلة متقدمة من لغة الغراب، ومرحلة مبكرة من لغة الهدهد، لأن أسلوب الخطاب لا بد وقد تطور تدريجيا عبر القرون. وهذا يعنى أن الألفاظ التى روى بها الله القصة حوت ألفاظا اقرب للغة المجسمات منها الى لغة المصطلحات الفلسفية التجريدية التى روى بها قصص المتأخرين من ألانبياء، لأن مثل هذه اللغة تعكس طبيعة المجتمع نفسه. وعليه فإن "الجهل" الذى يعنيه الله هنا يكون جهلا نسبيا، إذ ان الانسان حينها كان يجهل عن اسرار الكون والطبيعة من حوله اكثر مما يفهم، وما لغة الانسان الا تعبيرا عن مستوي فهمه للحياة من حوله. ولذلك فلغة الانسان فى تلك الحقب كانت بسيطة وفى الغالب تحتوى على الفاظ محددة تعكس المعنى وعكسه فقط، مما يجعل الانسان إما ان يوصف بانه عالم أو جاهل، ولا توجد مراحل متدرجة بين العلم والجهل، وبهذا يكون هذا النصح ليس الا صيغة تناسب مجتمع نوح لكنها تحمل نفس المعنى الذى خاطب الله به أصحاب النبي فى امر مشابه لكن بلغة بليغة ومتطورة تشابه لغة الهدهد:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآَنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِين} 101-102 المائدة!

هذا الجهل النسبي كان أفضل لنوحٍ من علمٍ يرتبط بأسرارٍ ما كان له ولا لقومه أن يستوعبوها. ونحن نظن أن هناك ارتباطا وثيقا بين جهل نوحٍ بحقيقة ابنه وبين ما امره الله ان يحمله فى السفينة.

وقد فسر بعض المفسرين أن كون ابنه ليس من أهله ليس إلا اشارة الى أن الكافر لا يكون من أهل المؤمن وإن كان من دمه ولحمه، ولكن فى هذا التفسير نظر إذ ان الله تعالى ما وصف ابو ابراهيم عليه السلام بهذا الوصف وما قال للنبي الذى كان يدعو لعمه انه ليس من اهلك، أو انك لست منه وانما كانت الألفاظ هناك صريحة مرتبطة بكونه كافرا فقط! اذاً فالتصريح بأن ابن نوح الغارق ليس من اهله لا بد وله مدلول آخر يرتبط بالطفرة فى تطور البشرية التى حدثت فى عهد نوح وتنفيذ "قانون الإصطفاء الرباني".

الآيات أيضا فيها مزيد من الغموض فيما يخص مصير أهله عموما. إذا تمعنَّا فى كلماتها نجد ان الله تعالى قد امر نوحا أن يحمل اهله الا من سبق عليه القول منهم، أى كل اهله الا هؤلاء الذين استثناهم، ثم بعد ذلك اضاف الى اهله {مَنْ آمَنَ} من عامة الناس! هذا يعنى ان التمييز بين اهله تمَّ بناءً على معيار غير الايمان، فحمل من لم يسبق عليه القول بغض النظر عن ايمانهم، وترك من سبق عليه القول منهم، وكأنَّ ممن حمل معه فى السفينة بعضا من أهله غير المؤمنين ولكن ما سبق عليهم القول! أما عامة الناس فقد ميز بينهم بمعيار الإيمان فقط، بمعنى آخر أن استثناء {مَنْ آمَنَ} ينطبق على من آمن من غير أهله، وهذا يفسر لنا لماذا ظن نوح أن ابنه غير المؤمن كان من الذين استثناهم الله بحكم انه من أهله رغم كفره، فناداه اولا بحسن نية ليركب معهم لعلمه ان ضمن من ركب بعضٌ من اهله غير المؤمنين، ثم كان ان شفع له عند الله بناءً على انه من ضمن اهله رغم علمه بانه غير مؤمن!

ولأن فهم هذه الصيغة فى الآية قد جعلتها غامضة، فقد استحوذ موضوع الحيوانات التى كان لها السبق فى الترتيب حسب نص الآية: {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} على كل الانتباه من العامة والخاصة بين اهل الكتاب والمسلمين عبر القرون، وأصبحت قصة نوح وحظيرته الضخمة المدهشة من امتع قصص الكتاب المقدس وقصص القرآن لاطفال أتباع كل الديانات السماوية! هذا التجاهل لمضمون القصة يسبب إشكالا عقائدياً غير محسوس لان المسلمين قبلوا الفهم الخطأ من غير نقاش وتجاهلوا صلب القصة!

ونحن نظن ان نوع المخلوقات التى حملها نوحٌ هو الذى يحدد الحكمة الخفية فى غرق بقية البشر، ويحدد ايضا الحكمة فى ان الله جعل ذرية نوح هم الباقين، إذ أن المسلمين والنصارى واليهود أجمعوا على أنه لم يستمر نسل أحدٍ بعد نوح الا من ذرية نوح التى كانت معه فى السفينة، أى أنه حتى الذين آمنوا وحُملوا معه فى الفلك انتهت ذرياتهم بهم. هذه الحقيقة تضع مركب نوح فى موضع متميز من تاريخ التطور، إذ أن كل البشرية من بعده أصبحت تنحدر من ذرية نبي مصطفى، وهو بطبيعة الحال انحدر من ذرية نبي الله الاول آدم عليه السلام. بمعنى آخر فإن بقية مجموعة آدم الذين طورهم الله وهبطوا معه من جنة المأوى الى وادى المزدلفة انتهت ذرياتهم فى

عهد نوح عليه السلام، ولم تبق الا ذرية نوح الذى انحدر من آدم المصطفى. من هنا نفهم ان اصطفاءً هاما جدا للنطفة البشرية قد تم علناً فى عهد نوحٍ مما يفسر لماذا ذكر الله لنا ضمن القليل الذى ذكر من قصة نوح مع قومه، انه ذكّرهم كيف خلقهم الله أطوارا وكيف أنبتهم من الأرض نباتا، إذ أن فى ذلك إشارة واضحة لطفرة فى التطور قد حدثت فى عهد نوح عليه السلام.

ولما كانت المخلوقات على الأرض أصلا نتجت من أصل واحد تطور عبر ملايين السنين كما سنناقش ذلك بالتفصيل فى باب " آذان الانعام"، ثم تدخلت القدرة الالهية فنقلت البشر الى انسان عاقل كما شرحنا فى باب "الحلقة المفقودة"، فان من حُمِل مع نوحٍ كان امتدادا لتلك الطفرة فى التطور ايضاً! فاذا كان هذا التفسير منطقيا فان الحيوانات التى حملت مع نوحٍ لا بد وان تكون الحيوانات المستثناة اصلا من سلم التطور الارضي، وهي الانعام التى نزلت من السماء لأنها لم تكن موجودة أصلا فى الأرض إلا فى المساحة الضيقة التى سكنها الإنسان والتي بطبيعة الحال كانت موقع الطوفان. بمعنى آخر فان نوحاً لم يحمل فى الفلك من كل المخلوقات زوجين، وإنما حمل زوجين من كلٍّ من الانعام التى نزلت فى وادى منى فى شكل ثمانية ازواج، حينما نفخ الله فى مجموعة آدم وطورهم الى إنسان عاقل، و هى الإبل والبقر والضأن والماعز فقط، وما ذلك إلا لارتباط آذان الانعام اصلا بقصة الخلق الأول وقصة التطور والقلائد ومقاليد السماوات والارض، وايضا لان هذه هى الحيوانات الوحيدة التى نزلت للانسان ولا توجد الا حيث يوجد الانسان. هذا التفسير يكون اكثر وضوحا إذا رتلنا القرآن ترتيلا وقرأنا قصة نوح فى مكان آخر للمقارنة لأن القرآن يفسر بعضه بعضا:

{وَإِنَّ لَكُمْ فى **الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً** نُسْقِيكُمْ مِمَّا فى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ***وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ*وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ** فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ* فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ*إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ* قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ* فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ **اصْنَعِ الْفُلْكَ** بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ **فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ** وَلَا تُخَاطِبْنِي فى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ} 21-27المؤمنون !

نلاحظ فى هذه الآيات اسبقية ترتيب ركاب السفينة كما يلى:

1. من كلٍّ زوجين اثنين.
2. اهله بأستثناء من سبق عليهم القول منهم.
3. بصورة مدهشة لم يذكر المؤمنين باللفظ وانما جعل حملهم يفهم فقط من التصريح بغرق الذين ظلموا!

فى هذه الآيات اعماق بعيدة و حقائق اخرى جدُّ هامة تفسر الآيات السابقة، وتؤكد ما ذهبنا إليه من تأويل. نلاحظ أن قصة نوح هنا قد أتت مباشرة بعد آيات اشارت الى الأنعام بكل وضوح، بل وخلقت رباطا لغويا وموسيقيا ووظيفيا بين **الأنعام** وبين **الفلك** التى عليها نحمل! ثم مضت مباشرة الى قصة نوح وخلصنا الى ان الله امرَ نوحاً بأن يصنع الفلك ويسلك فيها من كل زوجين اثنين.
الآية الأولى موجهة للانسان عموما واشتملت على اشارة واضحة ولكنها غامضة لأهمية **الانعام والفلك** فى حياة الانسان وهي اننا عليها وعلي الفلك نحمل، علماً بأن الإنسان العربي الذى خاطبه القرآن اولا كان يسكن الصحراء ولم تكن الفلك تلعب أى دورٍ فى حياته، بالإضافة الى ان الانعام التى نحمل عليها تشمل بالتحديد الماعز والخراف والبقر، ولا احد بطبيعة الحال يمتطى عنزة او خروف او بقرة، وحتى سكان الصحراء اصبح ركوبهم الابل من النوادر. هذه الاشارة الغريبة لركوب الانعام سنطرق اليها بشئ من التفصيل فى باب " آذان الانعام"!
كلمة "**اسلك**" من "سلك" وهذه تفيد نفوذ شيئ فى شيئ. استعمال هذا اللفظ يوحى بان الحيوانات التى سلكها نوح فى السفينة كانت طيعة ذليلة وهذه الصفة تنطبق على الانعام فقط اذ ان الله ذللها للانسان. لا نظن ان حمل القردة والاسود والنمور وبقية الوحوش فى السفينة يستقيم باستعمال لفظ "اسلك"!

الآيات التى تلت ذكر الفلك والانعام اوردت قصة نوح وحال الانسان فى عهده، ثم وصفت وظيفة عملية للفلك التى تحدثت عنها الآية السابقة، والامر لنوحٍ بأن يسلك فيها من كلٍ زوجين اثنين، أى الانعام التى هى اصلا جزء من الخطاب فى الآيات! هذه العلاقة اللغوية بين الآيات تشبه العلاقة بين قول الله تعالى لموسى: وما **اعجلك** عن قومك يا موسى قال **عجلت** اليك رب لترضى، فى ذات الوقت الذى كان قوم موسى قد عبدوا **العجل** فيه، كما سنناقش ذلك بالتفصيل فى باب "آذان الانعام"! ربما يبدو هذا التأويل غريبا على من لا يتدبر لغة القرآن وفنون الخطاب والتعبير فيه، ولكن التأويل الأبعد بكل تأكيد هو الافتراض الذى يفسر {مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} لتشمل كل مخلوقات الارض التى تحتاج لمئات السفن لتحمل عليها ان لم يكن هناك استثناء، لان غابات افريقيا وحدها فيها من فصائل المخلوقات المختلفة الملايين، ناهيك اذا اضفنا لها المخلوقات المختلفة فى غابات الهند والامازون والقطبين الشمالي والجنوبي وصحاري العالم التى لا يعلم اسرارها الا الذى خلقها، الشئ الذى طاش فيه خيال اليهود فخلقوا قصة الاسد الذى أنزل الله عليه الحمى حتى يسهل حمله، ثم جعلوا من سفينة نوح اسطورة اشبه بالسيرك او حديقة الحيوان ودارت فيها قصص بين الحيوان حازت على الاهتمام أكثر من رسالة نبي الله الذى هو من اولى العزم من الرسل كما رأينا فى الرواية الإسرائيلية أعلاه، و التى تصف كيف خلق القط من أنف الاسد ليأكل الفأر وكيف بعَّر الفيل خنزيرا وخنزيرة!

ان صعوبة فهم نظام التطور وقانون "الإصطفاء الرباني" الذى صممه الله وبالتالى السر فى آذان الانعام، هو من ضمن ما وعظ الله نوحا أن يكون فيه من الجاهلين، لأنه من صنف العلوم السابقة لاوانها، ليس لان فهمه يتطلب العلم بالقانون فحسب وانما لان العلم بالقانون نفسه يتطلب تأهيلاً للعقل البشري لمستوىً ما كان قد وصل اليه فى عهد نوح بعد! فلما وصلت القصة لبني اسرائيل شطحوا بخيالهم فيها للدرجة التى رأينا، لأنهم ما كان لهم أن يفهموا غيرها، وما كان لهم ان يتركوا كلمات الله من غير تحريف يشبع هواهم مهما كان مضرا بالحكمة من القصة!

نلاحظ ايضا هنا ان الاستثناء قد تم لاهله {وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ}، ثم وصف الله غير المؤمنين هنا بـ {الَّذِينَ ظَلَمُوا} ولكنه لم يصرح بحمل الذين آمنوا، وإنما هو مفهوم من سياق الآية ومن تفسيرها بالآيات السابقة! وهنا يتبادر سؤال مشروع عن هوية هؤلاء الذين سبق عليهم القول من اهله، هل سبق عليهم القول لكفرهم فقط وهل هذا يعنى انه لم يحمل من اهله غير المؤمنين احدا؟ هذه الاسئلة يزيدها تعقيدا الوصف الذى وصف الله به ابن نوح فى الآيات السابقة حينما امره بان يكون من الجاهلين {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ **عَمَلٌ** غَيْرُ **صَالِحٍ** فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ انى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}! هل كان ابن نوح هذا كافرا فقط او كان كافرا، وكان من امٍّ انحدرت من طريقٍ قدَّر الله له ان ينتهي نسله هنا كما انتهى نسل الذين حملوا مع نوح من المؤمنين؟ بمعني اخر فان تعبير {إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ} ربما يشمل كل من انحدر من مجموعة آدم من غير ذرية نبي الله آدم الا الذين آمنوا منهم، وربما كان ابن نوح ذلك ينحدر من امٍّ ليست من السلالة التى **تصلح** للاستمرار فى سلم التطور، ولذلك لم يسعفه كونه فقط من ذرية نوح ان ينجوا! اذا فيبدوا ان نهاية مجموعة آدم الملائم للتغيير كانت فى عهد نوح، فمن آمن منهم حمل مع نوح ولكن لم تستمر ذريتهم فى الانجاب، ومن كفر منهم غرق، اما من حمل مع نوح فكان جميع اهله من آمن منهم ومن لم يؤمن ما دام ليس ممن سبق عليهم القول واختلط باصول من غير اصول نبي الله آدم المصطفى!

هذا الفهم الذى يفتح بابا واسعا لكشف اسرار قصة نوح فى القرآن يستدعي ان ننظر فى مدلول لفظ "اهل" من ناحية لغوية اذ ربما يكون له معنى اعمق من صلة القربى:

اهل: فى المعجم تفيد التأهيل، ونقول: "هو اهلٌ لهذا المنصب" أى انه يمتلك الصفات الخاصة التى يتطلبها العمل فى هذا المنصب! ومنها جاء مفهوم الاقارب الذين "تؤهلهم" صلة القربى للسكن مع الشخص المعنى ولذلك يطلق عليهم "اهل بيتى".

فاذا اعدنا التدبر فى الحوار بين نوح والله فيما يخص ابنه نلاحظ ان لفظ "اهل" استعمل لمعنيين مختلفين:

{وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ **إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي** وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ* قَالَ يَا نُوحُ **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ انى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}

من هنا يتضح لنا جليا أن نوح ظن أن الله قد أمره أن يحمل أهله، أى أهل بيته وأقاربه بناءً على صلة القربى فقط، ولذلك ظن أن ابنه من ضمن من سمح الله له ان يحمله، ولكن الله أوضح له أن ابنه، وان كان من اهل بيته الا انه ليس "أهلاً" للاستمرار لسبب آخر غامض على نوح وصفه الله بأنه {عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}، أى انه من أهل بيته ولكنه ليس من "المؤهلين" وهم المقصودون بالاستثناء وليس الاقارب! ومن هنا نحتاج ان نفهم مدلول الالفاظ التى وصف بها الله عدم اهلية ابن نوح:

عمل: كل فعلٍ يفعل.

كلمة "عمل" استعملت فى القرآن بمعنى "الخلق" حينما يكون الخلق بتدخل مباشر من الله سبحانه وتعالى كما فى وصف خلق الانعام: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا **عَمِلَتْ أَيْدِينَا** أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ } 71 يسن.

وخلق الانعام ولا شك متميز، بل فيه تشبيه غامض بخلق الانسان، اذ ان الله ما وصف مخلوقا بانه خلق بيد الله، أى تدخله المباشر الا الانعام والانسان: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا **خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} 75ص. من هذا يمكننا ان نستنتج ان كلمة "عمل" فى وصف ابن نوح لا تشير الى اخلاقه او عقيدته، وانما تشير الى امرٍ غامض فى طبيعة خلقه وتكوينه الجسماني هو الذى وصف بعدم الصلاح، أى انها كلمة تصف تكوينه الجسماني وليس اعمال جوارحه من خيرٍ او شر!

صالح: خلاف فاسد! و"الفساد" صفة لحال الأشياء المادية وليست الأخلاقية والمعتقدات، أى أنها تختلف من "الفسوق" التى تعنى الخروج عن الطاعة! وقد وصف الله تعالى علاج زوج زكريا التى لم تكن تنجب بأنه "اصلحها" أى عالج علتها الجسدية:

{ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى **وَأَصْلَحْنَا** لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} 89-90 الانبياء. فزوجته كانت امرأة صالحة بالمفهوم العقائدي والاخلاقي و تسارع فى الخيرات مع زوجها، ولكن جسدها لم يكن "صالحا" للانجاب من ناحية خَلقية قبل ان يصلحه الله!

من هنا نفهم ان ابن نوح فى خلقه وتكوينه الجيني المادي لم يكن "عملا صالحا" أى "**خلقا معافي يصلح للاستمرار**"، ربما لانه احتوي على صفات انحدرت من ذرية من غير ذرية آدم

المصطفى، غير "المؤهلة" لان تستمر فى تكوين الجنس البشري الى ما بعد عصر نوح، ولذلك كان من ضمن من سبق عليهم القول بالنهاية هنا رغم انه من اهل بيت نوح! ولما كان الاستثناء قائما على "اصطفاء" جينات محددة لتُكوِّن الجنس البشري فيما بعد نوحٍ وهو ما اسميناه "قانون الاصطفاء الرباني" واسماه داروين "قانون الانتخاب الطبيعي"، فقد كان من الطبيعي أن يكون نوح جاهلا به، وكان من الطبيعي ان يختلط عليه الامر فى التمييز بين "اهله" الذين هم "أهلٌ" للاستمرار و"اهله" الذين ليسوا "اهلا" للاستمرار، وكان من الطبيعي أن يأمره الله أن لا يسأل لان عملية الاصطفاء الرباني هذه كان الهدف منها هو تأهيل العنصر البشري نفسه ليصبح قادرا على فهم هذه الاسرار فى خلق الله والتي كان فهمها سابقا لاوانه فى عهد نوح عليه السلام!

إن الحكمة من سفينة نوح وما حمل فيها أكبر من أن يكتشفها أى انسان، ولكن من غير الحكمة ان تتحول القصة الى قصص اطفال وتسلية. وقد جعل الله تعالى لنا بعض الومضات فى القرآن تضئ لنا هذا الظلام هنا وهناك، وترك لنا مساحة اكبر للتدبر. فعلاقة الانسان بالانعام فيها أسرار لا تُعد وسننقاش الكثير منها فى وقت لاحقٍ، ولكن نظن انه من الحكمة أن نذكر هنا آية متميزة جمعت بين ما نفهم أنهما سلمي التطور اللذين يقاس بهما مفهوم التطور فى الأرض:

{فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ **أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** وَمِنَ **الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا** يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} 11 الشوري!

الآيات السابقة لهذه الآية منذ بداية سورة الشورى كلها تحتمل تأويلا يرتبط بقضية الخلق المتصل والتطور، ولكن أبرز ما فيها انها وصفت مفهوم "أم القري" وهو مركز الارض الجغرافي والمغناطيسي، كما سنناقش ذلك فى الباب الاخير "سدرة المنتهي"، وهي بالطبع المركز الذى بدأ عنده الخلق وتمت فيه كل مراحل التطور الى ان نفخ الله فى البشر ونقله الى انسان عاقل، وهي ايضا المركز الذى نزلت عنده الثمانية أزواج من الأنعام أول مرة. اما فى هذه الآية فقد افرد الله ازواجنا فى مقابلة فريدة مع أزواج الانعام، ثم وصفت الآية استمرار نسلنا ونسل الانعام فى الارض كآية من آيات تفرد الله بالخلق الذى لا يضاهيه خالق. ولّما كنا سنناقش هذه العلاقة بين الأنعام وبقية الخلق فى باب "آذان الانعام" فإننا هنا نشير فقط الى الحقيقة البينة فى القرآن أن هناك علاقة خاصة جدا بين كل الاحياء من ناحية والأنعام من ناحية اخرى تجعلهما فى مسارين متوازيين كخطي سكة حديد، الشئ الذى يؤكد ما ذهبنا اليه من أن نوحا حمل مجموعة محددة من البشر هى التى كانت تصلح من حيث التكوين الخلقي للتطور والاستمرار، وحمل من كلٍ زوجين اثنين من الانعام وليس من كل مخلوقات الأرض، لان آذان الانعام يمثل المسار الموازي لمسار تطور الانسان ويلعب دورا مباشرا فى تطور واستمرار خلق الانسان كما سنرى لاحقاً.

وحتي تتضح قصة نوحٍ والسفينة نلخصها فى هذه النقاط:

1. اصطفى الله نوحا من ذرية آدم المصطفى، وقدر أن يكون عصره هو بداية مرحلة جديدة من تطور البشر، لذلك كان مفهوم التطور واضحا فى مقتطفات قصته فى القرآن.

2. حمل نوح فى السفينة كل اهله بغض النظر عن ايمانهم وعدمه، ولكن استثنى منهم من سبق عليهم القول. هؤلاء كانوا اهله الذى غلبت على تكوينهم اصولاً من ذرياتٍ من غير آدم المصطفى و قدر الله لها ان تنتهي اصلا هنا. ومن ضمن هؤلاء كان احد ابناء نوح الذى ربما كانت امه من غير ذرية آدم المصطفى و فوق ذلك كان كافرا! ولما كان هذا الانتخاب غريبا على نوح ويصعب فهمه، فقد نادي ابنه الكافر ليركب معهم ظناً منه ان كل اهله مستثنين، ولكنه كان فى علم الله من غير "المؤهلين" الذين سبق عليهم القول، ولا يصلح من حيث التكوين الخلقي"عمل" فى الاستمرار، فنصحه الله نصيحة ما وردت فى القرآن مع غيره وهي ان يكون من الجاهلين!

3. حمل نوح ايضا من آمن به سواء من ذرية المصطفى آدم او من ذرية مجموعة آدم الذين هبطوا من الجنة بعد التطور.

4. بعد ان جفت الارض وهبط الجميع من السفينة قدر الله ان تستمر ذرية نوح "المؤهلة" فقط فى التناسل، ليصبح نوح أبا البشرية اليوم وانتهي نسل كل البشر سواه هناك! وبالتالى اصبح نوح هو أبا البشرية الثانى وأصبح كل البشر من بعد نوح هم بنو آدم رسول الله المصطفى وأول الأنبياء.

5. لما كانت الأنعام حيوانات ذليلة منزلة للانسان ولا تعيش الا معه ولها آذان لا تسمع بها واعين لا تبصر بها بطبيعة خلقها، ولم تكن موجودة فى الارض الا فى المساحة الضيقة التى سكنها الانسان والتي كانت المكان الذى وقع فيه الطوفان، فقد امر الله نوحا ان يحمل ثمانية أفراد من البهائم، أى ذكر وانثى من كل منها، حفاظا على آذانها، وتأكيدا على أن طوفان نوح كان مرحلة حاسمة فى تاريخ التطور، أى انه حمل معه كِلا سُلَّمي التطور الذى نزل من السماء والذي نبت من الأرض نباتا، الأنعام والإنسان، وسيتضح لنا كل ذلك بمزيد من التفصيل فى باب " آذان الانعام" ان شاء الله!

6. لا يوجد نصٌّ موثوق به من الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يوجد تصريح فى القرآن أن مركب نوح كانت مأوى لجميع مخلوقات ودواب وطيور الارض مما شطح فيه خيال اليهود الذين كانوا آخر من يفهم الحكمة التى نصح الله نبيه نوحا أن لا يسأل عنها، وتسربت تأويلاتهم الى مدارس المسلمين من غير تمحيص حتى كادت ان تصبح من المعلومات من الدين بالضرورة. إذا فسفينة نوح حملت الإنسان وزوجين من الأبل "جمل وناقة" وزوجين من البقر "بقرة وثور" وزوجين من الضأن "خروف ونعجة" وزوجين من الماعز"عنزة وتيس" فقط!

فلا فِيلة ولا فيل بعَّرا خنزيرًا وخنزيرة، ولا ثعالب، ولا اسدًا محموما حُمل فى السفينة قسرا، ثم استنشق فأرا و فأرة فعطس هرًا وهرة، ولا عقارب!!!

وحتي يتضح الى أى مدى كانت شطحات اليهود فى البهتان على الله وعلي انبيائه نسوق وصف توراة اليوم لما آل اليه حال نبي الله نوح عليه السلام بعد هبوطه من الفلك بسلام:

{ واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرما، وشرب من الخمر فسكر وتعري داخل خيمته، فشاهد حام ابو الكنعانيين عري ابيه، فخرج وأخبر أخويه اللذين كانا خارجا. فاخذ سام ويافث رداء ووضعاه على اكتافهما ومشيا الى الوراء الى داخل الخيمة، وسترا عري ابيهما من غير ان يستديرا بوجهيهما نحوه فيبصرا عريه. وعندما افاق نوح من سكره وعلم ما فعله به ابنه الصغير قال :" ليكن كنعان ملعونا وليكن عبد العبيد لاخوته". ثم قال :" تبارك الله اله سام ، وليكن كنعان عبدا له. ليوسع الله ليافث فيسكن فى خيام سام. وليكن كنعان عبدا له".} سفر التكوين9:20-27!

حام هو ابو الافارقة السود "الكنعانيين" وسام هو ابو العرب واليهود وبعض الرومان ويافث ابو الاسيويين الذين نتجت منهم لاحقاً العناصر الاوربية البيضاء!

ان قصص الرسل والأنبياء فى القرآن ليست قصص أطفال، وانما هى مقتطفات من حال الامم السابقة ترتبط ارتباطا وثيقا بالتطور الفكرى والعقائدي للانسان، ولذلك فان تدبرها بحكمة يعين على فهم العقيدة الاسلامية فهما صحيحا واكتشاف مزيد من معجزات القرآن!

نلاحظ من نص الآية التى اجملت مفهوم "الاصطفاء الرباني" فى البشر ان المرحلتين الأولى والثانية ارتبطتا باصطفاء فردي لآدم ونوح: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا ً...}، ولكن فيما بعد نوح جاء وصف الإصطفاء بصيغ جماعية: { وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}، وهذا يؤكد فهمنا لقانون الاصطفاء اذ انه كلما تقدم الزمن كلما تراكمت الصفات الحسنة وتحققت الغاية من عملية الاصطفاء نفسها مما يجعل الاصطفاء يأخذ مدلولات اوسع كلما اتسعت دائرة الاصطفاء!

بعد هذا الفهم لاصطفاء الرسل و بعد ان اتضح لنا كيف "تأهلت" الانسانية جينيا وتراكمت التجارب والرسالات وتدخل الله مباشرة لتنفيذ قانون "الاصطفاء الرباني" للتكوين الجسماني والخلقي للبشر فيما بعد عهد نوح، لا بد لنا من ان ندلف على خُطى ابى الأنبياء والرسل الذى اصطفاه الله تعالى وربط سيرته ورسالته بقصة الخلق الاول وبتطور العقل البشري كطفرة جديدة من طفرات التطور واصطفاء الأمشاج التى تُكوِّن المخ والعقل، ليكون هذا النبي المصطفى بداية لعهد الانطلاق الفكرى والفلسفي لخليفة الله فى الأرض، ومن ثم عهد اليه الله ليكون اول من يفهم و يكشف قصة التطور ويرث ارض آباء الانسانية، ثم أمر الله نبيه الخاتم أن يتبع ملتة حنيفا إذ أنها تمثل الأساس العقائدي الذى به اكتمل الإسلام وارتضاه الله لنا دينا، فالي **"مِـلَّـة إبـراهيـم"!**

البـــــاب الـثامـن

مـلّــة إبـراهــيـم

تـفاحـة نـيوتـون:

لا شك أن معظم المثقفين المسلمين وغيرهم يسمعون عن عالم الرياضيات والفيزياء "نيوتن" الذى تهتز المحافل العلمية عند ذكر اسمه. ولكن مما لا شك فيه أن الكثيرين ينسون أن أشهر اكتشافات نيوتن هى أن التفاحة إذا انفصلت عن الشجرة الأم فهى تسقط على الارض، وكأن التفاح و منذ أن كان آدم صبيا كان يطير فى الهواء عبر العصور والدهور الى أن سقطت تفاحة واحدة على رأس نيوتون ليصبح بملاحظته عالما فذا فى الفيزياء والرياضيات!

أو أن جسد ارشميدس كان أول جسد يخف وزنه فى الماء، ليملأ الدنيا ضجيجا باكتشافه أن وزن الأشياء يخف فى الماء!

المتمعن فى اكتشافات هذين العالمين يجد أن ما ميزهما عن بقية الناس هو قدرتهم على الربط بين ظاهرة طبيعية يراها كل البشر، وبين قانون كبير من قوانين الطبيعة مسؤول عن هذه الظاهرة! فالتفاحة ما كانت لتسقط لولا وجود الجاذبية الأرضية التى باكتشافها وقياسها والتحكم فيها استطاع الإنسان أن يطير الى الفضاء السحيق. وملاحظة انخفاض الوزن فى الماء قادت لاكتشاف الكثافة النوعية للمواد التى قادت الى ما لا يعد ولا يحصى من الاكتشافات والصناعات وغيرها.

ما نود قوله هنا هو أن العقل البشري تطور مراحل سريعة جدا لدرجة أن البحث العلمى أصبح له مناهجه وأساليبه المتفق عليها عالميا، وتطبق فى كل مجالات الحياة من أحياء وفيزياء وكيمياء واقتصاد وسياسة وحتي فى الأدب والإعلام والعلاقات الاجتماعية وكل ضروب الحياة الحديثة. العقل البشري أصبح قادرا على الربط بين المسببات والأسباب وتطبيعها لخدمته للتحكم فى الطبيعة بعد أن كانت الطبيعة تتحكم فيه.

إذا كان العلماء قد جعلوا نيوتن لهم إماما، فقط لأنه استنبط وجود الجاذبية الأرضية من سقوط التفاحة على رأسه، يمكننا أن نفهم لماذا جعل الله إبراهيم للناس إماما. فقد كان ابراهيم أول من وصل الى الله قبل أن يوحى الله اليه، ظافرا بذلك بالعقل البشري ليكتشف أسرار الخلق والخالق فقط باتباعه أسلوبا منطقيا وعلميا فى تحليل الأحداث وربط الأسباب بالمسببات. وكان إبراهيم أول من كسر الحاجز الوهمي بين الدين والدنيا، ووضع منهاجا للتدبر فى مخلوقات الله ونظام خلقه للأشياء، ليكتشف آيات الله الكونية فى ملكوت السموات والأرض ويجعل منها وسيلة لخيري الدنيا والآخرة .

كان إبراهيم أول من افترض وجود الخالق بالمنطق، ثم رفض قبول افتراض عدم وجوده بالمنطق أيضا، ثم بحث عنه بالتدبر فى أدلة وبراهين وجوده الى أن إتصل به الله فجعله للناس إماما.

الدارس لتاريخ الشعوب والأمم، والمتبحر فى فلسفات وحضارات الإنسان القديم والحديث، يلاحظ وبلا شك أن كل الحضارات ظلت حائرة أمام ثلاثة أسئلة لم تجد لها إجابة، لأنها لا تقع فى إطار البحث التجريبى، وإنما يمكن فقط البحث فيها بالافتراض والتحليل الفلسفى. وقد انعكست حيرة الإنسان عبرالعصور فى غموض هذه الاسئلة فى تدوينها بالتصاوير الدينية، والرسومات الموجودة على الحجارة والكهوف والأهرامات وكتب الفلاسفة والفنون وغيرها، مما يثبت أن هذه الاسئلة الثلاثة ظلت منذ وجود الإنسان معضلة أمام جبروت عقله.

تلك الاسئلة لها علاقة وطيدة بفطرة الإنسان منذ أن صار قلبه يقلب ويمحص الملاحظات وستظل الى يوم الدين. ولما كانت أى إجابة لهذه الأسئلة لا يمكن أن تخضع للاختبار والإثبات بالتجربة، فإن الايمان بنتائج أى بحث فيها يقوم على صحة وسلامة أسلوب البحث، ونزاهة الباحث وحرصه على الوصول الى حقيقة منطقية وليس وهما. تلك الاسئلة هى:

1. هل يوجد خالق لهذا الكون؟ وإن وجد فهل هو واحد أم له شركاء؟
2. هل يمكن أن يبعث الإنسان بعد موته ودفنه وتحلله؟
3. كيف وجد الإنسان فى هذا الكون؟ هل تطور من قرد كما يقول الملحدون والرافضون لحقيقة وجود خالق لهذا الكون؟ أم أن الله خلقه فى صورة دنيا ثم طوره الى إنسان عاقل كما يقول علماء الأحياء، أم هل تم بناؤه فى شكل تمثال من طين، ثم نفخ فيه الروح، ثم أخرجت زوجته من ضلعه كما يفهم أهل الأديان؟ وفوق هذا كله أين كانت جغرافيا بداية الخلق أو التطور؟

كما قلنا فى الفصول السابقة: إن الإنسان بعد أن هبط من الجنة، صار يتعامل مع الطبيعة وفقا لقوانينها المادية، فتقهره حينا ويقهرها أحيانا، ويتعلم منها ويعلم أبناءه عنها ويتقدم الى الأمام. وفي كل حين وآخر يرسل الله له من البشر رسلا وأنبياء لتطويره ماديا واجتماعيا وروحيا وعقليا ويذكرونه بالإله الواحد الأحد.

مع تراكم التجارب وتراكم الجينات والأمشاج وازدياد صفائها تطور الإنسان تدريجيا وببطء متجها من مخلوق يتعامل بردود الأفعال، الى الإنسان التجريدى الذى يمكنه ان يتدبر فى المسببات فيصل الى الأسباب الى أن ظهر فى الوجود {..فَتًى...يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ }60 الانبياء، وكان هو أول من وصل الى الخالق بتدبره فى أسرار الخلق قبل أن يرسل الله له ملكا يوحى اليه. وكان إبراهيم عليه السلام هو أول من وضع منهاجا علميا ومنطقيا للوصول الى الخالق وأصل الخلق والحياة والموت فاستحق ان يكون للناس إماما.

إنَّ دراسة حياة وشخصية إبراهيم عليه السلام من القرآن لا تكتسب أهميتها من كونه أبا الأنبياء فحسب، ولكن لأنه مثّل مرحلة متميزة من مراحل الاصطفاء والتطور العقلي، وأن الله آتاه فضلا متميزا إذ أنه كان أول من أصبح شاهدا على قضايا تعتبر من كشوفات العلم الحديث، وأن الله تعالى آتاه شرف أن يكون أول من يكتشف أرض الآباء ويمشي على خطاهم، ويكون أول من يدعو بنى آدم للعودة لبيت الأجداد. وقد جعل الله تعالى عودة ذرية آدم الى بيت آبائهم عبادة منذ عهد إبراهيم عليه السلام.

وقبل أن ندرس قصة إبراهيم عليه السلام لا بد وأن نلفت الانتباه الى أن القرآن ما قص قصة نبي فى سياق واحد متكامل، إلا قصة يوسف عليه السلام لحكمة يعلمها الله. أما فيما يخص بقية الرسل والأمم فالقرآن يقتطف لنا مقتطفات من أحداث حياتهم بقدر ما يهمنا أن نعرف كلما اقتضي السياق القرآني الإشارة الى جانب معين من حياة نبي أو رسول.

فإذا أردنا أن ندرس حياة رسول ونبي كإبراهيم يجب علينا إذاً أن نرتل آيات القران التى وصفت كل جوانب حياته ترتيلا، أى نجمعها وندرسها فى شكل ارتال كقصة متكاملة حتى تكتمل عبادتنا لله بالتدبر فى آياته وفي حياة انبيائه التى أراد لنا أن نعرفها. وقصة إبراهيم كبقية القصص وردت متفرقة لحكمة يعلمها الله تعالى، ونظن أن بعضا من تلك الحكم أن القصة نفسها فيها أسرار لا يمكن استيعابها إلا بمستويً عالٍ من تطور العقل، وتحتاج من المتدبر أن يكون ملما بجوانب واسعة من أسرار خلق الله وآياته الكونية، إذ أن المخلوقات تدل على الخالق بلا شك ومن جهل الخلق حتما سيجهل الخالق. ولما كانت قصة إبراهيم غنية جدا بآيات الله الكونية فقد فرقها الله تعالى فى القرآن، لتكون إعجازا جديداً من إعجازاته يوم ينجح الإنسان فى ترتيلها و تجميعها وفك الغازها. وبذلك فقط تصبح القصة نفسها نبراسا يدل على أن إبراهيم ما نال ذاك المقام الرفيع إلا لأنه استعمل عقله كما أراد الله له أن يستعمله.

أسلوب البحث عن الإلـه:

ولد إبراهيم عليه السلام فى أرض العراق اليوم، و تربي مع رجل اسمه آزر كان مسؤولا عن الإشراف على الأصنام التى يعبدها قومه. وآذر هذا ليس بالضرورة والده الذى أنجبه، ولكنه الرجل الذى تربى عنده لأن الأب هو الذى يربى بغض النظر عن كونه والده أو لا. وعندما صار إبراهيم فتي، رفض فكرة عبادة الأصنام لنفسه واستنكرها على قومه، فقال لأبيه:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً انى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فى ضَلَالٍ مُبِينٍ} 74 الأنعام

نلاحظ هنا أن إبراهيم لم يستنكر فكرة الإله من حيث المبدأ، ولكنه رفض فكرة الآلهة المتعددة، كما أنه رفض فكرة أن الاله اصلا يمكن أن يكون من صنع الإنسان كما تصنع الأصنام. ويسرد

القرآن أن إبراهيم بدأ يبحث عن الإله الحق بعد أن استخلص بعضا من صفات الخالق التى يعرفها الانسان بالفطرة من التدبر فى طبيعة الخلق، فاختار العلو والديمومة و قدرة الخالق المطلقة على تبديد الظلام و تبديد الجهل كصفات أساسية لخالق الكون. ولأن الخالق يجب أن يكون أعلى من المخلوق فقد اتجه ببصره أول ما اتجه الى السماء ليطبق افتراضاته العلمية فى البحث عن الخالق بين كل ما هو عالٍ :

{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ*فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ انى بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} 78 الأنعام.

هذه الآيات تُدخل الكثيرين من العلماء وغير العلماء فى حرج حينما يفسرونها، إذ أن المسلمين لا يختلفون على أن الأنبياء لا يمكن أن يكونوا مشركين فى أى مرحلة من مراحل حياتهم حتى قبل النبوة. هذه حقيقة لا جدال فيها، ولكن ما يفوت على معظم الناس هو أنهم يقرءون قصص من قبلنا بمفهوم اليوم، وهذا خطأ منطقي كما ناقشنا ذلك فى آية {فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}! لو تدبرنا فى مستوى التطور العلمي والفكري للإنسان قبل خمسمائة عام فقط، أى قبل عهد جاليلو لعلمنا أن الإنسان ما كان له أن يربط بين الأرض وبقية الكواكب فى السماء بأي علاقة منطقية، لأن الارض فى نظر الإنسان حينها كانت أضخم ما فى الوجود، وتبدوا مسطحة يمشى فيها شهورا من غير أن يشعر أنها كروية، أو حتى يخطر على باله أن جزءً منها يغطيه الليل فى نفس الوقت الذى يكون نصفها الآخر فى وضح النهار. وما كانت الأرض فى علم البشر المحدود حينها كوكبا كبقية الكواكب، إذ أن مفهوم الكواكب والنجوم كان يشمل أجرام السماء البعيدة التى يراها الإنسان من الأرض، ولم يكن ممكنا لأي إنسان كائنا من كان أن يتخيل أن الارض نفسها تبدو ككرة صغيرة جدا سابحة فى الفضاء لو نظر إليها الإنسان من القمر مثلا. وكان فى فهم الناس أن أجرام السماء الصغيرة جدا كما تبدو، تدور حول الأرض الثابتة. وبالطبع لم تكن الشمس فى فهمهم هى مركز المجموعة الشمسية، وما كان لهم أن يخلقوا أى علاقة بين الأرض والنجوم والشمس والقمر إلا ما يراه الإنسان البسيط وهي أن الارض هى دار حياتهم، وأن كل ما فى السماء أمره مجهول وغامض وله هيبة ورهبة! من هذا المنطلق فقط يمكننا أن نستوعب كيف يلجأ رجل حكيم كنبي الله إبراهيم قبل أن يأتيه الوحي للبحث عن الخالق بين النجوم. فالنجوم كانت تمثل الموجودات العالية الغامضة التى تبدد الظلام وتشرف على الأرض من علاها، وهي فوق ذلك ليست من صنع الإنسان بل وأبعد من أن يصل الإنسان إليها أو يعرف حقيقتها! فعلوها

وهيبتها وغموضها يمكن أن يكون السبب الذى يجعل العقل البشري البسيط وهو يبحث عن الخالق أن يظن أن الشمس والقمر والنجوم يمكن ان تكون نور السموات والأرض.

ويبدو من سياق الآيات أن إبراهيم عليه السلام طبق نظريته فى البحث عن الإله فى الكوكب ثم القمر ثم الشمس، لا لشئ إلا لأنه إنما أراد إثبات الأمور بالمنطق، بمعني آخر إنه **لم يعبدها وإنما اختبرها**. والأرجح أن إبراهيم كان يضع فى المنهاج الجدلي العلمي للبحث عن الإله، وهو ما يعرف بالاثبات بالنفي واتباع أسلوب الاستدلال وليس العاطفة أو الاتباع الأعمي. فهو أثبت حتمية وجود إله أولا، لأنه أصلا لم يدخل هذه الحتمية فى إطار البحث، ثم رفض رفضا مطلقا قبول فكرة الآلهة المتعددة والتي يصنعها الإنسان بيديه كما هو واضح من استنكاره على قومه عبادة الاصنام، ثم وضع صفات سامية للإله الحق، ثم بدأ يطبق ذلك المنهاج العلمي لنفي ألوهية أعظم الموجودات بالمنطق وليس العاطفة، ولذلك روى لنا الله تعالى اسلوب بحثه، لأنه هو الأسلوب السليم فى الوصول الى الغيبيات.

بدأ إبراهيم يبحث عن الإله بأن ينظر الى السماء بناء على اولى صفات الإله الحق وهي العلو، فعندما رأى كوكبا عاليا فى السماء افترض جدلا أنه ربه، ولكن عندما أفل تناقض مع الصفة الثانية للإله عنده وهي استمرارية الوجود، وعندما رأى القمر ظاهرا ومضيئا مبددا ظلمة الليل اعتبر تلك الصفات صفة إضافية للإله فادخل القمر فى إطار الاختبار العلمي، ولكن القمر سقط فى الاختبار وغاب. رأى الشمس عالية ومضيئة فى النهار بالإضافة الى أنها كبيرة فأعطاها حقها من البحث، و لكن سرعان ما سقطت كما سقط الكوكب والقمر فى الاختبار قبلها.

هنا يمكننا أن نلاحظ التشابه فى الملاحظة العلمية بين تفكير إبراهيم عليه السلام ونيوتون، فكلاهما خَلقٌ من خَلق الله، وكلاهما كان يتدبر فى مخلوقات الله من غير توجيه وحي يوحى إليه. العلاقة هنا هى أن الكوكب والقمر والشمس تظهر وتختفي كل يوم كما يسقط التفاح منذ الأزل، ولكن الأسلوب العلمي فى البحث كان استنباط العلاقة الإيجابية أو السلبية بين الأحداث التى تحدث وبين الأفكار والافتراضات التى افترضها العالم، فنيوتن افترض أن هناك عاملا غامضا يدفع الأجسام الى أسفل حينما تكون حرة فى الفضاء، واكتشف هذا العامل فقط حينما سقطت تلك التفاحة على رأسه لأنه ربط بينه وبين سقوط التفاحة. ولأن الجاذبية من خلق الله و يمكن دراستها عمليا، فقد كان اكتشاف نيوتن من العلوم التى تفيد البشر مسلمهم وكافرهم بغض النظر عن إيمانهم أو عدم إيمانهم بوجود خالق للكون. أما إبراهيم عليه السلام فقد افترض حتمية وجود خالق للكون له صفات سامية، ثم بحث فى أعلى الموجودات سموا فسقطت فى معايير بحثه فرفضها جميعا بالمنطق، وخلص الى أن الخالق الحق لا يمكن الوصول اليه بالعقل البشري المحدود، فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفا ولم يكن من المشركين.

أسلوب إبراهيم كان أسلوبا علميا فى البحث ولكن لا يعقل أن إبراهيم كان قد رأى الكواكب أو القمر أو الشمس لأول مرة فى حياته حينما افترض تلك الافتراضات، ولا يعقل انه وهو الذى نشأ وعاش حياته كلها فى الصحاري لا يعرف مسبقا ان الكوكب والقمر والشمس ستغيب بعد فترة، ولكنه كما قلنا كان يضع منهاجا علميا للبحث لا يقبل نفي أى احتمال إلا بعد تجربته وإثبات عدم صحته.

من هنا يمكن أن نستنتج أن الإنسان فى تلك المرحلة قد تطور عقله وإدراكه للكثير من ظواهر الكون الى أن وصلت فطرته الى أن ترفض عدم وجود الاله و ترفض تعدد الآلهة من غير الحوجة الى وحي يوحى إليه، وأول انسان وصل هذه المرحلة من التطور هو إبراهيم، وقد وصف الله مرحلة التطور العقلي لإبراهيم بان قال عنه:

{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ* أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ* فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} 83 الصافات.

رب**:** لها ثلاثة معان: الأول إصلاح الشئ والقيام عليه ومنها الرب بمعني الخالق لانه مصلح أحوال خلقه، والثاني لزوم الشئ للشئ والثالث: ضم الشئ للشئ.

قلب: لها معنيان الأول خالص شئ وشريفه، والآخر رد شئ من جهة الى جهة أى قلبه.

كان القلب قديما يفهم انه استعمال مجازي ليشير للمخ الذى يظن الناس انه موضع العقل، ولكن احدث الدراسات العلمية تشير الى ان فى القلب فتيل من الاعصاب الغامضة التى تتصل مباشرة بالمخ، وهي التى تتحكم فى حركة المخ الفكرية وتقلب بين صفحاته حينما يجتهد الانسان فى امر ما. اذا فالمعلومات تخزن فى المخ ولكن اعصاب القلب هى التى تقلبها وتخرج منها ما يبحث عنه الانسان والله اعلم.

نلاحظ من ألفاظ القرآن الدقيقة جدا أن الله تعالى وصف قلب إبراهيم فى تلك المرحلة و هى سلامة العقل والتفكير بصفة نكرة هى " قلب سليم" وليس "القلب السليم"، وكأنه يشير الى أن مفهوم "القلب السليم" لم يكن أمرا شائعا فى زمانه بعد. أما ربه هنا لا تشير الى الله إنما تشير الى من تربي عنده كما ورد فى سورة يوسف {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى **رَبِّكَ** فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} 50 يوسف، ويؤكد ذلك أن القرآن قال عن إبراهيم أنه "جاء"، أما عندما يكون المجئ الى الله فنجد أن الكلمة المستعملة هى"أتى" بدلا عن "جاء" لأنها تعنى المجئ بطاعة، كما فى آية {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} 88-89 الشعراء، والله أعلم! ولعلَّ الفهم السليم لهذه الآيات يؤكد ايضاً أنَّ آذر هو الرجل الذى ربَّاه وليس والده.

إذاً فان فطرة الإنسان السليم يمكن أن توصله الى التيقن بوجود خالق للكون كما تقوده الى رفض تعدد الآلهة، وكانت هذه هى براهين سلامة قلب إبراهيم قبل أن يوحى الله اليه ويجعله نبيا، أما معرفة هذا الرب والتواصل معه فلا يمكن أن تتم من دون أن يتقدم الله ليرشد من آمن به بمكانه وصفاته واسمائه وكيفية التواصل معه، ولذلك حينما وصل إبراهيم بقلبه السليم الى هذه الحقيقة، واستطاع بالمنطق أن ينفى الالوهية عن اعظم وأعلي الموجودات فى الكون، علم أن علم المنطق ينتهي هنا، لأنه من المنطقي أن المخلوق أصغر من أن يكتشف الخالق، وإنما فقط يمكنه أن يعرف بعض صفاته، وأن ينفي الألوهية عن مخلوقاته مهما عظمت. وقد أوضح القرآن أن بحث إبراهيم ذلك كان نتاج تفكير مستمر وتقليب للحقائق التى بين يديه وتفاعل مع تلك الحقائق بكل امانة وتجرد، لذلك نجد تعليقاته قد تدرجت كما يلى:

لما سقط القمر من قائمة الاحتمالات شعر بأن الهداية لا بد وأن تكون من الخالق نفسه {...لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ}، ولما كانت الشمس أكبر النجوم فى السماء فكان سقوطها فى الاختبار هو سقوط كل الافتراض، وعندها خلص ابراهيم الى النتيجة المنطقية الصلبة {... فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ انى بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* انى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 79 الانعام.

نلاحظ هنا أن إبراهيم لم يوجه وجهه لله، لأنه لم يعرف الله بعد بهذا الإسم، وانما عرفه بصفاته الظاهرة وهي أنه هو الذى فطر السموات والأرض، وهنا تنتهى قدرة الانسان فى البحث فى عالم الغيب، وهي رفض الشرك منطقا وعقلا بالفطرة وإن لم يكن يدري من هو الذى فطر السموات والأرض بعد. وهذا يعضد فهمنا لقول الله تعالى إنه يغفر الذنوب جميعا إلا أن يشرك به، لأن الشرك تجاوز للفطرة التى فطر الله عليها كل المخلوقات. وهنا لا بد أن نوضح امراً بسيطاً من أمور العقيدة لكنه يخفي على كثير من الناس، وهو أن الشرك لا يعنى الجهل بصفات الله التى لا يصل إليها الإنسان بعقله المحدود، ولكن الشرك يعنى أن يمنح الإنسان بمحض ارادته صفات الألوهية الظاهرة الى مخلوق يعلم حق العلم انه لا ينفع ولا يضر، إذ أن فى هذا التصرف تحقير للخالق بقدر ما هو تحقير العقل الذى منحه الله له. لان مثل هذا المشرك لا يحتاج لنبي يخبره أن الوثن الذى صنعه بيديه لا يمكن أن يكون فى نفس الوقت هو من خلقه. ومن هذا نخلص الى أنه ليس كل من هو غير مسلم فهو مشرك، إذ أن الكثيرين الذين نشأوا فى مجتمعات يغلب عليها الشرك رفضوا دين قومهم بالفطرة وأصبحوا على قاب قوسين أو أدني من الإسلام، ومن هؤلاء نجد الكثيرين فى الغرب الذين رفضوا عقيدة الثالوث بالفطرة، ورفضوا فكرة أن المسيح هو الله أو ابن الله، ولكنهم توقفوا هناك لأن أى علم بعد هذه الخطوة يحتاج لرسول من الله يهديهم او

رسول من عند رسول الله يهديهم للاسلام وهنا تقع المسؤولية على عاتق المسلمين الذين يجاورونهم.

وهنا لا بد أن نذكر بأن داروين الذى ناله من المسلمين أكثر مما ناله من النصارى، لم يكن مشركا، بل إن العكس هو الصحيح إذ أنه قد رفض عقيدة الكنيسة آنذاك لتعارضها مع مسلمات عن حقيقة الكون الذى خلقه الله، وآثر أن يتبع المنطق والعقل على أن يردد طلاسم يمليها عليه رجالات الدين، فكل الذى فعله داروين هو أنه وصل ببحوث أكاديمية فى آيات الله الكونية، وهذا مجال اختصاصه كعالم أحياء، تتعارض مع فهم قومه لقضية الخلق، و أنه أعلن على الملأ أن الانسان نبت من الأرض نباتا و خلق أطوارا تماما كما دعا نوح قومه ليؤمنوا بهذه الآيات من آيات الله، ثم واصل بحثه فى خلق الله الى أن وصل الى مرحلة غامضة من تطور الإنسان وهي المرحلة التى وصفها القرآن بـ { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} فتوقف عن التفسير العلمي لأن تلك الملاحظة كانت خارقة لقانون الطبيعة فسماها داروين بكل أمانة " **الحلقة المفقودة**" لأنها ما كانت لتُعرف إلا بوحي من الله، ولكن بكل أسف فان المسلمين الذين كان يفترض أن يقدموا له ولأمثاله القرآن الذى يفسر هذه الحلقة المفقودة لم يقدموا له شيئا إلا أن كفروه كما كفرته الكنيسة، علما بأن من كفر بعقيدة الكنيسة رغم إيمانه بالله الواحد الاحد قد أصبح فى زمرة المسلمين بفطرته.

نخلص من ذلك الى أن إبراهيم كان أول من وضع منهاجا علميا للوصول الى الله، وحدد فى منهاجه منتهي قدرة العقل منفردا فى البحث، وربما كان ذلك امتداداً لنظام التطور الجيني والفكري الذى بنى به الإنسان، فظهر أول مرة فى إبراهيم ليبشر ببدء عهد جديد للإنسانية وهو عهد سطوة العقل والمنطق.

بعدها تدخل الله سبحانه وتعالي وأتم لإبراهيم نتيجة بحثه وآتاه الرشد:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} 51 الانبياء. هنا رجع إبراهيم الى قومه بثقة العارف المتيقن المجادل: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ التى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ* قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ* قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فى ضَلَالٍ مُبِينٍ* قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ}..... عندها أجابهم...{ قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الذى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} 56الأنبياء. هنا نلاحظ أن القرآن وصف إبراهيم بأنه صار شاهدا على هذه الحقيقة لأن الله قد أرشده إليها.

إذا فإن إبراهيم رفض أفكار قومه، واختار أسلوب البحث العلمي للوصول الى خالق الكون، فوصل الى اقصي نتيجة سليمة يمكن أن يصل إليها الإنسان بالفطرة السليمة، وبذلك كان سبَّاقا فى الاجابة بالمنطق على السؤال الأول الذى يرهق الإنسان فى كل مكان وهو حقيقة الإله الحق.

وقبل أن ننتقل الى بحث عقلاني آخر من بحوث إبراهيم عليه السلام، لا بد أن نشير الى أنه بعد أن عَلِم إبراهيمُ من هو الإله الحق، اتبع نفس الأسلوب الجدلي فى نقل علمه الى قومه المشركين، وهو أنه اجتهد فى أن يدفعهم للتفكر والتدبر:

{وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ* فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ* قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ* قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ* قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ*قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ* قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ* فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ* ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ* قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ* أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} 57-67 الانبياء!

نلاحظ من هذه الآيات أن إبراهيم بعد أن عرف الإله الحق واكتملت له الرؤيا، دخل فى جدال مستمر مع سادة قومه وعامتهم، فلم يجد منهم إلا عنادا وحماقة، ولذلك لجأ الى أسلوبه فى الاثبات العملي وليس المجادلة النظرية فقط. هنا استعمل نظريته فى نفي صفات الألوهية عن المخلوقات العاجزة، وطبقها على أصنامهم الصماء، وترك لهم دليلا يستفذ عقولهم إن كانوا سيعقلون، وهو أن وضع الفأس على رأس كبيرهم لعلهم يستحون من ضيق أفقهم، وقد كان! إلا أن الغرور والكِبر دفعهم لمعاقبة إبراهيم عليه السلام على أن يقبلوا الحق المبين!

خلاصة القول: إن تعامل إبراهيم مع أخطر الأسئلة التى تحير الإنسان وتفرق الشعوب والأمم وهو موضوع العقيدة والاله الحق، كان فى نظره سؤالا منطقيا يبحث فيه الإنسان بالمنطق ويصل لنتائجه بالمنطق وعليه ان يجادل قومه فيه أيضا بالمنطق. وإننا لا نجد فى ذكر الله تعالى لقصة إبراهيم هذه إلا اجازة منه تعالى لهذا المنهاج كمنهاج رباني فى الوصول الى الله والدعوة إليه تعالى، إذ أنه أمرنا أن نتبع ملة إبراهيم وجعلها صفة ملازمة للإسلام.

ولأن قصة إبراهيم فى القرآن ليست إلا مدرسة فكرية متعددة الفصول المعجزة، فقد قص الله تعالى رائعة اخرى من روائع قصص إبراهيم، لا لنجعلها من قصص الأطفال ونفسرها بأساطير"الف ليلة وليلة"، ولكن لنتعلم منها دروسا علمية، وعبراً فى التدبر والحوار لنقدر الله حق قدره....تلكم هى قصة إحياء الموتى!

إحـياء الموتى:

كما أسلفنا فإن القرآن لم يقص علينا تفاصيل الحياة اليومية لأي من الرسل وما كان إبراهيم استثناءً فى ذلك، ولكن من المؤكد بنص القرآن أن إبراهيم عليه السلام دخل فى خلافات وجدل مع قومه على كل المستويات الى أن ذاع صيته واشتهر عنه أنه أتى بدين جديد، وادَّعي أنه يعلم

الإله الحق ووصف للناس الفرق بين الأوثان و هذا الإله الحق، ومن ضمن ما وصف أن ربه وحده هو الذى يحي الموتى. هنا لا بد أن نتوقف عند لوحة قرآنية فنية رائعة تحمل معاني كبيرة، وهي اللوحة ذات الكلمات القليلة التى وصفت كيف ذاع صيته فى قومه: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} هذه الكلمات تعكس أن سيرة إبراهيم أصبحت على كل لسان وأنه بطبيعة الحال أصبح يشكل تهديدا على استقرار المجتمع المشرك. فإذا كان صيته قد ذاع لهذه الدرجة، فمن الطبيعي أن يستشعر الملك وحاشيته خطورة الفتنة السياسية، خصوصا إذا بلغهم أن هذا الفتي بدأ يتحدث عن حياة بعد الموت، لأن مثل هذه العقيدة تهدد كل ملك ظالم لا يؤمن بيوم الحساب، وتعطي الناس أملا فى ظل عدالة قدسية الاحكام والميزان! إذاً لا غرابة أن الملك استدعاه للدخول فى حوار لعلّه يحافظ على عرشه وهيبته أمام الناس الذين يتداولون قصة هذا الفتي.......!

قصة إبراهيم مع الملك فيها غموض رائع، لأن الغموض فى القرآن أحيانا إنما يقصد به الله تعالى استفزاز العقل للتدبر واستنباط الحقائق من غير أن يصرح الله بها، إذ أن هذا تطبيق عملي لمصطلح "ملة ابراهيم الحنيفية" {اسلوب تمحيص الأدلة وإختيار المنطقي منها}! وكثير من الجوانب الغامضة فى القصص القرآني تصبح سهلة الفهم بل ورائعة المعنى حينما نرتل القرآن ترتيلا، أى ندرس الآيات ذات المعاني المتشابهة واللغة المتشابهة معاً كأنها أرتالٌ مرتَّلة!

ومضي القرآن يرسم لنا تلك اللوحة اللّغوية الساحرة التى تحكي قصة ابراهيم مع مفهوم الموت والحياة:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الذى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذى يُحْيِي وَيُمِيتُ **قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ** فَإِنَّ اللَّهَ يأتى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الذى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا.... } 258-259 البقرة!

ولأن مثل هذه الرائعة الفكرية والفنية ليست من قصص الأطفال، وإنما كانت دروسا وعبرا للنبي ولمن قرأ القرآن الى يوم القيامة، فمن الضروري أن نرسم المشهد كما رسمه القرآن، ونميز كل الشخصيات التى شاركت فى الحوار حتى نستطيع استنباط أكبر قدر من الحقائق التى أراد الله أن يعلمنا إياها من هذه القصة:

1. القصة رواية من الله تعالى فى القرآن وليست حديثا موضوعا أو تأويلا من مجتهدين. هذه الحقيقة قد تبدوا بسيطة لا تحتاج الى أن تذكر، ولكن الواقع يقول إنها بسيطة كبساطة سقوط التفاحة على رأس نيوتن الذى غير تاريخ العالم بها. نحن دائما ننسي أن الله حينما يروي لنا رواية فلا يحق لنا أن نفهمها أو نفسرها وفقا لفهمنا القاصر، لأننا بذلك إنما نفرض على الله جهلنا

وقصور فهمنا، وقد يقود ذلك الى أن نُحَمِّل كلمات الله البليغة معنى خاطئا كما فعلت الإسرائيليات فى تأويل التوراة.

2. الرواية موجهة للرسول صلى الله عليه وسلم إذ انها ابتدأت بـ" الم تر...يا محمد الى الذى حاج ابراهيم فى ربه....."! وحينما يوجه الله تعالى الخطاب للنبي بهذه الالفاظ فذلك يوحى بأنه لا يصدر أحكاما شرعية وإنما يروي قصة ذات فصول وتفاصيل تستدعي الانتباه والخيال الخصب! هذا المدخل يوحى بأن المستمع مطالب بأن يرسم اللوحة ويتخيل تفاصيلها حتى يكتمل الفهم، وفي الغالب تتبع مثل هذا المدخل صورة فيها حركة أو حقائق خفية يدعونا الله للتدبر فيها، مثال لذلك

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ...} 243 البقرة

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ..} 43النور

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} 1الفيل

3. الحوار دار بين ملك عظيم فى زمانه وبين نبي عظيم فى كل الأزمان، وبالتالي لا يحق لنا ان نفترض أن حوارا ساذجا يدور بين الرجلين بغض النظر عن اختلاف عقيدتهم.

4. أتبع الله الحوار بلوحة رائعة اخرى ارتبطت بقضية إحياء الموتى، ليعضد الحقائق المذهلة التى سيوحى بها الحوار بين الملك وابراهيم، مما يؤكد أن القصة لم ترو فى القرآن لتضاف فقط الى كتب الأطفال، وإنما هى قصة تكشف اسراراعلمية خطيرة تهم كل مفكر وباحث فى أسرار الكون والموت والحياة.

الظاهر من الحوار الذى دار بينه وبين الملك، أن إبراهيم عليه السلام والذي لم تكن بيده عصا موسى حينما حاجج فرعون، قد استعمل المنطق فقط فى مجادلة الملك، ولذلك اختار من خصوصيات الإله الحق انفراده بإحياء الموتى! ويمضي سياق الآيات ليوحي بصورة غامضة وسريعة أن الملك كسب الجولة الأولى فى المحاججة، إذ أن السياق القرآني انتقل بسرعة ليعرض حجة اخرى من حجج إبراهيم، وهي أن الله يأتى بالشمس من المشرق وهنا فقط بهت الذى كفر وكسب إبراهيم المجادلة! هذه السرعة فى تداخل الأحداث توحي بمعلومة محذوفة ولكنها جدٌّ خطيرة و يخشي الناس من الخوض فيها، وهي لماذا لم يحاجج إبراهيم كثيرا حينما زعم الملك أنه يحي ويميت ايضا، ولماذا سارع إبراهيم باستعمال حجة اخرى أكثر افحاما ليكسب المناظرة؟ أيكون الملك قد صدق فى إحياء الموتى فى نظر إبراهيم؟

فى المصحف توجد علامة "صلى" فوق كلمة "وأميت" التى قالها الملك، وهذه العلامة تفيد أن التلاوة الصحيحة تمنع التوقف هنا، مما يدل على سرعة تداخل الأحداث. أيضا نلاحظ عدم وجود أى من حروف العطف ولا حتى حرف الفاء الذى يفيد سرعة تداخل الاحداث، وكأن الله يوحى

الينا ان إبراهيم لما رأى ما رأى كان سريع البديهة لدرجة أنه ما ترك للملك فرصة يهنأ فيها بكفره، فصدمه بالضربة القاضية من غير اضاعة وقت فى المحاججة فى أمر لم يكن لابراهيم علم به، غير انه غامض ويستحق البحث فى وقت لاحق! بمعني آخر فإن السياق القرآني يرسم لوحة أو فيلما سينمائيا للحظة الحوار يفيد أن إبراهيم سارع بحجته التالية فور ادعاء الملك انه يحي ويميت، مما يدل على أن إبراهيم قد قبل حجته..... أى أن الملك أحيا ميتا أمام إبراهيم!

وردت فى كتب التفاسير روايات لا تعبر إلا عن ملاحظة المفسرين لغموض اللغة وعدم قدرتهم على فهم ما حدث، مما جعلهم يلجأون الى قصص افتراضية حتى تحتمل الآيات معنى يناسب خيالهم ويجنبهم الحرج من الخوض فى معاني خطيرة كإحياء الملك للموتي الذى يبدوا جليا فى الآية. وأشهر هذه الروايات هى أن الملك أتى برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر حيا ليثبت لإبراهيم قدرته على احياء الموتى، ولكن فى هذا المثال كثير من القصور، بل وفيه الكثير من التقليل من قدر الملك الذى كان عظيما فى زمانه، ومن قدر إبراهيم الذى ظل عظيما فى كل زمان! فالرد المنطقي لهذا التصرف كان أن يطلب إبراهيم وهو بارعٌ فى الجدال، من الملك ان يحي الرجل الذى قتله وتنتهي المحاججة هنا من غير اللجوء الى حجة الإتيان بالشمس من المغرب! الظاهر والذي لا مفر منه هو أن الملك أحيا الموتى أمام إبراهيم، او هكذا بدأ الأمر الى إبراهيم لذلك انتقل بسرعة الى حجة اخرى أكثر إعجازا!......ثم بعد ذلك ذهب يسأل ربه {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} مما يؤكد أن الأمر كان مدهشا له!

من المهم جدا أن نستوعب أن القرآن يروي مقتطفات من القصة ولكن يترك لعقولنا إكمال التفاصيل، لأن فى التدبر عبادة. ولو أردنا أن نعطي مثل هذه القصة حقها لا بد لنا أن نستدرك أن مثل هذا الحوار ما كان له أن يتم من وراء جدر و أبواب موصدة، لأن الملك كان حريصا أن يثبت أحقيته فى الملك ويدحض حجج إبراهيم أمام الملأ كما فعل فرعون مع موسى، لأن هذا شأن الملوك حينما يهدد مفكرٌ عروشهم! إذاً فمن المنطقي جدا أن الملك كان مسلحا بكامل حججه وكان يعلم أن ابراهيم سيحاججه فى أمر إحياء الموتى، لذلك فقد أعد عدته فلما رمي إبراهيم حجته الأولى كما رمي موسى عصاه، دحض الملك حجة إبراهيم فأحيا ميتا أمام ناظريه، لذلك مضى إبراهيم من غير أن يلتقط أنفاسه الى الضربة القاضية فبهت الذى كفر!

لا بد لنا هنا وقبل أن نبرر القصة بتأويلات تتناقض مع ما علمنا الله من أسرار الموت والحياة، أن نستدرك مستوي ذكاء إبراهيم عليه السلام، ونستدرك أسلوبه فى البحث عن الإله والحوار مع قومه لأن الشخصية واحدة وأسلوب التفكير واحد. الملاحظة الهامة فى هذا الحدث أنه كان حواراً فكرياً بين إبراهيم والنمرود لتبادل المعلومات والحجج ولكن لم تكن فيه معجزات، وفي مثل هذه الروايات فان أيا من الأفكار قابل للبحث وتمحيص الأدلة. مما لا شك فيه أن إبراهيم عليه السلام

دخل الحوار بمفهوم محدد عن الموت والحياة، وانه كان يظن أن مفهوم الموت واحد وانه لا يحي الموتى الا الله، لذلك كانت تلك اولى حججه لِما فيها من مدلولٍ سياسي يقود الى حياة بعد الموت وحسابٍ يوم الحساب. ولكن لأن قصة إبراهيم فى القرآن تقص علينا قصة حياة مفكر متفتح الذهن سريع البديهة وجرئ فى إبداء رأيه، فقد أوحت إلينا بهذه النقلة السريعة من موضوع الى آخر بأن ابراهيم وبسرعة البرق عدَّل من فهمه لقضية "الموت"، وانتقلت فى قاموسه من قائمة المسلّمات المحسومة، الى قائمة التساؤلات التى تحتاج لمزيد من البحث، ولكن لأن إيمانه بالله كان إيمان نبيٍ مُوقِن، فقد سارع لحسم الحوار بالضربة القاضية! إبراهيم كان يعلم أن إحياء الموتى أمر يخضع لقانون الطبيعة الذى خلقه الله تعالى ولم يكن من حقه أن يفتري على الله ما لا يعلم، وانما قرر حينها ان يسأل ربه ليعلّمه المزيد فى قضية الحياة بعد الموت مما يؤكد ان الملك احيا الموتى، وأن إبراهيم قد قبل أن حجة إحياء الموتى بفهمه القديم تحتاج لمراجعة وفهم جديد!

ولأن رواية القصة كلها كانت وحيا من الله تعالى موجها للنبي صلى الله عليه وسلم بدأه الله بمدخل خاص جدا: ألم تر يا محمد الى الذى حاج إبراهيم فى ربه.....فقد مضى القرآن، تأكيدا لما ذهبنا اليه، يُحدِّث محمدا صلى الله عليه وسلم عن قصة اخرى من قصص الإحياء الرباني للموتي بعد هذه الآية مباشرة و قبل أن يعود لقصة إبراهيم فيوحي لنا بما حدث أمام الملك:

{أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ **أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا** فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 259 البقرة!

هنا لابد أن ننتبه الى أن هذا السياق ترك قصة إبراهيم والملك جانبا، ومضي يروي للنبي قصة اخرى مرتبطة بإحياء الموتى. هذه القصة تشير الى نبي الله عذير فى بعض روايات المفسرين وإلي غيره فى روايات اخرى، ولكن ما يهمنا هو مضمونها القرآني الذى لم يفصح عن هوية هذا الرجل. هذا التغيير فى الموضوع يفيد أن الله تعالى إنما قصَّ القصة ليوحي إلينا علما جديدا نصحح به مفهومنا للحياة والموت ولكنه لا يقص علينا قصة إبراهيم والملك من باب الترف الفكرى. فالآيات تدعونا لمراجعة فهمنا لمفهوم الحياة والموت من جذورهما! يمكن للإنسان أن يظن جهلا أنه يخلق حياة جديدة إذا بذر بذورا فى الأرض أو حملت انثى جنينا وما تلك بحياة جديدة، إذ أن الله هو الخالق من عدم، وايضا قد يظن من ينقذ حياة من مرحلة موت كاذب انه أحيا ميتا ولكن ذلك ليس إحياءً للموتي وانما هو انقاذ لحياة كادت أن تزهق! هذه مفاهيم جديدة توحي بها الآيات ليبقي مفهوم الموت والحياة الذى يختصُّ به الله وحده أعلى من هذين الفهمين

القاصرين! هذا التفسير بالطبع يقود الى الافتراض أن إبراهيم عليه السلام سيقوم ببحث جديد فى قضية إحياء الموتى.

إذًا فالقصة كلها قُصد منها إبراز قدرة الله على إحياء الموتى بعد تمام زوال الحياة والجسد الذى يحتويها، كما وصفت هذه الآية التى اعترضت قصة إبراهيم لتجعل موضوع القصة أصلا هو: مفهوم الحياة والموت وليس الملك وإبراهيم!

من هنا يمكننا أن نستنتج أنه ربما كانت للملك مقدرات طبية تمكنه من معالجة من كان فى حالة موت كاذب أو إغماءة او غيرها مما كان يظن فى زمانه أنه موت نهائي. فى زماننا هذا فان كثيراً من الناس تتوقف قلوبهم ويتوقف تنفسهم ولكن يمكن إفاقتهم من الغيبوبة بإجراءات طبية عادية تحدث فى أغلب مستشفيات العالم. وأيضا هناك الكثيرون الذين يدفنون أحياء فى القري والأرياف فى الدول ذات الإمكانيات المحدودة، فور توقف التنفس والقلب، ظنا من الناس أن ذلك موت لا رجعة منه الشئ الذى لا يعتبر موتا فى معظم أنحاء العالم المتطور.

بعد هذه المداخلة القرآنية الرائعة التى أضافت الى علم الإنسان آنذاك فى قضية الموت و الحياة الكثير المدهش، يعود السياق القرآني لقصة إبراهيم الذى كسب جولته مع الملك ولكن بطبيعة المفكر الذى لا يلجأ لتأويلات قاصرة ولا ينكر حجة مقنعة وإن كان مصدرها ملكا كافرا. وتأكيدا لما ذهبنا إليه من تأويل، فإن الآية التالية توحي بأن إبراهيم وضع الأمور فى نصابها، فلا هو أنكر حجة الملك ولا هو تزحزح فى عقيدته الراسخة فى أن إحياء الله للموتي لا بد وأن يختلف كماً وكيفا مما شاهده أمام الملك، لذلك بدل المحاججة فى أمر لا علم له به مضى إبراهيم الباحث المفكر الى ربه محتارا يسأله :

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ **لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 260البقرة!

من هذا نستنتج أن تجربة معالجة حالة الاغماءة التى كان يُظن أنها موت أثارت فضول إبراهيم عليه السلام، وكان لا بد أن يصل الى حقيقة قاطعة فى أمرها. ولما كان الله يعلم مافعل الملك، وعلم شكوك إبراهيم، كان طبيعيا أن يكمل له الجزء الذى غاب عليه وحيره فى القصة، ولذلك عندما سأل إبراهيم الله"رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى"، بيَّن الله لنا أن مااحتاج اليه إبراهيم كان الاطمئنان وليس الإيمان، إذ أن ايمانه لم يتزعزع ولكنه فقط أدرك قصورا فى علمه. والاطمئنان هو السكون، وهذا يعنى أن قلب أو عقل وفكر سيدنا إبراهيم منذ أن رأى تجربة إحياء الميت أمامه صار فى حالة حركة واضطراب، أى أنه بدأ يسأل نفسه عن حقيقة الموت والحياة وحقيقة إحياء الموتى، وما هى حدود مقدرة الإنسان، وهل يمكن للإنسان أن يحيي الموتى أم أن ما رآه

سحر أو خداع نظر؟ وفوق هذا كله ما طبيعة مفهوم الحياة بعد الموت عند الله تعالى؟ وقد علم إبراهيم أن مثل هذه الأسئلة ما كان يجب أن يدعها تفسد الحوار مع الملك الكافر، لذلك غيَّر موضوع الحوار حينها الى ملكوت السموات الذى لا يمكن للإنسان أن يتدخل فيه، ثم مضى الى العليم الخبير يسأله عن هذا الأمر حتى يطمئن قلبه.

نلاحظ أن إجابة الله تعالى أصابت بيت القصيد لتجعل قلب إبراهيم مطمئنا. فالله لم يقل له أحضر طيرا واكتم أنفاسه ودعه جسدا كاملا ميتا أمامك وأنا ساحييه، لأن الله سبحانه وتعالي قد علم أن إبراهيم رأى هذه التجربة أمام الملك وهي التى أصابته بعدم الاطمئنان أصلا، لذلك انتقل به الله تعالى الى تجربة لايمكن ان يدخله فيها شك فى مقدرة الله على إحياء الموتى كما وصفت الآيات.

قال له أحضر أربعة من الطير وقطعهن قطعا، واخلط القطع مع بعضها البعض، ثم اجعل على كل جبلٍ كوماً، ثم ادعهن ياتينك **سعيا** أى قطعاً. عملية التقطيع والتوزيع على الجبال هذه تؤكد لنا أن الله تعالى قصد أن يرى إبراهيم مفهوما مختلفا لإحياء الموتى، يختلف كما وكيفا عن التجربة التى حدثت أمام الملك وأثارت دهشة إبراهيم عليه السلام. فكأن الله تعالى يوحى إلينا أن سر الحياة الغامض يرتبط بجسد متكامل يعمل كوعاء يحتوي تلك الحياة، وكأنه ايضا يوحى لنا ان الحياة فى الجسد يمكن أن تضطرب وتتعطل مؤقتا، ولكن ما دام الجسد والوعاء الذى يحتويها متماسكا وكاملا فإن من الممكن إذا عرف الإنسان أين تكمن العلة التى عطلت الحياة، إعادتها لطبيعتها فى ذات الجسد وهذا ليس إحياءٌ للموتي وانما إنقادٌ لحياة كادت أن تنتهي. أما إذا تمزق الوعاء أو الجسد الذى يحتوي الحياة فليس من جامعٍ له ولا رادَّ للحياة إليه إلا الله، وهنا يتضح الفرق العلمي البسيط بين إحياء الموتى الذى ادَّعاه الملك وإحياء الموتى الذى وصفه الله تعالى فى الآية التى كسي فيها العظام لحما، ثم الذى نفذَّه أمام عيني إبراهيم ليطمئن قلبه.

وهناك ملاحظة علمية هامة اخرى فى الآية وهي أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يجعل على كل جبلٍ منهن جزءاً، والمعروف أن صعود الجبال أمرٌ منهك ويأخذ ساعاتٍ خاصة إذا كان إبراهيم سيصعد أربعة جبال على الأقل بعد أن قتل الطير وقطعهن، وربما فى ذلك إشارة علمية أبلغ وهي أن الموت ثلاثة انواع: الأول هو موت المخلوق ولكن لا يشترط أن تكون اعضاؤه قد ماتت، وهذا ما يحدث فى عمليات نقل أعضاء الموتى للمرضى الأحياء، إذ أن نقل أعضاء الميت الى إنسان حي فى فترة زمنية محددة يمكن أن يحتفظ بحياة العضوالمنقول وإن كان صاحبه قد مات. أما النوع الثانى فهو موت العضو بكامله كالفشل الكلوي وغيره. وفي هذه الحالة لا يشترط ان تكون الخلايا المكونة للعضو قد ماتت...اما النوع الثالث فهو مرحلة موت الخلايا الحية فى الأعضاء الممزقة نفسها وهذا الموت يستحيل معه على غير الله اعادة الحياة لا الى الميت ولا الى الخلايا، وهذا الموت الخلوي يحدث بعد فترة طويلة نسبيا ولكنها لا تقل بأي حالٍ عن الفترة الزمنية التى

استغرقها إبراهيم ليصعد أربعة جبال ليضع أجزاء الطير فيها، فسبحان الذى خلق الموت والحياة وأنزل القرآن.

نحن نعيش فى زمان وصلت فيه قدرات الإنسان فى التعامل مع الموت الى مراحل مذهلة، إذ أن بعض المرضى يظلون فى أجهزة التنفس الاصطناعي سنوات وتظل أعضاؤهم فى حالة حياة، فلا يعقل أن نكون فى حياتنا اليومية نتعامل مع الموت بهذا القدر من المعرفة، ولكن حينما نأتي لنتدبر آيات الله ونفسر ما دار بين إبراهيم والملك ننسي كل ما توصل إليه الإنسان بقدرة الله من معرفة الكثير من أسرار الموت والحياة، ونسعي لتفسير مثل هذه الآيات بتأويلات ما كان لها أن تكون ذات قيمة الا فى زمن كان فيه علم الانسان عن الموت والحياة محدودا جدا. الإصرار على مثل تلك التأويلات ليس من شأنه إلا أن يميت ديننا وعقولنا ويخفي روعة القرآن وسبقه لكل علوم واكتشافات الإنسان.

ولا بد أن نذكر هنا أن المفسرين القدامي ما كان لهم أن يفسروا هذه الآيات إلا بما آتاهم الله من علمٍ محدود فى أمر الموت والحياة، ولذلك فان تأويلاتهم كانت مقبولة بقدر ما كان متاح للإنسان من علم بأسرار الموت حينها، أما نحن فعلينا واجب شرعي وهو أن نعبد الله بقدر ما فضلنا به من علوم بأسرار خلقه وأسرار الكون.

نعود هنا لنذكر بأسلوب إبرهيم الجدلي وتعطشه لمعرفة الحقائق بصورة تقنع عقله وإن احتاج الأمر أن يسال الله تعالى أن يمارس أمامه بعضا من قدراته الإلهية التى لا يراها البشر. ونلاحظ أيضا أن الله تعالى لم يستنكر على إبراهيم السؤال، فطالما كان السؤال منطقيا، فان الله يحب من يتدبر فى صفاته وقدراته ويسأله مزيدا من العلم! فالملائكة تسأل والرسل تسأل فلماذا لا نسأل نحن طالما كان الله يجيب؟ فقد رأينا أنه حتى الملائكة سألت الله عن الحكمة من خلافة آدم له فى الأرض، فما كان من الله إلا أن جعل آدم يجيب على هذا السؤال المنطقي. ويبدو لنا أن واحدا من أهم اسباب تخلف المسلمين اليوم وأنهم اصبحوا غثاء كغثاء السيل، هو انهم توقفوا عن التدبر فى آيات الله وتحول القرآن عندهم لكتاب يتغني به الناعون فى المآتم، ولوحات فنية تزين مكاتب وبيوت الناس من غير أن يقرأوا ما كتب فيها. ولعل هذه المداخلة تقودنا للتعقيب على سؤال موسى عليه السلام الذى سأل الله أكبر من ذلك فما غضب الله عليه بل ولم يرفض الإجابة، وإنما أراه عمليا لماذا يستحيل عليه أن يراه! فقد سأل موسى الله أن يدعه ينظر اليه، وهو طلب يدل على طبيعة موسى البشرية التى لا تختلف عن أى بشر آخر، اذ ان كل البشر يتساءلون عن الله ويتمنون لو استطاعوا رؤيته، ولكنَّ الكثير من العلماء ورجالات الدين التقليديين يتهمون كل من يخطر على باله مثل هذا التساؤل بنقص الإيمان والتجرؤ على الله، الشئ الذى لم ينعكس فى

حوار موسى مع الله فى ذات الموضوع كما ورد فى القرآن. وقبل أن نري ما دار بين موسى والله تعالى فى القرآن من المفيد أن نراجع ذات القصة كما وردت فى توراة اليوم للمقارنة:

{وقال موسى :"ارني مجدك". فقال الرب: " اجيز احساناتي امامك ، واذيع اسمي "الرب" امامك . واغدق على من اشاء ورحمتى على من اريد" ، واضاف :" ولكنك لن ترى وجهى لان الانسان الذى يراني لا يعيش". ثم قال الرب: " لدي مكان قريب منى . فقف على الصخرة، وعندما يعبر مجدي، اضعك فى نقرة من الصخرة، واحجبك بيدي حتى اعبر، ثم ارفع يدي فتنظر ورائي ، اما وجهي فيظل محجوبا عن العيان".} سفر الخروج 33:19-23!

لا يخفي على أى عاقل بصمات اليهود فى تحريف التوراة وإضافة فهمهم القاصر فى ذلك الزمان لكلمات التوراة الأصلية، وتشخيصهم لله فى جسد أشبه بجسد الإنسان وأنه فقط يستحيل رؤية وجهه ولكن ظهره يمكن رؤيته. والظاهر أيضا أن قصة الجبل كانت موجودة فى الرواية الأصلية ولكن التحريف غيرها الى حفرة يُدخل الله فيها موسى حتى يمر ولا يبقي إلا ظهره، حينها فقط يرفع الرب يده ليترك موسى يرى ظهره، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

القرآن روى القصة بحكمة ربانية معجزة:

{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} 143 الاعراف!

هذه الآية توحي بالآتى:

1. لم يستنكر الله تعالى سؤال موسى ولم يعظه أن يكون من الجاهلين كما أجاب نوح، وإنما فقط أوضح له عجز البشر عن رؤية الله تعالى.

2. أوضح له سبب تلك الإستحالة بتطبيق عملي بتجليه للجبل الذى اندك وخر موسى صعقا.

3. لما كان الله نور السموات والأرض، والنور طاقة خارقة فإن استحالة رؤية البشر لله يمكن فهمها بمفهوم فيزيائي بسيط مستنبط من طبيعة الجبل الذى اختاره الله ليكون محط الأنظار فى هذا البيان، إذ أن الله تعالى قصد أن يرى موسى دليلا عمليا وعلميا على استحالة قدرة الإنسان على رؤيته تعالى، وقصد أن يروي لنا ذلك الحدث وهو انهيار الجبل بكل صخوره ومعادنه لما تعرض للطاقة الإلهية الجبارة، ربما لنفهم أن طبيعة الانسان لا تحتمل أن تتعرض مباشرة لنور السموات والأرض وجلال الله! إذاً فالأمر ليس أمر حلالٍ أو حرام، ومسموح به او غير مسموح به، ولكنه يقع فقط فى إطار الممكن وغير الممكن، مما يجعل السؤال جائزا لكن الاستجابة مستحيلة نتيجة لعجز الإنسان بتركيبه الطبيعي. وسنعود لدراسة هذه القصة من زاوية اخرى فى آخر هذا الكتاب فى باب "سدرة المنتهي " إن شاء الله.

قصدنا من هذه القصة العابرة أن نؤكد على أن الأنبياء كانوا بشرا، ينتابهم فضول البشر ويسألون الله ما يشاؤون ويجيب الله أسئلتهم إذا كانت قدراتهم العقلية والجسدية تحتمل الإجابة من غير غضب أو زجر.

من هذا المفهوم العام لا بد لنا أن نفهم طبيعة إبراهيم عليه السلام المجادلة ورغبته المستمرة أن يفهم الأمور على حقيقتها ما استطاع الى ذلك سبيلا، السمة المميزة لإبراهيم التى لم تغضب الله تعالى بل أصبحت سمة من سمات نبوءته وشخصه. وخلاصة القول، فإن قصة إبراهيم مع إحياء الموتى علمتنا الآتى:

1. إدخال مفهوم الموت الكاذب الى محيط معرفة الإنسان، زمنا قبل أن يصبح هذا المفهوم من العلوم التى يتعامل معها كل الأطباء.

2. إيضاحا عمليا للفرق بين إنقاذ حياة كادت أن تزهق، الشئ الذى يمكن للبشر أن يقوم به لو أوتي العلم، و بعث الموتى بعد أن يصبحوا رفاتا فى الأرض الشئ الذى لا يقدر عليه إلا الذى بدأ الحياة من عدم.

ولما كان إبراهيم المفكر هو أول من سنَّ للناس هذا المستوي الراقي من التفكير والتدبر فقد اتخذه الله خليــلا!

واتخــذ الله إبراهيــم خليــلا:

ابراهيم خليل الرحمن، مقولة شائعة، ولكن إذا سألنا ماذا تعنى خليل؟ يكون الرد أسرع من التفكير فى النهايات بأن خليل تعنى صديق!!! واذا سألت سؤالا مباحا: وهل للرحمن أصدقاء من الإنس أو الجن؟ يصعق المسؤول ببساطة وبديهية السؤال، وغرابة إجابته إذ أن الله تعالى يقول:

{إِنْ كُلُّ مَنْ فى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أتى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا* وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}93-95 مريم. فكيف إذاً يكون العبد صديقا لسيده ومالكه؟ وهل يعقل أن يتخذ الرحمن إبراهيم صديقا، ولا يتخذ خاتم الانبياء وصفوة الرسل الذى حفظ لنا قرآنه وسنته وما كنا لنعرف عن إبراهيم عليه السلام نفسه شيئا لولا اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم لحمل أعظم الرسالات وختامها المسك؟

حتى نصحح هذا الفهم الشائع لابد أن نتعرف على عقلية الإنسان فى ذلك الزمان لنفهم كيف اتخذ الله إبراهيم خليلا كما فى قوله:

{وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ **وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ** حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} 125 النساء!

قلنا: إن الله سبحانه وتعالي ظل يرسل الأنبياء لتعليم الإنسان كيفية التعامل مع قوانين الطبيعة، بنفس المستوي الذى يكلفهم فيه بتطوير البشرية روحيا وأخلاقيا، ويربطونهم بخالقهم وآخرتهم. على أن رسالات الرسل اختلفت باختلاف الزمان والمكان وإختلاف معضلة المجتمع الروحية والعقائدية من ناحية، وحوجاته المادية والدنيوية من ناحية اخرى. فبعض رسالات الرسل احتوت على علوم دنيوية كانت بمثابة طفرة كبري ولكن فائدتها كانت محسوسة لأقوامهم فقط، وما كان لفائدتها أن تدوم أو حتى تتعدي قوم الرسول المعنى، بينما بعض الرسالات اشتملت على علوم ودروس وطفرات تفيد البشرية فى كل زمان ومكان. وحتي يتضح هذا المعنى يجب أن نضرب أمثلة ببعض الأنبياء قبل وبعد سيدنا إبراهيم لنقارن بين محتوي رسالاتهم:

1. رسول الله نوح عليه السلام علم قومه صناعة الفلك، ولكن هذه الطفرة العلمية تفيد فقط من يسكنون السواحل.

2. رسول الله ادريس علم الإنسان الزراعة فى مصر، وهذه فائدة عامة لكل البشر نقلت الإنسان من مرحلة الاعتماد على رحمة الطبيعة الى مرحلة تسخير الأرض والطبيعة لتأمين غذائه.

3. رسول الله يوسف عليه السلام علم قومه تفسير الأحلام، وإدارة الكوارث..وأيضا لاتفيد إلا قلة.

4. رسول الله داؤود عليه السلام علم قومه صناعة الحديد، وأيضا هذه الطفرة تفيد فقط من يتعاملون مع الحديد.

5. رسول الله سليمان عليه السلام امتلك الجن والريح ولكن زال كل سلطانه بموته.....

6. رسول الله عيسى ابن مريم أحيي الموتى وعالج أمراضا مستعصية باذن الله ولكن انتهت فائدة معجزاته بنهاية عهده....... وهكذا.......

فماذا قدم إبراهيم عليه السلام للبشرية ليستحق أن يتخذه الله خليلا؟

كما قلنا: إن الانسان تطور عقله تراكميا وفقا لطبيعة الأمشاج الوراثية التى من خواصها انتقاء الأفضل وإحداث طفرات جينية تورث الجيل الجديد صفات انقي من الجيل القديم. وايضا تراكمت خبرات الإنسانية التى توارثتها جيلا بعد جيل نتاج تعاملهم العشوائي مع الطبيعة وقوانينها، على أنه الى عهد إبراهيم عليه السلام لم تكن لدي الإنسان وسيلة أو منهج علمي يمكن عن طريقه دراسة واقعه وتطوير نفسه بصورة علمية ومبسطة.

حاجة الإنسان فى ذلك الزمان وفى أى زمان، الى أسلوب علمي للتفريق ما بين الحقيقة والوهم فى التعامل ما بين الطبيعة والإنسان من ناحية، وما بين الإنسان والانسان من ناحية اخرى كانت مُلِحَّة جدا، ولكن مثل هذه الطفرة العقلية تحتاج الى مفكر أو فيلسوف يكون مدرسة وحده ليقوم بهذه الطفرة الفكرية فى تاريخ الإنسان الذى أصبح عقله قابلا لمثل هذه النقلة الكبيرة فى أسلوب التعامل مع الواقع. وهنا بعث الله إبراهيم رسولا وكان من أهم صفات رسالته أن يخاطب العقل

البشري ويحرره من الجهل والأساطير و يعلم الإنسان منهاجا علميا "يفرج" به بين الحقيقة والوهم ، كما رأينا فى جوانب حياة ابراهيم التى درسنا، فاتخذه الله خليلا.. فما ذا تعنى خليل؟

خل لها معنى واحد وهو الشي الذى يتقارب فروعه، ومرجع ذلك إما الى دقة أو فرجة كما ورد فى معجم مقاييس اللغة، وإنما سمى الصديق خليلا لتقارب الصلة بين الصديقين وضيق الفرجة بينهما. و**الخلل** هو الفرجة ما بين الخطأ والصواب، ولذلك حينما يقال إن هذا الجهاز فيه خلل يقصد أن فيه علة صغيرة أو فرجة ضيقة. و**الخلال** هو المشط الذى يستعمل لتفريج الشعر من بعضه. إن كان هذا هو معنى كلمة خليل فى اللغة فكيف كان إبراهيم خليلا وخليلا لمن؟

رأينا فيما سبق جوانب من قصة إبراهيم وكيف أنه استطاع أن يصل الى الله ببحثه العلمي فقط قبل أن يوحى الله اليه، ثم انه قبل بلا مجادلة إمكانية إحياء الإنسان لبعض حالات الموت الكاذب، ولكنه ميز بين هذا الإحياء والقدرة الإلهية لجمع العظام ولـَّم اللحم وإعادة الحياة من عدم. نفهم من ذلك أن الله قد أرسله للناس بالاسلوب الذى يعلمهم خلق **"فرجة"** مابين الحقيقة والوهم، خلق فرجة ما بين الخطأ والصواب، ورحمة بالإنسانية اتخذ الله إبراهيم خليلا. هنا فقط يمكن أن نكتشف الخطأ اللغوي ونعرف أن إبراهيم ليس خليلا للرحمن "بمعني صديق" وانما خليل من الرحمن للإنسان يعلمه كيف يستعمل عقله فى اكتشاف الأسرار والتمييز بين الحقيقة والوهم! وقد سمي الله تعالى مدرسة إبراهيم الفكرية تلك "بالملة الحنيفية" وأمر نبيه الخاتم والمسلمين أن يتبعوا ملته تلك:

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ **مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا** وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 120-123 النحل.

ملّ: لها معنيان أحدهما تقليب الشئ، والآخر غرض من الشئ. ومنها يتململ على الفراش، أى يتقلب!

الحنف: الميل و يتحنف: أى يتحرى أقوم الطريق!

فما هى إذاً ملة ابراهيم الحنيفية؟

إن الملة هى تقليب الشئ بحثا عن غرض فيه، والتحنف هو التمايل لتحرى الطريق القويم.

اذاً فالملة الحنيفية، هى تقليب الأشياء بحثا عن غرض محدد هو الحقيقة، ولأن الحقيقة نفسها نسبية فى الزمان والمكان، فانك دوما تحنف عنها عندما تشبع حاجياتك النسبية منها الى حقيقة اخرى أيضا تكون نسبية... وهكذا... هذا الأسلوب "الملة الحنيفية"، هو ما يطلق عليه أهل الفلسفة حاليا "الجدلية"، وهو الاسلوب الذى قد استغله إبراهيم عليه السلام للتفريج ما بين الحقيقة

والوهم، وما بين الخطأ والصواب...فكيف تنطبق هذه المعاني على ما عرفنا حتى الآن من سيرة ابراهيم؟

بحث إبراهيم عن خالق هذا الكون....وجد الأصنام أمامه، ململ حقيقة الإله والأصنام فى عقله فلم يجدها تتفق مع صفات الإله الحق الذى خلق كل الكون، فحنف عنها وقال لأبيه وقومه: {انى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فى ضَلَالٍ مُبِينٍ}. ثم بدأ رحلة بحث طويلة .... رأى الكوكب عاليا فى السماء، حنف إليه وافترض انه ربه، أفل الكوكب، ململ الفكرة فى عقله، رفض الكوكب. وقَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ... فرأي القمر بازغا فحنف اليه.. أفل القمر ..ململ الفكرة فى عقله باحثا عن الحقيقة ....قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ...رأى الشمس بارزة وكانت أكبر، حنف اليها..أفلت..تململ...ولأن قلبه سليـــم، **لم يحنف الى الشرك،** إنما قال لقومه {يَا قَوْمِ انى بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} 78الانعام!

الى هنا تدخل الله فهداه إليه وأرشده الى حقيقة الربوبية، ليكون شاهدا على إجابة السؤال الأول الذى يطرأعلي بال أى انسان: من هو خالق هذا الكون؟!

جادله الملك فى الربوبية، وكان يعلم حقيقة أن الله يحيى الموتى، وعندما عالج له الملك امامه جسدا كاملا وأجلسه أمامه، حنف عن حقيقة أن الله يحيى الموتى وهم بكامل هيئتهم، ململ الفكرة فى عقله، ولجأ الى الله مباشرة، واراه بالتجربة عملية إحياء الموتى وهم قطع منتشرة على قمم الجبال، ليكون أول انسان يرى عمليا اعادة الحياة فى جسد ممزق ويشهد بنفسه على السؤال الثانى الذى يؤرق بال الانسانية، وهو إمكانية الحياة بعد الموت ويكون عليه من الشاهدين......

وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام "بملته الحنيفية" قد وصل الى نصف الحقيقة فى اثنين من الثلاثة أسئلة التى ظلت الانسانية على مر العصور تبحث عن اجابة لها وهي:

1. من هو خالق هذا الكون؟
2. هل هناك حياة بعد الموت؟
3. كيف وأين بدات حياة الانسان؟

إذاً من دراسة سيرة إبراهيم عليه السلام وبالتدبر فى اللغة التى روى الله لنا بها قصته، يتضح لنا أن ابراهيم كان دائما حريصا على **خلخلة** الباطل بإحداث **فرجة** تشكك فيه وتحرر العقل من سلطان الجهل والخرافة، الى حرية الفكر، حتى يتسرب نور الحق الى عقول الناس. وما المثال الذى قصه القرآن من تحطيم الأصنام الا كبيرا لهم، و استفزازه لقومه بتوجيه التهمة لكبير الأصنام التى لا تضر ولا تنفع، إلا أبلغ مثال لهذه **الخلخلة** للباطل فى عقول الناس. فضلا عن أن مدرسة إبراهيم الحنيفية تلك لم تكن مدرسة تفيد قومه فقط، وإنما كانت بداية تحرر الإنسان من الخرافات الى حرية التدبر فى ملكوت السموات والأرض، وعبادة الله بفهم آياته الكونية ونظام

خلقه الذى مهَّد لتطور البشرية فى دنياها، ومهَّد ايضا للرسالات السماوية العظمي التى انتهت بمسك الختام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

وقبل أن ننظر كيف تعامل إبراهيم بملته الحنيفية مع السؤال الثالث، وهو اصل وجغرافية الخلق، لا بد أن نجد قاسما مشتركا يجمع بين إجابته على السؤالين أعلاه، فالواضح ان هذه الامور الثلاثة أمور غيبية لا يمكن للإنسان أن يصل الى إجابة تامة عنها لوحده، لانها تدخل فى إطار الغيب الذى لا يعلمه الا الله، ولكن ملة إبراهيم وحنيفيته كانت قد صنعت السؤال أولا ثم خلقت الاسلوب العلمي للبحث عن الاجابة عليه الى أن اتمَّ الله له الإجابة التى ما كان لبشر ان يُتِمَّها لوحده.

ففي قضية البحث عن الخالق رفض إبراهيم مبدأ عدم وجود خالق، ثم رفض الشرك ورفض الأصنام واختبر الكوكب والقمر والشمس، فلما سقطت كلها فى نظره، وجَّه وجهه للذي فطر السموات والارض من غير شرك. وهنا فقط أكمل الله له صلته به وكلفه بالرسالة!

أما فى قضية إحياء الموتى فهو لم يتنطع ويحاجج الملك الذى أحيا من ظن أنه ميتا أمامه، وإنما حسم المناظرة بالضربة القاضية بعيدا عن جدل لا يفيد فى امر إحياء الموتى، ثم توجه مباشرة هذه المرة الى الله يسأله عن كيفية إحياء الموتى، إذ أنه الآن على صلة مباشرة بالله وأن أمر إحياء الموتى من الغيبيات التى لا يعلمها إلا الله تعالى!

أما فى قضية بدء الخلق ومكان الإنسان الأول، فكان الله تعالى هو الذى ابتلي إبراهيمَ **بكلماتٍ،** فأتمهن إبراهيم بنضج عقله وقدرته على ربط الحقائق ، فجعله الله للناس، كل الناس اماما... اذ انَّ من إتبع امامته فى أمور دينه اهتدي لما اهتدي اليه، ومن اتبع امامته فى أسلوبه المنهجي العلمي فى البحث عن الحقائق كما فعل نيوتن وداروين استفاد وأفاد الناس فى دنياهم.. من هنا نفهم لماذا جعله الله للناس وليس المؤمنين إماما. ولأنه كان إمام كل الناس فقد كلفه الله بتطهير البيت العتيق وآتاه شرف دعوة الإنسانية للعودة الى بيت آبائهم الى يوم القيامة: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا} فالي باب "**المــثــابـة**" !

البـــــاب التـاسـع

المَـثابَــة

رأينا مما سبق أن أبرز مميزات قصة إبراهيم عليه السلام وسيرته فى القرآن هى العقلانية البحتة، والعزم الذى لا يلين فى البحث عن الأدلة والبراهين، وإتباع أسلوب منهجي للوصول للحقائق. ولما كان الله تعالى قد جعل مِلّة إبراهيم هى مِلة الإسلام فإنّ الدين الإسلامي بهذا يكون دينا عقلانيا لا مكان فيه للسذاجة والتبعية العمياء لأفكار أو مفكرين يتخوفون من مواجهة الحجج، ويظنون أن الوصول الى الله يتم بالعواطف والعنصريات وغض الطرف عن الحقائق الكونية البينة.

ولعلّ الله تعالى وهو يروى لنا قصة إبراهيم الذى سمَّانا المسلمين من قبل، إنما أراد لنا أن ندرس كل جوانب حياته وتتابع تطور عقله وفكره بعيدا عن المعجزات التى تميز بقية الرسل. لأن رسالة إبراهيم كانت للناس كافة كما كانت رسالة الحبيب محمد، وعلى خطاهم يمكن للبشرية أن تمشي وتصل لذات النتائج التى وصلا إليها من غير معجزات غير معجزة العقل البشري. فإنْ كانت رسالة الحبيب محمد هى خاتمة الرسالات للناس كافة فإن فى رسالة إبراهيم حجة على كل الناس الى يوم القيامة مهما كانت معتقداتهم وأجناسهم، طالما انحدروا من نبي الله آدم وسكن آباؤهم أول بيت وضع للناس، ذلك البيت الذى أعادهم إليه إبراهيم عليه السلام زمنا قبل ختم الرسالات!

قصة إبراهيم مع البيت فيها نوع من الإعجاز الفني فى القرآن لمن يتذوقون الفنون، فالبيت العتيق هو رمز الله فى الأرض ومن زاره زاده الله إجلالا وإكبارا. والبيت يزدادإجلالا و إكبارا بزيارة الحجيج إليه، ولكن من أعظم علامات إجلال الله لبشرٍ هى أن يدله على مكان البيت الذى اندثر، ويربط سيرته به وكأنه نزل ضيفا على رب البيت قبل أن تعرفه الإنسانية. من هنا نفهم العلاقة المزدوجة بين البيت وإبراهيم عليه السلام! هذا البيت ظل سر وجوده غامضا على العلماء والمفسرين ولكن أكثر الآيات صراحة فى هذا السر هى قول الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاس لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} 96 آل عمران. ورغم أن هذه ألآية صرحت بأنه أول بيت وضع للناس، إلا أن هذا التصريح يزيد السر غموضا ما لم نعرف من هم اؤلئك الناس الذين وضع لهم البيت، وكيف يكون البيت نفسه هديً للناس! وحتي نصل الى ذلك السر البعيد لا بد ان ندرس تاريخه المتفق عليه الذى يرجع الى حينما اصطفى الله إبراهيم لرفع قواعده وإسماعيل الى يوم القيامة.

ولعل من حكمة الله تعالى انه ربط سيرة بيته بسيرة النبي الذى تتفق عليه كل الرسالات السماوية القادمة، بل ويدعى الكلُّ الانتماء إليه والانحدار منه، وكأن الله تعالى يحرم الخلاف على البيت وعلى إبراهيم الذى أعاد الناس اليه. فإبراهيم هو أبو الأنبياء وأبو الديانات السماوية من بعده.

اليهود والمسيحيون والمسلمون يعبرون عن حبهم لله بحبهم لإبراهيم، والله أحب إبراهيم واستدعاه كأول بشر الى بيته بعد إن اندثر البيت، وكلفه بإعادة بناءه ودعوة الإنسانية إليه! بل أن إبراهيم هو النبي الوحيد الذى انطبقت دعوته اسما وفكرا ومحتوىً مع رسالة النبي الخاتم وجعل الله تعالى الرسالة الخاتمة والباقية الى يوم القيامة تحمل اسمها من إبراهيم عليه السلام:
{...مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ **هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ** مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...} 78 الحج!

الإعجاز الفنى فى القرآن:

ولعل الدارس لسيرة إبراهيم فى القرآن لا يخفي عليه مقدار الإعجاز الفني الذى تميزت به تلك السيرة العطرة، وهو إعجاز لا يقل خطورة عن علم " الإعجاز العلمي فى القران" الذى أصبح له أساتذته ومختصيه. فالقرآن كتاب أُوحي الى محمدٍ صلى الله عليه وسلم ولكنَّه ظل وسيظل الى يوم القيامة وحياً داخل وحي يخاطب كل جيل بلغته وذوقه، و"الإعجاز الفني فى القرآن" يبرز فى اختيار الله تعالى للغة خاصة يروى بها كل أمرٍ بصورة تتناسب والشعور النفسي الذى يجب أن تتركه تلك الآيات فى نفس القارئ. نضرب هنا مثلين للمقارنة قبل أن نستكشف الإعجاز فى قصة إبراهيم عليه السلام مع البيت:

لا شك أن كل من قرأ سورة مريم قد غالب الدموع ان تسيل على خديه من حلاوة الكلمات الرقيقة التى تعكس فى كل آية أنَّ هذه السورة تحكى قصة انثى ضعيفة صغيرة القيت على عاتقها مسؤولية تعجز الجبال عن حملها، وهي ان تنجب طفلا من غير ابٍ وهي العفيفة الطاهرة التى اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين. سورة مريم صيغت بلغة تحكى مشاعر الانثى التى تتحدث عنها السورة وإن لم يكن القارئ يعرف مريم. بل من الغرائب ان السورة حتى حينما وصفت يحي ابن زكريا عليهما السلام وصفته بكلمات تتفق مع مشاعر مريم صاحبة السورة، فكلمة "حنان" وهي تعكس منتهى الرقة واللطف والوداعة لم ترد فى القرآن كله الا فى سورة مريم: {وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا}13 مريم!

على النقيض من ذلك نجد اللغة العسكرية التى رُويت بها سورة التوبة لا تحمل الا رايات الحرب والصمود وكأنها تقول "اما نصر او شهادة"! بل سورة التوبة تصيب القارئ بدهشة منذ بدايتها اذ انها السورة الوحيدة فى القرآن التى لا تبتدئ بـ "اسم الله الرحمن الرحيم" وكأن صياغتها تقول ان عهد الرحمة قد انتهى وجاء دور القتال بلا رحمة!

قصة إبراهيم فيها لون آخر من الوان "الاعجاز الفني فى القرآن". وهنا نتحدث عن قصة إبراهيم وليس سورة إبراهيم، إذ أن قصة إبراهيم انتشرت فى خمس وعشرين سورة توزعت فى أربعة

وعشرين جزءًا من القرآن ابتداء من الجزء الأول الى الجزء الثلاثين. وقد ورد ذكر اسمه تسعة وستين مرة فى القرآن وهو اكثر اسم تكرر بعد اسم الله تعالى! وقصة ابراهيم فى القرآن اختلفت عن قصص النبيين فى انها احتوت فى كثير من الآيات التى روتها على اشكالات لغوية استعصى على كبار المفسرين فهمها وكثرت الخلافات فى الآراء حولها. قصة ابراهيم بانتشارها فى شكل مقتطفات هنا وهناك بلغة غامضة توحي لنا بالآتى:

أولا: أن الله تعالى أراد أن يكون اسم إبراهيم حيث ما تصفح القارئ القرآن، لا يغيب عن نظره لما فى سيرته من اهمية تستحق التدبر!

ثانيا: أن الطريقة التى رويت بها تلك المقتطفات تدل على ان فى تجميعها رسالة لا يفهمها إلا من اتبع ملة ابراهيم واسلوبه العلمي الممنهج فى البحث عن الحقيقة. أى ان قصة ابراهيم منتشرة كأوسع ما يكون الانتشار ولكن ربطها فى قصة متكاملة لن يكون الا لمن يتبع ملة ابراهيم حنيفا، أى من يمحص المعلومات ويحنف الى ما هو منطقي منها.

وحتي نعطي قصة ابراهيم قدرا من البحث يليق بقدر النبي، رأينا ان ننظر اليها من زاويتين تغطيان المساحة الزمنية والمساحة الجغرافية التى انتشرت فيها الأحداث، حتى نستنبط معالم عن شخصية النبي تقودنا فى الطريق التى سار عليها الى مركز الكون وموقع خلق وتطور الانسان عند البيت العتيق.

المساحة الزمنية:

رأينا ان ابراهيم نشأ فى بيت آزر الذى كان يصنع ويعبد الاصنام، وهذه الحقيقة تنفي نفيا قاطعا ان ابراهيم تلقى أى تعليم دنيوي اوديني فى بيت ابيه يقوده الى ما آل اليه وضعه فى ان يصبح امة واماما للناس! القرآن وصف لنا ان ابراهيم حينما بدأ الدعوة فى قومه كان فى عنفوان شبابه اذ انهم وصفوه بـ {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ}. إذا فرحلته فى البحث ابتدأت منذ عهد مبكر من شبابه! ايضا يحدثنا القرآن ان ابراهيم رزق اسماعيل واسحق على الكبر كما فى قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الذى وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}35 ابراهيم. ورغم اننا ليس لدينا دليل من القرآن عن عمره يوم مات، فان التوراة قد وصف انه رزق اسماعيل وهو فى السادسة و الثمانين ورزق اسحق وعمره مائة عام وانه توفي وعمره مائة وعشرون سنة.

هذا يدلُّ على اننا ندرس حياة طويلة بعمر السنين، بقدر ما هى طويلة بحجم الاحداث والبصمات التى تركتها على تاريخ الانسانية! ولعل من الحكمة ان نذكر ان القرآن لا يقص لنا كل تفاصيل الرسل، والا لاحتاجت سنوات نوح وهي الف سنة الا خمسين عاما بنص التوراة والقرآن، لمجلدات لوصفها ولكن الله قصَّ علينا قصة نوح فى بعض مقتطفات اقتصرت على اسلوب

دعوته وقصة الطوفان فقط! اذاً فما نقرؤه عن ابراهيم ليس الا مقتطفات لتنير الطريق لقوم يتفكرون، ولكنها ليست تفاصيل حياة النبي وعلينا ان نستنتج الكثير مما لم يصرح به القرآن.

المساحة الجغرافية:

قلنا ان ابراهيم وُلد فى ارض العراق، ثم تزوج سارة وهي من ارض الاردن اليوم، ثم تزوج هاجر وهي اميرة مصرية، ثم رفع قواعد بيت الله فى مكة، وتوفي فى فلسطين! هذه المساحة الجغرافية الشاسعة فى زمانه ربما كانت تمثل ثلاثة ارباع العالم المأهول حينها، مما يدل على ان تجاربه فى الحياة كانت كأثري ما يكون الثراء فى زمان كانت الرحلة فيه بين قرية واخرى تستغرق شهورا على ظهور الابل. ولعل فى ترحال إبراهيم عبر الصحارى حكمة أضافية حان أوان كشفها إذ أن كل من طال ترحاله على ظهور الابل اتيحت له فرصة أطول من التدبر فى آذان الأنعام واكتشاف أسرار الكون الخفية!

هذا الثراء فى تجارب إبراهيم فى الحياة يعكس لنا الثراء الفكرى والعلمي الذى امتاز به والفضول الذى قاده للبحث والتمحيص الى أن وصل الى أقصى ما يمكن أن يصل إليه العقل البشري من أسرار الكون والخلق والخالق، وكان على الله تعالى أن يهديه الى ما خفي عليه ليكون جديرا بامامة الإنسانية!

بناء على هاتين المساحتين الزمنية والجغرافية فانه يمكننا أن نرتب اكتشافات إبراهيم فيما يخص الأسئلة التى حيرت البشرية وهي موضوع بحثنا ترتيبا زمنيا وجغرافيا. من البديهي أن بحثه عن الاله الحق كان البحث الأول فى شبابه والذى انتهى به الى النبوة. يلى ذلك بحثه فى حقيقة الحياة بعد الموت الذى ناقشناه فى باب "ملة إبراهيم" والذي كان نتاج جداله مع الملك الكافر الذى زعم انه أحيا من كان يظن انه ميتا امام إبراهيم. وبالتالى يمكننا أن نتصور أن جداله مع قومه وتحطيم أصنامهم وحربهم عليه ومحاولة حرقه، كلها وقعت فى عهد مبكر من حياته فى العراق حيث كان النمرود ملكا عليه! ربما هاجر إبراهيم بعد ذلك من أرضه فى ارض الله الواسعة متعبدا وداعيا الى الله، إذ أن قوم إبراهيم كانوا كل الذين سكنوا البلاد التى سافر فيها ولم يبعث حسب علمنا لقبيلة أو قرية معينة ولذلك كان للناس، كل الناس اماما! واغلب الظن انه هاجر الى ارض الأردن شابا مما يبرر زواجه من سارة التى بقي معها الى سن متأخر من غير أن يمنَّ الله عليه بالولد!

إنَّ وصول إبراهيم لأصل الخلق و مسقط رأس آباء الإنسانية لم يكن أمرا مباشرا كوصوله الى الله تعالى وسؤاله عن كيفية إحياء الموتى. يبدو من التوراة والقرآن أن رحلته الطويلة فى الحياة لعبت أدوارا مختلفة فى إثارة فضوله عن أصل الإنسان، والتي انتهت بان عهد الله إليه بان يقود الإنسانية الى مسقط رأس آباءها! ولان القصة أصلا رواها الله تعالى بالتدرج فى القرآن فلا بد أن نتبع ذات التدرج فى استنباطها، لان التدرج يساعد على فهم الآيات المتناثرة وخلق قصة متكاملة

منها. ولما كانت رحلته فى البحث عن أصل الإنسان و قضية الخلق طويلة جدا مقارنة بالبحث عن الإله والحياة بعد الموت، يستحسن أولا أن نستخلص سمات عامة عن شخصية إبراهيم عليه السلام تعيننا على فهم ما سنسعى الى تأويله فى بقية البحث:

معالم فى الطريق:

1. رأينا عقلانية إبراهيم عليه السلام بوضوح فى أسلوب وصوله الى الله عن طريق بحثه فى السماء ووضعه لمنهاج علمي حكيم للتدبر فى ملكوت السموات ولأرض وتمحيص الحقائق.

2. رأينا سرعة بديهته فى سرعة تغييره لموضوع الحوار مع الملك الذى أحيا من ظن انه ميتا امامه رغم أن الحدث أدهشه و كان محتاج لتفسير أعمق، ولكن مسار الحوار كان يتطلب تغيير الموضوع ففعل وكسب الحوار وبهت الذى كفر!

3. إصراره على الحق ونقاء عقيدته الشئ الذى يبرزه هذا التعبير القرآني:

{ فَنَظَرَ نَظْرَةً فى النُّجُومِ*فَقَالَ انى سَقِيمٌ* فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ* فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ*مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ*فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ}89-93 الصافات! هذه الآيات توحي بتقذذ إبراهيم من غباء قومه فى عبادتهم لحجارة صماء لا تأكل ولا تتحدث، وكأن الله تعالى قد نقل لنا هذا الوصف التصويري حتى نستشعر غيظ إبراهيم عليه السلام من شرك قومه وبالتالى نستشعر جوانب عميقة من شخصيته!

4. جرأته فى مواجهة شرك قومه: {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ* فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ}57-58 الأنبياء!

5. سخريته منهم فى أحلك الظروف:{قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ* قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ* قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ} 61-63الانبياء!

6. رأفته بابيه رغم حنقه على عقيدته الفاسدة ومواجهاته معه: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} 114التوبة! اللغة فى هذه الآية توحى بصلة خاصة بين إبراهيم ورب العالمين، تعكس أن الله تعالى قد عَلِم حلم ورقة إبراهيم وعطفه على أبيه وساقه للنتيجة الموضوعية بالتدريج الذى يريح باله!

7. هذه الصلة الخاصة مع الله تعالى تبدو جلية فى جراءة إبراهيم فى مجادلة الله رأفة بقوم ابن أخيه لوط رغم علمه بفسوقهم: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فى قَوْمِ لُوطٍ*إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ* يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} 74-76هود!

8. ونضيف دليلا أخيرا على تلك الصلة المباشرة مع الله تعالى وهو الحديث القدسي الذى وصف تعامله مع قصة النار. فقد روى جبريل عليه السلام ما معناه انه ما شفع لأحد عند الله قبل أن يرى

إبراهيم وقد اعد قومه له نارا عظيمة ويوماً مشهوداً لحرقه، فصعد الى الله تعالى وسأله: يا رب ان عبدك إبراهيم فى محنة فهلا انصره؟ فأجابه الله تعالى: اسأله إن كانت له حاجة! فنزل جبريل وسأل إبراهيم ان كانت له حاجة فأجاب: اما منك فلا، واما من ربي فهو ادرى بحالي وهو نعم المولى ونعم النصير! فقال الله تعالى لجبريل: اما وانه لم يجعل حاجزا بيني وبينه فانى لا اجعل حاجزا بيني وبين حاجته، وهنا تدخل الله مباشرة وعطل ناموس الكون: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ} 69 الأنبياء!

من هذه المعالم البسيطة يتضح لنا أن إبراهيم كان شخصية متقدة ثورية رغم انه حكيم وعقلاني ورقيق القلب أواه حليم وذا صلة مباشرة مع خالقه تعالى! فهو كان شخصية قوية منذ صغره وكان تاجراً ثريا ناجحا فى حياته العملية وكان سياسيا احتك بالملوك من العراق الى مصر وتزوج ابنة ملك من أعظم ملوك زمانه وهو فرعون مصر، وكان مفكراً وكان شديدا فى الحق وكان فيلسوفا مجادلا بارعا ومع ذلك كله كان رقيق القلب شفوقا حتى على أبيه الكافر وعلي قوم لوط، وكان شهما كريما ما لبث أن جاء بعجل حنيذ للملائكة قبل أن يعرف هويتهم! إذا فقد كان إبراهيم مدرسة متكاملة من الفكر والرقي الإنساني والخلق والعقيدة!

ورغم تلك المعالم الثرة المختلفة فى شخصيته، كان إبراهيم رجلا بدويا ملئ بالعواطف والحنان، وحيدا فى حياته فى زمان كان إنجاب الأطفال فيه رمز من رموز الرجولة وكمال النضج ناهيك عن الحوجة للولد الذى يرعى أباه فى الكبر! ليس غريبا إذا أن نفترض أن حوجته للولد قد قادته للتفكير والتأمل سنوات طويلة من عمره فى قضية الإنجاب والاولاد والآباء، لان مثل هذه الأمور تشغل بال كل من يحرمه الله تعالى من الأولاد. وربما طالت رحلة انتظار الولد لان الله تعالى كان يريد لإبراهيم أن يصل الى سر الخلق بالتفكر والتدبر فى حال الشعوب والأمم التى عاشرها ومر بها ودعاها فمنهم من آمن ومنهم من كفر!

اميرة كل الازمان:

ويبدوا أن حوجته للولد ما كانت سرا بدليل أن التوراة ذكر أن سارة كانت هى من طلب منه الزواج من هاجر، لعلَّ الله يرزقهما طفلا منها وذلك لعلمها بحوجة إبراهيم للولد بعد أن يئست هى من الإنجاب:

{واما ساراي زوجة ابرم فقد كانت عاقرا، وكانت لها جارية مصرية تدعي هاجر. فقالت ساراي لابرم: "هوذا الرب قد حرمني من الولادة، فادخل عليها لعلني ارزق منها بنين" فسمع ابرم لكلام زوجته. وهكذا بعد إقامة عشر سنوات فى ارض كنعان، أخذت ساراي جاريتها المصرية هاجر وأعطتها لرجلها ابرم لتكون زوجة له.} سفر التكوين16:1-3!

وحتي نكون منصفين لام إسماعيل هاجر عليها السلام، لابد لنا أن نوضح كيف وصف اليهود هاجر بأنها جارية، إذ أن ذلك كان تعبيرا عن حسدهم لبني عمهم أن ينحدروا من أميرة مصرية! فقد ورد فى تفسير التوراة المعتمد لدى اليهود اليوم فى تفسير هذا النص أن هاجر كانت أميرة مصرية حينما دخل إبراهيم وسارة ارض مصر فى ترحالهم! حينها اعتقلهم جنود الفرعون وأحضروهم إليه. حاول الفرعون الاعتداء على سارة مرتين فشلّه الله ولم يشفه إلا دعاء إبراهيم، ولكن حينما كرر محاولة اعتداءه للمرة الثالثة قالت سارة لإبراهيم أن لا يدعوا له بالشفاء إلا إذا وافق على أن يمنحهم ابنته "الأميرة هاجر" لتكون فى خدمتهم! يقول تفسير التوراة: أن الفرعون سأل هاجر التى كانت شاهدا على معجزات إبراهيم فإجابته: {لأن اكون جارية فى خدمة هذين الصالحين اشرف لي من أن اكون أميرة فى مصر}! إذا فهاجر آمنت بنبوءة إبراهيم واختارت طواعية أن تكون فى خدمته عليه السلام، بدلا عن أن تكون أميرة فى عرش مصر، ولكنها لم تكن خادمة مستعبدة كما حاول اليهود تصويرها. ولدت أميرة وعاشت أميرة يوم كان عرش مصر من أعظم عروش الأرض ثم انتقلت الى بيت إبراهيم زوجة لابي الأنبياء واما لابنه الأول وجدة لخير البشر وخاتم الأنبياء والمرسلين!

خيرها القدر من غير ميعاد بين عرش مصر الذى تجرى من تحته الانهار وخدمة نبي الله، فاختارت النبي الذى يكبرها عشرات السنين طواعية، فأكرمها رب العرش العظيم بأن جعلها أول إنسان ينزل ضيفا على بيته قبل أن ترفع قواعده، وفتح لها بئراً هى المعجزة المادية الوحيدة الباقية على مرِّ الزمان من معجزات الأنبياء الى يوم القيامة، وجعلها ملكة أبدية على أرض الخلق والتطور. فأي شرفٍ نالت وأي ربح ربحت تجارتها! بالطبع فإن ذلك أصبح غصة فى حلوق اليهود لذلك يحلو لهم وصفها بالجارية، الوصف الذى يردده المسلمون من غير تدبرٍ او حرج!

رحلة البحث عن الولد:

قلنا ان انتظار إبراهيم وسارة للولد طال سنين عددا. واغلب الظن انه فى تلك الرحلة النفسية المريرة دارت فى خواطر إبراهيم أسئلة عن سر الخلق ومكان خلق الإنسان الأول وارض الآباء الذين انحدر منهم الإنسان! ولمَّا كنَّا قد رأينا كيف كان إبراهيم باحثا فى أمور الغيب ومواجها للشرك وجرئ فى السؤال ومجادلا حتى مع الله تعالى، فانه من الطبيعي أن نفترض انه سأل الله تعالى فى رحلة التفكر والتدبر تلك، كيف خلق الإنسان وأين عاش الإنسان الأول، لان مثل هذا الفضول الذى ينطبق على معظم البشر لا بد وان يكون خطر على بال مفكر مثل إبراهيم عليه السلام!

فى الإجابة على هذا السؤال الافتراضي نجد أن القرآن يعجزنا بسياق معاكس للسياق الذى وصل به إبراهيم للاله الحق وحقيقة الحياة بعد الموت! فقد رأينا انه فى أمر البحث عن الاله وفهم إحياء الموتى، كان إبراهيم سباقا لمعرفة بداية الحقيقة فأتمها الله له! ولكن يبدو انه فى قصة أصل خلق الإنسان والتى ارتبطت بالعاطفة وليس الفضول فقط، إذ إنها كانت نتاج التفكير فى وحدته وحاجته للولد، يبدوا أن إبراهيم قد سأل الله مباشرة كيف وأين خلق الإنسان وماذا كان من حاله، فكانت الإجابة جزئية وترك الله له هنا أن يتم باقي القصة بالبحث!

هذا الافتراض نستنبطه من انَّ قصة الخلق وارض مكة "البلد الأمين" قد رواها الله مرتبطة بقصة إبراهيم فى موضعين مختلفين الفرق بينهما التعريف بالفٍ ولام كلون من الوان "الإعجاز الفني فى القرآن"! فقد روى الله تعالى فى موقعين أن إبراهيم دعاه لان يجعل ذلك البلد آمنا، ولكن الحروف التى اشتمل عليها الدعاء اختلفت لتحكى قصة البيت العتيق وعلاقته مع الإنسان الأول، كما نلاحظ فى هاتين الصيغتين:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ **هَـَذَا بَلَداً** آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ....سورة البقرة

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ **هَذَا الْبَلَدَ** آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ . سورة إبراهيم

ولما كانت كل آية تحكي ذات القصة ولكن فى توقيت مختلف ومن زاوية مختلفة، فسنناقش كل منهما على حده حسب الأسبقية الزمنية. وكلا الآيتين تحكى قصة العهد لإسماعيل وذريته الصالحة بسدانة بيت آباء البشرية الأول الى يوم القيامة!

العهد لإسماعـيل:

"هذا بلدا أمنا":

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ **بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ** قَالَ انى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ*وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ **مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً** وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ*وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا **بَلَداً** آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ*وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ*رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ*وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} 124-130 البقرة!

هذا الدعاء يعتبر أعظم دعاء من نبي فى القرآن إذ أن استجابته تحققت فى سيد الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين، وآيات الله التى تلاها هى القرآن العظيم الباقى الى يوم القيامة!

يبدو والله اعلم أن الآيات أعلاه إنما تروي لنا حوارا دار بين إبراهيم وربه جل وعلا قبل أن يصل إبراهيم الى البيت وربما كانت فور ميلاد إسماعيل عليهما السلام وذلك للملاحظات التالية:

1. أن الله قال له انه جاعله " أى فى المستقبل " ولم يجعله بعد!

2. أن هذه الامامة للناس كافة وليس للمسلمين!

3. أن إبراهيم طلب توريث تلك الامامة لذريته وهذا شعور طبيعي ينتاب كل والد يوم ميلاد ابنه الأول!

4. كانت تلك لحظة **العهد** لإسماعيل على مسؤولية البيت ومن المنطقي أنها تمت فور ميلاد إسماعيل و قبل أن يهاجر الى بكة!

5. ارتبطت بيعة العهد كما وردت فى التوراة بختان إسماعيل وإبراهيم واغلب الظن انه تم فى الأيام الأولى من حياة إسماعيل كما هى السنة فى الختان!

6. فى سياق الآيات دعا إبراهيم الله أن يجعله "**بلدا** آمنا " مما يشير الى انه ما زال بلدا نكرة فى نظره، أى لم يره بعد وإنما سمع عنه فقط!

هذه الآيات كشفت لإبراهيم جزءا كبير من سر خلق الإنسان الأول، إذ انه من المنطقي جدا أن إبراهيم بعد أن مرَّ برحلة طويلة من الصراع النفسي والتفكير فى الإنجاب، انه جاشت مشاعره بالرأفة والحنان حينما حمل ابنه الوحيد بين يديه، فسأل الله عن خلق الإنسان تماما كما سأله عن إحياء الموتى حينما رأى ما أدهشه من الملك! وحتي نستوعب أعماق الحوار بين إبراهيم وربه الذى تعكسه هذه الآيات، نحتاج أن نفهم المدلولات اللغوية للكلمات التى احتوت عليها الآيات السابقة:

البلوى: هو نوع من الاختبار، ويحمل عليه الإخبار أيضا، أى أن ابتلاه تحتمل انه اختبره أو اخبره!

تـمَّ: تعنى اكمال الشئ، وهذا يوحى بان حوارا دار بينه وبين الله عن الخلق، فقص الله عليه بداية القصة من ناحية منطقية فأكملها إبراهيم بسرعة بديهته!

إمام: كل من أقتدي به، وقُدِّم فى الأمور.

عهد: الإحتفاظ بالشئ ومنها العهدة وهي الأمانة أو الوديعة.

ظلم: وضع الشئ فى غير موضعه تعديا.

البيت: المأوى والمآب ومجمع الشمل.

ثوب: لها معنى واحد وهو العود والرجوع.

أمن: لها أصلان فى اللغة أحدهما الأمانة التى هى ضد الخيانة، والاخر هو التصديق و سكون القلب.

مقام: من قوم و لها أصلان فى اللغة، الأول يدل على جماعة من الناس، والآخر يدل على انتصاب وعزم. يقال "قام بهذا الأمر" أى نفذه بعزم وإصرار!

هنا نحتاج لان نتبع "ملة إبراهيم الحنيفية" وهي تقليب وتمحيص المعلومات، والميل نحو الأرجح والمنطقي منها حتى نستوعب هذا الحوار بين إبراهيم "الأمة" ورب السموات والأرض، وهو يقوده الى استنباط الحقائق فى مشكلة الإنسانية الكبرى: وهي أصل الخلق!

تقول الآيات أن الله ابتلي إبراهيم أى اختبره "**بكلمات**"! هذه الكلمات تذكرنا بالكلمات التى تلقاها آدم من ربه قبل أن يتوب عليه، لان القرآن يفسر بعضه بعضا! فكلمات الله هى عين موجوداته، أى أن الله ليس لديه لغة يتحدث بها، ولكن إذا تكلم تحقق كلامه: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}40 النحل، كما ناقشنا ذلك فى باب " فى وادى المزدلفة"، وهذا يعنى أن كلمات الله هى حقائق موضوعية مشخصة للإنسان...

من الملفت للنظر أن هذه الآية {وَإِذِ ابْتَلَىَ إِبْرَاهِيمَ رَبّهُ بِكَلِمَاتٍ... } تجر الى الذاكرة بحروفها وتركيبها اللغوي الآية التى وصفت توبة آدم بصورة فيها نوع أخر من الوان "الإعجاز الفني فى القرآن"، إذ أن الآيتين تشتركان فى "كلمات" الله الغامضة، وأيضا تشتركان فى أن كليهما تحتاج لحذرٍ فى التلاوة وإلا اختل المعنى تماما لو نُصب الفاعل ورُفع المفعول، وللمقارنة نضع الآيتين معا أى نرتلهما ترتيلا:

{فَتَلَقَّى آَدَمُ: فاعل مرفوع - مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ**:** مفعول به منصوب- فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} 37 البقرة.

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ: مفعول به منصوب –رَبُّهُ **:** فاعل مرفوع - بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ} 124 البقرة!

ولعله لا يخفي على المواظبين على التلاوة وعلي أساتذة التجويد أن الكثيرين تختلط عليهم الأمور فى هاتين الآيتين، فيرفع المفعول وينصب الفاعل الأمر الذى يتطلب دائما حذرا شديدا فى التلاوة، و وكأن الله تعالى أراد أن ترتبطا فى ذاكرة القارئ ارتباطا موسيقيا إذ أن إحداهما تفسر الاخرى، وكلاهما تتحدث عن ذات "**الكلمات**" الغامضة ولكن لغرضين مختلفين فى زمانين مختلفين!

اختبر او اخبر الله سبحانه وتعالي سيدنا إبراهيم ببعض الحقائق الموضوعية المشخصة التى لها علاقة ببعضها البعض وهي "الكلمات"، فماذا فعل النبي الأمة؟..... أتمهن!! أى أكمل بقية الحقائق لتكتمل له قصة كاملة .....عن ماذا؟ فى الآية التى تليها نعرف أن الكلمات والحقائق الموضوعية والقصة تخص البيت!

كما قدمنا فان الله سبحانه وتعالي يعلمنا من القصص القرآنية أحوال الأمم الاقتصادية والمادية وكيف تعاملوا معها، أما فى قصة سيدنا إبراهيم فانه يعلمنا التطور العقلي والفكري للإنسان كنوع من طفرات التطور فى تلك المرحلة. وقد استنبطنا سابقا أن إبراهيم عليه السلام كان أول إنسان يفكر بصورة جدلية، ويحنف دوما الى الحقيقة وفوق هذا كله وصل الى إمكانية ربط المقدمات مع بعضها البعض والوصول منها الى نتائج مترابطة، وهو ما نسميه حاليا بالتفكير المنطقي والاستقراء. وبإتمام إبراهيم لتلك القصة نفهم أن الإنسان فى تلك المرحلة قد نضج فكريا وأصبح قابلا لان يستوعب الحقائق الكلية للكون والوجود خلقاً وخالقاً حياةً وموتاً وبعثاً، وعندها استحق إبراهيم عليه السلام أن يجعله الله إماما يقتدي به فى مدرسته الفكرية وملّته واستحق الشرف فى أن يربط الله سيرته بسيرة البيت الذى سيبرزه للإنسانية من جديد.

ولعل من الحكمة أن نُذكّر هنا بردِّ الله تعالى لنوح لمَّا سأل الرحمة لابنه الكافر، فأجابه الله: { أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}، فالجهل هناك كان جهلا بحقائق ما كان فى وسعه استيعابها، إذ أن العقل البشري فى عهد نوح لم يكن بعد قد وصل الى مستوى من النضج والقدرة على استيعاب حقائق كونية تفصيلية ولم تكن من مصلحة نوح ولا قومه معرفتها. ولكن فى عهد إبراهيم كان الأوان قد آن لأن يستوعب العقل البشري متمثلا فى شخص إبراهيم تفاصيل خلق الإنسان والكون!

كما قلنا أن الآيات تبدو وكأنها تروي حوارا تم بين إبراهيم وربه عن أصل ومكان الخلق الأول عندما وهب الله له ابنه إسماعيل! ورغم وصول إبراهيم لبقية الحقائق وربطها ببعضها البعض إلا أن طلبه بان يحتفظ بالامامة فى ذريته وابنه إسماعيل رضيع بين يديه، توضح أمرين مهمين. أولهما هو الطور الاجتماعي العشائرى الذي هو فيه، والذي لم يتمكن بعد من أن ينفك منه. إذ أن من صفات الطور العشائري أن يحتفظ الحاكم والقائد بالحكم لذريته، وهكذا فكر إبراهيم أول ما فكر فى رضيعه إسماعيل وذريته من بعده! وثانيهما هو التأكيد على أن هذا الحوار تم لحظة ميلاد إسماعيل إذ أن ميلاد الولد يدفع الوالد فى نفس اللحظة أن يفكر فى مستقبل وليده ووريث عرشه. ولكن رد الله عليه بأن ما أريد أن احتفظ به " عهدي" لن ادعه لمن يضعون الأمور فى غير موضعها تعديا فيظلمونها ويضيع العهد {...قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ...}! ولأن إبراهيم حينها لم يكن يعلم انه ستكون له ذرية اخرى غير إسماعيل، فقد أوضح الله أين يكون الظلم فى ذرية إبراهيم فى آية اخرى أفردت إبراهيم واسحق وذريتهما ولم تشمل إسماعيل: {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ}113الصافات! هذا لا يعنى أن ذرية إسماعيل جميعا من الصالحين، ولا كل بنى اسحق من الظالمين، ولكنه يؤكد أن الذين لا يؤتمنون

على عهد البيت هم من بنى اسحق الذى لم يكن إبراهيم على علمٍ بمقدمه حينما كان إسماعيل رضيعا.

إذا نستنتج أن الله تعالى جعل إبراهيم يرى حقائق مادية عن الإنسان الأول فى شكل "كلمات" ربانية أى مجسمات، فاستنتج إبراهيم وجود البيت والبلد الذى دارت فيه تلك الإحداث وربما كان ذلك برؤيا كرؤيته وهو يذبح ابنه وربما كشفها الله له. الصريح فى الآية أن تلك "الكلمات" ارتبطت بالبيت الذى وعده الله بامامته، وأيضا أن القصة كانت رمزية فأتمها إبراهيم بنفسه. وتمضي الآيات تقص على إبراهيم حقيقة ذلك البيت الذى ما زال مجهولا له:

مـقـام إبـراهيم:

{وَإِذْ جَعَلْنَا **الْبَيْتَ مَثَابَةً** لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ **مَقَامِ** إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } 125 البقرة!

"البيت" معرف بـ"أل"، وبيت تعنى مأوى ومآب ومجمع شمل، و"مثابة" نكرة وتعنى عود ورجوع، و"أمن" أيضا نكرة وتعنى تصديق! فهذا يعنى أن المتحدث هنا هو الله سبحانه وتعالى و قد جعل فى تلك اللحظة، و بعد أن امتحن إبراهيم، جعل البيت الذى قد كان مأوى ومجمع شمل لناس سابقين حسب ما توحى به كلمة "البيت" معرفة بالألف واللام، جعله مكانا لعودة ورجوع الناس اللاحقين حتى يكون آية من آيات الله تعينهم على تصديق الحقائق التى دارت حوله! إنَّ تعبير {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ} يدل على أن هذا البيت كان مأوى لكل الناس فى زمن من الأزمان، وإلا فما معنى الرجوع إن لم يكن أصلا مأوى لناس فى الماضى!

ويمضي القرآن يشرح لنا كيف يتم تصديق الناس اللاحقين لتلك الحقائق التاريخية حول البيت، إذ أن الآية تشرح أن ذلك يتم باتخاذنا من مقام إبراهيم مصلى! هذا التعبير القرآني يدفعنا لدراسة "مقام إبراهيم" و"ملة إبراهيم" بصورة أكثر تعمقا، إذ إننا نعتقد والله اعلم أن كليهما يشير الى عزم إبراهيم وأسلوب تفكيره ومنهجه فى التعامل مع الواقع وانتصابه على ما يعتقد وأسلوبه فى الإصرار على الوصول للحقائق. انطلاقا من ذلك نعتقد أن "مقام " و "مصلى" هنا لا تعنى مكانا عمليا للصلاة نمارسها فقط، وإنما أيضا وسيلة فكرية وأسلوب حياة متكامل يكون وسيلة للصلة بين العبد وربه. أى أن الآية ربما تعنى أن الله قد جعل ذلك البيت الذى اوى إليه آباؤنا فى غابر الزمن، موقعا يعود ويرجع إليه بنوهم حتى يتفكروا فى سيرة آباءهم ويصدقوا تلك الحقائق إذا اتبعوا منهاج وعزيمة إبراهيم فى الوصول للحقائق، وان اتباعهم لأسلوب إبراهيم هو الصلاة والصلة الحقيقية مع الله تعالى!

ورد مفهوم "مقام إبراهيم" مرتين فقط فى القرآن، هنا نناقش الموضع الآخر حتى يتضح المعنى أكثر:

{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ* **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ** وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} 96-97 آل عمران! .نلاحظ فى هذه الآية ما يلى:

1. أن البيت الذى ببكة قد "وضع للناس" وجعله الله "مثابة للناس" وليس المسلمين أو المؤمنين! ونحن نعلم أن مكة وبيتها قد حرمت بعد الرسول صلى الله عليه وسلم على غير المسلمين، ولكن بيتها كان قد وضع أصلا للناس على اطلاقها، مما يعنى أن علاقة البيت كانت علاقة بجميع الناس وليس المسلمين، لذلك فالأحداث التى دارت حوله والتاريخ الذى يحكيه مِلكٌ لكل الناس وحجة على كل الناس، ولكن دخوله فقط أصبح قاصرا على الذين التزموا بالعهد واتبعوا ملة إبراهيم!

2. نلاحظ ان الآية التالية وصفت أن فيه "آيات" وليس آية، بينما هذه الآيات عرفت بأنها "مقام إبراهيم"! وهذا يدلل على أن مقام إبراهيم ربما يكون مفوهما فكريا أوسع من كونه الموقع الذى وقف عليه إبراهيم حينما بنى البيت كما هو مفهوم لدي عامة المسلمين!

اغلب المسلمين اليوم يفهمون أن "مقام إبراهيم" تشير الى الموقع الذى وقف عليه وهو يبني البيت، ولكن الواقع لا يتفق مع ذلك إذ أن هذا الموقع المتعارف عليه هو الجانب المواجه لسور الكعبة الذى عليه باب الملتزم! المنطق يقول أن بناء الكعبة وهى مبنى يساوى ثلاثة طوابق مما نبني اليوم، قد تطلب أن يدور حوله إبراهيم وإسماعيل دورات كثيرة وهما يرفعان كل الأسوار من كل الجوانب وليس جانبا واحدا! فإذا كان مقام إبراهيم يشير الى الموقع الذى وقف عليه اثناء بناء الكعبة فهذا يعنى أن كل ما حول الكعبة هو مقام إبراهيم وليس جانبا واحد، وهذا الرأي ليس جديدا إذ أن بعض الأئمة والمفسرين رأى أن الحرم كله مقام إبراهيم.

على أن التمعن فى المضمون العميق لهذه الآية يوحى بان مقام إبراهيم هو آيات بينات تؤدى الى الأمان والتصديق، مما يرجح إنها علاقة إبراهيم بالبيت وقصة الإنسان الأول أو "الناس" الذين وضع لهم البيت، الشئ الذى أخرجه للإنسانية إبراهيم عليه السلام بملته وتفكيره وعزمه على فهم الحقائق الغامضة مما جعله مثابة للناس، وليس بالضرورة الموقع الذى وقف عليه اثناء البناء والله اعلم. هذه الآيات البينات هى التى أصبحت مناسكا للحج منذ عهد إبراهيم الى يوم القيامة!

ولعل من الحكمة هنا أن نسوق دليلا قرآنيا على أن كلمة مقام ترد فى القرآن بمعني مقام اجتماعي وفكري وروحي وليس موقعا جغرافيا فقط:

{ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ **مَقَامًا مَحْمُودًا**} 79 الاسراء.

اتفقت معظم التفاسير على أن المقام المحمود الذى رُفع له الرسول صلى الله هو شفاعته لكل الناس يوم القيامة، وهو ارفع مقام يطمح إليه مخلوق ولكنه ليس موقعا جغرافيا!
لقد ناقشنا من قبل أن ملَّة إبراهيم هى "الململة" فى البحث عن الحقائق، أى إنها تشير الى أسلوب تفكير وبحث عن الحجج وليست فئة من الناس توارثت دينا معينا كما يظن عامة المسلمين! وهذه "الملَّة" هى التى تُسلم الى الله بعلمٍ ووعيٍ نتيجة تفكرها وتدبرها، لذلك سمي إبراهيم المسلمين بهذا الاسم، إذ أن الإسلام تعنى التسليم طواعية بعد تمحيص وقناعة وليس توارثا. هذا المعنى يشبه قوله تعالى :

{ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ*إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} 130-131البقرة. فملة إبراهيم أى ململته فى رفض ما لا يقبله العقل و أسلوبه فى البحث عن الحقائق هما الطريق الذى اقره الله للإسلام الحق!

وهذا التفسير لمفهوم ملَّة إبراهيم يضفى على هذه الآية معاني أعمق ويحل اشكالا لغويا فيها ظل على مدي قرون:

{وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ **مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} 78الحج.

نلاحظ فى الآية أن كلمة "مِلَّة" جاءت منصوبة وقد حيرت المفسرين، فقد روى الامام الطبري رحمه الله فى تفسيره لهذه الآية ما يلى:

(قوله: مِلّة أبِـيكُمْ إبْرَاهِيـمَ نصب ملة بـمعنى: وما جعل علـيكم فى الدين من حرج، بل وسعه، كملّة أبـيكم فلـما لـم يجعل فـيها الكاف اتصلت بـالفعل الذى قبلها فنصبت. وقد يحتـمل نصبها أن تكون علـى وجه الأمر بها، لأن الكلام قبله أمر، فكأنه قـيـل: اركعوا واسجدوا والزموا ملّة أبـيكم إبراهيـم)!

نلاحظ أن الامام الطبري وجد اشكالا لغويا فى نصب كلمة "مِلَّة" ووضعها من الإعراب فى هذا النص، لانها كانت تفهم انها تعنى " قوم إبراهيم" او "دين ابراهيم" ولذلك اجتهد فى تبرير النصب، ولكننا نظن أن الكلمة منصوبة لأنها "حال" والحال يأتى منصوباً! وهذا تؤكده الحقائق التاريخية إذ أن إبراهيم لم يكن ملكاً أو حاكماً ولم يعرف عنه انه قاد جيشا أو شارك فى حرب، مما يجعل الأمر بالجهاد فى الآية الذى ارتبط بملة إبراهيم جهادا من صنف الجهاد الذى عرف عن إبراهيم، أى أن "ملة" إنما هى مأخوذة من "ملَّ يملُّ مِلَّةً" وهي اسم معنى أى حال لازم النصب! وبالتالي فان الجهاد المقصود هنا هو الجهاد الفكرى مع النفس والعقل والبحث فى أسرار

الكون والجدال مع المشركين والدعوة الى الله بالمنطق والحجة البينة، و لكن ليس جهادا جسديا إذ أن هذا هو مضمون "ملة" أو "ململة" إبراهيم فى إصراره الوصول الى الحقائق الكاملة وعدم الرضا بأنصاف الحلول! وحتي لا يفهمنا احد خطأ فان هذا فهمنا لمفهوم الجهاد فى هذه الآية فقط ولا ينطبق بطبيعة الحال على آيات اخرى ربطت الجهاد باسترجاع الحق المسلوب ورفع الظلم والدفاع عن النفس إذ أن لكل مقامٍ مقال!

بهذا التفسير لكلمتي مقام إبراهيم وملة إبراهيم، يتضح لنا أن سيرة إبراهيم قد رُوِيت فى القرآن بلغة تتحدي العقل وتستفزه للتفكير، وان إتباع أسلوب إبراهيم عليه السلام يجعل الإنسان ماشيا على خطاه متململا كملِّته، ساعيا الى أن يرفعه الله الى مقامه الكريم ويتخذ من مقامه صلة مع الله تعالى ليتحقق معنى الإسلام فيه قلبا وقالبا! نعود الى قصة العهد مع إسماعيل وإبراهيم:

بعد أن روى الله تعالى لإبراهيم قصة ذلك البيت، عهد الى إبراهيم وابنه إسماعيل بعد أن يكبر، بان يطهرا بيت الله للطائفين والقائمين والركع السجود! نلاحظ هنا أيضا أن الله لم يقل له "هذا البيت"، إذ انه لم يكن عند البيت حينها ولكن وصفه بأنه "بيتي"، أى أن القصة كلها ما زالت رواية من الله لإبراهيم ووعدا منه وتكليفا له ولإسماعيل أن يقوما بهذا الواجب فى المستقبل!

من المفيد هنا أن نسوق قصة العهد الذى عهده الله تعالى الى إبراهيم وإسماعيل كما حرفها اليهود الذين ما أرضاهم بطبيعة الحال أن ذلك العهد قد منح لإبراهيم وإسماعيل زمنا قبل ميلاد اسحق، عليهم جميعا أفضل الصلاة والتسليم! فقد روى توراة اليوم أن العهد قد تم أولا مع إبراهيم وسلالته بعد ميلاد إسماعيل و قبل ميلاد اسحق، مما يوحى بان الابن المقصود بالعهد كان إسماعيل:

{ثم ولدت هاجر لابرام ابنا فدعا ابرام ابنه إسماعيل، وكان ابرام فى السادسة والثمانين من عمره عندما ولدت له هاجر إسماعيل} سفر التكوين 15:16-16! ويمضي التوراة:

{ وعندما كان ابرام فى التاسعة والتسعين من عمره ظهر له الرب قائلا: " انا هو الله القدير ، سر أمامي وكن كاملا، فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثر نسلك جدا". فسقط ابرام على وجهه، فخاطبه الله قائلا: " ها انا اقطع لك عهدي، فتكون ابا لأمم كثيرة. ولن يدعي اسمك بعد الآن ابرام " ومعناه الأب الرفيع" بل يكون اسمك إبراهيم " ومعناه أب لجمهور" لأني أجعلك ابا لجمهور من الأمم، واصيرك مثمرا جدا، واجعل امما تتفرع منك، ويخرج من نسلك ملوك. واقيم عهدي الابدي بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك جيلا بعد جيل، فاكون الها لك ولنسلك من بعدك. واهبك أنت وذريتك من بعدك جميع ارض كنعان، التى نزلت فيها غريبا، ملكا أبديا وأكون لهم الها} سفر التكوين 1:17-8!

لا يخفي على القارئ مدي تكرار العهد مع إبراهيم وذريته من بعده فى نصوص التوراة أعلاه، فى زمن ما كان إبراهيم حتى يعلم انه سيكون له ولد من سارة التى طعنت فى السن آنذاك وكانت عاقرا! وتمضي الآيات تشترط على إبراهيم أن يختن نفسه وإسماعيل وكل الذكور فى بيته تعبيرا عن عهده مع الله وقد فعل! ولكن يمضى توراة اليوم ليفاجئ القارئ ببصمات اليهود يضيفون الفاظا تخصص العهد لاسحق، وتستثني إسماعيل مما يتناقض مع النص السابق ويؤكد تحريفهم للتوراة حسدا لبني عمهم إسماعيل:

{ وقال إبراهيم: "ليت إسماعيل يحيا فى رعايتك " . فأجاب الرب :" أن سارة زوجتك هى التى تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق " ومعناه يضحك" . واقيم عهدي معه ومع ذريته من بعده عهدا أبديا. أما إسماعيل ، فقد استجبت لطلبك من اجله فسباركه حقا، واجعله مثمرا، وأكثر ذريته جدا فيكون ابا لاثني عشر رئيسا، ويصبح امة كبيرة. غير أن عهدي ابرمه مع اسحق الذى تنجبه لك سارة فى مثل هذا الوقت من السنة القادمة} سفر التكوين 17:18 -21!

ولعل الواقع قد كذبهم فى أشياء كثيرة فجميع ارض كنعان الآن سكنها ولد إسماعيل، وبني اسحق يصارعون بمساعدة كل قوى العالم للسيطرة على ارض اغتصبوها من أطفال الحجارة فى فلسطين وهم عن ذلك عاجزين، فضلا عن أن بنى اسحق ليس لديهم حدثا أو مكانا يبررون به ذلك "العهد" يشابه بيت الله الحرام فى بكة وملايين الحجيج يحجون إليه من كل بنى آدم كل عام!

إذا فالعهد قد تـمَّ مع إسماعيل زمنا قبل ميلاد اسحق، لكن التحريف فى قصة التوراة قد امتد ليجعل قصة العهد وكأنها قد تمت قبل عامٍ من ميلاد اسحق عليه السلام حتى يحدث خلط بين ولدى إبراهيم فى قصة العهد. ولكن نظن من فهمنا للقرآن والتوراة أن العهد كان هدية ميلاد إسماعيل أى انه تم فور ولادته وختانه، فضلا عن أن العهد أصلا كان لسدانة البيت ورعاية ضيوف الرحمن الى الأبد، بالإضافة لحفظ سر الإنسانية وبدء خلق الإنسان وتطوره، وهذا كله ارتبط بإسماعيل وذريته التى انحدرت فى مكة!

نعود الى قصة إبراهيم فى القرآن: كما رأينا فالآيات السابقة تشير الى أن الله تعالى ابتلي إبراهيم بمعلومات مجسمة "كلمات" مرتبطة بالبيت الذى عهد إليه وإسماعيل أن يطهراه للحجيج، وشرح الله لإبراهيم احداثا وقعت حول البيت فى زمانٍ مضى، وأكمل إبراهيم بقية القصة باستنتاجاته!

لا ندري بعد كم من الزمن هاجر إبراهيم بابنه إسماعيل الرضيع وأمه الأميرة المصرية هاجر عليهم السلام الى" بكة"، وهناك دعا إبراهيم دعاء فيه ذات المعاني السابقة لكن نلاحظ اختلافا فى الكلمات التى عبر بها عن دعائه:

"هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ":

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ **هَذَا الْبَلَدَ** آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ*رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ منى وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ*رَبَّنَا انى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ **رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ** فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تهوى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ*رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ* الْحَمْدُ لِلَّهِ الذى وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} 35-39 إبراهيم**!**

نلاحظ من هذه الآيات ما يلى:

1. أن إبراهيم هنا يتحدث عن "البلد" معرفا بالألف واللام مما يدل على أن هذا البلد أصبح معروفا لديه عكس قوله السابق "اجعل هذا بلدا أمنا" وهذا يدل على أن هذا الدعاء كان عند البيت فى مكة بينما الدعاء السابق كان فى الشام قبل أن يصل الى مكة!

2. انه تحدث بلغة إمام "الناس" وانه الآن يعلم أن من ذريته من سيعصي ولكنه ما زال يستغفر لهم.

3. أن مكة كانت وادى غير ذى زرع وليس فيها احد.

4. كان يعلم أن هذا الوادى عند البيت الحرام، علما بأنه لم يرفع قواعده بعد، إذ أن هذا حدث بعد سنوات وبعد أن شب إسماعيل. أيضا هذا يدل على انه كان على علمٍ بقصة البيت السابقة ومدي حرمته قبل أن يأمره الله ببناءه سنوات طويلة بعد هذا الدعاء!

5. كان يعلم بعبادة الأوثان التى وقعت عند البيت فى الماضى.

6. انه كان يعلم أن هذا الوادى الجاف هو مكان لصلاة خاصة بين العبد وربه وان ذريته ستقيم الصلاة هنا رغم أن البيت لم يكن موجودا حينها!

7. لم يخفي إبراهيم عواطف الأب الشيخ الهرم وهو يترك ابنه الوحيد وأمه فى هذا الوادى الجاف، ولكنه خاطب ربه بلغة غاية فى الأدب معبرا عن إيمانه بان الله يعلم ما ظهر من طاعته وانصياعه للأمر وما خفي من عطفه وشفقته على وحيده وزوجته! ونحن نظن أن ذكر اسحق هنا والذى كان سابقا لميلاده، يشير الى أن الله ربما اخبر إبراهيم بمقدم ابنه الثانى اسحق فى المستقبل، حتى يطمئن قلبه الى أن الله سيحفظ ذريته ويمنحه المزيد!

نعلم من التاريخ الإسلامي ومن القرآن أن هاجر لما نزلت الى الوادى مع رضيعها إسماعيل لم يكن فيه أى معلم إلا جبلين غريبين صغيرين هما جبلي الصفا والمروة، إذ أن البيت لم يكن موجودا حينها! ونعلم أيضا من السنة أن ابن عباس قال: "أن أول من سعى بين الصفا والمروة لام إسماعيل"، وقال أيضا أن إبراهيم لما همَّ بالرحيل اتبعته هاجر فقالت: "الى أى شئ تكلنا؟ الى

طعام تكلنا؟ الى شراب تكلنا؟ فجعل لا يرد عليها شيئا، فقالت: الله أمرك بهذا فقال نعم، قالت إذن لا يضيعنا "!

نحن نفترض أن ما دار بين هاجر وإبراهيم قبل أن يرحل ربما كان حديثا طويلا روت لنا السنة منه مقتطفات فقط، إذ انه فور رحيل إبراهيم عليه السلام فإنَّ هاجر أقامت الصلاة، ولكن أى صلاة والبيت لم يكن موجودا؟ تُحدثنا السنة أن هاجر تركت إسماعيل على الأرض على بعد بضعة أمتار من ركن الحجر الأسود الحالي وصعدت الى جبل الصفا سائلة الله تعالى ما شاءت ثم نزلت تهرول فى بطن الوادى الى أن صعدت الى المروة، فسألت ما شاءت ثم عادت الى الصفي وهكذا! روى بعض السلف أن هاجر كانت تبحث عن ناس ربما يكونون عونا لهم فى وحدتهم وان صعودها الى الصفا والمروة ما كان إلا لتتمكن من الرؤيا! ولكننا نظن أن هاجر كانت قد وضعت أملها فى الله وقد قالت لإبراهيم أن الله لن يضيعهم! ولذلك نظن أن ما فعلت بين الصفا والمروة إنما كان "**تطوفاً**" وليس بحثا عن عون إلا من الله الذى لن يضيعهم، لان هذه كانت **صلاة الإنسان الأول** يوم "تلقى آدم من ربه **كلمات**" أى طرحها بمجهود فى وضعين متقابلين متساويين هما جبلي الصفا والمروة كما نظن!

هذا الافتراض تدعمه أدلة اخرى إذ أن علاقة إبراهيم بالبيت قد رواها القرآن من زوايا مختلفة أهمها هنا هذه الآية التى حيرت المفسرين فى لغتها وتحتاج منا لنظرة عميقة:

{وَإِذْ **بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ** أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} 26 الحج!

بوأ فى اللغة لها معنيين احدهما الرجوع للشئ، والأخر تساوى شيئين، كما تقول: العرب فلان باء بفلان أى أصبح كفوا له! وكما قال ابن آدم الظَّالِمَ ِ{إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ } 29 المائدة!

مكان فيها خطأ شائع فى الفهم حسب قول معجم مقاييس اللغة، إذ إنها لا تعنى موقع جغرافي ولكن أصلها من "كون"، والكون أصل يدل على الإخبار عن حدوث شئ إما فى زمان ماضى أو زمان راهن! "كان الشئ يكون كونا" إذا وقع وحضر! اما "مكان" فقد اشتقت من "كان يكون" فلما كثر استعمال الميم توهم الناس أنها من أصل الكلمة، أى إنها أصلا تعنى "ما كان"!

ورد فى معظم التفاسير أن المعنى العام لهذه الآية هو أن الله "بين لإبراهيم موقع البيت ليقوم ببناءه" انطلاقا من أن هذا جزء أساسي من علاقة إبراهيم مع البيت العتيق! ولكن ليس غريبا أن التفاسير قد أجمعت على أن هناك اشكالا فى فهم حرف اللام فى " لِإِبْرَاهِيمَ" إذ أن الطبيعي أن يقول "بوأنا إبراهيم مكان البيت" كما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بنى إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ ..} 93

يونس! فأصبح المعنى المتعارف عليه هو ما أسلفنا من قول المفسرين وهو أن الله ابان له موقع البيت، ولكن ظلت "اللام" اشكالا لغويا فى تفسير "لِإِبْرَاهِيمَ"!

ونحن نظن أن مدلول الآية هو أن الله قد "ارجع لإبراهيم"، أى قص عليه "ما كان حول البيت" من أخبار فى زمن سابق! هذا التفسير يحل إشكال اللام فى " لِإِبْرَاهِيمَ" ويضفي معاني أعمق للآية من غير إشكال لغوي، إذ انه بعد أن عرف إبراهيم أخبار البيت و ما كان حوله، كان طبيعيا أن يذكره الله بتحريم الشرك به لأن شرك الإنسان الأول بالأنعام التى أنزلت له حدثٌ مهم من الأحداث التى كانت مما كان عند البيت فى الماضى. ولأن إخبار إبراهيم بما كان حول البيت كان جزءً من تسليمه العهد و مسؤلية تطهير البيت ليكون قبلة للطائفين والقائمين والركع السجود، كان طبيعيا أن يؤمر بأن يؤذن فى الناس بالحج ويدعوا بنى آدم للعودة **والمثابة** لبيت آبائهم!

ونحن نظن أن إقامة الصلاة التى تحدث عنها إبراهيم فى الآيات السابقة حينما اسكن ذريته عند البيت الحرام، لم تكن بالضرورة الصلاة التى نمارسها الآن كركنٍ ثانٍ فى الإسلام، إذ أن كل الأنبياء قد عبدوا الله وأقاموا الصلاة ولكن بصور مختلفة لان الصلاة تعنى الصلة مع الله تعالى وان اختلفت الاشكال!

فإذا عدنا للحديث الذى وصف أن الاميرة هاجر صعدت الصفا ثم نزلت وصعدت المروة فإننا نفهم أنها إنما "**أقامت الصلاة**" بالصورة الوحيدة التى عرفتها من إبراهيم بعد أن بوأ الله له ما كان حول البيت من أحداث فى زمان غابر، حينما سكنت عنده مجموعة آدم واستغفروا لذنوبهم حينما "تلقى آدم من ربه كلمات"، أى طرح بصعوبة مجسمات انزلها الله إليه بعد معصيته ليعبر بها عن ندمه ولتكون أول عبادة يمارسها الإنسان حول البيت! ولعل فى قصة الرؤيا دليل آخر على أن آل إبراهيم فى مرحلة من مراحل الرسالة لم يكن قد اتضح لهم ماذا كان قد صح من عبادة الإنسان الأول وماذا حرّم الله تعالى، بدليل انه همّ بتطبيق الرؤيا بذبح ابنه بكل رضا لمّا فهم إنها من عبادات الإنسان الأول التى اخبره الله عنها! ربما يكون فى هذا تأكيد على أن الله أراه كل ما دار حول البيت أولا، ثم اتبع ذلك بتصنيف تدريجي لما أجازه الله وما حرمه فكان مما أجاز التطوف بين الصفا والمروة ومما حرم ذبح الأبناء والله اعلم. وهذا التفسير ربما يفسر لنا صيغة اباحة التطوف وكأنه كان هناك عبادات ارتبطت بالسعي لم تباح: { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ **فَلَا جُنَاحَ** عَلَيْهِ أَنْ **يَطَّوَّفَ** بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} 158 البقرة! من الملاحظات الهامة جدا فى هذه الآية ان الله وصف العبادة التى تمارس بين الصفا والمروة بـ **التطوف** وليس "السعي" كما تعارف بين المسلمين، وسنعرف لاحقا الفرق بين السعي والتطوف! كلمة "جناح" تعنى الإثم والميل عن الحق، واستعمالها هنا يفيد ان آثاما كبيرة وقعت هنا ولكن التطوف ليس من تلك الآثام ولا جناح علينا فيه. هذا المفهوم يشرح لنا الحكمة

من استعمال كلمة "فديناه" التى سنناقشها حينما ننظر لقصة الفداء من زاوية اخرى فى باب "آذان الانعام"!

ومما يؤكد أن مفهوم الصلاة عند البيت لا يتطلب بالضرورة أن تكون صلاة المسلمين التى نعرفها الآن، فان الله وصف عبادة الكفار عنده بالصلاة أيضا: {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً...} 35 الأنفال!

وحتي نلقي مزيدا من الضوء على هذين الجبلين علينا أن نبحث فى مدلولات أسمائهم فى اللغة:

فالصفا من الصفو وهو الخلوص من كل شوب، أى النقاء! وسمي الحجر صفوان إذا كان خالصا من طين ورمل وهي من شوائب الأرض! اما **المروة** فتعني الحجر الذى يبرق وجمعها "مرو" أى الحجارة البراقة! إنَّ تسمية هذين الجبلين بهذين الاسمين الذين وردا فى القرآن، لهو دليل آخر على أن اصلهما ليس من حجارة الأرض، ويدعم ظننا انهما "**الكلمات**" أو المجسمات التى طرحها آدم فى وضعين متقابلين تعبداً الى الله، وهو ما يفسر لنا سر عبادة التطوف بين **الصفا والمروة** التى مارستها هاجر كاول صلاة لها عند البيت، ومما لا شك فيه أن الصفا والمروة من شعائر الله أى آياته المنزلة!

نحن لا نعتقد أن هاجر كانت تبحث عن مارَّة بصعودها الى الصفا والمروة إذ إنها تعلم أن القوافل لا تمر بوادٍ غير ذي زرع، " فضلا عن أن نتيجة "تطوفها" كان أن فتح الله تعالى لها ولإسماعيل زمزم فور فراغها من التطوف بين الصفا والمروة، مما يدل على انها كانت فى حالة عبادة وصلاة وليس بحثا عن بشر! إذاً فانها كانت لها حاجة عند الله وليس عند الناس، واستجاب الله لصلاتها تلك بزمزم!

ومما يؤكد أن إبراهيم وهاجر كانوا على علم بالتطوف بين الصفا والمروة مما علموا من أخبار البيت هو أن الله تعالى قد وصفه بـ " **السَّعْيَ**" فى سرد قصة رؤيا إبراهيم وهو يذبح ابنه! فقد تركهم عند البيت ثم حدث ما نعرفه من مجيء قبائل جرهم وسكنهم معهم، ثم عاد إبراهيم وقد شب إسماعيل، فحدث ما يلى:

{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ **السَّعْيَ** قَالَ يَا بنى انى أَرَى فى الْمَنَامِ انى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ* فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِين*وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ* وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فى الْآخِرِينَ} 102-108الصافات!

بلغ لها معنى واحد وهو الوصول للشئ كما ورد فى المعجم!

السعي:السعو هو القطع، و سعو من الليل تعنى قطع منه. وسعاية العبد إذا كوتب أن يسعى فيما يفك رقبته!

فاذا كان "البلوغ هو الوصول للشئ" وكان المقصود هو"حتى وصل إسماعيل فى عمره لان يسعى ويشقي مع أبيه"، قد لانحتاج لـ "معه" لتدل على أن إبراهيم أيضا كان يسعى، لأنها معلومة بالضرورة! فضلا عن انه معلوم أن إسماعيل نشأ فى مكة بعيدا من أبيه الذى كان فى الشام اغلب الوقت، أى لم يشاركه اعماله وبالتالي فإنَّ "بَلَغَ مَعَهُ **السَّعْيَ**" فيها غموض لغوي يحتاج لبحث!

استعمل القرآن كلمة **سعى** فى مواقع مختلفة كلها تشير الى "العمل المتقطع":

{وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ **وَسَعَى** لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا} 19 الاسراء، فسعي الآخرة هنا هو مجموع اعمال الخير المتفرقة من صلة رحم وصدقات وعبادات وغيرها لتتجمع "القطع" وتشكل سعى الخير! على أن ابلغ استعمال لها بمعني "القطع" كان فى وصف حال الطير الذى قطعه ابراهيم اجزاءً وفرقه على اربعة جبال ثم دعاه، فاتت **القطع** بامر الله لتتجمع فى يده:

{قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ **يَأْتِينَكَ سَعْيًا**} 260 البقرة!

من هنا نفهم ان ابراهيم واسماعيل وصلا موقعا وصفه القرآن بصورة غامضة بلفظ يعنى "**القطع**" مما يستوجب بحثا دقيقا فى مضمون الآية!

لما رجعنا للتفاسير المشهورة لنقف على رأى المفسرين فوجئنا بان مضمون هذه الآية فيه خلاف اكبر من تأويل " السعي"! فقد ذكر ابن كثير والطبري والقرطبي وغيرهم أن الابن المقصود بـ " الذبح" كان اسحق وليس إسماعيل مما يدل على أن تفاسير هذه الآية اخذت حرفيا من توراة اليهود المغلوط مما يجعلها تحتاج لمراجعة شاملة!

ليس هناك نص واحد عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقطع تفسير الآية أو يقطع الشك فى هوية الابن المقصود بالذبح. على أن الغالب هو أن الصحابة الذين نقلت رواياتهم فى تفسيرها قد نقلوا ذلك المعنى من اليهود الذين جاوروهم فى المدينة، وقد رأينا كيف أن اليهود حرفوا اسم الابن المقصود فى التوراة تحريفا ظاهرا ليحل اسحق مكان اسماعيل فى امر العهد! فالتوراة كما ذكرنا وصف الابن بأنه ابن إبراهيم الوحيد ولكن اليهود أضافوا لذلك " ابنك وحيدك إسحاق" وهو لفظ فيه خلل لغوي لان اسحق وبلا شك كان الابن الثانى بنص التوراة والقرآن، ولكن لم يكن الابن الوحيد لإبراهيم فى أى يوم من الأيام! إذا فاليهود حاولوا ربط الفداء بإسحاق حسدا من عند أنفسهم، ثم انطلى هذا التفسير على بعض المفسرين فى زمان كان فيه تناقل المعلومات بين الأديان محدودا! ونحن نضيف رأينا للاراء التى تقول أن الإبن المعنى بالذبح هو إسماعيل للأسباب الآتية:

1. أن الشروع فى الذبح تم عند البيت الحرام وقد ثبت أن قرني الكبش الذى فدى به إسماعيل كانتا موجودتين فى البيت الى عهد النبي صلى الله عليه وسلم. والمعروف أن إسماعيل هو الذى عهد الله إليه بالبيت وليس اسحق مما يرجح انه هو المقصود بالذبح ومن ثم الفداء!

2. أن إسماعيل كان الابن الوحيد لإبراهيم لثلاثة عشرة سنة ويبدو لنا أن امتحان الله له فى ابنه الوحيد ابلغ أثرا من أن يمتحنه فى ابنه الثانى لان الاختبار هنا يكون أعظم!

3. أن الآيات التى روت تفاصيل الرؤيا والشروع فى الذبح تلتها آية البشري لإبراهيم باسحق بصريح اللفظ ، مما يؤكد انه ساعة الذبح لم يكن اسحق حتى موجودا فى ذرية إبراهيم!

4. من المنطقي أن يكرم الله إبراهيم الذى صدق الرؤيا وقبل ذبح ابنه الوحيد بابن ثانٍ لم يكن فى الحسبان جزاءً على طاعته وهذا الابن الثانى هو إسحاق!

5. أن سُنَّة ذبح الأنعام فى عيد الاضحى ظلت موجودة عند البيت فى بنى إسماعيل حتى فى الجاهلية، مما يؤكد أن الحدث وقع عند البيت وان المقصود كان إسماعيل أبو العرب وليس اسحق أبو اليهود!

6. أن العرب كانت تعرف الذبيح إسماعيل ولذلك سُمِّيَ النبي صلى الله عليه وسلم بابن الذبيحين لأنه ابن عبد الله من ولد إسماعيل الذبيح الأول!

ولما كان رأى جموع المفسرين اللاحقين هو أن المقصود بالذبح هو إسماعيل وليس اسحق كما ورد فى التفاسير القديمة، فإننا نراجع تفسير الآية كلها لما نظن انه له علاقة بـ {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ}، إذ اننا نظن أن الامتحان بالذبح كان امتدادا لقصة الآباء التى قصها الله تعالى لإبراهيم مما حدث حول البيت! فضلا على أن الاختلاف على تحديد هوية الابن موضوع الذبح يدل على أن المفسرين القدامي ربما لم يُوَفقوا لربط عملية الذبح والفداء بأحداث مهمة فى الماضى والمستقبل، تُحتم عليهم تحديد ولدٍ واحدٍ من أولاد إبراهيم لعلاقته بمضمون الآية وما سبقها وما تلاها من أحداث كانت بالطبع غائبة عليهم!

نعود الى الآية: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ **السَّعْيَ** قَالَ يَا بنى انى أَرَى فى الْمَنَامِ انى أَذْبَحُكَ}

نحن نعتقد أن ما حدث هو أن إبراهيم وإسماعيل بلغا معا مكانا وصفه القرآن بـ "السعي" وتعني "القطع"، أى أن السعي هنا تشير الى اسم معنى وليس عمل! والمعروف ان مكان السعي هو الصفا والمروة، وهو المكان الذى عبَّرت فيه مجموعة آدم عن ندمها على معصية الله وتعبدوا فيه الى الله بأولي صلوات الإنسان! وقد راينا فى باب "فى وادى المزدلفة" ان الصفا والمروة هما "الكلمات" التى طرحها آدم (اسم المعنى وليس نبى اله المصطفى آدم) بمجهود تعبيرا عن توبته ليفك رقبته من الذنب الذى ارتكبه! وتلك الكلمات كانت بنص القرآن "من ربه" أى انها كانت من خارج نطاق معرفته، وقد افترضنا انها حجارة اقتطعت من كوكب خارج اطار الارض. هذا

يشرح لماذا وصفها الله هنا فقط بـ "السعي" وتعني "القطع" اشارة الى تلك الحجارة المقتطعة من خارج الارض!

وهنا يأتى الربط بين ندم الإنسان الأول فى محاولته الحصول على الأبناء وبين عادة ذبح بعضهم توبة الى الله "فك الرقبة من الاثم" وهو المعنى الثانى لكلمة "سعى"، ثم اصبح ذبح الابناء عادة بين تلك المجموعة! ولأن الله تعالى أراد للرؤيا أن تكون ذات مدلول عملي ومتصل بأصل القصة قدر لإبراهيم أن يصارح ابنه إسماعيل برؤيته لمَّا بلغ معه "السعي"، لِما فى هذا المكان الغامض الذى يقع بين اثنين من شعائر الله الحرام وهما الصفا والمروة من ارتباط وثيق بعادة ذبح الأبناء وتاريخها فى الأرض. ولان الله أراد للرؤيا أن تكون استبدالا لعادة سيئة بسنة حسنة وهي ذبح بهيمة الأنعام تقربا الى الله، فقد ربطها ربطا تشخيصيا وجغرافيا وزمنيا "بالسعي" الذى هو ركن من أركان الحج، والذي هو أصلا تقليد و تمثيل عملي لمسار الإنسان الأول وتوبته من المعصية الأولى! بهذا التفسير للآية يكون المدلول اللغوي {بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} ذا معنى أعمق، ويكون المدلول التاريخي ذا معنى ابلغ أيضا لارتباط الآية بقصة البيت "وإذ بوأنا لـ إبراهيم مكان البيت"، ويكون لها معنى ابلغ أن ترتبط بسلوك الإنسان الأول حين هبط الى الأرض، الشئ الذى يمثل الحج تمثيله العملي وذكراه السنوية وبذلك يصبح لسنة الأضاحي معنى ذا مدلولات كثيرة تعبدية وتاريخية واعجازية. وبهذا المعنى نفهم لماذا امر الله بعبادة التطوف بين الصفا والمرة بـ: "لا جناح"، اذ انها العبادة السليمة الوحيدة التى بقيت مما كان فيه جناح عند السعي!

هذه المعاني العميقة للرؤيا تشرح وصف الله لإبراهيم بـ {قَدْ **صَدَّقْتَ** الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} إذ أن التصديق تعنى قوة فى الشئ حسب المعجم، وهذا يدل على أن الرؤيا لم تكن مجرد رؤيا وإنما تحكي قصة ذات أبعاد يصعب تصديقها إلا إذا كانت من الله، وكان المحسن الذى صدقها هو إمام الناس وصاحب الملة الحنيفية الذى وصفه الله تعالى بأنه امة!

ونحن نظن أن فى الرؤيا نفسها نوع من "الإعجاز الفني فى القرآن" إذ أن كل خطوات الإنسان الأول يمكن تقليدها لدرجة كبيرة، ولكن ما كان ذبحهم لأبنائهم ليُمثل إلا برؤيا يُصدِّقها النبي ويشرع فى تنفيذها قبل أن يفدي الله ابنه بالكبش! فتم استبدال ذبح الأبناء بذبح الكبش فى ذات المكان ثم أصبح ذبح الهدي والأضاحي سنة باقية وجزء مهم من تمثيلية الحج الكبري فى إحياء ذكرى هبوط آباء الإنسانية الى الأرض، واصبح التطوف لا جناح فيه بعد ان حرم كل ما كان فيه جناحٌ من إنحرافات الانسان الاول! اما سر كل هذه الحجارة الغريبة على كوكب الارض من الجمرات الى الحجر الاسود الى السعي وعلاقتها بالحركة المنتظمة بينها فى شكل تطوف او رجم الشيطان فسندرسها من زاوية علمية مستهدين بعلم الفيزياء النووية والطاقات الكامنة عندما ندرس موقع مكة والبيت العتيق والقبلة فى باب سدرة المنتهي ان شاء الله. كما سنعود مرة أخرى

للفظ "فديناه" فى باب آذان الانعام اذ ان الله لا يحتاج للدخول فى مقايضة فداء مع احد لكن اللفظ يحكى بعدا آخرا من قصة الحج!

وقبل ان نختم هذا الباب الذى ارتبطت أحداثه بالمثابة لبيت الآباء، يستحسن أن نلخص ما خلصنا إليه فى نقاط:

1. وصل إبراهيم عليه السلام الى صفات الاله الحق فاتصل الله به، ثم قبل إبراهيم أن الإنسان يمكن أن يحي ما التبس على الناس موته فأراه الله كيف يحي الله وحده الموتى.

2. فى كبره اشتاق إبراهيم للولد وتفكر مليا فى أصل الخلق ووالد وما ولد، وسأل الله تعالى عن خلق الإنسان حين ما رزقه إسماعيل فاختبره واخبره الله بمعلومات مجسمة "كلمات" لها علاقة بقصة الإنسان الأول فأتمها إبراهيم ببديهته واستحق أن يكون للناس اماما.

3. بوأ الله لإبراهيم مكان البيت، أى قصَّ عليه ما كان حوله من أخبار فى الزمن الماضى ثم عهد إليه والي إسماعيل تطهير البيت فى المستقبل.

4. اخبر الله تعالى إبراهيم أن هذا البيت سيكون مثابة للناس، أى مركزا لعودة كل بنى آدم لأنه بيت آبائهم الأول، ودليلا يعينهم على تصديق ما دار حوله.

5. وصل إبراهيم بأمر من الله الى مكان البيت وترك ذريته هناك وهو حينئذ وادٍ غير ذي ذرع واخبر هاجر أن هذا أمر الله تعالى.

6. علماً منها أن الله لن يضيعهم، أقامت هاجر الصلاة الأولى وهي تتطوف بين الصفا والمروة "السعي"، لعلمها أن هذه هى صلاة الإنسان الأول فى هذا المكان الذى هو من شعائر الله، ففتح الله لهما زمزم.

7. عاد إبراهيم بعد أن شب إسماعيل وقص عليه رؤيته انه يذبحه لمَّا بلغ معه "السعي"، أى "الصفا والمروة" وهما قطع الحجارة المنزلة، لِما فى هذا الموقع من ارتباط بقصة الإنسان الأول الذى سن له الشيطان سنة ذبح الأبناء تقربا لله، ولانه كان مكان توبة الإنسان الأول وعبادته لله.

8. لان إبراهيم قد صدق الرؤيا وربط الحقائق ببعضها وأتمَّ الكلمات، أكرمه الله بفداء ابنه بكبش منزل، وهو نفسه من الأنعام التى هى من شعائر الله، منهياً بذلك سنة الشيطان فى التقرب الى الله بذبح الأبناء.

9. رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت وأذَّن فى الناس بالحج ليكون تقليداً حقيقيا لقصة الإنسان الأول يربط الأبناء بأرض الآباء وربهم ونظام الكون و الخلق والتطور الى يوم القيامة.

*   *   *   *

لقد رأينا أن الجنة التى سكنها آدم كانت عند جبل عرفات الذى كان مروجا وسيعود مروجا قبل قيام الساعة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، ورأينا أن الإحرام الذى يلبسه الحجيج إنما هو تقليد لـ " طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة"! ثم رأينا كيف دلف الإنسان الأول الى المشعر الحرام فى وادى المزدلفة ليجمع الجمرات التى تمثل الحجارة التى أنزلت للإنسان الأول ليواجه بها الشيطان فى الأرض.

ثم رأينا كيف "تلقى" أى طرح آدم المجسمات التى لم تكن إلا " الكلمات" من ربه فى شكل قطع حجارة جبلي الصفا والمروة "السعي" وهي حجارة صافية ذات بريق، غريبة على وادى مكة! ثم رأينا كيف ابتلي الله إبراهيم بكلمات فاتمهن وبوأ أى ارجع له ما كان حول البيت من أحداث تهم الإنسانية! ثم رأينا كيف اقامت هاجر الصلاة فور وصولها الى البيت وهي التطوف بالصفا والمروة، ثم جاءت رؤيا إبراهيم بذبح ابنه لمَّا بلغ معه "السعي"، لتربط بين سلوك الإنسان الأول فى ذبح الأبناء وبين فداء الله له بالأنعام المنزلة التى هى من شعائر الله! هذه المناسك مجتمعة تمثل ركن الحج الإسلامي الذى نمارسه الآن والتي تعكس تاريخ البيت وعلاقته بالإنسان و الذى يمكن تلخيصه فى مرحلتين:

1. الأولى كانت مرحلة الخلق والتطور، ووجود الإنسان الأول عند البيت حينها كان مسكنا وبيتا للم شمله كضرورة حياة وليس عبادة!

2. المرحلة الثانية بدأت عندما بوأ الله لإبراهيم ذلك الماضى فتحول البيت الذى كان مأوى للآباء الى معبدٍ للأبناء، وأصبحت زيارته و **المثابة** إليه والتفكر فى تاريخه عبادة مفروضة على بنى آدم وستكون حجة عليهم لما فيها من آيات وجود الله واصل الإنسان!

إذا نظرنا لمناسك الحج اليوم نلاحظ إننا لم نتطرق الى الآن الى "منى" ، رغم انها المكان الوحيد فى طريق الحجيج الذى يؤدون فيه مَنْسكين مختلفين! فالمعروف أن الحجيج يقضون الليلة قبل عرفات على ارض منى...ثم يعودون لرمي الجمرات فيها....ما علاقة منى بخطي الإنسان الأول وقضية الخلق والتطور؟

نعتقد انه قد أن الأوان لان نسترجع ما نعرفه عن الحج فى الإسلام لنقارن كل أركانه وأحداثه بقصة الإنسان الأول، لأنه أصبح جليا أن الحج حجة على الإنسانية جمعاء إذ انه تمثيل للمثابة لبيت الآباء، وليس فقط عبادة مجردة تخص المسلمين!

نزلنا فى أبواب سابقة بـ "لغة الغراب" مع الإنسان الأول من جنة المأوى الى وادى المزدلفة وجمعنا الجمرات الملتهبة المنزلة من الكواكب الحمراء لرجم الشيطان فى منى، وهنا سنمشي بـ "لغة الهدهد" على خطي الحبيب محمد وخطي إبراهيم صلى الله عليهما وسلم، لنكمل قصة الحج الذى جعله الله حُجَّة على الإنسانية جـمعاء!

البـــــاب العاشــر

الحج حُجَّةٌ على الـنـاس

فى الباب الأخير سندرس موقع الارض وهي تحتل موقعا مركزيا بين السموات السبع، ثم موقع مكة من الأرض وهي تحتل موقعا وسطا من حيث توزيع اليابسة والتوازن المغناطيسي والطاقات الكامنة فى الكون وأنها أول بقعة خرجت من تحت الماء لتبدأ عندها الحياة مطلقا. فى الباب التالى سنفحص سلم التطور المنزل فى آذان الانعام، ومن ثم نهتدي بسره لنبحث فى بدء الخلق منذ أن كان عرشه على الماء وبدأ خلق الأحياء كلها من ماء، ثم خلق مخلوقات الارض من وحدة واحدة انقسمت على نفسها لزوج تطور الى ملايين المخلوقات، فمنها ما تناسب ماؤه فى سلم التطور فاتصل ومنها من انصهر ماؤه فطفر، الى أن زحفت المخلوقات ومشت على أربع ثم اثنين قبل أن يسوي الله البشر فيعدله، الى أن جمع مجموعة آدم ونفخ فيها من روحه لينقلها الى إنسان عاقل. أما فى هذا الباب فسندرس حجة الله على الإنسانية جمعاء.

مفـهوم المحاججة:

من الظواهر المؤسفة التى استجدت فى زماننا هذا أن الكثير من المسلمين علماء وعامة أصبحوا يخلطون بين مفهوم **"الدين"** و **"الخالق"**، وأصبح فى فهمهم الضيق ان الاسلام هو ديننا بدل ان يكون دين الله، وانه كما لنا معتقد وللكفار معتقدات فإن لنا إلهاً ولهم آلهة، ناسين ان الاله واحد هو الله الذى لا إله إلا هو، رب من آمن به ورب من لم يؤمن به، وان الدين عند الله الاسلام! وقد رأيت رأى العين من المسلمين المتعصبين من يسب المسيح عليه السلام فى حوار احتدم مع بعض النصارى، ظنا منه على جهله أنهم طالما عبدوا المسيح من دون الله فإن سبه عبادة والعياذ بالله.

بعد أن درسنا الجوانب الفكرية لشخص إبراهيم عليه السلام ووقفنا على مِلَّته، نطرح فى هذا الباب منطقا جديدا مستوحى من مِلَّةِ إبراهيم يفسر لنا لماذا أذَّن إبراهيم فى الناس كافة بالحج وليس المسلمين! ولعل أى دارس للحج فى القرآن يجد آياته تدور حول محورين أساسيين:

1. أنَّ الحج عبادة للمسلمين ولكنه **حجة** على كل الناس!
2. أنَّ الحج ارتبط ارتباطا غريبا **بالأنعام** حتى كادت أن تكون ركنا من أركانه، مما يوحى بأن فى الأنعام سراً يرتبط بحجة الحج على الإنسانية!

ولعل من الحكمة قبل أن نخوض فى تفاصيل الحج أن نحاول فهم كلمة "حج" نفسها، وكيف ربطها القرآن بقصة إبراهيم عليه السلام لتضفي معنى أوسع على كل بحثنا إن شاء الله.

الحج فى اللغة هو القصد وكل حجٍ قصد. و"الحُجة" مشتقة منها لأن بها يقصد الحق المطلوب، يقال: حاججت فلانا فحججته أى غلبته بالحجة والدليل الدامغ الذى هو أصل المحاججة. وقد وردت كلمة الحج ومشتقاتها فى القرآن فى مواقع كثيرة ننقل منها:

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ **لِمَ تُحَاجُّونَ فى إِبْرَاهِيمَ** وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ*هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ **حَاجَجْتُمْ** فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ **فَلِمَ تُحَاجُّونَ** فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}65-66 ال عمران!

{**وَحَاجَّهُ** قَوْمُهُ قَالَ **أَتُحَاجُّونِّي** فى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} 80 الانعام!

{**قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا** فى اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} 139 البقرة

{وَالَّذِينَ **يُحَاجُّونَ** فى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ **حُجَّتُهُمْ** دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} 16 الشوري

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الذى **حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ** فى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ..} 258 البقرة

{وَتِلْكَ **حُجَّتُنَا** آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ **نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ** مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} 83 الأنعام.

إننا نظن أن قراءة هذه الآيات معا والتدبر فيها كوحدة واحدة ليس إلا تطبيقا عمليا لمفهوم "رتِّل القران ترتيلا"، إذ أن قراءة القرآن للدراسة والبحث فى صورة أرتالٍ متشابهة يوحى بأسرار وحكم تخفي على من يقرأ الآيات المتشابهة فى مضمونها كلا على حدة!

قد لا يصدق الكثيرون أن جميع هذه الآيات ارتبطت بقصة ابراهيم عليه السلام وكأنها ضرب آخر من ضروب "الإعجاز الفني فى القرآن"، إذ أن الله تعالى ربط ربطا لغويا وموسيقيا بين رسالة إبراهيم عليه السلام وكل ما اشتملت عليه من حوارات، وبين استعمال كلمة "حج" ومشتقاتها من حاجج يحاجج حجةً، وكأنه تعالى يريدنا أن نربط بين قصة إبراهيم المفكر الباحث عن الحجج، وبين مِلّة إبراهيم التى تقود الى استنباط الحجج بعد الململة، وبين مقام إبراهيم الذى رفع اليه نتيجة عبادته لله بعقله، وبين الحج وهو القصد الى بيت الله الذى بوأ ما كان حوله لإبراهيم، ثم رفع إبراهيم قواعده وإسماعيل و جعله الله قبلة للمسلمين حتى لا تكون للناس حجة عليهم:

{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاس عَلَيْكُمْ **حُجَّةٌ** ...} 150 البقرة!

ولعل تلك الدرجات التى رفع الله تعالى اليها إبراهيم هى مقامه الرفيع الذى أمرنا أن نتخذ منه مصلى وصلة إليه تعالى. و لا يخفى على القارئ هنا روعة البيان القرآني فى انتقاء الألفاظ التى ترتبط بقصة إبراهيم المحاجج، بنفس الصورة التى انتقى بها ألفاظا رقيقة وديعة روى بها قصة مريم الانثى الضعيفة، وألفاظا عسكرية اشتملت عليها سورة التوبة، وكأن وحيا داخل القرآن يوحى بأن رسالة إبراهيم "وهي رسالة الإسلام " ليست إلا رسالة حجة ومنطق وعقل!

تطرق القرآن الى عبادة الحج الركن الإسلامي من زوايا كثيرة تحكى تطور علاقة الانسان بالبيت نفسه. فقد وصف لنا القرآن الحج الركن الذى نمارسه، وأكمل شعائره النبي الخاتم ليشتمل على كل تجارب الشعوب والأمم التى سكنت عند البيت. الا أن الحج فى عهد إبراهيم عليه السلام عكس طبيعة المجتمع العشائري آنذاك واشتمل على أحكام تعبدية بسيطة تتناسب ومستوى تفكير المجتمع حينها. وعليه فسنحاول هنا أن نلقي ظلالا على تلك الأطوار التى مر بها الحج:

الحـج فى القـرآن:

لعل من أبرز ما يميز عبادة الحج فى السياق القرآني انها أرتبطت بـ **"الناس"** وليس المؤمنين كما هو الحال فى باقى أركان الإسلام، وكأن الله تعالى يوحى إلينا أن مراسم الحج والموقع الجغرافي الذى تجري فيه والأحداث التاريخية التى قام عليها، إنما هى إرث للإنسانية جمعاء مسلمهم وكافرهم. فمثلا نجد ارتباط بقية أركان الإسلام بالمؤمنين كما يلى:

{...إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} 103 النساء!

الصلاة هى تعبير عن صلة المؤمن بربه ولا يستقيم منطقا أن يكون للكافر أو الملحد الذى لا يؤمن بربه عبادة مثل الصلاة، وبذات المنطق ارتبط ركن الزكاة بالايمان بالله أولا:

{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} 18التوبة !

لا شك أن الزكاة هى إنفاق فى سبيل الله لمن يؤمن بالله أولا، وكذلك فإن الصيام تعبير إيماني لطاعة المؤمن لربه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } 183 البقرة!

فبينما نجد أربعة من أركان الإسلام مطلوبة من المؤمنين إذ أنها تعبير عن إيمانهم بالله وطاعتهم له، نجد أن الركن الخامس وهو الحج قد ارتبط بمفهوم آخر وهو الحجة على الإنسانية، وكأنه فى

نفسه وسيلة إيمان يدعى لها غير المؤمن ليرى بيناتٍ من ربه تقوده للإيمان. وهنا لا نستغرب أن نجد جميع آيات الحج والبيت مرتبطة بـ "الناس" وليس المؤمنين ومرتبطة بـ "الخلق" و"شعائر الله" وهي براهين عينية أنزلت لتكون حجة على الانسان. بل وان الحج ربط ربطا لا يكاد يغفل عنه حتى الأعمى الذى يتلو القرآن بـ "الأنعام" وسر خلقها وإنزالها وما التبس على الإنسان من شأنها، وكأن قصة الحج بهذا العرض الفني ليست الا إرثا للبشرية جمعاء. هذا الطرح يلقي على عاتق المسلمين الذين ورثوا العهد من إسماعيل أن يطرحوا قصة الحج وأسراره على كل الناس مسلمهم وكافرهم لأنه إرث لكل ذرية آدم على الأرض وحجة عليهم جميعا.

إن فى ارتباط الحج بالناس عامة وليس المؤمنين خاصة دليلا هاما على صحة تأويلنا السابق أن بيت الله العتيق فيه تاريخ يهم الإنسانية جمعاء. ولمَّا كان الله قد جعله حجة على الناس وليس تاريخا يدرس من باب الترف الفكرى، فإنَّ فى ذلك دليلا على أن قصة الخلق والتطور قد تمت عنده، لأن هذا الأمر من أكثر ما يقلق بال الإنسانية فى كل حقبها وكل مستويات تطورها وباختلاف شعوبها وعقائدهم. هنا فقط نفهم لماذا جاء الخطاب فى الحج موجها للناس وليس المؤمنين، لأن كلمة الناس تشمل المسيحي واليهودي والبوذي والهندوسي والوثني والعلماني والملحد وكل بشرٍ انحدر من آدم عليه السلام، إذ أنهم جميعا انحدروا من الناس الذين الذين أمرنا الله تعالى أن نمشى على خطاهم: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ **النَّاسُ** ...} وبعد ذلك آووا الى أول بيت لهم: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ **لِلنَّاسِ** ..}.. ثم جاء ابراهيم عليه السلام فجعل الله البيت مثابة لكل الناس: { وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً **لِّلنَّاسِ**....}!

إذا استوعبنا كل تلك المعانى التى احتوى عليها هذا الكتاب من خلق وتطور، وفهمنا ارتباطها بالحج، لن يخفى على القارئ حينئذ أن الحج حجة على الإنسانية وسلسلة من الآيات والبينات المعجزة التى ربما تغير مسار التفكير البشري لو طرحت على كل الناس. وقبل أن ندرس الحج لا بد لنا أن نتذكر أن القرآن أصلا لا يدخل فى تفاصيل الأحكام وإنما يترك للرسول صلى الله عليه وسلم توضيح ذلك كما هو الحال فى الصلوات الخمس وعدد ركعات كل صلاة! وعليه سنحاول هنا باذن الله تعالى أن نعيد قراءة آيات الحج فى القرآن والتي وصفت الحج لامة محمدٍ، واستقى المسلمون مزيدا من التفاصيل عنه من حجة الوداع، لما فى ذلك من ارتباط وثيق بقصة الخلق والتطور التى تهم كل الناس:

{إِنَّ **الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ** فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ **مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى** مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ

لِلنَّاسِ فى الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ*إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } 158-160البقرة!

الحج**:** تعنى القصد كما أسلفنا. كان سابقا يفهم أنها قصد بيت الله ولكننا نضيف الى ذلك أنه قصد مباشر لله تعالى بالعقل البشري.

العمرة: من عمر، ولها معنيان أحدهما يدل على بقاء وامتداد زمان، والآخر على شئ يعلو من صوت او غيره. يقال اعتمر الرجل إذا رفع صوته بالتلبية للعمرة. وأغلب الظن أن العمرة أصلها من البقاء وامتداد الزمن، فهى ممتدة فى الزمان ويمكن أن يؤديها المعتمر فى أى وقت لأنها ليست كالحج محدودة بمواقيت المكان والزمان المعروفة عن الحج.

جناح: تعنى الإثم والميل عن الحق!

بينات**:** اصلها فى معجم مقاييس اللغة من "بيِّن"، وهو بعد الشئ وانكشافه ، و"البيِّن" هو قطعة من الأرض قدر مد البصر أى من الأفق الى الافق.

قلنا من قبل: إن الصفا والمروة من شعائر الله، أى آياته المجسمة المنزلة لتكون حجة على الإنسان وبينات تقود كل من يتبع مِلّة إبراهيم لمعرفة الله تعالى وأسرار كثيرة عن خلق وتطور الانسان، ولكن هذه الآية مضت تصف {الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا **أَنْزَلْنَا** مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى..} وكأنها تاكيد على أن الصفا والمروة منزلات لأن "البينات" فى المعجم هى الأشياء الواضحة المرئية للعيان وتقع فى مساحة من الأرض على قدر مد البصر. فكأنه يقول لنا: إن هذه البينات التى اجتمعت فى مساحة من الأفق الى الأفق والتي يؤدى فيها الحج كلها منزلة، من جمرات المشعر الحرام مرورا بجبلي الصفا والمروة الى أول بيت وضع للناس، وسنري أن الأنعام قد نزلت فى وادى منى وهو فى منتصف الطريق بين عرفات والبيت العتيق، ثم أنزل الكبش فداء لإسماعيل، فكلها بينات أنزلت فى هذه المساحة الضيقة من الأرض لتحكي قصة بدء خلق وتطور الإنسانية وعلاقة الانسان منذ بدء الخلق بالله تعالى.

هذه الآية أجمع كل المفسرين القدامى أنها تلعن الذين كتموا نبوءات محمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب. وقد استند المفسرون الى أن الله لعن اليهود بكفرهم وكتمانهم نبوءات النبي. ورغم أن هذا التفسير عموما مقبول إذ أن اليهود كتموا نبوءات محمد حسدا من عند أنفسهم، إلا أن هذا التفسير لا يرتبط بموضوع الآية مباشرة، لأنها لا تتحدث عن نبوءات محمد وإنما تتحدث عن الحج الذى دعا له إبراهيم عليه السلام، ولم يكن مستحدثا فى رسالة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم. فاليهود لم يكتموا نبوءات محمد فقط وانما حرفوا كتب أنبيائهم فى مواقع مرتبطة مباشرة بالبيت والحج نسوق منها:

1. تحريفهم لهجرة هاجر وإسماعيل الى البيت الحرام وابرازها وكأنها تمت لأن سارة فرضت رأيها على ابراهيم وأمرته أن يطرد الجارية وابنها بعد أن رزقت بإسحق! وما يدحض هذا التحريف هو أن اسحق ولد بعد ثلاثة عشر عاما من ميلاد إسماعيل وبعد سنوات طويلة من هجرة هاجر وإسماعيل الى مكة التى لم تكن إلا تنفيذا لعهد الله لإسماعيل وإبراهيم بسدانة البيت.

2. تحريفهم للقب هاجر من أميرة مصر الى " الخادم أو الجارية" حتى يقللوا من قدر ذريتها بما فيهم إسماعيل ثم محمد صلى الله عليم وسلم، وليس ذلك إلا حسدا من عند انفسهم أن لا يعهد الله اليهم بالبيت والرسالة الخاتمة. وما يدحض تحريفهم ذلك أن تفسير التوراة اليوم يؤكد أن هاجر كانت أميرة مصرية تنازلت عن عرش مصر لتتزوج ابا الأنبياء، وتكون أما لابنه الذى عهد الله إليه ببيته الى يوم القيامة وجدة لسيد ولد آدم وخاتم الأنبياء والمرسلين.

3. تحريفهم لموضع "العهد" فى ذرية إبراهيم إذ أنهم حرفوا عهد الله لإبراهيم و إسماعيل فأضافوا من عندهم ألفاظا فى التوراة تجعل العهد لإسحاق وذريته من دون اسماعيل. ومما يدحض هذا التحريف أن توراتهم اليوم يحوي تناقضا واضحا، لأن العهد تم بين الله وإبراهيم عقب ميلاد إسماعيل أى قبل سنوات من ميلاد اسحق، فأصبحت الألفاظ التى أضافوها فى التوراة لتجعل العهد لذرية إسحق متناقضة مع أصل العهد الذى تم بين الله وإبراهيم وإسماعيل أولا، زمنا قبل ميلاد إسحق عليهم السلام.

4. تحريفهم لقصة الفداء التى ارتبطت بإسماعيل وتمت عند البيت وإبرازها فى توراتهم وكأنها تمت مع إسحق، مع ما نتج من ذلك من تناقض لغوي، إذ أنهم وصفوا إسحق بأنه ابن إبراهيم الوحيد حين الذبح، الشئ الذى ناقض توراتهم لأن إسحق كان الابن الثانى، وإنما كان إسماعيل هو الابن الوحيد لإبراهيم سنين عددا.

5. تحريفهم لاسم "بكة" الذى ورد فى الزبور مرتبطا بالبيت وهاجر وإسماعيل و"الحج" و"البئر" كما سنرى فى باب "سدرة المنتهى"، فى محاولة منهم لإخفاء قصة البيت من كتبهم، حتى تختفي معه قصة الحج والبينات التى ارتبطت به من مشعر حرام وصفا ومروة وكل ما أنزل هناك.

إن تحريف أهل الكتاب لكتبهم حتى يخفوا قصة البيت الذى حُرموا مِن أن يكونوا من يحمل عهدته، أكبر بكثير من اخفائهم فقط لنبوءات محمد صلى الله عليه وسلم. ونحن هنا نظن أن البينات المقصودة فى هذه الآية هى البينات التى ظللنا نتحدث عنها طوال هذا الكتاب من قصة الإنسان الأول التى ارتبطت بابراهيم عليه السلام، وارتبطت بالصفا والمروة التى بقيت دليلا مجسما لاستغفار مجموعة آدم وصَلاتهم الأولى على الأرض، الشئ الذى يفهم من "فتلقى آدم من ربه **كلمات**"، وهي منزلة كما أنزل الله الأنعام وربطها بالبيت وبالناس الذين آووا اليه اول مرة.

تفسيرنا يجعل الآية أعمق معنى، وهكذا تصبح المعاني الخفية فى الصفا والمروة وما فيهما من بينات واضحة فى قطعة من الأرض على مدٍّ البصر، وما ارتبط بذلك من هدي للناس الذين كان البيت مأوى لهم فى غابر الزمن، تمثل حجة على الناس الذين اصبح البيت مثابة لهم، وجميعها مرتبطة معا ارتباطا وثيقا يمهد لكشفٍ علمي وإعجازٍ جديد فى القرآن، ويصبح الحج بهذا المعنى أكثر حجة على الإنسان إذ أنه تمثيل لخلق وتطور الحياة والإنسانية ودعوة لهم للعودة سنويا لأرض الآباء.

ونحن نظن، ونبرئ أنفسنا أمام الله والملائكة والناس أجمعين، أن الحجج فى البيِّنات التى أنزلها الله تعالى حول البيت إنما هى ملك "للناس" وليس المسلمين، وإنما اؤتمن المسلمون من ذرية إسماعيل بعهد الله، وعليهم ان يبينوها للناس وإلا كانوا فى زمرة الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات!

ويمضي القرآن يرسم رائعة اخرى من لوحاته الفنية تتداخل فيها شعائر الله المنزلة، إذ أن المتدبر لهذه الآيات يشعر وكأن الأنعام تسعي بين أقدام الحجيج:

{وَأَتِمُّوا **الْحَجَّ** وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ **الْهَدْيِ** وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ **الْهَدْيُ** مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى **الْحَجِّ** فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ **الْهَدْيِ** فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فى **الْحَجِّ** وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}196 البقرة.

نلاحظ فى هذه اللوحة الفنية الالهية الرائعة كيف كرر الله تعالى كلمة "**الحج**" ثلاث مرات وكرر كلمة " **الْهَدْيِ**" ثلاث مرات أيضا، وكأنه يخبرنا أن " **الْهَدْيِ**" أى الأنعام المنزلة لها علاقة وثيقة ووطيدة بقصةِ وحكمة "الحج" الخفية الذى دُعِيَ إليه كل الناس، وهي أنه حجة على الإنسانية جمعاء فى أصل خلق الإنسان وتطوره، إذ أن " **الْهَدْيِ**" من شعائر الله المنزلة ولم يخلق أو يتطور على الأرض كما سنرى فى باب " آذان الانعام"، وهو أيضا أنزل لفداء الإنسان من عادة ذبح الأبناء بعد ندم "مجموعة آدم" على رغبتهم فى الوصول الى الخلد بأكلهم من شجرة الخلد فقتلوا ابناءهم تعبيرا عن ذلك الندم، الشئ الذى أراه الله لإبراهيم وكأنه يرى فيلما سينمائيا، وقبل أن يكرر نفس العادة طاعة لله افتدى الله تعالى إسماعيل بكبش منزل ليصبح سنة نكررها فى الحج متمثلة فى " **الْهَدْيِ**" ونمارسها أيضا فى البيت فى يوم عيد الاضحى.

وهذه الآية توحي بأن " **الْهَدْيِ**" مقصود لذاته وليس بالضرورة لإطعام الفقراء. إذ أن الآية نزلت فى الحديبية لمَّا مُنع الرسول صلى الله عليه وسلم من إتمام العمرة. وقد ذكر إبن كثير فى تفسيره أن أصحاب الحديث الأربعة اتفقوا على أن عدد الصحابة كانوا حينذاك الفاً وأربعمائة، وان كل سبعة منهم اشتركوا فى "بُدنة" "والبدن من شعائر الله وهي الإبل"، أى أنهم ذبحوا مائتى بدنة فى يوم واحد وهذه كمية ضخمة من الطعام لا شك وقد زادت عن حاجتهم. هذا يؤكد أن السنة فى ذبح "**الْهَدْيِ**" مقصودة لذاتها لأسرار يعلمها خالق ومنزل هذه المخلوقات، وأمَّا الإطعام منها وإطعام الفقراء ففوائد إضافية ولكن القصد هوأن يتذكر الحجيجُ الأنعامَ فى كل خطوةٍ من خطواتهم وهم يمشون على خطي إبراهيم الذى مشى على خُطي الإنسان الأول الذى هبط من جنة عرفات الى الأرض المنبسطة إنسانا عاقلا فى هذه البقاع والله اعلم.

وَاتَّقُونِ يَا اولى الْأَلْبَابِ:

ويمضى الإعجاز القرآني يرسم رائعة فنية اخرى من روائع الحج:

{ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ** فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ **الْحَجَّ** فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فى **الْحَجِّ** وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ **يَا اولى الْأَلْبَابِ**} 197 البقرة!

روى عن الاصمعى انه كان يقرأ: والسارق والسارقة فاقطعوا ايدهما ..... وكان الله غفورا رحيما! وكان بجانبه اعرابى فسأله: كلام من هذا؟ قال الاصمعى: كلام الله! فاجابه العارابى: ما ينبغى ان يكون كلام الله! فسأله الاصمعى: اتحفظ القرآن؟ اجاب العرابى: لا! فرجع الاصمعى الى الآية فوجد انها تنتهى بـ: وكان الله عزيزا حكيما! فسال العاربى : كيف عرفت ذلك؟ فاجابه: عز فحكم وقطع – لو كان غفر فرحم لما قطع!

هذه الآية التى انتهت بتحذير لأولى الألباب كررت كلمة "الحج" ثلاث مرات بصورة ملفتة للنظر، ووراءها سرٌ عظيم ورائعة اخرى من إبداعات بديع السموات والارض. وحتى نفهم معانيها العميقة لا بد أن نرجع الى اللغة لفهم الألفاظ التالية:

أشهر، جمع شهر: والشهر يعنى وضوح فى الأمر وإضاءة. ومنها الشهر"الهلال" لأنه يوضح كل ثلاثين يوما. و"الشهرة" هى وضوح الأمر، و"شهر سيفه" إذا انتضاه، وأصبح مشهورا أى معروفا لعامة الناس.

معلومات: جمع معلومة، وتعني أثر بالشئ يتميز به عن غيره، ومن ذلك العلامة.

فرض: معناها تأثير فى شئ من حز أو غيره، يقال فرضت الخشبة اذا حززتها، والحز فى سية القوس حيث يقع الوتر يسمي الفرض. ويمكن ان نقول ان اثر الساعة فى المعصم او الخاتم فى الاصبع يسمي فرضاً.

ألباب: من لب وهو اما خالص الشئ واما الثابت من الشئ. والالباب تأتى بمعنى الذاكرة البعيدة الثابتة وقد ارتبط ذكر الألباب بآيات كثيرة ارتبطت بالذكر والتذكر، مثلا:

{يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ }269 البقرة

لا شك أن كل من يقرأ القرآن يتوقف عند تكرار كلمة **الحج** ثلاث مرات فى هذه الآية، ومن حكمة الله تعالى أن المفسرين القدامي ما انتبهوا الى احتمال أن تكون كلمة "الحج" قد ذكرت هنا لتعني معاني مختلفة لنفس الكلمة كما هو الحال فى آيات إبداعية مماثلة فى القرآن نذكر منها للمثال:

{وَيَوْمَ تَقُومُ **السَّاعَةُ** يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ **سَاعَةٍ** كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} 55 الروم**!** فالساعة الأولى هى يوم القيامة والساعة الثانية تعنى لحظة من زمن.

وما يزيد الأمر غموضا على المفسرين هو أن لفظى **"** أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ" والتى دائما ما فهمت أنها " شهور محددة معلومة" هى شهور شوال وذو القعدة وعشرة ذي الحجة، كلا هذين اللفظين جاء مرفوعاً فى القرآن وليس كما هو مفهوم أن " أَشْهُرٌ" خبر مبتدأ مرفوع و **"**مَعْلُومَاتٌ" مضاف كان يجب أن يكون مجرورا ولكنه جاء فى الآية مرفوعا ايضا**!** فقد أشار الإمام الطبري رحمه الله تعالى الى غموض رفع كلمة "مَعْلُومَاتٌ" فى الآية، لكنه وغيره من العلماء رضي الله عنهم لم يجدوا تفسيرا آخر للآية رغم الإشكال اللغوي وننصح بالعودة للتفاسير للوقوف على الاختلاف فى إعراب اللفظين!

نحن نظن ولله الحمد أن "اشهرٌ " و "معلوماتٌ" كلاهما مرفوع فى هذه الآية لأن كلاهما خبر مبتدأ مما يجعل المعنى كما يلى:

الحجُّ اشهرٌ....وايضا...... الحجُّ معلوماتٌ**!** إذاً كلمة "معلومات" ليست صفة لأشهر وإنما صفة ثانية للحج لذلك جاءت فى القرآن مرفوعة تماما ككلمة "أشهر" الأمر الذى حير المفسرين القدامي**!** وحتى يتضح المعنى يجب أن نفهم كلمة الحج هنا على أنها " القصد" وليس عبادة الحج وبهذا يكون المعنى:

"القصد، إيضاح أمور وإضاءتها "اشهر"، وفي هذا القصد آثار ومعلومات يتميز بها عن غيره من المقاصد".

أى أن القصد من مثابة الناس الى البيت العتيق هو هدايتهم لهذه الأمور الواضحة المضيئة ومحاججتهم بأدلَّةٍ ومعلوماتٍ تتميز بها هذه المنطقة عن غيرها! ولعل اختيار كلمة "أشهر" هنا إشارة صريحة الى أن هذه العلامات براقة ومضيئة، إذ أن معظمها حجارة سماوية أنزلت فى المزدلفة لرجم شيطان الجن وفى الصفا والمروة تعبيرا عن توبة آدم وفى الحجر الأسود الذى ظل سره غامضا.

وتمضي الآية لتستعمل لفظ "الحج" استعمالين مختلفين:

" فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ **الْحَجَّ** ": الحج هنا هو العبادة المعروفة، و "فيهن" ترجع الى "الأشهر" و "المعلومات"! وحتى نفهم مدلول هذه الألفاظ نرجع الى المفهوم اللغوي فنتخذ مثالا يسهل علينا المعنى:

علمنا من المعجم ان الفرض هو الحز الذى ينتج من تأثير شئ آخر ولذلك سمي الفرض الشرعي فرضا لأنه يترك فى النفس أثرا! وحتى يسهل علينا التمييز بين "الفارض" و"المفروض" نتخذ من الحز فى المعصم الذى ينتج من لبس الساعة مثالا: فى هذا المثال فان الفارض هو "الساعة" والمفروض عليه هو"المعصم" وحينها يكون الحز على اليد هو "الفرض"!

فإذا رجعنا الى الآية يمكننا الآن أن نلاحظ أن "الفرض" المقصود هو أداء مناسك الحج العبادة، وان المفروض عليه "فِيهِنَّ" هو"الأشهر و المعلومات" أى الآثار التى ترمز لأحداث الخلق والتطور، ومن فرض تلك العبادة بطبيعة الحال هو الله تعالى!

وتمضى الآية: {..فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فى الْحَجِّ ..}! وهنا جاءت كلمة "الحج" بمعنى "الحجة" التى تحتوى عليها فريضة الحج فى تلك الآثار! بناء عليه يكون مدلول هذا الجزء من الآية ما يلى:

فمن جعل "وهو الله" عبادة الحج تتم فى هذه الآثار، يأمركم أدائها من غير رفث أو فسوق أو مجادلة فى ممارستها و محتواها ومدلولاتها لان فيها حجة على الناس يصعب على الكثيرين استيعابها! عندها تكون نهاية الآية {...وَاتَّقُون يَا اولى الْأَلْبَابِ} متسقة مع إعمال الذاكرة فى الأشهر والمعلومات، لأن الممارسة كلها حجة على عقل الإنسان بادلة مشهورة وضاءة و دامغة تحكى تاريخا بعيدا للبشرية!

ومما يؤكد أن " أَشْهُرٌ" هنا لا تشير الى شهور محرم وذى القعدة وعشرة ذي الحجة، هو أن الله وصف عبادة الحج انها "أيام معدودات" وليس أشهر كما فى قوله تعالى:

{وَاذْكُرُوا اللَّهَ فى **أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ** فَمَنْ تَعَجَّلَ فى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} 203البقرة! فالايام المعدودات هى أيام التشريق كما اتفقت معظم الروايات، والحج هو عرفة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم. إذاً فإن ركن الحج

الفرض يمتد من يوم التروية وهو اليوم السابق ليوم عرفة الى نهاية أيام التشريق وليس شهورا كما كان الفهم فى تفسير الآية اعلاه!

وهذا يتفق مع قول الله تعالى فى وصف الحج الإبراهيمي:

{**وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ** يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ*لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ **فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ** عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ **بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} 27-28 الحج!

نلاحظ فى هذه الآية أن الله تعالى يكرر صفة "معلومات" ولكنه هنا يصف بها أيام الحج وليس أشهره كما كان يفهم، إذ أن ركن الحج العبادة ليس الا أياما معدودات ولكنها أيام معلومة ومحددة فى التقويم الاسلامي. هذه الأيام التى تمثل الميقات الزمني للحج لا بد وأن تكون مرتبطة بالأحداث التى وقعت هنا فى غابر الزمن من بدء الخلق والتطور، فأصبحت كالعلامات تميزها عن باقى الأيام، وهي غالبا ما اشار الله تعالى إليه فى قوله "واذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت" التى ناقشناها من قبل، وهي تعنى وإذ أرجعنا لإبراهيم ما كان حول البيت من أخبار فى الزمان الماضى. هذه الآية أيضا تطرح تساؤلا مشروعا وهو: لماذا يأتى الحاج من أقاصى الأرض ليذكر الله على **بهيمة الأنعام** فى مكة؟ ما هى علاقة بهيمة الأنعام بهذه الرحلة الطويلة الشاقة التى دائما ما تكون فيها مخاطر كبيرة، إن لم تكن فى تلك الرحلة حجة كبري على الإنسانية؟

ركن الحج هو الركن الذى ربطه الله تعالى بإبراهيم ربطا وثيقا وجعل أداءنا له امتدادا لدعوة إبراهيم، بعد أن أزال الرسول صلى الله عليه وسلم منه ما أضيف اليه من شوائب أضافها اليه المشركون بعد أن انحدرت القبائل العربية فى شركها. ولعل هذا التطور فى عبادة الحج يجيز لنا أن نصف الحج الإبراهيمي كمرحلة سابقة من مراحل تطور الحج الى الحج الإسلامي إذ أن كل مرحلة خاطبت فئة مختلفة من "الناس".

الحج الإبراهيمى:

ورد فى الحديث انه لما أمر الله تعالى إبراهيم بأن يؤذّن فى الناس بالحج سأل الله: رب وما يبلغ صوتي؟ فأجابه الله: أذّن وعلينا البلاغ! وقد أذّن ابراهيم وما زال صدي صوته يتردد فى أركان المعمورة. وصدق الله العظيم إذ أن آذانه وصل مشارق الأرض ومغاربها. فى الآيات التى ارتبطت بإبراهيم وآذانه بالحج نجد معالم بارزة تعكس طبيعة المجتمع آنذاك وترتبط ارتباطا وثيقا بقصة التطور فى كل أشكاله التى هى موضوع كتابنا هذا:

{وَأَذِّنْ فى **النَّاس** بِالْحَجِّ ...} وينادي "الناس" وليس المؤمنين مما يؤكد أن الحج هو القصد الى البيت العتيق الذى وضع لكل الناس وليس لفئة معينة منهم. ولعل اللغة التى استعملها الله هنا تعكس علمه المطلق أن الناس لو سمعوا بما دار حول البيت، لن يترددوا أن يأتوا اليه بأي وسيلة أتيحت لهم لما فيه من عبر وتاريخ ومنافع، ولعله يأمرنا الآن ان نقصَّ قِصة الحج ونؤذِّن بالحج فى كل الناس، إذ أنه أبلغ وسيلة تهدى الناس الى ربهم ورب آبائهم الأولين. فى عهد إبراهيم أتوا إليه مطيعين على أرجلهم وعلي خيول من الطرق البعيدة التى كانت تخفى على ابراهيم حينها ولكنها بائنة لنا بعد بضعة آلاف سنة من ذلك النداء. وتمضى الآيات ترسم معالم فى طريق الحجيج من أتباع سيدنا إبراهيم فى ذلك الزمان، ووضح الله لهم الغاية من الحج:

{وَأَذِّنْ فى النَّاس بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ*لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى **مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ*ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ*ذَلِكَ **وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ** فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ **وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ** إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ** مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ*حُنَفَاءَ **لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ** بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تهوى بِهِ الرِّيحُ فى مَكَانٍ سَحِيقٍ*ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ***لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ***وَلِكُلِّ أُمَّةٍ **جَعَلْنَا مَنْسَكًا** لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا **رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} 27-34 الحج.

هذه الآيات فيها كنوز من علم تتطلب فهم ألفاظها أولا قبل أن نحاول فهم ما تشير اليه:

تفث**:** قيل: انها تعنى قص الأظافر وأخذ الشارب وشم الطيب وكل ما يحرم على المُحْرِم إلا النكاح**!**

عتيق**:** هذه كلمة ذات معاني كثيرة وعميقة، فهى تجمع كل معاني الكرم خلقا وخلقا وتعنى أيضا القدم. وصار العبد عتيقا أى حرا طليقا. الرجس:أصل يدل على الاختلاط.

شعائر من شعر: و وقد قدمنا سابقا أنّ الشعائر هى الأعلام أو العلامات المميزة.

المخبتين: خبت تعنى خشع**!** والخبت هو المفازة التى لا نبات فيها، لهدوءها وصمتها.

فى هذه الآيات نجد وصفا للحج الإبراهيمي إن صحَّت التسمية، فنجد أولا أن وسيلة الوصول الى المكان هى الأرجل أو الضوامر وهي الإبل النحيفة، ثم بعد ذلك يقيمون الحج كالاتي:

1. يشهدوا منافع لهم.
2. يذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.
3. الأكل من لحوم الأنعام.

4. التصدق منها.

5. يقضوا تفثهم.

6. يوفوا نذورهم.

7. يطوفوا بالبيت العتيق.

8. وأمرهم باجتناب الرجس من الأوثان.

9. وأمرهم باجتناب قول الزور.

نلاحظ أن ذكر الله فى الحج الإبراهيمي اشتمل فقط على الطواف بالبيت العتيق، ولكن الملاحظة الأكبر هى الربط الوثيق بين رزق الله للإنسان ببهيمة الأنعام وبين عبادة الحج. ولا يخفى علينا أن الأنعام كانت لها أهمية عظمي للناس فى ذلك الزمان يستعملونها للترحال وشرب ألبانها وأكل لحومها ولبس جلودها، وأنها فوق ذلك كله قد استعملت فداء لابن نبيهم إبراهيم من الذبح. ولكن تكرار اسم "الأنعام" وربطها بهذه العبادة لا بد وله مدلولات أكبر من كونها فقط مسخرة لخدمة الإنسان ولطعامه، لأن هذه الفوائد معلومة من غير حج أو إسلام! الربط هنا ربما يحمل مدلول علاقة الأنعام بخلق الإنسان من ناحية وعلاقتها بفداء الإنسان من عادة الذبح التى كان من الممكن أن تقضي على الجنس البشرى لو لم تستبدل بالأنعام.

ونلاحظ أيضا أن الله تعالى قد استثنى الأنعام باللفظ من بقية حرماته فى قوله: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ..} وكأن الأنعام وهي من شعائر الله المحرمة، هى الشعيرة الوحيدة التى أحل لنا ذبحها وأكلها أى إفناءها لأنها إنما أنزلت لهذا الغرض!

نلاحظ فى الحج الإبراهيمي أنه يشتمل على العبادة التشخيصية المعلومة و هى الطواف بالبيت العتيق، أما العبادة التجريدية فقد كانت إيفاء النذور، أما التعاليم فهى اجتناب الرجس من الأوثان واجتناب قول الزور والحث على الصدقات.

نرجع مرة اخرى ونلاحظ أن الطور الاجتماعي فى ذلك الزمان قد كان عشائريا، وأن كل عشيرة تمتاز وتفتخر بخصوصياتها، ولكي تكون عبادة الحج متسقة مع طورهم الاجتماعي لذلك جعل الله لكل أمة "أى عشيرة" منهم منسكا {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا....}، ولكن ليوضح لهم الله أن اختلاف مناسك العبادة لاتعنى تعدد الالهة أكد لهم: {.. فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا...}!

اتسمت عبادة الحج الإبراهيمي باختلاف المناسك للعشائر المختلفة، وامتازت بتوحيد كل العشائر بالطواف حول البيت فى أيام معلومات، واتحدت ايضا فى الفوائد التى تجنيها من الأنعام، ليعتبر هذا التوحد على اختلاف المناسك قفزة تعليمية جديدة لتوحيد هذه العشائر فى طور اجتماعي أكبر ومنها نتجت القبيلة كطور أرفع و أحدث من العشيرة. هنا يستحسن ان نُذكّر بأنَّ إبراهيم لمَّا عهد

الله اليه بالبيت طلب ان تكون ذريته معه، فأجابه الله بأن عهده لا ينال الظالمين! فقد كان من حكمة الله تعالى ان يرتقي بالمجتمع الإنساني من طور عشائري الى طور اجتماعي أرقى تكون الولاية فيه للأصلح وليس الذرية الظالمة.

ويبدوا أن اختلاف المناسك للعشائر المختلفة، وابتعاد الناس من بنى إسماعيل سدنة البيت العتيق فى ذلك المكان عن الرسل، قاد الى تدخل الشيطان بإغوائهم ودفعهم للوقوع فى خطايا جديدة كما أضل أسلافهم من قبل. فقد تم مع الزمن تشخيص المناسك بأن جعلت فى شكل تماثيل، والتماثيل تحولت الى أصنام والأصنام صارت آلهة، فأصبح لكل قبيلة الهها الخاص، ولانهم توحدوا أصلا فى الطواف حول البيت، فقد احتفظوا بآلهتم المختلفة داخل البيت العتيق، ولأن فكرة الإله الواحد فى نظرهم كانت ستقود الى توحدهم كقبائل، لذا فإن موقفهم الشركي قد كان موقفاً قبلياً، واعتبروا أن كل قبيلة يجب أن يكون لها الهها الخاص ليقربها الى الله زلفى، و هؤلاء هم المشركون الذين أشركوا مع الله آلهة اخرى. و مع عامل الزمن أعاد الشيطان اليهم بدعة ذبح الأبناء والبنات تقرُّباً الى الله كما كان حال الإنسان الأول عند البيت.

ظل الشرك بالله فى مكة وظلت الأصنام تعبد من دون الله تعالى، وعاد تقليد قتل الأبناء الى السطح، وأصبح مقبولا للناس و لا تقشعر منها الأبدان، وأصبح له مبررات كثيرة منها التقرب الى الله حين النذر او خشية إملاق عند الفقر أو وأد البنات خوفا من العار. وانحدر المجتمع فى ظلام دامس حول البيت العتيق، وان ظل الحج يمارس كسلوك قبلي وارث اجتماعي لكنه افرغ من محتواه التوحيدي. الى ان بعث الله سبحانه وتعالى آخر رسله الى الإنسانية من مكة، ليطهر البيت من رجس الأوثان الى الأبد ويعيد بناء المجتمع بصورة متكاملة فى أرض الآباء، ليكون أول وأرقى مجتمع إنساني عرفته البشرية فى تاريخ تطورها، ومن حكمة الله كان ذلك المجتمع فى ذات الأرض التى شهدت اولى مراحل خلق الإنسان وكل مراحل تطوره البدائية عند البيت العتيق، بيت آباء الإنسانية الأول. وقد كان أول ما فعله محمد عليه الصلاة والسلام عند دخوله مكة فاتحا، أن حطم الأصنام داخل البيت العتيق، وطهره مرة اخرى من رجس الأوثان، وأذَّن فى الناس بالحج الإسلامي مضيفا الى الحج الابراهيمي شعائر اخرى تتسق مع نُضج وتطور العقل البشري وهي الإحرام والتطوف بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة ورمي الجمرات. والشعيرة هى العلامة، وشعائر الله هى علامات مادية عينية و علمية تدل على جود الله، وهذه الشعائر يمكن أن يعقلها الإنسان الذى قد تطور الى أن وصل الى الإنسان التجريدي، وليكون الحج الإسلامي هو القصة الكاملة لعملية خلق الانسان وتطوره ليصبح حجة الله على الناس، كل الناس الى يوم القيامة.

عبـادة الـحـج:

رأينا أن الحج هو العبادة الوحيدة التى امتدت منذ عصر الإنسان الأول الى آخر الرسالات السماوية، ليظل الى يوم القيامة رمزا لعلاقة الإنسان بأرض آبائه، وعلاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان ببهيمة الأنعام، وعلاقته الإنسان بعدوه الأزلي وهو الشيطان. على أن مراحل تطور مناسك الحج تلك عكست تطور الإنسان نفسه فكريا واجتماعيا وروحيا، إلا أنها ظلت تدور فى مكان واحد وزمان واحد وحول بيت واحد هوأول بيت وضع للناس.

ورأينا فى هذا الكتاب علاقة أركان الحج الذى نمارسه اليوم بكل تلك القصص القديمة، مما يضفى على عبادتنا أبعادا فكرية وروحية عميقة جدا تنقلها من كونها شعائر مرهقة لا يكاد الحاج يدرى لها معنى، الى رحلة سياحية عظيمة و رهيبة عبر الزمان والمكان، ينتقل فيها الحاج من نعيم بيته الى قسوة الطبيعة، ومن رفاهية زمانه الى بدائية الإنسان الأول، ومن شتاته فى أركان الأرض الى مثابه لبيت الآبـاء، ومن تمزقه القبلي والعرقي الى توحده على خطى الإنسان الأول.

على أن هناك حدثا واحدا من أحداث الحج اليوم لم نتطرق اليه ولم نربطه بقصة الإنسان الأول كما فعلنا ببقية الأحداث وهو المبيت بوادى "منى" قبل الذهاب الى عرفات. ولا بد أن نوضح للذين لم يؤدوا فريضة الحج بعد، أن الحاج يؤدى فى منى خطوتين أساسيتين من خطوات الحج: أولاهما هى المبيت بمنى قبل الذهاب الى عرفات وكأنه يفرض على كل الحجيج أن يدخلوا عرفات من منى وليس من أى مكان آخر، والخطوة الثانية هى العودة الى منى لرمي الجمرات إذ أن الشيطان يرجم هناك ايضا. فان كان ما ذهبنا إليه من تحليل فى أن الحج ليس إلا تمثيلا لخطوات الإنسان الأول تحليلا سليما، فإن وادى منى لا بد وأن يكون قد شهد أحداثا مختلفة حينما خطا الإنسان الأول فى تلك البقاع. و حتى نستنبط معاني تاريخية لموقع منى من خطوات الإنسان الأول تفسر لنا تكرار الذهاب إليه، لا بد لنا الآن أن نرتب أحداث الحج الذى نمارسه اليوم كما سنَّها خاتم الأنبياء والمرسلين لتحكي قصة خلق وتطور الإنسان فى تلك البقاع المحرمة.

الحـج الاسـلامى:

للحج أركان أربعة وفقا لترتيبها هى كالآتي:

1- الإحرام

2- الوقوف بعرفة

3- طواف الإفاضة

4- السعي "التطوف بين الصف والمروة".

أما ترتيب خطوات الحج العملية فهى كالآتى:

الإحــرام :

الإحرام كما رأينا ما هو إلا أن يلبس الحاج لباسا أشبه **بورق** الجنة التى استترت بها مجموعة آدم بعد أن ارتكبا المعصية فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. وارتباط الإحرام بمواقيت جغرافية ربما يحدد المساحة الجغرافية التى جمع الله منها مجموعة آدم الملائم للتغيير الى وادى منى قبل أن ينفخ فيهم هناك، ويجعل منهم إنسانا عاقلا قبل أن يسكنوا جنة المأوى فى عرفات. وربما يمثل المساحة التى اجتباهم الله منها بعد ان انتشروا فيها حينما "تلقى آدم من ربه كلمات" وكانوا حينها لا يستر سوءاتهما إلا ورق الجنة كالخصيف كما ناقشنا ذلك فى باب "فى وادى المزدلفة"! المهم أن الحجيج لا يجوز لهم أن يتجاوزوا المواقيت المكانية من غير إحرام أى لا يسمح لهم الدخول الى أرض الأحداث إلا إذا كانوا فى هيئة الإنسان الأول الذين يمشون على خطاه و"يمثلون" يومياته حينها. أما المواقيت الزمانية ففي الغالب تحدد الفترة الزمنية التى وقعت فيها تلك الاحداث من خلق وتطور ومعصية ثم توبة، لذلك يكون الحاج محرما وفي حالة استغفار دائم الى أن تنتهي مناسك الحج. بقي أن نذكر أن الإحرام لا يجوز فيه المحيط من الاساور والساعات او المخيط من الملابس، وكأنَّ الله يريد لنا أن نستتر فقط بشئ يشابه ورق الجنة ونجتنب أى شئ لم يكن قد وصل اليه علم وخبرة الإنسان الأول حينما مشى على هذه الوديان أول مرة.

من الملاحظات الغريبة ان ذكر الاحرام فى القرآن قد ارتبط بتحريم مغلظ للصيد وكأن الحاج سيقضي جل وقته فى البرية يصطاد الوحوش! فقد ذكر الصيد فى القرآن **ستة مرات** و فيها كلها تم التحذير منه اثناء الاحرام كما فى هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا **تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ** وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ **النَّعَمِ....** } 95 المائدة! ونلاحظ فى هذه الآية ان معصية الصيد اثناء الاحرام لا يكفرها الا ذبح الانعام، مما يوحى بمفتاح لغموض التحريم المشدد للصيد اثناء الاحرام! ونظن ان الامر كله يرجع الى حال الانسان قبل التطور حينما كان يفترس الوحوش وتفترسه، فلما طوره الله الى انسان عاقل وانزل له الانعام حرم عليهم الصيد حينها لعدم قدرتهم التمييز بين الحلال والحرام فى حيوانات البرية، وابيح لهم حينها فقط ذبح الانعام! ولما كان الحاج اصلا يدخل باحرامه فى ارض وهيئة آباء الانسانية اولئك، فقد ارتبط تحريم الصيد علينا نحن بالاحرام ليذكرنا ان هذا كان من اهم ما حرم على أباءنا الذين نتقمص هيئتهم فى احرامنا هذا، وان استبدال الصيد بالانعام كان خطوة اساسية فى تطور سلوك آبائنا، لتكتمل هذه اللوحة البديعة من لوحات بديع السموات والارض!

طواف القدوم "واجب":

وفيه تعظيم للبيت العتيق الذى دارت حوله كل تلك الأحداث ثم دارت حوله أحداث اكتشاف قصة الإنسان الأول فى عصر إبراهيم وهاجر وإسماعيل! على أن الطواف نفسه فيه سر إذ أنه مخ العبادة وهو دوران حول البيت العتيق يشبه دوران الملائكة حول البيت المعمور فوق السماء السابعة، ودوران الناس يتم بصورة منتظمة عكس عقارب الساعة مما يوحى بأن له علاقة بحركة ونظام الكون وطاقاته الكامنة كما سنناقش ذلك فى باب "سدرة المنتهي"!

المبيت بمني:

كما هو معروف فان الحج عرفة ومن فاته الوقوف بعرفة فقد فاته الحج. ورغم قرب المسافة وإمكانية الذهاب الى عرفات مباشرة من مكة، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل الوصول الى عرفات رحلة تدريجية تبدأ أولا بالذهاب الى منى فى يوم التروية، وهو الثامن من ذي الحجة، وأداء خمس صلوات فيها تبتدئ من الظهر الى الصبح على أن تُجمع وتُقصر فيها الصلوات الرباعية كصلاةِ مسافر. ولعلَّ فى هذه الخطوة التى تسبق إعادة تمثيل الدخول الى جنة عرفات كما سكنها الإنسان الأول حكمة تتطلب بحثا حتى ترتبط كل أحداث الحج فى قصة متكاملة تحكى خلق وتطور الإنسان الأول وهبوطه الى الأرض خليفة لله فيها الى يوم القيامة.

كما لاحظنا فإن جميع مناسك الحج أخذت اسماء قديمة تعكس أصل القصة التى يقوم الحاج بتمثيلها على ذات الأرض المحرمة. فالإحرام يعنى الدخول الى الأرض الحرام أو البلد الحرام والالتزام بجميع حرماته هيئة وسلوكا، ومن أبرز سلوك الإحرام أن الرجال لا يباح لهم ستر أجسادهم إلا بقطعتين من القماش تشبه ورق الجنة التى استترت بها مجموعة آدم أول مرة. والصفا والمروة هما من شعائر الله المنزلة وحرماته، واسمهما "السعى" يدل على أنهما حجارة مقتطعة من مكان غير جبال مكة لانها صافية براقة لا تشبه حجارة مكة إذ أنها حجارة انزلت ورصها آدم، العنصر الملائم للتغيير، تعبيراً عن توبته من معصية الشجرة. و "المزدلفة" هو اسم مشتق من هيئة أول فوج من مجموعة آدم حينما دلفوا اليه بعد هبوطهم من جنة المأوى فى عرفات. الجمرات التى تجمع من المشعر الحرام ما هى إلا جمرات من المصابيح والشهب التى أنزلت للإنسان الأول ليرجم بها الشيطان قبل أن يتعلم الاستعاذة. فماذا تعنى "منى" فى اللغة، ولماذا المبيت فى منى قبل الذهاب الى عرفات ثم العودة الى منى لرمي الجمرات حتى تكتمل هذه اللوحة المذهلة؟

منى: هذا اللفظ له معنى واحد اشتقت منه معانٍ كثيرة وهو يعنى تقدير الشئ ونفاذ القضاء فيه كما ورد فى معجم مقاييس اللغة. ومعروف فى الشرع أن القدر يعنى إرادة الأمر المراد حدوثه، والقضاء هو تنفيذ ذلك القدر. ومن "منى" جاء المَنِي وهو ماء الرجل لأن منه تُقدر خلقة الإنسان.

وسمي الموت بـ"المنية" لأنها مقدرة على كل شئ حي. و"تمنَّي" الانسان أُمنِية أى قدَّر قدرا أراده ويرجوه.

فما هو القدر أو الأقدار التى قدرها الله تعالى للإنسان الأول وقضاها فى هذا الوادى ليرتبط اسمه بأحداث الحج وقصة خلق وتطور الإنسان فى هذا البلد الحرام الذى اكتظ بشعائر الله وعلامات وجوده؟ لنستنبط ذلك علينا أن نعود الى قصة تطور الانسان من بشر أو حيوان أدني الى انسان عاقل كما ناقشنا ذلك فى باب "قصة الخلق" و "الحلقة المفقودة" و" جنة المأوى"! فقد وصف الله تعالى قصة الخلق والتطور بهذه الآيات التى لها معنى وطعم جديد الآن:

{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ انى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ*فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ*فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ*إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ*قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ*قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} 71-76ص!

هذه الخطوات من خلق البشر من طين ثم "النفخ فيه" من سعة الله ونقله الى إنسان عاقل، ثم تعليم جنس آدم الاسماء كلها ثم سجود الملائكة وتمرد إبليس، كلها حدثت قبل أن يبدأ التكليف لآدم بأول أركان اسلامه آنذاك وهي الأمر"اسكن" والنهي "لا تقربا" هذه الشجرة:

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} 35البقرة!

فإذا كانت الجنة التى أمر الله آدم أن يسكنها هى جنة قريبة معروفة له فى وادى عرفات لذلك عرفها له بالألف واللام "الجنة"، من المنطقي جدا أن يكون وادى "منى" هو المكان الذى قُدِّر ونفذ فيه قضاء خلق الإنسان، ثم عاش فيه وحوله حينا من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، ولكن تناسله استمر من "منى يمني" تحمله الأمشاج فى نطفته، ثم انتشر فى مساحة من الأرض الى أن جمعه الله الى منى و قدر نقله الى إنسان عاقل ونفذ فيه قضاؤه الذى أغضب الشيطان فرفض أن يسجد له هناك، فطُرد من رحمة الله هنا فى منى، ولكنه منح أن ينظر الى يوم البعث. ومنطقي جدا أن هذه البقعة هى البقعة التى أقسم الشيطان فيها أن يغوي الإنسان ولذلك فقد كانت هى الموقع الذى اعترض فيه الإنسان فى طريقه الى البيت العتيق وتكرر ذات الموقف مع إبراهيم!

إذاً من سياق الآيات أعلاه يمكننا أن نلاحظ حدثين مهمين جدا وقعا والإنسان ما زال فى منى قبل أن يؤمر بالسكن فى الجنة وهما:

1. كل تفاصيل الخلق والتطور وتعلم الأسماء كلها، والرد على الملائكة وسجود الملائكة له مما يجعل اسم "منى" منطبقا على المسمَّي من تقدير القدر وإنفاذ القضاء فيها!

2. هنا أيضا استكبر الشيطان ورفض السجود لآدم وتوعَّد أن يغويهم أجمعين.

فاذا كانت منى قد ارتبطت بهذين الحدثين فليس مستغربا إذاً أن الحجيج كلهم يجتمعون فى منى ويستقرون معا قدرا من الوقت فيها وكأنهم مقيمون بها، فيُصلُّون خمس صلوات ويقضون جزءا من نهار وليلة كاملة قبل أن يتحركوا كفوج واحد يمثل جنسا واحدا هو جنس آدم الى عرفات، كما تحرك من هنا ركب الإنسانية الأول نحو جنة المأوى بعد أن طوره الله الى إنسان عاقل، ليكون لقاؤة الأول مع الشيطان فى الجنة!

الوقوف بعرفة:

هذا هو أهم اركان الحج ومن فاته الوقوف بعرفة فقد فاته الحج. و**عرفة** فى اللغة لها معنيان: أحدهما يدل على تتابع الشئ متصلا بعضه ببعض، والآخر، يدل على "السكون والطمأنينة"**!** أما عرفات فقال قوم: انها سميت بذلك لأن آدم وحواء تعارفا بها. ورغم أن هذا التعارف يظن أنه لقاء بين رجل وامراة كما هو تأويل الإسرائيليات، الا أننا نظن أن ما حدث فى عرفات هو أنه انكشفت لمجموعة آدم لأول مرة السمات التى تميز الذكر من الانثى، وأصبحا زوجين مختلفين فى خواصهما كما رأينا فى باب " فى جنة المأوى"، أى زال الالتباس الجنسي بينهما فتمت معرفة الذكر من الانثى بعد ان اراهما ابليس سوءآتهما! وفي جنة عرفات بدأ تكليف خليفة الله بأولي احكام التكليف، وفيها عصي الإنسان فى كل ما نهي عنه، وفيها استغفر ربه وتاب الله اليه ثم هبط منها الى الأرض كإنسان عاقل لأول مرة. وما يؤكد أن وادى عرفات كان جنة ذات يومٍ هو قول النبي صلى الله عليه وسلم: {لا تقوم الساعة حتى تعود ارض العرب مروجا وانهارا}! فهذه المنطقة كانت مروجا وأنهارا فى سالف الزمن قبل أن تتحول للصحراء التى نراها اليوم. وهذه حقيقة علمية لا خلاف عليها اليوم، وهي أن جزيرة العرب كانت يوما امتداداً للغابات الاستوائية التى تمتد الى اليوم على نفس خطوط العرض فى أفريقيا والأمازون والهند واندونيسيا وماليزيا.

الوقوف فى عصر عرفات يذكّر بعصيان الإنسان الأول فى كل ما نهي عنه، وغفران الله له كان غفرانا لكل ذنوبه آنذاك الشئ الذى يستشعره الحجيج وهم ينتظرون اللحظة التى ينزل فيها رب العالمين إذا سجى الليل، الى السماء الدنياء لقبول توبة التائبين كما قبلها من آبائهم فى ذات الزمان وذات المكان! وعرفات تمثل لحظة حاسمة فى تاريخ الكون بكل قوانين طبيعته القاهرة ومخلوقاته من جن وحيوان ونبات، التى سخرت لمنفعة وسلطان خليفة الله الذى هبط الى الأرض فى مثل هذا اليوم من هذا الموقع ليمارس سلطاته على الأرض.

ولا بد أن نذكر هنا بالحديث المشهور الذى يصف أن الله ينزل الى السماء الدنيا فى عصر عرفات ليقبل توبة التائبين ويباهي الملائكة بالحجيج وفي هذا تأكيد لقول الله تعالى للملائكة يوم

أن قالوا لله: اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ فرد عليهم: انى أعلم ما لا تعلمون! فمباهاة الله الى يوم القيامة فيها تذكير للملائكة بأن هؤلاء هم بنو آدم ما زالوا يستغفرون الله فى ذات المكان تأكيدا لعلمه بحالهم قبل أن يكلفهم بالخلافة.

ولا بد أن نذكر هنا أيضا أنه كما بدأ التشريع للإنسانية فى جنة عرفات يوم أمر الله آدم أن يسكن الجنة ونهاه من أن يقرب الشجرة، فقد انتهى التشريع الاسلامي هنا ايضا فى حجة الوداع يوم نزلت آية:

{...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**...**} 3المائدة**!** ليختم بذلك الخطاب بين الله والبشر الى يوم القيامة فى ذات المكان وذات الزمان الذى بدأ فيه قبل بضعة آلاف سنة**!**

النزول بمزدلفة:

ناقشنا فى باب "فى وادى المزدلفة" كيف دلف جنس آدم إناثا وذكورا الى الوادى، وكيف جمعوا الجمرات التى أنزلت لهم من الكواكب المصابيح والشهب، ليرجموا بها شيطان الجن الذى سيواجههم غدا فى "منى"، ذات الوادى الذى تكبر فيه الشيطان عن السجود لجنس آدم! ويجدر أن نذكر هنا أن الله تعالى أمر الحجيج هنا أن يذكروا الله كذكرهم آبائهم أو اشد ذكرا، لأن هيأتهم النفسية والروحية والجسدية تصبح طبق الأصل بحال آباء الإنسانية الذين دلفوا فى هذا الوادى فى غابر الزمن، فى أول رحلة لهم الى أول بيت وضع للناس.

رمي الجمرات بمنى:

يعود الحجيج مرة اخرى الى "منى" إذ ان رمي الجمرات يتم فيها فى أول أيام التشريق وهو يوم عيد الاضحى أو "عيد الانسانية" وهو أول يوم طلعت فيه الشمس على مجموعة آدم بعد أن اضحى خليفة لله فى الارض. والجمرات تمثل امتلاك الإنسان لسلاح مادي أمكنه أن يرجم به شيطان الجن قبل أن يتطور عقليا ويصبح قادرا على العزم و فهم الاستعاذات والمحاربة الروحية للشيطان. وفي ذات اليوم الذى يرجم الحجيج فيه الشيطان ورمزه فى "منى" بحجارة خاصة منزلة من الشهب والكواكب، ترجم سنة الشيطان فى ذبح الأبناء فى كل بقاع الأرض بذبح الأنعام المنزلة أيضا، فى عيد عالمي يمثل علو كلمة الله على كلمة الشيطان، متمثلة فى طاعات خليفته، و انتصار الإنسان على شيطان الجن فى مشارق الأرض ومغاربها!

ان ظاهرة رجم الملايين للشيطان الى يوم القيامة هنا، هى الظاهرة التى أصبحت تميز الحج بما يرتبط بها من تزاحم وموت كل عام، ولعل هيبة المشهد تستمد قيمتها من وقاحة الشيطان حين قال :

{قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} 82-83 ص!

لنا ان نتخيل مقدار التكبر والجرم الذى ارتكبه الشيطان هنا، فالإنسان ربما يداخله شك فى الله أو يصاب بضعفٍ فى إيمانه، ولكن لو قدر لأحدنا أن يرى أحد التابعين فإنَّ إيمانه بلا شك سيزيد مئات المرات، ولو لقي أحد الصحابة لازداد إيمانه آلاف المرات، ولو لقي أحدنا النبي صلى الله عليه وسلم فإن إيمانه بالله ونبيه ربما لا تحده حدود، فما بالنا بالجان الذى شهد خلق وتطور الإنسان وسمع الأمر من رب السموات والأرض من غير واسطة بل وخاطبه وحاوره، وشهد نزول الأنعام هنا وفهم السر فى آذانها، ورغم ذلك تكبر وتجبر وفجر! فإبليس لم يكن لديه شك فى وجود الله وعزته وجلاله ورغم ذلك تمرد علناً، وتحداه صراحة كأبشع ما يكون الكِبَر والكفر مع رب العالمين! ولنا ان نقارن بين إبليس وفرعون الذى تكبر فى الأرض وزعم أنه إله، ولكن ما أن انطبق البحر عليه حتى انهزم:

{حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الذى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} 90 يونس.

فان كان فرعون الذى لم يخاطب الله أصلاً، قد أعلن إيمانه لمَّا قهرته آيات الله، فان جبروت إبليس الذى يقسم فى وجه الله تعالى "بعزتك" ويصر على تكبره يستحق عقابا فريدا من نوعه فى تاريخ الكون! وإن كانت عقوبة الحـرَابة هى اشدُّ العقوبات فى الاسلام من قتل وصلب، فإن عقاب إبليس لا بد وأن يكون أكبر بكثير. هذا العقاب وتلك اللعنة يجسدها مشهد رمي الجمرات الرهيب فى" منى" والملايين يرجمونه بحجارةٍ أُنزلت ونظن أنها تنزل سنويا من السماء فى المشعر الحرام، ليستمر الرجم الى يوم الدين فى ذات المكان الذى استكبر فيه على السجود لآدم قبل أن يسكن آدمُ الجنة. ولأن الشيطان تحدَّي الله ان يُغوي ذرية آدم أجمعين فقد سلطهم الله عليه الى يوم القيامة يرجمونه فى ذات الزمان وذات المكان الذى تكبر فيه. فقد طلب البقاء الى يوم الدين ظنا منه ان بقاءه سيتم اشباعاً لهواه، فأبقاه الله ولكن جعل ذلك البقاء نقمة عليه اذ انه يؤتى به سنويا لترجمه الملايين من بنى آدم بحجارة تمزق الجن ولكنه لا يموت بها ولا يحيا! فأي مشهدٍ أعظم من هذا المشهد ليؤكد لنا أن "منى" هى ذات المكان الذى شهد خلق وتطور الإنسان، وأنه نفس المكان الذى استكبر فيه الشيطان وتحدى إرادة رب العالمين ورفض قَدَره و نفاذ قضائه فى الخليفة الذى اختاره!

ولأن وعيد الشيطان فى وادى منى قد اشتمل على نيته أن يأمرهم ليبتكن آذان الأنعام فقد شاء الله أن يعاقبه فى ذات اليوم على كل ما عزم عليه، لذلك جعل سنة ذبح الأنعام فى عيد الاضحى فى نفس اللحظة التى يرجم فيها الشيطان فى منى، ولأن رجم الشيطان يستمر الى آخر أيام التشريق فإن ذبح الأضاحي يجوز فى كل أيام التشريق أيضا إعلاءً لآذان الأنعام رغم أنف الشيطان الذى توعد بأن يجعلهم يبتكن آذانها!

على أن فى القرآن حلاوة وإعجازا لغويا إضافيا يرتبط بمنى لا بد أن نشير إليه، وهذا الإعجاز يقف دليلا على أن هذا القرآن ما كان ليُفتري من دون الله. وحتي نفهم ذلك الإعجاز نقدم إليه بالحوار الذى دار بين الله وموسى فى سيناء بلغة مدهشة أشارت الى حدث وقع فى ذات اللحظة ولكن على بعد أميال كثيرة من غير علم موسى :

{وَمَا **أَعْجَلَكَ** عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى* قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي **وَعَجِلْتُ** إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} 83-84 طه!

فقد سبق موسى قومه فى المجئ الى الله، ولكن الله تعالى استعمل كلمات " أَعْجَلَكَ وَعَجِلْتُ " وكأنها كلمات عادية مرتبطة فقط بسياق الكلام، ولكن فى ذات اللحظة كان نتيجة **استعجاله** أن قومه من بعده قد استضعفوا أخاه هارونَ وعبدوا **العجل** كما سنرى فى باب " آذان الأنعام"! فالعلاقة هنا ليست إلا فى موسيقى الألفاظ ولكنها ربطت بين الحدثين ربطا رائعاً.

هذه الظاهرة المدهشة ربما تفوت على كثير من الناس الذين لا يعلمون كيف تعمل ذاكرة الإنسان، ولكنَّ الله يعلم! فالذاكرة تحفظ المعلومات فى أشكال مختلفة كثيرة تشبه الملفات المتشابهة أو فائلات الكمبيوتر التى توضع فى مكان يدخل اليه الباحث بمفتاح واحد. فهناك ذاكرة تحفظ الأرقام وذاكرة تحفظ الألوان وذاكرة تحفظ الألفاظ وأخري للصور وأخري للموسيقي وهكذا، ولذلك حينما يذكر الله الانسان بامرٍ معلوم يشير الينا بـ "اولى الألباب". وتتم عملية الاسترجاع بفتح الملف او "اللب" الذى يحوي معلومات شبيهة بالتي يحاول الإنسان استرجاعها، ويتم البحث بين الملفات الى حين الوصول الى الهدف المطلوب. وكثيرا ما يفاجأ الإنسان بشخص لم يلتق به منذ زمنٍ فيصعب عليه أن يتذكر إلا حرفا واحدا من اسمه فيبدأ رحلة البحث فى الذاكرة، مثلا يبدأ بالحرف الأول: م م م ح ح ، ثم يختلط عليه الأمر هل هو محمد أو محمود أو حامد وهكذا الى أن يستطيع الوصول للموقع الذى حفظ فيه الاسم كاملا. وقد استفاد العلماء فى علم النفس من هذه الخاصية فى إجراء عمليات التنويم المغناطيسي بالتحكم فى الذاكرة من الخارج وبرمجتها، وكذلك تستعمل نفس الخاصية فى العلم الذى يسمي بالبرمجة اللغوية للأعصاب، وهي إحداث رباط فى ذاكرة الإنسان بين أمرين بتسجيل نوع من الموسيقى أو الألفاظ التى تجمع بينهما، وتقود الى أن يتذكر الانسان أمرا إذا تذكر الآخر. وكذلك يستعملها الإعلاميون فى الدعاية التجارية بالترويج لسلع بعد ربطها موسيقيا أو بالصور بامر يتذكره الانسان، ويستعملها السياسيون للترويج لأفكار وترسيخها فى أذهان الناس وهكذا. القرآن يوحى لنا أحيانا بمعلومات غير منطوقة ولكن الألفاظ التى يستعملها تكفى لأن تجر من الذاكرة أمراً آخر ارتبط بها!

ولعلَّ ألفاظ القرآن التى وصفت ما دار بين الله تعالى والشيطان بعد أن رفض السجود لآدم، كان فيها تطبيق لهذه الخاصية فى علم النفس يستشعره اولوا الالباب، وإيحاء بأن الحوار دار فى **منى** تماما كما كان استعجال موسى فى ذات الوقت الذى عبد فيه قومه العجل:

{وَلَأُضِلَّنَّهُمْ **وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ** وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا* يَعِدُهُمْ **وَيُمَنِّيهِمْ** وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} 120 النساء!

فى هذا الحوار نلاحظ ان الله تعالى كرر كلمة **"منى"** فى "وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ..وَيُمَنِّيهِمْ " مرتين وكأنه يؤكد لنا كل ما وصلنا اليه بالتحليل المنطقى للأحداث أن هذا الحوار قد دار فى وادى **منى**، حيث نبت الانسان من الارض نباتا وسعى فيها ملايين السنين فى سلم التطور ولم يكن حينها شيئا مذكورا الى ان جمع الله فيه مجوعة كانت آدما أى ملائمة للتغيير فنفخ فيها من روحه ونقلها الى انسان عاقل بفضله ثم امر قوانين الكون التى تحكم مخلوقاتها بالخضوع للآدم ففعلت الا ابليس! ولذلك يعود الانسان الى آخر الزمان ليرجم الشيطان فى ذات الزمان وذات المكان الذى افترى فيه على الرحمن، فسبحان الذى خلقهم وخلَقنا وأنزل القرآن!

طواف الإفاضـة:

طواف الإفاضة ليس إلا تمثيلا جماهيريا لتجمع الإنسانية حول بيت آبائهم كما تجمعوا أول مرة! ولعل اسمه مشتق من إفاضة أول فوج من البشر كما قال الله: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ **حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ** وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 199البقرة! واسم "طواف الإفاضة" فيه دلالة تميزه عن طواف القدوم، اذ أن طواف القدوم إنما يوحى بقدوم الأفراد من الحجيج من بنى آدم الى يوم القيامة قبل تجمعهم معا ليشكلوا فوجا متجانسا من البشر يشابه الفوج الذى تطور الى إنسان عاقل فى منى، ثم سكن جنة المأوى فى عرفات وأفاض الى المشعر الحرام بالمزدلفة فى طريقهم عبر منى الى البيت العتيق. فالقدوم قدوم الأفراد الذى يحكى حال الإنسان اليوم، أما الإفاضة فهى إفاضة او مثابة جماعية تمثل إفاضة "الناس" الذين أفاضوا هنا أول مرة كمجموعة متجانسة فى يوم واحد. ولذلك فطواف القدوم واجب لانه يمثل تعظيمنا نحن للبيت الحرام، ولكن طواف الإفاضة فرض لانه جزء اساسي من تمثيل خطوات الانسان الاول.

ولعل الحجر الأسود الذى رفع فى ركن الكعبة هو أحد الحجارة الأصلية التى بنى بها أول بيت وضع للناس و التى أنزلت من السماء فى هذا البلد الحرام، ليكون بيِّنَة لِصِلة الانسان الأول وخالقه، وصلة بين الأرض والسماء الى يوم القيامة. فالحجر نفسه لا ينفع ولا يضر ولكن الصلة

بين العبد وربه التى تحكيها قصة هذه الحجارة هى التى تنفع الإنسان وتعيده الى الجنة التى يحلم بها وتهبه الخلد والملك الذى لا يبلى فى الجنة إن هو عبد ربه كما يحب أن يعبد.

التطوف بين الصفا والمروة:

هذه اول صلاة مارسها الإنسان وهو يهرول بين الموقعين راصاً الحجارة فى سبعة أشواط. وهي ايضا اول صلاة اقامها الانسان بعد ان بدأت **المثابة** الى البيت متمثلة فى تطوف هاجر بين الجبلين. ويقوم الحاج بالتطوف سبعة أشواط فى ذات الهيئة البدنية من إحرام، والنفسية من استغفار وتذلل مكررا ذات الدعاء الذى دعته مجموعة آدم حينها كما هى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 23 الأعراف. بقي ان نذكر ان "**السعي**" تعنى "القطع" اشارة الى قطع الحجارة التى تكون جبلي الصفا والمروة اما الجري بينهما فيسمي "التطوف"، وان كانت كل العبادة تسمي مجازا بالسعي اشارة الى وقوعها بين السعي او القطع!

بعد التطوف بين الصفا والمروة يتحلل الحجيج من الاحرام ويعودون الى حياتهم التى اعتادوا عليها بعد أن عاشوا تلك الأيام المعلومات فى ذات المكان وذات الزمان وذات الهيئة التى عاش فيها آباؤهم من قبل والتي بوأها الله لإبراهيم عندما أخبره بما كان حول البيت.

ولأن الحج رباط وثيق بين خلق وتطور الانسان فقد كان القرآن صريحا جدا فى أن جعل الخطاب فى كل مناسك الحج موجها "للناس" من آمن منهم ومن لم يؤمن. ولأن حكمة الحج الأساسية هى تذكير اولى الألباب من كل الناس بقصة الخلق والتطور فقد ذكَّرَنا الله دائما أنه خلقنا فى الأرض من نفس واحدة وخلق منها زوجها ولكنه أنزل الأنعام! ولذلك فقد جعل الله تعالى كفارة كل النقائص الصغيرة التى لا تبطل الحج فى ذبح الأنعام المنزلة فى هذا المكان وفي أحداث ارتبطت بقصة تطور الإنسان.

موجبات الْهَدْيِ:

الْهَدْيِ هو ذبح الأنعام قربانا لله وتكفيرا لذنب ارتكبه الحاج ولكنه غير مبطل للحج. والفدية هى اخراج مبلغ من المال تكفيرا لصغائر اقل من تلك التى توجب الهدي. يجب الْهَدْيِ على الحاج اذا ترك واحدة من واجبات الحج مثل:

1. ترك طواف القدوم.
2. ترك النزول بمزدلفة قدر حط الرحال.
3. ترك المبيت بمني فى اليومين الأوائل من أيام الرمي.

4. ترك رمي الجمرات كلها أو بعضها.

موجبات الفدية:

1. استعمال عطر يعلق بالجسم.
2. إزالة جزء من شعر الجسد.
3. تغطية الوجه أو الرس من برد أو حر.
4. حلق شعر الرأس لضرورة مرض.
5. لبس نعل.
6. تقليم الاظافر.

نلاحظ ان موجبات **الفدية** هى اضافة سلوك حضارى مما اكتسبه الانسان بعد مرحلة الانسان الاول، وتكون كفارتها ايضا بسلوك حضارى وهو انفاق المال. كما نلاحظ ان موجبات **الْهَدْيِ** تشمل تجاوز احدى خطوات الانسان الاول الذى يمثل الحج السير على خطاه، ولذلك يكفر عنها بذبح الانعام لارتباطها ايضا بيوميات الانسان الاول، وكأن الله تعالى يريد لكل حاج أن يذبح الأنعام، كلما نسي شيئا من يوميات من يمشي على خطاه.

بعد اكتشافنا للعلاقة الوطيدة بين عبادة الحج وبين الأرض التى خلق فيها البشر وتطور الى انسان عاقل، يمكننا أن نفهم لماذا تصور آيات الحج "الْهَدْيِ" وكأنه يجرى بين أقدام الحجيج حيثما حلوا، وأنه هنا يفديهم من صغائر الذنوب فى الحج. فإن كان الحج ليس إلا تمثيلاً لعملية الخلق والتطور فى هذه الوديان المقدسة، فإن وجود الأنعام هنا يهدي الإنسان الى الله و تذكرنا أنه ليس كل ما فى الأرض تطور فيها، الشئ الذى يمثل إعجازا علميا لم يعرفه البشر بعد، إذ أنه من الاكتشافات التى يقدمها القرآن جاهزة للعلماء قبل أن يصلوا إليها فنأتي بعدهم لنقول "انها وردت فى القرآن"! إن كان الإنسان قد صعد سلماً من التطور ابتدأ هنا فى هذه الأراضي المقدسة فإنَّ السُلَّم الموازي لتطور الانسان قد نزل من السماء هنا ايضا متمثلا فى آذان الانعام كما سنرى!

نلاحظ أيضا أن موجبات الهَدْي والفدية جميعا لم تشتمل على الخطيئة التى ارتكبها آدم لمَّا أُمر بالسكن فى الجنة وهي "لا تقربا هذه الشجرة"! ولما كانت قصة الحج كلها ليست إلا تمثيلا عمليا لتجربة الإنسان الأول ما بين الخلق والتطور، الى سكن الجنة والهبوط منها، الى حين إفاضته الى البيت العتيق، فإن الله تعالى جعل المبطل الوحيد للحج هو تكرار نفس الخطأ الذى ارتكبته مجموعة آدم وهو الإقتراب من شجرة الخلد!

مبطلات الحج:

حينما يتحدث أهل العلم عن مبطلات الحج، فإنما يعنون المباحات فى غير الحج التى تبطل الحج. بمعني آخر فإن ارتكاب الكبائر فى الحج يبطله بلا شك مثل الزنا وقتل النفس التى حرم الله وشرب الخمر وغيرها، لأن هذه الأفعال هى أصلا محرمة فى كل زمان ومكان وحرمتها فى الحج أكبر. على أن مبطلات الحج التى نعنى هنا هى الأفعال التى تباح فى غير الحج ولكنها تبطل الحج إذا مورست اثناءه. هذه المبطلات والتي تباح فى غير الحج ليست إلا تجاوز لذات النهى الذى نهيت عنه مجموعة آدم فى الجنة وهو الا يقربا "تلكما الشجرة" التى منع آدم من الاقتراب منها وهي "الجماع" بين الزوج والزوجة، الذى هو حلال فى غير الحج، وإخراج المني عمدا قبل يوم النحر، وعلي الذى بطل حجه بـ"الاقتراب من الشجرة" أن يتم حجه الفاسد، ثم يأتى العام التالى لقضاء الحج الفاسد، ثم يأتى العام الثالث لأداء فريضة الحج!

ولعل التغليظ فى كفارة إبطال الحج بالجماع بين الزوج والزوجة يدل على أن من فعل ذلك كأنه يستهتر بالله بعد أن علم ما آل اليه حال الإنسان الأول يوم نهاه الله عن فعل نفس الشئ فى ذات الزمان والمكان:

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا **وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ }35 البقرة!

*　　　*　　　*　　　*

مفهوم الانسان الأول:

لقد استعملنا مفهوم "الانسان الاول" مرارا فى هذا الكتاب وبه رمزنا الى المجموعة التى طورها الله تعالى من انسان غير عاقل الى إنسان عاقل. ولما كان البشر \ الانسان قد خلق بشرا وانسانا منذ بدء الخلق فقد لزم علينا ان ننوه الى هذا المدلول الذى قصدناه من مفهوم الانسان الاول. اذ اننا نتجه الآن الى آذان الأنعام والمراحل الأولى من بدايات الخلق. حينها كان الانسان موجودا لكن زمنا قبل المجموعة التى تطورت الى انسان عاقل واسمينها اصطلاحا: الإنسان الأول!

*　　　*　　　*　　　*

من دراستنا لتفاصيل حُجَّة الحج على الإنسانية كما رأينا، يصعب على أى إنسان واقعي أن ينكر أن الله سبحانه وتعالى قد ربط بين خلق وتطور الإنسان فى هذه البقاع المقدسة، وبين الأنعام التى تسعى تحت أقدام الحجيج، مشيراً اليها بإسمٍ فريد هو **الْهَدْي**، وكأنها تُحَدَّثُ الإنسان على مرِّ العصور بأن فى آذانها سرٌ يجب أن ينظر اليه كل ذي بصرٍ وبصيرة، يرتبط ارتباطا وثيقاً بقصة الخلق والتطور التى يمثلها الحج فى كل خطوات الحجيج وهم يقلدون آباءهم ويذكرونهم أشد من

ذكرهم لله! وقبل أن ننزل الى "سدرة المنتـهي" لنختم هذا الكتاب، لا بد ان تخشع اصواتنا فلا يُسمع منها الا همسا ونحن ندخل الى عرش الرحمـن، لنسجد عند كرسـيه الذى اتسع، فوسع من كل الوجود ما وسع وما زال يتسع، وناموس الكـون، و نكشف سـر القـلائـد التى سادت فى الزمان البائـد ومقـاليـد السمـوات والأرض فى **"آذان الأنــــعـام"!**

البـاب الحـادي عشـر

آذان الأنـــــــعام

من مظاهر التطور فى حضارات البشر أن الكتابة التى دون بها الإنسان حضاراته وحياته اليومية فى غابر الزمن كانت لا تعدو عن كونها رسومات تشخيصية تعكس بساطة قدراته فى فهم العالم من حوله ومحدودية ألفاظه، لأن الحياة عنده لم تكن إلا أحداثا مجسدة قليلة المفاهيم والدلالات. ثم تطور العقل وتطورت معه المفاهيم ومن ثم ملكات التعبير والألفاظ ثم ظهرت الكتابة وتطورت وسائلها الى أن وصلنا الى عهد الكمبيوتر والإنترنت وعصر التعبير عن المفاهيم المطلقة والفلسفية والدينية والأخلاقية والجدلية والتجريدية والعلمية مما يتصف به زماننا هذا.

و من مظاهر "الإعجاز الفني فى القرآن" التى يلاحظها القارئ معنا الى هذه اللحظة، أن الله تعالى يحدثنا عن كل أمة بلسان حالها من غير أن نشعر، رغم أننا نقرأ قرآنا عربيا مبينا. وما نود الإشارة إليه هنا أن كل القصص التى ارتبطت بالإنسان الأول اشتملت على قدرٍ كبير من الألفاظ التصويرية والمجسمات وتداخل علاقة الطبيعة والحيوان بنظام حياة الإنسان، واسلوب خطابه وعباداته و معتقداته. بينما نجد ذات القرآن يخاطبنا عن خلق السموات والأرض والكون وأسرار الخلق والطبيعة والقوانين ونظام الأسرة والمجتمع وغيرهم بلغتنا التى نفهمها ويتحدانا فى ما وصلنا إليه من علم وفصاحة وبلاغة.

"البقرة" هى أكثر الأنعام تاثيرا فى حياة الإنسان لأنها تحرث الأرض وتحمل الأمتعة وتدر اللبن الغزير وتطعم قدرا كبيرا من الناس، لكنها فى النهاية بهيمةٌ قد يفاجأ كثير من الناس إذا علموا أنها تشغل مساحة ضخمة جدا فى تاريخ التطور العقائدي للبشر، ولعبت دورا خطيرا فى علاقة الإنسان بربه وتلعب ذات الدور الى اليوم. ومما لا شك فيه أن أشهر معبودٍ عُبِد بعد اللهِ فى الأرض فى تاريخ البشر هو البقرة. وقد يصاب الناس بالدهشة لو عرفوا أن أول إلهٍ أُشرك بالله فى الأرض كان البقرة! وقد تزداد الدهشة حينما نذكّر الناس أن النبي الوحيد الذى أُرغم على الرضوخ الى شرك قومه رغم استنكاره لما فعلوه، كان هارون حينما استخلفه موسى على بنى إسرائيل إذ أنهم عبدوا إلهاً غير الله وكان ذلك الإله بقرة. وتبقي معلومة بسيطة أخيرة وهي أن ثاني إله يعبد على الأرض بعد الله من حيث تعداد العباد اليوم هو البقرة. ومن هذا المنظار فقط يمكننا أن نحاول استيعاب تسمية أطول وأول سورة فى القرآن بعد الفاتحة باسم "البقرة"، تلك البهيمة التى لا يكاد الإنسان يجد لها قيمة فى حياته اليومية إن لم يكن مزارعا أو راعيا ناهيك أن يجد قيمة أو معنى فى آذانها! وكانت سورة الأنعام هى إحدى السور الطويلة التى نزلت على

الرسول صلى الله عليه وسلم كاملة، ويقال انها لما نزلت خرَّ النبيُّ ساجداً لله من رهبة ما احتوت عليه تلك السورة من أسرار الخلق والخالق والكون.

رأينا فى باب "قصة الخلق" ان علاقة كل الاحياء بالطين علاقة مستمرة تأخذ فيها الاحياء مقومات حياتهم من مكونات الطين وتعود فيها نفايات الموتى للطين فى حلقة مستمرة ما دامت الحياة. فى هذا الباب الذى سيناقش كليات وأصول الخلق وعلاقة الإنسان بالأنعام وعلاقة الأنعام بعقيدة الإنسان، لا بد أن نسلك طريقا طويلا حتى نصل الى بصيص نور فى محاولة تبسط لنا كثيرا من الحقائق حول الخلق ونتابع مسيرة الاحياء فى رحلتها الطويلة عبر ملايين السنين من التطور الى هيئتها اليوم وتميزها الى نباتات وحيوان وانسان، قبل أن ندخل فى آذان الأنعام ومن ثم نفهم دور البقرة فى التاريخ العقائدي للبشر ثم نربط كل الحلقات معا فى سُلَّمي التطور، الذى نبت من الأرض نباتا والذي نزل من السماء.

أصـلُ الخلـــق:

ولعلنا نبتدئ بهذه الآيات فى كتاب الله تعالى لينطلق أول شعاع فى ذلك الظلام البهيم فى عالم بهيمة الأنعام:

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ***خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ** ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} 5-6 الزمر.

هذه الآية جمعت ميزتين هامتين لا بد من الوقوف عندهما بالتفصيل: الميزة الأولى: هى عدم وجود رابط منطقي ظاهري بين مواضيع الآية. و حتى يسهل لنا ملاحظة ذلك يمكننا ان نتدبر فى هذه الجملة لنري غرابة المحتويات:

{ تصنع القطارات من الحديد الصلب والليمون طعمه حامض تحتاج القطارات لصيانة مستديمة}! ولأن هذه جملة عشوائية، يمكن لاي دارس فى اللغة ان ينتقدها بشدة لعدم وحدة الموضوع، لكن كتاب الله حينما يحتوى على صيغة مشابهة فانها مدعاة للتدبر وليس النقد بطبيعة الحال!

الميزة الثانية: هى ان الآية جمعت صنفين من اساليب الخطاب فى القرآن فى لوحة فنية رائعة لا يمكن للانسان ان يفهم كل ابعادها! ففي الجزئين الاول والاخير منها "خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... يَخْلُقُكُمْ فى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ" نجد لغة فلسفية تحتاج لكثير من الخيال الخصب وعلم البيولوجى لفهم بعض مافيها من اسرار، اما الجزء

الاوسط" وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ" فيبدوا وكأنه قد اقحم اقحاما فى سياق الآية! ولأن الحديث هنا عن "نفس واحدة " هى اصل الخلق، لابد لنا ان نناقشها بتفصيل:

النفس الواحدة:

المعروف أنَّ علماء الدين لم يتفقوا على تفسيرٍ محددٍ لكلمة "النفس" حتى الآن. الفهم السائد هو أن النفس هى الجسد الذى فيه روح ولكن هذا التخصيص يناقض قول الله تعالى {..وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ..} 30 آل عمران. إذ أن الله حي لا يموت وله نفسٌ ولكن ليس له جسد نعرفه وهو الذى خلق الأجساد! والغريب أن الله يصف النفس حينا بأنها تموت {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا.... إِنَّ فى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 42 الزمر ، وفي موقع آخر يصف عودة النفس الميتة إليه وكأنَّها تظل حية {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ*ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً }27 -28 الفجر. وكل ما يمكن أن نقوله هنا هو أن الله تعالى قد ترك لنا سرَّ النفسِ غامضاً كما ترك سر الروح. على أننا نجد فى اللغة أن كلمة نفس تستعمل لتصف كل شئ يخطر على بالِ البشر وتستعمل كلفظٍ تخصيصي يُحدد الشئ المراد وصفه، فنقول مثلا " نفس الكلام" و"نفس البلد" و "نفس الكتاب " و"نفس القلم " و"نفس الذرة" و"نفس الخلية" فلا تكاد توجد حدود لاستعمال كلمة نفس مع أى موجود سواء كان ماديا أو معنويا، خالقا أو مخلوقاً.

من السمات الواضحة فى هذه الآية أنها تتحدث عن الخلق من نفس واحدة ولكنها **لم** تخاطب الجنس البشري مباشرة كما فى قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ..}13 الحجرات. ورغم ذلك فهى تُفهم عموما على أنها تشير الى أن النفس الواحدة هى نفس "آدم" وعليه فزوجها الذى جعل منها هو "حواء". هذا الفهم فيه قصور كبير لا يتفق وطبيعة الالفاظ فى هذه الآية بالتحديد. وقد ناقشنا باستفاضة معنى لفظ "آدم" الذى يعنى الجنس الملائم للتغيير وناقشنا خلق الأنثى من نفس الأصل، إذ أن القرآن وصف خلق الإنسان والبشر من أصل واحد من غير تخصيص انثى أو ذكر، و وناقشنا فى أبواب سابقة قصة مجموعة آدم ذكورا وإناثا، والتي طوِّرها الله بفعل "كن" الى مجموعة عاقلة ثم اصطفى الله من بعدهم"آدم" نبيه الأول.

فحينما يستعمل الله تعالى "نفس واحدة" كإشارة لنفس اول انسان نجد ذلك الوصف مرتبطا بالناس كما فى قوله:

{**يَا أَيُّهَا النَّاسُ** اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الذى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} 1النساء!

هنا نلاحظ أن الله يخاطب الناس بصريح اللفظ، وأيضا استعمل لفظ "خلق" وليس "جعل" مما يوحى بأن مدلول هذه الآية التى تشير ظاهريا الى أصل الإنسان "مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا" امرٌ يختلف من {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا..}، وهي الآية موضوع النقاش! إذاً فهناك مميزات جذرية فى صيغة الآية موضوع البحث، تجعلها توحي بأن مضمونها لا ينطبق على خلق الإنسان من نفس واحدة، كما هو الحال فى الآيات المشابهة التى صرحت بخلق الناس من نفس واحدة. لو قارنا نص الآيتين يمكننا أن نلاحظ الفرق:

.....**خَلَقَكُمْ** مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ **وَخَلَقَ** مِنْهَا زَوْجَهَا......

هذه الآية التى تخاطب البشر بالتحديد، قد وصفت خلق النفس الواحدة وخلق زوجها منها، و عطفت الخلقين على بعضهما بحرف الواو الذى يفيد وقوع الحدثين معا او يفيد المساواة فى اهمية الحدثين. هذا ربما يفيد أنه قد حدث انقسام فى النفس الأولى أو الخلية الأولى التى احتوت على أصول الذكر والانثى لتواصل عملية التكاثر بتكرار ذات النواتج من الانقسام الاول، من غير تمييز للذكر والانثى عند بدء الخلق! أى انه ربما يشير الى تزواج غير جنسي بين نواتج انقسام النفس الواحدة الأولى. اما الآية موضوع النقاش فتنص على:

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ **ثُـــــــمَّ جَعَلَ** مِنْهَا زَوْجَهَا....

هذه الآية لم تخاطب الجنس البشرى بالتحديد، و تشير الى فترة زمنية طويلة يدل عليها حرف العطف "ثـم" بين خلق النفس الواحدة وجعل زوجها منها، وكلمة "جعل" تفيد ان تغييراً وظيفياً قد تم، بعد فترة زمنية طويلة، فى نواتج النفس الواحدة الأولى التى احتوت على خواص الذكر والانثى فى مراحل تطورها وتزواجها الذاتي أدي الى ظهور نفسين متكاملتين، لكن لكلٍ خواص مختلفة ومكملة لخواص النفس الأخري، مما يجعل فى الآية غموضا يستحق بحثا متأنيا كما سنرى. نلاحظ أيضا أن الخطاب فى آية الزمر، موضوع النقاش، موجه لكل الخلق إذ أن "خلقكم" تفيد أن المخاطب هم كل من خلق الله وان كان العاقل منهم هو البشر وحده. وحتي نستطع ملاحظة الفوارق بين الآيتين يمكن مقارنتهما فى هذا الجدول:

1 النساء	**6 الزمر**
أيها الناس	....
خلقكم	خلقكم
نفس واحدة	نفس واحدة
و	ثـــم
خلق منها	جـعل منها
زوجها	زوجها

ولعلّنا الآن نستطيع التدبر فى المدلول العلمي للآيتين لو رسمنا رسما تقريبيا كالذى يوضح خطوات إنقسام الخلايا فى علم الأحياء:

1. بداية الخلق من نفس واحدة لا ذكر ولا انثى:

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} 1 النساء



وهذه المرحلة تطابق الطور النباتي فى مراحل التطور التى ناقشناها فى باب "الحلقة المفقودة":

{الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ } 7 السجدة

2. تطور النفس الواحدة ليجعل منها ذكرا وانثى:

{ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُـــــمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} 6 الزمر

--------------- ------♂♀ ظهور الذكر والانثى.

وهذه المرحلة تطابق طور التكاثرالجنسي فى مراحل التطور التى ناقشناها فى باب "الحلقة المفقودة":

{ ثُـــــــــمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}7 السجدة

يمكن أن نخلص من مقارنة الآيتين أن الذكر والانثى قد خلقا من أصلٍ واحد تطور بتزواج ذاتي اولا، ثم تميزت خواص الذكورة والأنوثة فى كلٍ منهما فى مرحلة لاحقة، ليصبح كل منهما زوجا للآخر. و سنعود الى الآيتين مرة أخرى.

الصفات المستقرة والمستودعة:

وردت آية اخرى فى سورة الأنعام، لا تقل غموضا و لم يحسم المفسرون سرها، تشير أيضا الى "الإنشاء" من نفس واحدة، وليس الخلق وليس "الجعل"!وهذه الآية تلقى ظلالا على عملية اختلاف مكونات الخلق والصفات الوراثية:

{وَهُوَ الذى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ **فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ** قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} 98 الأنعام. نلاحظ ختام الآية جاء بلفظ يستفذ العقل للفقه، وكأنَّ فى الآية سرا عظيماً!

لقد رأينا فى باب "قصة الخلق" أن الإنشاء هو رفع المنخفض الى أعلى، ومنها نشأ الفتي أى استطال جسده، ومنها المنشآت أى المباني المرتفعة. فالإنشاء مرحلة تالية للخلق الذى يفيد تقدير وجود الشئ من عدم. وقد احتار العلماء القدامى فى معنى "مستقرٌ ومستودعٌ"، إذ أورد الإمام الطبري آرآء كثيرة مختلفة لعدد من العلماء فمنهم من قال: إن المستقر هو الرحم والمستودع هو أصلاب الرجال، ومنهم من قال: إن المستودع هو الرحم والمستقر هو القبر، ومنهم من قال: إن المستودع هو كل الحياة والمستقر هو المصير فى الآخرة وهكذا. وإختلاف العلماء القدامى يفيد شيئين: أولهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفسر الآية، والثانى أنها تحتوى على سر استعصى على من قبلنا، مما يوحى بأنها تحوى مضموناً علميا ينتظر قوما "يفقهون" هذا الصنف من العلوم لاكتشافه.

المُسْتَقَر: اصلها من قرَّ وتعنى التمكّن، **والمُسْتَودع** من ودع وتعني الترك والتخلية، وهو الذى يوجد فى شكل وديعة أى أمانة يحملها الشخص ولكن لا يملك حق التصرف فيها.

ونحن نظن أن السر الذى تحويه هذه الآية هو سر علم الجينات أو "الوراثة"! فقد أصبح ثابتًا ومتفقًا عليه بين جميع علماء الأحياء فيما يعرف بـ "قانون مندل" أن الصفات الوراثية التى تحملها الأمشاج تنقسم الى نوعين:

الصفات المستقرة "السائدة**"**: هذه هى التى تستقر فى تكوين المخلوق من إنسان أو حيوان أو نبات وتحدد أياً من صفات الوراثة تظهر فيه، من لون وشكل وحجم وطبائع وغيرها. كل إنسان مثلا له صفات ظاهرة يراها كل الناس، ولكنه يحمل فى نطفته صفات مستودعة لكنها لم تظهر فيه، كأن تكون مثلا عيون أحد الوالدين سوداء من جينات "مستقرة" تمكنت فى خلقه واستقرت

فى تكوينه ولكنه يحمل صفات وراثية لعيون خضراء حملها عبر الأجداد من جده العاشر ولا تظهر الّا فجاة فى ابنه.

الصفات المستودعة "المتنحية**"**: هى الصفات التى تنتقل من جيل الى آخر من غير أن تدخل فى تركيبه، أى كأنه يحملها وديعة لا يتصرف فيها الى ان تأتى ظروف مختلفة، كأن تلتقى صفة مستودعة عند الأب مطابقة لصفة مستودعة عند الأم فيؤدي ذلك الى أن **تستقر** هذه الصفة المستودعة او المتنحية فى المولود، فيولد بعيون خضراء مثلا رغم أن كلا أبويه عيونه سوداء، ولكن كلاهما حمل هذه الوديعة أو الصفة المستودعة الى أن استقرت حيث أراد الله لها أن تستقر فى مولودهم. هذا التفسير الذى يملأ فراغا فى تفسير الآية ولا يعارض رأيا قاطعا من علماء السلف، يجعل من فهم هذه الآية فهما سلسا متسقا مع الآية التى تليها والتي كأنها تشرح الإختلافات فى الصفات الوراثية فى عالم النبات رغم أن اصلها من ماء واحد:

{وَهُوَ الذى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ **حَبًّا مُتَرَاكِبًا** وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ **مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ** انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ **وَيَنْعِهِ** إِنَّ فى ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} 99 الانعام!

متراكب: من "ركب" وتعنى ان يعلو شيئ شيئاً، و"المركب" هو الأصل والمنبت، أى الشئ الذى منه ينبت غيره. والحب المتراكب ربما تعنى الحب الذى يحمل سر إنبات غيره من كل الأنواع!

مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ: يبدوا أن هذين اللفظين قصد منهما الإشارة الى خاصية علمية دقيقة، إذ أن الشبه يعنى تماثل شئ بشئ، أما كونه مشتبها وغير متشابه فكأنها تعنى أنه ظاهريا يشبه بعضه بعضا، لكن فى تفاصيله الخفية فكلٌ يحمل صفات تختلف عن الآخر.

ثمر: هو نتاج العمل وهو الفاكهة فى النبات.

ينع : أصلها من "نوع" و لها معنيان الأول طائفة من الشئ مماثلة له، والثاني ضرب من ضروب الحركة كأن تقول ناع الغصن ينوع إذا تمايل!

فكأنَّ الآية تضرب أمثلة بالصفات **المستقرة والمستودعة** فى الحب **المتراكب** الذى يحتوى على الصبغات الوراثية، وبالتالى يحمل القدرة على الإنبات، ولكنه يقود الى نباتاتٍ مشتبهة ظاهريا لكنها غير متشابهة فى ما تحمله من صفات مختلفة خفية. وبعض هذه الصفات يستقر فى الثمر الذى هو نهاية المطاف لعملية الخلق هذه وبعضه يستودع فى الينع الى أجلٍ مسمى ليظهر فى صنف جديد من النبات، والله أعلم.

ومهما يكن مضمون هذه الآيات التى لا يعلم سرها إلا الله تعالى، فما نود أن ندلل عليه هنا هو أن سر "النفس الواحدة" أمر غامض جدا وليس من الحكمة اننا كلما وقفنا على تعبير "نفس واحدة" فى القرآن نصر على أنها نفس آدم. فالقرآن أُوحِيَ الى من قبلنا و أُوحي الينا ولِمن بعدنا أيضا، ولن تنتهي إعجازاته ابدا.

نعود الى مناقشة آية الزمر، موضوع النقاش الأصلي ونذكر أيضا أننا عند محاولتنا فهم هذه الآية لا بد وأن ننتبه الى أن الله قال "**جعل** منها زوجها" ولم يقل "**خلق** منها زوجها" ! وكما رأينا فى باب " الحلقة المفقودة" أن خلق آدم اختلف من جعله خليفة. فالجعل هو تخصيص الوظيفة للمخلوق الموجود، أمَّا الخلق فهو تقدير وجود الشئ من عدم، وأيضا لا بد أن نتذكر ان كلمة "زوج" لا تعنى بالضرورة الذكر او الانثى وانما تعنى شقاً آخر من طبيعة الشئ نفسه!

فى هذه الآية المعجزة موضوع الحوار، يبدو لنا أن الله تعالى يخبرنا أن قانون الخلق اقتضى تزاوج نفس الوحدة الأولى التى بدأ بها الخلق، وهذا يذكرنا بطبيعة الخلايا التى تبدأ واحدة ثم تنقسم بعد فترة الى زوجٍ من نفسها، بحيث لا يمكن تحديد أى الزوجين كان أولا، ثم يستمر الانقسام الى مئات وملايين الخلايا التى تُكوِّن مخلوقا ضخما. هذا التزواج بين الخلايا هو القانون الذى تُخلق به كل الأحياء بما فى ذلك الإنسان نفسه. ففي خلق الإنسان تتكون خلية واحدة ملقحة من التقاء الحيوان المنوي والبويضة، فتنقسم على نفسها فيكون لها زوج من نفسها " لا ذكر ولا انثى "، وهكذا يستمر ما يسمي بالانقسام الميوزي والمايتوزي الذى يكون العلقة ثم المضغة ثم الجنين. ولمزيد من العلم فان جعل الجنين ذكرٍ أو انثى يتحدد فى مرحلة لاحقة بعد أن تبدأ الغدد فى إفراز هرمونات ذكورية او انثوية وفقا لنوعية الكروموزومات او الأمشاج التى كونته.

إذا فالآية اجملت فى إختصار شديد وصفا لبدء خلق الاحياء فى مرحلتين من تطور الخلق الذى ابتدأ بنفس واحدة ثـم ظهر الزوجين الذكر والانثى بعد فترة طويلة من الزمن، هذا يمكن مقارنته بقوله { الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ **خَلْقَ** الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} اذ انه فى هذه المرحلة لم يحدد كيفية التكاثر ولكن بالتأكيد فان الكيفية سبقت مرحلة التكاثر الجنسي التى تقتضي تميز الذكر والانثى الذى حدث فى المرحلة التالية والتي قدم لها بحرف العطف ثـم ايضا { **ثُمَّ جَعَلَ** نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}7 السجدة

إذا قبلنا هذا التفسيرمن باب الجدل فقط كإحتمال لمعني هذا الجزء من الآية موضوع النقاش: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} الذى ورد بلغة الهدهد الفلسفية، نجدُ أنفسنا نصطدم بالجزء الثانى منها: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} وهو تصويري بلغة الغراب يوحى بأن

الانسان كان واقفا ينظر الى الأنعام نازلة من السماء من غير أن يدري ما هى...وجاء الوصف فى الآية كأنه جملة اعتراضية:...نلاحظ هنا عدداً من الحقائق المدهشة:

1. أن الله لم يصف كيفية "خلق" الأنعام وإنما وصف كيفية وجودها على الأرض وهو الإنزال فى شكل ثمانية أزواج. والمعروف فى اللغة أن كلمة "أنزل" كلمة ميكانيكية تفيد النزول الى الأرض من السماء، كما ينزل المطر من السحاب، وكما أنزل القرآن من السماء وكما أنزل الحديد من خارج الغلاف الجوي. أى أن الأنعام ما خُلقت على الأرض وإنما نزلت مخلوقة فى شكل ثمانية أزواج.

2. استعمل حرف العطف "الواو" للربط بين "خلق النفس" و "نزول الأنعام"، والواو يدل على تساوي بين الشيئين أو حدوثهما معا، فهل هذا يعنى أن نزول الأنعام تم فى ذات الوقت الذى بدأ فيه الخلق فى الأرض من نفس واحدة؟ أم ان الله تعالى يربط بصورة متساوية بين قانون وجود الأحياء فى الأرض والأصل فيه الخلق من نفس واحدة، وقانون وجود الأنعام على الارض والأصل فيه نزولها من السماء فى شكل ثمانية ازواج جاهزة، بينما الخالق هنا وهناك واحد؟!

3. النص يقول {..وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ..} ولم يقل " و انزل لكم ثمانية ازواج من الانعام...." فهل يمكن ان يوحى هذا السياق بأن الله أنزل لنا من مجتمع الأنعام ثمانية أزواج؟ أى أن الانعام مخلوقات موجودة فى عالم آخر تشكل مجتمعا قائما بذاته فأنزل منها الى الأرض ثمانية ازواج؟ لا أحد يمكنه أن ينفى أو يثبت، ولكن ربما ننتظر يومَ يهبطُ مسبارُ فضاءٍ فى كوكب غير الأرض فيهلل الناس لاكتشاف الأنعام هناك ونحن نحمل القرآن كما يحمل الحمار أسفارا.

نحن نظن والله أعلم أن الجزء الثانى الخاص بنزول الأنعام إنما وجد فى هذه الآية كجملة اعتراضية ليدفعنا للتدبر فى سر الجزء الأول منها وهو هوية النفس الواحدة التى خُلقت ثم جُعل منها زوجها! فلو افترضنا أن النفس المقصودة هى نفس اول بشر أو حتى الخلية الأولى التى خلق منها، فان وجود نزول الانعام معطوفة بحرف "الواو" يخلق إشكالا فنيا فى مقارنة الشيئين، لأن الارض مليئة بالأحياء التى خلقت فيها وليس الإنسان وحده، فلماذا يكون المقصود من الجزء الأول هو قانون خلق الإنسان من نفس واحدة ثم تستثنى الأنعام وحدها من ذلك؟ بمعنى آخر لو كانت هذه النفس الواحدة هى نفس اول انسان لأمكن الاستغناء عن الجملة الاعتراضية وأمكن أن يكون السياق كما يلى: "خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق"، لأن الحديث هنا يكون منسابا بلغة الهدهد فى وصف مراحل مختلفة لخلق الإنسان من نفس واحدة. ولكن الواقع أن الجملة الاعتراضية المجسمة أقحمت بلغة الغراب فى

السياق ليصعب هذا التفسير! ونحن نظن أن التفسير المنطقي لهذه الآية هو أنَّها تصف كيفية وجود "الأحياء" عموما على الأرض، وكأنها تقول لنا: إن كل الأحياء على الأرض خُلقت من نفس واحدة تطورت عن طريق إنقسامها على نفسها ثم حدث تغيير وظيفي فى نواتجها ادي الى ظهور الزوجين الذكر والانثى فى كل نوع لتخرج منها ازواج كل الأحياء، ما عدا ازواج الأنعام فهى منزلة فى شكل أزواج ثمانية، أى أنها لا تشترك مع بقية ازواج الأحياء التى وجدت على الأرض فى أصل الخلق!

وما يجعل هذا التفسير أقرب الى سر الآية، أنها بعد أن اعترضت السياق بادخال نزول الانعام وكأنها إنما ذكرت للاستثناء من أصل الخلق من نفس واحدة، عادت الآية لتواصل مراحل التطور التى نتجت من تكون زوج متميز من تلك النفس الأولى الواحدة وهو الانسان:

" يَخْلُقُكُمْ فى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ"... هنا نلاحظ أن اللغة الفلسفية عادت من جديد فى سياق الآية إذ أنها ركزت على تطور خلق الإنسان فى الرحم وأضافت معلومات ما كان الإنسان يعرفها عن ظلمات الرحم والغشاء البروتوني والسائل الأموني كما يظن علماء النساء والتوليد فى تفسير هذه الظلمات الثلاث، ونلاحظ أيضا أنها افصحت عن علم تطور الأجنة فى تكرار {خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ}!

وحتي يتضح المعنى أكثر لابد أن نقرأ الآية مقرونة بالآية التى سبقتها "الآيتان 5-6 الزمر" لنستخلص هذه الحقائق:

1. الآية الأولى وصفت خلق السموات والأرض بالحق فى وصف عام، ثم انتقلت الى تفاصيل أدق تخص الأرض فوصفت كروية الأرض وشكل الليل والنهار مكوَّرين على بعضهما كآية من آيات الله التى ما كان للإنسان أن يفهمها، قبل أن ينفذ من أقطار الارض بسلطان العلم ويصورها من الفضاء. فكأن السياق هنا يبدأ بوصف كليات خلق الكون منتقلا من وصفٍ عام واسع الى وصفٍ أدق وأكثر خصوصية للأرض بسرعة فائقة وكلمات بسيطة بليغة معجزة.

2. انتقل الوصف من خلق الأرض الى خلق الأحياء على الأرض متَّبعا ذات الأسلوب وهو التعميم أولا فوصفت الآية كل الأحياء بانها خُلقت من نفس واحدة أو خلية واحدة "جعل منها" زوجها ولم يقل "خلق منها"، وهذا يوحى بحدوث تغيير وظيفي فى هذه النفس الواحدة، ولما كان هذا الوصف فيه إستثناء فقد جاء الجزء الاعتراضي من الآية ليستثني ازواج الأحياء التى لم تشترك فى أصل الخلق العام من نفس واحدة.

3. هذه الأحياء المستثناة هى الأنعام ولكن لأن مضمون الآية هو خلق ازواج الأحياء على الأرض وليس الأنعام، فقد دخل ذِكر الانعام بلغة تصويرية بلفظ "أنزل" ولكنه لم يتطرق الى كيفية خلقها بلغة فلسفية كما فعل مع خلق بقية الاحياء.

4. الآية وضحت أن الله أنزل من الانعام ثمانية أزواج مما يدلل على أن الأنعام لا تشترك فى أصل الخلق من نفس واحدة مع بقية الأحياء على الأرض، وأيضا توحى الآية بأن الأنعام مخلوقات موجودة فى مجتمع مستقل فى مكان ما خارج الارض وعلينا أن نبحث فى ذلك إذ انها آية وشعيرة من شعائر الله المحرمة.

5. وصف طبيعة وجود الأنعام على الأرض بلغة الغراب يوحى لنا أن نزولها ارتبط بزمن ما كان الإنسان يفهم فيه إلَّا لغة المجسمات لذلك لم تدخل الآية فى "خلق" الأنعام وإنما فقط أشارت لنزولها المجسم.

6. عاد السياق الى لغة الهدهد فلسفية ولكنه انتقل من وصف خلق ازواج الأحياء عموما الى خلق الإنسان خصوصا، داخل ظلمات الرحم الثلاث، بلغة فلسفية علمية تستفز عقولنا لمزيد من البحث، وما كانت لتفهم قبل زماننا. ولا يخفى على كل ذى ذوق مدى روعة اللوحة الفنية التى رسمتها هاتان الآيتان لتنقل لنا معاني خطيرة جدا مرتبطة بقوانين خلق الكون و الأحياء فى الأرض.

فالآية الأولى وصفت خلق الكون عموما ثم بعض خصوصيات الأرض، والآية الثانية وصفت خلق الأحياء عموما ثم دخلت فى خصوصيات خلق الإنسان، ولكنها بطبيعة الحال استثنت الأنعام من عموم خلق الأحياء على الأرض، لا لشئ إلَّا لأنها ليست من مخلوقات الأرض وإنما أنزلت من مكان ما للإنسان الأول!

هناك آية اخرى فى كتاب الله يمكن أن ينطبق عليها ذات التأويل نسوقها هنا باختصار شديد لتعضد ما ذهبنا إليه من أن الأنعام تُمثل سُلَّما موازيا فى الخلق للسُلَّم الذى خُلقت فيه **جميع الأحياء** فى الأرض:

{فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ **جَعَلَ** لَكُمْ مِنْ **أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** وَمِنَ **الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا** يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} 11 الشوري.

ما لا يخفى على أى متدبر أن هذه الآية جاءت بعد آيات كثيرة من بداية سورة الشورى تتحدث عن كليات الخلق وليس تفاصيله. والآية نفسها وصفت فطر السموات والأرض فى ثلاث كلمات فقط، ثم انتقلت لتصف {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} الشئ الذى يفهم بطبيعة الحال انه إشارة لطبيعة تناسل الانسان دون غيره، ولكن الآية مضت وبصورة إعجازية لتقحم الانعام بنفس اللفظ

ونفس المستوي، وكأن الانعام لها نفس القيمة فى قانون الوجود كقيمةِ وجودِ الانسان: { وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا}! لا بد ان نلاحظ هنا ان الآية استعملت لفظ "جعل" التى تشير الى الاختلاف الوظيفي بين الزوجين الذكر والانثى، أى ان المقارنة هنا ليست فى الخلق وانما فى وجود زوجين **ذكر وانثى** فى سلالة الانسان علما بان الانعام اصلا نزلت فى حالة ثمانية ازواج ذكرانا واناثا ولم تمر بمراحل خلق وتطور مماثلة للانسان فى الارض! من المدهش فى لغة الآية أنها تتطلب قراءة بتدبر وحذر لان من لا ينتبه ربما يفهم على عجلٍ أن الانسان يتزوج الأنعام، أى يفهمها " جعل لكم من أنفسكم ومن الأنعام ازواجا".... هذا التداخل السريع الذى لا يوجد فيه وقف فى التلاوة يدعو المتدبر لوقفة طويلة لفهم بعضٍ من أسرار الآية. كما ذكرنا بإسهاب فى نقاش آية إنزال الأنعام، نواجه ذات الإشكال الفني هنا وهو أننا لو فهمنا أن الجزء الأول يشير الى الإنسان فقط **"من أنفسكم"** نصبح فى حيرة من مقابلة الإنسان وحده مع الأنعام المنزلة! فإذا افترضنا أن الانعام غير منزلة وهي مخلوقات من مخلوقات الأرض، ليس لها ما يميزها فى أصل الخلق ، نسأل انفسنا إذاً: لماذا يقابل ازواج الإنسان بأزواج الأنعام وليس أزواج القطط أو الكلاب أو الغزلان أو الحصين او... او... او ...؟ وإذا قبلنا أن الانعام منزلة ولذلك هى متميزة فى خلقها، نواجه ذات المشكلة وهي: لماذا وضع أزواج الإنسان من دون بقية مخلوقات الأرض مقابلة لأزواج الانعام المنزلة؟ علما بأن ختام الآية وصف انتشار هذه المخلوقات **"يَذْرَؤُكُمْ"** فى الأرض كآية من آيات تفرُّد الله بالخلق!

نحن نظن أن هذه الآية وصفت سُلَّمي التطور لجميع الأحياء على الأرض، وإن كانت روح الخطاب موجهة للإنسان فى وصف سُلَّم التطور الذى صعدت عليه كل مخلوقات الأرض، فلأنه هو المخاطب بالقرآن ولأنه هو الوحيد العاقل بينها، ولكن لا تعنى أن خلق الإنسان استثناء فى الخلق على الأرض، ووصفت من ناحية ثانية أزواج الانعام التى أنزلت وانتشرت فى الأرض بصورة مشابهة لمخلوقات الارض! أى ان " جَعَلَ **لَكُمْ** مِنْ أَنْفُسِكُمْ" تشير الى كل الاحياء من نبات وحيوان وانسان، وليس الانسان وحده. فكلا هاتين المجموعتين المتباينتين انتشرت سلالاتهم على الأرض رغم أن احدهما فُطر فى السماء والآخر فى الارض، وانما يفهم ان الخطاب موجه للانسان لانه هو العاقل المخاطب من بينها وهو يمثل رمزا للاحياء التى خلقت فى الارض. هاتان المجموعتان من المخلوقات، أى أزواج الإنسان وأزواج الأنعام هى التى حملها نوح فى السفينة لأنهما يمثلان سُلَّمي التطور، أحدهما وهو الإنسان قد تطور فى الأرض والآخر مُنزلٌ من السماء. وما يجعل الانسان متميزا بين مخلوقات الارض انه خُلق بيد الله: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا **خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**} 74 ص، والانعام ايضا عُمِلت بيد الله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا

عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} 71يسن! و لما كانت الانعام اصلا قد نزلت لخدمة الانسان فانها لم تكن موجودة الا فى المساحة الجغرافية التى سكنها الانسان والتي كانت موقع الطوفان مما استدعي حمايتها من الغرق من دون بقية مخلوقات الارض، التى انتشرت فى مساحات واسعة من اليابسة لم يكن الطوفان ليؤدي الى انقراضها. وحتي لا يترك القرآن لنا أى فرصة لافتراض انّه ربما تكون هناك علاقة اخرى بين الإنسان والأنعام غير التوازي فى الخلق الذى افترضناه، فقد ركّز القرآن مرارا على أن الإنسان هو صاحب العقل الوحيد بين المخلوقات الأرضية وأنّ الانعام على نقيض ذلك هى اكثر المخلوقات غباءً كما سنناقش ذلك بالتفصيل لاحقا.

نحن نعلم أن افتراض أن جميع الأحياء على الأرض من نبات وحيوان وانسان نبتت من الأرض نباتا وبدأت من أصل واحد، افتراضٌ يسبب ازعاجا للكثيرين، ليس لأنه جديد فحسب، ولكن أيضا لأنه ينطبق مع رأى علماء الأحياء فى هذا العصر الذين حكمت عليهم الكنيسة بالكفر ثم تبعهم المسلمون من غير تفكُّرٍ او تدبرٍ فى آياتِ الله. هذا الرفض غير العلمي لا يعكس جهلا من المسلمين فقط، وإنما يشكل تشكيكا فى عقيدة من يرفض حقائق علمية عليها ادلة شبه مؤكدة من القرآن، لا لشئ الا لان الفكرة فقط جديدة. عقيدة المسلمين تقوم على الإيمان المطلق بأن الله يخلق ما يشاء كيف يشاء ويفعل ما يشاء متى ما يشاء، ولذلك حينما جاء المشركون لابي بكر الصديق فى صبيحة ليلة الإسراء والمعراج يسخرون مما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم، كان رده مبنيا على مدي صدق الرواية عن رسول الله وليس على مدى قدرته على استيعابها أو مدي منطقيتها "إن كان قال فقد صدق"! ومن هذا المنطلق فإن المسلم يجب عليه أن يجادل فى مدي سلامة هذا التأويل، وليس مدي استساغته للمعلومة نفسها، علما بأن هذا التأويل اكثر علميةً ومنطقية وواقعية ويوفق بين آيات الله القرآنية والكونية توفيقا سلسا اكثر حكمة من قصة خلق آدم من تمثال من طين التى روج لها اليهود سنين عددا، والتي تسببت فى ان يفهم المسلمون ان "النفس الواحدة" هى نفس آدم اينما وردت فى القرآن.

ان حقيقة نزول الانعام لهي من الغيبيات التى لم يعلمها الإنسان قبل الوحي، ولكن لأن الله تعالى أراد أن يكشف لنا سرا خطيرا من انباء الغيب، ذكر إنزال الإنعام باللفظ فى هذه الآية، ولعل خطورة هذا السر على عقيدة الإنسان وعلاقته بخالقه كانت بينةً للشيطان بيان الشمس فى وضح النهار، يوم رفض السجود لآدم فحدد مباشرة فى ماذا يبذل كل جهده ليضل الانسان: {..وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ..}، كما سنناقش ذلك لاحقا.

ولما كان متفقاً عليه أن أصل خلق كل الأحياء من ماء، فمن الضروري ونحن نبحث فى سر الخلق أن نعطي علاقة الماء بالخلق فى القرآن قدرا من البحث!

المـاء وسر الخلق:

{وَهُوَ الذى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا*لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا*وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا} 48-50 الفرقان**.**

الطهر**:** هو النقاء و التنزه عن كل نقص ودنس وقبح أى الكمال، ولله الكمال.

الماء من أشهر المركّبات الكيميائية إذ أن كل من درس مادة الكيمياء فى المدارس يعلم أن جزيئ الماء يتكون من ذرتى هايدروجين وذرة اوكسجين "H_2O"، وترتبط هذه الذرات الثلاث مع بعضها البعض برابطتين تساهميتين تُشكّلان فيما بينهما زاوية قدرها 105 درجات، مما نتج عن ذلك ان جزيئ الماء له قطبان كهربيان يحمل أحدهما شحنتين موجبتين ويحمل الآخر شحنة سالبة واحدة مكافئة. ويعتبر الماء أشهر مذيب يعرفه الإنسان ويدخل فى كل الأنشطة الحيوية فى الخلية الحية فى الحيوان والنبات. هذه معلومات بسيطة يعرفها كل من درس أصول الكيمياء، ولكن ربما لا يعلم الكثيرون أن العلماء فشلوا الى اليوم فى صناعة الماء من هذين الغازين، إذ أن الرابط الكيميائي بينهما فيه سرٌ لا يعلمه إلا الله. وقد باءت كل محاولات تركيب الماء فى المعمل بالفشل، وما أدَّت إلا الى تكوين جزيئ ماء سام نتيجة لوجود خلل فى الأيونات والشحنات الكهربائية التى تنتج عن ارتباط الغازين فى الماء المُصنَّع**!** هنا نفهم أن الماء الذى أودع الله تعالى فيه سر الحياة هو **ماءٌ طهور،** أى كامل الخلق وليس بالضرورة طاهر بالمفهوم الشرعي، ولما كان الكمال لله وحده فلن يستطع الإنسان أن يخلق ما خَلَق الله وجعل فيه سر الحياة المطلق**!** نلاحظ من هذه الآيات الربط المباشر بين الماء الطهور وإحياء الارض الميتة واستمرار الحياة فى الإنسان والأنعام والنبات. ونلاحظ أيضا أن الانعام وهي تشمل البقر والإبل والضأن والماعز فقط**،** دون سائر المخلوقات دائما تأتى مرتبطة بالانسان حينما يكون الحديث عن سرٍّ من أسرارِ الخلق. نلاحظ أيضا ان الله وصف شراب أهل الجنة سواءً كان ماءً او غير ماء بكلمة "طهورا" مما يعنى ان الطهر من صفات الكمال التى لا يستطيع الإنسان الوصول اليها فى خلقِ الماءِ فى المعمل كما فى الآية التالية:

{عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} 21 الانسان.

كما قلنا من قبل، فإن القرآن يفسر بعضه بعضا، وكما افترضنا فى آية "خلقكم من نفس واحدة" أعلاه أن هذه الآية أجملت خلق الانسان من نفس واحدة أو خلية واحدة مع بقية الأحياء باستثناء الأنعام المنزلة، فان ذلك الإجمال يشابه إجمال الانسان فى كون أصله من ماء مع بقية الأحياء كما فى هذه الآية:

{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} 30 الانبياء.

مما لا شك فيه أن الانسان كغيره من الأحياء يحتوي تكوينه على حوالي 71% ماء فى الإنسان البالغ و93% ماء فى الجنين فى شهوره الأولى. وقد اتفق كل علماء التفسير فى العصر الحديث على صحة هذا التفسير للآية وان الأنسان هنا مجمل من ضمن **"كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ"** وإن لم يذكر بالاسم، بل واعتبروها معجزة علمية سبق بها القرآن علماء الطبيعة بقرون كثيرة. ولكن نجد نفس العلماء يتحرجون فى قبول تفسير الآية اعلاه {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} انها تشير الى إجمال كل الأحياء فى أصل الخلق من نفسٍ واحدة، وما ذلك إلا لأن هذا التفسير يتعارض مع الفهم المتعارف عليه أن تلك النفس الواحدة هى نفس "آدم" الذى خُلق فى شكل تمثالٍ نفخت فيه الروح وأن زوجه خلقت من ضلعه. ونحن بتفسيرنا للآية أعلاه و أنها تشير الى خلق كل الأحياء من خلية واحدة باستثناء الأنعام المنزلة و الذى يبدو منطقيا وعلميا جدا، لا نسعي للبحث عن أدلة من القرآن نؤكد بها اجتهادات علماء الطبيعة وإنما فقط أردنا أن نعطي كتاب الله حقه من البحث والتدبر بعيدا عن تفاسير الإسرائليات.

وكما اعتاد المسلمون على تفسير"نفس واحدة" أينما وردت فى القرآن على أنها نفس "آدم"، نجد أن علاقة الخلق بالماء دائما تُفهم أنه "ماء الرجل"! وكما رأينا أن الالفاظ التى استعملها القرآن فى وصف الخلق من نفس واحدة اختلفت من آية الى اخرى، نجد أن وصف خلق الإنسان من ماء اختلف فى كثير من الآيات مما يوحى بأن علاقة الماء بالخلق أكثر عمقا وغموضا من السائل المنوي. فالقرآن حينما قصد السائل المنوي صرَّح به وأعجز فى وصف خصائصه:

{أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ منى يُمْنَى*ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى*فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} 37-39القيامة. فى هذه الآية جاء اللفظ صريحا عن "المني" وهو ماء الرجل، ثم وصف خاصية من خصائصه ما فُهمت الا حديثا، وهي اختصاص المني بتحديد نوع الجنين من ذكرٍ أو انثى، إذ أن الأمشاج فى الحيوان المنوي تحمل نوعين من الجينات تعرف بـ (XY) وتحمل الأمشاج فى بويضة الانثى (XX)، وان تبادل هذه الأمشاج عندما تتكوَّن الخلية الملقحة وفقا لعلم الوراثة، هو الذى يحدد نوعية الجنين. و ظاهرٌ من شكل هذه الجينات أن الحيوان المنوي هو الذى يختص بجنس الجنين، لأنه بمقدوره إعطاء نوعين من الجينات بينما تكوين أمشاج الانثى ثابت فى كل الحالات. هذه الآية لا يختلف اثنان على أنها تصف ماء الرجل او "المني" ولكن لا يشترط انه كلّما وردت كلمة "ماء" فى القرآن يكون المقصود هو المني! فإذا نظرنا الى قول الله تعالى فى الآية التالية مثلا نجد الماء يدل على مدلولٍ مختلفٌ تماما عن المني:

{وَهُوَ الذى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا*وَهُوَ الذى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ **نَسَبًا وَصِهْرًا** وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا} 53-54 الفرقان.

اتفق اهل التفاسير على غموض معنى الآية الأولى من حيث وجود {بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا} بين الماء العذب والماء المالح، ونحن نحمد الله تعالى أن جعلنا ممن يرى العلم يثبت وجود حواجز كيميائية تمنع اختلاط ماء البحرين، الشئ الذى ما كان للمفسرين القدامي أن يهتدوا اليه بخيالهم ، لذلك أجمعوا اجتهادا منهم على أن الحاجز هو الفاصل الأرضي. ولكن هؤلاء المفسرين اختلفوا من قديم فى تفسير "الماء" فى الآية السابقة، فمنهم من ظن أنه السائل المنوي للرجل ومن هؤلاء الطبري وابن كثير، ومنهم من ظن ان الآية تتحدث عن عموم خلق الانسان من ماء كما فى {..وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ..} ومن هؤلاء القرطبي وصاحب تفسير فتح القدير، والاختلاف هنا يفيد أن فى فهم الآية متسع للتدبر.

لو رجعنا للآيات السابقة لهذه الآيات فى سورة الفرقان نجد أن ذكر الماء المطلق قد تكرر فى اكثر من موضع، وكأن الأصل فى هذه الآيات هو الإشارة الى أسرار الماء وليس خصوصية خلق الإنسان. ولذلك نظن أن الماء المقصود هنا هو **الماء الطهور** الذى خُلقت منه الحياة عموما وليس السائل المنوي، فضلا عن أن الآية السابقة لهذه الآية دخلت فى سرٍ غامض من أسرار مياه البحار والأنهار ما كان للانسان أن يهتدي اليه من غير سلطان علم الكيمياء فى زماننا هذا.

أولى الملاحظات على نص هذه الآية هى أن الله خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ولم يقل خلق البشر من ماء! إذاً فالنص يصف العلاقة الغامضة بين الماء عموما وما خُلق منه، وما يزيد الآية غموضا أنه جعله " نَسَبًا وَصِهْرًا" و نظن ان "**جعله**" هنا معطوفة على الماء وليس البشر كما يظن الكثيرون! لمَّا فهم الناس أن الآية تعنى أنه "خلق البشر من ماء" فهموا أن "نسباً وصهرا" هنا تشير الى العلاقات الاجتماعية فى حياة البشر. قضية الأنساب والمصاهرة بمعناها من "أخوال" و"أعمام" قضية اجتماعية بسيطة يعرفها من يسكن الغابات ومن يسكن ناطحات السحاب، ولكن من يتدبر الآيات السابقة والتالية لهاتين الآيتين من سورة الفرقان يلاحظ أن الله تعالى يُبرز كثيرا من آيات إعجازية عميقة المعاني، كدليل على قدراته الخارقة كخالق مطلق للوجود، الشئ الذى يجعل فهم "نَسَبًا وَصِهْرًا" هنا بالفهم البسيط الذى يشير للعلاقات فى الأسرةِ فهماً نشازاً، مقارنةً بالمفاهيم العميقة التى طرحتها السورة، وكلها احتاج لبحوث علمية متخصصة لفهمها، عِلماً بأنَّ الآية انتهت بـ: {وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا} إشارة الى أن سرها فيه دليل على قدرة الله. و نحن نعلم أن الله تعالى حينما يختم الآية بالإشارة لقدرته إنما ينبهنا الى أن مضمون الآية يشيرإلى علمٍ لم يكن

يعلمه إلا الله، وبالتالى فإن مضمون الآية ليس من ضمن ما يمكن للبشر أن يعلمه من غير بحث دقيق أو وحى من الله! وحتى نعطي الآية حقها لا بد أن نفهم ماذا تعنى كلمات "بشرا"، " نَسَبًا وَصِهْرًا فى اللغة:

بشر: تعنى فى اللغة ظهور الشيئ مع حُسنٍ وجمال، ومنها "البِشرة" وهي ظاهر الجلد الذى يعكس حسن المظهر! ومنها "البشائر" وهي أوائل الأخبار الحسنة، ومنها "البشير" الذى يبشر بالخير! فكلمة "بشر" أصلا لا تعنى "إنسان" وإنما هى مستعارة لتعني ذلك باعتبار أن الإنسان مخلوق بارز فى الوجود وأحسن المخلوقات مظهرا وخَلقا.

نسب: لها معنى واحد وهو اتصال شئ بشئ. هذا الاتصال يمكن أن يكون ماديا أو معنويا، كأن تقول "نُسب الى فلان أنه قال كذا". إذاً فالنسب ليس بالضرورة "الأعمام والأخوال" وإنما وجود صلة بين شيئين.

صهر لها معنيان فى اللغة: الأول هو قربى، والثانى هو إذابة الشئ! القربي نتيجة اختلاط الدماء فى التزواج أما الإذابة فهى فقدان الشئ لطبيعته الأصلية كأن تقول "صهرت الحديد أى أذبته فتغيرت طبيعته"، وكما فى قوله: {يُصْهَرُ بِهِ مَا فى بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ} 20 الحج.

نلاحظ فى لغة الآية أن الله تعالى ربط بين الماء الذى خلق منه بشرا وبين جعله نسبا وصهرا بحرف العطف "الفاء"، وهو يدل على اتصال مباشر بين المعطوف والمعطوف عليه، ولكن الواقع فى قضية الأنساب والأصهار الاجتماعية أنها لا تتم مباشرة بعد خلق الإنسان، وإنما تتم بعد سنوات من نضجه وقد لا يتزوج الإنسان أصلا وقد لا ينجب مما يجعل العطف بحرف "الفاء" وما يدل عليه من اتصال مباشر بين خلق البشر وجعله نسبا وصهرا لا ينطبق على التفسير الاجتماعي لهذه الألفاظ، لأنَّ ذلك يخضع لعوامل اجتماعية تختلف من إنسان الى آخر.

وإنَّا لنَظُنُّ والله أعلم، أن مضمون الآية يشير الى ان الأصل فى الخلق الماء، ويمكن لكلمة "بشر" هنا أن تعنى الإنسان، ولو أنها ربما تعنى بشائر الخلق جميعا، وعلاقتهم فى ذلك الأصل مع بقية المخلوقات التى اشتركت فى نفس الأصل من ماء، وما استعمال ألفاظ "نسبا وصهرا" إلا إشارة الى مراحل تطور الخلق من الأصل الواحد وهو الماء، وهنا يكون لفظ "جعل" منسوبا الى الماء وليس البشر! بمعني آخر إن الخلق عموما بدأ من ماء فجعل الماء بعد ذلك يقوم بوظيفة **"التناسب"** أو الاتصال، ووظيفة الذوبان والتغيير فى الخلق وهو **"الانصهار"** وهذا اللفظ ربما يكون إشارة لما يعرف بـ **"الطفرة"** فى علم الجينات، أى الذوبان أو التغيير فى طبيعة الجينات الذى يقود الى تغيير فى الخلق. نفهم من ذلك أن بعض ذلك الماء اتصل فى بعض بشائر الخلق طوال تطورها، وبعضه انصهر وذاب وتغير الى شئ آخر فى سلم التطور، مما نتج من هذه

المتغيرات ملايين المخلوقات التى أصلها يرجع الى الماء، ولكن اختلفت فى أشكالها ووظائفها نتيجة الانصهارات التى مرت بها عبر ملايين السنين!

وما يقوم به الأطباء اليوم من اختبارات فى عملية "الاستنساخ" لخلق مخلوقات معدلة خارج مسار الطبيعة، ليس إلا عملية "صهر" للمكونات الجينية للمخلوق قبل أن تتزواج او تنقسم خليته الأولى، وهو أمر يثير جدلا أخلاقيا ودينيا شديدا فى الغرب والشرق سواءً بسواء. إذاً فالآية التى أصلا لا تتحدث عن السائل المنوي من قريب أو بعيد، ربما لا تتحدث أيضا عن علاقات الأسرة والأنساب والمصاهرة التى نفهمها فى أسرة الإنسان بعد ملايين السنين من مرحلة النسب والصهر التى ارتبطت بالماء الأصلي للخلق، وربما لا تتحدث عن الإنسان اصلا لأن "بشرا" ممكن أن تكون إشارة الى بشائر كل المخلوقات التى خلقت من ماء على الارض الميتة وليس الإنسان وحده.

هذا التفسير لا يتفق مع اكتشافات العلم الحديث فى قضية التطور فحسب وانما يعضده سياق غريب فى القرآن ما زال يحيير المفسرين طوال القرون:

{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ **دَابَّةٍ** مِنْ **مَاءٍ فَمِنْهُمْ** مَنْ يَمْشِي عَلَى **بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ** مَنْ يَمْشِي عَلَى **رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ** مَنْ يَمْشِي عَلَى **أَرْبَع** يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 45 النور**!**

هذه الآية فيها أسرار أدَّت الى اختلاف المفسرين بصورة بائنة، ونظن أن ما فيها من أسرار قُدرَةِ الله أكبر من أن نعرفه نحن الآن. ونلاحظ أنها انتهت بالتأكيد على "قدرة الله" تماما كما أكدت الآية فى سورة الفرقان أعلاه، وكأن الأسرار التى توحى بها الآيتان إنما ذكرت لتحدى العقل للبحث فى قدرات الله. فموضوع الخلق هنا هو "كل دابة" وليس الناس، على أن لفظ التبعيض الذى استعمل ثلاث مرات هو "فَمِنْهُمْ"، وهذا اللفظ يستعمل فقط للإنسان العاقل!

الدبيب فى اللغة هو الحركة بصورة أقل من المشي وأشهر استعمالاتها هو دبيب النمل الذى لا نكاد نحس به! إلا ان الدواب عموما تطلق على الحيوانات دون الإنسان.

فاذا افترضنا أن الانسان داخل ضمن "كل دابة" هنا، نواجه اشكالاً لغوياً لأن الإنسان العاقل لا يشار اليه بلفظ دابة، ولكن هذا الإجمال يحل الإشكال اللّغوي الآخر فى استعمال " فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي" التى تُستعمل مع الإنسان العاقل فقط! اما إذا افترضنا أنها تشير الى عامة الدواب دون الإنسان، نواجه الإشكال الآخر وهو استعمال "فَمِنْهُمْ" التى تُستعمل مع الإنسان العاقل فقط! وقد استغرب الطبري لفظ "فَمِنْهُم" هنا إذ أنه فسَّر الدواب كما نعرفها من حيوانات. أما القرطبي فقد

اعتبر أن الانسان مجمل ولذلك ظن أن الله عمم لفظ "فَمِنْهُم" لأن العاقل يُعَمَّم على غير العاقل وهذا ليس إلا اجتهادا منهم رضي الله عنهم.

وقد اختلف المفسرون ايضا فى هوية "الماء" المقصود هنا، فمنهم من قال: إنه ماء الذكر، ومنهم من قال إنه الماء الذى وجدت منه الحياة عموما. وقد ذكر صاحب تفسير البغوي أن الله خلق أول ما خلق الماء ومنه خلق كل الأحياء بما فيهم الملائكة والجن، فخلق من الماء الريح ومنها خلق الملائكة على حد قوله، وخلق منها النار التى خلق منها الجن وبذلك أجمل كل الخلق تحت هذا "الماء"! ونحن الآن نعلم بفضل الله أن الماء يتكون من ذرتي هايدروجين مشتعل ومن ذرة اوكسجين ضرورية للاشتعال، مما يجعل علاقة الماء بالنار والنور وطيدة جدا، الحقيقة العلمية التى يمكن بها أن يبرر خلق الملائكة والجن أيضا من أصول الماء كما ألمح البغوي. ولكن إذا تدبرنا فى الآية نجد أنها تخلق إشكالا آخر فى وصفها لطبيعة "فَمِنْهُم" من يمشي على بطونهم واثنين وأربع مما يلمح بأنها تصف فصيلا محددا من المخلوقات وليس كل الأحياء، إذ أن الملائكة والجن لا يمكن ان تُجمل فى طبيعة المشي مع أى من مخلوقات الأرض.

هناك حقيقة علمية هامة لا بد ان نتفكر فيها ونحن نحاول تأويل هذه الآية، وهي أن المخلوقات التى تمشي على اثنين بجانب الإنسان محدودة جدا وتقتصر على الطيور وبعض الحيوانات التى يمكنها أن تمشئ ببطء على اثنين كالقردة وان كانت تمشي عموما على أربع! إذاً فالمخلوق الوحيد الذى يمشي مطلقاً على اثنين فقط هو الإنسان العاقل وقد منّ الله عليه فى القرآن بهذه الصفة المتميزة {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ*الذى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ} 6-7 الانفطار !

ونحن نظن والله اعلم أن الآية تشير الى مرحلة أولية من مراحل التطور بعد أن تزاوجت الخلايا الحية وانقسمت على نفسها ملايين المرات ثم تطورت الى مخلوقات منها من زحف ومنها من مشى على اثنين ومنها من مشى على اربعة، و ربما كان أسلاف البشر منهم! وربما تصف الآية مراحل تطورأسلاف البشر فقط وذلك قبل أن يتم تطويرهم الى إنسان عاقل، ولذلك جاء إجمالهم بلفظ "كل دابة" لان ذلك كان شأنهم قبل العقل، ولكن خصص وصف مشيهم بلفظ يستعمل مع الإنسان فقط حتى يلمح لصلة هذه الدواب بالبشر باعتبار ما سيكون! ومهما يكن من أمر فإن هذه الآية تحتاج لتدبرٍ وبحثٍ، ربما من أجيال قادمة يتيح الله لها مزيدا من العلم بأسرار الكون لا يتاح لنا الآن.

وتفسير البغوي ملفت للنظر لما فيه من بعدِ نظرٍ سابقٌ لزمانه، إذ أنه تجاوز الإصرار على ماء الرجل وتجاوز حتى تعميم الماء على المخلوقاتِ الحية التى نراها، فأدخل الملائكة والجن فى مضمون الآية! وهذه لفتة بارعة منه فيها بُعد نظرٍ سابق لزمانه و هو الذى مات سنة 510

هجرية قرونا طويلة قبل أن يكتشف الإنسان ان مكونات الماء من هيدروجين واوكسجين شديدة الاشتعال ويمكن ان تكون مصدرا للنار والنور.

ولعلَّ هذا يدعونا للبحث فى ناموس الكون لنلقي الضوء على بعض الآيات التى طالما اختلف الناس فى فهمها لأنها تدخل فى وصف خواص الملكوت الأعلي وعلاقة الله بالخلق قبل بدء أى خلق فى الوجود لأننا نظن كما يظن البغوي أن خلق الملائكة والجن من ماء يمكن أن يدخل فى تأويل مثل هذه الآيات.

ناموس الكون:

ترد بعض الالفاظ فى كتب الدين تشير الى غموض قدرات الله ولكن لا يدرى معظم الناس معناها اللغوي. من اشهر تلك الالفاظ لفظ "ناموس"! واصل الكلمة من "نمس" وتعني الستر والخفاء. ،الناموس فى المعجم هو صاحب ستر الانسان. و"ناموس الكون" تشير الى القوى الخفية التى تحكم الكون. هذا اللفظ لم يرد فى القرآن ولكن تعارف الناس على استعماله، ونحن نظن ان الله قد ميز ناموس الكون فى القرآن بالعرش والكرسي وهما اداتى حكم الوجود اللتان صرح بهما القرآن.

عرش الرحمن:

تصف اشهر آيات العرش فى القرآن كيف فرض الله سلطانه المطلق على الكون كله بصورة رهيبة مهيبة. احدى هذه الآيات تصف كيف فرض الله سبحانه وتعالي سلطانه على الماء ليكون سر الوجود المطلق، ولكن حتى يسهل فهمها نرتّلها مع آية اخرى مشابهة حتى تفسر احداهما الأخري:

{تَبَارَكَ الذى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ*الذى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} 1-2 الملك.

{وَهُوَ الذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فى سِتَّةِ أَيَّامٍ **وَكَانَ عَرْشُهُ** عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} 7 هود.

أورد الأمام القرطبي فى تفسير هذه الآية حديثا رواه البخاري عن عمران بن حصين قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال: {اقبلوا البشرى يابني تميم} قالوا: بشرتنا فأعطنا "مرتين" فدخل ناس من أهل اليمن فقال: {اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها

بنو تميم} قالوا: قبلنا، جئنا لنتفقه فى الدين، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان؟ قال: {كان الله ولم يكن شيء غيره **وكان عرشه** على الماء **ثم** خلق السماوات والأرض وكتب فى **الذكر** كل شيء}!

هذه الآية وما نسب الى النبي صلى الله عليه وسلم فى تفسيرها تحمل سرا لا يستطيع البشر فهمه تماما، لأنها بطبيعة الحال تصف امراً لصيقاً بالمَلكوت الأعلى الذى يعجز خيالنا عن فهمه، ولكن اذا فهمنا كلمة **عرش** بمعناها المجازي يكون للآية مفهوما أقرب الى صفات الله واسمائه الحسني. "عرش" فى اللغة تعنى السقف، وتستعمل أيضا لتصف سرير أو كرسي الملك، وتستعمل أيضا كبديل لمفهوم السلطان المطلق والمُلك، كأن تقول مثلا "كلّف العرشُ فلانا ليكون وزيرا"! اذا اخذنا معناها الحرفي المجسم وهو مجلس الملك نكون بذلك قد جعلنا لله جسدا ومقعدا يجلس عليه، ويلبس علينا ذلك أن الله كالمخلوق الذى كان مجلسه على سطح الماء فى يوم ما، فنُخضع الله بذلك الى محوري الزمان والمكان، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. أما اذا اخذناها بالمعنى المجازي وهو "السلطة العليا" يكون معنى الآية اسهل للفهم، وهو أنَّ أول ما خلق الله من الوجود كان الماء وفيه نفذت سلطته المطلقة فخلق منها كل الوجود أى "وكان سلطانه أولا على الماء"!

وإذا تدبرنا فى الآيتين معا نجد ان هنالك رابطا لغويا رائعا يجمعهما يؤكد تفسيرنا ويوحي بمزيد من العلم. فالآية الأولى فى سورة الملك افصحت بلفظ {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} ثم انتهت بالتأكيد على قدرة الله المطلقة، ثم مضت الآية التالية فى سورة الملك اعلاه تصف خلق الله للموت والحياة وابرزت الحكمة من ذلك بـ {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}! وهذه الجملة ما وردت فى القرآن كله بهذه الصيغة إلا فى آية الملك و آية هود هاتين! إذاً فى آية "الملك" عبَّر الله عن أن الملك بيده وأنه خلق الموت والحياة {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}! فى آية هود استبدل {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} بلفظ {وَكَانَ عَرْشُه} ليفيد السلطة التنفيذية المطلقة فى الخلق، أى أنَّه لفظٌ أكثر تخصيصا لمفهوم السلطان من لفظ "الملك"، ولذلك كان موضع نفوذ تلك السلطة أيضا أكثر تخصيصا وهو تحديد موضع نفوذها فى الخلق وهو الماء {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}! ولأن عرشه أو سلطته على الماء هى التى خلقت الموت والحياة فقد أتت الجملة التالية منطبقة حرفيا على ما عبَّر عنه بلفظ {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} وليس عرشه على الماء كما فى الآية الأولى {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}! نلاحظ أنه هنا فى آية هود لم يفصح عن خلق الموت والحياة كما فى الآية الأولى، ولكنه ذهب أبعد من ذلك فدخل فى قانون خلق الموت والحياة وهو سلطته المطلقة على الماء، لنفهم أنَّها هى التى تحمل سر الموت والحياة، وكان ختام الآية متسقاً جدا مع هذا المعنى، وهو أنه مضى لمرحلة ما بعد الموت والحياة الى البعث بعد الموت بسلطته على الماء أيضا: {وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}. بمعنى آخر لمَّا وصف الله خلق الموت والحياة فى سورة الملك من غير تفصيل لسر الخلق، استعمل مفهوم {بِيَدِهِ المُلْكُ} وكأنه تعبير عام، ولكن لما وصف السر المباشر فى خلق الموت والحياة وهو "الماء"، استعمل مفهوما أكثر تخصيصا للملك وهو {وَكَانَ عَرْشُهُ}، و"كان" هنا من "كون" أى أنها تعنى "فرض عرشه أو سلطته"، ثم ربط بين الآيتين بالحكمة الواحدة من خلق الموت والحياة من الماء وهو "لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا"، ولما كانت آية العرش أكثر تفصيلا فقد أتى بتافصيل أكثر اشتملت على أنَّ فى الماءِ ايضاً سر البعث بعد الموت الذى يبدو كالسحر للكفار والله اعلم!

حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ينطبق على المعنى ويبسطه لأن تلك حكمة الحديث! ففيه يصف الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله كان وما كان معه شئ وفرض سلطانه على الماء، أى فرض عليه ان يتغير الى اشكال كثيرة ادت الى خلق السموات والارض بعد خلق الماء، ثم بعد ذلك صمم القوانين التى تحكم الوجود "كتب فى الذكر" بما فيها قوانين الموت والحياة ووجود كل شئ، وترجع كل الأصول فى الخلق الى كون سلطان الله المطلق فرض أولا على الماء ليبدأ منها الوجود!

ولعلَّ مزيدا من التشريح اللغوي والعلمي لمصطلح "عرشه" يزيد معنى الآية روعة ورهبة، فالعرش هو السقف أى قمة البناء، واذا افترضنا ان "عرش" هنا تعنى "سلطة وقدرة" فإنها تعنى قمة القدرة ومنتهاها. ولمَّا كانت قدرة الله تعالى لا سقف لها، فإن معنى الآية يمكن أن يوحى بأن الماء هو الذى نال قمة السلطة من الله مقارنة ببقية الخلق وليس أن الله استعمل اقصي سلطته مع الماء، لأن قدرات الله لا نهاية لها. بمعنى آخر فان نصيب الماء من تدخل قوانين الله المباشرة كان أعظم مما نالت بقية المخلوقات، أى قمتها و سقفها وعرشها. هذا التألويل يمثل حقيقة علمية لا جدال حولها، فقد ثبت أن كل ما يمكن أن يخطر على بال الإنسان يدخل فيه الماء بصورة أو اخرى، إذ أن كل نباتات الأرض وما صنع من خشب أو نواتج النبات كان الماء سببا فيه، وكل ما ارتبط بإنسان وحيوان كان الماء جزءاً منه، فضلا عن أن أحدث الاكتشافات العلمية تشير الى أن كل الكون كان من ماء فى بداية خلقه! وما لا يختلف عليه العلماء اليوم ان غاز الهيدروجين هو اكثر عنصر فى الوجود ويليه غاز الهيليم وتتكون معظم كتلة النجوم من هذين الغازين، علما بأنَّ الهيليم يتكون بإلتحام اربعة انوية هيدروجين وهو المكون الأساسي للماء. فضلاً عن ان كل الطاقات التى تتحكم فى حركة الكون من كهرباء و مغناطيس وحرارة وضوء كلها تنتج من تفاعلات موكنات الماء. إذاً فلو وضعنا كل الخلق فى وضع تنازلي من حيث دخول تفاصيل القوانين النوعية المباشرة التى تمثل قدرة الله تعالى، لكان **عرش ذلك** التدخل وقمته بين كل

مخلوقات الكون هو الماء. ولعل هذا الفهم الواسع لعلاقة الماء بخلق كل الكون يدفعنا للنظر بعين فاحصة لهذه الآية التى طالما فهمها الناس فهما مجازياً:

{وَهُوَ الذى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فى فَلَكٍ **يَسْبَحُونَ**} 33 الانبياء.
بناءً على فهمنا العلمي لأنَّ الماء هو اصل كل الكون، فمعني هذه الآية يكون حرفيا وليس مجازيا. أى ان الشمس والقمر وما ينتج من الشمس من نور النهار وظلام الليل كلهم يسبحون فى ماء الكون. نحن الآن نعلم ان الماء له ثلاثة اشكال فيزيائية هى السائل والغاز والثلج ولكن لما "كان عرشه على الماء" تعنى ان الماء له الحظ الاعلي من تدخل قدرات الله فإن اشكال وجود الماء لهي اكبر من الغاز والثلج، اذ ان كل الطاقات الكهرومغناطيسية التى تتحكم فى حركة الكون ليست الا من نواتج الماء وما يتحرك بها وبينها فهو بلا شك يسبح فى ماء الكون بشكل او بآخر من اشكاله التى لا يعلمها الا الذى كان عرشه عليه! ومن هنا يمكننا ان نمد ايدينا عبر القرون لنشد على يد الامام البغوي رضي الله عنه فى جراءته فى وصف خلق الملائكة والجن من ماء!
هذا الفهم يحل إشكالا كبيرا للمفسرين، إذ أن هناك أسئلة لا إرادية تطرأ على نفس القارئ حينما يفهم "العرش" بمعني مجلس الملك أو الكرسي، و هى التساؤل عن أين كان عرشه قبل أن يكون على الماء وأين ذهب عرشه بعد الماء، مما يطيش بالخيال فى متاهات تهدد عقيدة الإنسان لأنه يبدأ فى أن يتخيل الله وعرشه بصورة مجسدة مادية، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا! وليس سرا أن الكثيرين قد فُتنوا بالمعنى المجسد لهذه الآية فى مراحل مختلفة من التاريخ الإسلامي وما زالوا يُفتنون. فهم العرش بمعنى السلطة والقوة يجعل فهم كل الآيات التى ورد فيها لفظ "العرش" منطقياً و سهلا جدا، مثل هذه الآية:
{ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ}20 التكوير. "فذي العرش" هنا تعنى ببساطة صاحب السلطان الأعلي والقوة التى ليس فوقها قوة.

الـكُرسـي:
ولما كان الحديث عن العرش ولا شك سيجر الى الذاكرة آية الكرسي التى تسبب إشكالا كبيرا للكثيرين، نظن أنه من واجبنا أيضا أن نشرحها بذات الطريقة وبفضل آذان الأنعام علينا، والذي دلنّا على فهم لغة الغراب ومن ثم فهم كل الآيات اعلاه بصورة جديدة لنستقي منها علوماً مذهلة عن طبيعة الكون التى ما كان لها ان تُفهم قبل زماننا هذا:

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَنْ ذَا الذى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} 255 البقرة.

لا غرابة أن المفسرين قد اختلفوا اختلافات كثيرة فى تفسير مفهوم "الكُرسي" وقد وجدنا أقرب تلك الآراء الى ما ذهبنا اليه من تفسير العرش بالسلطة المطلقة هو تفسير ابن عباس الذى أورده ابن كثير فى تفسيره وهو أن **الكرسي يعنى العلم!** أغلب الظن أن مصدر كلمة كرسي فى اللغة هو من **كَرْسِ** وهي تعنى تلبُّد الشئ حتى لا توجد فيه فراغات وتجاويف، ومنها كلمة "الكُراسة" التى يكتب عليها التلاميذ، وقد سميت "كُراسة" لتلبد وتداخل صفحاتها، ومنها " كَرَّسَ" جهده، أى بذل أقصاه من غير تساهل أو تراخ وكأنه ضغطه ضغطا. والكرسي الذى نجلس عليه يسد الفراغ بين الجسد والأرض تماما ويجعله متصلا بالأرض.

الآية تعتبر أعظم آية فى كتاب الله كما ورد فى الأحاديث، وهي تصف سيطرة الله المطلقة على كل شئ فى الوجود، وإحاطة علمه بكل خبايا الكون. هذا المعنى العام لا يختلف عليه اثنان ولكن روعة القرآن تكمن دائما فى تطويع اللغة العربية لتقوم بتوصيل المعاني المجردة بصورة مجسمة يسهل فهمها، وفي نفس الوقت تكشف حقائق علمية عن طبيعة الكون غالبا ما تكون خافية على العامة. فإذا قبلنا مفهوم "الكرسي" بأنه مشتق من التلبُّد والتداخل من غير فراغات وتجاويف، نجد الآية ترسم لوحة فنية مذهلة عن حقيقة الكون! الى عهدٍ قريب كان مفهوم الهواء غائبا عن فهم الإنسان الذى يظن أن الكوب الذى لا ماء فيه فهو فارغ، ولكن بتطور العلوم اكتشف الإنسان أنه لا توجد فراغات فى الكون. فكل شئ فى الارض موجود داخل مساحة من الهواء الذى يتكون من غازات أشهرها على سطح الأرض هى غازات الأكسجين وثاني اكسيد الكربون والنيتروجين! هذا يعنى أنه بينك وبين أقرب جسم لك سواء كان منضدة أو حائطا لا يوجد فراغ وانما كل خلية فى جسدك الآن على اتصال تام بكل ما حوله عن طريق الغازات التى تكون الهواء غير المرئي، وبالتالي فإنّ كل الموجودات على الأرض إنما هى موجودة فى وسط **مُكَرَّس** يحيط ويلتصق بها من كل جانب، تماما كما لو تخيلنا أننا نسكن فى وسط البحر وتلتصق بنا مياهه من كل مكان. إذا صعدنا فى السماء تتغير نوعية الغازات ولكن لا توجد فراغات وإنما تحل محل الغازات تدريجيا طاقات خفية غير مرئية من طاقات مغناطيسية وأشعة وموجات صوتية وضوئية وغيرها من أسرار الكون التى لا يعرفها إلا الله تعالى. اذاً فكل الكون مُكَرَّس و متصلٌ ببعضه اتصالا مباشرا من أدني ذرة فى أى مكان فى الأرض الى أعلى مكان فى السموات العُلا! استعمال لفظ "الكرسي" والتي تعنى نظام التلبُّد والاتصال من غير فراغات الذى صممه الله،

توحي بأن الله خلق كل هذا الوجود متداخلا ومتصلا ببعضه بعضا، وإن كنَّا لا نرى القوى الكهرومغناطيسية التى تحافظ على الكواكب والنجوم فى مداراتها كما لا نرى الهواء الذى يملأ المساحة بيننا بعضنا مع بعض ومع ما حولنا من مجسمات، ولكننا نعلم أن الله وصف السموات بأنها مرفوعة بعمدٍ لا نراها وانها متصلة من غير فروج: {الذى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} 3 الملك! وآية الكرسي تشير الى أن الله متحكمٌ فى كل هذا الوجود بسماواته وأرضه بصورة مباشرة مادية متصلة مع بعضها البعض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم! إذاً فالكرسي الذى وسع السموات والأرض ليس مقعدا ذا أربعة أرجل كما يخطر على خيال الإنسان من طبيعة استعمالنا لكلمة كرسي فى حياتنا اليومية، إنما هو وصف لكرس الوجود وعدم وجود فراغات فى أى مكانٍ فى الكون لأن الكون خلق مكرَّسا أى مُتَلَبِّدا ومتصلا من أقصاه الى أقصاه، وخلق الله فيه قوانين نوعية تتحكم فى كل ذرة وما يليها ويخضع كل الكون لنظام الكرس الذى صممه الله تعالى. ولأن هذا الوصف يثير فى النفس رهبة وقشعريرة فى الجسد من مجرد محاولة تخيل عظمة الكون، فقد كانت بداية و نهاية الآية منطقية جدا وهي ان الله لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يرهقه التحكم فيه وهو العلي العظيم.

من المهم جدا ان نذكر هنا ان القرآن لم يصف فى أى آية ان الله خلق العرش او الكرسي، او صنعهما او أى شئ من هذا القبيل الذى يجعلهما جسدا او مادة كما وصف انه بنى السماء وجعلها سقفا. هذا يؤكد ان الفاظ العرش والكرسي ليست الا الفاظاً تصف النظام الذى يحكم الكون تسهل على عقل الانسان التدبر فى قدرات الله، كما نتدبر فى صفاته: الرحمن الرحيم الملك الحكيم العليم.... من غير ان يصف صفاته بانها مخلوقة لانها صفات ومفاهيم مطلقة وليست مجسدات.
إذاً فلا العرش عرشاً كما فهمنا ولا الكرسي كرسيا، وبطبيعة الحال يصبح استواؤه على العرش ذا مدلول جدير بالبحث. ولا يخفي على الناس أن الاختلاف فى فهم آية: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} 5 طه قد ادى الى ان يكفر بعض المسلمين بعضهم، وقد اشتهر عن الإمام مالك رضي الله عنه قوله "الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة"، ونحن نحمد الله ان يسر لنا ان نأخذ برأي الإمام مالك نفسه حينما قال "كل ابن آدم يؤخّذ ويرد فى كلامه الا صاحب هذا القبر" مشيرا الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم. ونحسب اننا قد وُفِقنا فى الوصول الى فهمٍ يُخرج المسلمين من الحرج فى محاولة فهم هذه الآية! وسنقوم بتفسير ذلك بعد ان نفسر سر القلائد ومقاليد السموات والأرض وأسرار البيت العتيق و خلق السموات والارض و سدرة المنتهي فى آخر هذا الكتاب باذن الله.

ولعل فهمنا لآية الكرسي بهذا المعنى يفسر كثيرا من الظواهر الكونية الخفية التى قام عليها نظام انتقال الصوت والضوء و الموجات الكهرو مغناطيسية والتي بدورها أدت الى اختراع التليفزيون والراديو والهواتف المحمولة والانترنت والرادارات واجهزت التحكم البعيد إذ أنها جميعا تبدوا وكأنها غير متصلة مع مصدر إرسال المعلومات، ولكن فى حقيقة الأمر فالكون كله متصل لأن كرسيه وسع السموات والأرض! وأيضا يمكن للإنسان البسيط إذا فهم آية الكرسي كما فسرنا، أن يفهم أن الطائرات لا تطير فى فراغ وإنما تنتقل عبر وسط سميك قادر على حملها رغم ثقلها المتناهى، فقط عندما يفهم الإنسان تلك القوانين التى تحكم كل وسط ثم يسخرها لخدمته، كما فهمت الجاذبية الارضية من "تفاحة نيوتون"! ولعله من المفيد ان نذكر ان كل هذه القوانين المتصلة ببعضها بعضا هى الملائكة او الرسل التى سجدت واخضعت لعقل آدم حينا طوره الله لانسان عاقل فاصبح فى مقدوره اكتشافها والتحكم فيها كما هو حالنا اليوم.

ولعلَّ آية الكرسي تفسر بكل بساطة ظاهرة المد والجذر التى تتعرض لها كل المسطحات المائية، بل وحتي تركيز الماء فى خلايا جسم الإنسان، بحركة القمر وبقية الكواكب فى الفضاء. فكثير من الناس يصابون ببعض الاضطرابات النفسية عند اكتمال القمر نتيجة لاضطراب التركيز الكيميائي فى خلايا أجسادهم. هذا ليس إلا دليلا على أن نظام الكرس الذى يتحكم فى الكون يعنى إتصال كل الموجودات مع بعضها البعض، وإن كنّا لا نستشعر ذلك الاتصال الا كنتيجة لحركة الأجرام الضخمة فى الفضاء كالقمر.

نحن لا ندعي أن تفسيرنا هذا هو عين ما عناه الله، ولكننا فقط أردنا أن نطرح رأيا يدفع الناس فى زماننا ومن بعدنا لفهم الكون فهما صحيحا و محاولة فهم آيات خالق الكون بقدر ما علّمنا الله بالقلم فى أى عصر من العصور. قصدنا أن نبرز المعاني الخفية لهاتين الآيتين لأن فهم الخلق لا يستقيم إذا كان الإنسان يعاني من تشويشٍ فى فهمه لقدرات الخالق المطلقة فى الخلق. فلعل الكرسي والعرش ليسا إلا مصطلحات سُخِّرت لتعكس أبعادا لقدرات الله يصعب على الإنسان استيعابها إذا وصفت بألفاظ بسيطة.

من هنا نفهم أن سلطات الله المطلقة لا تحدها حدود ولا يستوعبها خيال، ولكنه سبحانه بدأ خلق الوجود بنظام دقيق يمكننا أن نتدبر فيه ونكتشف تلك القوانين التى تتحكم فيه ونطوعها لخدمتنا، وقد خلق الله الماء قبل خلق السموات والأرض ثم نفذت إرادته فيه، ومنه أوجد الوجود وبطبيعة الحال جعل من الماء كل شئ حي بصورة مطلقة.

والمعروف من علماء الطبيعة أن الأرض لما خلقت كانت مغمورة بالماء ثم بدأت قيعان البحار تتشقق فانساب إليها الماء لتظهر اليابسة، وكان أول ما ظهر من تحت الماء هو موقع البيت العتيق كما سنناقش ذلك فى باب "سدرة المنتهي" من أسرار بكة. ولكن ما يمكن أن نخلص إليه هنا أن

سر ارتباط الحياة بالماء أكبر بكثير من أن نفسر كل آية ذُكر فيها خلق الانسان و الحياة من "ماء" بأنها تشير الى ماء الرجل أو السائل المنوي.

إن فهم أئمة السلف لكثير من آيات القرآن لم يعكس إلا حظهم المتواضع من فهم الظواهر الكونية آنذاك، ولكن لا يعقل لا منطقا ولا دينا أن نصرَّ فى زماننا هذا، بعد أن وقف الإنسان على كمٍ هائل من آيات الكون، على رفض الاستلهام بالحقائق العلمية فى إعادة فهم وتفسير ما كان غامضا من القرآن. لا يعقل أن نردد أن القرآن صالح لكل زمانٍ ومكانٍ ثم نصر أن نفهمه فقط بمنطق الإنسان الذى عاش قبل مئات القرون ظنا منا أن فى ذلك عبادة لله واتباعاً للسلف! وانه لجهلٌ عظيم أن يتحدث خطيب من الشرق الأوسط فى التلفاز ويحاور على الهواء مباشرة شخصا فى أندونيسا وآخر فى امريكا ليفتى بأن اكتشافات العلماء غير المسلمين لا يؤخذ بها فى فهم القرآن، علما بأن المناظرات التليفزيونية التى نراها يوميا ليست إلا شرحا عمليا كيف وسع كرسيه السموات والأرض، وكل الأجهزة التى نستعملها تخضع لنظام الكرس وانها كلها تتحرك وتتصل عن طريق رسل او ملائكة اخضعت لعقل آدم، ولم يكن اكتشافها إلا آيات من آيات الله الكونية التى يهب العلم بها لكل مجتهد وإن لم يكن مسلما. مثل هذا التصرف ليس براءة من اكتشافات غير المسلمين وانما إنكار لآياتٍ كونية وقف على صحتها المسلم وغير المسلم من الناس، بنو آدم، البشر الذين خاطبهم الله فى القرآن بحجج كثيرة من غير اشتراط إسلامهم للوقوف على آيات الله وقبول حجته، ومثل هذا المنطق لن يؤدي إلا الى إماتة ديننا فنصبح كالحمار يحمل أسفارا.

ونختم تفسيرنا لآية " خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا... " وهي الأصل فى كل هذا الحوار بأن نقول: إن تفسيرنا لها كما سبق لا يؤكد تفاسيرنا السابقة فى قصة آدم فحسب وانما يفتح بابا واسعا لتزواج العلم الحديث مع القرآن، بل ويرفع من شأن القرآن الذى سبق العلماء فى وصف أصل الخلق وقوانين الطبيعة! فقد ظن علماء الطبيعة منذ فترة من الزمان أن بشائر الحياة بدأت من الماء بظهور خلية حية واحدة بصورة ما، ثم بدأت تتزاوج و تنقسم بذات الطريقة التى تنقسم بها الخلايا اليوم الى أن تكونت كائنات من ملايين الخلايا، ولأن كل خلية فيها حمض نووي "امشاج" قابل لأن يطفر فقد بدأت هذه الكائنات تأخذ أشكالا مختلفة عبر ملايين السنين، متأثرة بظروف الطبيعة وخاضعة لإرادة العلي القدير على التغيير، فمنهم من ظل منتسبا الى أصله فى سلم التطور ومنهم ما انصهر وتغير الى أشكال اخرى، الى أن امتلأت الأرض بالكائنات الحية التى استمرت فى التطور الى أن كونت الأحياء والمخلوقات التى تذخر بها الأرض اليوم من إنسان ونبات وحيوان.

وقد نشر فى مجلة الطبيعة العلمية فى مايو 2006 أن آخر اكتشافات العلماء وهم يحللون الحمض النووي لما يُظنُّ أنها عظام أسلاف الإنسان وأسلاف الشيمبانزي وهو من أقرب الحيوانات للإنسان شكلا ومن أقربهم فى تركيبه الجيني، اكتشفوا أن الطفرة او انصهار الجينات أو الامشاج بدأت تظهر قبل أربع ملايين وأربعمائة ألف سنة، واستمرت فى التغيير تدريجيا الى أن أصبح لكلٍ حمضه النووي المميز قبل حوالي مليون ومائتي ألف سنة، ومن ذلك الحين صعد كِلا المخلوقين سُلَّماً مختلفا من سلالم التطور، الى أن طفر الله بالبشر بأن نفخ فيه من روحه ونقله الى إنسان عاقل قبل نحو سبعة آلاف سنة كما وصفنا فى باب " قصة التطور" و "قصة الخلق"و"الحلقة المفقودة" سابقا.

ولا بد أن ننوه هنا الى أن هناك فرقاً كبيراً بين قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...} 13 الحجرات، وما تشير إليه هذه الآية من إجمال الخلق. مما لا شك فيه أن البشرية اليوم تنحدر من آدم المصطفى نبي الله الأول عليه السلام كما ناقشنا ذلك فى قصة اصطفاء الرسل فى باب "سفينة نوح"، بل إن البشرية تنحدر أيضا من ابٍ ثان وهو نوح عليه السلام والذي كان من ذرية آدم المصطفى. إن وصف الناس بأنهم خلقوا من ذكر وانثى هما آدم وحواء، لا يتعارض مع وصف الأصل الذى خلق منه آدم نفسه من خلية "ازدوجت" فى بداية التطور قبل ملايين السنين حين لم يكن الإنسان شيئا مذكورا، سبقت عملية جعل الذكر والانثى الذى نتج منه مؤخراً الزواج بين آدم وحواء بعد أن جعل الله جنس آدم خليفة فى الأرض.

ولا يخفي علينا بعد ان اكرمنا الله بالوقوف على كل اسرار الخلق والتطور هذه، ان الحكمة الالهية اقتضت ان يكون مفهوم التطور قانونا فرديا يمر به كل انسان جديد، ابتداء من تكونه من خلية تمر بمراحل الانقسام الأولى قبل ان يتكون الجنين، مرورا بالمراحل المختلفة للحركة من زحف على بطنه الى حبو على اربعة قبل ان ان ينشأ الطفل ويتمكن من المشي على اثنين. وبالطبع فان اكتساب العلوم رحلة طويلة تبتدئ منذ تكون الجنين الذى تلتقط حواسه كثيرا من الاحداث المحيطة به ويستمر فى رحلة تعليم مستمرة الى اكتمال العقل سنوات بعد ميلاده. على ان التكليف الشرعي الذى يتزامن مع النضج التام للعقل يرتبط ارتباطا وثيقا ببلوغ الحلم، أى النضج الجنسي ليتزامن بدء تكليف كل انسان عاقل مع مرحلة تكليف آدم حينما كان اول تشريع لهم على الاطلاق هو اجتناب الشجرة!

لقد أسهبنا فى إبداء رأينا فى شرح تفاصيل هذه الآية المذهلة لأنها تفتح بابا جديدا لا حدود له من البحث العلمي، إذ أن افتراض العلماء أن "كل شئ حي" يرجع الى أصل واحد هو خلية واحدة

خرجت من الماء ثم انقسمت الى زوج، يمثل نقطة خلاف فاصلة بين الدين والعلم فى الغرب والشرق سواء بسواء. ونحمد الله الذى هدانا لهذا التحليل لأن الآية هنا لا تشير الى احتمال تأكيد هذا الافتراض العلمي فحسب وإنما تصحح علماء الطبيعة فى اخطائهم مما يجعل القرآن دائما سابقا لاكتشافات الانسان، وذلك **باستثنائها للأنعام** من قانون الخلق هذا، ليظل السرالذي أودعه الله فى آذانها كنزا من العلوم يجعل من القرآن معجزة تتجدد كل يوم فى حياة العلماء والانسانية جمعاء. وحتي يسهل على القارئ استيعاب كل ما ذكرنا الى الآن فى امر الخلق يستحسن التدبر فى لوحة "الخلق والتطور" فى آخر هذا الكتاب!

لو كان ذكر نزول الأنعام فى القرآن فقط فى تلك الجملة الاعتراضية بلغة الغراب لكفتنا، ولكن قصة نزول الانعام فيها أسرار كثيرة ويبدوا أنها ارتبطت بكل جوانب حياة الانسان الأول وبعقيدته، وبعلاقته مع الشيطان أيضا مما يستوجب دراستها بمزيد من التفصيل.

رأينا كيف ربط الله تعالى بين الأنعام و التحذير من الشرك فى مناسك الحج عندما تدبرنا آيات الحج، ثم رأينا كيف ربط الله تعالى بين خلق كل الاحياء ونزول الأنعام بصورة غامضة، و سر الأنعام فى القرآن أكبر من أن نعطيه حقه من البحث مهما اجتهدنا، ولكن سنحاول هنا أن نلقي بعض الضوء على خلقها من ناحية وعلي الفوائد العلمية من فهم خلق الأنعام.

خـلق الأنـعام:

بعد أن رأينا أنها خلقت خارج الأرض ونزلت مخلوقة، نجد أن القرآن قد وصف أن خلق الأنعام كان متميزا جدا:

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا **عَمِلَتْ أَيْدِينَا** أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} 71يسن.

فى تفسير هذه الآيات تجنَّب الامام ابن كثير والإمام الطبري والإمام القرطبي الإشارة بأي شكل من الاشكال لـ "...مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا... " ، ومضوا مباشرة لشرح الجزء الأخير من الآية، أما صاحب الجلالين والبغوي فقد وصفا أن المقصود هو "أننا خلقناها بلا شريك ولا معين" وهذا التفسير ليس فيه جديد إذ أن الله تعالى خلق كل شئ بلا شريك أو معين. على أن صاحب تفسير فتح القدير انتبه الى مفهوم "**..** عَمِلَتْ أَيْدِينَا**..**" فقال إنَّ عمل اليدِ فيه تخصيصٌ فى الإبداع، وهذه لفته قيمة منه إذ أن وصف خلق الأنعام بأنها من عمل يد الله فيه دلالة واضحة على أن فيه استثناء مقارنة ببقية الخلق، ولم يرد فى القرآن ما يشابه الأنعام فى أنه خُلق بيدي الله الا الانسان كما فى قوله:

{قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا **خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ* قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} 74-75 ص!

نلاحظ تشابه الإنسان والأنعام فى أنَّ يدَ الله كانت العامل المباشر فى خلقهما ولكن الفرق أن القرآن وصف الانعام بأنها "..عَمِلَتْ أَيْدِينَا.." بينما وصف خلق الانسان بـ " ..خَلَقْتُ بِيَدَيّ َ.."!
عمل: تعنى كلَّ فعلٍ يُفعل، أى أن معناها معنى عام فى تنفيذ الفعل!
خلق: لها اصلان الأول تقدير الشئ والثانى ملاسة الشئ، ومنها صخرة خلقاء يعنى ملساء.
من هنا نفهم أن القدرة الإلهية قد تدخلت مباشرة لخق الإنسان والأنعام بصورة متميزة خارجة عن قانون الطبيعة الذى صنعه الله، ففي حالة الأنعام وصفت الآية أنها خُلقت بعمل يد الله، وعمل اليد أقل تخصيصا من "خلق اليد"، إذ أن لفظ "خلق" يحمل مدلولا أعمق فى الإجادة والتخصيص من العمل! ولمَّا كنَّا نعلم الآن أن الله تدخل مباشرة ونفخ فى الإنسان ناقلا إياه الى مخلوق عاقل خارج سلم التطور الذى صعد عليه من مخلوق أدني كبقية المخلوقات، فان سر الانعام يصبح أكثر تعقيدا للفهم! فهى أولا خلقت خارج الأرض ونزلت فى شكل ثمانية ازواج، وهي ثانيا "عُمِلت" بيد الله مباشرة كالانسان ولكنه جعل خلقها أدنى درجة من خلق الإنسان، إذ أن الله وصفه بأنه عمل اليد وليس خلق اليد، وهي أيضا تدخل فى استمرارية حياة وخلق كل إنسان جديد يعتمد فى غزائه على لحومها وألبانها.
وحتي يزيد الأمر غموضا وروعة فيما يخص الأنعام المستثناة من قانون خلق الأحياء على الأرض يدعونا القرآن الى التدبر فى خلق احدى تلك الأنعام التى أنزلت:
{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ } 17 الغاشية.
الغريب فى هذه الآية انها الآية الوحيدة التى أشارت الى مخلوق حي فى كل سورة الغاشية التى أشارت الى رفع السماء وتسطيح الأرض ونصب الجبال، وكأن خلق الإبل أو الأنعام قد تمَّ بنظام يختلف عن بقية الأحياء على الأرض أشبه بخلق الجمادات. هى آية تستجدى علماء المسلمين للبحث فى طبيعة خلق الابل وحتما سيكتشف الإنسان شيئا غريبا يجعل من "آذان الإبل" بحرا من علوم الدين والدنيا.
ونحن نظن أن العلم الذى وقف على كثير من خصوصيات خلق الإنسان لا بد أن يكتشف يوما أن خلق الأنعام فيه اختلاف كبير من بقية مخلوقات الأرض الأخري، وهذا يوحى بشئ من التشابه او التكامل بين خلق الإنسان والأنعام، حتى ولو لم نستطع نحن أن نكتشف أوجه التشابه إذ أن ذلك ربما يكون فى الروح وسر الحياة وليس فى الجسد.

بهيمة الانـعام والشـرك

مما سبق يمكن ان نفهم الحكمة من تكرار التحذير من الشرك كلما ذكرت الانعام فى القرآن، اذ أن الشيطان كان حريصا منذ وجود الانسان العاقل ان يجعل من الانعام مادة دسمة لشركه. وهنا

لا بد ان نلفت الانتباه الى ان الآيات اعلاه التى وصفت ان الانعام خلقت مما عملت ايدي الله اكدت على التحذير من الشرك وكأن الانسان كلما اقترب من معرفة اسرار الانعام كلما اوشك ان تختلط عليه الامور بين الخالق والمخلوق! وحتى نفهم تلك الصلة بين الانعام وشرك الانسان بها نفضل ان نقسمها الى خمسة مراحل وفقا لتسلسلها التاريخي:

1. آذان الانعـــام.
2. النعاج الحُمَّـل.
3. البلاء المبيـن.
4. العجل الذهبي والبقرة الصفراء.
5. ملكة جمال الهند.

1. آذان الانعــام:

لاحظنا الصلة الوطيدة بين الأنعام ومناسك الحج حينما درسنا مناسك الحج، ولكن هنا نراجع بعداً آخر لنفس الآيات للبحث فى سر الأنعام:

{لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا **رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ* ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ* ذَلِكَ **وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ** فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ **وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ** إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا **الرِّجْسَ** مِنَ **الْأَوْثَانِ** وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ***حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ** بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تهوى بِهِ الرِّيحُ فى مَكَانٍ سَحِيقٍ* ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ* **لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ*** وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا **رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} 34-27 الحج.

هذه الآيات ارتبطت بوصف الحج فى عهد إبراهيم عليه السلام. من الملاحظات الغريبة فيها أنها تكرر ذكر الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام مرات عديدة هنا، وكأن الإنسان يسافر من أقاصى الأرض الى مكة ليذكر الله فقط على بهيمة الأنعام! بل الآيات تكاد لا تذكر أى نعمة اخرى من نعم الله على الإنسان والتي لا تعد ولا تحصي، غير بهيمة الأنعام وما ارتبط بها من منافع. والملاحظة الثانية أنها أكثرت من التحذير من الشرك، علما بأن من يذهب الى الحج يفترض أنه غير مشرك أصلا، فما هو السر فى علاقة الانعام بالبيت العتيق من ناحية و بالشرك من ناحية اخرى؟

لفك غموض هذه الآيات لا بد أن نركز على الألفاظ التى استعملها الله فى الاشارة الى الأنعام لأن فيها اختلافا ذا مدلولات كبيرة:

أ. نلاحظ أولا أن لفظ "**بَهِيمَةِ**" ورد فى الآية الأولى التى ارتبطت بأيام الحج، ثم بالآية الأخيرة والتي أيضا ارتبطت بمناسك الحج، ونلاحظ أيضا أن كلمة "بهيمة" أتت مسبوقة بلفظ "رَزَقَهُمْ" فى الموضعين.

ب. فى الآية الأخيرة يتضح أن مناسك الحج هذه هى التى مورست فى عهد إبراهيم لأنها جعلت لكل أمة منسكا، مما يدل على أن لفظ "بَهِيمَةِ" يأتى مقترنا بالأنعام حينما ترتبط بحج قوم إبراهيم ومن قبلهم فقط، إذ أنه لفظ يدل على لغة تصويرية قديمة، أى ان لفظ بَهِيمَةِ فى القرآن ليس الا من مصطلحات "لغة الغراب".

ج. عندما وصفت الأنعام بأنها من حرمات الله جاء وصفها بـ "وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ" وليس "بهيمة"، وهنا حذَّر الله من الرجس من الاوثان وحذَّر من الشرك تحذيرا مغلظا وكأنه هنا يطلق حكما عاما وتحذيرا من الشرك مرتبطا بالانعام وليس مرتبطا بأُمَّة محددة، أى أن لفظ "الْأَنْعَام" لوحده من مصطلحات "لغة الهدهد"، لأنَّ الله يستعمله إذا كان الخطاب موجها الى امَّة متأخرة وليس الإنسان الأول. ومن هنا يمكن أن نستخلص أول مفتاح نفسر به غموض السر فى آذان الأنعام:

بهيمة: الأصل فيها "بهم" وهو الشئ الغامض الذى لا يعرف الناس كيف يتعاملون معه، ومنها "أمرٌ مُبهم"، والصخرة الملساء التى لا خرق فيها تسمى البُهمة بضم الباء! و"البهيم" أيضا هو اللون الصافى الذى لا يشوبه لون آخر، ومن ذلك الليل البهيم أى حالك السواد.

انعام: أصلها من نعم وهو طيب العيش والرفاهية. ومفرد أنعام هو "نِعَم" وسميت الأنعام بهذا الاسم لأنها ارتبطت بالخير للإنسان والترف.

نلاحظ من اسم الأنعام أنه اسم "عملي" أى أنه صفة يطلقها من استفاد من نعمة الانعام بركوبها ولحومها وألبانها ومشتقات ألبانها من جبن وسمن وغيرها من الفوائد. أما من لا يعرف فوائدها أو لا يحتاج اليها ففى الغالب سيطلق عليها اسماءها المختلفة للتمييز فقط وهي الإبل والبقر والضأن والماعز، تماما كما نسمى الكلب والقط والفأر وغيرها. أما من لم ير هذه الانعام من قبل مطلقا ولم يسمع بوجودها فى الأرض فهى فى نظره "بهيمة"، بمعنى "غامضة وغير مفهومة" وربما تكون "بهيمة بهيمة" إذا كانت غامضة ولونها واحد صافى، كأن تكون صفراء فاقعٌ لونها مثلا!

من هنا يمكننا أن نفهم أن الأنعام لما نزلت، نزلت فى زمان لم يكن الإنسان يعرف ما هى، ولذلك وصفها بأنها غامضة أو مخلوق مبهم. ومن هنا أيضا نستنتج أن الله تعالى يصفها بـ **بهيمة الأنعام** حينما يربطها بمناسك الحج، ليخبرنا أن هذه الأنعام نزلت لأول ناس سكنوا حول هذا البيت، و

كانت فى نظرهم مخلوقا مبهما غامضا، وهذا ما نعنيه بأن لفظ "بَهيمَةِ" فى القرآن يشير الى "لغة الغراب"، أى اسلوب تعبير وفهم الإنسان الأول. ولكنه حينما يحلها لبنى آدم عموما فانه يصفها باسمها المعلوم وهو الأنعام لأنها... وبمجهود الشيطان، أصبحت حيوانا مألوفا لنا وليست بهيمة، إذ انه أنْسَانا انَّها مخلوقات سماوية منزلة!

واستعمال كلمة " بَهيمَةِ" على لسان حال الإنسان الأول يحل لغزا كبيرا للإنسانية جمعاء فى قصة آدم والجنة، فالبهيم هو الغريب الغامض، واذا كان الإنسان على الأرض قد رأى الأنعام وحدها "بَهيمَةِ"، فهذا يعنى أنها كانت الشئ الغريب الوحيد فى عالمه، ولكنه لم ير الغراب بهيماً مثلا إذ أنه كان مألوفا لديه! وإذا كان هذا الإنسان لم يُعرف عنه أنه استغرب وجود أى من المخلوقات التى على الأرض ما عدا الأنعام التى نزلت، فهذا يعنى أنه كان معتادا على كل مافى الأرض ما عدا الذى نزل بنصِّ القرآن! من هنا نستنبط دليلا اضافيا على أن مجموعة آدم أصلا ما نزلت من السماء، وانما كانت فى الأرض قبل ان يُطوِّرها الله الى انسان عاقل، وكانت معتادة على مخلوقاتها وحيواناتها يفترس ويصارع بعضهم بعضا، ولكن لما نزلت لهم مخلوقات جديدة من السماء لخدمتهم كانت "بهيمة" فى نظرهم، لأنها هى الغريبة على الأرض وليس هم.

وأبلغ من ذلك مدلولا أن وصف الأنعام بلفظ "بَهيمَةِ" ربما يحدد الجيل الذى نزلت له من بنى البشر! فالأنعام ظلت أقرب صديقٍ للإنسان من كل عالم الحيوان منذ أن نزلت، إذ أنها أليفة وديعة ومذللة للإنسان وتعتمد عليه فى حياتها، ولا يكاد مجتمع الى اليوم يستغني عن فوائد الأنعام من لبن ولحوم فى البلدان المتطورة وجلود وظهور فى بقية بلدان العالم. هذه الصلة الوطيدة تدل بطبيعة الحال على أن الانعام كانت غامضة وبهيمة فقط فى نظر الجيل الإنساني الأول الذى عاصر طور ما قبل "النفخ" وما بعده وعاصر نزول بهيمة الأنعام. أما ابناء الجيل الأول من الانسان العاقل فقد نشأوا والأنعام صديق الإنسان الأقرب من حيوانات الأرض، وبالتالي فإنها لم تكن غامضة عليهم. إذاً فالتسمية بـ "بَهيمَةِ" يمكن أن تنطبق فقط على الجيل الذى نزل من جنة المأوى الى وادى المزدلفة وليس أبناءه الذين وُلدوا من ذرية مجموعة آدم بعد التطور. هذا المعنى يكون أكثر وضوحا إذا ضربنا مثلا بجيل الآباء فى يومنا هذا الذين ما أتيحت لهم فرصة للتعامل مع الكمبيوتر والإنترنت فى صغرهم، والذين يتعاملون معها بحذر لأنها غامضة فى نظرهم أو "بهيمة" على عكس ابنائهم الذين يتعاملون معها وكأنها من ضرورات حياتهم اليومية.

هذا الافتراض تؤكده لنا آية اخرى من آيات القرآن وهي غامضة جدا، ولكن اذا فهمنا سرها، ربما تحدد لنا بالضبط أين ومتى نزلت أول ثمانية ازواج من الأنعام، وتكشف لنا لم صب إبليس جـامَّ غضـبه وحـقده على "آذان الأنـعام":

{إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا*لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا*وَلَأُضِلَّنَّهُمْ **وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ** وَلَآمُرَنَّهُمْ **فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ** وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا*يَعِدُهُمْ **وَيُمَنِّيهِمْ** وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} 116-120 النساء!

الظاهر أن هذه الآيات ربطت انحراف عقيدة الانسان الى الشرك بالله، ببقية الحوارالذى دار بين الله والشيطان حينما تمرد إبليس على الله و رفض السجود لآدم فطُرد من رحمة الله، فتوعد باحتناك من يستطع من ذرية آدم. والمعروف أن القرآن ما نقل حوارا بين الله تعالى وابليس إلا ما تم قبل طرده من رحمة الله عند رفضه السجود لآدم، مما يؤكد أن هذا ليس إلا امتدادا للحوار الذى ارتبط بقصة السجود لآدم! إذاً من المنطقي جدا أن نفترض أن إبليس الذى لا يعلم الغيب، كان قد رأى نزول الأنعام لخدمة وهدي الإنسان، لذلك جعل من أول اهدافه ان يُلْبِس على الانسان فى علاقته بهذا المخلوق البهيم الذى أنزل له! ولما كان الحوار حول السجود لآدم وما أدى اليه من تمرد إبليس وطرده من رحمة الله، قد دار بين ابليس ورب العرش العظيم حينما كانت مجموعة آدم ما زالت فى "منى"، ولم تسكن بعد الجنة فى عرفات كما رأينا ذلك فى "باب الحج"، فاننا نفترض والله اعلم أن الأنعام كانت قد نزلت هناك وفي ذاك الحين، لذلك نجد أن إبليس قد جعل من اولى اهدافه أن يفتن الإنسان فى فهمه لها وتعامله معها. وربما تكون هنا أيضا إشارة مدهشة الى ارتباط الضحية بمنى لان يوم عيد الاضحى وهو يوم رمي الجمرات يحين عندما يصل الحجيج الى "منى". إذ أنه من المنطقي جدا أن الإنسان الأول ذبح أول بهيمة له فى "منى" حيث نزلت وبدأت ترعى، وهو فى طريقه الى البيت العتيق، فأصبحت سنة فى الحج الذى ليس إلا تقليدا لحال الإنسان الأول فى أولى خطواته على الأرض خليفة لله فيها كما رأينا.
وقد رأينا فى باب الحج أن القرآن أحيانا يوحى بأمرٍ من غير التصريح به ولكن فقط تدل عليه الموسيقي والالفاظ التى انتقاها الله فى النص، فكما كان قول الله تعالى لموسي {وَمَا **أَعْجَلَكَ** عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى*قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي **وَعَجِلْتُ** إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} 83-84 طه، فيه اشارة ضمنية الى أن قومه قد عبدوا **العجل** بعد أن تعجل عنهم موسى، فان وعيد الشيطان بالأماني {..وَلَأُضِلَّنَّهُمْ **وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ**..} ثم تحذير الله من ذلك الوعيد {..يَعِدُهُمْ **وَيُمَنِّيهِمْ**..} فيه إشارة موسيقية الى أن الحوار والحدث قد وقعا فى الوادى الذى يحمل اسم "**منى**" وفيه يرجم الشيطان الى اليوم، وعندما يصل إليه الحجيج تذبح الأنعام فى مشارق الأرض ومغاربها فى سنة الاضحى الى اليوم.
وقد ناقشنا علاقة منى بخلق وتطور الإنسان من جوانب عديدة فى باب الحج.

واشتملت هذه الآيات فى وعيد الشيطان على لفتة لغوية فنية رائعة ربما خفيت على الناس طوال القرون من بعد آدم، وما هى إلا دليل على أن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله، تلك هى جملة {... وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ...}، والتى استوجبت أن يصف الله الشيطان بلفظ "المريد" وتعني الذى تجرد من كل خير. وحتى نستوعب المعنى الرائع من هذا المفهوم الغامض "آذان الانعام" والذي اخترناه اسماً لكتابنا وعنوانا لنظرية الخلق والتطور التى اقترحنا، يستحسن ان نلخص ما وصفنا من هيئة الإنسان الأول النفسية والعقلية فى ذلك الحين:

طور الله تعالى بفعل "كن" مخلوقات أدنى كانت ملائمة للتغيير "آدم" الى إنسان عاقل ثم اوى ذاك الانسان الى جنة المأوى القريبة منه. كان أول نهي صدر لهم من ربهم موصوفا وصفا حركيا ميكانيكيا: {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ} مما يدل على عدم قدرتهم على فهم المفاهيم المجردة كالجماع او العملية الجنسية! خالف الانسان أمر ربه فكان التعبير عن ندمه أيضا جسديا: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ} فكانت تلك الكلمات حجارة طرحها ورصها فى شكل جبلي الصفا والمروة، وعندها مارس أول صلاة وكانت أيضا حركات جسدية هى التطوف بين قطع "سعى" حجارة الصفا والمروة. فى أول مواجهة له مع الشيطان ملّكه الله رجوم الشياطين المادية التى أنزلها له من الشهب والكواكب فى المزدلفة، لأنه ما كان له عزما بعد، وما كان قادرا على استيعاب مفاهيم الاستعاذة والتحصين الروحية التى تتطلب تطورا فى العقل والفهم لم يكن قد وصل اليه. ومضي القرآن يحدثنا أن الإنسان ظل بسيطا حتى الى الجيل الأول من بنى آدم كما يتضح جليا من قصة الغراب الذى آراه كيف يحفر الأرض بصورة عملية.

لَآمُرَنَّهُم: من امر، ومن معانيها الدهشة والعجب كما فى قوله {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فى السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا **إِمْرًا**} 71 الكهف!

فإذا وضعنا كل تلك الحقائق عن الإنسان الاول نصب أعيننا ثم رجعنا لكل الآية، نجد أن الالفاظ التى عبرت عن خطاب إبليس مع الله جاءت فلسفية واسعة المعانى، إذ أن الضلال والأمانى الزائفة لا حدود لمدلولاتها وتطبيقاتها فى حياة الناس {..وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ..} و الإضلال والوسوسة بالأمانى لا يشترط أن يكون الإنسان منتبها لها، فلمَّا اشتمل التعبير على {..وَلَآمُرَنَّهُم...} أى كأنه أدخل الإنسان فى لغة الخطاب وكأنه مصاب **بالدهشة والعجب**، تحولت الألفاظ الى ألفاظ مجسمة ميكانيكية من ألفاظ "لغة الغراب" التى تناسب فهم الانسان المقصود بها آنذاك {...وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ...}. وحتي يسهل فهم المعانى العميقة لوعيد الشيطان فى كل كلمة، نسوق مثالا بأن الناس اليوم فى المدنية الحديثة ما زالوا غارقين فى أمانى وأحلام زائفة وضلال بعيد ويلهثون وراء الأموال والسلطان والشهوات وكلها مما توعد الشيطان به ونفذه بذكاءٍ ومكرٍ شديدين على مر العصور. ولكن يبدو أن نزع آذان الأنعام شئ بدائي مرتبط بالرعاة وما

شابههم، وحتي بين هؤلاء لا نكاد نجد معنى لأن يبذل الشيطان جهدا فى أن يأمر أحدا بأن ينتف آذان الأنعام عصيانا لله، مما يجعل الأمر غامضا جدا.

من المعروف أن الله تعالى قد أمر ابراهيم بالآذان للحج {وَأَذِّنْ فى النَّاس بِالْحَجِّ} وهذا استعمال نادر لكلمة أذَّن أى "نادي"، لأن الأذان قد ارتبط فى أذهان المسلمين عموما بالدعوة الى الصلاة وليس بقية العبادات! وحتي الأذان بالحج يفهم عموما على أنه استعمال مجازي إذ أنه لا يعرف أن مؤذّنا يقف سنويا ليؤذّن فى الناس بالحج كما يؤذَّن للصلاة، ولا ندرى كيف أذَّن إبراهيم عليه السلام بالحج، ولكن كل الذى نعرفه أن إبراهيم دعا ونادي الناس للحج.

والآذان فى اللغة من "إذَن" أى العلم بالشئ، وسميت الأذْن التى نسمع بها أُذنا لأنها هى الأداة الأولى التى يؤخذ عن طريقها العلم! وآذان جمع أذن – أداة السمع. اما أذان فتعنى النداء او الاعلام {..ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ..} 70 يوسف. **و"آذان الانعام"** هنا لها مضمون عميقٌ جدا يرتبط بقيمة حُرمة الأنعام وأنها من "شعائر الله" وترتبط أيضا بمستوى فهم الإنسان الأول ولغة خطابه. من هذا كله يمكن أن نخلص الى أن الله تعالى لو أراد أن يرسل مؤذّنا يؤذّن للإنسان الأول فلن يكون ذلك المؤذّن إلا مجسما يراه فيذكره بالله، وليس كلمات بليغة ينادى بها كما هو الحال فى أذان بلال للصلاة الذى نعرفه، إذ أن من يتعلم من الغراب بالمشاهدة كيف يحفر الأرض لا بد وأن يكون فاقداً لكثيرٍ من مَلَكَاتِ التعبير والتفكير العلمي والمنطقي، وبالتالى فإن فهمه للأمور محدود ويعتمد على الحركات والمَشَاهِد أكثر من المصطلحات والألفاظ.

وقد جعل الإسلام لكل شئ أذانا وإن لم يربط المسلمون هذا اللفظ الا بالصلاة، وأذان إبراهيم بالحج كما أشرنا. ولعل هذه اللوحة الإلهية الرائعة التى روت بلغة المجسمات خطوات الإنسان الأول وكيف تعامل مع الدين والدنيا فى بدائية وبساطة، ما كان لها أن تكتمل إلا أن ينزل الله للإنسان الأول إشارة ودليلا يذكره بوجود وعظمة خالقه حتى لا ينسي، أى آية حية من آيات الله المجسمة التى تُذكره بوجود الله دائما. فكان نزول الأنعام لتكون أذانا للانسان الأول هو تلك اللمسة الفنية الأخيرة لتكمل هذه الرائعة من روائع بديع السموات والأرض. بقى ان نذكر ان الله تعالى ما تعلم اللغة العربية من امرؤ القيس او المعلقات العشرة كما تعلمناها نحن، فهو الذى خلق الإنسان وانطقه وعلمه البيان، وما كان يحتاج لمرجع من اشعار العرب يجيز له ان يجمع "أذان" بمعنى النداء الواحد الى "آذان" لتحمل مدلولا اكبر صدىً يدوى عبر العصور لينبه الانسان الى سر الانعام التى تنادى بوجود خالق الأزواج كلها،مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون، فكان ان جمع أذان" الى "آذان" الأنعام لتكون جمعا فريدا وابتكاراً لغويا يجرى مجرى اللغة وان لم يكن عليه دليل من اشعارهم التى اندثرت، تماما كما ابتكر اسم "القرآن" الذى لم يكن له مثيل

قبل نزول القرآن وكما ألهم جد النبى ليسميه محمدا، اسما ما عرفته العرب من قبل ولكن ما استغربه احد منهم! فالاصل فى أذان وآذان هو من أذن وهو الانتباه والاخبار والنداء!

فالأنعام بهيمة غامضة من مخلوقات السماء ولكنها تسكن فى بيوت الإنسان فى الأرض وترعى بين أقدامهم ومن بين أيديهم ومن خلفهم. فكان ان انتبه الشيطان الى أن سرَّ نزول الأنعام هو أن تكون آذانا للإنسان الى يوم القيامة مهما اختلفت لغاته حتى لا يضل، إذ أنها منزلة من الله بجانبه طوال الوقت. وقد رأينا فى باب الحج أنَّ كلمة "**الْهَدْيِ**" التى استعملت مجازا للأنعام التى تُذبح كفَّارة لصغائر الأمور فى عبادة الحج، ما سميت "هديا" إلا لأن الأنعام أصلا ما نزلت إلا لتكون آذانا يهدي الى الله، وهي دعوة للإنسان أن يتفكر ويتدبر فى سر وجودها وسر خلقها، إذ أن فيها سر يهدي الى الله أو أذانا دائما ملازما للإنسان! لما كان هذا سرُّ آذان الانعام فقد عزم الشيطان أن يطمث هذه الحكمة ويلهي الناس عن التفكر فى سر خلق الأنعام، وحقيقة أنها مخلوقات سماوية تمشي على الأرض وانها نزلت لحكمة علمية خطيرة، وهكذا توعد بأن ينزع ذلك الآذان، أى ينزع صلتها بالله وبالسماء من عقولهم ويلبس عليهم شأنها فلا تصبح آذانا لله ودليلا على وجوده، ولكن يضلهم عنها وبها ويجعلهم يعبدونها هى فتنقطع صلتهم بالله بعد أن يتحول الآذان نفسه الى وثن رجس يعبد من دون الله! واستعمال كلمة " َيُبَتِّكُنَّ " هنا ليس إلا لأنها من مصطلحات "لغة الغراب" التى تفيد أن المقصود هو الإنسان الأول الذى لا يفهم إلا الألفاظ الحركية، وهي أيضا تفيد الإشارة الى الإصرار على استئصال الصلة بين الأنعام والله من أذهانهم تماما وهو تعبير حقد وعداء مبين، لذلك قابله الله بلفظ "شيطانا مريدا" أى مجرد من الخير.

المدهش فى هذه الآية أن الشيطان ما قال " ليبتكن آذان بهيمة الأنعام" والا لما عبد اليهود العجل وما عبد الهنود البقرة وما أشركت أجناس عديدة بالله الأنعام، لأن اللفظ كان سيحدد وعد الشيطان بإضلال الجيل الأول من الإنسان العاقل الذى رأى فى الأنعام "بهيمة"! عزم الشيطان أن يجعل من الأنعام مطلقا وسيلة إضلال الى آخر الزمن فيه دليل على أنها لم تكن أذانا واحداً مؤقتا للإنسان الأول ولكن فيها أسرار تكون آذانا للإنسانية جمعاء فى كل الأزمان لما فى خلقها من أسرار وحقائق علمية يمكن أن تهدى كل الناس فى أى زمن.

استعمال لفظ {يُبَتِّكُنَّ} يشبه الى حد كبير استعمال لفظ {**يَنْزِعُ** عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا} إذ انَّ "**نزع**" لفظ حركي عنيف ولا ينطبق لغة على إزالة البهاء وحاجز النور الذى ذهب المفسرون القدامى فى اجتهادهم الى أنه كان الحاجز الذى حال بين آدم وحواء من أن يرى كل منهم عورة الآخر قبل المعصية، واللفظ أيضا حركي وعنيف ولا ينطبق على ما ذهبنا إليه من تفسير بان "الباسهما" تعنى التباسهما فى التمييز بين الذكر والانثى! إذا فلفظ **ينزع** لفظ غريب مهما كان التأويل لـ " لِبَاسَهُمَا"، ولم نجد تفسيرا منطقيا لاستعماله إلا ما ذهبنا اليه من تأويل من أنه لفظ يفيد مستوى

فهم الإنسان المقصود بهذه العملية ومحدودية وطبيعة الألفاظ التى يتعامل بها، من "نزع" لباسهما أو "ليبتكن" آذان الانعام، وسنري قريبا أن الإنسان الأول ما كان له أن يستوعب مفهوم بناء البيوت فرأى أول بيت قد "وُضع" لهم وليس بنى لهم. وقياسا على ذلك يمكننا ان ننتبه الى ان كتب السلف مثلا تحتوى على تعابير مثل "هلك ابى وهو فى الثمانين من عمره"، اذ ان لفظ "هلك" ما عاد مستساغا ولا ادبيا فى ذوق مجتمعاتنا ولكنه كان مقبولا للسلف.

وحتي نفهم خطورة هذا النسيان علينا ان نتخيل لو ان سفينة فضاء اتت بحجارة من المريخ فطُرحت للبيع فى مزاد علني لتسابق الناس لشرائها بملايين الدولارات، لا لشئ إلا لأنَّ إمتلاك مجسم من مجسمات السماءِ امرٌ نادر وله رهبة وهيبة فى النفس التى تتوق لامتلاك العجيب النادر! ولعل كثرة الافلام الوهمية التى تحكى قصصا عن مخلوقات من الفضاء الخارجي تنزل الى الأرض مثل قصة فيلم " أى. تي" المشهورة دليل على مدى تأثير مخلوقات الفضاء على سكان الارض! فما بالنا نغفل عن مخلوقات نزلت من السماء حقيقة و تسكن بيوتنا ولا نلقي لها بالا! ولا يخفى علينا بعد هذا الفهم انَّ ابلغ وصفٍ لغفلةِ الإنسانية عن حقيقة آذان الأنعام تلك إلا لفظ " { يُبَتِّكُنَّ} !

إن فهمنا لمفهوم آذان الأنعام كما أسلفنا هو الذى قادنا الى أن نفهم الكثير من ألفاظ القرآن وفقا للظرف الاجتماعي أو العلمي الذى يرد فيه اللفظ بعيدا عن مدلولاتها المتعارف عليها فى المجتمعات العربية المتاخرة، وبالتالى اعاننا على الاجتهاد فى كل التأويلات التى اشتمل عليها هذا الكتاب والتي بطبيعة الحال خلقت فهما جديدا للكثير الغامض من آيات القرآن وأفرزت علما ما كان لنا أن نصل إليه قبل استيعابنا لمفهوم آذان الأنعام.

وحتي ندلل على خطورة السر فى آذان الأنعام للدرجة التى تجعل منه هدفا أساسيا للشيطان منذ يوم نزولها نسوق معلومات مدهشة عن خلق وتطور الإنسان لا يمكن فهمها لأنها من عالم الغيب إلا بفحص آذان الانعام، تلك هى حقائق مفهوم {**لِتَرْكَبُوا** مِنْهَا}، وتحديد تاريخ النفخ فى آدم، والوصف التشريحي لمخ البشر قبل أن ينفخ الله فيه، و حقيقة أن المسيح قد كلَّم الناس كهلا رغم أنه رفع فى عنفوان الشباب، وأيضا تعداد مجموعة آدم العنصر الذى تطور الى إنسانٍ عاقل، إذ أن هذه الحقائق لا توجد فى كل العالم وكل الحضارات إلا فى القرآن!

فحص آذان الانـعـام:

من اوجه قصور تدبر المسلمين لآيات القرآن انهم لم يلتفتوا الى الآيات الكثيرة التى جمع الله فيها الانعام مع اسرار الخلق فى الآية الواحدة، لانها ظلت فى نظرهم "بهائم" أى حيوانات غبية على

مر العصور بالفهم الخاطئ للفظ بهيمة، ولكننا هنا نريد ان نكشف بعض اسرارها البهيمة أى الغامضة بعد ان اوضحنا ان آذانها يدعو لوجود الله:

رَكـوب الانـعام:

{اللَّهُ الذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ **لِتَرْكَبُوا** مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ*وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ **وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فى صُدُورِكُمْ** وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ*وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ }79-81 غافر.

خلط بعض المفسرين بين الانعام والخيل حتى يجدوا تفسيرا لرَكوبها لانهم فهموها "التمتطوا ظهورها" كما يفهمها اغلب الناس اليوم، رغم ان النص" لِتَرْكَبُوا مِنْهَا" وليس تركبوها او تركبوا عليها! وربما يفوت على كثير من الناس اننا اصلا لا نركب من الانعام الا الابل ولكن ليس الضأن والمعز والبقر. فكيف اذا يكرر الله ركوبنا الانعام فى آيتين متتاليتين، اذا كنا اصلا لا يركب منا الا سكان الصحراء واحدة منها وهي الابل؟

كلمة تركبوا هنا مأخوذة من الاصل "ركب" و من معانيها "الاصل والمنبت" كما ناقشنا ذلك فى {حَبًّا مُتَرَاكِبًا} وتعنى الحب الذى يحمل خواص الإنبات. وقد اورد الرازى فى معجم مقاييس اللغة قولا للفراء يفيد ان المُركَّب تعنى عانة الرجل او المرأة، أى الاعضاء التناسلية. فاذا عدنا بعقل متفتح لنفحص الآيات اعلاه، نجد ان الآية الأولى جمعت بين الرَكوب والاكل كآيات كونية فى الانعام، والآية الثانية جمعت بين الانعام والفلك فى ان عليهما يحمل الانسان الى اماكن بعيدة. فاذا افترضنا ان اكل الانعام تشير الى لحومها فأن "لِتَرْكَبُوا مِنْهَا" تعنى ليتم توالدكم وتكاثركم منها، وقد يرتبط سر الإنبات هذا باللبن الذى لا غنى لاي انسان حتى النباتيين عنه من المهد الى اللحد. وهذا التفسير ينطبق ايضا على آية: {وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا **رَكُوبُهُمْ** وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ}72 يسن. نلاحظ هنا ان اللفظ جاء بفتح الراء وليس ضمها، وايضا ان السياق ليس "ليركبوها" كما فى وصف: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}8النحل. اذاً ففى { لِتَرْكَبُوا مِنْهَا - و- فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ } الـ "من" هنا ليست للتبعيض لتشير للابل التى تُركب من بين الانعام، لان "الرَكوب منها" بفتح الراء لا يعنى امتطاء ظهورها وانما: ان منها نأخذ شيئا يدخل فى الجهاز التناسلي والانجاب، وهذا السر ليس فى ما يؤكل منها لان فى الآيتين تاتي "وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ" كأمرٍ منفصل عن الرَكوب.

أما الـ {حَاجَةً فى صُدُورِكُمْ} التى نبلغها بالأنعام يمكن أن نستنبطها من بقية الآيات:

(وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا **حَاجَةً فى صُدُورِكُمْ** وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ* وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا **أَكْثَرَ مِنْهُمْ** وَ**أَشَدَّ قُوَّةً** وَ**آثَارًا فى الْأَرْضِ** فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) 80-82غافر. الحاجة

التى فى صدور كل الناس التى يرمي اليها الله ربما نستنبطها من وصفه للذين كانوا قبلنا كما فى الآية، فقد كانوا:

أَكْثَرَ مِنْهُمْ {العدد}، وَأَشَدَّ قُوَّةً {البنية} وَآثَارًا {الحضارة}! من هذا يمكن ان نخلص الى ان الحاجة التى فى صدورنا المقصودة هى: زيادة تعداد السكان، وامتلاك القوة الجسدية والصحة وبناء حضارات تترك آثارا عظيمة... فكيف اذا نبلغ تلك الحاجة بالانعام؟

التناسل والتكاثر كما قلنا سابقاً أن أصله من مكونات تأتى من الأنعام، وأيضاً قوة البنية أصلها من منتجات الأنعام اكلا وشربا. اما الحضارة فهى نتاج "العدد" مع الصحة و"البنية"! ولما كانت مقومات التكاثر والشدة من مكونات الأنعام، أى أنها "محمولة" فى أجساد الأنعام، هذا يقودنا الى أن كل متطلبات الناس من توالد وتعداد وقوة وصحة وبالتالى حضارة محمولة على الأنعام.

كلمة "يحمل" لا تعنى بالضرورة الحمل المجسد على الظهر وانما تستعمل للاشارة لعلاقة وطيدة بين شيئين او اعتماد احدهما على الآخر. ومن هذا المعنى نقول: يحمل هذا اللفظ او الحكم او الفتوى على انه يعنى كذا...

أما الفُلك، فهو كل ما يدور فى فَلَكْ، وهو الإستدارة فى الشئ، فالمركب "فُلك" لأنه يسبح فى فَلَك البحر الذى يسبح مع الأرض فى فلكها، ومادامت الأرض تسبح فى فَلَكٍ فهى أيضاً "فُلك".

والسيارة تسير على سطح الأرض الدائري وتسبح مع الأرض فى فلكها. و"السرير" الذى نرقد عليه يسبح مع "فُلك" الأرض التى تسبح فى "فَلَكِها"، {وَكُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} 40 يسن، وبهذا يكون معنى {وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ} شاملاً كل الناس بتعدادهم وقوة اجسادهم وحضاراتهم، فكل الكون يدور فى افلاك متداخلة والله أعلم.

تاريخ نـزول الانـعام:

تشاء الأقدار ان يوافق نشر كتابنا فى طبعته الأولى فى فبراير 2007 نشر بحثٍ علمي مدهش فى احدى جامعات لندن، نشر يوم 27 فبراير فى الصحف البريطانية، يضع نقاطاً مهمة جدا على الحروف. فقد نشر الدكتور **مارك توماس** بحثاً مفاده ان اسلاف الاوربيين لم يكونوا قادرين على هضم لبن البقر قبل سبعة الف سنة، وذلك لانه توصل الى ان "الجين" او الصبغة الوراثية التى تسمي اللالكتيز والتي تقوم بتصنيع انزيم اللاكتوز فى امعاء الانسان والذي بدوره يهضم سكر اللاكتوز الذى يوجد بكثرة فى ألبان البقر، لم يكن موجودا فى الاحماض النووية المستخلصة من اسلاف الاوربيين فيما قبل سبعة الف سنة. وقد فسر دكتور توماس هذا الاكتشاف تفسيرا اجتماعيا اذ انه عزي هذه الظاهرة الى حدوث طفرة جينية فى الجهاز الهضمي للاوربيين ليستطيعوا هضم ألبان الابقار التى استوفدوها فى ذلك الزمن من الشرق الاوسط حسب تعبيره. ونحمد الله الذى لا

اله الا هو ان وفقنا ان ننشر كتابنا قبل بحثه بثلاثة اسابيع فقط لنقترح فيه ان الابقار اصلاً لم تكن موجودة على ظهر الارض قبل هذا التاريخ! واغلب الظن ان المقارنة هنا تمت بين احماض نووية جمعت من اسلاف البشر قبل التطور وبعد التطور ولكن لا يمكن التمييز بين رفاتهم لان التطور تم فى عقل الانسان وليس هيئته. وللراغبين فى الاطلاع على البحث كما هو مراجعة موقعه، عن طريق موقعنا على الشبكة العنكبوتية. (فى 6 اغسطس 2008 نشر بروفيسور ريتشارد ايفرشيد من جامعة برستول جنوب غرب بريطانيا بحثا شبيها قدر فيه ان تاريخ دخول الانعام فى حياة الانسان يرجع الى سبعة قرون قبل الميلاد)! فاذا كانت البحوث العلمية اثبتت ان اجساد البشر اصبحت قادرة على هضم ألبان البقر قبلحوالى سبعة الى تسعة الف سنة فقط فذلك تاريخ تقريبي لنزولها وبالتالي تاريخ تقريبي لمرحلة تطور الانسان الى انسان عاقل. وهو ايضا مطابق لتاريخ وجود آدم حسب انساب الأنبياء المعروفة.

تشريح المخ والعقل:

وصل علماء الطبيعة الى أن جمجمة الإنسان كانت صغيرة لدرجة لا تحتوى المخ العاقل ولكنها انتفخت تدريجيا وأصبح حجمها كافيا لاحتواء مخ الإنسان العاقل لكنهم وجدوا ان العقل ظهر فجأة فى بعض فصائل البشر بينما ظلت الفصائل الاخرى غير عاقلة رغم ان حجم الجمجمة فى الفصيلين كان متساويا. وقد ظهر العقل فى فترة زمنية وجيزة جدا مقارنة بملايين السنين التى انتقل فيها البشر من المشي على أربع الى المشي على اثنين، فسموا هذه الطفرة بالحلقة المفقودة فى نظرية التطور لداروين. وقد ناقشنا ذلك فى باب الحلقة المفقودة، واقترحنا أن هذه الطفرة تمت بتدخل رباني خارج على نظام التطور وهي ما اشار اليه القرآن بحادثة النفخ. ورغم ظننا ان العقل فى القلب وهو امر بدأ العلم الحيث يبحث فيه وي}كده، الا ان المخ هو خازنة الملفات التى يتعامل بها ومعها العقل. ما لا يمكن لعلماء الطبيعة الحصول عليه هو عينة من مخ الإنسان قبل أن يصل الى حالة النضج التى جعلته قابلا لاحتواء متطلبات العقل من ادوات تغذية بالمعلومات من سمع وبصر وذاكرة وغيرها. إذ أن كل ما توفره الحفريات هو جماجم ذلك الإنسان ولكن يستحيل وجود مخ كامل من تلك الحقبة لدراسته. ونحن نظن بحمد الله أن السر فى آذان الانعام يوفر خيطا لدراسة هذه الحقيقة العلمية. وحتي نستنبط هذه العلاقة المعقدة نحتاج أن نُرتِّل هذه الآيات معا:

{أَفَمَنْ **يَمْشِي مُكِبًّا** عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ **يَمْشِي سَوِيًّا** عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 22الملك!

هذه الآية كانت تعنى أنَّ الضال يمشي مطأطأ الرأس مُهانا فى الارض مقارنة بالمؤمن الذى يمشي مرفوع الرأس. هذا المعنى المجازي كان كافياً لقرون طويلة حينما كانت للمسلمين عزة وكانت رؤوسهم مرفوعة، و لم يكن بمقدور الإنسان أن يفهم أن الله ربما يعنى حقيقة الكلمات. الآن نقول أن فكرة طأطأة رأس الكافر ليست واقعية، إذ أنّ الكفر غالبا ما يرتبط بكثير من الغرور والاختيال والفخر وعزة النفس الزائفة ولا يشترط فيه أن يمشى كل كافر مطأطأ الرأس. فضلا عن اننا وبكل اسف نعيش فى زمن طأطا فيه اغلب المسلمون رؤوسهم! وعليه نظن أن المقصود هو المعنى الحرفي للكلمات وهو أنَّ مَثَل مخ الضال اليوم من ناحية وظيفية كمثل مخ البشر قبل النفخ حينما كان يمشي مكبا على وجهه كالأنعام، لأن مخه لم يكن بعد قد عُدِّل لدرجة تحفظ توازنه ليمشي معتدلا على صراط مستقيم. الأطباء ورجال الشرطة فى البلاد الاسلامية يعلمون أن أبسط الاختبارات التى تجرى على من يُظَن أنه مخمور هى أنه يُؤمر بأن يمشي بخطوات متلاصقة على صراطٍ مستقيم حيث لا يستطيع، لأن الخمر يؤثر تأثيرا مباشراً فى جهاز "السرابيلام" الذى يحفظ التوازن فى الإنسان ويجعله قادرا على أن يمشي فى صراط مستقيم. ونضيف حقيقة علمية اخرى هى أن الأذن الوسطى تلعب دورا مباشرا فى حفظ توازن الإنسان ليمشي معتدلا وما كان للإنسان قبل وجود خاصية السمع الوظيفية إلا أن يمشي مكبا على وجهه كالأنعام لأنه يحتاج لأكثر من ساقين لحفظ توازنه. ولعلَّ كثيرا من الناس قد تعرضوا لالتهابات فى الأذن تؤدى الى انسداد فى قناة السمع ومرُّوا بتجربة عملية فى فقدان التوازن إذا اختلت وظيفة الأذن. تأويلنا أن الآية تشير الى عصرٍ كان الإنسان يمشي فيه على أربعٍ يجعلها منسجمة مع آية الإنشاء و"السمع والبصر" التى تليها فى سورة الملك:

{قُلْ هُوَ الذى **أَنْشَأَكُمْ** وَجَعَلَ لَكُمُ **السَّمْعَ** وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} 23 الملك.

هذه الآية تشير الى "إنشاء" الإنسان، وليس خلقه، ليمشي معتدلا بعد أن كان يمشي مكبا على وجهه فى الآية التى سبقتها، ولا يمكن فهمها إلا فى إطار التطور. هنا يصف الله تعالى مرحلتين من مراحل التطور: إحداهما شكلية والأخري وظيفية. المرحلة الشكلية هى مرحلة تطور مشى الإنسان من المشي على أربعة الى **الإنشاء** أى المشي على اثنين! والمرحلة الوظيفية هى مرحلة إعطاء الإنسان العقل وأهم ادوات تغذيته بالمعلومات فى المخ وهما خاصية **السمع** وخاصية البصر! والسمع والأبصار خواص تتطلب وجود العقل ليفسر الأصوات التى تلتقطها الأذن والأضواء التى تراها العين، فليس كل صوت تلتقطه الأذن له معنى وليس كل منظر يسقط على العين له مدلول، بدليل أن الإنسان النائم تلتقط أذناه الأصوات من حوله لكنه لا يتفاعل معها لغياب

العقل، وبعض الناس يفتحون أعينهم أثناء النوم ولكن لا يبصرون طالما كان العقل نائما. ومثل ذلك تأثير الخمور على حواس الإنسان إذ أن الخمر يخامر العقل فيفقد الإنسان القدرة على أن يعقل ما يسمع أو يرى رغم أن أذنيهه موجودتان و تلتقطان الأصوات، و عينيه مفتوحتان وتلتقطان الأضواء.

هذه الآية تدل على أن الإنسان قبل أن يمنحه الله **السمع** والبصر كانت له أذنان لا يسمع بهما وعينان لا يبصر بهما إذ أن الآية وصفت أن الله "جعل" له السمع والبصر والفؤاد ولم تقل "خلق" مما يدلل على أن الأذنين والعينين والمخ و القلب كانوا جميعا موجودين، ولكن حدث فيهم تغيير تشريحي من ناحية ووظيفي من ناحية. هذا التغيير بطبيعة الحال تم حينما "سواه" و "نفخ" الله فى الانسان من روحه وسعته وفضله كما فهمنا من قوله تعالى:

{ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} 9 السجدة!

هذه الآية ناقشناها فى باب الحلقة المفقودة إذ أنها تصف اللحظة الحاسمة فى تاريخ الإنسان التى نقلته الى انسان عاقل، ولكننا هنا نود أن نجري عن طريقها عملية تشريح افتراضي لمخ البشر قبل وبعد النفخ. وحتي نفهم الآية فهما صحيحا من حيث قواعد اللغة نعيد كتابتها كما يلى:

{ ثم: سواه ونفخ فيه من روحه و جعل لكم السمع والأبصار والافئدة..}!

"ثم" تعطف كل ما يليها على ما قبلها، أى أن التسوية والنفخ و السمع والبصر والفؤاد كلهاوقعت معا فى ذات اللحظة وبأمر واحد لأنهم جميعا تمَّ عطفهم على بعضهم بعضا بحرف العطف الواو.

نلاحظ أن الله لم يحدثنا عن خلق المخ ولا خلق الآذان ولا خلق الأعين ولا الفؤاد وإنما اخبرنا عن حدوث تغيير تشريحي ووظيفى عام اشتمل على عملية "تسوية" و"نفخ"، ونتج عن هذا التغيير التشريحي تغيير وظيفي ظهرت بموجبه خواص السمع والبصر والعقل معا. هذا بطبيعة الحال يدل على أن الانسان قبل التسوية والنفخ كانت له أذنان وعينان ومخ وقلب وإلا لما قال **"جعل"** وهي تفيد تغييرا فى وظيفة عضو موجود وليس خلقه من عدم.

هذا التغيير الوظيفي قابل الى أن يتعطل عند أى إنسان حتى وإن كانت أعضاء المخ السمع والبصر فيه سليمة، وذلك إذا كان يتجاهل الحقائق الكونية ومن ضمنها حقيقة خلقه هو نفسه وخلق السموات والأرض، وبالتالي لا يربط بين هذه الحقائق وحقيقة وجود الخالق المطلق. مثل هذا الإنسان يمكنه أن يسمع كلام الله فلا يحرك فيه ساكنا كأنه قد فقد وظيفة العقل وبالتالي السمع والبصر فأصبح كالأصم الأبكم الاعمي :

{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} 18 البقرة! الارجاع هو مقارنة المخزون من العلم مع ما يراه ويسمعه الانسان حتى يكتمل فهم وعقل الامور المستجدة. الى هنا والآيات تصف التغيير الوظيفي

فى أدوات السمع والبصر والعقل من غير ذكر تلك الأعضاء صراحة ولكن إذا رتّلنا هذه الآيات مع آية الأنعام نصل الى نتيجة مدهشة:

{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا **يَفْقَهُونَ** بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا **يُبْصِرُونَ** بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا **يَسْمَعُونَ** بِهَا أُولَئِكَ **كَالْأَنْعَامِ** بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} 179 الأعراف!

هنا نلاحظ أن الله وصف كل عضو ووظيفته فى حال غياب العقل، وهو الحال الذى ينطبق افتراضا على حال البشر قبل أن يسويه الله وينفخ فيه، لانه يصف تلك الأعضاء فى حال الضلال وهو عدم القدرة على ارجاع المعلومات و عقلها. نلاحظ من الوصف أن الضآلين لهم آذان وأعين وقلوب ولكن تنقصهم وظائف تلك الأعضاء وهي السمع والبصر والعقل. وقد ذكرنا سابقا أن القلب هو العضو الذى يتحكم عصبيا فى تقليب المعلومات فى الالباب والذاكرة الموجودة فى المخ، ومن ثم التفكر والعقل. الى هنا ونحن لا ندري الشكل التشريحي لدماغ مخلوق له آذان لا يسمع بها وأعين لا يبصر بها وقلب لا يفقه به ولكن الله تكرَّم على علماء الطبيعة بأعطائهم مثالا لذلك الدماغ والقلب ليبحثوا فيه ويمكننا استنباط ذلك من التدبر فى هذه الحقائق التى تبرزها الآيات:

1. قبل النفخ كان للإنسان قلب وأذنان وعينان ولكن لم تكن لها وظائف إذ أن التسوية والنفخ أوجدتا وظائف السمع والبصر والعقل بلفظ "جعل" التى تفيد تغييرا وظيفيا فى العضو الموجود وليس إيجاده من عدم!

2. بعد التسوية والنفخ أصبح الإنسان قادرا على أن يسمع بأذنيه ويري بعينيه ويقلب بقلبه ما خزن مخه من علم فيعقل الامور، فسمي إنساناً عاقلاً.

3. لما كانت خصائص السمع والبصر والعقل خصائص مضافة للأعضاء التشريحية فهى قابلة الِلي أن تزول فيصبح الإنسان ضالا. من هذا نفترض أن زوال هذه الخواص يجعل من وجودمكونات المخ من الآذان التى لا يسمع بها والأعين التى لا يبصر بها والقلب الذى لا يعقل به شبيهة بحال البشر قبل العقل.

4. شبه الله تعالى هذا الوضع بحال الأنعام التى لها آذان لا تبصر بها وأعين لا تبصر بها وقلوب لا تفقه بها، فهل فى ذلك إيحاء بأن الوضع التشريحي لآذان وأعين ومخ وقلب الأنعام الآن يشابه حال هذه الأعضاء فى البشر قبل النفخ؟! هذا الوضع توحي به قراءة نفس الآية بعد إزالة الخواص الوظيفية، حيث يتبقي لنا بعد إزالة الخواص: **لهم قلوب ولهم أعين و لهم آذان كالأنعام.....!!!**

السؤال لا نجيب عليه وانما نطرحه للاجيال القادمة التبحث فيه!

هنا لا بد من طرح سؤال منطقي يطرح نفسه بعد أن كشفنا آذان الأنعام، وهو التناقض الظاهري بين كون الأنعام تسمي بنص القرآن "هَدْي" وتعتبر آية من آيات الله تعالى وشعيرة من شعائره المحرمة من الزوال، وبين هذه الآية التى اختارت من دون مخلوقات الله الأنعام لتجعل ضلالها مثالا لضلال الغافلين. إذ كيف ينزل الله تعالى للناس آية يسميها الهَدْي ثم يضرب بها مثلا لا شبيه له فى الضلال؟ مما لا شك فيه أن هذه المقارنة لا تحدث عبثا او سهوا فى القرآن وانما تكشف سرا آخر جد خطير من أسرار آذان الأنعام.

كثير من الناس يطلق كلمة "بهيمة" على كل الحيوانات ظنا منهم انها صفة غباء تشترك فيها كل الحيوانات غير العاقلة، ولكننا بحمد الله وبفضل لغة الغراب أوضحنا ان كلمة بهيمة كانت من ألفاظ الإنسان الأول وتعنى الغموض وليس الغباء، وهذا لا ينفي عنها الغباء بالطبع ولكن لفظ بهيمة يعنى الغموض فقط.

المعروف عن الأنعام أنها مخلوقات وديعة خاضعة للإنسان بل مذللة له بنص القرآن {وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ}72 يسن. والمعروف عن الأنعام أنها من الغباء بحيث إنها لا تربط بين الأسباب والمسببات إلا فيما يخص غرائز الجوع والعطش عندها، بدليل انها تظل هادئة ساذجة والجزار أمامها يحمل السكين لذبحها لان الله خلقها بهذه الفطرة الخاضعة تماما للإنسان. ومما يدلل على عدم قدرة الانعام الربط بين الاسباب والمسببات أن الإنسان وعبر تاريخه الطويل فى التعامل مع مخلوقات الارض قد نجح فى ترويض الكثير جدا من الحيوانات، حتى المتوحشة منها ليخلق معها علاقة فيها قدر من الذكاء مثل الكلاب والقطط والخيل والاسود والنمور والفيلة التى تؤدى ألعاب معقدة فى السيرك وغيرها، بل وحتي الثعابين و الدلفين فى البحر الذى يروض ليتعلم كيف يلاعب الاطفال والكبار، ولكن المعز والخراف والأبقار والإبل لا تؤدى الا وظائفها التى فطرت عليها! هذا السلوك يدلل على أن آذان وأعين الانعام ومخها وقلوبها محدودة الوظيفة لدرجة تستحق الوصف بانها صماء وبكماء رغم أن لها آذان واعين وقلوب! ولما كان الله قد قارن وظيفيا بين آذان واعين وقولب الأنعام وبين الانسان فى حالة الضلال فان فى هذا اشارة الى أن هناك تشابها ما بين مكونات العقل (مخ وقلب) فى الأنعام من دون بقية المخلوقات وما يقابلها فى البشر قبل أن يصبح عاقلا ويجعل الله له خواص السمع والبصر والعقل بأن سواه ونفخ فيه! بالاضافة الى ان الله جمع بين الانسان والانعام فقط فى انهما خلقا بيد الله كما رأينا، فإذا كانت يد الله قد تدخلت مباشرة لتعدل من مخ الانسان وتمنحه العقل، فان يد الله هى التى جعلت من الانعام مخلوقات ذليلة لا تتطور ولا تفهم حتى يتم التكامل بين عقل الانسان المتطور على مر الزمن وبين مخها الذى حرم عليه التطور مهما طال الزمن. هذه الحقيقة العلمية تنفي نفيا قاطعا ان

الانعام اصلا من مخلوقات الارض لانها لو كانت منها لكانت قد تطورت بحكم معاشرتها للانسان ولتعلمت مع السنين كيف تحمي نفسها من قاتلها الاول! اذا فالعلاقة علاقة تكامل متوازي وليس تتطور مشابه لتطور بقية مخلوقات الارض وهذا التكامل ربما يكون هو موضع الحكمة من استعمال يد الله فى خلق الانسان والانعام فقط. بالطبع فلا احد يستطيع أن يثبت أن هذا هو مدلول هذه الآيات ولكن أيضا ليس من حق احد ان ينفي ان هذا ليس مدلولها. هى آيات تلمح بسرٍ و تدعوا الإنسان لتدبر عميق وتستجدي علماء البيطرة والطبيعة والأحياء لإجراء بحوث فى هذا المجال قبل أن يكتشف علماء غير مسلمين حقيقة مذهلة تجمع بين مكونات عقل الأنعام والإنسان فنأتي ونهلل انها مذكورة فى القرآن!

فى اطار بحثنا فى هذاا لامر وقفنا كثيرا فى الفاظ "الفؤاد" و "العقل" و "الألباب" و "الروح" و "النفس" ، ولكن لم يتسع كتابنا الا لمناقشة الروح والنفس كما اسلفنا. نسأل الله ان ييسر لنا نشر بحث آخر ندرس فيه اسرار الموت والحياة فى القرآن والتي ترتبط بالمدلولات العميقة لهذه الالفاظ قريبا باذن الله.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا:

كما كان خلق الأنعام غامضا ونزولها الى الأرض اشدُّ غموضا، فان الله تعالى شاء أن يكون المخلوق الأول الذى نجح الإنسان فى نسخ الحياة فيه هو احدى هذه الأنعام متمثلة فى الخروف "دولي" الذى وُلد فى المختبر بعد نسخه من أمه سنة 1996 فى اسكوتلندة وعاش ست سنوات! فبرغم أن العلماء عادة ما يُجرون التجارب المختبرية على الفئران والأرانب وغيرها من الحيوانات إلا أن نسخ أول حياة كان من نصيب الانعام. ما أثار الدهشة فى تلك التجربة التى أثارت جدلا أخلاقيا ودينيا واسعا وأدخلت الرعب فى كثير من الأنفس، انها ألقت كثيراً من الضوء على نواتج نسخ الحياة من مخلوق موجود أصلا، الشئ الذى ربما يقدم تفسيرا لآية فى كتاب الله ظلت موضع خلاف منذ أن نزلت قبل أربعة عشر قرنا! نُسخ الخروف "دولى" من خلايا أمه وذلك بتعريض البويضة الى صعقات كهربائية محسوبة الى ان بدأت فى الانقسام تماما كما يحدث حين تلقيحها بحيوان منوي. بعد حمل ظاهره طبيعي وُلد الخروف "دولي" بكثير من الأمراض ولكن من اغرب ما أصابه انه أصيب بروماتزم المفاصل فى عمر صغير جدا وهو مرض من أمراض الشيخوخة فى البهائم كما هو الحال عند الإنسان! وقد اكتشف العلماء أن "دولى" ظهرت عليه كل اعراض الشيخوخة التى كانت قد اصابت امه وكأن عمره الفسيولوجي والوظيفي قد نُسخ من عمر امه ايضا. بمعنى آخر: وُلد المخلوق المنسوخ فى سنٍ مساوٍ لسن الأم

التى نسخ منها ومات بأمراض الشيخوخة رغم ان عمره كان ست سنوات، لكن فى حالة جسدية مشابهة لحالة امه التى كانت فى الخامسة عشرة من عمرهاٍ.

هذه الحقيقة المثيرة التى ليس لها مثيل حتى الآن لتأكيدها دفعتنا للتدبر فى معجزة المسيح فى انه: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ و**كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ**} 171 النساء. رأينا فى باب {فى وادى المزدلفة} ان **كلمة** الله تعنى انها آية من آيات الله خارقة لنظام الخلق المألوف. ورأينا ايضاً ان من معانى "لقي" هو التساوى والتوافى بين شيئين او شخصين، كأن نقول مثلا: "يلتقي النيلان الأبيض والازرق فى الخرطوم". فإذا كان المسيح آية او **كلمة** من الله أى خُلق خارج نظام الخلق المألوف وهذا امرٌ متفقٌ عليه، فكيف: **أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ؟** هل يشير لفظ "ألقاها" الى تلاقي أى تساوي بين مريم وابنها فى امرٍ ما كجزءٍ من الآية الإعجازية نفسها؟ هذا الافتراض ربما يشرح هذه الآية التى حيرت الناس طوال القرون:

{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فى الْمَهْدِ **وَكَهْلًا** وَمِنَ الصَّالِحِين} 46 آل عمران. فقد وُلد المسيح عليه السلام من أمٍ فقط كما هو معلوم، وقد كانت مريم عليها السلام فى الثامنة عشرة من عمرها حينما أنجبته، وقد كلّم المسيح الناس فى مهده مدافعا عن أمه الطاهرة مما كان إعجازا ربانيا ينطبق مع الجزء الأول من نص الآية أعلاه. إلّا أن المسيح عليه السلام تلقى الإنجيل فى الثلاثين من عمره ثم رُفع فى الثالثة والثلاثين وهو فى عنفوان الشباب. هنا أصبح الجزء الأخير من الآية مصدر إشكال للمفسرين، اذ ان المسيح لم يكلّم الناس كهلا كما تنبأت الآية! وقد حاول الكثير من المفسرين تأويل ذلك بأن كلامه كهلا سيكون حينما يعود الى الارض. هذا التأويل لكلمة "كهل" والتي تخلط فى مضمونها بين قوة الشباب والنضج فى الحياة والتى عادة ما تشير للرجل فى سن آخر الأربعينات، ليس إلا اجتهادا لملئ فراغٍ فى تـأويل الآية ولكن لا تسنده أدلة قرآنية أو من السنة، إذ أنه لا احد يدرى فى أى سنٍ سينزل المسيح عليه السلام. ونظن من ناحية منطقية أن المسيح عليه السلام سينزل فى ذات العمر الذى رفع فيه ليكمل رسالته من حيث توقفت، لكن ليس هناك منطق يجعله ينزل وعمره فقط ثمانية عشره سنة اكبر مما رفع! بيد أن الآية تشير الى معجزتين نظن ان تحقيقهما كان من ضمن معجزات المسيح التى تحققت جميعا فى حياته فى الأرض، مما يجعل كلامه للناس كهلا قد تحقق كما تحقق كلامه فى المهد قبل أن يُرفع رغم أنه رفع سنوات قبل سن الكهولة. هذا بالأضافة الى أن كلام أى رضيع فى المهد يكون معجزة بلا شك، ولكن كلام الكهل ليس فيه إعجاز، اللّهم إلا إذا كان مفهوم الكهولة هنا فيه غموض أرادنا الله أن نتدبره حتى تكون الآية معجزة موقوتة تكتسب قيمة جديدة حينما يستطع الانسان فهمها.

ما اثبتته عملية نسخ الأنعام التى ذكرنا سابقا من ان المخلوق المنسوخ يولد فى سنٍ مساو او "**ملاقيٍ**" لسنِّ أمه التى نسخ منها ربما تفسر تلك المعجزة. بمعني أن المسيح عليه السلام وُلد وكلَّم الناس فى المهد كما علِمنا فكانت تلك معجزة لقومه لانهم بطبيعة البشر يظنون ان كل من كان فى "المهد" يكون صبيا، ولكن اذا تمعنا فى ألفاظ الآيات: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فى الْمَهْدِ صَبِيًّا} 29 مريم، نلاحظ ان هذا كان لفظهم ولكن الله وصفه فقط بانه "وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فى الْمَهْدِ وَكَهْلًا" ولم يصفه حينها "بالصبا" كما وصف يحي عليه السلام بانه آتاه الحكم صبيا: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} 12 مريم. فالمسيح اذاً كان فى "المهد" وهو فراش الطفل ولكن لمَّا كانت خلاياه تحمل سن أمه، فانه حينما ولد فقد كان فى سنٍ **تلاقي** مع سن امه وهو الثامنة عشرة، لذلك فقد كلم الناس فى "المهد" ولكنه لم يكن فى مهده صبيا كما ظن قوم مريم، إذ ان الله قد حذف وصف المسيح بالصبى الذى اثبته فى وصف يحى! وبعد ثلاثين سنة من مولده كلّم الناس بالانجيل ولكنه كان حقيقة **كهلاً** فى الثامنة والأربعين من حيث عمر الخلايا التى خلق منها وهو العمر الذى **يلاقي** عمر مريم حينها. و يكون القرآن بذلك قد طرح معجزة خفية اخرى ما كان لنا أن نكتشفها الا بفضل السر فى آذان الانعام الآن. نحن نعلم أن الخوض فى هذه الحقيقة العلمية المرعبة لكثيرٍ من الناس ربما يكون سابقا لأوانه، ولكن العلوم تبدأ بأفكار وافتراضات ورأينا ان نطرح افتراضا علميا جديدا يدفع الناس للتدبر فى آذان الانعام.

تعداد آباء الإنسانية:

من الملاحظات الملفتة للنظر فى آية نزول الأنعام أنَّ الله حدد باللفظ عدد الأنعام التى نزلت : {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} من غير أن يوضح فى أى مكان لماذا كانت ثمانية ولم تكن سبعة أو تسعة أزواج، ولماذا تحديد الرقم؟ إذ كان من الممكن أن يشير الى أنه أنزل الأنعام من غير تحديد للعدد، إلا إذا كان فى هذا الرقم حكمة تفيد الإنسان فى زمن من الأزمان. ما يزيد الأمر غرابة أن القرآن يستعمل الأرقام الفردية للإشارات الرمزية وللمبالغة فى التعبير، وأن السنة أرتبطت بالأرقام الفردية فى كثير من أوجهها، وما تحديد عدد ازوج الانعام بثمانية الا استثناءً نادرا.

لو افترضنا أن الانعام حينما نزلت كان لها قيمة غذائية وتعبدية فإن العدد الذى نزل لا بد وأن يكون مكافئاً من حيث الفائدة وإحداث الإكتفاء العادل بين كل مجموعة آدم الأولى، رغم وجود فرق كبير بين أحجام وفوائد الأنعام بإختلاف أنواعها. ولكن جاءت السنة لتعطي كلاً من الأنعام قيمة رقمية تعبدية فى منسك الحج حينما يجب على الحاج "**هدي**" مما يزيد سر عدد الانعام التى نزلت غرابة. ففى غزوة الحديبية عندما اضطر المسلمون للرجوع قبل دخول مكة أمرهم الرسول

صلى الله عليه وسلم أن يتحللوا من إحرامهم وذبْح الهدي كفارة لذلك، حينها جعل النبي قيمة لكل بهيمة تذبح وهي أن الناقة تكفي لسبعة أشخاص. وقد ذبح الصحابة مائتي ناقة لأن عددهم كان ألفا وأربعمائة حسب أشهر الروايات. وقد ذهب الفقهاء الى أن البقرة تكفى لسبعة أيضا رغم أن العرب لم تكن ترعى الأبقار كثيرا لطبيعة الصحراء. وذهبوا الى ان الشاة والخروف يكفى كل منها لشخص واحد فى الهدي. بالطبع فإن العلاقة هنا ليست علاقة كمًّ ولكنها كيف، إذ أن الناقة ربما تطعم مائة والخروف يمكن أن يطعم عشرين، ولكن جعلت السنة قيمة الناقة سبعة والخروف واحداً لحكمة يعلمها الله وحده.

فإذا أعطينا لكلٍ من أزواج الأنعام قيمته الرقمية فى عدد الذين يجزي عنهم فى الهدي، ربما نستنتج أن عدد الذين أنزلت لهم الثمانية أزواج يساوى لذلك العدد! بمعني آخر فالأنعام التى نزلت كانت اثنين من الإبل واثنين من البقر وإثنين من الضأن وإثنين من المعز، فلو تمَّ توزيع هذا العدد للحجيج ليؤدوا به ما عليهم من هدي لكفت الإبل أربعة عشر والبقر أربعة عشر والخراف اثنين والمعز اثنين، ليكون المجموع اثنين وثلاثين شخصا فقط يمكن أن تجزي عنهم أزواج الأنعام الثمانية التى نزلت بنص القرآن! فهل يكون هذا هو عدد المجموعة التى نفخ الله فيها من روحه وسكنت عرفات وهبطت لتسكن البيت العتيق أول مرة، ثم اصبح الحج فى كل منساكه ليس الا تمثيلا لاحداث ايامهم الأولى؟ الله وحده أعلم ولكن السر فى عدد الأنعام التى نزلت يظل مجال بحثٍ وتدبر!

لما عرضنا رأينا على اهل العلم ذهلنا من ان علماء هندسة الجينات قد وصلوا الى ان هذا العدد هو العدد الأدني الذى يمكن به ان يبدأ مجتمع إنساني معافي. فالمعروف ان التزاوج من الاقرباء يؤدي الى تراكم الجينات و ظهور الامراض الوراثية فى الذرية، وقد نصح الرسول صلى الله عليه وسلم بزواج الغرباء: "اغتربوا تصحوا". ففي البحوث التى نشرت على شبكة الانترنت وصل العلماء الى ان اصغر عدد يمكنه ان يحافظ على تكاثرٍ معافي للجنس الانساني لا بد ان يبدء بتزواج ابناء وبنات مجموعة بين خمسة وعشرين الى ستة وثلاثين زوجا حتى **تستقر** الصفات الحسنة وتطغى على الصفات **المستودعة** غير المرغوب فيها فى الاجنة. وقد سمي هذا الرقم بـ "رقم دنبار" نسبة للعالم البريطاني " روبين دنبار" الذى توصل اليه {Dunbar Number} وبناء عليه فإن العلماء يفترضون ان الجنس البشري لا بد وقد ابتدأ بعد التطور من مجموعة تقع بين الرقمين والا لكان الانسان العاقل قد انقرض منذ آلاف السنين، ويمكن مراجعة بحوث دنبار تحت اسمه على الشبكة العنكبوتية!

لو صحَّ هذا الإفتراض فإنَّ هذا العدد، أى اثنين وثلاثين زوجا لا بد وقد عانى تزاحما فى البيت العتيق الذى ربما يتسع لمثل هذا العدد بصعوبة شديدة مما يجعل حالهم فيه **بكّاً** كما سنرى فى باب "سدرة المنتهي"!

إنَّ آذان الأنعام بهذا المعنى لهو أول آذان يصدح فى الأرض بوجود خالق السماوات والأرض، ولمَّا كان آذان الأنعام قد صدح مكبراً الله فى كل الناس حينها قبل أن يجعل الله منهم شعوبا وقبائل، فقد صدح بلغة يفهمها الإنسان الأول ويفهمها كل الناس مهما اختلفت لغاتهم ومستويات علمهم على مرِّ الزمان! و آذان الأنعام هو الآذان الوحيد الذى يتحدى العقل قبل العاطفة والروح ويخاطب المسلم والكافر وينادي بوجود الخالق فى أرقى المحافل العلمية، ولكنَّ المسلمين فى نومهم يعمهون.

2. النعـــاج الحُــمَّل:

فى كتاب الله آيات تجعل القارئ يبكي رقة وعطفا وفيه آيات تجعل القارئ يرتعش خوفا وفيه آيات تثير الدهشة لما تحويه من علوم وحقائق كونية، وفيه آيات تجعل ضعاف النفوس يغالبون الضحك لما فيها من غرابة فى اللغة والمحتوى الذى غالبا ما يكون بعيدا جدا عن خيال الإنسان كآية {فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ} التى اصبح الآن لها معنىً مذهل لقومٍ يتفكرون! وحتي نفهم ما نرمي اليه بـ { النعاج الحُمَّل} لا بد لنا من عودة الى مجموعة آدم فى عيد الانسانية لنرى كيف تعاملوا مع بهيمة الانعام و كيف امرهم الشيطان ليبتكوا آذانها اول مرة!

من الطبيعى جدا ان نفترض ان تلك المجموعة من البشر كانت لا تتعامل مع الحيوانات الا فى حالة صيد وافتراس، لان كل الحيوانات ما عدا الانعام لا يمكن ترويضها بسهولة! ومن الطبيعى اذاً ان البشر قبل التطور لم يكن يدرى كيف تتكاثر هذه الحيوانات، اذ انه كان يصطاد الحيوانات المتوحشة ولا يقترب منها الا وهي ميتة! ولقد رأينا كيف استدرجهم ابليس للاقتراب من شجرة الخلد بأن ابهرهم بإكتشاف الفوارق بين الذكر والانثى بتفاصيل كثيرة ذكرناها فى "جنة المأوى" حتى نسي آدم تحذير ربه فغوي! من المنطقي اذا ان اول تجاربهم مع رعاية البهائم كان فيها من الإكتشافات المذهلة ما يجعلهم ينزلقوا مرة اخرى ويسقطوا فى حبائل الشيطان!

عملية الحمل عملية مثيرة للفضول لمن يعاصر انثى فى شهور تطور حملها، ولكن عملية الولادة تجربة مدهشة لمن يراها لاول مرة! بالطبع فإن من يرى نعجة تضع صغارها واحدا تلوا الآخر، او يرى ناقة تصارع المخاض فيخرج من رحمها عدد من صغار الابل، سيصاب بذهول من هذه العملية البيولوجية التى لا تتاح مشاهدتها للكثيرين فى زماننا ناهيك عن الانسان الاول، الذى اصلا كان محتارا فى هذا المخلوق الأليف **المبهم** الذى نزل له!

صرح القرآن ان الله {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} وفصَّل فى الآيات التى سنناقشها ان تلك الثمانية كانت اثنين من كلٍ من الإبل والبقر والضأن والمعز! من المنطقي جدا ان الله امرهم ان يذبحوها بالتدريج مبتدءً بالذكور قبل الإناث، وما ذلك الّا لأنَّ الإناث هى التى تحمل الأجنة وتخرج الجيل الثانى وتحافظ على النوع، وهذا هو سلوك الرعاة والمزارعين وكل من يرعي الانعام الى اليوم، اذ ان الرعاة يحتفظون بعدد قليل جدا من الذكور فى كل قطيع للتلقيح، ولكنهم يحافظون على الإناث بقدر ما يستطيعون!

لنفترض ان الله أذن لهم بذبح ذكرالضأن اولا بعد ان حملت النعجة، ثم بعد ان نفد طعامهم اذن لهم بذبح ذكر الماعز ثم الإبل وأخيرا الثور حسب ترتيب ورودهم فى الآيات التالية! هذا تصرف منطقي لقومٍ يمتلكون فى كل هذه الدنيا زوجين فقط من كل نوع! ولكن بالطبع فإن الحكمة من هذا التدرج والتمييز بين الذكر والانثى كان غائبا على من كان قبل قليل يشعر بالبهجة فى مهرجان اكتشاف الفرق بين الذكر والانثى فى نفسه على يد الشيطان فى الجنة، وهو الذى تعلم جيله الثانى من الغراب كيف ينبش الارض!

فى مهرجان رؤية النعاج والماعز والنياق والابقار الحُمّل وهي تلد صغارها لاول مرة، ربما جاء ابليس فى شكل رجل حكيم، وربما جلس القرفصاء بين اؤلئك البسطاء واستغل ذهولهم من مشاهدة ولادة البهائم فزلقهم فى منعطفٍ جديد وهو الشرك هذه المرة كما توحي هذه الآيات:

{ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * **ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** مِنَ **الضَّأْنِ اثْنَيْنِ** وَمِنَ **الْمَعْزِ اثْنَيْنِ** قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْانثىيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْانثىيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَمِنَ **الْإِبِلِ اثْنَيْنِ** وَمِنَ **الْبَقَرِ اثْنَيْنِ** قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْانثىيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْانثىيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} 142-144 الانعام

لغة هذه الآيات توحي بأنها تحكى عن قومٍ فى غاية البساطة والسذاجة وهو ما يجعلها تنطبق على عقلية الإنسان الاول علما بأنها تتحدث بالنص عن الثمانية ازواج التى نزلت! مضمونها يوحى بأن إلتباساً قد وقع فى حكمة تحريم ذبح ذكورها والحفاظ على اناثها واجنتها! ويبدوا ان الشيطان فى ذلك المهرجان قد وسوس اليهم ان الإناث وما فى بطون الاناث محرمة من باب التقديس لانها ملائكة او ترتبط بالملكوت الاعلى، فضاعت الحكمة من الحفاظ على الاناث وما فى بطونها لإستمرارية النوع فاصبحت من المقدسات، ومن ثم فتح لهم اول باب للشرك بهذا المخلوق البهيم

الذى نزل من السماء وتذلل لهم وسمح لهم ليحلبوا لبنه من غير خوف ويذبحوا بعضه من غير صيد، وها هو الآن يخلق حياة جديدة مثيرة جدا لنا، ناهيك لهم!

ومن هنا يمكننا ان نفهم من اين اتت فكرة عبادة الاناث: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا}116 النساء {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا... } 19 الزخرف.

اذاً نفهم ان الانسان الاول انحرف فألبس الشيطان عليهم حكمة نزول الانعام، وبدل ان يذكروا الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام، استأصل الشيطان تلك الحكمة من عقولهم وتحول آذان الانعام الى اوثان ورجس من الشيطان عُبد من دون الله بكامل أذنيه على رأسه!

وقد اختلف المفسرون فى تفسير الآيات اعلاه، وظنوا انها تأنيث للّات والعزى وما ذلك الّا اجتهادا، لان المفسرين القدامى دائما يربطون معظم آيات الشرك بمشركي مكة قبل البعثة مباشرة، ولكن الواضح من ربط القرآن للحج بالانعام والتحذير من الشرك انه، أى الشرك، قديم قدم البيت والإنسان والانعام وحقد الشيطان على الانسان! ولعل فى تحديد العدد بثمانية فى هذه الآيات تأكيد على ان بداية هذا الشرك كانت بأول ثمانية انعام نزلت للإنسان الاول آلاف السنين قبل مشركي مكة والبحيرة والسائبة التى ظنَّ المفسرون ان الآيات تشير اليها والله اعلم! الطريف فى الامر ان تقديس إناث الأبقار مع إهانة الثور ظل الى اليوم جزء من عقيدة الهندوز كما سنشير الى ذلك لاحقا!

3. البلاء المبين:

متابعة لأحداث الجنة، من المنطقي جدا ان نفترض ان الأكل من "شجرة الخلد" قد أدي الى حمل بعض الإناث من مجموعة آدم، ومن الطبيعي أن تشعر مجموعة آدم بالخيبة من هذا الحمل الذى ما قاد إلا الى طردهم من الجنة! هنا نفترض أن الشيطان ما كان ليترك هذه الفرصة لتضيع من يده. فبعد ان تسبب فى الحمل غير الشرعي، فلا بد وأن يعود لينصحهم كيف يتخلصون من الأبناء غير المرغوب فيهم. وهذا الافتراض ليس وهما ولكن الشيطان الى اليوم وإلي يوم القيامة هو الذى يستدرج الشباب نحو الزنا فاذا ما وقع الحمل عاد ليستدرجهم الى ما هو اسوأ وهو قتل أبنائهم سفها! على أن الشيطان أبدا لا يدعو الإنسان لارتكاب معصية أو جريمة بصريح اللفظ، وانما يزين لهم المعاصي فتبدو حلالا ويزين لهم الجرائم فتبدو حقا ويزين لهم الظلم فيبدو عدلا.

لا بد لنا ان نتذكر دائما ان الشيطان لا يعلم الغيب ولذلك لم يكن من ضمن وعيده امام رب العالمين الا العبث بآذان الانعام لانه رأى نزولها وفهم خطورتها وما سوى ذلك سيتركه للظروف وتطور الإنسان نفسه!

و كان منطقيا اذاً ان تكون خطواته متوافقة مع بساطة الإنسان الأول نفسه، ولذلك كان قتل الأولاد واستئصال آذان الأنعام هما اول ما يمكن أن ينزلق فيهما الإنسان فور هبوطه الى الأرض. هذا

الافتراض يفسر لنا آيات كثيرة فى القرآن وجد المفسرون صعوبة فى أن يربطوها بعصر محدد أو ممارسة فى مجتمع معين، ونحن نظن أنها تحكى علاقة الشيطان بالإنسان عموما ولكنها ابتدأت مع الإنسان الأول. ولا غرابة أيضا أن هذه الآيات أتت فى سورة الانعام بعد الآية التى ناقشناها فى بداية باب "قصة التطور" وهي:

{وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} 133 الانعام. وقد رأينا ان الإنشاء هو الوقوف فى المشي بعد ان كان اسلاف الانسان يمشون كما تمشي الحيوانات منحنية!

مضت سورة الانعام تحكى قصة الإنسان مع الأنعام ومع البنين:

{وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ **وَالْأَنْعَامِ** نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ* وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ **قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ** وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ*وَقَالُوا هَذِهِ **أَنْعَامٌ** وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ **وَأَنْعَامٌ** حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا **وَأَنْعَامٌ** لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ*وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَذِهِ **الْأَنْعَامِ** خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ* **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** وَحَرَّمُوا مَا **رَزَقَهُمُ اللَّهُ** افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} 136-140 الانعام!

نلاحظ هنا ان الله وصف الانعام بانها **رزق من الله** وهذا التعبير ما جاء مرتبطا بالانعام الا حينما وصفها الله بانها بهيمة: {رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} 34 الحج، كما ناقشنا ذلك سابقا مما يخلق رباطا لفظيا بين ماهية الانعام التى تتحدث عنها الآيات، وهي البهيمة، وبين الانسان المقصود بالشرك وهو الانسان الاول الذى كانت الانعام فى نظره بهيمة غامضة! مما لا شك فيه أن الشرك قديم فى الأرض قدم الإنسان، وأخذ أشكالا مختلفة حسب تطور وظروف الشعوب والأمم، ولذلك من الصعوبة أن تنسب آيات عامة تصف حال المشركين الى أمة معينة، إلا إذا كان فى الوصف ما يخصص ذلك الشرك بتلك الامة. والمعروف عن الجزيرة العربية ان الشرك استمر فيها آلاف السنين بعد اسماعيل عليه السلام الى أن بعث الله خاتم الأنبياء والمرسلين. وقد اختلفت آراء المفسرين فى من تشير إليه هذه الآيات، وليس غريبا أن تغلب الاراء على أنها تصف حال المشركين قبل البعثة، ولكن هذا ليس بالضرورة. ما يهم فى هذه الآيات إنها ربطت الشرك بالله وعبادة الشيطان بعلاقة الإنسان ببهيمة الأنعام التى رزقه الله إياها، وانها كررت جريمة قتل

الابناء مرتين فى آيتين مختلفتين! ونحن نظن أن وصف قتل الأبناء فى: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ....} يتوافق أكثر مع سلوك الجيل الأول من مجموعة آدم، إذ أن الوصف هنا ليس قتلا بسبب الفاقة والجوع وإنما إلتباس فى دينهم. أى أن قتل الأبناء أصبح من الدين فى فهمهم وهذا يمكن أن يكون منطق الشيطان حينما نصح مجموعة آدم أن يقتلوا أولادهم تخلصا من المعصية، وتعبيرا عن الندم حتى ينالوا رضاء ربهم! ولعلّه من المنطقي ان نفترض ان مفهوم ذبح الانعام تقربا الى الله كان مصدرا للالتباس مما جعلهم ينزلقون فى نصح الشيطان بذبح ما هو اغلى من الانعام وهم ابنائهم ظنا منهم ان فى ذلك عبادة اسمي وقربى اعظم وتوبة خالصة!

ولا يخفي علينا ان فى ذكر بهيمة الانعام والشرك مقترنين بالحج تذكرة للحجيج باهم مميزات ما كان حول البيت فى غابر الزمان، وهو ما بوءه الله لابراهيم حينما اعاد بناءه والله اعلم، مما يجعل من الحج رحلة سياحية خاصة تنقل الانسان للزمان الغابر حيث لم يكن حول البيت الا بهيمة الانعام التى اشرك بها الانسان بعد ان البس الشيطان عليه امرها!

لمَّا كنا قد خلصنا الى أن الإنسان الأول انزلق فى منزلق الشيطان وبتك آذان الأنعام فأشرك بها مبكرا، كان منطقيا جدا أن نفهم أن الله سبحانه وتعالي اصطفى آدم عليه السلام على ذلك الجيل او على الجيل الثانى من بعدهم، وبعثه إليهم كأول رسول فى الأرض من الجنس البشرى!

ولأنَّ الشرك بالله عند البيت بالانعام، ثم ذبح الابناء قربانا لله كانا من اكبر المعاصي التى ارتكبت حوله، فانه ليس مستغربا ان يشغر هذين الحدثين جزءً مهما من رحلة إبراهيم الإستكشافية لارض آباء الانسانية! ومن هنا نظن ان قصة الفداء وذبح اسماعيل لم تكن الا امتدادا لقصة سابقة وليس حدثا مبتورا فى حياة النبيين! ما نود مناقشته هنا هو علاقة الأنعام بقصة الفداء اذ اننا نظن ان هذه القصة قصد منها تأثيث علاقة جديدة بين الانسان وربه من ناحية وبين الانسان والانعام من ناحية اخرى! ولان الحدث كان بشعا فقد رواه الله لنا بصورة من ابلغ التصاوير التى رسمتها كلمات القرآن فى اذهان المسلمين كما رسمتها التوراة فى اذهان اليهود والنصارى من قبل، وهي رؤيا ابراهيم عليه السلام وهو يهم بذبح ابنه و التى ناقشناها سابقا ولكننا سننظر اليها من زوايا مختلفة هنا!

من ابرز الملاحظات فى تلك الآيات فى سورة الصافات ان ابراهيم لم يقل انه رأى وانما قال: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بنى **انى أَرَى** فى الْمَنَامِ انى أَذْبَحُكَ....}. وكلمة "أري" تعنى تكرار وإستمرارية الرءيا مما يدلل على ان الله ربما أري ابراهيم كل ما دار حول البيت فى الزمان الغابر مرارا وتكرارا! ولعلَّ من ضمن ما رأى هو ممارسة اولئلك البشر لعبادة ذبح ابناءهم عند **السعي** وهو قطع حجارة الصفا والمروة، مما جعل ابراهيم يظن انها كانت عبادة، وان تكرار

الرءيا ليس الا امرا له ليسير على خطاهم! هذا يفسر لنا البساطة التى تمت بها استجابة ابراهيم واسماعيل للرءيا والتى تتناقض ظاهريا مع ما ابرزه القرآن من شخصية ابراهيم المجادل التى ناقشناها بالتفصيل فى باب "ملة ابراهيم" و"المثابة" "والحج"! فقد جادل إبراهيم بنص القرآن والتوراة فى قوم لوط وشفع لهم الى ان اخبره الله أنَّ قضاءه قد نفذ فيهم، فكيف به يرضى من غير جدال او استرحام او استفهام ان يذبح ابنه الوحيد الذى انتظر مجيئه طوال عمره؟ هذه الإستجابة اما توحي لنا بان ابراهيم كان معتادا على قضية ذبح الابناء تقربا الى الله فى مجتمعه، وربما كان يعتبر نوع من الشهادة فى سبيل الله فيقبل الآباء عليه بثبات وجلد ويستسلم الابناء له راجين حياة افضل من حياتهم عند ربهم، او توحى بانه كان يعلم ان ما يقوم به ليس الا تمثيلا لامر ما وان الله سينقذ ابنه من الموت!

كلمات القرآن توحي بأنَّ استجابة ابراهيم كانت سريعة، وأنَّ قدر الله فى الفداء كان سريعا ايضا، على غير ما صورت الإسرائيليات من ان ابراهيم ظلَّ يمرر السكينة على عنق اسماعيل مرارا قبل ان يتم الفداء: { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ*وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}. نلاحظ هنا ان الله ناداه فور ان استلقي اسماعيل على الارض، لان الحدث قد عُطف على ما قبله بحرف "الواو" الذى يفيد وقوع المعطوف والمعطوف عليه فى نفس اللحظة! هذا يدعونا للتدبر فى ان الحدث عند الله لم يكن الا تمثيلية تصويرية تشابه ذبح الابناء، ولكن لم يكن فيه شروع فى الذبح لأن الرءيا قُصد منها البلاء وليس الإبتلاء!

اذا فالحكمة من وراء التقليد و التمثيلية كما اراد الله لها ان تكون لم تكن عبادة، اذ ان الله ما جعل قتل الابناء عبادة ولكن قصد ان تكون تصويرا لحدث بليغ يمحو هذه الجريمة من اذهان وقلوب الناس تماماً! فلما صدَّقَ ابراهيم الرءياء أى نفذها كما رآها، وهو لا يدرى بالطبع كيف ستكون النهاية، تحققت الحكمة من التمثيل ففدى الله اسماعيل فورا بذبح عظيم يحل محل ذبح الابن فى التقرب الى الله، ووصف استجابة ابراهيم بـ {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ}، أى النهاية الواضحة التى ترسخ فى اذهان الناس لتلك المعصية فى قتل الابناء! اذ ان **البلاء** هنا هو النهاية والزوال كما فى قوله: {قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا **يَبْلَى**} 120 طه، أى لا يزول! وقد صدق الله العظيم اذ ان اليهود والنصاري والمسلمين جميعا يعرفون قصة الذبح والفداء هذه لا لشئ الا لانها تمت بقصة تصويرية تعلق بالاذهان حتى للذين لا يؤمنون بمضمون الكتب السماوية، فكانت بلاء مبينا حقا أى محوا بليغا لفرية التقرب الى الله بذبح الابناء! ونحن نظن ان بشاعة الصورة التى تتركها التمثيلية فى اذهان من لم يعتادوا على ذبح ابناءهم قد أدت الى ان يخلط الناس بين البلاء والابتلاء! فضلا عن ان الآيات التى تصف "الابتلاء" تنتهى بما يدل على شدة المعاناة كقول الله: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} 11الاحزاب، وحتي حينما

يرد البلاء بمعنى الابتلاء وشدة المعاناة نجده يصفه بـ العظيم: { وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}141الاعراف، ولكن هذه الآية انتهت بـ: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ}، **والمبين** تفيد الوضوح الذى لا يخفى على احد، وكأن الحكمة منها ليس الإبتلاء وانما المحو الواضح لتلك البدعة، وقد كان! ومضت الآية تصف ابراهيم بالإحسان وليس الصبر كما يتوقع القارئ من تجربة مرعبة كهذه: {كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}102-110 الصافات!وهذا يدلل على أن إبراهيم قد عَبَدَ الله كأنه يراه وهو معنى الإحسان، وادى ما عليه من دورٍ فى تمثيل ذلك الحدث كما رآه، ولكن لم يكن هناك ذبح ولم يوصف بالابتلاء ولم يصف ابراهيم بالصبر والله اعلم!
على ان المتدبر فى الآيات التى وصفت قصة الرءيا لا بد وان يلاحظ ملاحظة جد غريبة تزيد من آذان الأنعام غموضا وروعة:

{**وَفَدَيْنَاهُ** بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}:

فدي فى اللغة تعنى ان يجعل شئ مكان شئ حماية له، وهي غالبا ما تستعمل لفداء الاسير! مفهوم فداء الاسير يتضمن حقيقة لا جدال حولها وهي ان الذى يفدي لا يملك ان يحرر الاسير الا باستجابته لشروط الفداء! هذا المعنى يثير تساؤلا غريبا اذ ان الله تعالى هو الذى ارى ابراهيم الرءيا وانه هو الذى قدر لاسماعيل ان يتعرض لذلك الموقف، والله لا يحتاج ان يحمي اسماعيل من الذبح بكبش لانه هو الذى امر بتمثيل الذبح وهو الذى يمكن ان يلغي الامر! بمعنى اخر لما كان كل الامر من الله فلماذا لم يقل الله لابراهيم "لقد صدقت الرءيا فلا تذبحه وينتهي الامر"؟ وهو الذى عطل ناموس الكون وامر النار ان تكون بردا وسلاما على ابراهيم من غير فداء! لنفهم هذا التعبير الغريب لا بد ان نقوم بترتيب كل قصة ابراهيم مع البيت ترتيبا منطقيا يشرح كل التعابير التى استعصي فهمها منفردة! فقد بدأت القصة بـ { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ} 124البقرة، وكان ذلك ان كشف الله له قصة الجبلين زمنا قبل مجيئه الى البيت، فاستنتج ابراهيم بقية القصة! تبع ذلك: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ..}26 الحج، أى قص عليه كل الاحداث كما هى من غير تحديد ما يباح وما لا يباح. تبع ذلك ان امره ان يؤسس لعبادة الحج التى تروي قصة الانسان الاول { وَأَذِّنْ فى النَّاسِ بِالْحَجِّ}27 الحج، ولما كان تمثيل الحج يشتمل فقط على الحقائق المباح تمثيلها، فقد تم استثناء التطوف بين الصفا والمروة بلفظ لا "جناح": {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ **فَلَا جُنَاحَ** عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}158 البقرة، اشارة الى انه هناك جناحٌ واثمٌ فيما حدث من شرك وقتل للابناء فى هذا الموقع، و لذلك اكثر الله من التحذير من الشرك. ولما كانت فرية قتل الابناء جزءً اساسياً من تمثيلية الحج اراد الله لها ان تُمثَّل، فقد اراها لابراهيم فى ذات الموقع كما هى: { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ **السَّعْيَ** قَالَ يَا بنى انى

أرَى فى الْمَنَامِ انى أَذْبَحُكَ} 102 الصافات، مما يوحى بان الانسان الاول ربط بين التطوف بين قطع حجارة الصفا والمروة "السعي" الذى كان عبادته الأولى وبين ذبح ابنائه توبة الى الله فى ذات الموقع فى عصر القرابين! ولما اقتضت ضرورة تمثيل كل احداث حياة الانسان الاول بما فى ذلك تمثيل ذبح الابناء حيثما حدث وكيفما حدث، ولكن مع استحالة ذبح اسماعيل، فقد استعمل لفظ {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} اشارة الى ان هذا الدور وحده يستدعي ان يقوم به اللاعب الحقيقي الذى كان يجب ان يذبح فى القصة الاصلية، ليضع الانعام فى وضعها الطبيعي الذى كان يجب ان يكون ويفدي ابناء المسلمين من بعد اسماعيل من ان يذبحوا، وفي ذات الوقت تكتمل القصة تمثيلا حرفيا، ويكون الحج حجة على الانسانية جمعاء. أى ان ضرورة تمثيل الدور هى التى اقتضت استعمال لفظ الفداء، ليس لان الله لم يكن قادر على انقاذه من غير فداء ولكن لان التمثيلية اقتضت ان يذبح احد هنا فكان الفداء وذبح الكبش، واستقام المعنى منطقا ولغة وعقيدة!

وهكذا فان قصة ذبح الكبش التى تمت عند البيت فداء لاسماعيل اصدرت حكم الله المبين فى جريمة ذبح الابناء واعادت وضع الأنعام الى الوضع الطبيعي الذى كان يجب أن يكون، وهي أنها منزلة من الله لمصلحة الإنسان فى اكله ومشربه وملبسه وترحاله وليست للعبادة، وانها آيه من آيات الله وآذان منه للناس ليذّكّروا حكمة الله فى خلقها الغامض وحكمته فى انزال مخلوق من السماء يسكن بيوتنا يحمل من الاسرار ما نتركه للاجيال القادمة للبحث فيه! فضلا عن ان القصة اكملت لنا مذكرات الانسان الأول كما كانت من غير الوقوع فى ما كان فيه جناح فى عصر القرابين!

4. العجل الذهبى والبقرة الصفراء:

إن آذان الأنعام الذى ربطه الله تعالى بالبيت العتيق أعظم من ان يكتشف الانسان كل اسراره فى زمن واحد، بل هو آذان يظل يصدح بوجود الله وقدرته فى الخلق حتى بين الذين لا يؤمنون به، وما هذه الآية الا دليل على ذلك:

{وَإِنَّ لَكُمْ فى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ} 66النحل.

تحدث المختصون فى "الإعجاز العلمي فى القرآن" كثيرا عن اسرار ألبان الانعام وكيفية خلقها. والمعروف أن اشهر فوائد الأنعام اليوم هى ألبانها التى لا يخلو بيت من بيوت سكان الغابات أو القصور منها ومن منتجاتها من جبن وسمن وغيره، وكأن آذان الانعام صادحٌ فى كل مكان، ولكن الشيطان نجح فى ان يغفل الناس عنه و عن التدبر فى خلقه وفي خالقه. ومما لا يتفكر الناس فيه ان الإنسان لا يشرب الا ألبان الانعام رغم ان كل الثديات تطعم صغارها من ألبانها من حمير

وحصين وقردة وخنازير، ولكن بقيت ألبان الانعام دليلا على اهمية آذانها الذى ألبسه الشيطان على الناس طوال القرون من بعد آدم. ورغم ان الاكتشافات العلمية الحديثة قد لفتت الأنظار للحكمة من آية الألبان هذه، إلا أن الناس ما زالوا ابعد ما يكونون من التدبر فى حقيقة هذه المخلوقات السماوية على الأرض. الغريب فى الامر ان هذه المجموعة التى تحمل اسما واحداً هو "الانعام" لا تربط بينها صلة بيولوجية، اذ انها لا تنتمى لفصيل واحد من الحيوانات كفصيل القط مثلاً الذى ينتمي اليه القط والفهد والنمر والاسد. هذه المجموعة لا يربط بينها الا انها خلقت مما عملت يد الله وانزلت لتكون مستعبدة ومسخرة للانسان يُطعمها ويَطْعَم منها ويذبحها ويأكلها، وفوق ذلك كله فهى آية كبرى ولكنها غامضة من آيات الله!
واجتهادات الشيطان فى ان يبتك آذان الأنعام اخذت اشكالا مختلفة على مر العصور، ومن اشهرها قصة العجل الذى عبده بنوا إسرائيل فى عهد هارون ثم البقرة الصفراء الغامضة التى احيا الله ببعضها الموتى، وجعل منها اسماً لاطول سورة فى القرآن! وحتى نفهم تلك القصة لا بد لنا من عجالة ننظر فيها الى **ألوان** بنى إسرائيل عبر العصور الى عهد موسى وهارون!

اجتمعت أول اسرة من بنى إسرائيل فى مصر فى عهد يوسف الصديق عليه السلام. كان يوسف هو إبن اسرائيل الحادي عشر. وإسرائيل هو نبي الله يعقوب إبن اسحق إبن ابراهيم عليهم السلام جميعا. إذا فيوسف الصديق كان نبيا ابن نبي ابن نبي ابن نبي الله وابو الأنبياء إبراهيم. لمَّا ألقاه إخوته فى غيابت الجب والتقطه بعض السيارة شروه بثمن بخس فى مصر واشتراه عزيز مصر ليتخذه ولدا! نشأ يوسف الصديق فى قصر الملك، وكان ما كان من قصته المشهورة الى ان ورث الملك وحمل أبويه على العرش وخروا له سجدا. وهكذا سكن إسرائيلُ عليه السلام وبنوه مصر، ويوسف ملكا عليها، بعد أن ورث الملك ممن تبناه! بعد موت يوسف انتقل الملك الى الفراعنة من جديد وظل توالد بنى إسرائيل فى مصر ضيوفا على أهلها، ولكن لأسباب كثيرة ليست مجال هذا الكتاب، اضطهدهم الفراعنة وانحدروا الى مستوى أشبه بالاستعباد، الى أن بعث الله موسى فى عهد رمسيس الثانى كما يظن المؤرخون، بعد حوالي أربعة قرون من عهد يوسف عليه السلام! كان فرعون يعلم أن بنى إسرائيل لهم أسرار عقائدية ترهبه لأنه يؤمن أن نبوءاتهم تكون حقيقة، مما يبرر انه سعى الى أن يقتل كل الولدان فى زمان ميلاد موسى، عندما علم من بنى إسرائيل انه سينهي ملكه. لذلك ابتدع فرعون **الختان الفرعوني** للنساء حتى لا تلد أى أمراة من بنى إسرائيل إلا بعلم عيونه، فيُقتل المولود لو كان ولدا، ولكن الله حفظ موسى الذى اسقط عرش فرعون ونجا ببني إسرائيل الى سيناء!

ما نلاحظه من قصة موسى فى القرآن انه لما كُلّف بالرسالة، أرسله الله الى فرعون أولا قبل أن يعيد تربية وتعليم بنى إسرائيل أصول دينهم. وقد كان هؤلاء قد انحدروا فى جاهلية اختلط فيها ما توارثوه من آباءهم الأنبياء مع تأويلاتهم وأساطيرهم وربما أساطير الفراعنة، فأصبح كل شئ عندهم له أصل من الصحة وكثير من اللبس والجهل! ولكن دعوة موسى ابتدأت أولا باسقاط عرش فرعون وإخراج بنى إسرائيل الى سيناء. عندها فقط ذهب موسى عليه السلام للقاء ربه وهو اللقاء الذى أُعطِيَ فيه التوراة مكتوبة على الالواح. فى طريقهم فى سيناء كشف بنوا إسرائيل عن قابليتهم للشرك فى وجود موسى:

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} 138 الأعراف.

استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارونَ، و لكن رغم ذلك وقعت قصة العجل التى يصعب على الكثيرين فهمها، والتي نسوق أولا آياتها من القرآن:

{فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي* قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا **فَكَذَلِكَ** أَلْقَى السَّامِرِيُّ* **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ*** أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا* وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي* قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى* قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا* أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي* قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي انى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بنى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي* قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ* **قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي*** قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فى الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الذى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فى الْيَمِّ نَسْفًا*إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الذى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} 86-98 طه!

احتوت كتب التفسير على متاهات فكرية وعقائدية ولغوية لا حصر لها فى تفسير هذه الآيات وآيات البقرة الصفراء مما يؤكد غموضها وعدم وجود تفسير قطعي لها من الرسول صلى الله عليه وسلم. وتجاوزت الخلافات الخلاف فى المضمون الى خلاف فى إعراب الكلمات وحتي فى قراءة بعضها اذ قرأ بعض الأئمة {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً} بـ {فقبصت قبصة} وعني "خطفت خطفة" سريعة! وبدل نقل تلك الخلافات هنا، ننصح بالاطلاع على كل التفاسير للوقوف عليها!

اما ملخص القصة من تلك التفاسير فهو: أن بنى إسرائيل حملوا معهم مجوهرات وزينة الفراعنة، فلما وصلوا سيناء حرمَّها عليهم هارون وحفر حفرة ليحرقها فيها. وكان السامري من عظماء بنى إسرائيل الذين نجوا من قتل فرعون بعد أن وضعته امه فى كهف، وكان جبريل يطعمه عسلا ولبنا الى أن كبر حسب التفاسير، فرأى فى صباه من جبريل ما رأى، وأصبح بمقدوره التعرف عليه. ولكن السامري كان فاجرا وأراد أن يعبث بعقيدة القوم لأنه ما كان يريد إتباع موسى كعادة عظماء بنى إسرائيل وتمردهم على الأنبياء. فلما كان من أمر الحُلي والذهب الذى انصهر فى الحفرة لمَّا القاه هارون فيها، قام السامري بخلق الهٍ فى شكل عجلٍ ذهبي، وكان السامري قد رأى جبريل على جواده فى البحر حينما انشق، فسولت له نفسه أن ياخذ من اثر حافره ترابا لما يظن انه يمكن أن يكون فيه سر، فلما خلق العجل الذهبي ألقى عليه التراب راجيا أن يكون عجلا كما سولت له نفسه، فكان فتنة من الله وأصبح عجلا ذهبيا له خوار، فقال لبني إسرائيل ان هذا هو اله موسى لكنه نسي أن يأخذه معه، فخر بنوا إسرائيل له ساجدين كما تشير الآيات رغم محاولات هارون أن يثنيهم عن شركهم! هذا تلخيص لما ورد فى التفاسير من أمر هذه القصة، ونحن نظن أن معظم هذه الروايات من تأويلات الاسرائليات، إذ أن القصة أعمق بكثير من هذه الآراء التى لا ترتبط منطقيا ببعضها فضلا، عن أن سر "آذان الأنعام" سرٌ غامض يجب أن نعطيه حقه من التدبر بالذات فى قصة كهذه يرويها لنا القرآن ارتبطت بعودة عبادة البقرة.

وقبل ان نجتهد فى فهم هذه القصة الغريبة، هناك اسئلة مشروعة لا بد من طرحها وهي: لماذا ينحدر اليهود وهم ذرية الانبياء والمرسلين فى عبادة وثنية فى وجود نبيين من اعظم انبيائهم؟ ولماذا اخذت تلك الوثنية شكل عبادة "العجل" وليس الاسد او الفيل من الحيوانات ذات الهيبة والرهبة، او اخذت شكل الاصنام الضخمة المهيبة التى اكتظت بها مصر آنذاك؟ وكيف نجح القوم فى استضعاف نبي الله هارون الذى عجز عن ردهم عن عبادة "العجل" الى ان رجع اليه موسى؟ لنستطيع الاجابة على هذه الاسئلة لا بد ان ننسي قليلا روابط "الود" التى تربطنا ببنى عمنا ونتدبر الحدث تدبرا عقلانيا بعيدا عن العواطف والاستخفاف.

هناك مفاتيح لا بد للباحث المتدبر أن يستعملها فى فك طلاسم أى رواية تاريخية، إذ أن الشعوب والأمم لها خصوصيات تختلف فى العصر الواحد، وتختلف عبر العصور من جراء تطور تفكير الإنسان وإمكانياته العقلية والمادية. بنوا إسرائيل كانت لهم خصائص تميزهم اهمها الاحتفاظ بآثار الأنبياء والرسل ومذكراتهم وصحفهم لدي الكهنة الذين يستنبطون منها ما شاءوا فى سنين لاحقة! هذه الخصوصية يؤكدها أمران فى القرآن أولهما أن موسى عليه السلام نفسه تسلم التوراة من الله مكتوبة على الألواح:

{وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} 145 الأعراف!

أى أن التوراة لم تكن وحيا يوحى كالقرآن الذى نزل بلسان حال العرب الذين كانت من خصوصياتهم قرض الشعر وحفظه، وإنما نزلت كتابا مكتوبا لان تلك كان خصوصية بنى إسرائيل! والأمر الثانى هو قصة التابوت الذى فيه بقية مما ترك آلُ هارون تحمله الملائكة، والذي اعيد الى بنى إسرائيل كآية ملك طالوت الذى حكم اليهود قبل داؤود عليه السلام كما ورد فى سورة البقرة:

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} 248البقرة!

هاذان الدليلان يؤكدان على أن بنى إسرائيل اعتادوا الاحتفاظ بأسرار **وآثار** الأنبياء والرسل مكتوبة! ولعل بنى إسرائيل كانوا قد ورثوا بعضا من صحف إبراهيم كما يدلل عليه قول الله تعالى، رابطا صحف إبراهيم وموسى معا:

{إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى* صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} 18-19الاعلي.

وقد اشتملت سورة الاعلى فى بدايتها على ذكر الخلق والمرعى من ضمن ما أشار الله الى انه فى صحف إبراهيم وموسى باختصار شديد:

{ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى*الذى خَلَقَ فَسَوَّى*وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى*وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى* فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى} 1-5 الاعلي !

والمعروف أن بنى اسماعيل انقطعت صلتهم بالله من بعد اسماعيل الى بعثة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، ولكن بنى إسرائيل توارثوا آثار الرسل الى قرون بعيدة، ولعل ضمن ما ورثوا حينها بعضا من صحف إبراهيم عليه السلام! وحتي نعيد فهم هذه القصة لا بد من الاستعانة بمعاني ألفاظها:

"**حليهم**" من "حلو": والحلو هو كل شئ طيب تميل اليه النفس. اذا فالحلي تشمل كل غالٍ ونفيث، وحلي الرعاة تشمل قطعان الماشية.

جسد: تعنى تجمع الشئ واشتداده، و من معانيها فى المعجم "اليابس والهزيل". وقد وردت فى القرآن فى عدة آيات كلها تشير الى جسد هزيل او عليل:

{وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ }8 الانبياء

{وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ } 34 ص.

خوار: من خور وهي اما صوت البقر، او تعنى الضعف "خائر القوي"!

ونحن نظن أن بنى إسرائيل لما خرجوا الى سيناء كانوا قد اخذوا معهم ذهب ومجوهرات الفراعنة "**مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ**" من ضمن ما اخذوا، وهذا ما حرمه عليهم هارون واحرقه. ولكن الوصف القرآني يصف ان السامري اخرج العجل "**مِنْ حُلِيِّهِمْ**" وليس من زينة القوم، وهذا ما كرره القرآن فى موقعٍ آخر:

{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ **حُلِيِّهِمْ** عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ } 148 الاعراف.

نقف هنا فى كلمة خوار: اذا افترضنا ان المقصود فى الآية انه عجل له "صوت العجل"، يصبح السياق غريبا لان كل العجول لها خوار وليس نباح او صهيل! ما يزيد الامر غرابة ان هذا العجل وُصف بـ {..أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا} و {لَا يُكَلِّمُهُمْ}، فهل هنالك عجل اصلا يكلم للناس ويرجع لهم قولا، أى يحاورهم؟ وهل اذا تكلم "ذلك" العجل بطلاقةِ هدهد سليمان سيستوفي صفات الاله، ام ان الله يوحى الينا هنا ان "ذلك" العجل كان ابكم؟! هذا الافتراض يدفعنا للتدبر فى المعنى الثانى لكلمة خوار: وهو انه خائر القوي! على ضوء هذا الافتراض يمكن ان نفهم "لَا يُكَلِّمُهُمْ" بانها تعنى ان العجل كان خائر القوي، ولا يستطيع الاستجابة لسيده بالتذلل المعروف فى الانعام التى تطلق اصواتها كتعبير استجابة، وهذا ايضا يشرح لنا المقصود من "جسد" اذ انها تعنى انه هذيل وعليل الجسد! فاذا جمعنا كل التلك الصفات نفهم من اين أتى به السامري:

"جسد": هزيل ،...."له خوار": ضعيف وخائر القوي،...."لا يكلمهم": ابكم! هذه الصفات تجعل منه عجلا بخسا قليل القيمة، وهذا يشرح لنا ان السامري انما اخرجه من قطعانهم {فَأَخْرَجَ لَهُمْ} {مِنْ حُلِيِّهِمْ}، وليس من زينة القوم (الذهب) اذ ان حليهم هنا تعنى ثروتهم، واليهود لن يخرجوا من ثروتهم الا ابخس الاشياء واقلها ثمنا "عجل ابكم هزيل خائر القوي"!

اذا فالعجل كان حقيقيا وليس ذهبياً، لان القرآن اصلاً ما نص على ذلك، وانما ذلك تأويل اليهود فى التوراة، وفي الآية الاخيرة تأكيد على انهم اتخذوه بانفسهم الها ولم يصنعه لهم السامري. هذه الحقيقة تقودنا لمحاولة فهم دور السامري فى انتقاء هذا العجل:

"**اثر الرسول**": أبصر السامري فى حاجيات القوم ووجد صحفا أو آثارا من الرسول ما كان متاحا له الاطلاع عليها قبل الخروج من مصر، فاطلع عليها على عَجَلٍ، وعرف منها قدرا من قصَص الإنسان الأول، ومن ضمن ما عرف هو أن الله انزل الانعام من السماء وان الانسان الاول عبد "ما فى بطون الأنعام"، والعجل هو ابن البقرة، ولذلك استغل رغبة قومه فى أن يكون لهم اله وثناً، فكان اختياره للعجل مرتبطا بما استوحاه من اثر الرسول، وبالطبع من وحي وإضلال الشيطان له! الرسول هنا ليس جبريل، واثر الرسول ليس أقدام جبريل وإنما الآثار التى وجدها فى متاع القوم مما توارثوه من الرسل، واحتفظوا به سرا طوال سنواتهم فى مصر! هذا

التفسير أسهل فهما وأكثر منطقا، إذ أن قصة رؤية السامري الفاجر لجبريل قصة لا يمكن استساغتها، إذ كيف يمكن ببساطة للسامري على فجوره أن يبصر جبريل "الرسول" وهو الروح الأمين، ويأخذ ترابا من تحت أقدامه وسط البحر، ثم يبعث به حياة فى عجل ذهبي؟ علما بان جبريل كان يتنزل على النبى صلى الله عليه وسلم طوال رسالته ولكن لم يره الصحابة على عدالتهم الا نادرا. اغلب الظن أن قصة العجل الذهبي كلها من نسيج الشيطان وان هذا التأويل مصدره الإسرائيليات التى لا تؤكدها أحاديث صحيحة من السنة، وان تضخيمهم لقصة العجل الذهبي وقدرات السامري الخارقة ليست الا امعاناً فى الشرك الذى انطلي على كثيرٍ من المسلمين لغرابة القصة!

ولما كانت الانعام اصلا منزلة من السماء بنص القرآن، فان حجة السامري التى وجدها فى اثر الرسول كانت بالطبع اقوى من حجة هارون الذى كان ما زال فى انتظار نزول التوراة على موسى، وهذا يشرح لنا استضعاف القوم لهارون:

{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ **اسْتَضْعَفُونِي** وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} 150 الاعراف.

اذاً استضعاف القوم لهارون هنا لم يكن إلا استضعاف حجة، إذ أن هارون كان أفصح لسانا من موسى، بل أن موسى نفسه قد طلب من الله أن يشد عضده به كما ورد ذلك فى سورة القصص:

{وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ منى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي انى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونَ} 34 القصص.

الاستضعاف هنا نتج من أن السامري كان معه ما فَهم القومُ أنَّه وحيٌ من أثر الرسول، أى ما ترك من آثار ووثائق وليس اثر أقدامه، فقبلوا حجة السامري واستضعفوا حجة هارون أن "ربهم الرحمن"، التى لم تكن بعد قد رسخت فى اذهانهم لان التوراة ما كان بعد قد نزل. وما كان من موسى الا ان قطع العجل وحرقه ثم نشره فى البحر حتى يزول تماما خوفا عليهم من استمرار الشرك، وهذا ما توحي به "لَنَنْسِفَنَّهُ" أى يزيله من الوجود تماما، اذ ان "النسف" تعنى الإزالة والاخفاء وليس النسف بالمتفجرات كما نفهمها الآن. والمبالغة فى ازالته هنا تشابه عزم عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما اجتث شجرة البيعة خوفا من ان يتخذها الناس معبدا فى المستقبل!

قصة العجل بهذا المعنى تتضح لنا اكثر حينما نفهم قصة البقرة الصفراء، ولكن ما يهم ان نفهمه الى الآن هو صفات العجل الذى اخرجه لهم السامري من القطيع، وكانت حجته قوية فى نظرهم انه اله موسى "عجلٌ ابكم هزيل خائر القوي"!

ولان القصة لها علاقة مباشرة مع سر احياء البقرة للموتي، فاننا نطلب من القارئ هنا ان يتدبر بشدة فى لفظ "كذلك" فى {**فَكَذَلِكَ** أَلْقَى السَّامِرِيُّ} و {**وَكَذَلِكَ** سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}، لان فى هذه التوليفة من الكلمات شفرة هامة ترتبط بتناسخ الارواح الذى تتداخل فيه الالون "الفاقعة" مع "الخوار الداوي" كما سنرى قريبا!

يبدو من تاريخ اولئك القوم ان الشرك كان متمكنا منهم رغم اتباعهم السياسي لموسي، ويبدوا ان عقيدتهم فى البقر قد ادخلت فى نفوسهم رهبةً وخوفاً من ذبح البقر، الى ان جاء اليوم الذى امرهم الله فيه ان يذبحو بقرة، أى بقرة، فوقعت قصة البقرة المشهورة فى القرآن! وحتي نستوعب تلك القصة الغريبة التى ما زالت تدخل رهبة فى نفوس الناس والتى اختلفت آراء المفسرين فيها اختلافات متباينة، لا بد ان نُذكِّر باصناف "التعبير النفسي" فى القرآن التى اشرنا اليها سابقا: فسورة مريم احتوت على لغة عاطفية رقيقة تربط شعور القارئ مع مريم الانثى الضعيفة. وسورة التوبة لا تبدأ بإسم الله لما فيها من آيات الحرب. وقصة ابراهيم فاضت بألفاظ المحاججة واللفتات التى تستفز العقول لان تلك "ملة ابراهيم"، اما قصة الانسان الاول فاشتملت على الألفاظ الحركية التى توحى بعجز الانسان المقصود عن كثيرٍ من ملكات التعبير! فى قصة البقرة الصفراء كان الاسلوب وبلا شك هو اسلوب السخرية والازدراء من عقول تلك الفئة التى اساءت لبيت اسرائيل والنبيين بشركها: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} 15 البقرة، وهذا ما نحتاج لان نستحضره ونحن نحاول فهم الفاظها الغريبة!

مضمون القصة ان الله اراد ان يستأصل من عقولهم تلك العقيدة الفاسدة والرهبة من البقر بمشهدٍ تصويري بليغ، كمشهد ذبح اسماعيل عليه السلام، فأمرهم ان يذبحوا أى بقرة، اذ ان القصد هو الاقدام على الذبح وليس هوية البقرة! وقبل ان نفك شفرة إحياء الموتى فى "**ذلك**" الحوار، يستحسن ان نسوق قصة البقرة من التفاسير اولا:

وردت روايات مختلفة فى تفسير هذه القصة أشهرها أن رجلا من بنى إسرائيل قتل قريبا له ليَرِثه، فتستَّر القومُ على القاتل، وطُرحت الجريمة على موسى عليه السلام ليحلها، فأمَرَهم أن يذبحوا بقرة، أى بقرة ، فظن القوم انه يستهزئ بهم من غير أدب أو احترام لنبي الله، وظلوا يحاورونه فى صفة تلك البقرة، حتى حدد لهم مواصفات تنطبق على بقرةٍ واحدة فقط فى المدينة، مما اضطرهم لشرائها بضعف ثمنها ذهبا. وقد اختلفت الروايات فى مالك تلك البقرة فقد قيل: انها لمسكينة كانت عائلها الوحيد، و قيل انها كانت لغلامٍ يتيمٍ بارٍ بوالدته المُسنَّة فاراد الله ان يكرمه بثمن باهظ لبقرته، وقيل ان البقرة تكلمت معه ذات يوم واخبرته ان لا يبيعها الا الى موسى!

بالطبع فهذه الروايات اسرائيليات ولا يخفى على احد انها زادت من غموض تلك البقرة الاسطورية خاصة وانه بعد ذبحها احيا بها الله ميتا بصورة غامضة وجعل منها اسما لاطول سور القرآن!

ما لا شك فيه ان القصد من ذبح البقرة كان لاستئصال عقيدتهم الفاسدة وخوفهم من ذبح الابقار، وهذا يتضح من ان وصف البقرة جاء اولا بصيغة نكرة:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} نلاحظ هنا صفاقة هؤلاء القوم الذين يصفون الله فى شخص نبيه انه يسخر منهم لانه يريد ان يخرجهم من شركهم! من هنا لنا ان ان نفترض ان الله الذى يعلم مرض قلوبهم قد بدأ يستهزء بهم حقيقة لان هذا ما يستحقون:

{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هى قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ}

البكر: التى لم تنجب. الفرض: التأثير بالشئ كالحز. العوان: هو الشئ الظاهر الجلي. نلاحظ هنا انهم يتظاهرون بالغباء، والله يعلم انهم مشركون لانهم بصريح اللفظ قالوا لموسي: "ادْعُ لَنَا رَبَّكَ" وكأن ربه ليس ربهم! ولا شك ان الله يعلم صفات العجل الراسخة فى ذاكرتهم وكان مصدر شركهم، ولكنه تعالى استهزء من تعقيدهم للامر البسيط فاجابهم اجابة اكثر تعقيدا وما ذلك الا تحقيرا لهم! هذه السخرية الربانية تشابه قول رجلٍ طلب من ابنه ان ينادي حسين اخاه، فاجاب الابن بوقاحة: "من حسين؟" فرد الاب: { حسين الذى ان كان مستعجلاً مشى على عجلٍ وان كان جائعاً اكل العجل.. نادي حسين يا وقح!} فقد وصف الله البقرة بانها: ليست بكر ورغم انها ولدت من قبل لكن ذلك لم يترك اثرا واضحا على جسدها، وبهذا الوصف فهى بقرة بينة وواضحة فاستجيبوا للامر بلا وقاحة!!! بمعني ابسط: الامر امر من ربكم فاذبحوا أى بقرة! و لكنهم اصروا على الوقاحة واستعملوا فى سؤالهم هذه المرة كلمة ذات اكثر من معنى، فاجابهم الله اجابة ذات معانٍ والوانٍ جعلت منهم مسخرة على مر العصور، فى اغرب حوار فى القرآن:

{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}

لون: تعنى الالوان من احمر واخضر... ولكنها تعنى ايضا "سنحة وهيئة وحالة"، ومن هذا المعنى يقول اهلنا فى الشام والخليج {ايش لونك، وتعني كيف حالك} وهذا استعمال عربي صحيح لكلمة لون! السؤال عن "اللون" هنا يشابه وقاحة بعضهم فى مناداة الرسول صلى الله عليه وسلم بـ {راعنا} التى تعنى "ارعي حقوقنا" ولكن تعنى ايضا "احمق"، وقد زجرهم الله عليها فى القرآن. اذاً هنا فقد ازدادوا وقاحة بالسؤال عن "لونها"! وقبل ان نتدبر كلمات السخرية

الالهية فى الرد عليهم، لا بد ان نتدبر كيف يدخل **اللون الاصفر** السرور فى اعين الناظرين! فقد استعمل الله اللون الاصفر فى هذه المعاني:

فهو اولا لون المجاعة وهلاك الارض:

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ **مُصْفَرًّا** ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} 21 الزمر

وهو ثانيا لون قيام الساعة:

{وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ **مُصْفَرًّا** لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ} 51 الروم.

وهو ثالثا لون الجحيم:

{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ* كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ **صُفْرٌ**}32-33 المرسلات!

اذا ففى كل مواقعه فى القرآن جاء اللون الاصفر دليلا على البؤس والكوارث! اما اللون الذى يدخل البهجة و السرور فى النفس حقيقة، فهو لون الجنان الخضر ولون لباس اهل الجنة:

{مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ **خُضْرٍ** وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ } 76 الرحمن.

{عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ **خُضْرٌ** وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا } 21الانسان.

هذه استعمالات القرآن، اما رأى الطب فان اللون الاخضر هو اكثر الالوان راحة للنفس والعين، واللونين الاصفر والاحمر هما اكثر الالوان اثارة للاعصاب وايذاء للبصر! من هنا لا بد ان نستلهم بـ "خوار" العجل الذى لا خوار له، لعلنا نفهم كيف يسر لون البؤس والكوارث عيون الناظرين:

تسر: من سر، وهو الغموض والخفاء، و"تسر الناظرين" ربما تعنى: توحي بان وراءها سرٌ مرعب! وعلي عكس ما يفهم اغلب العرب اليوم، فان اللون "**الفاقع**" هو اللون الخافت الضعيف! كلمة فاقع تعنى ذليل "رجل فَقِع"، ومنها "الفقاعة" وهي انتفاخ فى سطح الماء سرعان ما يزول من هزاله وضحالته. ووصف الرازي فى المعجم ان "اللون الاصفر الفاقع" تشير الى سوء الحال! والآن نعود ونقرأ صفات البقرة التى كانت مجرد بقرة نكرة فتحولت الى اشهر بقرة فى التاريخ، لانهم ارادوا السخرية من الله فجعلهم مسخرة البشرية:

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ: الاصفرار يدل على الشحوب والإعياء فى الانسان والحيوان! فَاقِعٌ لَوْنُهَا: أى بائس حالها!

تَسُرُّ النَّاظِرِينَ: أى تدخل فى النفس رهبة وكأن وراءها سرٌ عظيم....!

الى هنا نفهم ان الله أتى لهم ببعض صفات العجل الذى اشركوا به " الإعياء والضعف"، ولكنه زادهم ضلالا بان اضاف اليها صفة "الغموض" ليزيدهم رهبة ويغرقهم فى متاهةٍ جزاءَ تعقيدهم

للامر {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ..}...اذ ان المطلوب فقط كان ان ينتهوا عن الوقاحة ويقدموا على ذبح أى بقرة! ولكنهم ما زالوا فى شركهم وعنادهم:

{ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هى إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ}

شية: من شوي وتعني الشيء القليل، ومنها الشواء وهو قطع اللحم الصغيرة. ولا شية فيها: أى قليلة اللحم. وكلمة "شوية" المستعملة فى العامية كلمة فصحي وتعني "قليل"! نقرأ الآية مرة اخرى:

لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ: لا تتذلل لنداء سيدها، ربما صماء، وبالتالي لا تحرث الارض.

وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ: لا تقوي على السقاية لخوار قواها وضعفها.

مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا: جسدها سليم لكنه قليل اللحم، هزيلة!

الى هنا نلاحظ ان الله تعالى أتى اليهم اخيرا بصفات العجل الذى اشركوا به والذي يظنون انه ربهم، وقد كانت صفاته {جسد ابكم هزيل خائر القوي} والبقرة {صماء شاحبةٌ بائسٌ حالها، تخيف الناظرين}، عندها فقط زعموا ان موسى قد جاء بالحق!! فاي حقٍ أتى به؟ فهموا ان "رب موسى" هو نفسه العجل الذى ما زال راسخا فى قلوبهم المريضة، ولكن لان الله استهزا بهم وادخلهم فى متاهة فقد انصاعوا للامر وهم فى حالة تردد { فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ }!

من هنا نفهم ان الحق الذى كانوا يلهثون ورائه هو عين الباطل، وكأنهم كانوا يستدرجون موسى وربه ان يؤكد لهم شركهم وليس ان يعالجه، لذلك يقول الله عنهم تأكيدا لما ذهبنا اليه من تأويل فى ان عقيدتهم فى العجل كانت راسخة على علمٍ وعناد:

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} 93 البقرة!

وقد وصفهم التوراة حينها بالعناد وتصلب القلب: { فامر الرب موسى "قم وانزل فان الشعب الذى قد اخرجته من ديار مصر قد فسد. اذ انحرفوا سريعا عن الطريق الذى امرتهم به، فصاغوا لهم عجلا وعبدوه وذبحوا له الذبائح هاتفين: هذا هو الهك يا اسرائيل الذى اخرجك من ديار مصر". وقال الرب لموسي: لقد تأملت فى هذا الشعب، وإذا به شعب عنيد متصلب القلب. والان دعني وغضبي المحتدم فافنيهم، ثم اجعلك شعبا عظيما"} سفر الخروج: 32: 7-11. ولو لا ابتهال موسى لله لان يغفر لهم لافناهم الله حينها كما ورد فى التوراة.

الى هنا ولا يوجد رباط مباشر بين قصة البقرة التى قصد الله منها تطهير قلوبهم من مخلفات الشرك بالعجل فابوا الا الشرك فزادهم الله مرضا.. ولكن ليمدهم الله فى طغيانهم، جاءت حادثة القتيل:

{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}

فشاء الله ان يستهزأ بهم اكثر من ذلك ويزيدهم كفرا: {وَيَمُدُّهُمْ فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}، فامرهم ان يضربوا الميت ببعضها تحقيرا لهم:

{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا **كَذَلِكَ** يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} 67-73البقرة!

من الملاحظات الهامة فى هذه القصة هى ان الامر بذبح البقرة قد سبق قتل النفس التى احياها الله بها، مما يجعل معظم تلك الاساطير التى وُصفت بها البقرة ليست الا افتراء على الله وعلي البقرة نفسها، وهذا ما اسهب فيه صاحب "فتح القدير" فى شرح الآية، ولكنه لم يوفق فى فهم القصة الغريبة. ونحن نظن ان ذبح البقرة كان المقصود منه استئصال الشرك من قلوبهم، فلما استهزؤا بالله رب موسى استهزا الله بهم، وأتي لهم بمواصفات الاله الباطل الذى علم انه فى قلوبهم، فلما سموا ذلك حقا زادهم الله طغيانا بان رسخ عقيدتهم فى البقرة التى ربما كانت قد تعفنت عندما قُتل القتيل. وللتأكيد على ان القصد من ان يضربوه ببعضها ليس الا الاستهزاء بعقولهم، هو ان الله ترك لهواهم اختيار الجزء الذى يضربوه بها، وربما تقدم ابليس حينها ونصحهم ان يضربوه بآذانها!

ختام آية احياء الميت فيه مفتاح لغوي مهم يؤكد تأويلنا وهو {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} اذ ان مثل هذه النهاية فى مثل هذه القصص غالبا ما تعنى: الله يحي الموتى كيف يشاء ولكن يا ليتكم تعقلون، كما فى قوله {أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} 67 الانبياء! نلاحظ ان الآيات التى احيا الله فيها الموتى فى قصة ابراهيم انتهت بـ {...أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 259 البقرة، فى الآية التى كسي فيها العظام لحما-- و بـ { وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 260 البقرة، فى آية احياء ابراهيم للطير! اما نهاية {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} فدليل على ان كل الامر كان سخرية من عقولهم لان الله يحي الموتى كيف يشاء، وليس بجيفة بقرة صماء شاحبة بائسٌ حالها خائرة القوي ماتت قبل ايام! ولمزيد من التأكيد على ان القصة لم تكن الا استهزاءً بعقولهم وليزيدهم ضلالا، نلاحظ ان موسى عليه السلام فى بداية عهدهم بالشرك قد نسف العجل وازاله من الوجود على امل ان لا يعودوا الى شركهم، ولكن لما تجاوزت وقاحتهم كل حدود، فقد اراد الله ان يزيدهم ضلالاً على ضلالهم

لذلك جاءت قصة احياء الميت للسخرية من عقولهم وليس بالطبع ليريهم آية كونية فى قدرات البقر، والله اعلم!

قلنا ان قول السامري كان فيه شفرة، وهذه الشفرة اتخذ الله منها موضوعا للسخرية فى مواقع مختلفة فى هذه القصة. فقد قال السامري لموسي{ ..**وَكَذَٰلِكَ** سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}... فان كان السامري يقصد ان نفسه سولت له القيام بذلك العمل، فكان الاسلم ان يقول {وهكذا سولت لي نفسي } لانه يتحدث لحظة الحدث. ونظن ان "وكذلك" تعنى: "وقد سولت لي نفسي ان اجعل لهم الها **كذلك** الاله". ونلاحظ من آيات العجل والبقرة الصفراء انهما اشتملتا على ألفاظٍ توقف عندها المفسرون كثيرا مما يوحى بأن الله تعالى انما روى الحوارين مقتبساً كثيراً من ألفاظهم ولهجتهم، مما جعل اسلوب الخطاب يبدوا غريبا على لغة القرآن! ولان فى علم النفس فان من اساليب الازدراء والسخرية ان تكرر القول السخيف او الساذج الذى يتفوه به من تسخر منه، فان الله فى استهزائه بهم اقتبس جملة السامري بعد ان اوهمهم ان جيفة البقرة المدهشة هى التى احيت الميت، فقال { **كَذَٰلِكَ** يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى }.. لان الحقيقة ان الله لا يحي الموتى بجيفة بقرة متعفنة وانما **ذلك** وهمهم وعقيدتهم فى "**ذلك**" الاله، اما وصفه لقدرته فى احياء الموتى حقيقة فقد كان: ان الله على كل شئ قدير كما اسلفنا! ونلاحظ ان الله اقتبس هذا اللفظ سخرية منهم ايضا فى الآية التالية مباشرة { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ **ذَٰلِكَ** فهى كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} 74 البقرة، فـ "ذلك" هنا وهناك تشير الى "ذلك" الاله الذى اقتبس السامري قصته من ذلك الاله الذى عبده الانسان الاول فى مكة وكان ذلك الاله بقرة!

اذاً فقصة البقرة الصفراء وفاقعٌ لونها التى حيرت الناس آلاف السنين، لم تكن الا تأكيداً لقول الله فى ضلال تلك الفئة المشركة: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} 15 البقرة.

روعة هذا التأويل الذى نرجو ان يكون موفقا تكمن فى امرين هامين: اولهما هو ان الله قد حقرهم حينما عبدوا العجل، ثم استهزأ بهم فى حوارهم حول هوية البقرة، ثم سخر من عقولهم بان اوهمهم انها تحيي الموتى، ثم قص على بنى عمهم العرب قصتهم فى هذا الحوار الممتع بكلمات تعلق بالآذان واصبحت جزءً لا يتجزء من الادب العربي. ولا شك ان الله يعلم ان العرب سيصعب عليهم فهم تفاصيل ذلك الحوار، ولا شك انه يعلم ان بعض اليهود الذين جاوروا المسلمين فى المدينة سيدلون بدلوهم فى تأويل خاطئ للآيات لان البقر ما زال متشابها عليهم، ولكن كما اوهمهم ان ضرب الميت ببعض جيفة البقرة هو الذى احيا الميت فقد وصف القصة بكلمات جعلت للعجل الذهبي خوارا داويا وللبقرة بريقا يخطف الابصار، مما ادخل فى نفوسهم السرور والبهجة ردحا من الزمن وجعلهم يجعلوا لها ضعف ثمنها ذهبا رافعين من قدرها وقدر السامري الفاجر من قبلها! والامر الثانى هو ان بريق البقرة المدهشة و خوار العجل الابكم لعبا

دورا هاما فى إثارة الحيرة عبر العصور فى نفوس المسلمين من غموض سر هذه المخلوقات فى أزمنة ما كان للعقل البشري ان يستوعب امر نزول الانعام، فلما اقترب الانسان من اكتشاف اصلها خارج اقطار الارض، فاجأ الله الناس بان ألهم اضعف خلقه ليستدركوا الناس....أيها الناس: ان العجل فى حقيقة الامر كان ابكما هزيلا خائر القوي وان البقرة كانت شاحبة صماء بائسٌ حالها خائرة القوي تخيف الناظرين! فتتجدد السخرية من الذين عبدوا العجل فى الوقت الذى خفت فيه بريق البقرة وصمت خوار العجل، ولكن رُفع آذان الانعام داويا فى مشارق الارض ومغاربها وبين الكواكب والنجوم، ينادي بوجود خالق الكون ومصمم قانون التطور كما صدح اول مرة فى عصر آدم، فى الوقت الذى ظلت فيه كلمات الله كما هى لا تتغير ولكنها توحي وحيا جديدا مدهشا كأبلغ دليل على انه لو كان البحر مدادا لكلمات ربنا لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربنا ولو جئنا بمثله مددا!

أما "ابليس" الذى عزم ان يجعل من نزول الانعام وسيلة اضلال فقد خسر الرهان الذى ابتدأه منذ عهد "النعاج الحُمَّل" بعد ان جعل الله الاكثار من ذبح الانعام والهَدْي فى الحج وعيد الاضحى شعيرة، وكأنه سبحانه يكرر للحجيج خاصة والمسلمين عموما {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}، حتى لا يجد الشيطان منفذا بسهامه لقلوبهم وهم يعبدون الله وحده حيث نزلت الانعام وبدأ الشرك بها! فقد هيمنت عقيدة الاسلام على ارض الخلق والتطور وارض الانبياء والمرسلين فى الشام، فحزم ابليس امتعته وهاجر ببقرته الصفراء وبريقها الذى يخطف الابصار وعجله الذهبي الى اقاصي الشرق عله يجد من يصدقه ان "ذلك" العجل حقيقة لهو "خوار"!

5. ملكة جمال الهند:

لا نظن أننا نذيع سرا لو قلنا: إن أتباع الديانات السماوية الذين يفترض انهم يعبدون الله وهم "المسلمون واليهود والنصاري"، يمثلون اغلب سكان الأرض اليوم يليهم البوذيون تعدادا، ولكن فالديانة البوذية تقوم على فكرة تكرار وتناسخ الحياة من دون إلهٍ يعبد. يلى ذلك من حيث التعداد "الهندوز" الذين يتخذون من البقرة رمزا للاله، مما يجعل البقرة ثاني معبود فى الأرض بعد الله تعالى! وعلاقة البقرة بعقيدة الهندوز جدُّ مثيرة للدهشة، إذ أن توثيق عقيدتهم يرجع الى خمسة الآف عام، أى الى عهد ابراهيم عليه السلام تقريبا. اما اصلها فيرجع بالضبط الى عهد آدم اذ انهم يعتقدون ان عقيدتهم هى عقيدة الانسان الاول ومن بعدها انحرف بنوا آدم وعبدوا آلهة وهمية! وقد تكونت العقيدة بتراكم افكار فلاسفة مختلفين يسمونهم "فيدارز" اذ انه ليس لديهم رسل، وانما كانت البقرة رسولا من الإله إليهم. وقد جمعت آراء أولئك الفلاسفة فى كتابهم المقدس و يسمونه "بهاجوات جيتا". وتقوم عقيدتهم على وجود عدد غير محدود من الآلهة وزوجاتهم وبناتهم

واولادهم على ان اكبر ثلاثة آلهة هم: **"براهما"** وهو اله الخلق، يليه "بيشنو" وهو الاله الحفيظ، و"شيفا" وهو الاله المدمر! اما موضع البقرة فى هذه المعادلة فهى اعتقادهم ان الاله براهما حينما خلق الانسان انزل له البقرة ونزل معها ليريه كيف يحلبها ويركبها ويذبحها، فلما تحول مهرجان "النعاج الحمل" الى مدرسة عقائدية اصبحت البقرة رفيق اله الخلق "براهما" فى نظرهم ويؤمنون اليوم انه قد انزلها من السماء لتهب الحياة للانسان، ويسمونها " كلياترو" فى لغتهم وتعني رفيق الإله! هنا لا تخفي علينا الصلة الوثيقة بين حقيقة نزول بهيمة الانعام من عند اله الخلق الى الانسان الأول، ومفهوم أنها "رفيق الاله" عند الهندوز! ولعلّ قليل من التركيز فى تاريخ توثيق العقيدة وهو عصر ابراهيم عليه السلام واسم اله الخلق عندهم **"براهما"** يوحى بمصدر التحريف واختلاط الامور، وكأن قصة **ابراهيم** او بعض من صحفه قد وصلت هناك ثم تمَّ تحريف اسمه الى "براهما" ومن ثم تأليهه وربط قصة البقرة المنزلة به كما فعل السامري بين العجل واثر الرسول! ولعلّ كل من زار الهند او عرف عنها شيئا لا تخفي عليه مكانة البقرة السامية هناك، اذ انها تعامل كملكة جمال يتذلل العامة والخواص امامها فى كل الطرقات، بينما يضربون الثور ويذلونه ايما اذلال، وكأن سلوكهم تطبيقٌ حرفي لسوء فهم الانسان الاول للحكمة من ذبح ذكور الانعام الثمانية والابقاء على اناثها، كما ناقشنا ذلك فى مهرجان" النعاج الحُمَّل" اعلاه! وبالتأكيد فإنَّ المتهم الاول فى هذا اللّبس هنا وهناك هو ابليس وان الدليل هو {وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ}! كل هذه القرائن تؤكد أن فى هذه الأنعام أسرارا غامضة توارثها بنوا آدم من آبائهم فاختلطت بالجهل والاوهام بين الشعوب التى وجد فيها الشيطان ضالته، لتحويلها من آذان يدعو الى الله الى وثن يعبد من دون الله!

نختتم هذا الباب بمناقشة سر آخر من أسرار حرمات الله حول البيت التى ارتبطت بالحج والانعام، ولكن هذه الحرمة نظن انها فُهمت خطأً انها من الانعام، اذ ان سرها اكبر من ذلك بكثير وهي "القلائد".

المقاليد والتقيلد والقلائد:

القلائد أمرها غريب، إذ أن ذكرها ورد مرتين فقط فى القرآن وكلاهما فى سورة المائدة. وقبل ان نخوض فى امرالقلائد ونحاول فهم علاقتها بالحج والبيت الحرام والأنعام، نسوق الآيات التى وردت فيها:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ **بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ** إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا **لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ** يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا **اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**} 1- 2المائدة!

نلاحظ أن هذه الآية انتهت بتحذير شديد من الاستهتار بحرمات الله مما يدلل على اهمية هذه الحرمات فى العقيدة الاسلامية. اما الآية التالية فقد لفتت الأنظار الى علم الله الذى لا حدود له وكأنها توحى بأن فى هذه القائمة من الحُرُماتِ اسرارا عظيمة:

{**جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ** ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }97 المائدة.

فى سورة المائدة عموما وفي هاتين الآيتين نلاحظ المعالم الهامة التالية:

1. الربط الوثيق بين شعائر الله و الكعبة البيت الحرام والشهر الحرام والهدي **والقلائد** واشتراكهم جميعا فى التحريم بذات الدرجة! فاذا كان سنام الحرمات فى الاسلام هو بيت الله الكعبة، فان القلائد والْهَدْي لهم حرمة الكعبة.

2. سورة المائدة هى السورة الوحيدة فى كل القرآن التى ذكر فيها اسم "الكعبة" كما فى هذه الآية، والآية الأخرى التى سبقت هذه الآية وارتبط اسم الكعبة فيها بالْهَدْيَ.

3. لا يخفى علينا أن الأنعام هنا ذكرت على لسان حال الإنسان الأول إذ أنها وصفت بـ "بهيمة الانعام"، وهى الموقع الأخير فى القرآن الذى ذكرت فيه كلمة "بهيمة" غير الآيات التى ناقشناها فى أعلى هذا الباب تحت عنوان نزول بهيمة الانعام. ولعل وصفها بأنها بهيمة هنا فيه اشارة الى ان الانسان الاول كان اول من حرمها لمَّا التبس عليه امرها، والله هنا يحلها وكأنه يأمرنا ان لا نحرمها كما حرمها من كانت فى نظرهم بهيمة.

الفهم السائد هو ان "القلائد" هى الهَدي التى يقلدونها بالحلي والعقود كنوع من الاجلال قبل ذبحها عند الكعبة قربانا لله! وقد كان هذا التقليد سائدا قبل وبعد الاسلام، ولكنه ارتبط بطبيعة البدو وسرعان ما اختفى بعد ان تغيرت تقاليد الناس، اذ انه لا توجد قلائد اليوم ولا يمارس هذه العادة أى احد عند البيت الحرام. هذا التفسير يثير فى النفس حيرة اذ كيف يرفع الله تعالى عادة بدوية بسيطة سادت قبل الاسلام ثم بادت بعد الاسلام الى مرتبة حرمة الكعبة وشعائره المحرمة رغم علمه بزوالها؟ نحن نظن ان ربط حرمة القلائد بحرمة الكعبة اكبر من أن يكون اشارة الى أهمية تقليدٍ اجتماعي بدوي ساد بين المشركين قبل الاسلام ثم باد. وحتي نستطيع فهم سرها لا بد لنا من عودة للأصل اللغوي:

قلّد: فى اللغة لها معنيان الأول هو تعليق شئ على شئ وليبه به كالعقد والحلي، والثاني هو الحظ والنصيب! ولأن الاستعمال الأول كان غالبا نسبة لارتباطه بالحلي والعقود وتقلد السيف وغيرها، فقد تطور استعمال اللفظ الى "التقليد" وهو التشبه، كأن يتشبه احدٌ باحدٍ فى سلوكه أو ملبسه أو اسلوبه، واشتهر أن "المقلدين" من الأئمة هم الذين يتبعون السلف من غير اجتهاد أو تجديد، وهو عكس "المجددين" و "المجتهدين" فى الفقه. والأصل فى التقليد بمعني التشبه، أن أصل الكلمة يوحى بتقلد الإنسان علامة تشبهه بشخص أخر فسمي مقلدا.

أما المعنى الثانى وهو الحظ والنصيب، فقد عبرت عنه كلمة **مقاليد** التى وردت فى القرآن مرتين فقط نسوقهما هنا:

{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ*لَ**هُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} 62-63 الزمر.

{فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ*لَ**هُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }11-12 الشورى.

نلاحظ فى فاتحة الآيتين اشارة الى قدرة الله فى الخلق، وأن ختام الآيتين يحذر من الكفر بآيات الله فى احداها ويذكر بعلم الله المطلق فى الأخرى.

وقد فسر المفسرون كلمة "مقاليد" هنا بانها خزائن السموات والأرض لما فيها من حفظ كل شئ. ولما كان الله لا يحتفظ بخزائن بالمعنى المجسد وليس له مخازن فى السماء يحتفظ فيها بالارزاق، فإن كلمات "مقاليد وخزائن" حينما ترد انما تفيد أسرار وقوانين الخلق والإيجاد من عدم. فالله سبحانه وتعالى لا يخزن القوت لان من يخزن قد تنفد خزائنه، وانما يقول له كن فيكون ولا راد لامره ولا حدود لقدراته فى الخلق، لذلك فخزائنه لا تنفذ وقدراته مطلقة وتلك مقاليد السموات والأرض! أى كأنها تعنى أن الله يمتلك المفاتيح أو الشفرة الأصلية التى بموجبها يوجد كل موجود ولذلك لا نهاية لقدراته فى الخلق. ولعله لا يخفى على احد ان الآية ذكرت أزواج الإنسان وازواج الأنعام كآية من آيات الله ومثالا لمقاليد السموات والأرض، أى "مسارى التطور والخلق" ما خلق فى السماء وما خلق وتطور فى الارض.

فاذا اردنا ان نوفق بين تلك الحرمات لنستنتج ماذا تعنى "القلائد" هنا لتكون من الحرمة بمستوى حرمات الله العظيمة الاخرى لا بد ان نلقي نظرة سريعة على المدلول العميق لهذه الحرمات:

شعائر الله: تشير الى المجسمات التى نزلت من السماء كايآت من آيات الله وأدلّة عينية على وجوده وتشمل حجارة الشهب والكواكب التى ترجم الشيطان المنزلة فى المشعر الحرام وجبلي الصفا والمروة والبدن والانعام من شعائر الله وايضا الحجر الأسود والكعبة.
الشهر الحرام: أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم. وحرمة الشهر الحرام تاتي من انه الشهر الذى بدا فيه اول الخلق كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع. ومناسك الحج تتم فى ذات الفترة التى دارت فيها كل أحداث بدء الخلق والتطور تلك.
الكعبة البيت الحرام: أول بيت وضع للناس وبدأ عنده خلق الأحياء وتطورها وتناسبها وانصهارها فى سلم التطور فى الأرض، ونقلت عنده مجموعة آدم من مخلوق أدنى الى إنسان عاقل وكلف عنده ليكون خليفة لله فى الأرض، وفوق ذلك هو اول بقعة ظهرت من تحت الماء عند بدء خلق الأرض، وفيه وحده على الأرض يتطابق الشمال الجغرافي على الشمال المغناطيسي ويمثل وسط الكرة الأرضية من حيث توزيع الكتلة ويمثل مركز توازن الكون حيث تتقاطع اقطار السموات الأرض كلها كما سنناقش ذلك فى باب "سدرة المنتهي"!
الْهَدْيَ: لفظ مجازي يطلق على الأنعام التى تمثل الأحياء الوحيدة على الارض التى لا تنتمي الى الأرض فى أصل خلقها، ونزلت بنص القرآن من السماء لتكون آذانا ينادي الانسان الاول بوجود الله ويهديه الى معرفة وتذكر خالقها وتنادي الى يوم القيامة بنى آدم ليكتشفوا اسرارها ويستجيبوا لآذان الأنعام الذى كان هدفا أساسيا للشيطان ان يستأصله ويضل الناس عنها وبها!

اذا كانت هذه بعض معاني حرمات الله التى اشتركت القلائد معها فى الحرمة، فهل يمكن ان نقول ان "القلائد" هى البهيمة التى كان البدو يقلدونها بالحلي قبل ذبحها عند البيت؟ ما وزن هذا المعنى مقارنا مع المعاني الرهيبة اعلاه من قائمة حرمات الله التى تشترك معها القلائد فى الحرمة ؟ مما لا شك فيه أن تقليد البهائم التى كانوا يسمونها القلائد دليل على أهمية آذان الانعام التى توورثت فى الجزيرة العربية آنذاك، ولكن لان هذه العادة لم تكن إلا من تقاليد القبائل فسرعان ما زالت، علما بأن القلائد التى كان العرب يقلدونها هى نفسها من الأنعام على أى حال.
لاحظنا من دراستنا لكثير من آيات القرآن فى هذا الكتاب أن الله يبتكر اصطلاحات تحتملها قواعد اللغة العربية ليوحى لنا بمعانٍ جديدة ما كان العربي البسيط يعرفها فى حياته اليومية، وما ذلك الا لأنَّ القرآن احتوي على أسرار الكون كلها فى لغة العرب، الشئ الذى توقف عنده المفسرون القدامي كثيرا، إذ أنهم لاحظوا غرابة اللغة فى كثيرٍ من الآيات التى ذكرنا بعضها فى هذا الكتاب، ولكن غاب عليهم المعنى لانه كان يحتاج لتطور اكثر فى عقل الإنسان وعلمه باسرار الكون! من هذا المنطلق نظن أن كلمة **قلائد** ليست إلا أحد تلك الاصطلاحات القرآنية المدهشة التى يحتملها

اصل اللفظ، ولكنها أُبْتِكِرت لتوحي بمعنى جديد لم يكن متداولا بين العرب وغن كان يجرى مجرى اللغة العربية.

استعمل العرب كلمة "التقليد" على وزن " تفعيل" لتفيد ان يتشبه الإنسان بشخص اخر او يقلد صناعة اخرى، واستعمل القرآن كلمة "مقاليد" على وزن "مفاعيل" و" مفاتيح" ليشير بها الى شفرة خلق كل شئ فى السموات والارض والتي تمثل خزائن الله التى لا تنفذ! ونظن هنا ان الله سبحانه وتعالى قد ابتكر اصطلاح **القلائد** على وزن **" فعائل"** و **" شعائر"** ليشير لنوع من التقليد الرباني لمقاليد ومفاتيح الخلق، وهي بذلك تشمل كل ما ظللنا نبحث فيه فى هذا الكتاب من آثار الخلق والتطور والتي يستنبطها الإنسان من تقليده للإنسان الأول فى إحرام بكل هيئته التى يقلد فيها الإنسان الأول، ومبيت بمني حيث جعل الانسان خليفة لله، ووقوف بعرفة كما وقف آباؤنا طالبين الغفران، ونزول الى المزدلفة كما دلفوا، وجمع الجمرات من شهب السماء عند المشعر الحرام، ورجم الشيطان الذى توعد بأن يبتك آذان الأنعام بمني، وذبح الهَدي الذى ما نزل الا ليكون هديا الى وجود الله، وتطوف بين الصفا والمروة وهي عبادة الإنسان الأول ثم طواف بالبيت العتيق الذى فيه بدات اسرار الخلق ودارت عنده اسرار التطور وربما يتوازن عنده كل الكون!

لما كانت كل هذه العبادات **والشعائر** ليست الا تقليدا ولكنها تقليدٌ صمَّمه صانع المقاليد، ولا يعلم اسرار ما نقلده الا هو، فكان منطقي جدا ان لا تسمي التقليد وإنما **القلائد** لتكون مجموع **الشعائر و** حرمات الله تعالى التى تحكي أسرار الخلق وعظمة الخالق.

وختاما فما قصدنا من طرح هذه القضايا الشائكة فى "آذان الانعام" الا تحرير الإنسان من سجن الاساطير الى حرية التفكير والتدبر فى آيات الله، واحترام العقل الذى اتانا اياه والعلم الذى نتعلمه عن أسرار الكون والخلق حتى نعبد الخالق حق عبادته، لان الله يعلمنا بالقرآن كما يعلمنا ببحوثنا، وكلها تقود الى وجود ووحدانية الله وتعظيمه بما يستحق من تعظيم! فنحن نؤمن أنه لا يوجد شئ اسمه "علوم دنيا" اذ ان كل مافي الدنيا ليس إلا آياتٌ من آياتِ الله تعالى بعضها أخبرنا بها، وكثيرٌ منها ألهمنا الى اكتشاف أسرارها من غير وحي مباشر. ونظن ان من يصف آيات الله الكونية بأنها علوم دنيا إنما يهرب من الاعتراف بقصور فهمه لخلق الله، وسعيا منه ان يجعل من دين الله قائمة من المحللات والمحرمات والأحكام الشرعية، لا علاقة لها بالتفكر فى خلق السموات والارض وآيات الله الكونية التى ذخر بها القرآن. وذلك فصل بين الدين والدنيا اخطر ضرارا واقرب الى الكفر من فصل الدين عن الدولة.

ولعل الشيطان نجح فى أن يصمت آذان الأنعام زمنا طويلا كما عزم فى وادى "منى" يوم طرد من رحمة الله ولكن الله غالب على امره، ونظن ان آذان الأنعام بدا يصدح من جديد، فكل من يقرأ

هذا الكتاب لن ينظر بإذن الله الى الأنعام بعد اليوم كبهيمة لانها ما كانت بهيمة إلا على الإنسان الأول، ولكنها مخلوقات نزلت من السماء ولا علاقة لها باصل الخلق فى الأرض ولم تتسلق سلم التطور الذى تسلقته مخلوقات الارض، وما هى إلا آذانٌ ينادي بوجود الله وينادي الخلق ليذكروا عظمة الخالق. ونحن الفقراء الى الله نسأل كل من يتذكر أنَّ الانعام مخلوقات سماوية منزلة وآية من آيات الله تمشي على الأرض، وكل من يعلم سرا عنها لا نعلمه وكل من يبحث فى اسرارها ان يدعو لنا الله بالغفران فهو الذى هدانا لأن نرفع آذان الأنـعام وما كنا لنهتدي اليه لولا ان هدانا الله.

ولما كان كل شئ قد بدأ عند البيت العتيق هناك، فإننا نظن أن أسرار الكون كلها تحل لو درسنا أسرار بكة وموضع البيت العتيق لنرى بعضا من آيات ربنا الكبرى عند **"سدرة المنتهي"** وعندها جنة المأوى وهو موضوع الباب الأخير فى هذا الكتاب باذن الله تعالى.

البــــــاب الثانى عشـر

سِـــدْرَةُ الْمُـنـْـتَهَى

لا شك ان كل المسلمين يعلمون ان اول ما ابتدأ به نزول القران كان الدعوة الى العلم، بل جعل الله تعالى تعليمه للانسان حجة عليه من اول آيات القرآن: {اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذى خَلَقَ*خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الذى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} 1-5 العلق!

التعليم بالـقلم:

القلم معناه تسوية الشي عند بريه وإصلاحه، ومنها تقليم الاظافر أى مساواتها. وسُمِّي القلمُ قلماً لأن به تُسوَّي المعلومات والافكار، أى انه اداة يتم بها ترتيب الافكار بكتابتها والتدبر فيها ومراجعتها وتصحيح ما كان ناقصا او خطأ فيها. من هذا نفهم ان التعليم بالقلم خلاف التعليم بالحفظ و التلقين لان تدوين المعلومات بالقلم يتيح فرصة مراجعتها وبحثها وتصحيحها وهكذا. فمن اهم العلوم ما أنزله الله تعالى على الأنبياء والنبي الامي الخاتم وجعل منه معلم البشرية الاول. هذا العلم لا دورللقلم فيه، اذ انه منزلٌ من العليم الخبير الذى يعلم ما خلق ولا يحتاج لبحوث تكشف له اسرار الخلق، وبالتالي فعلمه كامل ولا يحتاج لتصحيح او مراجعة!

ولعل كثير من الناس لا ينتبهون لمفهوم "القلم" فى هذه الآية التى نزلت على النبي الامي الذى ما كان القلم شيئا فاعلا فى حياته! فمن العلوم ما يتعلمه الانسان بالتجربة العشوائية او التراكمية، وذلك بان يعتاد الانسان على رتب معين من الحياة تتاورثه الأجيال وتضيف عليها تجاربها فيصبح علما ينتقل من جيل الى جيل، كما هو الحال عند المزارعين والرعاة و والتجار الذين يمارسون المهنة بصورة تقليدية لا يعتمدون فيها اسلوبا علميا مدروسا. هذا العلم المتوارث من غير مراجعة ودراسة لا دور للقلم فيه، و بالتالى لم يلعب دورا فى تطور البشرية بصورة محسوسة، فلما دخل القلم الى مهنهم نتجت علوم الزراعة والبيطرة والاقتصاد، التى نقلت هذه الحرف نقلة نوعية الى مؤسسات علمية تتعامل بها الشعوب و الأمم.

التعلُّم بالقلم هو الدراسة المنهجية والبحث بصبرٍ فى أسرار ما خلق الله فى هذا الوجود، وتدوين الحقائق لمراجعتها وربطها مع بعضها واستنباط الجديد من العلوم. والتعليم بالقلم هو التعليم الذى ينتقل بين الشعوب والامم ويقود الى نهضة حضارات، وتبادل خبرات ما كان لها ان تورث. وقد يلعب التعليم بالقلم دورا اساسيا فى بسط نفوذ الانسان فى الارض كخليفة لله وذلك حينما يفهم قوانين الطبيعة و يُسخِّرها لمنفعة الناس اذا احسن التعامل معها، او ضررهم ايضا اذا عصي الله فيها. هذه القدرة تجعل من الانسان مخلوقا متميزا فى الارض بخيره وشره، اذ ان الخلافة اتت

بشرط حرية الاختيار اما شاكرا او كفورا! وقد كان للقلم دوره الفعال فى نقل علوم الاسلام بين الشعوب وحفظ وتدوين القرآن والحديث بصورة ما كان لها ان تتم من غير تعليم منهجي بعد ان مضى عصر النبوة والتلقين والحفظ، خاصة بعد ان انتشر الاسلام فى بلاد غير عربية! اذاً فقد جعل الله تعالى الدراسة المنهجية بالقلم اساس تطور الانسان وجعلها من اولى فضائله التى تكرم بها على الانسان، وجعلها سببا من اسباب الوصول الى الله بالتدبر فى خلقه وآياته البينة محققا بذلك معنى عملي لقوله: {وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} 28 غافر!

والتعليم بالقلم هو الذى تنطوي تحته العلوم التطبيقية التى ترتبط باكتشافات الانسان لخلق الله، من كيمياء وفيزياء واحياء ورياضيات وجغرافيا وتاريخ وفلك وجيولوجيا وغيرها، اذ ان هذه العلوم لا تورث، وانما تحتاج لباحث يجمع الملاحظات ويجري التجارب ويدون النتائج ويتفكر فيها، ليصل الى اكتشاف جديد فى اسرار ما خلق الله، ثم تحتاج لمعلم يعلم التلميذ الذى يكتب الدرس بالقلم فيراجعه ويتدبره وهكذا! ولعل اشارة الله تعالى فى سورة العلق لحقيقة علمية من هذا النمطِ، تأكيد على تفسيرنا، اذ ان خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ليس الا حقيقة طبية مجهرية ما كان للانسان ان يصل اليها الا بعلوم القلم! والملاحظ ان اغلب هذه الآيات التى تشير الى قدرة الله الخفية فى الخلق وفي تسيير شؤون الكون ما فسرها النبي صلى الله عليه وسلم، وكأن الله تعالى اراد للانسان ان يبحث فى اسرار الكون فيصل كل يوم الى اكتشاف جديد على البشرية، لكنه قديم قدم القرآن ليكون ذلك آية جديدة من آيات الله وكأن القرآن ينزل كل يوم ولا تنتهي معجزاته ابدا!

ولعل اهم علوم القلم التى تهمنا هنا هى علوم الارض والفلك التى ذخر بها القرآن اكثر من أى كتاب نسب الى الخالق فى أى دين من الاديان! ونظن ان اهل مكة ما كانوا يعرفون من اسرار البلدة التى يسكنون وشعابها، اكثر من ان الله قد جعلها قبلة للبشرية، بان وضع بها اول بيت وضع للناس! ولكن التعليم بالقلم جاء ليكشف بعد قرون طويلة ان الله الذى خلق هذا الكون بالحق ما وضع بيته عشوائيا فى بكة، وما كانت كل تلك الاسرار التى طرحناها ودارت حول مكة الا قطراتٍ من بحرِ علومٍ واسرارٍ تنتظر بحوث الباحثين فى اسرار البلد الامين، ليرفعوا آذان الانعام عاليا ويؤذنوا فى الناس بالحج الذى جعله الله حجة على الناس كافة وليس المؤمنين فحسب.

أول بيت وُضِع للناس:

ولما كان بحثنا هذا قد اوصلنا الى اعتاب البيت العتيق ونحن نخطو على خطي الانسان الاول، فمن الحكمة ان نستكشف اسرار ذلك البيت والبلد الذى وضع فيه، لتكتمل لنا الصورة وليكون آذان الانعام مرتبط باقوي حجة لله على الناس، كل الناس، ومنطلقا من اهم بقعة فى كل الكون!

طالما فهمنا ان **القلائد** هى تقليدٌ صمَّمه الحكيم الخبير ليسهل على الانسان فهم "المقاليد"، فاننا سنستعمل ما ألهمنا الله ان نفهم من اسرار القلائد لفهم اسرار البيت العتيق ومن ثم الكون! ونحن نعلم حق العلم وعلم اليقين انه ليس فى وسع أى انسان ان يعطي بيت الله الحرام حقه من البحث وكشف الحقائق، ولكننا فقط نجتهد فى ان نرسي بعض اللبنات لربط خلق الاحياء عموما فى الارض، بخلق وتطور الانسان حول البيت العتيق، ومن ثمَّ ربط كل ذلك بنظام الكون، ذلك المجهول! ولعل افضل ما ندخل به هذا الموضوع هو التأكيد على ان موقع الكعبة لا يمثل حقيقة دينية فحسب، وانما حقيقة تاريخية هامة ارتبطت بتطور الانسان الاول فى اولى ايامه بعد ان صار انسانا عاقلا :

{**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ** مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ **وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** وَلِلَّهِ **عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ** مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} 96-97 آل عمران!

وقبل ان نحاول فهم هذه الآية نحتاج ان نفهم هذه الالفاظ من معجم مقاييس اللغة:

وُضِعَ: خفض الشي وحطه! نلاحظ ان فعل "الوضع" فى الآية جاء مبنيا للمجهول، أى ان الله قصد ان لا يصرح بمن وضعه. ونعلم ان ابراهيم قد رفع القواعد من البيت واسماعيل، ولكنهما لم يضعاه ولم يبنياه من عدم وانما كانت القواعد موجودة منخفضة وقاما برفعها!

بيت: المأوى والمآب ومجمع الشمل، ويقال لبيت الشعر بيت لانه مجمع الالفاظ و الحروف والمعاني!

ناس: من نوس وتعني التذبذب و الاضطراب، والناس تعنى المتذبذبون او المضطربون.

بَكَّ: بتشديد الكاف معناها يدل على التزاحم والمغالبة، وقد ظن الناس انها سميت **بَكَّة** لان الناس يبُكُّ بعضهم بعضا فى الطواف! ونحن نظن ان فى هذا التبرير لاسم بكة قصورا كبيرا لان التزاحم فى الطواف، ان لم يكن الطواف اصلا قد بدأ بعد آلاف السنين من وصف بكة بهذا الاسم!

كعب: نتوء وارتفاع فى الشئ وكعب الرجل هو النتوء فى مؤخرة القدم، ومكعب يعنى شكل هندسى ذو اربع اضلاع، أى مربع الجوانب ولا يشترط تساوي الاضلاع كما نفهم المكعب فى المفهوم الهندسي الحديث. والكعبة هى نتوء فى شكل مكعب!

مَكَّ : تعنى انتقاء العظم أى اخراج مخه! وقيل ان **مَكَّة** سميت بذلك لقلة الماء فيها وكأن مائها قد أُمتُّكَ أى أُمتص إمتصاصا!

لقد تكونت فى اذهاننا حتى الآن فكرة واضحة عن الانسان الاول منذ ان نفخ الله فيه من روحه ونقله الى انسان عاقل ثم هبط من الجنة التى اوى اليها فى عرفات، الى ان رمي الشيطان بالجمرات فى منى، والآن نقترب مع خطي الانسان الاول من البيت العتيق! من المهم جدا ان نتذكر ان الانسان الى هذا الحين بل الى الجيل الثانى منه، لم يفهم الا لغة التجارة البكماء أى المجسمات والالفاظ الحركية فقط او "لغة الغراب" كما اصطلحنا فى هذا الكتاب! ليس منطقيا اذاً ان نظن ان هذا الانسان كان قادراً على ان يتعلم فجأة كيف يبني بيتا يأويه ويشعر فيه بالامن فى هذا العالم الجديد عليه! ولا بد ان نتذكر ان عالم الارض هو عالمه ولكنه عاش فيه من قبل كحيوان يصارع الحيونات والطبيعة ولا يشعر بأخطارها ابعد مما تشعر به الحيوانات، ولكنه الآن له آذان يسمع بها وأعين يبصر بها و عقل يفكر به ويري من الأخطار ما لم يكن يرى من قبل، ولكنه لا خبرة له فى التعامل معها بهذا العقل الذى لا تجارب له بعد! ليس غريبا اذاً ان "يضع" الله لهؤلاء الناس اول بيت كما "انزل" لهم الانعام من قبل!

ومن هنا نفهم ان { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ **وُضِعَ** لِلنَّاسِ.. } انما تحتوي على لغة تصويرية تدل على هوية هؤلاء الناس الذين وضع البيت لهم! فكلمة "وضع" تختلف من كلمة "بنى" التى تتطلب معرفة بقواعد البناء والتخطيط الهندسى وجمع مواد البناء وغيرها من الضروريات التى تحتاج لعلم وخبرة ما كانت متاحة للانسان المقصود بـ"الوضع"! وهي ايضا تختلف من نحت البيوت كما وصف الله اصحاب الحجر: {وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ} 82 الحجر، اذ ان النحت فن يتطلب خبرة طويلة ودراية بانواع الصخور التى تنحت والمكان الذى ينحت فيه والآلات التى تستعمل فى النحت وما شابه ذلك. اذا فكلمة " وُضِعَ" ليست الا مصطلحا اخَر من مصطلحات لغة الغراب! ولعل من الحكمة ان نتدبر فى ما يمكن ان تدل عليه، اذ اننا فهمنا الى الان ان الانسان الاول كان محدود الالفاظ وملكات التعبير وان الله تعالى يستعير الفاظه كلما كان الحديث عنه حتى يوحى الينا بهويتهم، ولكن هذا لا يعنى ان الحدث وقع بصورة ميكانيكية كما رآها الانسان الاول وعبَّر عنها! فمثلا تعبير {يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا} لا يعنى ان ابليس وقف امامهم ونزع بقوةٍ الإلتباس من عقولهم، وانما كان هذا ما بدا لهم وكانت تلك مقدرتهم فى التعبير لوصف الحدث، اما ما حدث فعلا هو ان ابليس قد قام باستدراجهم وشرح لهم بكلمات معسولة كل ما يمكن ان يزيل ذلك اللبس من عقولهم! اما تعبير "وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ" لا غرابة فى انها نزلت تحملها الملائكة، او القى بها الى الارض لان الحدث هنا حقيقة حدث ميكانيكي فيه انتقال الانعام من عالم السماء الى عالم الأرض وهو ما رآه الانسان الاول! و قد رأينا ان " وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ" كان تطبيقها العملي هو إلباس وإلتِباس مستمر ومتغير الاشكال عبر العصور فى فهم وتعامل الانسان مع الانعام، ولكن بطبيعة الحال لم يكن هناك انتزاع او نتف لأذني أى منها! من

ذلك نفترض ان الملائكة يمكن ان تكون من بنى البيت العتيق امامهم، ولكن لمَّا لم يكن لدي الانسان الاول الفاظ مرنة يمكن ان يصف بها ما رأى، فقد وصف الله وجود البيت من وجهة نظرهم، وهو انه لم يكن موجودا فى لحظة ثم فجأة "وُضِعَ" حسب فهمهم لانهم لم يستوعبوا خطوات بناءه! مثل هذا التعبير يسمي فى علم النفس"التفكير المتحجر" وهذا يشير الى حالة يفتقد فيها الانسان القدرة على التمييز بين مراحل مختلفة متدرجة لحدوث الحدث ويري فقط البداية والنهاية كما لا يستطيع مثلا التمييز بين الوان الطيف فلا يرى الا اسودا وابيضا، وبالتالي تكون مقدرته على وصف الاحداث مستوحاة مما يفهم ويري! اذاً يمكن ان نفترض ان الارض كان ملساء فى لحظة امام عيني الانسان الاول وفجأة وجد البيت امامه "وُضِعَ" من غير ان يستدرك خطوات بناءه التى ربما تمت امامه! إذا فلفظ "وُضِع" لا يشرح كيف وُجد البيت وانما يعكس عقلية الناس الذين رأوه اول مرة!

مهما يكن من أمر فإن لفظ "وُضِعَ" جاء مبنيا للمجهول لأن الله اراد ان يخفي من وضعه او بناه، ولكن كل ما يمكن ان نفهمه هو ان هذا البيت هو اول بيت وجد على الارض على الاطلاق، لانه من المنطقي جدا ان يكون اول بيت من صنع غير البشر! وهي ايضا تاكيد على ان "الناس" الذين وضع لهم لم تكن لديهم القدرة على البناء بانفسهم. ووضع البيت لهم يوضح علاقة ذلك الانسان بربه الذى كان يعلم انه لا يستطيع التعايش مع الطبيعة الجديدة بعد! وهذا اللفظ ايضا يوضح ان الظروف التى وضع فيها تختلف تماما من الظروف التى رفع فيها إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل بعد آلاف السنين، اذ ان رفع القواعد معلوم ويعبر عن لغة فلسفية تفيد ان الذى يرفع القواعد كان يجيد البناء والعمران!

وقد وردت اختلافات كثيرة فى تفسير هذا الجزء من الآية مما يدل على ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يفسرها، وبالتالي نجد فيها متسعا للاجتهاد كما اجتهد الاولون رضي الله عنهم. لنا ان ان نلاحظ ايضا ان البيت وضع "للناس" وليس للمؤمنين! ولفظ الناس هنا له ثلاثة دلالات منطقية:

1. انهم مجموعة من البشر وليس شخص او شخصين.

2. اللفظ يدل على اضطراب وتذبذب وهي صفة ملازمة للانسان حين الخوف ومواجهة المجهول، اذ كان من الممكن ان يسميهم البشر اوالانس او الانسان، ولكنه اختار لفظا يشير الى بشريتهم والي حالتهم النفسية فى نفس الوقت.

3. ان البيت ما وضع للمؤمنين فى أى دين، وانما هو علاقة بين الناس ورب الناس، مما يفسر لماذا جاءت دعوة الحج دائما للناس وليس المؤمنين!

اذا فكأنَّ هؤلاء الناس الذين وضع البيت لهم كانوا قد نزلوا ضيوفا فى بيت الله! ومن هنا نفهم مفهوم "بيت الله" كما نفهم وصف "ناقة الله" الذى ارتبط بالناقة التى انزلها الله كآية لقوم صالح،

اذ ان نسبها الى الله دليل على انها لم يكن لها مالك فى الارض! وناقة صالح ناقة منزلة لتكون آية اخرى من آيات آذان الانعام لقوم صالح! وبيت الله بيت لم يكن له مالك غير الله الذى وضعه اذ ان الناس لم يبنوه وكانوا ابعد من ان يفهموا كيف يبنون مثله بل ولم يكن بمقدورهم التعبير عن خطوات بناءه ولكنهم فقط رأوه موجودا وقد "وُضِعَ" امامهم ككتلة واحدة! فالله بناه ووضعه لهم ليشعروا بالامن فيه، ولما كان بيتا صغيرا لحكمة ارادها الله فكان حالهم فيه **بَكًّا**، أى تزاحما، فكانت **بَكَّةَ** هى الموضع الذى وضع فيه اول بيت، وهو البيت الوحيد فى زمانه و**بَكَّ** الناس فيه **بَكًّا**! وقد كان لهم ايضا َهُدًى كما كان آذان الانعام َهُدًى، ولكن لان البيت ثابت لا يتحرك، ما كان آذانا ملازما للانسان اينما حل، ولذلك فهو حجة يُستدعي للتدبر فيها كل من استطاع اليه سبيلا، وليس آذانا يتحرك حيث ما حل الناس كآذان الانعام!

هذا وصفٌ لحالِ البيت حينما بنى اول مرة او "وضع" حسب فهم الانسان الاول، ولكن الله تعالى جعله مثابة للناس بعد قرون طويلة من هجره، أى رجوع {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا..}! ولان الناس الذى يثوبون اليه ما عاصروا وضعه، فقد ابرز الله فى هذه الآية ما فى البيت من آيات بينات أى علامات وجود الله الظاهرة للناس اللاحقين! وقد اختلف المفسرون فى قراءة الآية ومحتواها، وقد اورد الطبري قولا يفيد ان الآية تعنى: ان فيه آيات بينات منهن الحجر الاسود والصفا والمروة وغيرها من الآيات فى المسجد الحرام ومنهن "مقام ابراهيم"! وأشار الى اختلاف الآراء حول "المقام" فمنهم من قال انه موضع قدم ابراهيم، ومنهم من قال ان الحرم كله مقام ابراهيم. و ابرز القرطبي رأيا لقتادة يقول فيه ان "وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا" آية من تلك الآيات ايضا! ونحن نظن ان ظاهر الآية يستقيم كما يلى:

فيه آيات بينات، منهن: "مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ" وايضا منهن "وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا"! وقد تقدم راينا فى مفهوم "مقام ابراهيم" باستفاضة فى باب "الحج"، وهي تعنى عزمه وانتصابه على البحث والتدبر الذى قاده لفهم كل الحقائق التى دارت حول البيت واعاد ابرازه للناس بكل ما فيه من آيات بينات، وليس بالضرورة موضع قدمه فحسب! وايضا من آياته البينات حقيقة تاريخية هامة جدا تهم الناس كافة وليس المؤمنين فحسب، وهي ان "من دخله من الناس حين وضع لهم كان آمنا من الخوف والاضطراب الذى كان يواجهه"! وهنا لابد لنا من ملاحظة ان الحديث عن البيت "الكعبة" فقط وليس المسجد الحرام كله! لا بد لنا ايضا ملاحظة ان وصف "من دخله" وصف تاريخي لا ينطبق على حال البيت منذ ان رفع ابراهيم قواعده، اذ ان البيت لم يكن مفتوحا للدخول فيه لا فى عهد النبي ولا قبله ولا بعده! اذا فـ "كان" هنا ليست الا فعل ماضى وبالتالي فمن دخله لا تعنى "من يدخله سيكون آمنا"، لان هذا لم يكن من العبادة فى أى عصر من العصور، وانما هى فعل ماضى" الذين دخلوه اول مرة"، أى ان الآية البينة التى تشير اليها الآية

هى ان الذى دخله اول مرة كان حينذاك آمنا! وهولاء هم "الناس" الذين وضع لهم حينما كانوا فى حالة اضطراب ورعب! ولما كان اصل البيت انه وضع على الارض فهو بطبيعة الحال آية مجسمة من آيات الله هدى بها الانسان الاول لما كان وجوده إعجازا فى نظرهم حينها، ويهدى به كل الناس بعد المثابة اليه لانه يقف أية مادية لتاريخ البشر وخلقهم وتطورهم. ولما كان اؤلئك الناس الأوائل هم اسلاف كل الناس وان العلاقة كانت علاقة بين كل الناس آنذاك ورب الناس فكان منطقيا ان تكون حجة الحج دائما موجهة للناس وليس الذين امنوا منهم فقط!

ظل البيت منذ ان رفع ابراهيم قواعده واسماعيل بيتا يطوف الناس حوله من باب العبادة، ولكن لا يدخله الا القليل منهم للنظافة وغيرها! ومنذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم اصبح دخول البيت قصرا على سدنة البيت ومن يقوم على امره، ولكنه ما جعل دخوله عبادة ناهيك من ان يكون آية من آيات الله البينات. اذاً فمن دخله هنا لا يمكن ان تعنى "ومن يدخله" كما يفهم لانه لا احد يدخل البيت الا نادرا! وقد اورد الطبري ان احد الملاحدة قال لاحد العلماء "لقد دخلناه وفعلنا كذا وكذا فلم يأمن من كان فيه" فاجابه ان القصد هو من دخله طائعا لله مؤمنا به! ونحن نظن ان فى هذا التفسير مبالغة اذ ان تاريخ البيت يؤكد ان دخوله ما كان يوما عبادة مطلوبة، هذا بالاضافة الى ان الله سمح لعوامل الطبيعة ان تهدم البيت مرات عديدة مما استدعي ان يرفع إبراهيم قواعده اولا، ثم هدمه السيل فأعادت بنائَه قريشٌ قبل بعث النبي حينما حقن محمدٌ صلى الله عليه وسلم دماء قريش ووضع الحجر الاسود فى موضعه بيديه، ثم هدم فى العهد الاموي فاعيد بنائه! اذاً فالبيت ليس الا رمزا يعبد الله فيه لما فيه من آيات ولكن لا يقدس حجره، وان {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} ليست الا آية من آيات الله تشير لحال من دخله اول مرة حينما وضع لهم ليوفر لتلك المجموعة اول مفهوم للامن يعرفه الانسان منذ ان اصبح عاقلا، ولكنها ليست دعوة للناس ان يعاودوا دخوله كنوع من العبادة لان هذا لم يحدث فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا بعده!

ولا يخفي علينا ملاحظة تكرار ذكر "الناس" وليس المؤمنين فى باقي الآية: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا..} ! والمعروف ان الخطاب للناس فى القرآن يكون حينما يخاطب الله الانسانية بحقيقة يشترك فيها المؤمن والكافر سواء بسواء كما فى قوله: { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ انى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } 158 الاعراف! بينما نجد الخطاب فى امور العبادات يوجه للمؤمنين كما فى قوله: {...إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} 103 النساء! فالخطاب الى الناس او عن الناس عامة لا يستقيم معه ان يكون خطاب بركن عبادة الحج الذى لا يستجيب له الا المؤمنون اصلا، وانما خطاب الناس بالحج هنا يكون اكثر استقامة لو اخذنا كلمة "حج" بمعني **الحُجَّة** كما اوردنا ذلك باسهاب فى مقدمة باب الحج من هذا الكتاب! ويكون المعنى هنا ان

الله جعل **حُجة** البيت حجة على الناس كافة لان فيه آيات بينات تخص الناس جميعا، وفيها دعوة لهم وحجة عليهم بوجود خالقهم وآثار آبائهم، فمن قصد التدبر فى امر البيت وما دار حوله سيصل الى الله ومن كفر أى رفض وجحد فان الله لا يحتاج لبرهان من الناس على وجوده!

لو قلنا ان استعمال لفظ "الناس" هنا انما هو استعمال مجازي يقصد به المؤمنون لاختل معنى كل الآيات فى القرآن التى يرد فيها الخطاب الى الانسانية جمعاء بلفظ "الناس"! وبالطبع فان وجوب عبادة الحج على كل الناس مسلمهم وكافرهم امر غير منطقي لان القرآن يخاطب المؤمنين فقط بالعبادات. اذاً فدعوة {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} تعنى قصده والتدبر فى اسراره والاحداث التى دارت عنده، وهذا امر لا يتطلب الزيارة، اذ ان كل العالم يدرس تاريخ الفراعنة ويتدبر عظمة الاهرامات من غير ان يتطلب ذلك زيارة مصر! وعليه فان هذه الحجة تلقى على اكتاف المسلمين مسؤولية وصف مكة وتاريخها لان هذه المسؤولية جزء لا يتجزا من عهد الله لابراهيم واسماعيل بكل مسؤولية بيته، وهي مسؤولية تساوي مسؤولية تبليغ رسالة الاسلام لكل البشر!

اذاً يمكننا ان نخلص الى ان البيت العتيق او "الكعبة" كان اول مأوى لَمَّ شمل اول فوج من الناس حين وصلوا الى تلك البقعة، وربما كان الحجر الاسود هو احد الحجارة الباقية من البناء الاصلي وجده ابراهيم يوم رفع القواعد من البيت، فامره الله ان يضعه هناك كآية تثبت ان اول بيت سكنه الانسان كان بناؤه من خارج اطار معرفة الانسان.

فكانت **بَكَّة** يوم **بَكَّ** أى تزاحم اول ناسٍ فى بيتهم الاول الذى وضع فيها، فلما **مَكَّت** أى امتصت مياهها هجرها اهلها فاصبحت **مَكَّة!** وهنا نُذكّر بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: ان الساعة لا تقوم حتى تعود جزيرة العرب مروجا كما كانت! نلاحظ ان "بكّة" و "مكّة" اسماءٌ اشتقت من علاقة الانسان بتلك البقعة من الارض، امَّا "امَّ القُري" فلها مدلول اخر جدُّ خطير، فيه آية من آيات الله الكبري، اذ انه يحدد موقع البيت العتيق من الكرة الارضية ثم موقع الارض من الكون كله، الشئ الذى ما كان ليُعرف قبل عصرنا هذا وما كنا لنفهمه من غير التعليم بالقلم، فسبحان الذى علم الانسان ما لم يعلم!

الكـون ذلك المجــهول:

إنَّ الحديث عن الكون فى زماننا يتطلب بالضرورة ان يكون المسلمُ ملمّاً بكل ما وصل اليه البشر من علمٍ عن حجم واسرار الكون اليوم، وإلا فإنَّ فهمنا للغامض من آيات القرآن لن يكون افضل من فهم الذين مشوا على الأرض ويظنوها مسطحة، وهذا التجاهل منَا لن يرضي الله تعالى. وحتي نتخيل ماذا يعنى الكون من حيث الحجم ننقل احدث الحقائق العلمية التى وصل اليها علماء الفلك فيما استطاعوا ان يصلوا اليه من اتساع المدار الحلزوني فقط، وهو بالطبع ربما يكون

اصغر بلايين المرات من حجمه الحقيقي، ناهيك ان يستطيع الانسان ان يتخيل حجم الكون الذى يحتوي على بلايين المجرات فى حجم مجرتنا التى تعرف بالمدار الحلزوني او الطريق اللبني! فقد نشرت صحيفة الجارديان البريطانية فى عددها يوم 2 يونيو 2005 ملخصا لما توصل اليه العلماء من تجميع خريطة ضوئية للكون داخل جهاز كمبيوتر اسموه "مجمع الالفية"، ان بروفسير فرانك من جامعة دارهام قال: ان المجمع حوى مساحة تمتد الى اثنين بليون سنة ضوئية من جانب الى آخر، وقال انهم وجدوا فى وسط المدار الحلزوني اكثر من مائة بليون نجم منهم الشمس التى تدور حولها الارض! وفي وسط هذا الكم الهائل من النجوم يوجد ما يعرف بالثقب الاسود الذى يمتد حجمه الى اكثر من مائة مليون نجم فى حجم الشمس!

والثقوب السوداء كما يعرفها بروفيسور زغلول النجار عالم علوم الارض المصري المشهورالذي نشر كتبا ومقالات كثيرة فى هذا المجال على الشبكة العنكبوتية، عبارة عن نجوم فى مرحلة شيخوخة وعلي وشك ان تنفجر وتعود مادتها الى غبار السدم! وتتميز الثقوب السوداء بقدرتها الفائقة على ابتلاع كل ما تمر به او يدخل فى نطاق جاذبيتها من مختلف صور المادة من غبار كوني وكواكب ونجوم وغازات. وحتي الضوء لا يستطيع الافلات من جاذبيتها رغم ان سرعته تبلغ ثلاثمائة الف كيلومتر فى الثانية! وقد سميت بالثقوب السوداء لابتلاعها لكل ما يقع فى مجالها ولان الضوء لا ينعكس منها فتبدو داكنة! وقد قدم هذا الوصف فى مقال يظن فيه ان الثقوب السوداء هى {الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} 16 التكوير، التى اقسم الله بها فى القرآن!

هذه الارقام الفلكية التى تقشعر منها الأبدان، ليست الا قدرا ضئيلا مما استطاع العلماء تحديده من حجم المدار الحلزوني، والذي بالطبع لا يمكن للانسان رؤيته كاملا من الارض لانه حلزوني الشكل وما يظهر منه ليس الا الجزء المقابل للارض! اذن فالحديث عن السموات امر مهيب ورهيب ولا يعرف حجمها الا الله تعالى! وصدق الله العظيم حين قال:

{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 57غافر!

الارض مركز الكون:

من الملاحظات التى لا يغفل عنها أى متدبر للقرآن ان مفهوم "السموات والارض" قد ورد فى القرآن اكثر من مائة وثمانين مرة! هذا التكرار يوحى بأنَّ للأرض على صغرها المتناهي وضع النِّد والتساوي فى نظام الخلق مع السموات السبع على ضخامتها المتناهية! تكرار مفهوم" السموات والارض" يستدعي ان ننظر فيه من ناحية منطقية قبل ان نري ماذا يرى علماء الفلك فى تفسيره. ليس من المنطقي ابدا ان يجيب انسان اذا سالناه: كم دينار فى جيبك؟ فيقول "لا ادري هل دينار واحد او ستمائة وخمسين الف مليون دينار"! من يجيب بهذه الطريقة اما ان يكون مختل

العقل او انه يرمز لشئ اخر بلفظ "دينار واحد" يصلح لان يكون قريب الشبه من الرقم الخرافي الذى قارنه به! المقارنة بين شيئين ليس بينهما مساواة لا فى الحجم ولا فى القيمة لا تكون منطقية الا اذا كانت هناك قيمة وظيفية متشابهة ومتساوية بين الشيئين، ومثال على ذلك "مقارنة العربية و مفتاحها"! فرغم صغر حجم المفتاح مقارنا بحجم العربية الهائل، الا ان الحديث عن العربية ومفتاحها حديث منطقي اذ ان العربية مهما كبرت فى حجمها وتعقدت فى تركيبها الا انها لا قيمة لها بدون المفتاح، الذى يكون حجمه كقطرة ماء فى محيط مقارنة بحجمها! من هنا نستتنبط ان مفهوم "السموات والارض" يجعل من علاقة السموات بالارض شئ اشبه بالعربية الضخمة ومفتاحها الصغير الذى لا قيمة لها بدونه!

مستنيرين بعلوم القلم الحديثة التى اثبتت ان الارض كروية الشكل، وانها تواجه السماء الدنيا من كل جوانبها، فاننا يمكن ان نستبط ان السموات تأخذ شكلا كرويا يحيط بالارض من جميع نواحيها! أى ان الارض تقع فى مركز مجموع السموات السبع التى تحيط بها من كل ناحية فى سبع طبقات متناهية البعد، ولكن لان الارض هى المركز فقد كان مفهوم "السموات والارض" مطابقا لمفهوم "المحيط والمركز"! هذا المدلول العلمي والاعجازي ما كان ان يفهم قبل ان يصل الانسان الى كروية الارض وبالتالي يفهم ان السموات تحيط بالارض من كل جانب. ايضا ما كان ليفهم قبل ان يكتشف الانسان المفهوم الهندسي للدائرة او الكرة، وان المحيط مهما كبر فهو يُعرَّف بنسبته الى مركز الدائرة او الكرة!

ما رأينا من وصف حجم الكون ليس الا وصف الجزء المرئي من المجرة التى تنتمي اليها الارض وفي السموات بلايين مثلها! ورغم الصغر المتناهي للارض مقارنة بالكون نلاحظ أنَّ القرآن الذى وصف الشمس عشرات المرات ووصف القمر وغيرهم من أجرام السماء، ما وصف أى منهم بهذه الصورة " السموات والشمس" او "السموات والقمر" كما يرتبط وصف "السموات والارض" معا!

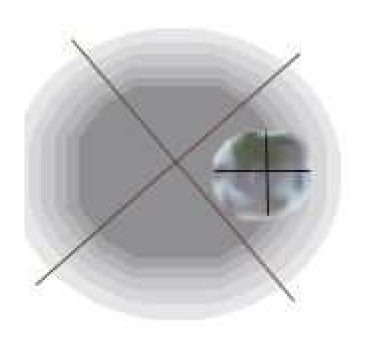
فاذا كان هذا حجم السموات مقارنا بحجم الارض الذى نعرفه الآن، فان تكرار السموات مواجهة للارض فى اكثر من مائة وثمانين مرة فى القرآن لا يدل الا على ان الارض هى المركز، ومحاطة بالسموات من كل ناحية، اذ ان العلاقة لا يمكن ان تكون علاقة تساوي فى الحجم، وانما هى علاقة محيط الدائرة او الكرة ومركزها! وهذا الافتراض يؤكده قول الله تعالى:

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ **أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} 33الرحمان!

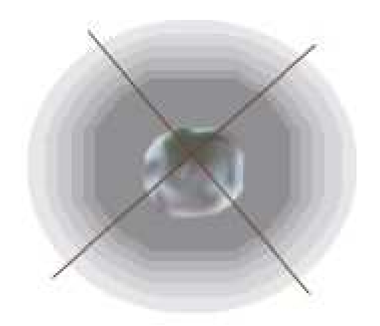
نلاحظ فى هذه الآية ان اقطار السموات والارض وصفت وهي منطبقة على بعضها كأنها شئ واحد لان النص كما هو واضح لا يعنى " اقطار السموات واقطار الارض" وانما {أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أى ان الاقطار مشتركة بين السموات والارض! هذه الآية تتحدي الجن اولا والانس ثانيا، اذ ان الجن من طبيعتهم الانطلاق فى الفضاء، وقد رأينا فى باب "عيد الانسانية" كيف ان الجن كانت تتصعد للسموات وتتصنت على الملأ الاعلي قبل ان يسلط الله عليها الشهب التى ترجمها! اما الانسان فقد ابتكر بسلطان العقل والعلم حديثا، الوسائل التى تعينه للصعود الى السماء فى حدود ضيقة. ولعل الآية التى لم تجعل خروجهم من اقطار السموات والارض مستحيلا وانما جعلته مشروطا، ربما تنبأت بعهد الانفلات من جاذبية الارض والطيران فى الفضاء ومركبات الفضاء التى تحط على الكواكب الاخري، وكان السلطان هنا هو سلطان العلم وفهم نظام الكون وتسخيره لمصلحة خليفة الله فى الارض والله اعلم!

المعروف هندسيا ان اقطار شكلين دائريين او كرويين لا يمكنها ان تتطابق الا اذا كانت الدائرة الصغيرة تقع فى مركز الدائرة الكبيرة حتى يشترك الاثنان فى المركز! تشبيه هذه الحقيقة بعلاقة السموات بالارض ليست مما يصل اليه الانسان بعلمه القاصر، اذ انه ما زال متعثرا فى اكتشاف بعض جوانب مجرة واحدة من مجرات السماء، ولكنها من صنف العلوم التى ناخذها من العليم الخبير! على ان فهم مدلول الآية تطلب فهم كروية الارض اولا ثم فهم مفهوم الدائرة الهندسي وعلاقة المحيط بالمركز حتى استطعنا ان نفهم ان اقطار السموات تنطبق على اقطار الارض! وبذلك تصبح هذه الآية آية إعجازية ترسم لوحة هندسية للكون، مكونة من سبعة دوائر تحيط واحدة بالاخري وتقع الارض كنقطة صغيرة فى المركز بحيث تنطبق اقطار السبعة دوائر الخارجية التى تمثل سبعة سموات طباقا على أقطار الأرض فى المركز! هذا المفهوم الهندسي يتضح لنا اكثر اذا قارنَّا اللفظ القرآني " أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" مع الفهم الخاطئ للآية حينما نظن انها تعنى "اقطار السماوات واقطار الارض" كما فى هذه اللوحة:

اقطار السماوات واقطار الارض – خطأ:



{أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}



وهذا المفهوم يشرح ايضا قبضة الله على السموات والارض يوم لقيامة:

{ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } 67 الزمر، اذ ان القبض على الارض متناهية الصغر مقارنة مع السموات يعكس مركزية وضعها فى شكل الكون الهندسي لان الامساك بالمركز والمحيط يعنى الحفاظ على الشكل الكروي للكون.

فاذا كانت الارض هى مركز الكون ذلك المجهول الرهيب، فان وسط الارض يكون مركزا للكون كله. والثابت ان شكل الارض بين الكروي والبيضاوي بالاضافة الى ان توزيع الكتلة على السطح يختلف من توزيعها فى قيعان البحار. و قد اشار العالم المصري النجار الى ان الانحرافات المغناطيسية عند مكة تؤول الى الصفر مما امكن ان نقسم الارض اليابسة شرق وغرب مكة الى قسمين متساويين، وهذا يجعل مكة تتوسط الارض اليابسة! هذه الاكتشافات الحديثة تزيد موقع البيت العتيق رهبة وتجعل منه حجة على الانسانية وتجعل من التدبر فيه حجة على الناس جميعا مسلمهم وكافرهم، ويفسر لنا الحكمة من ان الدعوة للحج تجئ فى القرآن مقترنة

بالناس وليس المؤمنين! فالقرآن هنا انما يطرح آية او آيات من آيات الكون الرهيبة، وفيها دعوة لكل الناس للتفكر والتدبر فى هذه الحقائق التى لا تتطلّب الذهاب الى مكة، ولكنها تقود كل الناس للايمان بخالقهم!

بكة تتوسط اليابسة:

ولندلل على ان مكة تتوسط اليابسة ننقل ملخصا لاحدى مقالات عالم علوم الارض الداعية البروفسير زغلول النجار بعد ان استئذناه شفاهة اطال الله عمره وبارك فيه و جزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيرا، ومقالاته كثيرة فى هذا المجال:

{ذكر الهروي فى غريب الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال {كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الارض} وقد ذكر الحديث الامام الزمخشري فى الفائق فى غريب الحديث ايضا، وربما كانت غرابته هو ان الائمة السابقين ما كان لهم ان يستوعبوا مضمونه الذى نفهمه الان بفضل الاكتشافات العلمية! وقد اخرج الطبراني والبيهقي فى الشعب عن ابن عمر رضي الله عنهما حديثا موقوفا يصف فيه ان البيت الحرام كان اول ما ظهر على وجه الماء عند خلق السموات والارض زَبْدة "بفتح الزاي أى فى شكل كتلة من الزبد" بيضاء فدحيت الارض من تحته!}

ظلت هذه الحقيقة غير مفهومة الى ان جاء العلم الحديث ليفسر ذلك السر العجيب كما اورد بروفسير النجار:

{بعد مجاهدة طويلة استغرقت آلافا من العلماء، عبر عشرات من العقود ثبت لنا فى منتصف الستينات من القرن العشرين ان ارضنا فى مرحلة من مراحل خلقها كانت مغمورة بالماء غمرا كاملا. ثم فجر الله تعالى قاع المحيط الغامر بثورة بركانية عنيفة ظلت تلقى بحممها التى تراكمت فوق بعضها البعض مكونة سلسلة جبلية فى وسط المحيط الغامر. وظلت هذه السلسلة فى النمو والارتفاع حتى ظهرت قمتها فوق سطح الماء مكونة اول جزء من اليابسة على شكل جزيرة بركانية مثل الجزر البركانية المنتشرة فى محيطات اليوم كما فى جزر اليابان واندونيسيا والفلبين وغيرها. واستمر نمو هذه الجزيرة البركانية الى ان تحولت الى قارة كبيرة تعرف باسم القارة الام او "بانجيا"! هذا النمو تم على مراحل و عمليات متكررة للمد والبسط والالقاء، وهذه العمليات تنطبق حرفيا على تعريف كلمة "دحو" والتي تصف وصفا دقيقا مراحل تكون الارض اليابسة كما ورد فى قول الله تعالى: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} 30 النازعات!

بعد ان تكونت القارة الام قامت ارادة الله بتمزيقها وذلك بواسطة شبكة هائلة من الصدوع العميقة التى شكلت خسوفاً ارضية غائرة فصلت تلك القارة الام الى القارات السبعة المعروفة اليوم!

وكانت هذه القارات فى القديم اشد تقاربا الى بعضها البعض ثم بدأت فى الزحف والتباعد حتى وصلت الى مواقعها الحالية والتى ما تزال فى حركة دائبة الى اليوم! هذه الظاهرة التى يتحول فيها المحيط الى يابسة او تنشق الارض اليابسة لتحوى محيطا تعرف بدورة المحيط واليابسة! ويتم تحول المحيط الى يابسة بواسطة الثورات البركانية كما ذكرنا الى ان تخرج الجزر البركانية الى السطح بينما تقوم التصدعات بفصل اجزاء من تلك القارة الى كتلتين يفصلهما بحر طولي شبيه بالبحر الاحمر، ويظل يتسع الى ان يصبح محيطا!

اما توسط مكة للارض فقد فسر هذه الآية والتي اثبتها العلماء حديثا ايضا:

{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا **لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا** وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فى السَّعِيرِ} 7 الشوري!

فأم القري كانت تفهم مكة وما حولها من القرى، مما دفع بعض المستشرقين فى الماضى للزعم ان القرآن جاء لاهل مكة والقري المجاورة لها! ولكن لان كل الدلائل تشير الى ان مكة هى وسط الارض فان المعنى الاشمل ربما يكون هو ان الله تعالى وصف الوسط " ام القري" وما حوله مشيرا الى الارض كلها ومشيرا ايضا الى هذه الحقيقة العلمية التى ما كان للناس ان يفهموها قبل ان يثبتها علماء المسلمين حديثا!

ففي محاولة علمية جادة لتحديد الاتجاهات الدقيقة الى القبلة "أى الى الكعبة المشرفة" من المدن الرئيسية فى العالم باستخدام الحاسوب، ذكر الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين رحمه الله برحمته الواسعة، الذى شغل درجة الأستاذية لمادة المساحة بكلية الهندسة فى عدد من الجامعات والمعاهد العليا، أنه لاحظ تمركز مكة المكرمة فى قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات. أى أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعا منتظما، وان هذه المدينة المقدسة تعتبر مركزا لليابسة، مصداقا لقول الله تعالى فى الآية السابقة { أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} !

اضاف الاستاذ الدكتور حسين كمال الدين رحمه الله رحمة واسعة فى بحثه القيم المعنون "اسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكة المكرمة" والمنشور فى العدد الثانى من المجلد الاول لمجلة البحوث الاسلامية الصادرة بالرياض سنة1395/1396 هـ {الموافق1975/1976 م} أن الأماكن التى تشترك مع مكة المكرمة فى نفس خط الطول {39,817 شرقا}، تقع جميعها فى هذا الاسقاط على خط مستقيم، هو خط الشمال الجنوب الجغرافي المار بها، أى ان المدن التى تشترك مع مدينة مكة المكرمة فى خط الطول يكون اتجاه الصلاة فيها الى الشمال او الجنوب الجغرافي تماما والمدن التى تتجه فى الصلاة الى الجنوب الجغرافي تبدأ من القطب الشمالي للأرض الى خط عرض مكة المكرمة {437 و21 شمالا} واما المدن التى تقع على خطوط العرض الممتدة من جنوب مكة المكرمة الى القطب الجنوبي فان اتجاه القبلة فيها يكون ناحية الشمال الجغرافي تماما!

وكذلك الحال على خط الطول المقابل لخط طول مكة المكرمة، وهو خط الطول المرقم {183 و140 درجة غربا} فان المدن الواقعة عليه تصح الصلاة فيها نحو الشمال الجغرافي او الجنوب الجغرافي تماما حسب موقع خط عرض كل منها بالنسبة الى خط عرض مكة المكرمة! فالمدن الواقعة الى الجنوب من خط العرض المقابل لخط عرض ام القري أى من خط عرض 21و437 جنوبا الى القطب الجنوبي تتجه فى صلاتها الى الجنوب الجغرافي تماما، والمدن الواقعة شمالا من خط العرض ذلك الى القطب الشمال تتجه فى صلاتها الى الشمال الجغرافي تماما!

اما المدينة الواقعة على خط الطول المقابل لمكة المكرمة تماما وعلي خط عرضها تماما فان الصلاة تجوز فيها نحو أى من الشمال او الجنوب الجغرافيين تماما، كما تجوز فى كل الاتجاهات الاخري شرقا وغربا، وذلك لوقوع تلك المدينة على امتداد قطر الكرة الارضية المار بمكة المكرمة! معنى هذا الكلام انه لا يوجد انحراف مغناطيسي عند خط طول مكة المكرمة، وعند جميع الخطوط الموازية له، باستثناء حالة واحدة! والسبب فى ذلك ان قطبي الارض المغناطيسيين فى تجوال مستمر حتى يتم انقلابهما فيصبح القطب الشمالي جنوبا والقطب الجنوبي شمالا، وعند ذلك تحدث الكثير من الكوارث الطبيعية واندثارات الحياة، وقد ثبت حدوث مثل هذه الانقلابات المغناطيسية عدة مرات فى تاريخ الارض!

وتعلل المغناطيسية الارضية بوجود مجال مغناطيسي كبير يمر بمركز الارض، ويميل محوره حاليا بمقدار 11.5 درجة بالنسبة للمحور القطبي الجغرافي للارض، ويعتقد بان هذا المجال المغناطيسي ناتج عن لب الارض المائع مع دوران كوكبنا حول محوره! وعلي ذلك فان الاتجاه المغناطيسي الذى يحدد بالبوصلة او بغيرها من الاجهزة المساحية التى تستخدم الابرة الممغنطة يختلف عن الاتجاه الحقيقي بزاوية تعرف باسم زاوية الانحراف المغناطيسي، وهي تحدد على جميع انواع الخرائط لكي يحسب الاتجاه الحقيقي بمعرفة كل من الاتجاه المغناطيسي وزواية الانحراف المغناطيسي!

ومن الثابت تاريخيا ان خط طول جرينتش قد فرضته بريطانيا إبان هيمنتها على العالم فى سنة 1884 م أثناء مؤتمر عقد فى واشنطن / كولومبيا لتحديد خط طول الأساس، وكان إختيارا سيئا لأن زاوية الإنحراف المغناطيسي فى الجزر البريطانية كما قيست سنة 1972 كانت فى حدود 8.5 درجة الى الغرب من الشمال وهذه القيمة تتناقص بمعدل نصف درجة تقريبا كل اربعة سنوات تقريبا أذا بقيت تلك المعادلة ثابتة!

يظهر ذلك خصوصية خط طول مكة المكرمة بانطباق الشمال المغناطيسي على الشمال الحقيقي، ومن هنا كان اختيار الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين رحمه الله لخط طول مكة المكرمة كخط طول أساسي للكرة الأرضية، واعادة اسقاط خطوط طول الكرة الارضية بدءً منه، أى بالنسبة الى

مكة المكرمة، لتماثل خطوط الطول حول خط طول تلك المدينة المقدسة تماثلا مذهلا! وتذكر المراجع العلمية ان هناك خطاً من خطوط الطول يمر بمدينة سنسنائي اوهايو تتضاءل عنده زاوية الانحراف المغناطيسي الى قرابة الصفر ويعرف باسم خط انعدام زاوية الانحراف المغناطيسي، وعلاقة هذا الخط بخط طول مكة المكرمة لم تدرس بعد!

اذا فالاستقراء لآيات القرآن الكريم ولاحاديث خاتم الانبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم يتضح بجلاء توسط مكة المكرمة بين السماوات السبع والارضين السبع وهي حقيقة غيبية لا يمكن للعلم الكسبي ان يصل اليها بدون وحي من الله، وذلك لأن الانسان لا يستطيع ان يرى من فوق سطح الارض الا شريحة صغيرة من السماء الدنيا وبالتالي لا يمكنه ان يحدد موقع الارض من الكون}!

ومن ما أورده العالم زغلول النجار أعلاه يمكننا أن نلخص هذه الحقائق فى هذه النقاط:

1. ورود ذكر الارض فى مقابلة السموات فى اكثر من مائة وثمانين آية فى القرآن مما يوحى بعلاقة متميزة للأرض على ضالتها من دون الكواكب والنجوم، مقارنة مع السموات على ضخامتها المتناهية!

2. إشارة القرآن الى البينية الفاصلة للسماء او السماوات عن الارض فى عشرين آية صريحة، وهذه البينية لا يمكن ان تتم مع تناهي الارض فى الضآلة وتناهي السماوات فى الضخامة الا اذا كانت الارض فى المركز بين السموات السبع، وان السماء الدنيا تحيط بالارض من كل جانب فى شكل دائري! مثال لذلك:

{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} 5 الملك

3. إشارة القرآن فى سورة الرحمن الى مفهوم أقطار السماوات والارض كمفهوم هندسى واحد، وقطر أى شكل هندسى هو الخط الواصل بين طرفين من أطرافه مرورا بمركزه. إذا كانت أقطار السماوات والأرض واحدة فلابد وان تكون ارضنا فى المركز من السموات!

4. توافر حقائق علمية تؤكد أن مكة توسط الأرض اليابسة وتؤول عندها الانحرافات المغناطيسية الى الصفر.

من ذلك كله تتضح ومضة الإعجاز القرآني فى قول الله تعالى مخاطبا خاتم انبيائه: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ **أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا** وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } 92 الانعام!

كما رأينا فان العلم الحديث اثبت وسطية ام القري لكل الارض اليابسة، ومن هنا يكون المنذرون هم جميع اهل الارض بلا استثناء، ويتضح وضع الكعبة المشرفة فى وسط الارض اليابسة،

ويحيط بذلك كله سبع سماوات ويقابل الكعبة المشرفة من فوق سبع سموات طباقا البيت المعمورالذي لا يعلم سره الاّ لله!

بكة فى التوراة:

ولما كان هذا حال البيت وكونه حجة على الانسانية وليس المسلمين الذين اتبعوا محمدا فقط، فكان منطقيا جدا ان يكون ذكره فى الكتب السماوية السابقة قد ورد محددا باسم " **بَكَّة**" الذى يشير الى حال الانسان الأول كما رأينا، وقد سعى اليهود الى تحريفه كما حرفوا الكثير، ليُخفوا عَهْدَ الله لابراهيم واسماعيل به، ولكنَّ الله غلبهم اذ استعمل اسم "**بَكَّة**" الذى لا يعرفه الا العرب، فبقي فى ما بقي من الزبور باللغة الانجليزية رغم محاولة تحريفه فى الكتاب المقدس المعرَّب:

{ما احلي مساكنك يا رب الجنود. تتوق بل تحن نفسي الى **ديار الرب**. قلبي وجسمي يرنمان بفرح الله الحي. **العصفور** ايضا وجد له وكرا، **واليمامة** عثرت لنفسها على عش تضع فيه **فراخها** بجوار **مذابحك** يا رب الجنود. يا ملكي و الهي. طوبي لمن يسكنون فى **بيتك** فانهم يسبحونك دائما. طوبي لاناس انت قوتهم. المتلهفون لاتباع طرقك المفضية الى **بيتك المقدس**. واذ يعبرون فى **وادى البكاء الجاف**، يجعلونه **ينابيع ماء**، ويغمرهم المطر الخريفي بالبركات} المزامير 84:1-7!

فى الزبور الانجليزي نجد كلمة {young} بدلا عن فراخها، و {valley of Baca } التى ترجمت الى "وادى البكاء"، وقد كتبت بالحروف الكبيرة مما يدل على انها اسم مكان وليست صفة لمكان كما يوحى التعديل الى وادى البكاء! الا أنَّ الخلاف ليس بين النسخة العربية والانجليزية فقط ولكن هناك خلافاً مهما بين التوراة الذى يحتويه كتاب النصارى وبين التوراة المعتمد لليهود واسمه {TANAKH The Holly Scriptures JPS 1985} فان النص الذى يقابل " المتلهفون لاتباع طرقك" ورد كما يلى باللغة الانجليزية فى توراة اليهود: { Happy is the man who finds refuge in you, whose mind is on the pilgrim highways. They pass through the valley of Baca}

وهذا يمكن ترجمته حسب تقديرنا الى الآتى: {طوبي للذي يشعر بالامان عندك، وعقله مشغول **بالحج** وهم يمرون خلال وادى بكّة}!

هذه المقاطع من الزبور تصف حال هاجر حينما وصلت الى موقع البيت مع صغيرها اسماعيل عليهما السلام، وقد رُمِزَ اليهما مجازا باليمامة وصغيرها، اذ ان الزبور عبارة عن اناشيد وفيه من المجازات الكثير! اما العصفورة المذكورة فهى ذات العصفورة التى ورد ذكرها فى الحديث الصحيح {صحيح البخاري، الجزء الرابع، حديث رقم 583}، الذى وصف ان هاجر بقيت

تشرب من زمزم اربعون يوما الى ان مرت احدى قبائل جرهم بوادي مكة، فلاحظوا عصفورا صغيرا يطير ففهموا ان فى الوادى ماء لم يكن معروفا لهم، فجاءوا وسكنوا مكة مع هاجر واسماعيل! اما ينابيع الماء فهى بلا شك زمزم، و"وادى البكاء الجاف" وادى وهمي فى وهم من حاولوا تحريف الاسم بعد ان فوجئوا بأن الكتاب المقدس انتشر باللغة الانجليزية قبل ان يحذف منه اسم "**بَكَّة**" او يحرَّف لان الاوربيين ما فهموه، فسارعوا بتغييره فى الكتب العربية التى ترجمت مؤخرا الى "وادى البكاء" المجهول، رغم ان الآيات تصف بيتا لله يؤُمُه الآلاف وفيه هذه الآيات البينة التى تحويها الكلمات، علما بأن كل القواميس التى تفسر الفاظ الكتاب المقدس اشارت الى ان وادى البكاء وادى مجهول يظن انه فى فلسطين!

سألت "ترى" القسيس الذى اعتنق الاسلام قبل اسابيع من موته والذي ذكرت قصته فى مقدمة هذا الكتاب، ماذا يظن فى هذه الآيات فاجابني بكل ثبات "لا اشك ابدا أن محمدا هو النبي الذى ظللت ابحث عنه طوال عمري وها أنذا اعرفه وانا على فراش الموت"، وفاضت عيناه من الدمع مما عرف من الحق ومات عليه رحمة الله وعلينا بعدها باسابيع بسيطة، وترك وصية ان اصلي عليه فصليت عليه صلاة الجنازة وحيدا فى قريته النائية فى غرب بريطانيا يوم 25-8-2005، واستأذنت أسرته أن أخلد ذكراه فى أول مكتوب اقدمه للناس!

بـيـت الله:

من ما سبق يتضح لنا ان خلق العلي القدير ليس فيه حدث عشوائي، بل ان كل قوانين الطبيعة ومقاليد السموات والارض تتداخل فيه من هندسة وفلك واحياء وكيمياء وغيرها فى لوحة فنية باهرة ومعجزة لتقف حجة على كل من يبحث فى اسرار هذا الكون وتقوده الى الله تعالى! ولعله يتضح الان للقارئ ان كون مكة هى مركز الكون وانها اول بقعة تخرج من تحت الماء، كله يزيد من منطقية ان خلق "الأحياء" كلها قد بدأ فى البقعة التى انحدرت منها المياه اولا، وان عملية التطور الى ان وصل الخلق الى الانسان العاقل قد تمت حول البيت! هذه التداخلات فى قوانين الطبيعة حول البيت تجعل من الحج رمزا لكل قوانين ونظام خلق الكون ومقاليد السموات والأرض، ويجعل من تعظيم شعائره تدبرا فى تلك "المقاليد"، والمشي على خطي الانسان الاول فى تلك البقاع تقليدا من تصميم صانع المقاليد او "قلائد"، وانه بذلك يكون حجة على الناس جميعا بقدرة الخالق ومنزل القرآن، وليس المسلمين فقط! ولذلك فالقرآن ما ناقض نفسه بان يجعل هذه الحجة العلمية والتاريخية والجغرافية والكونية التى تهز كل البشرية موجهة للمؤمنين فقط وانما اعجز فى اختياره للالفاظ بتوجيه الحجة لكل الناس!

ولما كانت منطقة مكة مليئة بالآيات التاريخية والعلمية والكونية، فانه ليس غريبا ان يكون الخطاب القرآني انتقائيا جدا للالفاظ التى يصف بها تلك البِقاع التى تحمل بين ودناها المقدسة هذا الكم الهائل من الاسرار المذهلة! وسنحاول هنا استنباط العلاقة بين تلك المدلولات المختلفة والحكمة من اختيارها فى الآيات التى وردت فيها:

البيت:

يأتى هذا اللفظ منفردا فى آيات القرآن ليعكس وظيفة البيت كمبني، ويوضح علاقته بالانسان عبر العصور عموما وليس علاقته التعبدية بامة معينة، وكأنه لفظ يستعمل عند ذكر قصة البيت من ناحية تاريخية وما دار حوله من احداث او ارتبط به من مفاهيم:

{إِنَّ أَوَّلَ **بَيْتٍ** وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} 96 آل عمران.

هنا نلاحظ ان العلاقة كانت علاقة بيت عادي وضع لايواء اول ناس سكنوا الارض فى زمان ما كان الانسان بعد قادرا على البناء. ثم تهدم البيت كأي بيت آخر حينما هجره اولئك الناس، وتعرض لعوامل الطبيعة العادية كأي مبني اخر. ولما كانت للبيت قيمة اخرى عند الله فقد تفضل على إبراهيم وإسماعيل بمعرفة موقعه وموضع قواعده وكلفهم برفعها:

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ **الْبَيْتِ** وَإِسْمَاعِيلُ...} 127 البقرة

هنا نلاحظ ان دور ابراهيم واسماعيل كان رفع قواعد البيت كمبني فى زمانٍ ومكانٍ ما كان يمكن له ان يكون مأوى لاي إنسان، لانه حينها كان فى وادى غير ذي زرع لا يقطنه احد. اذاً فرفع قواعده تم لحكمة اخرى غير الحكمة التى وضع لها اول مرة:

{وَإِذْ جَعَلْنَا **الْبَيْتَ** مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ..} 125 البقرة

كما اسلفنا فان الله قدر ان يكون هذا البيت "مثابة" أى مرجع ومكان عودة للناس ويكون ايضا امناً، و لفظ الأمن فى اللغة له معنيين الاول هو ضد الخيانة، والثاني هو التصديق أى الثقة ان ما قيل ليس الا حقا، كما فى قول الله تعالى على لسان حال اخوة يوسف: {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ **بِمُؤْمِنٍ** لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} 17 يوسف، أى لا نظن انك تصدق ما نقول! من المهم أن نلاحظ أن استعمال كلمة "أمنا" فى هذه الآية يصف حالة تصديق من ثاب إليه فى متأخر الزمن، وهذا يختلف من استعمال نفس اللفظ فى الآية السابقة {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} والتي تصف حال من دخله ونال الأمن داخله فى غابر الزمن! ومن هنا نقول انه ليس من المنطق ان يأتى احد من الناس من الصين او امريكا فقط ليشعر بالأمن "أى الاطمئنان وعدم الخوف" فى هذا البيت، علماً بأنَّ الوصول اليه عبر العصور ارتبط بمخاطر كبيرة تزداد مع طول الرحلة وتعقيد وسائل السفر، وما زال موقعا لاحداث موتٍ كثيرة نتيجة

لازدياد المستجيبين لأذان ابراهيم عليه السلام. اذاً فـ "امنا" هنا تُفَسِرُها كلمة" مثابة" أى الرجوع للتصديق!

من اكثر الامور التى تجعل الناس يعيشون فى قلق وحيرة فى حياتهم مهما آتاهم الله من مالٍ ومتع الحياة، هى القضايا الغيبية المرتبطة بأصلِ الحياة والحكمة منها والمصير بعد الموت. هذه الغيبيات لا يستطيع الانسان ان يشعر بأمنٍ فى حياته معها الا اذا فهمها فهما واضحا وموثقا لا يداخله شك. من هنا يتضح لنا ان المثابة المقصودة ليست "مثابة" او "عودة" ليسكنوا فى البيت الذى اصلا لا يدخله احد، وانما هى رجعة فكرية ونفسية بكل الوجدان والمشاعر والعقل لبيت الآباء، وبالتالي فهم قصة الخلق كلها وعلاقة الانسان بربه، التى تغمر القلب بذلك الامن وهو التصديق المطلق لحقيقة خلق وتطور الانسان وعلاقته بربه منذ بدء الخلق! هذه المثابة الفكرية المتاحة لكل من يبحث عن الحقائق، تحقق التصديق المطلق فى القضايا التى تجعل معيشة الانسان ضنكا، وان سكن قصورا وحرسته دروع مدرعة! فلعلَّ هذه هى الحكمة التى من اجلها رفع ابراهيم القواعد من البيت، الذى ما عاد مأوى لاحد ولكنه موقع يتم فيه التصديق بالحقائق التى لا تصدق بسهولة!

على ان البيت نفسه ظل كما هو بيتا تعاملت معه مختلف القبائل التى سكنت عنده وفقا لرؤياها وفهمهما:

{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ*إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ* فَلْيَعْبُدُوا **رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*** الذى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} سورة قريش!

نلاحظ هنا ان الدعوة الموجهة لقريش ما كانت لأن يتعبدوا فى البيت، وانما كانت تذكيرا لهم بان يعبدوا رب البيت الذى تفضل عليهم بفضائل اخرى لا علاقة لها بالبيت! ونظن ان الحكمة من هذه الآية هى إفاقة قريش من شركها وضلالها، ودعوة لهم ليثوبوا أى يرجعوا فكريا لحقيقة ان ربهم هو رب هذا البيت، وهو الذى يتحكم فى كل جوانب حياتهم، وليست الاوثان التى دنثوا بها البيت! اذ انه فى عهد قريش ما كانت العبادة عند البيت الا نفاقا:

{وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ **عِنْدَ الْبَيْتِ** إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} 35 الانفال.

ومهما كان حال الناس عند البيت عبر العصور، فقد ظل البيت مملوكا لمالكه الذى وضعه للناس اول مرة، وظلت له قيم اخرى وان نسيها العرب حينا من الزمن، قدر الله لها ان تعود اليه بعد ان تكتمل رسالة الاسلام ويكمل الله دين الناس ويتم عليهم نعمته ويرتضي لهم الاسلام دينا، وهذا ما تم بعد فتح مكة حينما طهر النبي الخاتم بيت الله من الاوثان مع نهاية الوحي ونزول آية اكتمال الاسلام! هنا فقط اصبح البيت مركزا هاما للتشريع الإسلامي، ولذلك نجد ان الآيات التى تصفه من منطلق تشريعي وليس تاريخي فقط، تشير إليه بألفاظ ذات مدلولات اعمق من كونه بيتا فقط!

البـيت الـعـتـيق:

{ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا **بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**} 28 الحج

عتيق تعنى الشئ ضارب فى القدم، وايضا تجمع كل معاني الكرم خلقا وخلقا. ومن استعمالاتها عتق العبد أى تحريره من الاستعباد لان فى ذلك اعادة كرامته! وتوصف الخمر بـ "المعتقة" او "العتيقة" أى قديمة فى التخمير وهي اشارة للجودة والتركيز! وقد اختلف فى تسمية "البيت العتيق"، فمن قائلٍ انه اعتق من الغرق ايام الطوفان فرفع عن الارض، ومن قائلٍ انه اعتق من الحبشة فى عام الفيل ومن قائل انه لا يدعيه احد الا الله تعالى. والاختلاف فى التفسير لا يدل الا على غموض المعنى! ونحن نظن ان كل هذه المعاني تتفق وحال البيت، على أننا نعتقد أن ابلغها هو انه ضارب فى القدم الى ابعد من ان يصل اليه خيال الانسان. فهو اول بيت وضع للناس وهو او بيت اجتمع حوله جنس آدم والانسان الاول وهو اول موقع بدات البشرية تتطور حوله وربما هو الموقع الذى بدأت فيه الحياة مطلقا. وهو بلا شك أول بيت مارس عنده خليفة الله فى الارض سلطاته الأولى!

نلاحظ ان الآية هنا لا تتعامل مع البيت من ناحية تاريخية او كونه مبني، وإنما من ناحية تعبدية لما فيه من علاقة بين الخالق والخلق، وما فيه من آية بينة من آيات خلق الأرض وخلق الانسان! ولذلك فان موضوع الآية هو عبادة الطواف، والطواف لا يتم حول أى مبني او أى بيت وانما حول البيت الوحيد العتيق، لذلك فكانت الصلة بين "البيت العتيق" والانسان هنا هى "الطواف" والعبادة وليس السكن فيه او حوله كسكن قريش ايام جاهليتها!

هذه الآية توحي بان الطواف على مافيه من عبادة، مرتبط بالحقيقة الجغرافية والتاريخية الكونية لموقع البيت وكرم اصله وموقعه! والطواف حول البيت يتم فى اتجاه عكس عقارب الساعة المعروفة، أى مع حركة دوران الارض حول الشمس! ربما يكون فى ذلك علاقة بدواران الكواكب فى السماء، آو سر من اسرار نظام الكون او طواف الملائكة حول البيت المعمور، وكلها معان غامضة لكنها ترتبط بكون البيت عتيقا! ونلاحظ ان كلمة "عتيق" وردت فى القرآن مرتين فقط فى موقعين تعبُدِيين ذوا مدلولات ابعد من ان يوفيها الانسان بعلمه القاصر حقها، كانت الأولى فى الآية أعلاه، والثانية فى هذه الآية الغامضة جدا:

{حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تهوى بِهِ الرِّيحُ فى **مَكَانٍ سَحِيقٍ*ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ** فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ* لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى **ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**} 33 الحج!

ذكر القرطبي ثلاثة وجوه لاعراب كلمة "ذلك" فى هذه الآية فى محاولة لفهم ماذا تشير إليه، مما يدل على ان قراءة الآية نفسها فيها غموض، وأجمل القرطبي أنها ترجع الى "شعائر الله" وهي علامات دينه البينة! ثم مضى يشرح الجزء الاكثر غموضا من الآية فقال:

{قوله تعالى: "ثم محلها إلى البيت العتيق" يريد أنها تنتهي إلى البيت، وهو الطواف. فقول: "محلها" مأخوذ من إحلال المحرم. والمعنى أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق. فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه؛ قاله مالك فى الموطأ. وقال عطاء: ينتهي إلى مكة. وقال الشافعي: إلى الحرم. وهذا بناء على أن الشعائر هى البدن، ولا وجه لتخصيص الشعائر مع عمومها وإلغاء خصوصية ذكر البيت. والله أعلم} . وقد اورد ابن كثير قولا جامعا لشعائر الله: {وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والحلق والبدن من شعائر الله. وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.}!

من هذه الاختلافات نشعر ان الآية أصلا لم يردُ فيها رأى مَنْ لا تجوز مخالفته صلى الله عليه وسلم، وإنما كان فهمها بناءً على فهم المتقدمين البسيط للاحداث التى ارتبط بها البيت العتيق! ولما كنَّا قد وقفنا على اسرارٍ اكبر واحداثٍ اكثر عمقا فى علاقة الانسان بهذا البيت العتيق، وعلاقة هذا البيت بالكرة الارضية وعلاقة الارض بالكون، فإنَّ فهمنا لها لا بد ان يأخذ مفوهما اشمل ليعبر عن تلك المعاني مجتمعة! من الغريب ان اغلب المفسرين فهموا ان "مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ" ترجع الى "البدنة" علما بان هذه الآية أصلا ما وصفت "البدنة" ولا حتى الآيات التى سبقتها التى حذرت من الشرك، وانما ذكرت البدنة و انها من شعائر الله بعد آيتين من هذه الآية، ولذلك لا نجد مبررا لتفسيرهم غير ان الآية كانت غامضة عليهم فاجتهدوا فى ربطها بالبدنة!

ونحن نظن ان تعظيم شعائر الله فى هذه الآية التى جاءت بعد آية اخرى تحذر من الشرك بالله، إنما تشمل كل الشعائر الموجودة فى البلد الحرام من المشعر الحرام الى البيت العتيق، وتعظيمها هنا يأتى ضد الشرك مما يدلل على المعاني العميقة فى هذه الشعائر وليس الحجارة التى لا تعبد أصلا كما قال عمر بن الخطاب: "والله يا حجر انى اعلم انك لا تنفع ولا تضر ولو لا انى رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك لما قبلتك"! هذه المعاني فى الشعائر الحرام قد وقفنا عليها، وهي تحكي كل قصة الخلق والتطور وموقع البيت العتيق من الارض ومن الكون ومن تاريخ الخلق! هذه المعاني مجتمعة تحكي قصة الحياة الدنيا كلها، وبهذا نظن ان " لَكُمْ **فِيهَا** مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى" لا ترجع الى البدنة التى اصلا لم تذكر بعد فى الآيات، وإنما ترجع الى الحياة كلها! وكلمة "**محلها**" قد لا تعنى وصول البدنة الى البيت العتيق كما ظن المفسرون، اذ ان هذا كان فى زمن مضى ولم يكن شرطا لصحة عبادة الحج و صحة الْهَدْيَ، بدليل ان الْهَدْيَ الان يذبح على

بعد اميال من الحرم، ولا ينتقص ذلك من الاجر فيه شيئا والله اعلم! اذن فـ "محلها" لا بد وان تكون لها صلة بمجموع المعاني التى ترمز اليها الشعائر الحرام والبيت العتيق!

اورد صاحب مقاييس اللغة معنى لـ" محله" ما وجده الا فى بيت شعر لسيبويه، وهي تعنى الغور، وهو "خفوض فى الشئ وانحطاط وتطامن"! ونحن نظن ان فى هذا اشارة الى احد اسرار البيت العتيق من استقراره فى موضع تتطامن عنده هيئة الارض و تنخفض فيه القوانين التى تحكم حركة الارض، وتؤول المجالات المغناطيسية عنده الى الصفر كما رأينا مما اكتشف حديثا من اسرار أم القرى، وتتطابق عنده اقطار السموات والارض! فهذه آية إضافية الى معاني "شعائر الله" التى تحكي كل قصة الحياة الدنيا التى لنا فيها متاع الى اجل مسمي، وليس "البدن"، من خلق وتطور الانسان وعلاقته بربه و علاقته بالبيت عبر العصور، والله اعلم!

الكعبة:

الكعبة لفظ تجسيمي للبيت، اذ تعنى البروز والنتوء فوق الارض، وربما يكون اصل اللفظ من لغة اول ناس سكنوا البيت، وقد وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم بـ " خشعة" وتعني قطعة من الارض غلبت عليها السهولة، و هى حالة ارضه حين خرجت من تحت الماء! و قد ورد لفظ الكعبة فى القرآن مرتين الأولى ارتبطت بآذان الانعام وهو الْهَدْيَ:

{..يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ **هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ** ....} 95 المائدة!

هنا نفهم ان النية فى هذا الْهَدْيَ تكون خالصة مجردة لله، ممثلا فى الكعبة المشرفة لما لها من دلالات قدرة الله فى خلق الكون كله، وما الكعبة الا اعظم شعائر الله كما ورد فى تفسير الطبري اعلاه! نلاحظ ان ذكر الكعبة هنا مرتبط بتوحيد الخالق وهو قيمة تعبدية بحتة! اما الموضع الاخير الذى ورد فيه لفظ الكعبة فقد جاء ايضا فى آية جمعت كل شعائر الله وابرزتها كدليل على علم الله الذى يعلم ما فى السموات والارض، وكأنها اشارة الى ان ما نعلمه من اسرار ليس الا قليلا جدا:

{**جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ** ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } 97المائدة!

وقراءة الآية حسب ما يوحيه المعنى هى: "جعل الله الكعبة البيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد قياما للناس" أى ان كل هذه الشعائر قياما للناس!

اورد الطبري فى تفسيره ان قياما اصلها "قواما" وانما قلبت الواو ياءً، وكذلك قال غيره! والقوام هو الذى يقوم على امر الناس ويصلح به حالهم، كالملك القوام الذى يحق الحق ويبطل الباطل!

ونحن نفهم ان هذه الآية جمعت كل شعائر الله المحرمة فى صياغ واحد، وهي الآيات المنزلة التى تمثل رمزا لخلق الارض وخلق الكون وخلق وتطور الحياة عموما والانسان خصوصا وعلاقة

الانسان بربه منذ الازل وعلاقته بالشيطان عدوه الاول والازلي ايضا، وعلاقته بالانعام التى انزلت من ربه لخدمته وتهديه لوجود خالقه! ونظن ان مدلول هذه الآية انها تجمع اخطر العلوم التى يبحث عنها الانسان فى امور اصل الانسان والحياة والكون، وبالتالي ما بعد الموت! انها تجمع كل ما كتبنا فى هذا الكتاب من معاني وعلوم، ولا غرو اذاً ان الله لم يجعلها قياما للمسلمين او المؤمنين، وإنما جعلها قياما "للناس" مسلمهم وكافرهم اذ انها مجموع الحجج التى جعل الله بها الحج حجة لله على الناس، كل الناس الى يوم الدين!

ونلاحظ ان البيت قد ذُكِر بكلِّ أسمائه " الكعبة البيت الحرام" لتجتمع كل معانيه، ما نعلمه وما لا نعلمه فى هذه الآية الجامعة، ليكون قياماً الى مدرسةٍ تصلح حالهم وتهديهم الى كل الحقائق الكونية ويكون حجة على الناس كلهم، وما علينا نحن المسلمون الا البلاغ!

القِبْلَــة:

امر اختيار البيت ليكون قبلة للمسلمين فى صلاتهم وذبائحهم وكل عباداتهم التى يرجون فيها وجه الله امرٌ غامض اخذه الفقهاء فى الماضى على انه امرٌ توقيفي اختاره الله لحكمة يعلمها هو وما علينا الا الطاعة. على ان اختيار المسجد الاقصي ليكون قبلة مؤقتة قبل تحول القبلة للكعبة الى يوم القيامة امرٌ اثبت العلم الحديث ارتباطه باسرار يمكن للانسان ان يتدبر فيها. وإن كنا لا ندري بعد تفاصيل تلك الاسرار الا ان النظر فيها يزيد المؤمنين ايمانا. فقد ثبت علميا ان الطاقات المغناطيسية الكامنة حول المسجد الاقصي أعلى من أى موقع آخر فى الارض ما عدا المسجد الحرام. فربما تكون هناك علاقة بين موقع البيت والطواف حوله والتطوف بين الصفا والمروة بما فيها من طاقات غامضة وعبادة التوجه الى ذلك الموقع كقبلة للمسلمين. فاذا كان تحليلنا الى ان اصل حجارة الصفا والمروة والحجر الاسود من خارج الارض وانها ذات صلة بالجمرات التى انزلت من خارج الارض ولها خاصية طاقة كامنة تدمر الطاقة النارية التى خلقت منها الجن، فربما يكون فى عبادة الطواف حول مركز الارض الذى تنعدم عنده الانحرافات المغناطيسة والتطوف بين الصفا والمروة فيه سر تبادل طاقات بين جسم الانسان المشحون بالطاقات المغناطسية والكهربائية والطاقات الكامنة فى هذه الحجارة وهذا الموقع! ربما يكون فى هذه العبادات إعادة توازن لطاقات جسد الانسان خص الله بها المؤمنين من عباده الذين يؤدون هذه العبادات ولا يعلمون لها سراً!

فى زماننا هذا نعلم ان اجهزة الاستقبال فى التليفزيون والراديو والهاتف الجوال تحتاج لتوجيه نحو موقع الارسال او الاستقبال حتى يكون الاتصال واضحا. فربما يكون التوجه نحو القبلة فيه نفس الخاصية من الاتصال الروحي بموقعٍ خصه الله بطاقات تجعل اتصال روح الانسان بخالقه

اكثر صفاء ونقاء تماما كما يحتاج الاستقبال والارسال فى اجهزة التلفاز لتوافق فى علاقة المرسل والمستقبل. لا شك ان الدعاء الى الله يكون برفع الاكف نحو السماء، ولكن العبادات الجسدية تتم بتوجه الانسان نحو القبلة مما يفتح بابا للتدبر فى هذا التخصيص والله اعلم. ونحن هنا لا ندعي كشف اسرار البيت العتيق التى لا يمكن لنا ان ندعي معرفتها كلها، ولكننا فقط نجتهد فى ان نفتح الباب امام جيل جديد من المفكرين الذين لهم دراية بعلوم الكون ليبحثوا فى هذه الاسرار!

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى

ولعلنا الآن وبعد أن ربطنا **المقاليد** فى السماء مع **القلائد** فى الارض، والقينا بعض الظلال على اسرار مركز الارض ومركز الكون عند البيت العتيق، يسهل علينا ان نعرُج مرة اخرى لتأويل بعض آيات العرش التى آثرنا تأجيل تأويلها حتى تتضح الرؤيا لنا فى فهم نظام الكون كله، لانها تصف تَحَكُّم الله تعالى فى ناموس الكون بصورة منتظمة وحكيمة لا يشوبها تقلبات ولا تخضع لمزاج احدٍ او تغيُّر الظروف. ورد مفهوم "الاستواء على العرش" في سبع آيات مختلفة في القرآن، كلها تتفق مع المعني الذي نطرحه من خلال مناقشة موقعين منها:

الاستواء على العرش:
فى سورة السجدة ارتبط الاستواء على العرش بظواهر كونية عظمى:

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ* يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ **ثُمَّ** يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ* ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ* الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ* ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} 4-9 السجدة !

نلاحظ ان الاستواء على العرش هنا قد:

1. تلى إكتمال الستة مراحل فى خلق السموات والارض، وقد قدم اليه بحرف العطف "ثـــم".
2. تبعه وصف لحجم الكون وسرعة الضوء، ومفهوم النسبية فى الزمان والمكان، ثم تفاصيل خلق وتتطور الانسان عبر مراحل التطور من الطين مرورا بالتناسل الجنسى منتهيا بالعقل!

من هذا يمكننا ان نفترض ان مفهوم "الاستواء" يرتبط بالقوانين الالهية التى تحكم الكون وبمقدور الانسان دراستها وفهمها والتعامل معها.

وفى سورة طه بعدٌ آخر للإستواء على العرش، يشرح لنا الحكمة من الاستواء علي العرش، وبالتالي تشرح هذا المفهوم الغامض:

{طه* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى* إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى* تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا* **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى*** لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى* وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} 4-8 طه!

لا يخفي علينا أنَّ هذه الآيات قد فتنت الكثيرين على مرِّ العصور، وما زالت تسبب حرجاً كبيرا للعلماء والعامة، إذ انَّ إجتماع لفظ "استوي" مع لفظ "العرش" يزيد من التصوير التجسيمي الذى يناقض الصفات الإلهية. ولكنِ استعصى على المسلمين فهمها فى الحقب التى كان فهم ناموس الكون فيها مستحيلا، فظلت مصدر إشكالٍ كبيرٍ فى التأويل! وقد تعامل معها المفسورن بحذرٍ شديد لِما تسببه من فتنة اللانسان، ولعلّ ابلغ ما قيل فى أمرها هو قول الامام مالك رضي الله عنه: {الإستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة}! ونحن نحمد الله تعالى ان جعلنا نعيش فى زمان تكاثر فيه علم الانسان بقوانين الكون التى كانت غيبا على هؤلاء الائمة! وهذا يشمل عِلمنا بكروية الارض ودورانها حول نفسها وحول الشمس وتوسط الشمس للمجرة الحلزونية وحركة الكواكب والنجوم والمجرات فى الفضاء وقدرة الانسان على التعامل مع قوانين الطبيعة والطيران عكس الجاذبية الارضية فوق السحاب بسرعة اسرع من الصوت.... كل هذه الحقائق الكونية اصبحت من المسلّمات عندنا ولكنها كانت غيبا على اؤلئك المفسرين الأفذاذ! ونظن انه ليس من حقنا ان نعيد تفسيرها بما آتانا الله من علمٍ فحسب، بل هو واجب شرعي تقتضيه أمانة العلم الذى علمّنا الله إياه بالقلم وما كان متاحاً لغيرنا!

طه: اختلف المفسرون اختلافات كثيرة فى مدلول هذه الحروف ولسنا بصدد نقل آرائهم، ولكن لدينا من العلم بكيفية عمل ادوات السمع التى تلتقط الاصوات، والألباب التى تصنفها وتحفظها، ما يجعلنا نظن ان هذه الحروف لها مدلول صوتي يؤثر على مراكز محددة فى المخ، فيقود الى استشعارٍ وهيئة نفسية تجعله اكثر تقبلاً لما يتبعها من كلام مفهوم! وفي هذه الحقيقة العلمية يشترك المسلم والكافر، وما قول الله تعالى إنَّ أنكر الاصوات لصوت الحمير الا تأكيدا على ان غير المفهوم من الأصوات فيه الحسن الذى يريح النفس مثل شقشقة العصافير وهديل الحمام وغيرها، وفيه المرعب كنباح الكلاب وزئير الاسود وفيه المنكر الذى يؤدي للاشمئزاز كصوت الحمير! إذا تدبرنا موضوع الآيات لشعرنا ان "طه" فيها مفتاح موسيقي لمراكز الشعور بالرأفة والرحمة والرقة التى تنسجم مع ما سيأتي بعدها من قولٍ رقيق ليس على قلب النبي فحسب، وإنما كان فيه مفتاح لقلبٍ من أقسي قلوب العرب على النبي وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه! وتمضي الآيات وكأنها تُرِّبتُ على كتف النبي بكل رأفة وحنان كان احوج ما يكون اليهما:{ مَا

أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى* إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى* تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا }!
ولعلّ فى وصف نفسه بأنه مَنْ خَلَقَ الارضَ والسماواتِ العُلي تمهيدا للتصريح بحقيقة كونية ارتبطت بظروف الآية التى كانت تُهوِّن على النبي وتزيد من عزيمته وصبره على ما كان يعانيه وهو ينتظر رحمة الله وتيسيره، الذى إن شاء لجعل كل الناس مؤمنين من غير معاناة، ولكن ارادته اقتضت ان يُبْتَلي المؤمنون ويُزلزلوا زلزالا شديدا قبل ان يأتيهم نصر الله! ونلاحظ ان خلق الارض جاء قبل خلق السموات هنا رغم ان القرآن فى كل آياته التى وصف فيها خلق السموات والارض قدم السموات الا فى هذه الآية وآية اخرى ارتبط صياغ الوصف فيها تقديم الارض لاختصاص الامر كما هو الحال هنا بالارض! هذا التمهيد يؤكده ان الآية التالية تصف علاقة العرش بأحداث فى الارض و تُصرح بأنه رغم ان الله مالك كل شيء، إلا أن رحمته لا تأتي عفوا او عشوائيا لأن قانون الكون اقتضي استوائه على العرش:

{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}

كلمة **اسْتَوَى** أصلها من سوي، وتعني استقامة واعتدال بين شيئين! سَوَّي تعنى عدَّل ونقَّذ الشئ باستقامة وحكمة، واستوي على قياس "افتعل" من ذات المعنى وتدل على تأكيد وإحكامٍ فى التسوية!

وقد رأينا ان لفظ "**عرش**" حينما يرتبط بالذات الإلهية لا يعنى مجلس الملك، إنَّما قمة السلطة والقدرات المنتظمة المتناسقة فى الخلق والتحكم فيه وتسيير الامور وفق نظام محكم لا يتبدل، وهو ناموس الكون الذى يصعب على الإنسان فهمه مهما اوتي من علم! ورأينا فى تفسير آيات سورة الملك انّ لفظ العرش يَرِدُ بالتحديد حينما تكون السلطة الإلهية مرتبطة بنظام الخلق والمقاليد وليس الارادة الالهية المطلقة! فـ "كان عرشه على الماء" تعنى انه فرض على الماء أعلى قدر من القوانين النوعية التى جعلته يتغير الى أشكالٍ مختلفة، ويدخل فى خلق كل الكون بصورٍ متباينة وبنسبٍ ثابتة !

ولفظ "**على**" يفيد ان الله له إرادة مطلقة و حرة فى التعامل مع الوجود من غير قانون او نظام، ولكنه جعل تلك الارادة الحرة تعلو على القانون الذى قدره "العرش" وجعل من شأنه تسيير نظام الكون، وانه قادرٌ على تعطيل القانون الذى صنعه وتغييره او الغائه او ازالة كل الوجود بأرادته التى تعلو عليه! فهو الذى خلق النار الحارقة ولكن حينما شاء، أمرها ان تكون بردا وسلاما على ابراهيم، فكانت، انصياعا لامره المطلق الذى يعلو على قوانين النار النوعية!

ثم رأينا فى آية الكرسي، ان الكون جسم واحد متداخل ومتصل من اقصاه الى اقصاه، وكل موجودٍ فيه اودعه الله قوانين تحكمه وتتحكم فيه وتتداخل مع ما حوله من الموجودات الملتصقة به وفقَ نظامٍ ثابت منتظم لا تخبُّطَ فيه ولا عشوائية، ويتحكم الله فيه بصورة مطلقة!

تفسير لفظ "العرش" هنا بمعني السلطة العليا فى قوانين وناموس الكون يحل الإشكال فى فهم كيفية الاستواء عليه! فالعرش بهذا المعنى ليس مجلساً وإنما نظام دقيق محكم! وبمجرد إبعاد صفة المجلس من لفظ العرش، يصبح السؤال عن كيفية الاستواء مشروعا جدا لاننا هنا نبحث فى نظامٍ تسيرُ عليه الامور وليس تجسيدا لهيئه الذات الإلهية! فالاستواء عليه فى هذه الآية لا يمكن فهمه الا من مدخلٍ يشمل كل ما نعرف عن نظام الكون من قوانين فلك وطاقات كهربائية ومغناطيسية تحدد مسار المجرات والكواكب والنجوم، وقوانين نوعية تحدد خواص وتفاعلات المواد الكيميائية والفيزيائية والهواء والغازات التى تملأ الكون وقوانين الطبيعة التى تتحكم فى الاحياء وكل صغيرة وكبيرة تخضع لناموس الكون المحكم! بمعني آخر فإن ارادة الله المطلقة تعلو على ناموس الكون الذى خلقه، ولكن ذلك العلو تم بإستواءٍ وتوازن وليس علو تسلط فوضوي!

بمعني آخر فان استواء الله على ناموس الكون الذى صممه تشير الى ان الحكمة الإلهية اقتضت ان يحترم الله ذلك النظام الذى صنعه ويتحكم فيه! فهو الذى خلق نظام الخلق والسلطة العليا التى تدير الكون، وهو الذى جعل كل شئ موزون و متزن ومتناسق مع النظام الكوني، وهو اول من يحترم تلك القوانين التى صنع، رغم انه لو شاء لغير كل الكون وجعله يسير وفق ارادته المطلقة من غير نظام، لان ارادته تعلو على النظام نفسه، ولا يستطيع احد ان يعترض او يتمرد عليه! هذا المفهوم، مفهوم الاستواء على العرش او التعامل باستقامة سوية مع ناموس الكون، يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع الآيات وهو التخفيف عن النبي الذى كان يعاني ما يعاني، ويعلم علم اليقين ان الله قادرٌ على ان ينصره فى اقل من طرفة عين! هنا يقول الله تعالى له انه قادرٌ، ولكن حكمته اقتضت ان كل شئ يقع وفق نظامٍ وأسباب وليس أهواء وعواطف، وما عليه الا الصبر حتى تكتمل اسباب النصر فيتحول الصبر انتصاراً والشقاء نعيما! وهذا المعنى يفسِّر لنا ايضا لماذا تقع الكوارث ولا يتدخل الله بقدرته لايقافها، اذ انَّ كل شئ يقع نتيجة لتداخل قوانين الطبيعة التى خلقها وسمح لها ان تتداخل وفق النظام الذى صممه! ويفسر لنا لماذا لم ينتقم الله من ابليس ويقتله من اول يوم، وما ذلك الا لأنه تعالى اذا اعطي الحرية لاحد من خلقه فانه يتعامل مع تلك الحرية بحكمة ثابتة لا تخضع للعواطف والانفعالات وتغيُّر الرأي التى يتعامل بها البشر! ومن رحمة الله على المخلوقات التى لا تعلم الغيب، أن الله استوي على ناموس الكون ومن ثمَّ فيمكننا ان نضع مخططاً يقوم على أى حقيقة كونية ثابتة من غير خوف ان هذه الحقيقة ربما تتغير بعد سنوات! فنحن نخطط بناء المدن ونقيم المشاريع الزراعية وفقا لحسابنا لحركة الشمس وشروقها

من المشرق وغروبها فى المغرب، رغم ان الله لو شاء لجعل هذه الظواهر الكونية عشوائية لا يمكن حسابها والتعامل معها، ولكن رحمته اقتضت الاستواء عليها أى التحكم فيها من غير خرقٍ للنظام الذى صممه! الماء ينساب من أعلى الى اسفل والليل يعقب النهار، ليس لأننا نعلم الغيب ولكن لاننا نعلم ان الخالق لهذا الناموس والمتحكم فيه قد استوي عليه ولا يغيره بصورة عشوائية! أذاً فهو الذى صنع النظام وهو الذى يحافظ عليه ويتحكم فيه بصورة سوية مستقيمة يمكن للانسان ان يدرسها ويفهمها ويتعامل معها بما فيه مصلحته بحرية مطلقة! وهذا المعنى يدل على رحمة الله التى لا حدود لها على الخلق و على كل الكون، إذ أن كل شئ انسان كان او حيوان يمكن ان يفهم ماذا سيحدث غدا، طالما كان يعلم النظام او العرش الذى كرس الله به السموات والارض! فالنمل والنحل تخطط لحياتها وفقا لتغيرات المناخ وتدخر اقواتا للخريف وما ذلك الا لعلمها ان الرحمن على العرش استوي! وما الكَمُّ الهائلِ من الاكتشافات العلمية فى هذا العصر سواء على يد المسلم او الكافر الا ضربٌ من ضروب استوائه على ناموس الكون او العرش! فالفرصة متاحة للجميع فى التدبر والبحث، ومن جدَّ وجد ومن بحث اكتشف، ومن القى بنفسه الى التهلكة سيهلك مهما كان ايمانه بالله، ومن قاد سيارة من غير فرامل سيصطدم ومن لمس سلك كهرباء مكشوف سيصعق ومن سلك سبيل السلامة فى التعامل مع الظواهر الكونية فى هذه الدنيا سيسلم حتى وان انكر وجود الله وهكذا! فالله خلق النظام واستوي عليه ولا يعدله ارضاءً لاحدٍ ولا حتى لاستعجال النصر لنبيه الذى احبَّ! ومن هذه الآية نفهم لماذا خَلَت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من المعجزات التى تعجل بالنصر، رغم ان الله كان قادرا على ان ينصر دينه من اول يوم، وما ذلك الا لان الله اراد لنا ان نعلم ان النجاح الباهر الذى حققه النبي واصحابه لم يكن فيه خرق لناموس الكون، وإنما جرى وفقَ نظامٍ قائمٍ وباقٍ الى يوم القيامة، ومن مشى على الخطي الحبيب محمد سيصل الى ما وصل اليه بلا شك من غير معجزات، لانَّ ما تمَّ فى حياة النبي تمَّ وفقا لناموس الكون الذى استوي عليه الرحمن وليس خرقا له! هذه الآية تحتاج لمجلَّداتٍ لشرح تفاصيل منظومة الكون، وكيف ان كل تلك القوانين ثابتة ومنطقية ومفهومة لمن يبحث فيها ومن ثمّ يطوعها لمصلحة الانسانية من غير علمٍ للغيب، ولكن إيماناً بأنَّ الذى صمم هذه القوانين لا يخضع للتقلبات كما تتقلب امزجة البشر وتتعدل قوانين حياتهم حسب الأهواء! ولمَّا كان استوائه على العرش وتَحَكُّمه السوى بناموس الكون رحمة بكلِّ الموجودات، كان منطقيا جدا اذاً ان يختار من كل اسمائه الحسنى اسم **الرحمن** للاستواء على العرش!

نلاحظ ان ارتباط اسم الرحمن من دون اسمائه الحسنى ارتبط بالاستواء على العرش تاكيدا على تأويلنا:

{الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ** فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} 59 الفرقان.

اما بقية الآيات التي ورد فيها مفهوم "الاستواء" فقد ارتبطت باسم الله المطلق او "الملك" مما يؤكد ان المفهوم يرتبط بحكمة مالك الملك فى حفظ توازن الظواهر الكونية والقوانين التى تحكمها، رحمة بالخلق.

هذا التفسير الذى لا حرج فيه ولا بدعة فى فهم كيفيته، ينطبق على كلِّ آيات العرش فى القرآن بعد إزالة اللبس التجسيمي منها، وفهمه كمنظومة يتحكم بها الله فى الكون وليس كرسي الملك:

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فى سِتَّةِ أَيَّامٍ **ثُمَّ اسْتَوَى** عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} 54 الاعراف**!** فعلي غير المتداول بين المفسرين انَّ الله خلق العرش اولاً وكأنه كرسي الملك ثم خلق الكون، هذه الآية توحى بأن الارادة المطلقة اوجدت السموات والارض فى ستة مراحل مختلفة، وبوجودها وجد نظام حركتها وهو العرش وآلة التحكم، **ثـــم** اقتضت الحكمة الإلهية ان تكون الإاردة الحرة متوازنة ومتزنة فى استواء مع ناموس الكون ونظام التحكم الذى اودعه فى السموات والارض، فهى مسخرة لارادة الله لكن وفق نظام ثابت يخضع لأمره وحده "عرش" ولكنه لا يتبدل ولا يتقلب "إستواء"! فالاستواء على العرش تم بعد ان وجد العرش وهو نظام ادارة السموات والارض او منظومة التطور التلقائي.

وتتكرر الآيات التى يَرِدُ فيها مفهوم الاستواء على العرش لتؤكد انها انما تشير لتحكمه فى نظام الكون، الشئ الذى يوصف دائما بانه انما تمَّ بعد اكتمال الخلق وذلك بحرف العطف " ثـــم":

{اللَّهُ الذى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ **اسْتَوَى** عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} 2 الرعد

فى الآية أعلاه نفهم ان تسخيره للشمس والقمر لمصلحة المخلوقات انما تمَّ رحمة منه بتحكمه فى ناموس الكون بصورة ثابتة تتيح للاحياء الإستفادة من الشمس والقمر وكأنهم يعلمون الغيب وإن كانوا لا يعلمون!

ولعل من الأمانة ان نشير الى ان مفهوم استوائه **على** العرش ربما يختلف من مفهوم استوائه "**الى** السماء" الذى ورد فى آيتين فى القرآن:

{هُوَ الذى خَلَقَ لَكُمْ مَا فى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى **إِلَى** السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 29 البقرة!

{ثُمَّ اسْتَوَى **إِلَى** السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} 11 فصلت!

بالطبع لن يستطع احدٌ ان يدَّعي معرفته بتأويل القرآن الذى لا يعلم تأويله الا الله، ولكن يجوز لنا ان نبدي ملاحظات على صيغة الآيات التى يختلف فيها مفهوم الاستواء من "**على**" الى "**الى**"!

نلاحظ فى هاتين الآيتين ان الاستواء "**الى**" قد ارتبط بهذه الحقائق:

1. الإستواء "الى" فى الحالتين كان الى السماء بلفظ المفرد وليس السموات!
2. ان ورود الاستواء "الى" تم فى مرحلة سابقة لإكتمال خلق السماء، اذ ان فى آية البقرة اعلاه تم الاستواء {إِلَى السَّمَاءِ} قبل اكمال تسويتهن سبع سماوات، بينما فى آية سورة فصلت تم الاستواء {إِلَى السَّمَاءِ} فى حالتها الدخانية وقبل أن يتم إدخالها والأرض فى منظومة العرش واخضاعهما لناموس الكون! اذاً ففهم كيفية الاستواء "الى" تتطلب بطبيعة الحال فهم طبيعة المستوي اليه وخصائصه حينذاك، وهو امرٌ غيبي لا يمكن للانسان الوصول اليه! فالاستواء {عَلَى الْعَرْشِ} أتى فى كل آيات القرآن بعد اكتمال الخلق ونظام التطور التلقائي الذى يحكمه، لكن الاستواء "الى" يتطلب فهمه العلم بحقائق غيبية سابقة لاكتمال الخلق لا يمكننا الوصول اليها!

قسَمُ الله بالبلد:

بعد هذه الدراسة المبسطة لاسرارٍ لا يعلمها الا الله فى البلد الحرام، بكة ومكة وام القري، فى تاريخه وطبيعة خلقه وعلاقة ارضه بكل الارض والكون، وعلاقته بالانسان الاول وخلق الانسان وتطوره ونزول الانعام وتمرد الشيطان وما دار حوله من احداث عظام، لا نشك ان الآيات التى يقسم فيها الله تعالى بالبلد الأمين، ستحمل معانٍ جديدة وعميقة ما كان للناس ان يفهموها، ما لم يعرفوا اسرار هذا البلد الحرام! ومن هذه الرحلة الطويلة جدا عبر التاريخ البشري وتاريخ الكون التى دارت كل احداثها فى ارض ام القري، ربما نفهم لماذا يقسم الله بالبلد وليس البيت، لأن فى البلد جمعٌ لكل تلك القلائد و الأحداث وتاريخ الخلق والانسانية المدهش

:

{لَا أُقْسِمُ **بِهَذَا الْبَلَدِ***وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ***وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى** كَبَدٍ} سورة البلد

نحن نظن ان القسم بهذا البلد الآن ياخذ بهاءً جديداً، اذ ان هذا البلد ليس مقدسا لان الله اختار منه نبيه وجعل فيه بيتا رمزا للعبادة فحسب، الامر الذى يخص المسلمين فقط، ولكن قسم الله تعالى يشتمل على حقائق كونية رهيبة تهز كل من له عقل وهو انه يقسم بمركز الكون كله، ويقسم ايضا بالبقعة من الارض التى بدات فيها الحياة مطلقا، ويقسم ايضا بالارض التى وجد فيها الانسان خلقا وتطورا وتوالدا مكونا كل الجنس البشري والدا وما ولد! هذه الحقائق ملك "للناس" وليس

المؤمنين، فمن آمنَ فلنفسه ومن كفر فعليها، ولكن الخطاب القرآني فى امر البيت الحرام والحج هو انه حجَّة على الناس باختلاف اديانهم والسنتهم! لا يخفي علينا ان هذه الآيات تربط البلد بخلق الانسان وبدء توالده وهو تلخيص لكل ما حاولنا التدليل عليه منذ بداية هذا الكتاب!

ويتكرر القسم بالبلد مرتبطا بخلق الإنسان، ولكن بألفاظ أكثر عمقا واعجازا:
{**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ*ثُمَّ** رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ*إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ*فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ*أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} سورة التين!
طور: معناها فى المعجم امتداد الشئ فى الزمان او المكان! وما آية "وخلقكم اطواراً " التى ناقشناها فى بداية باب التطور الا من هذا الاصل وتعني الامتداد فى الزمن! والطور يمكن ان تستعمل للجبل بافتراض امتداده طولا وعرضا!
سينين: من سن وهو جريان الشي واطراده فى سهولة! والحمأ المسنون منها كأنه يصب صبا!
ورد فى تفسير هذه الآية أنه أهدي للنبي صلى الله عليه وسلم تين؛ فقال: [كلوا] وأكل منه! ثم قال: [لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير، وتنفع من النقرس]. وعن معاذ: أنه استاك بقضيب زيتون، وقال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: [نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة، يطيب الفم، ويذهب بالحفر، وهي سواكي وسواك الأنبياء من قبلي]!
وقال عليه السلام: [كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة!]
وقال أبو على فى تفسير القرطبي: "سينين" فعليل، فكررت اللام التى هى نون فيه، كما كررت فى زحليل: للمكان الزلق!
هذه الآيات ربما يكون فيها سرٌ ينتظر الاكتشاف ولكننا نحس ببدايته وان لم يكن المعنى واضحاً تماما! فقد وردت اختلافات كثيرة وجوهرية فى تأويل "التين والزيتون" وأشهرها اختلاف الاراء فى انَّ الشجرتين تُشيران الى جبالٍ فى الشام، وقد قيل ان كلمة سينين تعنى جبل بالسريانية كما فى تفسير القرطبي! واشتهر نسب تفسير الآية بآية فى التوراة جمعت بين الاشارة الى موسى وعيسي ومحمد صلى الله عليهم اجمعين، ونظن ان تلك الآية المقصودة هى:
{وهذه هى البركة التى بارك بها موسى، رجل الله بنى اسرائيل قبل موته، فقال " أقبل الربُّ من سيناء وأشرف عليهم من سعير، وتألق فى جبل فاران، جاء محاطا بعشرات الألوف من الملائكة وعن يمينه يومض برقٌ عليهم} سفر التثنية 33:1-3! حيث "سعير" هنا تقابل طور سينين وجبل فاران هو اسم قديم لجبال غرب الجزيرة العربية ويشير الى جبال مكة وغار حراء!

ولم نجد عند اهل التفسير رأى من لا يُخالف، على ان اختلاف الآراء يدل على غموض المعنى! ونحن نظن ان سر الآية أعمق بكثير من ذلك لانها مرتبطة باسرار خلق الانسان! فطور سينين تشير الى عملية مستمرة متصلة وكأنه استعمل متطابقين فى المعنى هما "طور" التى تفيد امتداد الشئ ثم تصرف فى كلمة "سن" فجعل منها "سينين" لتأكيد الاستطالة عبر ملايين السنين، ثم عطفها على البلد الامين الذى وقع فيه الأمر المقسم عليه عبر ملايين السنين! ولا نفاجأ بالطبع حينما نري ان الامر المقسم عليه هو خلق الانسان فى احسن تقويم وانه خلق بقابلية ان يرد الى اسفل سافلين، الا الذين امنوا وعملوا الصالحات.......

المهم فى الآية هو ارتباط خلق الانسان عبر مدة طويلة متصلة من الزمن، بهذا البلد الامين! وربما كان فى ذكر "التين والزيتون" اشارة الى زيت الزيتون الذى لا يعرف سره الا الله، ولكنه انقي انواع الزيوت واكثرها نفعا للانسان، وسكر التين الذى وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه من شجر الجنة! وربما تكون هناك اشارة الى الحمض النووي او الامشاج التى تتكون اصلا من سكر بالاضافة الى مكونات اخرى ربما يكون زيت الزيتون غنيا بها! اذ ان الحمض النووي هو الذى حفظ سر الحياة وتطورها فى الامشاج عبر ملايين السنين، وهو اساس بحث العلماء فى قضايا الخلق و التطور والله اعلم! ما لا خلاف حوله انَّ الآيات تقدم بالقسم بسكرٍ وزيت ثم تصف فترة طويلة جداً من الزمان ارتبطت بالبلد الأمين وكان موضوع القسم هو آية خلق الإنسان!

النـفخ فى الـصـور وإنـفـجار الكون:

رأينا فى باب "الحلقة المفقودة" ان مفهوم النفخ فى القرآن غالبا ما يوحى بمعني حرفي للانتفاخ، الشئ الذى ما كان ليفهم قبل فهم طبيعة الكون التى نعرفها الآن بفضل التطور المذهل فى كافة العلوم و التدبر المستمر فى خلق السموات والارض. من وصف الكون اعلاه يمكننا ان نتخيل بدء خلق الكون فى شكل ثمرة فاكهة تتوسطها بذرة صلبة وتحيط بها الثمرة الطرية من كل مكان. ويمكننا ان نتخيل عملية فتق السماوات عن الارض كعملية انتفاخ بطئ فى جسم الثمرة كما ينتفخ البالون المطاطي. هذا الانتفاخ يمثل عملية فتق الرتق بين السموات والارض من ناحية، ويمثل المراحل الستة لخلق السماوات السبع كما وصف القرآن. على ان القرآن وصف ان عملية اتساع السماوات مستمرة حتى بعد اكتمال خلق السموات السبع واستواء الرحمن على العرش ونظام حكم وادارة الكون، كما تنص هذه الآية التى اكدها علم الفلك الحديث: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} 47 الذاريات.

من هنا يمكننا ان نفترض ان نظرية الانفجار العظيم فيها قصور لانها افترضت البداية كحالة انفجار، لكن الوصف القرآني وصَف حالة فتق وتوسيع وكلها عمليات بطيئة محكمة وليست

انفجارا صاعقا كما ظن علماء الفلك. على اننا لو تخيلنا عملية الاتساع المستمرة للكون كبالون مطاطي ينتفخ تدريجيا مع نفخ الهواء داخله، يمكننا ان نتكهن باحدي نهايتين لهذا الاتساع المستمر: النهاية الأولى ان يتوقف الانتفاخ ويبدأ انكماش بطئ كما لو ان الهواء تم تسريبه من داخل البالون الى ان ينكمش تماما ويعود الى حجمه الاول. هذه النهاية الافتراضية لانكماش الكون تتطلب بطبيعة الحال استمرار استواء الرحمن على العرش وتحكمه فى ذات القانون الذى نفخ الكون اولا، وهذا ما لم يصفه القرآن.

النهاية الافتراضية الاخري يمثلها استمرار اتساع الكون او الانتفاخ الى درجة الانفجار، كما ينتفخ البالون الى ان يفوق حجم الهواء الداخل على قدرة البالون المطاطي على الاتساع فيحدث حينئذ تمزق فى جداره فينفجر وينهار. هذه النهاية تاتي بصفتين هندسيتين لا خلاف عليهما وهما انه لن يكون هناك عملية تسريب للهواء معاكسة للنفخ الاول وانما استمرار الانتفاخ او الاتساع الى لحظة الانفجار. الصفة الثانية هى ان الانهيار هنا سيحدث بصورة مفاجئة مدمرة تقع كوقوع الصاعقة وليس كحركة تسريب الهواء البطيئة من البالون. هذا الاحتمال الاخير، وهو احتمال الانفجار الكوني العظيم هو الذى يصفه القرآن فى وصفه لحدوث الساعة. وهذا الاحتمال وحده هو الذى يشرح لنا هندسيا وفيزيائيا مفهوم النفخ فى الصور مرتين عند قيام الساعة:

{وَنُفِخَ فى الصُّورِ **فَصَعِقَ** مَنْ فى السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } 68 الزمر.

من هذه الآية نفهم ان الكون الذى بدأ بعملية فتق و انتفاخ وظل فى حالة اتساع مستمرة محكمة ومتناسقة مع متطلبات استقرار الكون واستمرار الحياة، سيزداد اتساعه فجاة عند النفخة الأولى فى الصور و قيام الساعة لدرجة الانفجار. اختلف المفسرون اختلافات كثيرة فى تأويل "الصور" وذهب اغلبهم الى وصفه بانه قرن من نور لانه وردت احاديث تشبهه بذلك، ولكننا نظن انه ان صحت تلك الاحاديث، فالنبي صلى الله عليه وسلم انما اراد ان يبسط للناس مفهوما كونيا كان يصعب عليهم استيعابه الا بالتشبيه البسيط بملكٍ ينفخ فى قرن. وقد اورد القرطبي اراءً مختلفة لتفسير "الصور" منها انه جمع "صورة"، ومنها ان "الصور" يشير الى الخلق استنادا الى المعنى اللغوي لكلمة صور وهو الشكل او الخلق، ولعل هذا الرأي الاخير هو اقرب الآراء لحقيقة الكون التى نعرفها الآن. من هنا يمكن ان نفهم ان النفخ فى الصور يمكن ان يكون اشارة الى ازدياد مفاجئ فى سرعة اتساع الكون و يؤدي بطبيعة الحال الى انهيار القوانين التى تحكمه "العرش" وبالتالي تنطبق السموات على الارض فى شكل انهيار صاعق عظيم، وتحدث كل الاوصاف المرعبة لقيام الساعة من تفجير البحار وانشار الكواكب وغيرها مما وصف القرآن. ومن هنا ايضا يمكننا ان نفهم ان النفخة الاخري انما هى اعادة بناء الكون كما بنى اول مرة، أى

نفخه من جديد بعد ان انطبقت السموات على الارض، ولكن بطبيعة الحال ستكون القوانين التى تحكمه حينها قوانين ونظم جديدة: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ }48 ابراهيم. نلاحظ هنا ان استواء الله على العرش تم باسم **الرحمن** بينما قبضته على الوجود تتم باسم **القهار**، والقهر تفيد الغلبة والسيطرة المطلقة مما يوحى باختلاف جذري فى علاقة الله بالكون قبل وبعد النفخ فى الصور. ومن هنا يمكننا ايضا ان نفهم لماذا استبدل الله تعالى مفهوم "استوائه على العرش" الذى حدث عندما اكتمل خلق السموات والارض، الى مفهوم قبضة الارادة الالهية المطلقة بعد الانفجار الكوني العظيم عند قيام الساعة: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا **قَبْضَتُهُ** يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ **مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} 67 الزمر، اذ ان هذا الوصف يوحى بانه لن يوجد قانون تلقائي يحكم الكون حينها، وانما القبضة الالهية المباشرة. وبتغير القانون التلقائي الاعلي الحاكم للكون يمكننا ان نفهم كيف يزول مفهوم الزمان والمكان يوم القيامة ويبدأ مفهوم الخلود، وايضا يمكننا ان نفهم كيف ان الخلود فى النار لا يقتل لان مفهوم الموت نفسه ينتهي وان اهل الجنة لا يكبرون لان مفهوم الحياة كله يتغير، اذ ان كل القوانين التى تحكم حياتنا ومماتنا فى الدنيا انما هى من مكونات "العرش" الذى يحكم الحياة الدنيا، ولكن ارادة الله المطلقة قد علت عليه باستواء بعد ان اكتمل خلق السموات السبع، الى ان ينفخ فى الصور فيحدث الانفجار الكوني العظيم وتزول كل تلك القوانين التى صُنعت رحمة بكل المخلوقات، ويصبح الوجود فى قبضة الله المطلقة ولن تكون الرحمة حينها الا لمن شاء الله!

ولما كانت الاحداث التى دارت حول البيت والآيات التى ارتبطت به من نفخ الكون عند مركزه وبدء الخلق عنده ثم النفخ فى البشر لنقلهم لحالة العقل، تثير الدهشة وتزيل كثيرا من الحيرة فى فهم اسرار الكون الغامضة، وتُولِّدُ حيرةً جديدة لان الانسان ما ان يكتشف سراً الا وتزايدت الاسرار التى يتوق لمعرفتها، فنظن اننا سنختم عند "حيرة" او سدرة المنـتـهـي!

سـدرة المـنـتهي عندها جنة المأوى

آثرنا ان يكون ختامنا عند سدرة المنتهي وذلك بتأويل الآيات الأولى من سورة النجم، وما ذلك الا لأن فهمها كما نفهمُها تطلب هضم كل ما قدمنا فى هذا الكتاب من تفسير جديد للكثير من آيات القرآن التى ترتبط بقضايا الخلق والتطور، وتطلب ايضا معرفة كافية بالكثير من الحقائق الكونية التى تعرضنا لها! آيات سورة النجم تصف أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم رأى رأى العين من اختلف المفسرون عليه اختلافا كبيراً، هل هو الله تعالى ام جبريل عليه السلام! فقد كانت الرؤيا الأولى عند غار حراء فى بدء الرسالة وكانت الثانية فى ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة

المنتهي! ونحن نظن ان المقصود فى الآيات هو الله الذى لا اله الا هو وليس جبريل! قد ينزل هذا الرأي على الكثيرين نزول الصاعقة ولكن من الحكمة ان نقدم انه ليس رأيا جديدا، وانما اشتملت عليه كتب المفسرين وان لم يأخذوا به! وقد اورد الإمام القرطبي فى تفسير الآية قولاً لإبن عباس ان محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه مرتين، ورُوي ايضا حديثا عن محمد ابن كعب قال قلت يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال النبي " رأيته بفؤادي مرتين"! وقد وردت خلافات كثيرة جدا فى تفسير هذه الآيات وتفسير آيات سورة الانعام {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} 103الانعام، لسنا بصدد نقلها ولكنّا بصدد دراسة آيات سورة النجم على ضوء ما نعرف من حقائق كونية ومعانٍ جديدة لمفهوم الكرسي والعرش والاستواء عليه!

لقد رأينا فى هذا الكتاب كيف تطور العقل والوعي البشري منذ عهد آدم الذى تعلم جيله الثانى من الغراب ابسط مظاهر فهم الطبيعة والتعامل معها، مرورا بعهد نوح الذى وعظه الله ان يكون من الجاهلين حينما استفسر عن امرٍ نظن انه ما كان لنوحٍ ان يستوعبه! ثم رأينا كيف طفر العقل البشري فى عصر ابراهيم عليه السلام وكيف تطور الخطاب الرباني للانسان حينما اجاب استفسار ابراهيم عن كيفية إحياء الموتى بدرسٍ عملي، ثم كشف له احداث الماضى مما يدلل على ان الانسان حينها اصبح قابلا لان يفهم قضايا كونية كبيرة، وقابل لان يميز بين الماضى والحاضر والمستقبل تمييزا علميا! ثم رأينا كيف تطور الخطاب الربَّاني فى عهد موسى الذى كلمَّه الله تكليما، كأول نبي يصرح القرآن بأنه نال هذا الشرف! ثُم رأينا كيف ان الله تعالى استجاب لطلب موسى ان يراه ولكن بشرط استقرار الجبل مكانه، مما يوحى بان الانسان حينها كان على قاب قوسين او أدني من ان يتفضل الله عليه بأن يراه، اذ ان الله تجلَّي للجبلِ امام موسى فخرَّ موسى صعقا، وعلِم عِلم اليقين انه بتكوينه البشري المحدود غير قادرٍ على رؤية الله لأسباب موضوعية فيزيائية بحتة، وليس لأن السؤال حرام او الرؤية محرمة!

من هذه العجالة نفهم انه منطقيا جدا انَّ ما سمعه و رآه خاتم الانبياء والمرسلين لا بد وان يكون اكثر مما رآه من سبقه من الأنبياء الذين كانوا اقل منه مكانة عند الله تعالى، وكانت رسالاتهم اقل شمولا من الرسالة الخاتمة المحفوظة الى يوم الدين! ونحن لا نفرق بين احدٍ من رسله ولكن تلك الرسل فضل الله بعضهم على بعض وكان افضلهم عند الله محمدٌ صلى الله عليه وسلم!

الدارس لسيرة النبي يعلم ان رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل غير محدودة بمرتين، وانما كانت من المظاهر المتكررة فى نبوته! بل ان جبريل عليه السلام ظهر فى صورة بشرٍ شديد بياض الثياب واللون وسأل النبي اسئلة كثيرة امام الصحابة الذين تعجبوا من اسلوبه قبل ان يعرفوا انه جبريل! صحيح انَّ من فسر آيات سورة النجم بأنها تشير الى ان النبي رأى جبريل ظن ان ذلك تم بصورته الملائكية، ولكننا نظن ان الله تعالى حينما يتطرق الى قضية مثل هذه القضايا،

فان علمه بنظام الكون وقوانين الطبيعة التى خلق لا بد وان يكون جزءً من المعلومة التى تتضمنها الآيات مهما جهلها البشر! وعليه نظن ان رؤيا النبي والصحابة والانبياء من قبل لجبريل سواء كان فى صورة بشرٍ او ملك لا يغير كثيراً من ان نزول الملائكة الى الارض ليس ظاهرة كونية فريدة من نوعها كما اوحت به الآيات التى وصفت رؤيا النبي لله تعالى!

وقبل ان نجتهد فى تفسير الآيات لا بد ان نذكر ان الحذر الشديد الذى اتسم به عهد الصحابة فى تفسير الآيات التى ربما يُفهم منها انها تصف الذات الإلهية، كان له اسباب كثيرة من اهمها قربهم من عهد الشرك وعبادة الأوثان الذى كان من شأنه ان يُحدث لبساً فى عقيدتهم. وايضاً لأن مثل هذه الآيات عادة ما ترتبط بظواهر كونية كان علمهم عنها محدوداً جداً ان لم يكن معدوما تماماً! ولكننا نظن ان الحذر الذى يتجاوز الحدود التى وضعها الله للخيال البشري ربما يقود الى نتيجة عكسية فى زمانٍ كزماننا الذى غلب على اهل الارض فيه انكارُ وجود الهٍ على الإطلاق لا مرئي ولا غير مرئي! فكما ان التفريط فى التحريم يقود الى فتنة مساوية للتفريط فى الاخذ بالرخص، فان التفريط من التحذير من فهم ما وصف الله به نفسه فى القرآن يقود الى حالة اشبه بانكار وجود الله مطلقا! ونظن ان الوضع الامثل هو الالتزام بحدود ما صرح به القرآن، علماً بأن الرغبة فى رؤية الله ومن ثمَّ التساؤل عن امكانية رؤيته لم تكن مما عاب الله على نبيٍ عظيمٍ مثل موسى، بل وجعلها الله من ضمن ما بشَّر به المؤمنون فى الجنة الذين سيتمتعون برؤية وجه ربهم الكريم! اذاً فمسألة ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد رأى الله ام لم يره يجب ان تؤخذ فى أطار مدي صحة التفسيرللآيات المعنية، لأن الله الذى كلّم موسى تكليماً حرٌ فى ان يرى نفسه للنبي او لا يفعل، وما علينا الا ان نفهم الرواية القرآنية فى حدود ما صرحت به من غير تفريط او افراط:

{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى*مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى*وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى*عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى*ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى*وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى*ثُمَّ **دَنَا فَتَدَلَّى***فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى*فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى *مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * **أَفَتُمَارُونَهُ** عَلَى مَا يَرَى*وَلَقَدْ **رَآَهُ نَزْلَةً أُخْرَى***عِنْدَ **سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى***عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى*إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى *مَا **زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى*** لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ **الْكُبْرَى**} النجم 1-18!

{ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى } ... هذه الآية فيها معانٍ كان من المستحيل على أى انسان عادي ان يستوعبها فى عهد نزول الآية! فالنجوم فى نظر الانسان قبل الف عامٍ لم تكن الا كمصابيح صغيرة لا يزيد حجمها عن اليد الواحدة، لان مفهوم الارقام الفلكية والسنوات الضوئية لم يكن معلوماً لاي انسان! فمن غير المنطقي ان نفترض ان أى من المفسرين القدامي قبل عهد اكتشاف

الفضاء كان يفهم ان اصغر نجم يساوى فى حجمه مرات عديدة حجم الارض! ربما لا نكون مخطئين لو افترضنا ان فهم الانسان العادي لسقوط النجم فى ذلك الزمان لم يكن الا كسقوط حجرٍ صغيرٍ ربما يسقط فى بيت الجيران فلا يضيره! من هنا يمكننا ان نفترض ان القسم الذى قدم الله به لهذه الآيات ما كان لأحدٍ ان يستوعبه قبل زماننا وبالتالي لم يكن بمقدورهم استيعاب رهبة المُقسم عليه!

الشمس هى النجم الذى تدور الارض فى فلكه وتساوي كتلتها اكثر من ثلاثمائة الف مرة كتلة الارض! النجوم عبارة عن كتلة ملتهبة من الغازات شديدة الاشتعال التى تصل درجة حرارتها آلاف الدرجات المئوية وتفوق الطاقة المدمرة التى تقذف بها ملايين االقنابل النووية فى كل ثانية! النجوم لها توابع وغالبا ما تكون مركزا لمجرات تدور حولها كواكب وتوابع واقمار وغيرها من اجرام السماء وكلها مترابطة ببعضها بقوي شدٍّ وطردٍ فوق خيال الانسان! اذا سقط مذنَّبٌ على الارض او شهاب، وهذه عبارة عن صخور سايبة لا يتجاوز طولها عدة كيلومترات، يمكنه ان يدمر قارة من قارات الارض باسرها من شدة الارتطام والاضطراب الذى تسببه فى ثبات الارض واستقرار البحار والمحيطات! ويظن علماء الطبيعة ان الديناصور انقرض قبل اكثر من ستين مليون سنة نتيجة ارتطام الارض بمذنب من الفضاء ادي الى تغيير مناخ الارض وابادة كثير من الاحياء فيها. اذاً فسقوط النجم ربما يعنى اضطراب كل الكون لان النجم اذا هوي فستهوي معه الكواكب والاقمار التى تدور حوله وربما تسقط مجرة كاملة يفوق حجمها حجم الارض بلايين المرات!

بقي ان نذكر ان مفهوم السقوط لا يتم الا على الارض، ليس لان الارض لها جاذبية ولكن لان الارض هى مركز الكون الذى تتقاطع عنده اقطار السماوات كما رأينا! وفي المفهوم الهندسي للدائرة او الكرة فان السقوط يمكن ان يتم فقط من أى نقطة من المحيط الى المركز الذى يمثل ادني نقطة فى ذلك الشكل الهندسي! من هنا نفهم ان الله يقسم بحدثٍ جلل لو وقع فهو يعنى نهاية الكون وليس الارض فقط، لانه يؤدي الى نسف كل المنظومة الكونية! ومن هنا ايضا نفهم ان المقسم عليه لو وقع ولم ينسف الكون فان ذلك لن يكون الا اذا فرض الله سلطته العليا على نظام الكون والعرش ليبقي منتظما فى مكانه بأمر خالقه الذى استوي عليه، رغم الحدث الجلل! ومن هنا نفهم ان ذلك الحدث وبلا شك اعظم ملايين المرات من نزول جبريل عليه السلام، والذي ظل يتنزل على الانبياء والمرسلين منذ عهد آدم الى اخر حياة النبي من غير خلل فى المنظومة الكونية، ولم يصف القرآن نزول جبريل على أى من الأنبياء وصفاً مهيباً كهذا الوصف الذى مهَّد له بهذا القسم الذى يدكُّ الكون وليس جبلاً فحسب! فقد وصف القرآن ظهور جبريل لمريم فى صورة بشرٍ بكلمات بسيطة لا يمكن مقارنتها بنجمٍ يهوي فينسف الكون:{ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ

حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} 17 مريم! إذاً فالقسم بالنجم اذا هوي قسمٌ لو تعلمون عظيم، وهذا يدل على عظمة النبأ الذى يؤكده القسم! وقبل ان نواصل تفسير الآيات لا بد ان نذكر ان هذه الحقائق الكونية عن النجوم والكون لو كانت مفهومة للمفسرين القدامي لاختلف تأويلهم لهذه الآيات بلا شكٍّ اختلافا كبيراً! ولنجعل اهمية هذا القسم اكثر وضوحا نضرب مثالاً باننا لو استطعنا ارجاع الزمن الى يومِ بدرٍ واخبرنا مشركي مكة ان محمداً يمتلك القنبلة النووية، لسأل ذات المشركون عن عدد الخيل التى يملك والبعران التى فى جيشه وعدد السيوف، ولمَا غيَّر ذكر القنبلة النووية فى تقييمهم لمقياس القوة قيد انملة، لأنها ما كانت لتكون مفهومة لديهم وان حرصنا على شرحها! بذات المنطق فإننا نظن ان من لم يكن فى وسعه فهم "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى" لن يمكنه ان يستوعب هيبة الامر الذى يقدم له بمثل هذا القسم! وتمضي الآيات بعد القسم:

{ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى* وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} ! هذه الآيات لا جديد فى تفسيرها غير انها تؤكد أن ما سيأتي امرٌ يحتاج للتأكيد على ثبات عقل وحكمة النبي وانَّ ما يقوله مهما كان غريبا فهو ليس الا وحياً من خالق الكون الذى يعلم ما لا نعلم! بعد هذه الآيات بدء الوصف القرآني يصف حدثين مختلفين سماهما معا فى آخر الآيات بأنهما "**نزلتين**"، كل نزلة منهما وصفت بالفاظٍ تتفق مع ظاهرة كونية مختلفة، وكلا الظاهرتين تؤكدان ان الذى رآه النبي ما كان يمكن ان يكون الا الله تعالى!

فى المجتمع الانساني، اذا اراد الوالدان شرح امرٍ معقد لطفلٍ صغير فإن من الطبيعي ان ينزلا بمستوي الخطاب الى مستوي استيعاب الطفل، لان الطفل لا يستطع وان حرص ان يرتقي بعقله الى مستوي وعي الوالدين! و فى علم الفيزياء الذى يشرح آيات الله فى الكون، اذا اراد الفيزيائيون دمج نظامين للصوت او الضوء او الكهرباء يعملان بطاقات او ذبذباتٍ مختلفة، فليس امامهم لاكمال ذلك الاندماج من غير وقوع كارثة الا بإجراء تعديلٍ إما برفع طاقة النظام الأضعف ليقارب قدرات النظام الأقوي، او يتم خفض النظام الأقوي لمستوي يحتمله النظام الاضعف، وهذا ما يعرف فى عالم الكهرباء بنظام "التوافقية"!

اذا رجعنا للآية التى وصفت كيف تجلَّي الله للجبل امام موسى، نفهم ان الله اراد اخبار موسى بصورة عملية لماذا لا يستطيع البشر فى طبيعته العادية ان يراه، وقد أوصل الله تلك المعلومة لموسي، ولنا ايضاً، بأن تجلي للجبل من غير تغيير فى طبيعته او فى نظام الكون فجعل الجبل دكاً! وكانت المعلومة التى وصلتنا من اختيار الله لجبلٍ مكون من معادن وصخورٍ وليس شجرة او حيوان هى ان الجبل تعرض لطاقة جبارة مدمرة وليس انهيار عاطفي او رعب! وكلمة **تجلي** اصلها من جلو وتعني الظهور والانكشاف! إذاً فى تلك الآية فقد ازال الله تعالى ما بينه وبين الجبل من حواجز وموانع طبيعية فاندك الجبل!

فاذا افترضنا جدلا انَّ النبي كان قد رأى الله فى هاتين النزلتين ولم يصب بأذي فان من الطبيعي ان نفترض ان الله تعالى لم يتجلي له بذات الطريقة التى اندك لها الجبل! وهنا يمكن ان نفهم انه تم بإحدي طريقتين، اما ان يرى الله نفسه، لعالم النبي البشري، بعد التحكم فى منظومة الكون الى حدود تحتملها بشريته، او يغير الله الطبيعة البشرية للنبي ويجعلها قادرة على احتمال رؤية الله من غير تغيير فى قانون الكون، وهذا ما إتفق عليه المفسرون فى تأويل رؤية المؤمنين لوجه ربهم الكريم فى الجنة، اذ ان الجنة لا شيخوخة فيها ولا امراض ولا موت مما يدلل على ان طبيعة الإنسان تتغير فى الجنة! وكلا الظرفين يمكن ان يشار اليهما بالاستواء على منظومة الكون أى التحكم فى القوانين الفيزيائية التى دكت الجبل، وهذا التحكم بيد الله الذى خلق القوانين وصمم منظومة العرش واستوي عليها!

فاذا درسنا وصف القرآن لهاتين النزلتين نجد تاكيدا لما وصفنا فى كل حالة مما يؤكد ان النبي رأى الله تعالى وليس جبريل عليه السلام:

النزلة الأولى:

هذه النزلة لا خلاف على انها تمت عند بدء الرسالة عند غار حراء، وقد ابتدأ وصف النزلة الأولى بمضمونها والاطار الذى تمت فيه وهو تعليم النبي امورا عظيمة جديدة عليه:

{ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى* ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى } هنا بدأت الآيات تصف المقصود بما سيأتي من وصف فى هذا الحدث الجلل! مما لا خلاف عليه ان القرآن ما وصف جبريل بأنه يعلم النبي، وانما يوحى اليه ما يأمره به الله. اذاً فالذي يُعلِّم هو الله تعالى وليست الملائكة! إختلف المفسرون فى من هو شديد القوي، و قد ذهبت الآراء بطبيعة الحال الى الاشارة الى جبريل لان فهمهم اصلا كان يقوم على ان المقصود بكل هذه الآيات هو جبريل! و قد دلل بعض المفسرين على ان هذا الوصف يشبه وصف الله لجبريل بـ {ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} 20 التكوير، ولنا فى هذه المقارنة نظرات بعيدة! هنا نلاحظ ان قوة جبريل قد وصفت بصورة نكرة، فهى "قوة" وليست "القوة"! وهذه الآية ايضاً ميَّزت بين قوة جبريل النسبية المكتسبة وقوة الله الاصلية المطلقة، لان فى اللغة يمكن ان نصف اضعف الخلق بانه ذي قوة طالما كانت تلك القوة تفوق قوة غيره! ولعلَّ قوة جبريل فى هذه الآية لا تأخذ حجما مهيبا الا من الجزء الاخير من الآية حيث نُسبت قوته الى انه مكينٌ عند مالك العرش والسلطة العليا! اما فى آية النجم موضوع النقاش فالوصف قد جاء بلفظ "القوي"، جمع قوة، معرفاً بالالف واللام {شَدِيدُ الْقُوَى}، وهذا لا يستقيم الا مع الله تعالى! ثم مضت الآية تصفه بأنه ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى! وقد فسَّر المفسرون كلمة مِرَّةٍ بأنها تعنى جزيل الرأي وحصيف العقل، وفي مثل هذه الأوصاف التى تشير الى كل معاني الحكمة يكون المقصود هو

الله، اذ ان الملائكة لا رأى لهم بطبيعة خلقهم، وهم لا يعصون الله ما يأمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولذلك لا يصفهم الله بصفات يتميز بها هو وحده! اما مفهوم الاستواء فهوي مفهوم خاص بالله وحده وهو مالك الملك و مقدر نظام العرش ومنظومة الكون والمتحكم فيها من علٍ، وقد ورد لفظ الاستواء فى آيات كثيرة ارتبطت بالعرش ونظام الملكوت الاعلي وكلها تشير الى استواء الله على ناموس الكون وليس غيره! وقد شرحنا ان الاستواء يعنى التحكم مع الاتزان والاستقامة وهذا بيد الخالق وحده! ونلاحظ ان مفهوم الاستواء هنا جاء غامضا جدا اذ انه لم يستوي على العرش ولا الى السماء كما فى باقي الآيات التى ذكرت الاستواء، وانما تركه استواء فقط ليزيد من خصوصية الحدث للتأكيد على انه استواء فريد مغاير لاستوائه على منظومة الكون التى استوي عليها منذ ان اكتمل خلق السموات والارض الى النفخة الأولى فى الصور! و لأنَّ النبيَّ لم يكن مدركاً بعد لنبوته وكان علمه بالله نفسه محدودا جدا لم يتجاوز الفطرة السليمة فقط، فقد تم التعديل حين النزلة الأولى فى منظومة الكون وليس فى طبيعة النبي حتى لا يشك النبي انه اصابه شئ:

{ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى* ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى* فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}

هنا نلاحظ وصفا اجماليا لحركة اقترابٍ محكمة بطيئة ومحسوبة! كلمتي **دَنَا فَتَدَلَّى** لهما مدلول فلكي وفيزيائي إعجازي فى هذا الوصف، اذ ان اجتماعهما يرسم لوحة فيها حركة على محورين متعامدين بمفهوم فيزيائي هندسى! فالدنو يعنى الاقتراب بصورة افقية كما يفهم العرب، اما التدلي فكلمة مركبة تعنى النزول بحساب دقيق ورفق! واشهر استعمالاتها عند العرب هو "ادليت الدلو" أى ارسلته فى البئر! ومن يدلي الدلو يعلم ان هذه العملية تتطلب حذرا فى التحكم فى الدلو من أعلى الحبل والحفاظ عليه حتى لا يصطدم بجدار البئر فينقطع الحبل او ينكفئ الاناء او تهدم جدار البئر! اذاً فكأن الله تعالى قد طوع ألفاظ اللغة العربية ليصف لنا عملية الاستواء تلك التى مكنت النبي من رؤيته من غير ان يصيبه او يصيب الارض ما اصاب الجبل حينما وصف ظهوره امامه بلفظ واحد هو "تجلَّي"! الآيات توحي الينا بإقتراب افقي بطئ من الأفق ألأعلي ونزول محكم من علٍ راعي فيه الحفاظ على منظومة الكون والقوانبين التى تحكم الطبيعة! ومن هذا الوصف نستنبط ان النبي فى هذه النزلة كان بكامل طبيعته البشريه اذ ان الله هو الذى استوي على منظومة الكون ودخل فى محيط قدرة النبي على الرؤيا من غير تغيير فى طبيعة النبي!

{فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى*مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى* أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى}! اجتهد المفسرون فى تأويل هذه الآية لأنهم اصلا قد قرروا ان المقصود بهذا النزول المحكم الى محيط رؤية النبي هو جبريل! ولكن التصريح بأنه اوحي الى عبده ما اوحي احدث اشكالا كبيرا فى تأويلهم لأن النبي ليس عبداً لجبريل وانما هو عبدٌ لله! وقد اجتهد الطبري والقرطبي فى تأويل الآية بأنها تعنى

"واوحي جبريل الى عبد الله محمد ما اوحي"! ونحن نظن ان فى هذا التأويل تجاوز لحدود اللغة لأن القرائن التى تشير الى ان شديد القوي ذو مرة فاستوي ثم دنا فتدلي هو الله، اكثر من القرائن الإفتراضية التى قام عليها تأويل ان المقصود هو جبريل! أذاً فليس هناك مبرر ليتم تعديلٌ فى الصياغ اللغوي فى هذه الآية التى يصف الله فيها انه اوحي الى عبده محمدا، حتى نجعل مصدر الوحي جبريل! ومضت الآيات تؤكد ما ذهبنا اليه من أن هذه الرؤيا لم تشمل تعديل فى طبيعة النبي ليستطيع تلك الرؤيا المتحكم فيها من على الافق، فتؤكد ان ما رآه فؤاده كان حقا وليس وهما! وهنا نلاحظ ان الاشارة تمت الى فؤاد النبي وهو العضو الذى يعقل ما يبصره الانسان، ولكنها لم تشر الى طبيعة بصره حين الرؤيا، مما يدلل على ان إبصاره هنا كان طبيعيا، ولذلك ركزت ألآية على أن ما عقله كان حقيقة وليس وهما او جنونا!

مما لا شك فيه ان الحدث كان جدٌ جلل على النبي فى اول يومٍ فى نبوته، اذ ان معرفته بالله نفسها كانت محدودة وان الوحي جاءه من غير ميعاد! هذا بالضرورة ادخل فى نفسه الرعب الذى روته كتب السيرة وعبَّرت عنه قصة المزمل والمدثر! هنا وقع حدث جدٌ مهم فى تأكيد تأويلنا وهو شهادة ورقة ابن نوفل الذى كان موحدا من اهل الكتاب وعالما بالكتب السماوية السابقة وهو ابن عم خديجة الفاضلة رضي الله عنها! فقد روت كتب السيرة ان خديجة ذهبت مع النبي صلى الله عليه وسلم الى ورقة وقص عليه النبي القصة، فقال له ورقة: ان هذا لهو الناموس الذى أتى موسى! والمعروف ان جبريل أتى كل الانبياء قبل محمدٍ من آدم الى عيسى عليهم السلام، ولكن الذى أتى موسى بنص القرآن كان الله! فقد كلَّم الله موسى تكليما عند جبل الطور من غير واسطة جبريل، هذا بالاضافة الى ان القرآن اوحي فى مواقع كثيرة ان الله ظلَّ يكلم موسى مباشرة بمافي ذلك قصة الجبل الذى اندكّ، ونحن نظن ان رغبة موسى فى ان يرى الله ما كانت الا نتاج ان الله كان يكلمه تكليما، فظن موسى ان من سمع يمكن ان يرى! فإن كان الوصف الدقيق الذى قدمه النبي الى ورقة ابن نوفل قد كان شبيها بوصف الناموس الذى أتى موسى فاذاً يكون النبي قد رأى الله الذى كلَّم موسى عليهما السلام!

هذا التأويل بطبيعة الحال لا يتعارض مع ان جبريل كان هو الذى ايقظ النبي وقال له "اقرأ" ثلاثة مرات قبل ان يرى الله فى الافق المبين ويوحي اليه اولى كلمات القرآن مباشرة!

النزلة الاخرى:

{وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} .....

فى النزلة الأولى كان النبي فى اول عهده بالنبوة لذلك تحكم الله فى منظومة الكون من غير تغيير فى طبيعة النبي، اما النزلة الأخري فقد تمت فى ليلة الاسراء والمعراج بعد ان ثبت قلب النبي

ونما علمه، واصبح من الطبيعي ان يتقبل من غير رعبٍ او شعورٍ بالجنون اذا غير الله فى طبيعته البشرية حتى يمكنه ان يرى ما لا يرى الانسان العادي!

هنا نلاحظ ان الآيات اولاً اكدت ان هذه هى المرة الثانية التى يراه فيها! ولا بد ان نتوقف قليلا عند ذكر لفظ "نَزْلَةً"! لا يختلف اثنان فى هذا الزمن على كروية الأرض، ولا يختلف اثنان على ان السماء فوق القطب الشمالي تماما كما هى فوق القطب الجنوبي رغم ان هذين القطبين متعاكسين من حيث وضعهما فى الأرض! فى المفهوم الهندسي للكرة او الدائرة، فان السقوط يتم من المحيط الى المركز من كل الاتجاهات! استعمال لفظ سقوط هنا لا تفيد الا تبسيط المعنى لخيال الانسان لكن لا يفيد علو او هبوط لان الدائرة لا بداية لها ولا نهاية، والكرة ليس فيها أعلى واسفل! من هذا التصور نقول ان استعمال الله للفظ " نَزْلَةً" لا يفيد بالضرورة ان الله ينزل او يصعد ولكنه فقط يقرب المعنى لخيال الانسان تماما كما قرب لنا كثيراً من المعاني باستعمال لغة الغراب فى وصف الامور من منظور الانسان الأول كما رأينا مرارا فى هذا الكتاب! ولما كانت الكرة الأرضية هى مركز كل الكون الذى تتقاطع عنده اقطار السموات والأرض، فان مفهوم النزول هنا يشير الى ان الحدث، أى الرؤيا تمت عند مركز الكون وهو مكة! من هنا نفهم ان النزلة الأخري ايضا كانت فى الأرض وفي مكانٍ ما من مكة مركز الكون! وتمضي الآيات تصف لنا ذلك المكان وصفا يربط كل ما ظللنا نشير اليه فى هذا الكتاب من وقوع الخلق والتطور عند عرفات:

{عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى***عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى***إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى}

السدر لها معنى واحد يدل على شبه الحيرة واضطراب الرأي!

غشي: تغطية الشئ بشئ!

قيل ما قيل عن موقع سدرة المنتهي فى أعلى السماء السابع وأنها النقطة الاخيرة التى فارق فيها جبريل النبي قبل ان يصعد وحده الى عرش الرحمن! ولكن ليس هناك حديث صحيح يؤكد ما تعارفنا عليه من أمر سدرة المنتهي مما تناقلته كتب المفسرين! ومما علمنا الى الآن من موقع مكة كمركزٍ توازنٍ لكل الكون فانها تكون بموضع الدينامو لماكينة الوجود حيث تتوازن عندها كل القوي المغناطيسية التى ترتكز عليها السموات السبع التى رفعها الله بعمدٍ لا نراها! وهنا تنص الآية على أنَّ سدرة المنتهي عندها جنة المأوى، الشئ الذى يفرض علينا مراجعة فهمنا للآيات على ضوء ما نفهم من نظام الكون اليوم! فإذا كان الأمر امر نزولٍ وليس صعود، والنزول فى نظامٍ كروي الشكل يتم عند المركز، فإن سدرة المنتهي تكون فى مكة! وهنا نجد تطابقا على تفسيرنا ان جنة المأوى التى اوى اليها جنس آدم كانت فى عرفات أى فى مكة! ولعلَّ ذكر جنة المأوى هنا قصد منه التأكيد على انّها فى الارض وليست فى السماء لان مركز الكون فى الأرض

والنزول الى مركز الكون يكون الى مكة بالتحديد! ولعلَّ من المفيد ان نذكر ان أعلى الجنان هى جنة الفردوس الأعلي! فإن كانت سدرة المنتهي حقيقة موقعاً فوق الجنان وفوق السموات السبع كما كنا نفهم فكان الأولى ان توصف بأنها عند جنة الفردوس الأعلي، علما بأن هذا الموقع هو الموقع الوحيد فى القرآن الذى ذكرت فيه جنة المأوى بصورة مفردة، وهو موقع ينطبق على مكة من ناحية كونية ومنطقية وليس اعالي السماء!

لأ أحد يستطيع ان يفهم بالضبط ما هى سدرة المنتهي، ولكن مما عرفنا عن اسرار هذا الموقع من الكون تكونت لدينا من **الحيرة** ما تكفي ان نصفها بانها اكثر موقع مثيرٌ للحيرة فى الوجود! او لعلَّها كانت الموقع الذى انتهت عنده حيرة البشرية فى شخص النبي! وبالطبع فإن ما يغشي السدرة يظل معلوما لله وحده وهو الذى يعلم اسرار ذلك الموقع الذى يرتكز عليه الكون!

وتمضي الآيات تؤكد ما ذهبنا اليه من ان فى هذه النزلة كانت بشرية النبي هى التى تم تعديلها وتم رفعه لمستوي قدرة تمكنه من رؤية ربه و آيات ربه التى لا يمكن للبشر ان يراها ببصر عادي:

{مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}

لو قارنا وصف النزلة الأولى لوجدنا ان الآيات وصفت تعديل فى ظواهر كونية ولكنها لم تشر الى بصر النبي، ولكن هنا نجد وصفا مدهشا لحال بصر النبي وكأنه يؤكد لنا ان ما رآه النبي فى تلك الليلة كان اكثر من حدث واحد مما احتاج الى أن يتغير النبي وليس منظومة الكون!

زاغ: تعنى مال او انحرف! **وطغي**: تعنى تجاوز الحد!

هذين اللفظين يشابهان الحركة على المحورين السيني والصادي التى رأيناها فى "دَنَا فَتَدَلَّى"، اذ انه هنا يصف التحكم فى قدرة إبصار النبي على محورين ايضا وهما عدم الانحراف وعدم التجاوز، وهذا يتطلب إلقاء بعض الضوء على علم البصريات وخصائص الإبصار!

من المسلَّمات فى زماننا هذا ان الانسان لا يبصر الأشياء الا اذا سقط عليها الضوء وانعكس على عين الانسان! ومن المعروف ايضا ان الضوء ينطلق فى خطوطٍ مستقيمة مما يخلق ما يسمي بخداع البصر لان الضوء الذى ينعكس او ينكسر يجعل الانسان يرى الاشياء فى غير حجمها وفي غير موضعها! وابسط مثال لذلك هو ما نبصره حينما ننظر فى المرآة فنتوهم اننا نري ما هو خلفنا كأنه امامنا! ومعروف علميا ان الضوء الذى يراه الانسان محدود بموجات ذات طول محدد والانسان لا يستطع ان يرى موجات ضوئية أعلى منها او ادني منها، ومن اشهر تلك الاشعة غير المرئية هى اشعة اكس التى لا تنعكس الا اذا اصطدمت بمواد محددة كالتي تدخل فى تركيب العظام ولذلك تستعمل فى صور الاشعة! ومعروف من علم امراض العيون ان بصر الانسان يعمل بالتحكم فى بُعد الاجسام المرئية بتحريك عدسات العين حتى يمكن للجسم ان يقع فى

بعد محدد يمكن رؤيته، واشهر الامراض اذا حدث خلل فى هذه الخاصية هى امراض طول او قصر النظر!

فى هذه الآيات يخبرنا الله ان بصر النبي تم التحكم فيه بحيث يعلو على خواص الضوء فى الانحراف والانكسار "**زاغ**" ويعلو على خواص العين فى طول او قصر النظر "**طغي**"! وهذا الضبط والتحكم فى قدرة النبي على الإبصار امكنه من ان يرى ما لا يمكن للبشر ان يراه لأن القصد من هذه الرؤيا ليس إلا رؤية اكبر آيات الله على الإطلاق، وتلك هى الآية الكبرى:

{لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}

ولعلنا لو كتبنا ألفاظ الآية بصورة ابسط يتضح لنا ماذا رأى:

"ولقد رأى الآية الكبرى من آيات ربه" وليس هناك آية من آيات الله اكبر يمكن أن توصف بأنها "الكبرى" إلا رؤية الله الذى لا اله الا هو!

قصة الإسراء والمعراج من القصص التى وردت فيها اختلافات كثيرة جدا فى التوقيت وفي تفاصيل القصة! ونظن أن فى هذا دليل واضح على ان مجتمع الصحابة على سموه وانهم خير امة اخرجت للناس، الا انهم كانوا بشرا محدودي القدرات والعلوم كبقية البشر فى زمانهم، وان فهمهم لقوانين الطبيعة وتعاملهم معها لم يكن فيه اعجاز، ولم يكن يتجاوز فهم الرجل العادي فى أى مكان فى ذلك الزمان! فقد كانوا يمشون على الارض شهورا على ظهور الابل ويظنون انها مسطحة، بل ما كان لاحدهم ان يصدق لو قيل له ان الارض كروية او ان الليل والنهار مجتمعان على ناحيتين من الارض فى نفس اللحظة! هذه الظواهر الكونية كان فهمها من المستحيلات فى زمانهم، وهذا لا ينتقص من فضلهم ولا علمهم ولا امانتهم فى نقل القرآن والسنة حرفيا رغم ان الكثير فى القرآن والسنة لم يكن مفهوما لهم!

طبيعي اذاً ان الاراء حول قصة الاسراء والمعراج كثيرة عند المفسرين ومتباينة نسبة لغرابتها وصعوبة فهمها! ويكفينا دليلا على ذلك ان عددا من المسلمين ارتد يوم سمع بقصة الاسراء، وقد قال ابوبكر الصديق قولته المشهورة حينها " إن كان قال فقد صدق"!

من اهم دروس الاسراء والمعراج اننا يمكن قياسا عليها ان نفهم لماذا لم يفسر الرسول صلى الله عليه وسلم الكم الهائل من الآيات التى تصف الكون فى القرآن، وما ذلك الا لان المجتمع الانساني كان عليه ان يواصل مسيرة التطور لقرون طويلة قبل ان يكون قابلا لاستيعابها، وبالتالي تكون من إعجازات القرآن لأجيال قادمة وليس جيل الصحابة. فهؤلاء كان دورهم حفظ القرآن كما نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف حتى وإن كان غامضا عليهم وقد فعلوا رضي الله عنهم!

ومن تلك الدروس ايضا ان النبي صلى الله عليه وسلم ما قصَّ عن الاسراء والمعراج تفاصيل كثيرة وذلك لاسباب عدة منها ان آيات الله الكبري كانت له وليس للناس عامة، فضلا عن ان القصة نفسها ليست من احكام التشريع التى تهم الناس، وانما كانت من الفضائل التى تكرم بها الله تعالى على النبي فى محنته تلك ليثبت بها فؤاده!

و قد كشف الله لنبيه تلك الاسرار لتنتهي حيرته، اذ ان رحلة الاسراء والمعراج تلك كانت رحلة خارج اطار الزمان والمكان ليري من آيات ربه الكبري فى الارض قبل السماء، ونظن ان حكمة الله التى كشفت للنبي اسرار السموات حتى يكون استيعابه لكل الوجود متكاملا، لا بد وان تكون قد قدمت لها بكشف اسرار الارض اولا، اذ ان من لا يعلم ان الارض كروية وليست مسطحة لا يمكن ان يستوعب كليات خلق السموات والارض، ولان خلق الله كله منسقا ويجري وفق قوانين وسنن محكمة فمن المنطقي اذاً ان يكون قد قدَّم لكشف اسرار السماء والآخرة للنبي صلى الله عليه وسلم بكشف اسرار الارض والماضي.

ولعل النزلة الاخري التى كانت عند سدرة المنتهي قد كشف الله له فيها ما كان من حال الانسان الاول وسكنه عند جنة المأوى، لذلك جاء ذكرها هنا، وهي كما قلنا الجنة التى اوى اليها جنس آدم بعد التطور فى وادى عرفات، فكانت نهاية لحيرته صلى الله عليه وسلم ليكون ايمانه بالله صلبا لا تشوبه شائبة وعلمه عن احوال الكون واحوال من سبق كاملا مكتملا، تماما كما بوء الله لإبراهيم من قبل ما كان حول البيت ثم جعله للناس إماما! وهنا لا بد ان نلفت الانتباه الى ان الارض جزء من الكون ذلك المجهول، بل هى مركزه، وان خلقها مرتبط بعظمة خلق السموات والكون كله، الشئ الذى لا يتطلب بطبيعة الحال ان آيات ربه التى راها النبي محصورة فقط فى السماء! من يظن ذلك الظن فكأنه يفهم ان الارض من صنع الانسان وليست من آيات الله الكبري مقارنة بالسماء، وهذا فهم مغلوط فيه من السذاجة والجهل ما لا يغتفر!

ولعل مما يضفى على قصة الخلق والتطور والارض التى جرت فيها كل تلك الاحداث التى احتوي عليها كتابنا هيبة ورهبة، ان الله تعالى نزل فيها دون سواها مرتين، وما زال ينزل من غير ان يراه احد فى كل يوم عرفات ليعيد التاريخ نفسه الى يوم القيامة..... وبذلك يجتمع الخلق والخالق وتاريخ الخلق ونظام التحكم فى الكون فى بؤرةٍ واحدة عند سدرة المنتهي عندها جنة المأوى، ثم جعل تلكما النزلتين قرآنا يتلي الى يوم القيامة، لقومٍ يتفكرون!

ويمكننا هنا وفي ختام هذا البحث ان نخلص الى ان ام القري، بكة ومكة او البلد الامين والبلد الحرام كلها تشير الى اقدس بقعة فى الارض وهي تمثل وسط الارض من ناحية جغرافية ومغناطيسية وفلكية، ومن ناحية بيولوجية ايضا اذ انها كانت اول بقعة خرجت يابسة من تحت الماء عند بدء الخلق، وانها كانت المكان الذى بدء عنده خلق كل اشكال الحياة فى الارض،

والمكان الذى تطورت فيه وحوله جميع الأحياء الى ان انتشرت لتعم الارض! وعندها ايضا تطور الانسان عبر ملايين السنين ووصل الى حال اقرب الى حال الانسان العاقل، قبل ان تتدخل القدرة الإلهية فتنقله الى انسان عاقل فى وادى منى! وعندها نزل آذان الأنعام وهي مخلوقات سماوية تمشي بين اقدامنا وتسكن بيوتنا كآية من آيآت الله الحية! ثم ان الاراضي المقدسة بعد ذلك شهدت اولى خطوات الانسان العاقل منذ سكنه جنة المأوى فى عرفات الى ان اوى الى اول بيت وضع للناس، ومن ثمَّ بدأ انتشار بنى آدم فى الارض خلفاء لله الى اليوم!

ولعل علماء الطبيعة والآثار اليوم والذين يبحثون عن آثار الانسان الاول غير بعيد من مكة، وذلك لان معظم الانظار موجهة الى منطقة اثيوبيا وشرق افريقيا، لو عرفوا هذه الحقائق لاكتملت فى اذهانهم قصة الخلق والتطور وربما يأتون البيت العتيق رجالا وعلي كل ضامر يأتين من كل فج عميق، ليس من باب البحث والفضول فقط، وانما من باب الايمان والتصديق بالله، لأنَّ مثل هذه الحقائق لهي ابلغ وسائل الدعوة التى تنقل الاسلام من دين ارتبط فقط بسلوك الشعوب المسلمة اليوم والذي لا يسر، الى دين يحوي كل اسرار الكون والخلق والخالق التى تهز كل مكابر، ويبهت امامها كل من كفر ولا يمكن ان ينكرها الا كفَّارٌ عنيد!

ان البشرية اليوم وصلت الى اسوأ حالة من الاحتقان والحيرة فى تاريخها، وان الماديات قد فشلت فى اسعاد الانسان وفشلت فى خلق نظام عالمي يجتمع حوله كل الناس برضيً واطمئنان وتصديق، وكأنَّ لسانُ حالهم يبحث عن دين جديد ولا دين بعد الاسلام، وعن نبي جديد ولا نبي بعد احمد وعن رب جديد ولا اله الا الله، ولكن فى دين الله الذى ارتضاه لكل الناس وفي مسك الختام فى مسلسل رسائل الاسلام كل ما تبحث عنه البشرية من علم وتصديق وحقائق منطقية تربطهم بربهم بالعقل قبل العاطفة! وما دور المسلمين هنا الا ان يؤذنوا فى الناس بالحج لتنتقل لغة الخطاب من لغة الصراعات الحزبية والقبلية والعنصرية الى لغة العودة والمثابة لبيت الآباء الذى بدأت عنده كل الحياة وتطورت حوله الانسانية! وهذه الرجعة او المثابة ليست الا مثابة فكرية وعلمية اولا قبل ان تكون رحلة جسدية لمن توفرت له الظروف والامكانيات، ونسأل الله ان نكون قد إستطعنا الى ذلك سبيلا، ووضعنا الأمانة على عاتق كلِّ من يقرأ هذا الكتاب ان يؤذن فى الناس بالحُجة والدليل الدامغ ويؤذن فيهم بالحج!

ونرجوا فى ختام كتابنا هذا ا ان يأجرنا الله عليه اجرين إن اصبنا، وأجراً إن أخطأنا اذ انه يزيل كثيرا من حيرة الناس فى فهم اسرارٍ من اسرار الخلق والكون والقرآن، وان كانت اسرار الكون لا تنتهي، وما من حيرة تنتهي بمجهودِ البشر الا لتبدأ حيرةٌ جديدة! فسدرة المنتهي انتهت من حيرة النبي ولكن مهما اجتهدنا ان نفهم تفاصيل تلك الاحداث فلن نصل الى ما رأى ولن نري الآيات الكبري التى رأى لذلك تظل حيرتنا ويظل البحث والتدبر!

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ* رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ* رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ* رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} 189- 194 آل عمران.

{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ* لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} 285-286البقرة!

واخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين!

****

نظرية آذان الأنـعام فى الخـلق والتـطور

النظريات العلمية والفلسفية تعكس افكارا توصل اليها الباحث بناءً على معلومات توفرت لديه، تفسر ظاهرة كونية فى أى من مجالات الحياة المادية او الاجتماعية او الفكرية! مهما تعامل الناس مع مصداقية النظرية فى أى وقت من الأوقات، فهى تظل افتراضا فكريا يخضع للدراسة والمراجعة كلما اتسعت دائرة المعرفة فى المعلومات التى قامت عليها النظرية، وبذلك تكون النظرية دافعا للبحث من أجل المزيد من المعرفة وليس نهاية له. حتى وان ادت البحوث اللاحقة لاثبات أخطاءٍ فيها فهى تكون قد وضعت الأساس لتفكيرٍ وبحثٍ منهجي فى الإختصاص الذى طُرحت فيه! بعد دراسة هذا الكتاب فاننا نقترح **نظرية آذان الأنعام** فى الخلق والتطور بناءً على ما هدانا اليه الله من فهم آيات كتابه الذى لا يعلم تأويله الا هو. تقوم النظرية على ركنين متكاملين:

أ. خلق الكون من الماء وتطوره.

ب. خلق الحياة من الماء وتطورها.

أ. خلق الكون من الماء:

"كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء **ثم** خلق السماوات والأرض وكتب فى **الذكر** كل شيء" صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم**!**

هذا الحديث يطرح حقيقة منطقية وهي ان وجود الله قبل وجود المادة لا يمكن ان يخضع لبحوث العقل البشري الذى لا يمكنه الا دراسة عالم المادة! وجود الله وصفاته وقدراته لا يمكن الوصول اليه الّا بالإخبار من الله نفسه. دور العقل البشري فى هذا المجال ينتهي بالتأكد من مصداقية المصدر الذى يروي عن الله وفي هذا البحث فالمصدر هو القرآن!

يرتب هذا الحديث مراحل الوجود كما يلى:

1. وجود الله فى عالم الغيب وليس معه شئ.
2. خلق الله الماء و فرض سلطانه عليه.
3. ثـم خلق السماوات والأرض وكتب القانون والنظام الذى يسير عليه الكون.

ولمّا كان مصطلح "عرش" يفيد القدرة الإلهية العليا فى التنظيم والتحكم فى شؤون الكون، فإن الحديث يوحى بأن الله فرض سلطانه الأعلى اولاً على الماء ليخلق منها كل الوجود لاحقا! ولمّا كانت كلمة عرش تعنى القمة والسقف ايضا فإن ذلك يوحى بأن الماء خلق اولا، ثـم نال النصيب الأعلي من القوانين النوعية والتفصيلية التى جعلت منه المادة الأولى فى الكون، التى دخلت فى خلق كل شئ لاحق، بما فى ذلك السموات والأرض. نلاحظ فى الحديث ان حرف العطف "ثم"

يفيد ان خلق السماوات والارض تمَّ بعد فترة من خلق الماء، وحرف العطف "و" يفيد ان **الذِكر** او نظام تسيير وتطور الكون كتب متزامنا مع خلق السموات والارض!

الماء المقصود هنا هو الماء الطهور الذى عجز الإنسان الى الآن عن تركيبه رغم اكتشافه أنَّ الماء يتكون من ذرتي هايدروجين شديد الاشتعال وذرة اكسجين ضرورية للاشتعال، ويحمل جزئ الماء شحنتين كهربيتين سالبتين فى احد قطبيه وشحنة موجبة مكافئة فى القطب الآخر. الهيدروجين هو اكثر عنصر فى الوجود ويليه غاز الهيليم الذى يتكون من التحام اربعة انوية هايدروجين. الآيات التالية توحي بطبيعة الماء ودوره فى الخلق:

{وَهُوَ الذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} 7 هود!

{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} 30 الانبياء! {الباب الحادي عشر}

هاتين الآيتين تطرحان الحقائق التالية:

1. انَّ فرض سلطانه المباشر على الماء كان سببا فى خلق السموات والأرض!

2. انَّ السموات والارض خُلقتا فى شكل كتلة واحدة مكوناتها ملتصقة مع بعضها وإن كانت مختلفة فى خواصها، لأن الرتق يفيد الإلتصاق بين أشياء مختلفة. تبع ذلك انفصالٌ بطئ لكتلة السموات عن كتلة الأرض لأنَّ الفتق يختلف من الإنفجار ويفيد الانفصال الهادئ البطئ. هذين اللفظين " رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا" يفسران وجود ستة مراحل من التطور أدَّت الى اكتمال تكوين السموات السبع من ناحية والارض من ناحية اخرى.

وحتي نفهم شكل السموات والارض وعلاقتهما ببعض نتدبر هذه الآيات:

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} 33الرحمان!

{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} 4 المعارج.

لمَّا كان القُطر هو الخط الذى يصل بين نقطتين على المحيط مرورا بمركز الدائرة او الكرة، ولمَّا كان العرج هو الصعود بميل، فإننا نستنتج من مثل هذه الآيات الآتى:

1. ان السموات والارض شكلهما كروي.

2. ان الأرض وهي الكرة الصغيرة توجد فى مركز مجموع السماوات لان انطباق أقطار السموات والارض على بعضهما يقتضي اشتراكهما فى المركز الذى تتقاطع عنده تلك الأقطار.

3. كلما يصعد الى السماء يتبع مساراً منحنيا مع تقوس وانحناء الكون.

ولمَّا كان فى مفهوم الكرة أنَّ النزول يفيد الإقتراب من المركز والصعود يفيد الابتعاد عن المركز نحو المحيط فى أى اتجاه، فإنَّ الإرتفاع يعنى التحرك من المركز تجاه المحيط! اذا أضفنا الى هذه النتائج آيات اخرى يمكننا ان نتخيل عملية بناء السموات والأرض اكثر وضوحاً:

{اللَّهُ الذى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} 2 الرعد

{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} 47 الذاريات!

نفهم من ذلك كله ان كتلة السموات والارض وجدت ملتصقة ثم ابتعدت السموات من المركز وهو الأرض، فى حركة بطيئة لتتسع الى سبعة سموات وتكون الارض هى المركز الذى يدور حوله مجموع السموات وهي فى حالة اتساعٍ مستمر! نلاحظ ايضا ان عملية رفع وبناء السموات اكتملت قبل استواءه على العرش، مما يدلل على ان بدء الخلق خضع للارادة الالهية المطلقة، ثم بعد ذلك انطلق قانون التطور او التحكم التلقائي الذى استوي الرحمن عليه. ولمَّا كان اتساع الشكل الكروي متماثلاً فى كل الإتجاهات فالكون اذاً فى حالة انتفاخ بطيئ و محكم. كلمة "عمد" تفيد ان السموات ظلت مرتكزة بقوي خفية طاردة وجاذبة على مركز الكون وهو الأرض! ولمَّا كانت مكة تتوسط كتلة الارض ويتم عندها تلاشي الانحراف المغناطيسي، فإن مجموع السموات ربما يكون مرتكزا على مركز الكون وهو الارض وبالتحديد على وسط الأرض وهو مكة، وربما تكون عبادة الطواف عكس عقارب الساعة حول الكعبة ليست الا تمثيلا لحركة كل الكون حول هذا المركز وتبادل الطاقات بين أجساد العباد وطاقات الارض الكامنة! {الباب الثانى عشر}

هذا الفتق او الإنفصال البطئ المحكم والإتساع المستمر للسماوات لم يخلق فراغا وتجاويف لان الكون ظل متصلا ومكرَّسا، تصل بين كل ذراته من أعلى السموات الى ادني الارض غازات وطاقات كهرو- مغناطيسية وضوئية وقوي مجهولة تجعل منه جسما واحدا متماسكا ومتصلا مما يفسر آية الكرسي:

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فى السَّمَاوَاتِ وَمَا فى الْأَرْضِ مَنْ ذَا الذى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}255 البقرة!

فالكَرْس هو التلبُّد والتداخل والإلتصاق من غير فراغات وتجاويف، و "كُرْسِيُّهُ" تصف نظام خلقه فى كَرْسِ كل الوجود! {الباب الحادي عشر}.

ولمّا كان هذا التداخل والإلتصاق بين كل مكونات الكون خاضعٌ لنظام وقانون نوعي دقيق هو "العرش" او السلطة العليا التى تدير ناموس الكون، فقد شاءت الإرادة الإلهية ان يكون ذلك

القانون والنظام ثابت لا يتغير وفق أهواء او إنفعالات او تقلب مزاج، رحمة بكل الخلق، وهو ما يفسر آية الإستواء على العرش:

{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} 5 الرحمن { الباب الثانى عشر}

فإستواء الرحمن على العرش وثبات ناموس الكون هو المسؤول عن ثبات الظواهر الكونية من تعاقب الليل والنهار وحركة الرياح والمياه والقوانين النوعية التى تحكم الأحياء وكل تفاصيل الكون التى لا تتغير، مما يتيح الفرصة لعقل الإنسان لدراسة منظومة الكون واكتشاف قوانينها النوعية والتعامل معها بما فيه مصلحته!

الإنفجار الكوني العظيم:

بدأ الكون بعملية انتفاخ فتقت السموات عن الارض وما زال فى حالة انتفاخ محكم بطيئ. فى نهاية عمر الكون سيحدث ازدياد مفاجئ هائل فى سرعة الانتفاخ تؤدى الى إنفجار صاعق للكون عند قيام الساعة، وهذا ما عبر عنه القرآن بالنفخة الأولى فى الصور:

{وَنُفِخَ فى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فى السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} 68 الزمر

النفخة الأولى تؤدى الى انفجار الكون، اما النفخة الاخرى فتؤدى الى اعادة بناءه ليوم القيامة، ولكن حينها ستتغير قوانين الوجود ونظام العرش فينتهي مفهوم الزمان والمكان ويبدأ مفهوم الخلود والابد:

{ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} 48 إبراهيم.

نلاحظ ان استواء الله على العرش فى هذه الحياة الدنيا تم باسم "الرحمن" بينما تحكمه فى الكون بعد النفخة الثانية فى الصور تم باسم القهار! القهر هو الغلبة والتحكم المطلق مما يوحى بان الكون الآن يسير وفق قوانين يمكن فهمها والتعامل معها رحمة بالخلق، ولكنه يوم القامة سيخضع للارادة الالهية المطلقة التى لا تخضع لنظام ولن تكون رحمته الا لمن شاء! " انظر لوحة تطور الكون".

ب. خلق الحياة من الماء:

الأحياء المرئية المادية تشمل الإنسان والحيوان والنبات، اما الحياة غير المرئية فتشمل الملائكة والجن! وقد سبق خلق الملائكة والجن خلق بقية الأحياء المادية!

الملائــكة والــجن:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم {خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم} اخرجه مسلم**!**

كان الانسان يعلم ان شرب الماء ضروري للحياة ثم تطور علمه ليكتشف ان الماء يدخل فى تكوين وظائف الخلايا الحية للنبات والانسان والحيوان مما جعل المفسرين يفهمون بصورة اوسع هذا النص الذى يؤكد هذه الإكتشافات:

{وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} فكان فى فهمهم ان "كل شئ حي" تشمل الإنسان والحيوان والنبات فقط! على ان تطور العلم واكتشاف ان النار والنور تنتج من مكونات الماء من احتراق الهيدروجين فى وجود الاكسجين يفتح الباب لتوسيع معنى الآية لتشمل كل شئ حي مرئي وغير مرئي، فيدخل فى ذلك الملائكة من نور النار والجن من سمومها كما نصَّ الحديث أعلاه وهذه الآية:

{وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ} 27 الحجر! {الباب الحادي عشر}.

الحياة المادية:

الأحياء المرئية خضع خلقها لمنظومة العرش الثابتة بإستواء الرحمن عليه، وذلك بعد ظهور اليابسة على الأرض وتوفر المناخ الملائم للحياة عند مركز الكون فى مكة! وقد بدأ خلق كل الأحياء المادية فى شكل نبات نبت من الأرض:

{وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}18 نوح! {الباب الاول}

إن كان الإنسان العاقل قد نبت فى أول الخلق من الأرض، فإن بقية الحيوانات تشترك معه فى ذات الأصل وبالطبع النباتات! على أن تطور الخلق بين النبات والانسان العاقل مرَّ بمراحل كثيرة كان العامل الأساسي فيها هو سر الحياة فى الماء، وكون عرشه على الماء أى تعرُّض الماء لأكبر قدرٍ من القوانين الإلهية التى طورته لأشكالٍ متباينة فى الخلق:

{وَهُوَ الذى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا* لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا} 48-49 الفرقان! {الباب الحادي عشر}

والماء الطهور هو ماء الطبيعة الذى لم ولن يستطع الإنسان تركيبه فى المعمل! خضع الماء الطهور للإرادة الإلهية ليحتوي على القوانين التى تحكم الأحماض النووية التى تسببت فى تطور واختلاف الخلق عبر ملايين السنين:

{وَهُوَ الذى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا}54 الفرقان! {الباب الحادي عشر}.

خلقت بشائر الخلق من اصول الماء فأودع الله فى ذلك الماء قوانين تجعل بعضه يحافظ على طبيعته فينتسب متصلاً بأصله، وبعضه ينصهر ويتحول الى اشكال اخرى فى سُلَّم التطور!

ونتج أيضا من قوانين الماء قانون الصفات الوراثية التى تعطي كل مخلوق صفاته **المستقرة** وتودع فى جيناته صفاتٍ **مستودعة** لتظهر فى أجنته:

{وَهُوَ الذى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} 98 الأنعام! {الباب الحادي عشر}.

ولأن عملية التطور استغرقت ملايين السنين فقد أتى على اسلاف الانسان حينٌ من الدهر لم يكن لهم وجودٌ ملموس فى الأرض:

{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} 1 الانسان! { الباب الاول}.

وقد وصف القرآن المراحل المختلفة لتطور خلق الإنسان من الطين الذى ينتج من اختلاط الماء بتراب الأرض :

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ } 12المؤمنون! {الباب الثانى}

ثم وصف مراحل تطور هيئة الحيوانات ومن ضمنها الإنسان فى هيئته ومشيته من مخلوقات بدائية الى مخلوقٍ يمشي معتدلا على قدمين:

{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 45 النور! {الباب الحادي عشر}.

وقد كان الانسان حيناً من الدهر يمشي مُكِبًّا على وجهه قبل ان يتطور الى انسان عاقل:

{أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 22الملك!

ثم تكرم الله عليه فانشأه من إنحنائه، وآتاه العقل:

{قُلْ هُوَ الذى أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} 23 الملك. {الباب الحادي عشر}

وقد وصف ان تصوير الإنسان فى صورته الحالية تمَّ فى مرحلة لاحقة بعد خلقه فى صورة أدني:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ....} 11 الاعراف { الباب الثالث}

ظلّ الإنسان فى هيئته الدنيا ربما لملايين السنين و كانت جمجمته صغيرة لا تسع الحجم الحالي لمخ الإنسان العاقل، ولذلك فان سلوكه الظاهر كان فسادا وسفكا للدماء مما اثار استغراب الملائكة:

{قَالُوا **أَتَجْعَلُ** فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ....} 31 البقرة.

تطور الانسان:

كان الله يعلم ان تدخل إرادته الإلهية لتنفخ من روحه فى الانسان وتعدل فى مخه ليتضخم وتظهر فيه خواص السمع والبصر والعقل ستجعل منه ذلك الخليفة. وقد فصل القرآن مراحل خلق وتطور الانسان الى ان اصبح عاقلا فى سورة السجدة كما يلى:

1. طور الخلق من تراب وماء وهو الطين، وهذا هو طور الإنبات من الأرض: {الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} 7 السجدة. كان تكاثر أسلاف الإنسان فى تلك المرحلة تكاثراً لا جنسيا، اذ ان القرآن وصف أصل الخلق من نفس واحدة التى ربما تعنى خلية واحدة خلق منها زوجها أى حدث فيها ازدواج ذاتي او إنقسام:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا.. }1 النساء ، حيث "خلق" تعنى الايجاد من عدم { الباب الحادي عشر}.

2. الطور الثانى بعد ملايين السنين عندما بدأت خاصية التكاثر الجنسي بين الذكر والانثى: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} 8 السجدة. هذا بطبيعة الحال اقتضى تميز اسلاف الانسان الى ذكر وانثى الذى وصفته هذه الآية:

{خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ **ثُمَّ جَعَلَ** مِنْهَا زَوْجَهَا.. } 6 الزمر، حيث "جعل" تفيد تغيير فى وظيفة مخلوق موجود مسبقاً مما يفيد ظهور الذكر والانثى، بينما "ثم" تفيد وقوع هذا التغيير بعد فترة طويلة من الزمن كان الانسان فيها احادي الجنس {الباب الحادي عشر}.

3. الطور الأخير وهو طور تسوية المخ والنفخ فيه من روح وسعة الله ونقله الى انسان عاقل ليصبح خليفة لله فى الارض:

{ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} 9 السجدة. تمت مناقشة تلك الاطوار فى باب الحلقة المفقودة {الباب الثالث} .

آبـــاء الانـسانية:

1. جمع الله اثنين وثلاثين فرداً من العنصر البشري كانوا قد تطوروا الى مستوي جعلهم ملائمين للتغير "آدم" الى انسان عاقل، وتمَّ ذلك الجمع من مساحة ضيقة ربما تحددها حدود الإحرام المكانية!

2. نفخ الله فيهم من روحه فتطور المخ والقلب الى مخ وقلب انسانٍ عاقل " الحلقة المفقودة" وقد تم ذلك اغلب الظن فى وادى "منى"!

3. طوع الله لهم القوانين النوعية لكل المخلوقات فى الارض وما تمرد على ذلك الا فصيلا من الجن على رأسه ابليس!

4. اسكنهم الله فى جنة عرفات القريبة لفترة تأهيلية وحرم عليهم التداخل الجنسي بين الذكور والاناث!

5. استدرجهم ابليس للوقوع فيما حرم عليهم بإغرائهم بتواصل النسل والخلود فى الارض!

6. هبط الرعيل الاول من عرفات فى طريقهم لبيتهم الاول، وفي المشعر الحرام ملكهم الله حجارة ترجم الجن حماية لهم!

7. انزل لهم الانعام لتكون الحيوان الاقرب فى حياتهم وذللها لهم وجعلها آذانا و آية تذكرهم بربهم!

8. سكن الجيل الاول من الانسان العاقل فى البيت العتيق اول ما سكن! { الابواب من الثالث الى العاشر}

إثبات النظرية:

ولمّا كانت كل الأحياء المادية على الأرض تشترك فى اصل الخلق وفي انها نبتت من الأرض نباتاً وتطورت عبر ملايين السنين كما أسلفنا الى مخلوقات متميزة ومتباينة، فيمكن للإنسان ان يثبت تلك الحقائق بالبحث المعملي حينما تتوفر له الإرادة و الإمكانيات العلمية! على ان هناك استثناءً فى اصل الخلق وهو انَّ الانعام من إبلٍ وأبقارٍ وضأن وماعز قد نزلت من السماء ولا تشترك مع أحياء الارض فى أصل الخلق:

{.. وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ..} 6 الزمر! وقد أكد الله ان خلق الأنعام فيه سر، اذ انه افردها بتدخل يده مباشرة فى خلقها:

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ }71 يسن! {الباب الحادي عشر}.

والفائدة العلمية من استثناء الأنعام فى اصل الخلق من مخلوقات الأرض ووصفها بانها أُنزلت يمكن تلخيصها فى النقاط التالية:

1. إثبات مفهوم التطور الذى صعدت عليه كل ازواج الأحياء فى الارض من اصل واحد باستثناء الانعام.

2. نفي مفهوم التطور التلقائي لمخلوقات الأرض وإثبات ان نظام التطور الذى صعدت عليه الأحياء فى الأرض قد تم بارادة الله خاضعا لمنظومة العرش! { انظر لوحة التطور}.

3. التأكيد على وجود حياة مادية مكملة لحياة الإنسان خارج اطار الأرض " مجتمع الانعام" !

4. ان الخالق هنا وهناك واحد!

الجوانب التالية فى النظرية تحتاج لبحوث علماء المسلمين:

1. اكتشاف الفوارق فى الخلق بين الأنعام وبقية الأحياء على الأرض، وذلك استجابة لقول الله:
{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} 17 الغاشية!

2. تحديد تاريخ وجود الانعام فى الارض الذى يمكن ان يحدد تاريخ نقل الانسان الى انسان عاقل.

3. البحث فى الاسرار الفلكية والجيولوجية لشعائر الله المحرمة فى ارض مكة من الحجارة فى وادى المزدلفة والصفا والمروة الى الحجر الأسود لإثبات اصولها من خارج الغلاف الجوي!

4. البحث فى آثار الإنسان الأول فى ارض الخلق والتطور حول مكة لإبراز حجة الله على الانسانية التى دعي اليها بنى آدم فى عبادة الحج!

وما توفيقنا الا بالله عليه توكلنا واليه انبنا واليه المصير!

عماد وعلاء الدين محمد بابكر حسن!

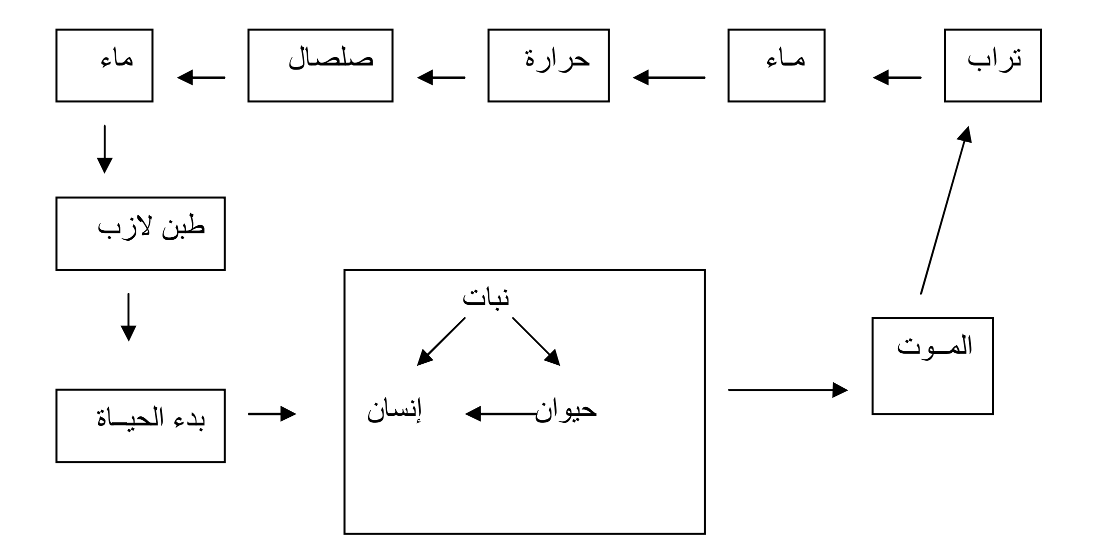
الخرطوم فى الاول من يناير 2007 ميلادية

العاشر من ذي الحجة 1427 هجرية

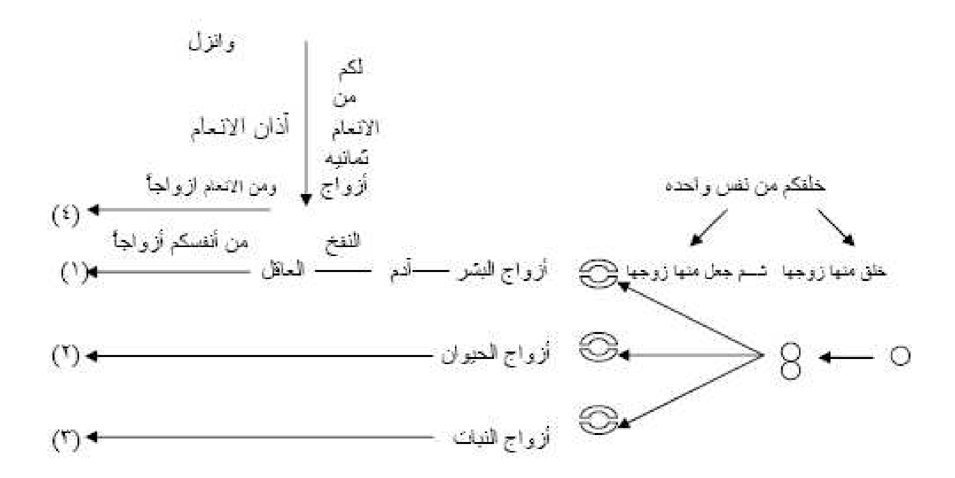
* * * *

نشرت هذه النظرية فى الطبعة الأولى من "آذان الانعام" عن طريق دار عزة للنشر فى الخرطوم فى بداية شهر فبراير 2007. بحمد الله تم نشر اول بحث علمي فى لندن يحدد تاريخ وجود الانعام على الارض بسبعة الف سنة تقريبا، بعد ثلاثة اسابيع من نشر كتابنا كما عرضنا ذلك فى الباب الحادي عشر.

دورة الموت والحياة وعلاقتها بالتراب والطين



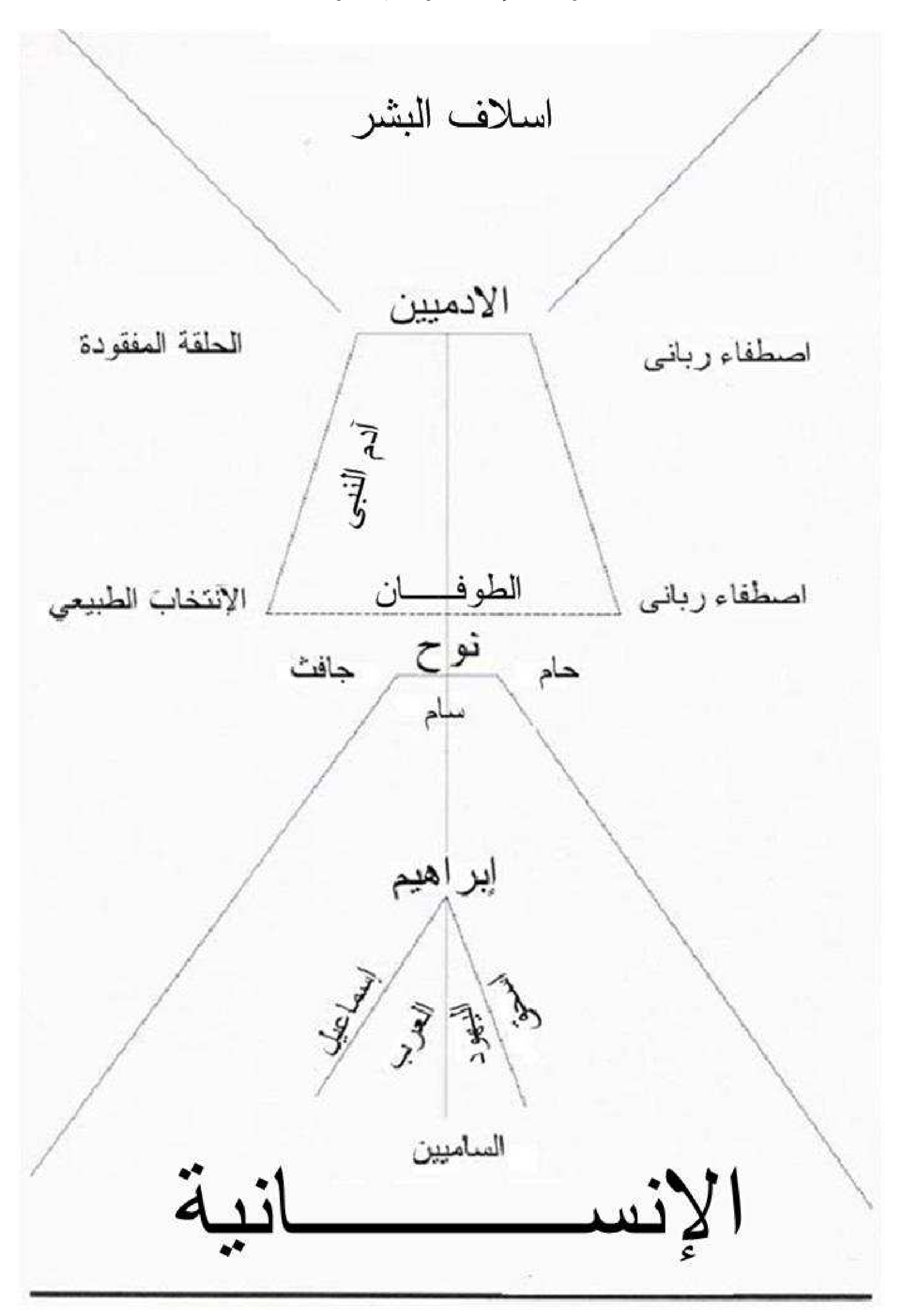
مما تنبت الأرض   من أنفسهم   و مما لا يعلمون



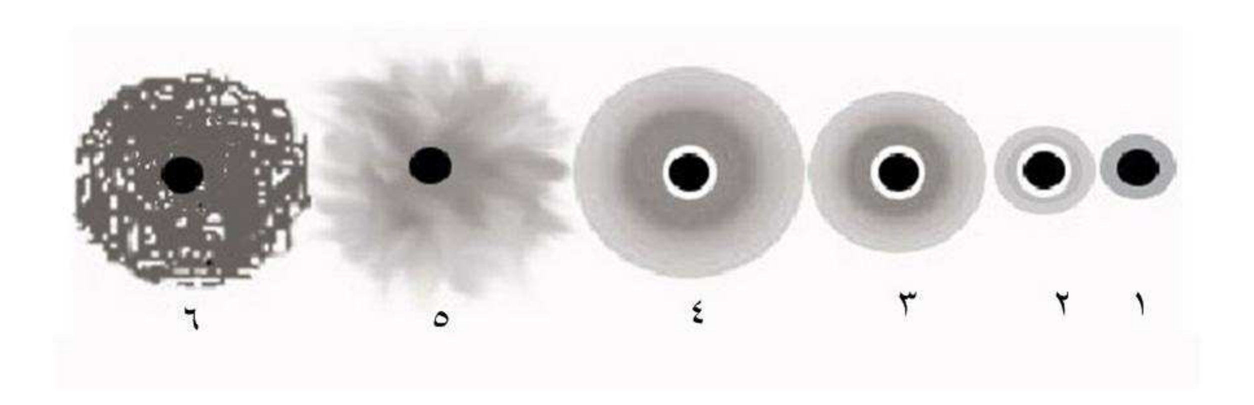
لـــــوحـــــة تــطـــــور الحـــــياة

وصل العلماء الى ان اصل الخلق فى الانسان والحيوان والنبات واحد من متابعتهم لسلالم التطور 1، 2 و 3 التى انتهت الى خلية واحدة، فظنوا ان التطور تم بصورة تلقائية، وبالتالي خلص الملحدون منهم الى انه لا يجود اله! ولكن بالنظر الى هذه اللوحة القرآنية نجد ان متابعة سلم تطور الانعام رقم 4 لا يؤدي الى نفس الاصل لانها منزلة، وبالتالي يصبح آذان الانعام الذى توعد ابليس ان يزيله هو المفتاح الذى يؤكد مفهوم التطور فى الارض، ولكنه يثبت ان الله هو خالق الازواج كلها:{ سُبْحَانَ الذى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} 36 يسن!

لوحـة إ نحدار البـشر



لوحـة إتسـاع الـكـون منذ فـتق السموات عن الارض الى الانـفـجار الكونــي العظـيم



1-2. عند بدء الخلق: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...} 30 الانبياء!

3. اكتمال خلق السموات السبع:{هُوَ الذى خَلَقَ لَكُمْ مَا فى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى **إِلَى** السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 29 البقرة**!**

4. ظل الكون فى حالة انتفاخ مستمر" {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} 47 الذاريات.

5. ازدياد الانتفاخ بصورة مذهلة تؤدى الى انفجار الكون وقيام الساعة: {وَنُفِخَ فى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فى السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ...... } 68 الزمر، وبالتالي سقوط السماوات على الارض وتشرح كل اوصاف قيام الساعة المرعبة.

6. النفخة الثانية ليوم القيامة : { ....ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} " ، وحينها لن تكون السموات والارض التى نعرفها { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ }48 ابراهيم. ولن يكون القانون الذى يحكم الكون الا قبضة الله المباشرة التى تعلو على العرش { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } 67 الزمر.

المراجع

القرآن الكريم

المعجم المفهرس لالفاظ القرآن: محمد فؤاد عبد الباقي

تفسير ابن كثير

تفسير الطبري

تفسير القرطبي

تفسير فتح القدير

تفسير الجلالين

تفسير البغوي

فى ظلال القرآن: سيد قطب

فتح الباري فى شرح صحيح البخاري

صحيح مسلم

سيرة ابن هشام

البداية والنهاية: الحافظ ابن كثير

جلاء الافهام: ابن القيم الجوزية

قصص الانبياء: ابن كثير

معجم مقاييس اللغة : احمد بن فارس بن زكريا الرازي

معجم لسان العرب

الحج: مسيرة الإنسان الأول من جنة عرفات الى بيته المحرم:

مهندس: علاء الدين محمد بابكر حسن

الكتاب والقرآن " بتصرف": د. مهندس محمد شحرور

كيفية الحج والعمرة: عبده غالب احمد عيسى

أدم عليه السلام: خلق ام تطور ام ميلاد: مهندس سامي صالح محمد

مقالات د. زغلول النجار

http://www.elnaggarzr.com

كتاب الحياة: عربي \ انجليزي

New International version 1998

توراة اليهود :

TANAKH The Holly Scriptures JPS 1985

تفسير التوراة:

The Soncino Chumash: Exposition of the five books of Moses with Haphtaroth, based on the classical Jewish commentaries. Edited by the Rev. Dr. A. Cohen 1962

مختصر الاديان العالمية:

Looking for God: Steven Sadler

مجلة الطبيعة الانجليزية:

NATURE

الخلق والتطور:

Creation and/or Evolution by: T O Shanavas

كتا شارلس داروين:

1- The Origin of Species by means of natural selection

2- The Descent of man

الفـــــهــرس

****